

الكتاب الأندلسي

١

خوان ڤيرنيت

فضل الأندلس على ثقافة الغرب

نقله عن الإسبانية
نهاد رضا

قدم له ووضع حواشيه
فاضل السّباعي

إشبيلية

إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق ، سورية
✉ 4363
فاكس 50 50 332

فضل الأندلس على ثقافة الغرب / تأليف خوان فيرنيت ،
نقله عن الإسبانيّة نهاد رضا ، قدّم له ووضع حواشيه فاضل السباعي . ـ
دمشق : دار إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع ، ١٩٩٧ . ـ
٦٠٠ ص (32 + ٥٦٨) ؛ ٢٤ سم .

١ ـ ٣٠٣,٤ ف ي ر ف ٢ـ ٩٥٦,٠٧١ ف ي ر ف
٣ ـ العنوان ٤ ـ فيرنيت ٥ ـ رضا ٦ ـ السباعي

مكتبة الأسد الوطنيّة

الإيداع القانوني : ع ـ ٧٧٤ ـ ١٩٩٧/٥

إشبيلية ، إصدار ٩ (ط ١) ـ ١٢٠٠ ـ ١٩٩٧/٦

الطبعة الأولى

حزيران (يونيو) ١٩٩٧

الكتاب الأندلسي

سلسلة غير موقوتة تُعنى بنشر:

- النصوص الأندلسيّة القديمة محقّقةً تحقيقًا علميًّا،
- الكتب المؤلّفة حديثًا في الشؤون الأندلسيّة،
- وتلك التي ألّفها المستشرقون حول الأندلس.

العنوان الأصلي للكتاب باللغة الإسبانيّة:

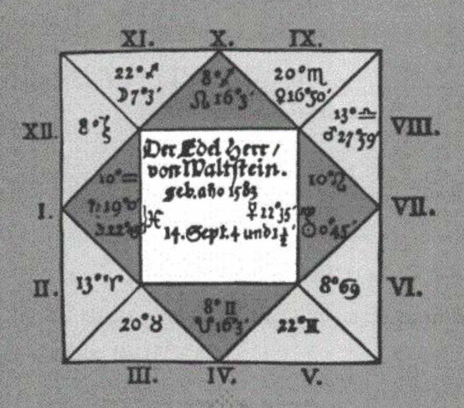
Juan Vernet

La cultura hispanoárabe
en Oriente y Occidente

(الثقافة الإسبانيّة ـ العربيّة في الشرق والغرب)

تُرجم الكتاب بمنحةٍ من
المديرية العامة للكتاب والمحفوظات والمكتبات
في وزارة الثقافة بإسبانيا

ARIEL HISTORIA



Juan Vernet La cultura hispanoárabe en Oriente y Occidente

Estudio sobre *quiénes* tradujeron los tratados científicos de la Antigüedad al árabe; *cómo* éstos fueron conocidos por los musulmanes españoles, que se basaron en ellos para escribir sus propias obras en las que con frecuencia acrecentaron el legado recibido, y *por qué* los estudiosos europeos de la Alta Edad Media acudieron a España para iniciarse en esas nuevas ciencias.

مؤلف الكتاب

في سطور

• وُلِد خوان ڤيرنيت خينِس **Juan Vernet Ginés** في برشلونة العام ١٩٢٣.

• درس في كليّة الفلسفة والآداب بجامعة برشلونة، ونال الدكتوراه، العام ١٩٤٨، بأطروحته حول عالِم الفلك المغربي ابن البنّاء.

• في ١٩٥٤ شَغَل كرسي الأُستاذيّة بجامعة برشلونة.

• أنجز ترجمتَين لمعاني القرآن الكريم إلى الإسبانيّة (١٩٥٢ و١٩٦٣).

• في ١٩٦٤ ترجم إلى الإسبانيّة حكايات "ألف ليلة وليلة" كاملةً.

• نَشر، وهو المتخصّص بتاريخ العلوم العربيّة ـ الإسبانيّة [أي الأندلسيّة]، حوالى ثلاثين كتابًا، لعلّ أبرزها "الثقافة الإسبانيّة ـ العربيّة [الأندلسيّة] في الشرق والغرب" ١٩٧٨ (الكتاب الذي بين أيدينا). وقد تُرجم إلى الألمانيّة والفرنسيّة.

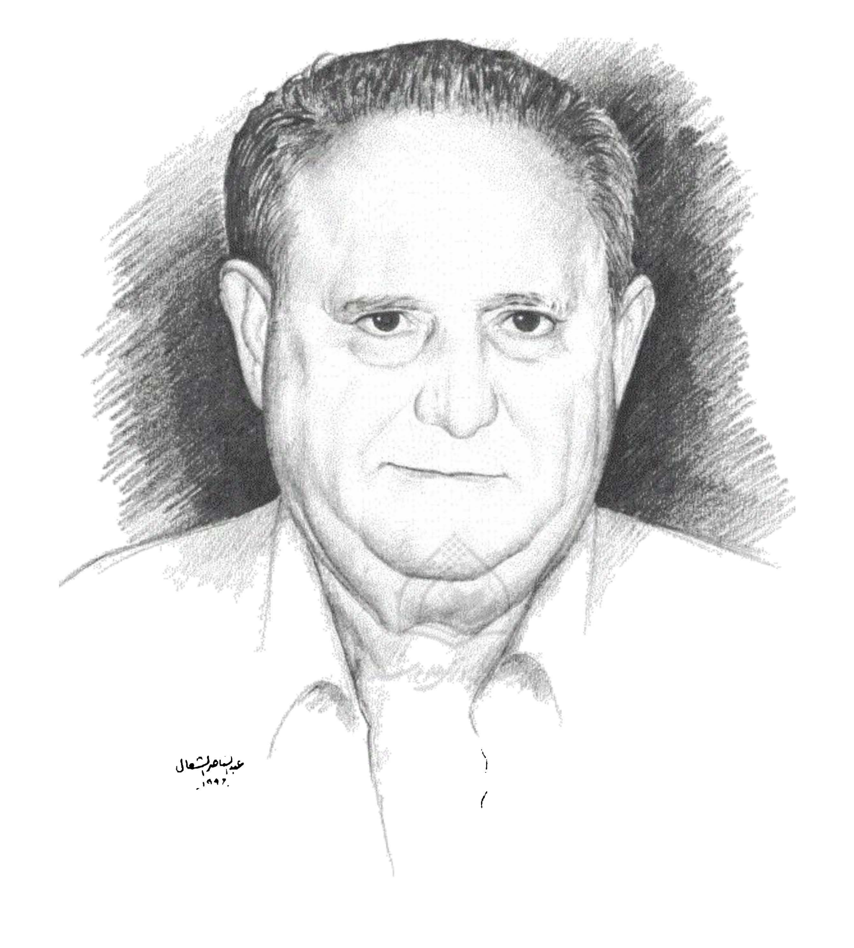
• نَشر عددًا من المقالات باللغة العربيّة.

• حرّر فصل "تاريخ العلوم الدقيقة عند المسلمين"، المُدرج في كتاب "تراث الإسلام" الصادر عن جامعة أُكسفورد.

• عضوٌ في عددٍ من الأكاديميّات الإسبانيّة والعربيّة والدوليّة.

• مُنح عددًا من الأوسمة في إسبانيا والعالم.

• يُنظر إليه على أنه هو الذي رَسّخ أُسُسَ دراسة تاريخ العلوم العربيّة في الجامعة المركزيّة ببرشلونة.



البروفسور خوان ڤيرنيت

بريشة الفنان عبد الناصر الشعال

● من مقولاته أنّ الكون، عند بعض العلماء العرب، تبلغ أبعادُه عدّةَ سنين ضوئيّة*.

● تكريمًا له، بصفته مؤسّس مدرسة برشلونة لمؤرّخي علم فلك القرون الوسطى، وبمناسبة بلوغه سنّ السبعين [ذلك في العام ١٩٩٣]، قام أصدقاؤه ومريدوه بجمع البحوث التي قُدّمت في الندوة التي عُقدت في سرقسطة ١٩٩٣ حول "انتقال أفكار علميّة، في ميدان العلوم الدقيقة، بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه، في القرون الوسطى" (في إطار "المؤتمر الدولي التاسع عشر لتاريخ العلوم")، فطُبعت ـ هذه البحوث ـ في مجلّدين، صدرا عن جامعة برشلونة ١٩٩٦، بعنوان *"De Bagdad A Barcelona"* (من بغداد إلى برشلونة)**.

● اقتبسنا هذه المعلومات الأساسيّة المتعلّقة بسيرته العلميّة، من:
Enciclopedia Espasa, **Supl., Madrid: 1983-84.**

وأُضيف أنه في حديثٍ بيني وبين الشابّين "قُتيبة" وشقيقته "حَسّانة" مَرْدَم بك بدمشق، وأنا أكتب مقدّمة الكتاب، أخبرني الشقيقان أنهما وقعا ـ في أوراقٍ بيبليوغرافيا كان يُعِدّها والدُهما الشاعر الراحل عدنان مردم بك (١٩١٧ـ١٩٨٨) ـ على ملاحظةٍ، ذُيّلتْ بها إحدى مسرحيّاته الشعريّة ("مصرع غرناطة"، بيروت ١٩٧٣)، تقول: «ترجَم البروفسّور ڤيرنيت عام ١٩٧٥ فصولًا منها، وقام بدراسةٍ عنها»، دون أن يتوفّر لهما نصُّ هذه الدراسة.

وحكى لي قُتيبة أنّ البروفسّور ڤيرنيت شارك في أحد مؤتمرات "السّمات الإنسانيّة لبلاد الشام" (التي كانت تُعقَد، في أواسط الثمانينات، في البيمارستان النُّوري بدمشق سنويًّا، برعاية وزارة الثقافة)، وأنه زارهم (١٩٨٦) في بيتهم ـ المجاور للبيمارستان النوري ـ ذي الطِّراز المعماريّ العربي، وأبدى إعجابه بطراز بنائه، وعَقَد مشابهةً بين أمثال هذا البيت وبين نظائره التي كانت في الأندلس... [الناشر]

●● من مقدّمة كتاب "من بغداد إلى برشلونة"، ١١ و١٢.

وأحبّ أن أبيّن أنّ من بين تلاميذه، المتخرّجين على يديه، اللذين اشتمل المجلّدان على بحوثٍ لهم، تعرّفت على ثلاثة أساتذةٍ باحثين، في جامعة حلب (في المؤتمر السنوي الثامن عشر لتاريخ العلوم عند العرب، تشرين الأوّل ١٩٩٥)، وفي رأس الخيمة، دولة الإمارات العربيّة المتحدة (الندوة العالميّة السادسة لتاريخ العلوم عند العرب، كانون الأوّل ١٩٩٦)، وهم: مِرْسِيه كوميس **Mercè COMES** وإميليا كالڤو **Emilia CALVO** وميكيل فوركادة **Miquel FORCADA**... [الناشر]

في الأندلس... تمازجت الدماء، واختلطت الأعراق، فكانت "الأمةُ الأندلسيةُ" مبدعةُ تلك الحضارة.

ثم تفرّق، بعد ثمانية قُرون، الأندلسيون:

فريقٌ - بما فيهم من الدماء العربية والبربرية - بَقُوا في الأندلس، التي كفَّتْ عن أن تكون إسلامية، وانساحوا في سائر أنحاء شبه الجزيرة الإيبيرية، ومن بعدُ في أمريكا الجنوبية،

وفريقٌ - بما حملوا من دماءٍ إسبانية - جَلَوْا إلى المغرب، وانساحوا كذلك في أقطارٍ عربية وإسلامية أخرى،

فألّفوا جميعًا - لو عَلِموا - أجملَ "منظومةِ دم" في تاريخ البشرية.

... فإلى هذه الأقوام، التي تمازجت فيها الدماء وتلاقحت الأفكار:

نُهدي هذا الكتاب،

وكلَّ ما يصدر في سلسلة الكتاب الأندلسي: من أعمالٍ أبدعتْها تلك العقولُ النيِّرة، ومن مؤلَّفاتٍ تدور حول ذلك الإبداع.

دار إشبيلية

مقدمة الناشر

يلاحظ قارئ التاريخ العربيّ، أنّ الأندلس تأخذ حيّزًا غير صغير من مساحة التاريخ الإسلامي، بما أجترَحَه الأجدادُ من المغامرة الفائقة في فتحهم لهذا القطر البعيد، ثمّ بما شيّدوه فيه من الحضارة الرائعة. وأخيرًا بما خلّفه ضياعُه في النّفْس العربيّة من نُدُوبٍ، لا تزال تُثير ألمًا كلّما قرأنا حكاية هذه الحضارة، التي وَضَع أُولىٰ لَبِناتها الفاتحُ المغربيّ طارق بن زياد، وأسهم في تأسيسها الأميرُ الساري من الشام تحت جُنح الظلام عبدُ الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، وأختتمها أمراء غَرناطة من بني الأحمر، وتُثير فينا كذلك، مع الألم، الحنينَ والفخار، كلّما ألمّ الطّرْف بمرأىٰ الجامع الكبير في قرطبة، أو قصر السفراء في إشبيلية، أو جَنّات الحمراء الرابضة علىٰ مشارف غرناطة، أو ورد في الخاطر شعرٌ لأبن زيدون أو للمعتمِد بن عبّاد أو لأبن عمّار، المجتمِعِين في عصرٍ واحد، أو تردّد في السمع رَجْعُ صدًىٰ لغناء ذلك العندليب الأسمر القادم من بغداد، زِرياب... وسواهم من المبدعين، قبلهم وبعدهم، علىٰ أمتداد العصر الأندلسيّ، الذي ظلّ يُورِق ويُزهِر طَوال ثمانية قرون من عمر الزمان...

وإنّنا نعتقد، عربَ اليوم، أنهم كانوا أجدادَنا، أولٰئك الذين أنتجوا تلك الحضارة، بكلّ ما عَبَق في أجوائها من أريج الأدب ورفيع الفكر وباذخ الفنّ. ذلك حقٌّ لا مِراء فيه؛ فالفاتحون أهلونا، واللسان لساننا، والعقيدة التي سادت عقيدتنا، التي صَدَع بها النبيّ العربي ﷺ في حينٍ من الدهر، فإذا كلمةُ "الله أكبر" ترتفع، بعد أقلّ من مئة عام، من علىٰ المآذن في شبه الجزيرة الإيبيريّة، وتُتلىٰ آيات الله في المساجد، وتَعُمّ الثقافة الإسلاميّة بَلاطَ الحاكمين، مثلما تغلغلت في خلايا المجتمع، حواضرَ وثغورًا وأريافًا... وإذا الأُمّةُ، هناك يستغرقها الإسلامُ، عقيدةً، وثقافةً، وفلسفةَ حياة.

وإذا كان الأندلسيّون قد آستمدُّوا من المشرق، أوّلَ أمرهم، العقيدة، ثمّ أخذوا يتأثرون خُطىٰ المشرق فيما أبدعته القرائح فيه من ثمرات الفكر والأدب، فإنّ المجتمع الأندلسيّ لم يلبث أن تلمّس طريقه ليستكمل إبداع الحضارة في قطره، فألّف رجاله الكُتب وصنّفوا المُدَوَّنات... ويبدو أنهم كانوا كلّما آنتابهم الإحساسُ بالخطر، تَهُبّ عليهم رياحُه من حدود الشّمال، أكبّوا علىٰ التأليف والتدوين والتصنيف، يُملي عليهم ذٰلك تأكيدُ الذات وحبّ البقاء*. وقد كان غزيرًا ومتنوّعًا، ذٰلك التراث المكتوب، الذي تركوه بعد كلّ ما ضاع منه عند تساقُط الحواضر الأندلسيّة واحدةً بعد أخرىٰ**.

هذه الحضارة... لمن؟:

غابت الأندلس بلدًا عربيًّا إسلاميًّا. وأمّا الحضارة فيها، فقد عَمَد الغالبون ـ الذين أخذتْهم نشوةُ النصر ـ إلىٰ إعمال يد الهدم في غير قليلٍ من معالمها... حتّىٰ إذا "طهّروا" البلاد من "أولٰئك الغُزاة" ـ الذين عَقَدوا علىٰ جِيدها قلائدَ الآداب والفنون والعلوم ـ وهَدَأَ جَيَشانُ النفس، وفَتَرت عوامل الآنتقام، وتقضّت علىٰ ذٰلك مئةٌ من السنين، ثمّ مئةٌ ثانية وثالثة، فَطِن "المُستردُّون بلادَهم" إلىٰ أنّ الحضارة، التي بقيت لهم منها أوابدُ ناطقة، جديرةٌ بأن "يتبنَّوْها"!.. قالوا: هٰذه حضارة أسلافنا الإسبان، فالعقول التي دبّرت، والأيدي التي مَهَرَت، والأجيال التي تابعت التدبير والإنجاز، كانت كلُّها إسبانيّةً لحمًا ودما، وكان من قبيل المصادفة ـ قالوا ـ أنّ أولٰئك البُناة دانوا بالإسلام ونطقوا بالعربيّة***!!

* من مظاهر ذٰلك أنّ آبن بسّام (توفّي ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م)، النازح من غربيّ الأندلس، من بلدته شَنْتَرين (Santarém في البرتغال اليوم) التي كانت قد سقطت لتوّها في أيدي المسيحيّين، صنّف، وهو في قرطبة موطنه الجديد، موسوعته "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، وفيها روىٰ، في ثمانية مجلّدات، حكاية الإبداع الذي سطّره شعراء جزيرة الأندلس في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).

** أُحرِقت، في ساحات غَرناطة غداة سقوطها (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م)، مئة ألف مخطوطة، وفقًا لأدقّ التقديرات في الرواية اللاتينيّة..

*** يصف الكاتب الإسباني سانشيث البُرنوث Sanchez ALBORNOZ، في دراسته ←

وهكذا، بعد أن نازَعَ إسبانُ الأمس أجدادَنا أرضَ الأندلس، بدا أنّ إسبان اليوم يُنازعوننا، نحن عربَ القرن العشرين، حضارتَها: بُنُوّتَها، أو أُبُوّتَها!

إنّا نقول، في هٰذا، كلمةً: إنْ كان "الدمُ الإسبانيُّ*"، الذي اُغتَذَت منه عروقُ الأندلسيّين (ولم يكن بطبيعة الحال إسبانيًّا خالصا)، هو العنصر الفاعل في بناء صُروح هٰذه الحضارة... فلِمَ لم يتأتَّ، لهٰذا الدم الإسبانيّ نفسه، أن يفعل، أن يبني، حضارةً مماثلة في الجانب الآخر من شبه الجزيرة الإيبيريّة، وقد كانت الرقعة المسيحيّة تتّسع شيئًا فشيئا، وتظلّ مع ذٰلك قاصرةً عن أن تُقيم حضارةً، على حين كانت الرقعة الأندلسيّة، التي تضيق باُستمرار، تُنتج وتُبدع، وآخرُ آياتها قصر الحمراء•؟!

على أننا لا نريد أن نظنّ أنّ الإسبان المعاصرين يُنازعوننا بُنُوّة الحضارة الأندلسيّة... بل نقول إنهم يُشاركوننا الاُعتزاز بها.

فصحيحٌ أنه كان بين الأندلسيّين كثيرٌ، وكثيرٌ جدًّا، من أبناء البلاد الأصليّين، الذين اُعتنقوا الإسلام••، وهٰؤلاء تناسلوا، في ظلّ دولة الإسلام، وتربّوا على قِيَمه وتشبّعوا من ثقافته، وكانت منهم الغالبيّة من الأمّة ومن الجُند المدافعين عن الأندلس في تلك الحروب العنيدة، وهٰؤلاء جميعًا أسهموا في إبداع حضارة البلاد ـ وهي حضارةٌ إسلاميّة ـ على نحو ما أسهم أهلُ البلاد المفتوحة في كلّ مكان خَفَقَت فيه راية الإسلام، دمشق وبغداد والفسطاط والقيروان، مثلاً... نقول: إنّ "الفتح" لم يكن قطّ عربيًّا عنصريًا (وإلّا كان "غَزوًا" يَكتب بيده نهايته)، بل كان "عقائديًّا" إسلاميًّا وحضاريًّا إنسانيًا.

أجل، غابت الأندلس بلدًا عربيًّا إسلاميًا.

← "اُبن حزم قمّةٌ إسبانيّة"، فقيهَ الأندلس وأديبها الكبير، أبا محمد عليّ بن حزم، بـ"الإسبانيّ المستعرب"! و"حفيد الإيبيريّين القُدامى"!... اُنظر: الدكتور الطاهر أحمد مكّي: "دراسات عن اُبن حزم وطوق الحمامة"، ط ٣ (القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٨١)، صص ١٣٩ـ١٨٢.

• ممّا يقوله البروفسور فيرنيت، في كتابنا هٰذا: أنه لا جدال في «أنّ الإسبان [يقصد الأندلسيّين] إذا كانوا قد اُستطاعوا إبداع ثقافةٍ علميّةٍ رفيعة المستوى، خلال العهد الإسلامي، فليس هناك أيُّ سببٍ "عِرقيٍّ" يُتذرَّع به لتعليل الإخفاق الذي نُعاني منه في العهد الحديث والمعاصر»: ٣٧.

•• نقول: كان "الفتح" يتمّ على الغالب صلحا، وكان اُعتناق الإسلام يأتي طواعيةً وبالتدريج .

وغَيَّبِها ـ بهذه الصفة أيضًا ـ الإسبانُ أنفسهم، قُرونًا نُقدّرها ثلاثة، وذلك قبل أن يفطنوا إلىٰ أنّ نِتاج الحضارة الأندلسيّة أهلٌ لأن يُستثمر كلُّه، ليس تلك الصُّروح الشامخة، التي يبدو أنها باقيةٌ أبدَ الدهر، جامع قرطبة وكلّ ما يُضاهيه روعةً، ولكن أيضًا ذلك التراث المكتوب المُودَع مكتبةَ الإسكوريال؛ فإن كانت الكتب الدينيّة ممّا أُتلِف وأُحرِق، فإنه ما يزال باقيًا كثيرٌ من مخطوطاتِ الأدب والتاريخ والعلوم في هذه المكتبة وفي كثيرٍ من المكتبات العربيّة والعالميّة.

ونَشَط الاَستشراق الإسباني، منذ مطلع القرن التاسع عشر، وظهرت، في ذلك، الأندلسُ، لأوائل المستشرقين الإسبان، "اكتشافًا"، كما يقول عالمُ الأندلسيّات الدكتور محمود علي مكّي*... فأقبلوا، جيلاً بعد جيل، علىٰ ما بين أيديهم من التراث الأندلسيّ، يدرسونه، ويُقوّمونه، مُقَدِّرين ما ينطوي عليه من الإبداع والمعارف والعلوم**.

وكان، أوّلَ أجيال المستشرقين المهتمّين بهذا التراث الباذلين فيه جهودهم الخيّرة، **كونديه** CONDE (خوسيه أنطونيو كونديه، ١٧٦٥ـ١٨٢٠)، الذي كتب عن التاريخ الأندلسي ما اتّسم بالإنصاف، وبعده **گايانگوس** GAYANGOS (پاسكوال دي گايانگوس، ١٨٠٩ـ١٨٧٩)، الذي يُنسب إليه فضل إنشاء مدرسةٍ للأبحاث الأندلسيّة في إسبانيا، ثمّ **كوديرا** CODERA (فرانثيسكو كوديرا إي ثايدين، ١٨٣٦ـ١٩١٧)، مؤسّس ما سُمّي بالمدرسة الحديثة في الاَستشراق الإسباني في القرن العشرين، والأب **پَلَاثْيوس** PALACIOS (ميگيل أسين إي پَلَاثْيوس، ١٨٧١ـ١٩٤٤)، هذا الذي كشف عن عُمقِ تأثُّر

* حواره، "الإسبان لا يُنكِرون فضل العرب علىٰ الثقافة الأوربيّة"، مجلة "الفيصل" (الرياض، دار الفيصل الثقافيّة)، في حلقتين، العدد ٢٣١ (رمضان ١٤١٦هـ/ يناير ١٩٩٦م) صص ٥١ـ٥٤، والعدد ٢٣٢ (شوّال/ فبراير) صص ٥١ـ٥٥، أجرىٰ الحوار الدكتور خالد سالم.

** في تنبّههم للتراث الأندلسي، وجد بعض علمائهم ومستشرقيهم، في "كتاب الفِلَاحة" (الذي ألّفه الأندلسي ابن العوّام الإشبيلي، في القرن السادس الهجري/ ١٢م) فائدةً علميّة وعمليّة تجتنيها الأجيال الإسبانيّة المعاصرة، فأنجزوا ترجمة هذا الكتاب العربيّ إلىٰ الإسبانيّة، وطُبع في مجلّدين، باللغتين العربيّة والإسبانيّة معًا، العام ١٨٠٢، وبذلك ـ يقول البروفسّور خوان ڤيرنيت في الفصل الأوّل من كتابه هذا ـ «تمّ وضعه [أي الكتاب] في مُتناول مُلّاك الأراضي الإسبان ليُتاح لهم اَستثمار مزارعهم علىٰ نحو أرشد.» ص ٦٩.

شاعر إيطاليا الكبير دانتي أليگييري، في ملحمته ذائعة الصيت "الكوميديا الإلهيّة"، بقصص الإسراء والمعراج الإسلاميّة، التي كانت قد تُرجمت إلى الإسبانيّة في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، فكان لكتاب پلاثيوس في هذه القضيّة أصداء عالميّة*!

ولأنهم عَدُّوا المخطوطات الأندلسيّة تراثًا لهم، فقد أخذوا في ترجمة بعضها إلى الإسبانيّة، كي تسهل عليهم العودة إليها، ودراستُها، والاستفادة من مادّتها الغزيرة، الأدبيّة والعلميّة. وهكذا بدا كوديرا، في أواخر القرن التاسع عشر، متفانيًا في ترجمة بعض أُمّهات المصادر الأندلسيّة، تحت عنوان "المكتبة العربيّة ـ الإسبانيّة [الأندلسيّة]"، إلى لغة بلاده، يُساعده في هذا المشروع الطّموح زملاءُ له، وتلاميذه من دارسي العربيّة، ومن هنا صحّ أن تُنسب إليه مدرسة الاستشراق الإسباني الحديثة**.

وقد ظلّ نظيرُ هذا المشروع الجليل يُراود أذهان الإسبان... وها هم أولاء، اليوم، يستأنفون العمل فيه تحت عنوان: *Fuentes Arábica-Hispañas* ("المصادر العربيّة ـ

* بدا أنّ "الازدواجيّة"، التي يُعاني منها المستشرق أو المستعرب، عندما يهُمّ بالتعرُّف على حضارةٍ غير حضارة بلاده، محاولًا أن يتقمّصها ويستوعب ثقافتها، هي أخفّ وطأةً عند المستعربين الإسبان... ويُفسّر المستشرق الإسباني المعاصر پيدرو مارتينيث مونتابِث **Pedro Martinez MONTAVEZ**، رئيس جامعة مدريد المستقلّة، في لقاء له مع عددٍ من الكُتّاب السوريّين، في أثناء زيارته دمشق ١٩٨١، بقوله:

«بالنسبة للمستعربين الإسبان قد يكون الموضوع أسهل نسبيًا، لأنّ الحضارة العربيّة كانت موجودةً في إسبانيا، وجزءٌ من التاريخ الإسباني قد يكون تاريخًا مشتركا، ومن الممكن أن نقول إنّ رصيدًا لا بأس به من العادات والتقاليد [مازال سائدًا بيننا]، حتى المعاملة الشخصيّة، ورؤية العالم، ورؤية العلاقات الإنسانيّة بين المجتمعات... فإسبانيا ما زالت، حتى الآن، مصبوغةً بهذه التخصُّصات، وبهذه الصفات العربيّة الإنسانيّة...».

مجلّة "الموقف الأدبي" (دمشق، اتّحاد الكُتّاب العرب)، "مع المستشرق الإسباني پيدرو مارتينيث مونتابث" (صص ٩٥ـ١١٧)، العدد ١٢٢ (حزيران/ يونيو ١٩٨١)، ٩٧.

** أصدر، بين ١٨٨٢ـ١٨٩٣، ثمانية كتب (في عشرة مجلّدات)، تولّى ترجمتها بنفسه، وساعده في ترجمة أحدها تلميذه وصديقه خوليان ريبيرا **Julian RIBERA** (١٨٥٨ـ١٩٣٤)، وهي من تآليف الأندلسيّين: ابن الفَرَضي (ت ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م)، وابن بَشْكُوال (٥٧٨هـ/ ١١٨٣م)، والضّبّي (٥٥٩هـ/ ١٢٠٣م)، وابن الأبّار (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)... ←

الإسبانيّة"، وعزَوها إلى: "المصادر الأندلسيّة")، ويُصدرون في هٰذه السلسلة كتبًا لا تزال تتوالى، يُحقّقها المستشرقون الأساتذة والمتخرّجون من تلاميذهم*.

← وتذكر المراجع الإسبانيّة أنّ كوديرا كان يستعين بتلاميذه في بيته، ويدفع لهم أجورهم من مرتّبه المتواضع. وأمّا حبّه للعرب والعربيّة، فالدليل عليه أنه عرّب اسمه فجعله "الشيخ فرنشيسكه قَدارة زيدين"!

أقول، إنه حنين "الشيخ زيدين" إلى "الأصل" الغامض!

وعندنا، نحن العربَ، مثلُ حنينه، إلى "الأهل" الذين أُرغِموا، هناك، على ما أُرغموا عليه، فكان أن توقّف زمن الحضارة المبدِعة في شبه الجزيرة الإيبيريّة!

ذات يوم، من ربيع ١٩٨٩، وأنا في مدينة طرطوس أُشارك في المؤتمر السنوي الثاني عاشر لتاريخ العلوم عند العرب، قلت للمستعرِبَين الإسبانيّين الشابّين، أندالِثيو لوثانو كامارا **Indalecio Lozano Camara** وزوجته ماريّة أنخليس ناڤارّو **María Angeles Navarro** ـ من المشاركين في هٰذا المؤتمر ـ ونحن في "عَبّارةٍ" تطوف بنا حول "جزيرة أرواد"... قلت بحزنٍ قد اختزنته مئاتٌ من السنين: «طيِّب، ما ضَرَّ لو أنّ الملكَين الكاثوليكيّين، فرديناند وإيزابيلا، المنتصرَين على غرناطة، تركا المسلمين أقلّيّةً تعيش بينهم في أمان، تُسهم ـ بثقافتها وعراقتها ـ في بناء الدولة الجديدة، إسبانيا؟ وذلك ما فعله الفاتحون العرب يوم دخلوا البلاد، فلم يُرغموا أهلها على تغيير دينهم، وتركوا لهم لغتهم، وأُسقُفَهم الذي يَعقد زيجاتهم، وقاضيَهم الذي يَفضّ منازعاتهم؟.....»!

حنينٌ عند "الشيخ زيدين"، وحزنٌ متراكم عند مَن هم في مثل حالي.

ولٰكنّي عرفت شيئًا آخر عند المستعربة إلُويزة ليافيرو رويث **Eloiza Llavero Ruiz**، القادمة من جامعة لاس بالماس إلى سوريّة في خريف ١٩٩١، لتُشارك في المؤتمر الرابع عشر لتاريخ العلوم عند العرب بمدينة الرقّة. لقد أكرمتْني بأن نزلت ضيفةً عندنا بدمشق. وقد صَحِبَتْها أسرتي، بدمشق وحلب، في جولاتٍ على معالم المدينتَين، فكانت هٰذه السيدة، المعنيّة بالتاريخ، تُعبِّر عن إعجابها بهٰذا الذي ترى بما تملك من مفردات عربيّة. وأمّا حين أطلّتْ من قمّة قاسيون، في ليلةٍ رَقّ نسيمُها، على دمشق الراقلة بلألائها وجلالها، فإنّ لسانها نطق بعربيّةٍ صافية: «هٰذا أسعد يوم في حياتي!»، ثمّ انتابتْها حالةٌ من الوجد، فكفّت عن التعبير بالعربيّة، وأخذت تتمتم بلغتها كلامًا لمْ يفهمه أحدٌ ممّن حولها: هل تذكّرتْ، هٰذه الإسبانيّةُ المثقّفة، مدينتَها غَرناطة؟ أم أنها تجلّت لها، في الشام المستلقية تحت بصرها، الأندلسُ، أندلُسها التي غَبَرتْ، فهزّها وجدٌ وحنين؟!

* تتعاون، في هٰذا المشروع الكبير، مؤسساتٌ إسبانيّة عدّة، منها: المجلس الأعلى للأبحاث العلميّة، ومعهد التعاون مع العالم العربي، والوكالة الإسبانيّة للتعاون الدولي، ومعهد ميّاس فاليكروزه... وقد تلقّيتُ ـ من الوكالة الإسبانيّة المذكورة ـ عددًا من هٰذه "المصادر" التي تحمل أرقامًا متسلسلة (لا يتّفق تسلسلها بالضرورة وتواريخَ صدورها)، هي: ←

"الكتاب الأندلسي":

لقد كان اهتمام المشارقة بالأندلس حاضرًا، على طول التاريخ العربي، يُضارع في ذلك اهتمامَ الأقطار العربيّة بعضها ببعض. ولكن بدا أنّ غروب شمس الإسلام من سماء الأندلس أدّى إلى غياب الأندلس من ساحة اهتمام المشارقة والعرب* ، وعادت الأندلس لا تعدو الذكرى تومض في النفس فتبعث الحسرات والزفرات.

فلمّا كان القرن العشرون قُدِّر لشاعرٍ عربيّ كبير، هو أحمد شوقي، أن يقضي شطرًا من حياته في إسبانيا منفيًّا (١٩١٤ـ١٩١٩)، فجعل هناك يستروح أنسام الحضارة التليدة، ويستذكر المجد الغابر، ويتغنّى في ذلك بقصائد توقظ الوجدان وتستثير النفوس.

وما لبث أن ظهر، في مصر، أوّلُ باحثٍ يرود تاريخ الأندلس طولًا وعرضًا وعُمقًا، هو محمد عبد الله عنان، ويؤرّخ (ابتداءً من العام ١٩٣٦) لعصورها المتوالية في موسوعةٍ غنيّة، كان أوّل أسفارها "دولة الإسلام في الأندلس، من الفتح إلى بداية عهد الناصر"،

← الكتاب الرقم ٤، "كتاب الأغذية"، لأبي مروان عبد الملك بن زُهْر، ١٩٩٢،

الرقم ٧، "الأندلس، في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار"، للرُّشاطي ولابن الخرّاط الإشبيلي، ١٩٩٠،

الرقم ٨، "كتاب المستغيثين بالله تعالى عند المهمّات والحاجات"، لابن بَشْكُوال، ١٩٩١،

الرقم ١٥، "كتاب الأنواء والأزمنة، القول في الشهور"، لابن عاصم، ١٩٩٣،

الرقم ١٧: "كتاب المُجَرَّبات"، لأبي العلاء زُهْر، ١٩٩٠،

الرقم ١٩، "كتاب القُربة إلى ربّ العالمين بالصلاة على محمد سيّد المرسلين"، لابن بَشْكُوال، ١٩٩٥،

الرقم ٣١: "رسالة الصفيحة الجامعة لجميع العُروض"، لابن باصه، ١٩٩٣.

وغنيّ عن البيان أنّ هنالك كتبًا كثيرة غيرها تصدر، في إسبانيا، خارج نطاق هذه السلسلة.

* قد نستثني المقّري التلمساني، في تصنيفه كتابه الممتع "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، الذي ألّفه بعد زيارته لدمشق وفي أثناء إقامته بالقاهرة (في المدّة من ١٠٣٧ـ٣٩هـ/ ١٦٢٨ـ٣٠م).

ولا نقول أَنتهىٰ منها في كتابه "نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصّرين"، لأنه تجاوز التأريخ لعصور الأندلس المتوالية بأن زاد عليه عناوين إضافيّة.

وعندما تولّىٰ طٰه حسين وزارة المعارف في مصر، قرّر أن تَفْتَتح وزارتُه، في العام ١٩٥٠، في العاصمة الإسبانيّة، ما سُمّي "المعهد المصري للدراسات الإسلاميّة"، وأوفد في ذلك طلّابًا إلىٰ مدريد، ليدرسوا ويطّلعوا علىٰ مصادر ومراجع ما كانت لتتوافر لهم وهم في وطنهم، فاَنفسحت بذٰلك أمامهم الآفاق للاَطّلاع علىٰ ما كانت خَطّته أيدي المستشرقين الإسبان خلال عشرات السنين التي تولّت.

وتزايد اَهتمام الأجيال العربيّة الجديدة بالأندلس، تاريخًا وأدبًا وتاريخ علوم•. فصدرت بالقاهرة، ما بين ١٩٥١ـ٥٦، سلسلةٌ من المصادر التاريخيّة بعنوان "من التراث الأندلسي"، وقد أُعيد إصدارها، في الستّينات، مضافًا إليها عناوين أخرىٰ باَسم "المكتبة الأندلسيّة"••. وأصدر محمود علي مكّي ـ الذي كان من أوائل الشبّان المصريّين الذين أُوفدوا للدراسة في المعهد المصري بمدريد ـ بتحقيق علميّ، قسمًا ممّا وقع له من كتاب "المقتبس" المطوّل لشيخ مؤرّخي الأندلس اَبن حيّان، طُبع في ثلاثة مجلّدات•••.

وأكَبّ الباحث الفلسطيني الكبير إحسان عبّاس علىٰ أعمال الأندلسيّين المطوّلة، فأنجز تحقيق كتاب المقّري "نفح الطيب.." (سبعة مجلّدات، ١٩٦٨)، و"الذيل والتكملة.." لاَبن عبد الملك (خمسة أسفار، هي كلُّ ما عُثِر عليه من أسفاره الثمانية، شاركه في تحقيق سِفْرين منها الباحث المغربي محمد بن شريفة، ١٩٦٤ـ٨٢، بيروت والرباط)، و"ذخيرة.."

• ممّا يُلاحَظ أنّ "الأندلس" تَسْكن، اليوم، وجدانَ الإنسان العربي حيثما كان، فهو يستلهمها أدبًا وفنًّا في حياته اليوميّة. أذكر أني شاهدت، قبل مُدّة، علىٰ شاشة التلفزة (تلفزيون الشرق الأوسط المعروف بالـ mbc)، شبّانًا وشابّات في عمر الورود ـ هم طلّاب معهدٍ للموسيقىٰ في فلسطين المحتلّة ـ يُغنّون، بكلّ اَجتهاد، موشّحًا أندلسيًا... قدّمتهم المذيعة بوصفهم "فرقة ترشيحا الفلسطينيّة".

•• نشر السلسلة الأولىٰ عزّت العطّار الحسيني، وأصدرت الثانية الدار المصريّة للتأليف والترجمة، ثمّ ظهرت، بإصدار جديد، تحت عنوان "المكتبة الأندلسيّة" أيضًا، وبتحقيق إبراهيم الأبياري، في ثمانية عشر مجلّدًا، تحمل اسم الناشرَيْن، دار الكِتاب المصري بالقاهرة، ودار الكتاب اللبناني ببيروت، ما بين ١٩٨١ـ٨٩.

••• وقد صدرت أقسام أخرىٰ من هٰذا الكتاب الهامّ بتحقيق أساتذةٍ عرب ومستشرقين.

ٱبن بسّام الشنتريني (في ثمانية مجلّدات، ليبيا ـ تونس ثمّ بيروت، في الثمانينات)، و"رسائل ٱبن حزم" (في أربعة مجلدات، ١٩٨١ـ٨٣، ضمّت كثيرًا من أعماله الصغيرة والمتوسّطة).

وكان محمد عبد الله عنان قد شرع بتحقيق كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" لٱبن الخطيب، ونشر الجزء الأوّل (١٩٥٦)، ثمّ ٱستأنف العمل فيه وأنجز الأجزاء الثلاثة الباقية (١٩٧٤ـ٧٧)، وحقّق لٱبن الخطيب أيضًا "ريحانة الكُتّاب ونُجعة المنتاب" في جزأين (١٩٨٠ و٨١).

وكان لا بدّ من أن يتجاوز الاهتمام بالأندلس تحقيق الكتب، وكذٰلك التأليفَ في المباحث الأدبيّة المختلفة المتعلّقة بها، إلىٰ عقد المؤتمرات والندوات حولها. فأُقيمت بدمشق (في رحاب متحفها، نيسان/ أبريل ١٩٨٦)، بدعوة من وزارة الثقافة، "الندوة العالميّة، من الشام إلىٰ الأندلس"، وبدعوة من الوزارة نفسها أقيمت (بفندق الشام بدمشق، كانون الأوّل/ ديسمبر ١٩٩٠) "ندوة الثقافة العربيّة ـ الإسبانيّة عبر التاريخ"، ثمّ صدر كتاب ضمّ ما أُلقي فيها من بحوث*. وأقامت مكتبة الملك عبد العزيز العامّة بالرياض (١٩٩٣) ندوة "الأندلس: قرون من التقلّبات والعطاءات"، صدرت ببحوثها أربعة مجلّدات.

وقبل ذٰلك (١٩٧٢)، كان المجلس الأعلىٰ للعلوم بدمشق قد أقام، في أسبوع العلم الثالث عشر، للطبيب الأندلسي عبد الملك بن زُهْر (ت ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م)، ٱحتفالًا بالذكرىٰ التسعمئة لمولده، أسفر عن صدور كتابه "التيسير في المداواة والتدبير" (بتحقيق الدكتور ميشيل الخوري، تونس، المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٣). وبالرباط أقامت وزارةُ الشؤون الثقافيّة (١٩٨١)، ندوةً حول "ٱبن حيّان وتاريخ الأندلس"، صدر ببحوثها عددان خاصّان من مجلة "المناهل"، العدد ٢٩ (مارس ١٩٨٤) و٣١ (دجنبر ١٩٨٤). ورأىٰ معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب أن يكون مكان عقد الندوة الخامسة لتاريخ العلوم عند العرب (آذار ـ نيسان ١٩٩٢) في جامعة غرناطة (بالتعاون مع معهد التعاون مع

* في هٰذه الندوة العالميّة، التي طَمَحَت إلىٰ أن تُوَثّق ما بين هاتين الثقافتين، دعت الدكتورة نجاح العطّار وزيرة الثقافة، في كلمتها الافتتاحيّة، إلىٰ "العودة إلىٰ الأصول"، وبيّنت أنّ «المرجوّ من هٰذه الندوة أن تُسهم في ٱستنبات أصول الثقافة العربيّة ـ الإسبانيّة، وٱستعادتها، كي تكون إضافتها، الباقية إلىٰ يومنا هٰذا، منطلقًا لنا في تطوير وتوسيع العلاقات الثقافيّة، والمبادلات الثقافيّة، إحياءً للماضي وتجديدًا له»، كتاب "الثقافة الإسبانيّة ـ العربيّة عبر التاريخ، دراسات وأبحاث" (دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩١)، ١٣.

العالم العربي بمدريد)، ودار كثيرٌ من بحوثها حول الشؤون الأندلسيّة، العلميّة منها على وجه الخصوص، وصدر ببحوثها المقدّمة بالعربيّة جزءٌ بحلب (١٩٩٥)* .

ثمّ لم يكن بدٌّ من أن تتّخذ، العلاقةُ الجديدة الحميمة بين العرب والإسبان، مسارًا لها أوسع أفقًا، في عالم اليوم، هٰذا العالم الذي يتعرّف على الثقافات، ويتلمّس مواضع تماسّها وتلاقيها وتداخلها. فقد رأت منظمة اليونسكو أنّ أكثر ثقافات العالم تلاقيًا هما الثقافتان العربيّة والإسبانيّة** ، فتبنّت ـ هٰذه المنظّمة ـ أن تعقد بين هاتين الثقافتين ملتقياتٍ، يجري فيها حوارٌ عربيٌّ من جهة وإسبانيٌّ برتغاليٌّ أمريكيٌّ ـ لاتينيٌّ من جهة أخرى. وكانت البداية عَقد ملتقًى في پورتو Porto في البرتغال (١٩٩٢)، وكان تحضيريًّا، أسفر عن الملتقى الأوّل في نواكشوط بموريتانيا (١٩٩٣)، ثمّ كان الثاني في غرناطة (١٩٩٤)، والثالث في كاراكاس بفنزويلا (١٩٩٥)، والرابع..... (١٩٩٦)*** ، والخامس في لشبونة عاصمة البرتغال (١٩٩٧)**** .

* غنيٌّ عن البيان أني، في ذا، لا أُحصي ولا أَحصُر، ولٰكنّي أرصُد حركة تحقيق المخطوطات الأندلسيّة من خلال مؤشّرات ومنعطفات...

والحقّ أنّ إنتاج الفكر الأندلسي، وإعادة إنتاجه، قد أسهمت فيهما أقلامٌ عربيّة، قائدةٌ وواعدةٌ، تستعصي على الحصر، وهي تتزايد عددًا وتزداد عُمقًا عامًا بعد عام.

فعدا مَن ذكرنا، وقد كان ذٰلك على سبيل المثال، هناك كتابٌ، في المشرق والمغرب، يعملون في الأندلسيّات بهمّة فائقة، منهم: محمّد حجّي، ومحمد العربي الخطابي، ومحمّد رزّوق، وعبد الله حمادي، وعبد الجليل التميمي، وإبراهيم بن مراد، وجمعة شيخة (صاحب مجلّة "دراسات أندلسيّة"، تونس)، ومحمّد اليعلاوي، وأمين توفيق الطيبي، وشوقي ضيف، وأحمد هيكل، والطاهر أحمد مكّي، ووداد القاضي، ومحمّد عبده حتاملة، وجودت الركابي، ومحمد رضوان الداية، وعبد الرحمٰن علي الحجّي، وغيرهم كثير كثير...

وثمّة مؤسساتٌ دأبت على نشر التراث الأندلسي كتبًا وموسوعات، منها في بيروت: دار الثقافة، ودار صادر، والمؤسّسة العربيّة للدّراسات والنشر، ودار الغرب الإسلامي (صاحبها الناشر الهمام، الحبيب اللمسي، التونسي)، ودار المعارف بمصر، والدار العربيّة للكتاب بليبيا وتونس، وأكاديميّة المملكة المغربيّة، وغيرها كثير أيضا.

** المقصود، هنا، الثقافة الإسبانيّة بمعناها الواسع، تلك التي تسود إسبانيا والبرتغال، ثمّ تتجاوز شبه الجزيرة الإيبيريّة إلى البلاد التي تحدرت شعوبُها من صلب سكان هٰذه الجزيرة، أي دول أمريكا اللاتينيّة (التي تتكلّم الإسبانيّة، عدا البرازيل فلغتها البرتغاليّة).

*** لم أقف، في المراجع المتاحة، على اسم البلد الذي عُقِد في هٰذا الملتقى.

**** في مساعي التقارب، التي تبذلها الحكومات المعنيّة (في شبه الجزيرة الإيبيريّة وفي ←

في خضمّ هٰذا الاهتمام، العربيّ والإسباني والعالمي، المتصاعد، أحبّت دار إشبيلية ـ التي تأسّست بدمشق العام ١٩٨٧ (وهي ذات "هوَىٰ أندلسيّ"، يدُلّ عليه أسمُها) ـ أن تُسهم في مضمار الأندلسيّات. فرَسَمَتْ لإصدار ما سمّيناه **الكتاب الأندلسي**: سلسلة غير موقوتة، تُصدِر فيها تآليفَ تليدةً من أعمال أجدادنا الأندلسيّين، وحديثةً يؤلّفها باحثون من حَفَدتهم، أو مستشرقون من مختلف الجنسيّات تتولّىٰ الدار نقلها إلىٰ العربيّة عن لغاتها الأصليّة.

وقد خطّطنا ليكون، أوّلَ عناوين هٰذه السلسلة، عملٌ أندلسيّ ممّا صُنِّف في القرن الخامس الهجري (١١م)، الكتابُ الموسومِ بـ "زهر البستان ونزهة الأذهان" للحاجّ الغرناطي (محمد بن مالك، المعروف أيضًا بـ"الطِّغْنَري"، حيًّا في العام ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م). وفيما أنا أشتغل به، وقد قَرَنْتُ عنوانَه بعنوانٍ آخر، ٱبتدعتُه، أوضحَ دلالةً، **الفِلَاحة الأندلسيّة** ـ جَدَّ في الدار ما زيّن لنا تقديمَ **فضل الأندلس علىٰ ثقافة الغرب**، دون أن نتوقّف عن الاشتغال بكتاب الحاجّ الغرناطي، الذي يُعَدّ، بحقٍّ، من أكمل المخطوطات الفِلَاحيّة وأنفسها، في الأندلس وفي المشرق جميعا.

← أمريكا اللاتينيّة) مع العالم العربي، ٱطّلعنا، ونحن نُكمِل اللمسات الأخيرة في المقدّمة قبل دفعها إلىٰ المطبعة، علىٰ نصّ الخطاب الذي ألقاه رئيس جمهوريّة البرتغال، في حفل ٱفتتاح هٰذا الملتقىٰ في لشبونه يوم الخميس ١٥ـ٥ـ١٩٩٧، وفيه من الفهم العميق والتودُّد ومعنىٰ الاعتذار ما هو جديرٌ بالتوقُّف عنده.

وقد أشاد الرئيس البرتغالي جورج سمبايو، بما تتّسم به الحياةُ في بلاده من التأثُّر بالحضارة العربيّة الإسلاميّة في العهد الأندلسي، وقال: «نحن مدينون للتراث العربيّ ـ الإيبيريّ، الغنيّ جدًّا، بما كان له من تأثيرٍ في لغتنا، وفي أسماء الأماكن، وفي الأعراف والعادات الاجتماعيّة، وفي العمارة، وفي الفنون والأدب والمخيّلة الشعبيّة، وفي فنّ الطبخ، وفي الزراعة والتجارة. وهٰذا أمرٌ نعتزّ به، اليوم، بوعيٍ جديد ٱكتسبناه بالتغلّب علىٰ كثيرٍ من المخاوف، والحذر، والأحكام المسبقة، وعدم الفهم الذي ٱمتدّ مئاتٍ من السنين... [مشيرًا إلىٰ أنّ] إجلاء العرب ـ الذين كانوا قد جَدّدوا الفكرَ والفلسفة ـ [عن الأندلس]، كان من بين أسباب ٱنحطاط شعوب شبه الجزيرة الإيبيريّة».

وذكر مراسل جريدة "الشرق الأوسط" محيي الدين اللاذقاني، الذي حضر ٱفتتاح الملتقىٰ، أنّ الرئيس البرتغالي نفىٰ، في حديثٍ خاصٍّ للشرق الأوسط، «أن يكون ٱعتذاره عن جرائم أجداده بحقّ العرب مجرد مجاملةٍ عابرة في خطبةٍ رسميّة»، جريدة "الشرق الأوسط" (لندن، الشركة السعوديّة للأبحاث والتسويق البريطانيّة المحدودة)، العدد ٦٧٤٤، ١٠ محرّم ١٤١٨/ ١٦ـ٥ـ١٩٩٧.

وقد تلقّينا نصّ خطاب الرئيس البرتغالي، باللغتين الفرنسيّة والإنكليزيّة، من مكتب وزيرة الثقافة (بدمشق)، التي مثّلت سورية في هٰذا الملتقىٰ.

البروفسور خوان ڤيرنيت... وكتابة الأمم

كنت قد قرأت، قبل أعوام، مقالًا شائقًا، في مجلّة "العربي" (الكويت: وزارة الإعلام)*، للكاتبة السوريّة المقيمة في إسبانيا، سلمىٰ الحفّار الكزبري، توقّفتْ فيه عند كتاب البروفسّور خوان ڤيرنيت، الأستاذ بجامعة برشلونة، الذي طالعتْه ـ كما يتّضح ـ في نصّه المترجم إلىٰ الفرنسيّة: *"Ce que la culture doit aux Arabes d'Espagne"* (ما تَدين به الثقافة لعرب إسبانيا [للأندلسيّين])**. فسألت صديقي، سفيرَ إسبانيا بدمشق المستعرب الدكتور خيسوس ريّوساليدو **Jesus RIOSALIDO**، الكتابَ بنصّه الإسباني *"La cultura hispanoárabe en Oriente y Occidente"* (الثقافة الإسبانيّة ـ العربيّة [الأندلسيّة] في الشرق والغرب)، فكان أن أجابني بأنه، هو، تلميذٌ وصديق للبروفسّور ڤيرنيت. وسرعان ما حمل البريد إليّ نسخةً من الكتاب، بعث بها المؤلِّف من برشلونة مشكورا.

يتناول الكتاب بصورةٍ أساسيّة ـ حسبما ورد من تعريف فيه ـ «تلك المرحلةَ التي نُطلق عليها في المصنّفات "مدرسة مترجمي طليطلة". وسوف يتّضح أنّ هٰذه المرحلة أطول وأوسع مدىٰ، بكثير، ممّا يُعتقد تقليديًّا، وهي تمتدّ، بأقلّ تقدير، من القرن الثامن الميلادي [الثاني للهجرة] إلىٰ القرن الثالث عشر [٧ هـ]»***.

وإذن، فالكتاب مَعْنيٌّ بتأريخ العلم **La ciencia**، وبعبارةٍ أوضح: بالتأريخ للعلوم بمختلف أصنافها ومصادرها: العلوم الشرقيّة، وعلوم العصر القديم (البابليّة، واليونانيّة،

* العدد ٣٨٠، يوليو ١٩٩٠. وعنوان المقال "الحضارة العربيّة في الأندلس كما يراها الإسبان المعاصرون".

** وقفتُ، بعد أعوام، علىٰ مقالٍ آخر حول الكتاب ذاته وفي نصّه الفرنسي أيضًا، للكاتب الجزائري حلمو جلّول، في مجلّة "الفيصل" (الرياض: دار الفيصل الثقافيّة)، العدد ٢١٢، ربيع الأوّل ١٤١٥/ أغسطس ١٩٩٤، بعنوان "فضل العرب في النهوض بالثقافة الإنسانيّة".

*** غلاف الكتاب الداخلي.

والفارسيّة، واللاتينيّة...)، في نقلها، أو في انتقالها، إلىٰ العرب، هٰؤلاء الذين تمثّلوها، وأضافوا إليها ـ علىٰ ما تفعل الحضارة المبدعة: تتناول، وتتمثّل، وتُضيف، وتُناوِل ـ ثمّ تنتقل، هٰذه العلوم "العربيّة"، إلىٰ الأندلس، وهناك ـ في طليطلة خاصّة بعد أن سقطت في أيدي القشتاليّين (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) ـ تعمل العقولُ والأقلام، في التتبّع، والاصطفاء، والترجمة، ترجمةِ النصوص كاملةً أو مختصرة، ترجمةً حرفيّةً أو معبِّرة* .

ومؤلِّف الكتاب، البروفسّور ڤيرنيت، بعد أن قسّم أزمان انتقال العلوم العربيّة ورَصَدها رصدًا أوفىٰ علىٰ الغاية، لم يشأ أن يُخلي كتابَه من حديثٍ مستطرَد عن الأدب، فأضاف فصلاً (هو العاشر) فيما أبدعه الأندلسيّون في مجال الأدب والفنّ، وخصّ "الأدبَ القصصيّ" بالفصل الأخير.

وعدا علمه الغزير، فإنه يتحلّىٰ ـ وكان لا بدّ من ذٰلك ـ بالموضوعيّة والنزاهة.

فأنت تُعجَب بفيض المعلومات التي تنثال من فكره النيّر وقلمه السيّال، في أثناء تتبُّعه لما نَقَل أجدادُنا من التراث الكلاسيكيّ القديم إلىٰ العربيّة** .

ولٰكن قد يُدهشك رصدُه لكلّ ما نقله مترجمو طليطلة من العربيّة... إلىٰ اللاتينيّة، وإلىٰ القشتاليّة والقَطَلونيّة*** ، وإلىٰ العبريّة... حتىٰ لتتراءىٰ لك معارفُ "الحضارة العربيّة الإسلاميّة" أمواجًا... تتدافع من بغداد العراق... نحو قرطبة الأندلس... وهناك تمضي

* وربّما عَمَد المترجم إلىٰ أن ينسب الكتاب إلىٰ نفسه أو إلىٰ غير صاحبه العربيّ، ممّا حمل الفقيه الأندلسي ابن عبدون (حيًّا ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م) علىٰ أن يُرسل صيحته المعروفة في منع بيع الكتب العربيّة للمسيحيّين واليهود: «يجب ألّا يُباع من اليهود، ولا من النصارىٰ، كتاب علم، إلّا ما كان من شريعتهم، فإنهم يُترجمون كُتب العلوم، وينسبونها إلىٰ أهلهم وأساقفتهم، وهي من تواليف المسلمين»... انظر حاشيتنا في الكتاب، ص ١٧٢.

** يقول، بحقّ، عن تلك الترجمات العربيّة التي وصلت إلينا، أنها «تُعَدّ وثيقةً من المرتبة الأولىٰ للتعرُّف علىٰ تراث العصور القديمة، لأنّ كثيرًا من الأعمال الكلاسيكيّة [الإغريقيّة، مثلًا] التي فُقِدت أصولها، لم تُحفَظ إلّا في هٰذه الترجمات». الكتاب: ١٢٩.

*** وغيرها من اللهجات الرُّومَنْثيّة التي كانت محكيّةً في شبه الجزيرة الإيبيريّة إبّان العهد الأندلسي، ولمّا تكن "اللغة الإسبانيّة" قد أخذت شكلها الحالي: حاشيتنا في الكتاب: ص ٣.

مُوَيْجاتٌ منها، بفعل النقل والترجمة، في اتّجاه الشّمال، لتدخل أوروبة، وتتداح في منظوماتها الثقافيّة... وما هو إلّا حينٌ حتّىٰ يكون قد آن لفجر "النهضة الأوروبيّة" أن يبزُغ!

وأنت تُسَرّ لما ترىٰ، في طروحات المؤلّف عن حضارتنا، من الإنصاف. إنهم، في الغرب، إذا ما صادفتْهم، في أثناء قراءتهم للتاريخ الأندلسي، مواقفُ من انعدام التسامح الدينيّ أو المذهبيّ أو الفكريّ، بادروا فنسبوا ذٰلك إلىٰ "إرثٍ إسلاميّ"!

يقول المؤلّف، مساويًا في ذٰلك بين المسلمين والمسيحيّين:

«وإنه لمن المؤكّد، كذٰلك، أنّ مسيحيّي عصر النهضة سلكوا النهج ذاته، مُنَكِّلين بكلّ مَن سَوّلت له نفسه أن يُخفي كتبًا ممنوعة، سواءٌ أكان من الموريسكيّين أم من غيرهم. [ويتابع] ولٰكن من المؤكّد، علىٰ نحوٍ سواء، أنّ هٰذا الضرب من الاضطهاد قد وُجد أيضًا في العالم القديم... [ويستشهد] إنّ أرسطو اضطرّ يومًا إلىٰ الهرب من أثينا، لأنه أهدىٰ هِرْمِيّاس **Hermias** نشيدًا حربيًا عُدّ منافيًا للدين... [ويمضي في استشهاده بعيدًا] وإن أرِسْتاركوس دي ساموس **Aristarco de Samos** قد اتُّهم بالكفر لأنه دافع عن نظام مركزيّة الشمس، وذٰلك قبل ظهور المسيحيّة والإسلام بزمنٍ طويل...»*.

إلاّ أنه بدا أنّ هٰذا العلم الغزير وهٰذه الموضوعيّة والإنصاف، ما كان لها أن تُجنِّب مؤلِّفنا إبداء آراء أو صرفَ عبارات، هي ـ كما نرىٰ ـ وليدةُ موروثه الثقافيّ والدينيّ في مجتمعه، وهو ممّا لا يتّفق وموروثَنا نحن العرب والمسلمين. ولم ندع ذٰلك يمضي دون تعليق. وكنّا نكتفي بأن نُلحِق، بالكلمة أو العبارة التي نراها لا تتّفق ومقولاتنا أو مفهومنا للتراث، إشارةَ تعجُّب داخل معقوفتين [!]، فإن كان الرأي من المؤلّف يستوجب المناقشة، فعلنا ذٰلك، في الحاشية، وأمّا إن كان الاختلاف بيننا "بالغًا"، فإنّا سمحنا لأنفسنا، في هٰذه

* الكتاب، ٣٦ و٣٧.

من تحليلاته، وهو بصدد الحديث عن فتح العرب لإسبانيا ونشرهم الإسلام فيها، قوله: «إنّ الدين الجديد الذي كانوا ينشرونه قابلٌ لسرعة التمثّل، أو ـ علىٰ الأقلّ ـ لن يدخُل في صراعٍ مع معتقدات البلدان المفتوحة. وهٰذا هو ما كان في الواقع، فالمسيحيّة لم تكن مترسّخة في بعضِ هٰذه البلدان، فإسبانيا، مثلًا، كان جزءٌ كبيرٌ منها لا يزال وثنيًّا». الكتاب، ٣٥.

الحالة الثالثة، بأن نُعدِّل ـ في المتن ذاته ـ عبارته، ونورد ـ ولا نغفل ذٰلك ـ عبارته بتمامها في الحاشية، مقدِّمين وجهة نظرنا... ويقينًا ما كان، لهٰذا كلّه، أن يُفسِد للودّ قضيّة* !

في عنوان الكتاب:

ومن ناحية أخرىٰ، رأيتُني غير متّفق والبروفسّور ڤيرنيت فيما يدلّ عليه عنوان الكتاب: "الثقافة الإسبانيّة ـ العربيّة في الشرق والغرب"، من أنّ الثقافة، التي كانت في الأندلس، هي ثقافةٌ "إسبانيّة ـ عربيّة"، وفي أنّ تأثيرها ـ هٰذه الثقافة ـ قد اتّجه نحو الغرب (أوروبة) كما اتّجه نحو الشرق (المشرق الإسلامي).

واعتقاده أنّ الثقافة في الأندلس كانت "إسبانيّة ـ عربيّة"، يُفسّره ما سبقت إشارتنا إليه من أنّ المستشرقين الإسبان يَعُدُّون الأندلسيّين إسبانًا دمًا، علىٰ حين أننا لا نراهم إلّا "أندلسيّين"، ومِن ثَمّ عربًا، شأنهم في ذٰلك شأن سائر الأمم المفتوحة التي تنطق بالعربية في يوم الناس هٰذا. ولقد كان الأندلسيّون قد "غادروا" ـ إن صحّ التعبير ـ المشاعر الإسبانيّة، ونزلوا في القلب من الوجدان العربي، حتىٰ إنهم ـ بعد العقيدة التي اعتنقوها ـ يطربون لشعر المتنبي طَرَبَ كلّ عربيّ، ويفرحون إمّا وصلت إليهم، علىٰ جناح السرعة، النسخةُ الأولىٰ من "كتاب الأغاني"، الذي كان قد فرغ من تأليفه في المشرق توًّا أبو الفرج الأصفهاني** !

ولأنه يرىٰ أنّ ما كان في الأندلس من الإبداع الفكري هو إبداعٌ إسباني، فإنّ ذٰلك يُسوِّغ له أن يجد ـ فيما يتبادله أطرافُ هٰذه الثقافة من عوامل الإبداع ـ تأثيرًا خاصًا قادمًا

* مثال الحالة الثانية مقولتُه في ثقافة النبيّ ﷺ (الكتاب، ١٠)، ووصفُه للمَدّ المغربي للأندلس (٦٥)، ومثال الحالة الثالثة ما يتعلّق بتغيير الإسلام للقواعد التي كانت متّبعةً في الإرث (١٩٨).

** في رؤية البروفسّور ڤيرنيت الأندلسيّين إسبانًا، يُشير ـ مثلًا ـ إلىٰ الطبيبين الأندلسيّين، الأخوين "أحمد" و"عمر" ابني يونس بن أحمد الحرّاني، اللذين توصّلا إلىٰ مناصب عُليا في إدارة قرطبة عهد الحكم المستنصر (٣٥٠ـ٣٦٦هـ)، ويصفهما، أيّام كانا في مرحلة طلب العلم في المشرق، بأنهما "الفتَيان الإسبانيّان!" (muchachos españoles!)؛ الكتاب، ٦٢.

من الأندلس إلى المشرق، وكأنه يغضّ الطّرف عن الكمّ الهائل من المؤثّرات التي وردت من المشرق، تلك التي خصّص كتابه، ابتداءً، لرصدها.

يقول في كلمة "الاستهلال"، التي افتتح بها كتابه:

«غير أنّ الفكر الإسباني [يعني الفكر العربي الأندلسي!] لم يُمارس تأثيره في اتّجاه الغرب وحسب، بل ترك، أيضًا، أثرًا لا يُمحىٰ في إفريقية الشماليّة وفي المشرق ـ وإن يكن هٰذا التيّار من الإسهامات لم يحظَ من الدراسات إلّا بأقلّها، قياسًا إلىٰ التيّارات القادمة من الجهة المعاكسة ـ سواءً من الناحية الأدبيّة أو العلميّة. ولعلّه يحسن تقديم بعض الأمثلة: فالزَّجَلُ ـ الذي نشأ في سَرَقُسْطَة، وترعرع في قُرطبة، وانتقل إلىٰ العراق ـ لا يزال حيًّا في أيّامنا في تلك الديار، بوَصْفه وسيلةً نموذجيّةً للنَّقد السياسيّ الساخر؛ وفي المجال العلميّ، كان للزَّرْقيال وابن رُشْد أكبرُ تأثيرٍ في نُبوع علم الفلك في فارس وتركستان وسورية، حتّىٰ مطلع القرن السادس عشر [العاشر الهجري]. ومن هنا كان عنوان هٰذا الكتاب: **الثقافة الإسبانيّة ـ العربيّة في الشرق والغرب***.

أقول: وماذا يعني أنّ الأندلس أعطت العراق الزَّجل الذي ابتُدع في سرقسطة؟ أو أنها حملت العلماء في فارس وتركستان وسوريّة علىٰ أن يزيدوا من اهتمامهم بعلم الفلك؟... وذلك بالقياس إلىٰ ما استمدّت الأندلس من المشرق: العقيدة، واللغة، ونَسْغ الثقافة كلّه؟!

وهٰذا ما حملنا علىٰ أن نستبدل بالعنوان عنوانًا آخرَ، اعتقدنا أنه الأدقّ في دلالتَيه: التأثير في اتّجاه الغرب وحده، وصدور هٰذا التأثير عن الأندلس، أو عن الثقافة الأندلسيّة (لا الثقافة الإسبانيّة ـ العربيّة)... فكان: **فضل الأندلس علىٰ ثقافة الغرب****.

* الكتاب: ٥.

** وهي مصطلحات دَرَج عليها المستشرقون، من إسبان وغيرهم، عند تعاملهم مع التراث الأندلسي.

من ذٰلك ما سبقت الإشارة إليه: *Biblioteca Arábica-Hispañas* (المكتبة العربيّة ـ الإسبانيّة)، تلك التي ترجمها كوديرا، وحقُّها أن تُسمّىٰ: المكتبة الأندلسيّة؛

وكذٰلك كتاب *Histoire des Musulmans d'Espagne* (تاريخ مسلمي إسبانيا) للمستشرق الهولندي دوزي R. DOZY، وحقّه أن يُسمّىٰ: تاريخ الأندلسيّين. ←

ترجمة... وتعليق:

نقل الكتاب، عن الإسبانيّة، نهاد رضا (من صيف ١٩٩٥ إلىٰ شتاء ١٩٩٦)، وأعاد النظر في ترجمته مرّةً ومرّات (حتّىٰ نزول الكتاب إلىٰ المطبعة، أيّار ١٩٩٧). وقد يَسَّر له العملَ فيه إتقانُه اللغتين، المنقول عنها والمنقول إليها، فضلًا عن تعمُّقه دراسةَ التاريخ الإسلامي وولعِه بالموادّ العلميّة.

وسرّني أني تعهّدتُ الرجوع إلىٰ المصادر التاريخيّة لاَستحضار الشواهد والنصوص التي اَقتبسها المؤلّف، ولم يكن هذا سهلًا علىٰ الدوام، فكثيرًا ما أحال البروفسّور ڤيرنيت ـ وهو بصدد نصٍّ عربيٍّ ـ إلىٰ مصادر ومراجع إسبانيّة، من تلك التي أنجزها المستشرقون المجتهدون فيما مضىٰ من الزمن القريب.

وشدّما اَستوقفني المؤلّف، عند مَعْلَم منير من معالم تاريخنا الأندلسيّ، فحبّب إليّ أن أتدخّل معلّقًا، فأُوضّح، أو أُضيف، وأحيانًا أُصحّح رقمًا هنا أو أجلو موقفًا هناك، متّخذًا دومًا من "الحواشي" مجالًا للتعليق، وقد أَدخُل "المتن" بحذر*!

ولقد لاحظت، وصديقي نهاد رضا، أنّ البروفسّور ڤيرنيت كان يتزيّد في الحواشي

← مبتعدين عن اَستعمال كلمة "الأندلس" و"الأندلسيّين"، إلاّ في القليل النادر، والذي منه ما وصل إلينا من مدريد حديثًا، كتاب *El Islam de AL-Andalus* (إسلام الأندلس)، تأليف المستشرق المعاصر ميگيل كروث هِرنانديث **Miguel Cruz Hernández**.

قلت، وليس يفتقد القارئُ المطّلع علىٰ التراث الأندلسيّ، وشيجةً تجمع بين العنوان الذي اَخترنا لكتاب البروفسّور ڤيرنيت، وبين عنوانٍ لرسالةٍ كان قد خطّها أديب الأندلس اَبن حزم: "رسالة في **فضل الأندلس** وذكر رجالها"، اَنظر نصّها عند المقّري: "نفح الطّيب.."، ٣: ١٥٨ـ١٧٩.

* من الحالات، التي تكرّر فيها دخولي المتن، تلك التي كان المؤلّف يعمد إلىٰ أن يصف حضارتنا بـ"الإسبانيّة" ورجالَنا الأعلام هنالك بـ"الإسبانيّين"... فكنت أتّخذ، بديلًا عن هذه الصفات، ما درجنا عليه، نحن العرب، في كتاباتنا التاريخيّة، "الأندلسيّة" و"الأندلسيّون"، واضعًا مفرداتي البديلة داخل معقوفتين. ←

والإحالات، التي جعل كلاً منها في أواخر فصله، وتبيّنّا أنّ ذلك مفيدٌ للباحثين الإسبان الذين وُجّه الكتاب إليهم ابتداءً، فأبقينا منها على ما آنسنا فيه فائدةً للباحث العربي.

ومع الشكر... اعترافٌ بالتقصير:

لقد تكرّم زملائي، أعضاءُ الهيئة الاستشاريّة في هذا الكتاب، بقراءة التجارب الطباعيّة الأخيرة، منهم مَن ضاق وقته - ونحن في أواخر العام الدارسيّ - فلم يُتح له أن يُراجع سوى فصولٍ بعينها، ومعظمهم أقبلوا على قراءة الكتاب بفصوله كلّها... وقد زوّدونا، جميعًا، بما عَنّ لهم من الملاحظات، التي تدارسناها، وأخذنا منها ما يُجنّبنا الخطأ، ويرفع - مِن ثَمّ - من مستوى الكتاب... فلهم شكرنا الجزيل.

وتولّت السيدة سماء زكي المحاسني (مديرة مكتبة مجمع اللغة العربيّة بدمشق) إعداد الفهارس للكتاب، فكان ما بذلته من الجهد، في صنع هذه الفهارس المتنوّعة، لا يُكافيه أيُّ شكر نُسديه إليها.

ونحرص على أن نُنوّه بالمساعدة الممتازة التي قدّمتها لنا السفارة الإسبانيّة بدمشق، من أنها كانت همزةَ الوصل بيننا وبين المديريّة العامّة للكِتاب والمحفوظات والمكتبات بمدريد **Dirección General del Libro Archivos y Bibliotecas** (التابعة لوزارة الثقافة بإسبانيا)، ونذكر، بالامتنان العميق، جهود السكرتيرة السيّدة فداء بطرس في ترجمتها رسائلنا إلى الإسبانيّة. وننوّه كذلك بالمساعدة القيّمة التي قدّمها لنا المركز الثقافي الإسباني بدمشق (معهد ثربانتس)، ممثّلًا بشخص مديره الأستاذ لويس خافيير رويث سييرّا **Luis Javier Ruiz Sierra**، بأن وضع، وسكرتيرته التي تفيض نشاطًا السيدة فيروز مراد،

← وأعترف بأني دخلت المتن مرّةً (ونحن بصدد بيان طرق التعليم في الأندلس، وتصنيف المباحث التي يتعيّن على طالب العلم أن يتلقّاها)، وأنا متزوّدٌ بتصنيفٍ كان قد أرتآه ابنُ حزم، في رسالته "مراتب العلوم"، هذه الرسالة التي كان المستشرق أنخِل گونثالِث بالِنثيا **Angel Gonzalez PALENCIA** (١٨٨٩ـ١٩٤٩) قد ظنّ (١٩٢٨) أنها مفقودة، وهي اليوم بين أيدي الباحثين محقّقةً. فجاءت مداخلتي، في المتن، مفصّلةً لما أوجزه المؤلّف، ومُغنيةً - حسب تقديري - الموضوعَ أيّ غناء! (الكتاب، ٥٢ـ٥٧).

بين أيدينا كلّ ما احتجنا إليه، في أثناء العمل، من مراجع إسبانيّةٍ تضمّها مكتبة المركز. ونشكر المستعربة الشابّة أنتونيا ناڤارّو Antonia NAVARRO، في هٰذا المركز، التي قامت بترجمة الجديد من رسائلنا إلىٰ الإسبانيّة، وكذٰلك الأستاذ توفيق زايد (في السفارة الأرجنتينيّة بدمشق)، الذي كان له الفضل في ترجمة جميع رسائلنا الأولىٰ.

والشكر، مقرونًا بعرفان الجميل، للباحثة مِرْسيه كوميس في جامعة برشلونة، تلميذة البروفسّور ڤيرنيت الوفيّة، ولزميلها الذي يُضارعها وفاءً ميكيل فوركادة. وقد كانت المراسَلة، في شأن الكتاب ومؤلّفه، تتواصل بيننا، بالبريد وعلىٰ الفاكس.

وأشكر المستعرب فرناندو دي آگريدا بوريلّو Fernando de Agreda Burillo، في الوكالة الإسبانيّة للتعاون الدولي بمدريد Agancia Española de Cooperacion Internacional، علىٰ ما لبث يُتحفني به، طَوال سنوات، من الكتب التي تصدر في سلسلة "المصادر الأندلسيّة" وغيرها من المؤلَّفات الإسبانيّة التي تهمّنا؛ ومنها كثيرٌ ممّا أشرت إليه في مقدّمتي هٰذه وفي حواشي هٰذا الكتاب. وقد انضمّ إليه أخيرًا صديقه الباحث العربي الفلسطيني المقيم بمدريد عبد الله خلف، فوافاني ببعض الكتب.

ولن يفوتني أن أشكر المهندس الفنّان جمال الأبطح، الذي اجتهد أن يأتي الغلاف الذي صمّمه مستوحًىٰ من التراث الأندلسي تُمازجه روح المعاصرة. وأشكر الفنّان عبد الناصر الشعّال لرسمه صورة المؤلِّف، مستخلِصًا إيّاها من صورةٍ جماعيّة.

وأمّا مكتبة الأسد الوطنيّة بدمشق، في إطلالتها علىٰ ساحة الأمويّين، التي قضيتُ في قاعاتها الساعات المديدة، فقد أمدّتني "الخزائنُ المفتوحة" فيها بأُمّهات الكتب. ووفّر لي، الهدوءَ وسكينةَ النفس، نظامٌ في المكتبة سهر عليه إداريّون متميّزون، يؤازرهم فريقٌ من أمناء القاعات، شبّانٌ وشابّات، يُبادرون إلىٰ التلبية دون أن تُفارق البسمات شفاههم وشفاههنّ.

وحقيقٌ بشكري الجزيل الشابُّ المهندس زاهر دقّة (نجل صديقي الدكتور محمّد علي دقّة)، الذي عمل في تنضيد الكتاب وإخراجه علىٰ أجهزة الكمبيوتر، في دار إشبيلية، واصلًا الليل بالنهار. وقد أخرجه مرّةً أولىٰ، ثمّ جعل يُعيد إخراجه، بعد التصحيح، مرّةً ومرّةً ومرّات... وطَبَعه علىٰ الطابعة الليزريّة، خلال عام وبعض العام، مرّاتٍ سبعًا...

وأشكر ـ وقد شكرتُ ابن صديقي ـ ابني فراس، ساعدي الأيمن في دار إشبيلية، وكلّ العاملين فيها.

وأمّا زوجتي، الصابرة، فإنّ لساني يعجز عن شكرها، لما استأثرتُ به من وقت الأسرة. ولكنْ طَيّب خاطري ما لمستُه من فرحها وهي تتلقّىٰ "مَلَازم" الكتاب، تأتينا من المطبعة أوّلًا بأوّل.

واستَحْيَيتُ أن أُوجّه شكرًا إلىٰ صديقي المترجم نهاد! وهل أستحقّ، أنا، منه شكرًا، وقد حَمَلْنا عبء العمل معًا، علىٰ مدىٰ عامين أو ثلاثة؟

وبعد.

لقد بذلنا، جميعًا، ما قَدِرنا عليه لإنجاز هٰذا العمل، دون أن يُخامرنا ظنٌّ بأنّا بلغنا فيه حدَّ الكمال. وكنّا، في كلّ مرّة نفرغ من طباعة تجارب جديدة، نكتشف فيها من الثغرات والأخطاء ما يجعلنا نُبادر إلىٰ إعادة الكرّة ونحن أكثر أملًا في الدُّنُوّ من الكمال. وما كان هٰذا الإحساس ـ بالتقصير المقرون بالأمل ـ أن يُفارقنا، حتىٰ ساعةَ قدّمنا الكتاب، أخيرًا، إلىٰ التحضير الطباعي (الزنكوغراف).

إننا نشكر، سلفًا، كلَّ مَن "يُهدينا" أخطاءنا، من الباحثين والقرّاء*... فلعلّنا بذٰلك "نهتدي" إلىٰ الصواب، فنأخذ به، إن شاء الله، في الطبعة القادمة لهٰذا الكتاب، الذي يُلقي أضواءً نَيّرةً علىٰ الفكر العربي إبّان ازدهاره، علىٰ نحو ما أراد له أن يكون، مؤلّفُه المستشرق الإسباني، مترجمُ معاني القرآن الكريم إلىٰ الإسبانيّة، البروفسّور خوان ڤيرنيت.

دمشق، مكتبة الأسد الوطنيّة: ٢٥ـ٥ـ١٩٩٧ فاضل السباعي

* نعترف ـ مثلًا ـ بأنه لم يتأتَّ لنا أن نرسم أسماء الأعلام الإسبانيّة بالحرف العربيّ علىٰ الوجه الصحيح دائمًا.

خوان ڤيرنيت

فضل الأندلس على ثقافة الغرب

استهلال

يطمع هذا الكتاب إلىٰ أن يكون سِجِلًّا لِما تَدين به الثّقافةُ لعرب إسبانيا. وليكنْ واضحاً، من البداية، أني ـ بأستعمالي كلمةَ **عرب** ـ لا أُشير إلىٰ أيّ عِرقٍ ولا إلىٰ أيّ دين، وإنّما أعني: **اللغة** التي أستخدمها العربُ والفُرس والتُّرك واليَهود والإسبان إبّانَ القُرون الوسطىٰ، والتي شكّلتْ وسيلةً لأنتقالِ المعارف الأكثرِ تنوُّعًا في العصر القديم ـ الكلاسيكيّ أو الشّرقيّ ـ إلىٰ العالَم الإسلاميّ؛ هٰذه المعارف ـ التي جدَّد، العالَمُ الإسلاميّ، صَوْغَها، ورَفَدَها علىٰ نَحوٍ حاسم بإسهاماتٍ جديدة: الجَبْر وحساب المُثلَّثات علىٰ سبيل المثال ـ قد أنتقلتْ إلىٰ العالَم المسيحيّ بفَضْل الترجمات التي تمّت من العربيّة إلىٰ اللاتينيّة والرُّومَنْثِيّة*، وكانت مِن ثَمّ مبعثَ الأنطلاقة العلميّة الهائلة لعصر النهضة. وإنّ إحصاءً بسيطًا للنُّصوص العلميّة التي نُشرت آنذاك، يُقيم الدليل علىٰ الفضل الكبير الذي يَدين به الغرب لإسبانيا [للأندلس].

* اللغة الرُّومَنْثِيّة Romance، هي اللهجة ـ أو اللهجات ـ التي كانت محكيّةً بين سُكّان شبه الجزيرة الإيبيريّة، قبل الفتح الإسلاميّ وفي إبّانه، مُتولِّدةً عن اللغة اللاتينيّة ـ الأمّ، وذٰلك قبل أن تتّخذ اللغتان، الإسبانيّةُ والبُرتغاليّة، شكلَيهما غداةَ جلاء المسلمين عن شبه الجزيرة، وقد أُطلق عليها الأندلسيّون أسم "عَجَمِيّة الأندلس"، وكان حقًّا أنهم لم يبرزوها لهجةً واحدة بل لهجاتٍ عدّة. وآثرنا رَسْمَ الكلمة بالثاء (الثلاثيّة النُّقَط)، ذٰلك أنّ حرف C (في كلمة Romance) يُنطَق باللسان الإسبانيّ ثاءً؛ وأيضًا تمييزًا لها عن المذهب الأدبيّ والفنّيّ Romanticismo (وفي الفرنسيّة Romantisme الرُّومَنسيّة).

ويتعيّن عليّ أن أبيّن أنّ مشكلة المؤلّفين، عندي، لا تعدو أن تكون ثانويّة: فليس يهمّني كثيرًا أن يكون [ذاك المترجمُ] هو يوحَنّا الإسباني أو ابنَ داود*، ولكنّ ما يهمّني هو محتوىٰ المؤلّفات التي كُتبت في إسبانيا [الأندلس] أو انتقلت علىٰ طريقها. وسوف نرىٰ، في الصفحات التالية، علىٰ نحوٍ ملموس، كيف نشأت، أو عَبَرَت، علىٰ "جِلْد الثّور" - أي: أرضِنا الإسبانيّة** - جملةٌ من المعارف، تبدأ من الإرهاصات الأولىٰ لحساب "اللامتناهي الصِّغَر" إلىٰ انتشار المنشآت الخاصّة بالمُصابين بالأمراض العقليّة، ومن بدايات الكيمياء العلميّة إلىٰ المِلاحة في عرض البحار. وسوف نعرض أيضًا - وإن يكن بشكلٍ أكثر إيجازًا - للتجديداتِ التي طرأت علىٰ ميدان "الأدب"***، وهو تعبيرٌ يرجع إلىٰ القرن الثامن عشر، ويُناسب أيّما مناسبةٍ الإعرابَ هنا عن فكرنا. إنّ عددًا من هٰذه الإسهامات الأخيرة يُشكِّل، بحُكم غياب الوثائق الدامغة، موضوعَ مناقشاتٍ حادّةٍ بين المُتخصّصين، ولٰكن ليس في المستطاع وضعُ حدٍّ لها؛ فإنّ نظريّاتٍ كانت تبدو جريئةً للغاية حين صاغها أساتذتُنا - المستعربون الإسبان - في مطلع هٰذا القرن، أصبحت مؤكّدةً خلال الخمس والعشرين سنةً الأخيرة.

كذٰلك لم أُعْنَ كثيرًا بما يُسمّىٰ، تقليديًّا، التاريخَ السياسيّ وتاريخَ المؤسّسات. [ومع ذٰلك] فهذان التاريخان يُساعداننا، في حالتنا هٰذه، في فهم بعض ظواهر الانتقال الثقافيّ والطابع الخاصّ الذي أدخلته السياسةُ في ميادين البحث، كالكيمياء، التي غالبًا ما كانت مصطلحاتُها الباطنيّة تتضمّن مفاهيمَ شيعيّةً، إسماعيليّةً وفاطميّة،

* يوحَنّا الإسباني مُتَرجِمٌ من العربيّة، عاش في القرن الثاني عشر (السادس الهجري). والخلاف لا زال قائمًا حول هُويّتِه، وموطنِه، واللغةِ التي كان يقوم بالترجمة إليها، الإسبانيّة أم اللاتينيّة؟ فرأيٌ أنه "يوحَنّا بن داود" الذي تحوّل عن اليهوديّة إلىٰ النصرانيّة، فكان يُترجم من العربيّة إلىٰ الإسبانيّة (الرُّومنثيّة)، ليتولّىٰ بعد ذلك مُترجمٌ غيرُه النَّقلَ منها إلىٰ اللاتينيّة؛ ورأيٌ أنه من إشبيلية، وقيل إنه من مدينة لونا **Luna** في إقليم أراغون بإسبانيا.

** كذٰلك يَرمُز الإسبان إلىٰ بلدهم، مُشبّهين شكلَها مرسومًا علىٰ الخارطة بجلد الثّور الممدود.

*** التعبير المقابل لكلمة أدب، أو آداب، في اللغة الإسبانيّة، تعبيرٌ مركّب هو: **Buenas letras**.

وكانت ذات تأثيرٍ عقائديٍّ مشهورٍ داخل إقليم أراگون في القرن الحادي عشر [الخامس الهجري]، ومنه آنتقلت إلىٰ أوروبة.

غير أنّ الفكر الإسباني [الفكر العربي الأندلسي] لم يُمارس تأثيره في آتّجاه الغرب وحسب، بل ترك، أيضًا، أثرًا لا يُمحىٰ في إفريقية الشماليّة وفي المشرق ـ وإن يكن هٰذا التيّار من الإسهامات لم يحظَ من الدراسات إلّا بأقلّها، قياسًا إلىٰ التيّارات القادمة من الجهة المعاكسة ـ سواءً من الناحية الأدبيّة أو العلميّة. ولعلّه يحسن تقديم بعض الأمثلة: فالزَّجَلُ ـ الذي نشأ في سَرَقُسْطَة، وترعرع في قُرطبة، وآنتقل إلىٰ العراق ـ لا يزال حيًّا في أيّامنا في تلك الديار، بوَصْفه وسيلةً نموذجيّةً للنّقد السياسيّ الساخر؛ وفي المجال العلميّ، كان للزّرقيال وآبن رُشْد أكبرُ تأثيرٍ في ذُيوع علم الفلك في فارس وتركستان وسورية، حتّىٰ مطلع القرن السادس عشر [العاشر الهجري]. ومن هنا كان عنوان هٰذا الكتاب: **الثقافة الإسبانيّة ـ العربيّة في الشرق والغرب.**

إنّ تزيُّدي في الحواشي [والإحالات] مردُّه إلىٰ قصدي المُتعمَّد في أن أُقدِّم ثَبَتًا بالمراجع ـ وهٰذا يُفسِّر ما يتردَّد عندي من عناوينَ لمؤلَّفاتٍ، ذات قيمةٍ أو لا قيمة لها، بإشارةٍ إلىٰ صفحاتٍ معيَّنةٍ منها أو دونما إشارة* ـ وأن أتوسّع في سرد وجهات نظرٍ قد تَرِدُ مُخالفةً لسياق النصّ أو أن أناقشها. وينطبق الأمر ذاته علىٰ التطوُّر غير المباشر للموضوعات المطروحة، فما إن تَدخُل في فكر عُلماء و أدباء من أمثال كوپرنيكو وتشوسر وبوكاتشيو، حتّىٰ يصبح من السّهل تتبُّعُ أثرِها في الثّقافة العالميّة إذ تنتهي إلىٰ الآندراج كذٰلك في أعمال هٰؤلاء الأعلام.

ولقد سعيتُ ـ دون أن أنجح علىٰ الدوام ـ إلىٰ أن أُقدِّم مراجع النصوص وفق أسلوب الآستشهاد المتّبع في القرون الوسطىٰ: الكتاب، فالفَصْل، فالفِقْرة... الخ. والمحذور في هٰذا الأسلوب أنه يبدو أحيانًا أقلَّ دقّةً من الأسلوب الذي نأخذ به

* بدا لنا أنّ تزيُّد البروفسّور ڤيرنيت في الحواشي أمرٌ يُفيد الباحثين الإسبان علىٰ وجه الخصوص؛ لذٰلك عمدنا، من جهتنا، إلىٰ أن نُبقي من هٰذه الحواشي علىٰ ما رأينا فيه فائدةً للباحث العربي.

في عصرنا، غير أنّ هٰذا الأخير يَضطرّنا إلىٰ اَستخدام طبعاتٍ بعينها، علىٰ حين يُمكّننا الأسلوبُ الأوّل من أن نستنفد الاَستشهاد بالنُّصوص دون أن نُعنىٰ بطبعةٍ معيّنة أو بمخطوطٍ ما. وكذٰلك، يُيَسِّر فهرسُ الأعلام وفهرس المفاهيم* اَستخدامَ مجموعةٍ من المُعطَيات ليس من السهل دوماً الوقوفُ عليها، بالرغم من ترتيب الموادّ المتشابه المُتّبع اَبتداءً من الفصل الخامس.

إنّ مقدّمة كتابٍ ما هي آخر ما يُكتَب عادةً، لأنّ الرؤية الإجماليّة، المخطّط لها عند الشُّروع في التأليف ، يطرأ عليها تحوُّلٌ محسوس تقريبًا وتتأثّر باللمسات الأخيرة. والمؤلِّفُ، المنحازُ دائمًا ـ أو إن صحّ القولُ: المُنخطفُ البصر بالنصّ الذي فرغ من كتابته! ـ هو قاضٍ غيرُ نزيهٍ في الحُكم علىٰ نفسه. وهو، إن كان إسبانيًّا ـ ومُندفعًا، من ثَمّ، بالهوىٰ لحظة الحكم علىٰ وطنه ـ ينزلق بصورةٍ غير واعية في طريق المَدْح أو القَدْح. لذٰلك، وحتّىٰ لا أتورّط في هٰذا أو ذاك، أُفضّل أن أتبنّىٰ تلك الكلمات ـ بوَصْفها عباراتِ توضيح أخيرة ـ التي قالها المتخصّص الإيطالي الكبير في الدراسات الإسبانيّة، أ. سيروللي E. Cerulli، وأعتقد أنّ القارئ سيُؤَوّلها علىٰ نحوٍ إيجابيّ حين يكتشف العبقريّة العلميّة "لإسبان القرون الوسطىٰ" [مسلمي الأندلس]... وهي:

> *«إنّ إسبانيا، التي كانت الأُولىٰ بين الأُمم المدافعة عن أوروبة المسيحيّة، خلال القرون السبعة من حروب الاَسترداد، كانت الأُولىٰ، أيضًا، التي اَحتضنتْ ونقلتْ إلىٰ الغرب الأوروبيّ كثيرًا ممّا تلقّته، في العلاقات اليوميّة إبّانَ السّلم والحرب، في حقل الثقافة والفنّ، من العالَم المشرقيّ نفسه الذي كانت تُجابهه في ساحة المعركة»*[1]!

برشلونة، ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٤ — خوان ڤيرنيت

• ويبدو، أيضًا، أنّ "فهرس المفاهيم" indice de conceptos (أو دليل المفاهيم) ممّا يهمّ القارئ الإسباني، ولم نجد ضرورةً له عند القارئ العربي فتجاوزناه. إلّا أنّ بين فهارسنا، في آخر الكتاب، فهرسًا قريبًا منه سمّيناه "فهرس العلوم".

1. Il "*Libro della scala*", Vaticano, 1949, P. 550.

الفصل الأوّل

مقدّمة تاريخيّة

* ولادة الإسلام
* العباسيون
* ميلاد الثقافة العربية
* الإمارة العربية في الأندلس
* ملوك الطوائف والمدّ المغربي

الفصل الأول

مقدّمة تاريخيّة

ولادة الإسلام:

في العام ٦١٩ [للميلاد]، الذي قد يكون القدّيس إيسيدوروس قد شَهِد فيه إحدىٰ أسعد لحظات حياته لدىٰ تَرَؤُّسه مَجْمعَ إشبيلية الدينيّ الثاني، في هٰذا العام ذاته كان هنالك رجلٌ آخرُ، مجهولٌ بالنسبة إليه، يعيش أشدَّ أيّام حياته مرارةً: فمُحمّدٌ، نبيُّ العرب [النبيّ العربيّ]، كان قد أخفق في جميع محاولاته لهداية أهل مدينته [مَكّة]، وفي نَشْر رسالته بين غيرهم، مُتعَرِّضًا للإبعاد عن مدينة "الطائف"، وهو لا يكاد يعرف ما يَحُلّ به وبالفئة القليلة من أتباعه الفقراء المُهتدين حديثًا. وبعد اَنقضاء اَثني عشر عامًا علىٰ هٰذا التاريخ، كان كلّ شيء قد تغيّر: فقد تمكّن مُحمّد من الإمساك بزمام السلطة بقوّة السلاح [!]، ووحّد شِبهَ الجزيرة العربيّة، وأوفد سفراء إلىٰ البلدان المجاورة ـ بيزنطة وفارس والحبشة ـ مُبَشِّرًا بالطابَع العالَميّ لدعوته. قد تكون هٰذه الأنباء تناهتْ إلىٰ مسامع القدّيس إيسيدوروس، عَبْرَ الجاليات البيزنطيّة المُستوطنة في جنوبيّ إسبانيا، ولكنْ ما كان ليدورَ في خَلَده أن

رُفاتَهُ سوف يُنْقَلُ من إشبيلية إلىٰ مدينة ليون León [في الشمال] نتيجةَ فَتْح شبه الجزيرة الإيبيريّة من قِبل أتباع الدين الجديد*!

لم يكن محمّد غيرَ مثقّف، لا ولا كان غيرَ متعلّم، علىٰ نحو ما أرادت الروايات المُتناقَلة أن تحملنا علىٰ الاعتقاد به تعزيزًا لنشأة الدين الجديد**. فإذا سلّمنا، ببساطة، بالمعلومات المؤكّدة عن سيرة حياته وحَسْب، فلا بدّ من القبول بأنه كان يُلِمّ إلمامًا وافيًا بالحساب والكتابة، وذلك ما يُفسّر لنا حُسن تدبيره لثروةِ أرملةٍ غنيّة هي خديجة [بنت خُوَيْلِد]، التي أدار أعمالها، وتزوّجها لاحقًا في انسجام مع طالَعه الفلكيّ، حسب قول كِپْلِر.

وقد تهيّأ له اكتساب هٰذه الثقافة في شبه الجزيرة العربيّة ذاتها، في مكّة، لأننا نعلم أنّ هٰذه المدينة كانت تُقيم علاقاتٍ تجاريّةً مع العالم القديم بأسره. وفي أسواقها كانت تُروىٰ حكاياتُ الفُروسيّة الفارسيّة، مثل قصص رُستم وإسفَنْدِيار***، وطرائفِ

* القدّيس ايسيدورو San Isidoro (أو: ايسيدوروس الإشبيلي) أُسْقُف إشبيلية. عاش بين ٥٧٠ـ٦٣٦م. له مُصنّفات، منها الكتاب التاريخيّ الذي سمّاه العرب "خرونيقون" (Chronicon، الحَوْليّات). وقد ذكره ابنُ جُلجُل حين نَقَل عنه «أنّ مدينة بُرْغَمُش [برغام Pergame] كانت موضع سجن المُلوك، وهنالك كانوا يَحبِسون مَن غضبوا عليه»، "طبقات الأطبّاء والحكماء" (بيروت ١٩٨٥)، ٤١.

ويُقابل العامُ ٦١٩ المُشار إليه، العامَ الثالث ما قبل الهجرة النبويّة. وأمّا فَتح إسبانيا، بقيادة طارق بن زياد، فكان في العام ٧١١م (٩٢هـ).

** لم تذكر الروايات الإسلاميّة أنّ الرسول العربي ﷺ "لم يكن مثقّفًا" أو أنه "كان غيرَ متعلّم"، ووُصِف عليه السلام في القرآن الكريم بأنه ﴿الرسولُ النبيُّ الأمّيُّ﴾ (الأعراف، ١٥٧)، واختلفت الآراء في معنىٰ كلمة "الأمّيّ". فإذا انصرف الذهن إلىٰ أنه مَن لا يقرأ ولا يكتب، فإنّا نقول أن لا تعارُض، قديمًا، بين أن يكون الإنسان أُمّيًّا وبين أن يكون مثقّفًا في الوقت ذاته، فالثقافة لم تكن تُحصَّل بـ"القراءة"، مع غياب "الكتاب" و"المؤسّسة التعليميّة" بمفهومهما الحديث. بل كان يتناول الثقافةَ طلّابها بالسماع وارتياد المحافل ومخالطة الناس، تُسعفهم في ذٰلك ذاكرةٌ قويّة باهرة ـ كانت بديلاً عن الكتاب المخطوط قبل أن تبدأ بالتراجع، عصرًا بعد عصر، بسبب التعويل على وسائل الحفظ والمراجعة وسائر المخترعات الحديثة!

*** يشير المؤلّف إلىٰ ما كان من انتقام "بهمَن" لمقتل أبيه "إسفَنْدِيار" (بطل الديانة الزرادشتيّة) علىٰ يد رستم أحد ملوك الفرس. وهٰذا من الحكايات والأساطير الفارسيّة التي استلهم منها، فيما بعد، الشاعرُ الفردوسي ملحمته الشهيرة "الشاهنامة" (القرن الخامس هـ/ ١١م)، ونقلها إلىٰ ←

العهد القديم التي ظلّت قائمةً تحت اسم الخمارة، وسلسلةٍ كاملة من الحكايات والأساطير المتعلّقة بأهل الحبشة، والتي نجد صدًى لها في القرآن.

ويُقدِّم هذا الكتاب ـ وهو المصدر الوحيد المعاصر والأصيل الذي يُعرّفنا بحياة النبيّ ـ مجموعةً من المعلومات، تُظهِر، إذا ما تمّ تحليلها كما ينبغي، أنّ محمّدًا كان يمتلك، بطريقةٍ ما، فكرةً عن الكسور المصريّة وعن نظريّة فيثاغورس، ومعارفَ أخرىٰ من مستوًىٰ رفيع نسبيًّا.

ثمّ كان أن تحوّلتْ، بعد وفاة محمّد، الدولةُ التي أنشأها إلىٰ إمبراطوريّةٍ بسرعةٍ ملحوظة. فلم يكد يمضي أربعون عامًا، حتّىٰ كانت الطلائع العربيّة تُهدِّد، في آنٍ واحد، الهندَ والصين [شرقًا] و[إفريقية ـ] تونس [ـ غربًا]. إلّا أنّ النّزاعات الداخليّة الأولىٰ في أوساط المسلمين كانت قد ظهرتْ وأصبح لها دورٌ كبير فيما بعد. فالسلطة الانتخابيّة، التي رَفَعت إلىٰ سُدّة الحُكم الخلفاء الأربعة الأوائل، كانت موضع حملاتٍ معاكسة: فمن جهةٍ، كان هناك مَن يرون أنّ الخلافة يجب أن تؤول إلىٰ شخصِ عليٍّ ـ صِهر محمّد، زوج ابنته فاطمة ـ وإلىٰ ذُرّيّته (وسوف يُطلَق علىٰ أنصارهم اسم الشّيعة)؛ ومن جهةٍ أخرىٰ، كان هناك مَن يرىٰ أنها ينبغي أن تكونَ انتخابيّةً، داخل قبيلة قُريش (وانتهت إلىٰ أن انحصرت في عشيرة التُّجّار من بني أُميّة ذات الشوكة القويّة)، التي نشأت عنها فئة السُّنّيّين؛ وأخيرًا، كان هناك الغُلاة من أنصار عليٍّ، الذين انشقّوا عنه عندما رأوه يتفاوض مع السُّنّيّين [أنصار معاوية]، وقد سُمُّوا بالخوارج، وهؤلاء، بحُكم نَزعتهم الأُصوليّة كلّيًّا، أكّدوا صحّة المُسلّمة القائلة بتلاقي الأضداد وتساندها [!]، وذهبوا إلىٰ أنّ الخلافة يُمكن أن تؤول إلىٰ أيّ شخص [إلىٰ أيٍّ من المسلمين]، سواءً أكان من قريش أم لم يكن منها، حتّىٰ لو كان عبدًا، بشرطٍ وحيد: أن يكون جديرًا وتقيًّا، لهذا سُمُّوا أحيانًا بديموقراطيّي الإسلام!

وعلىٰ حين كانت هذه الأحزاب السياسيّة ـ الدينيّة آخذةً في اكتساب الملامح الخاصّة بها، كانت حروب التوسُّع [الفُتوحات] تتواصل، وقد وقعت في أيدي

← العربيّة الفتح بن علي البُنداري (ق٧هـ/ ١٣م). انظر: د. عبد الوهّاب عزّام: "الشاهنامة"، الطبعة الثانية (القاهرة: الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ١٩٩٣).

وغنيٌّ عن البيان أنّ المؤلّف يشير إلىٰ ما كان يُروىٰ ـ في رأيه ـ من الحكايات الفارسيّة في شبه الجزيرة العربيّة، قبل البعثة النبويّة، أي قبل أن ينظم الفردوسيّ من تلك الحكايات ملحمته بزمن طويل.

المسلمين، ما بين ٦٦١ـ٧١٥م [٤١ـ٩٦هـ]، جميع الأراضي الممتدّة جنوبيّ البحر الأبيض المتوسّط، ما بين جبال البيرينيه [بين إسبانيا وفرنسا]، ونهر الهندوس [في الهند]، وما لبث هٰذا التوسّع الإسلاميّ أن تعرّض، بعد مدّةٍ قصيرة، لهزائمه العسكريّة الأولىٰ؛ فقد أوقف شارل مارتِل هٰذا الزّحف عند مدينة بواتييه (٧٣٢م [١١٤هـ]). وسوف يُجهز علىٰ ما تبقّىٰ تفاقُمُ الصّراعات السّياسيّة داخل الدين الجديد؛ فالحروب الأهليّة صرفت خيرة القوّات المقاتلة عن الحدود، ونجح الصّينيّون ـ بفضل زحفٍ بارع عَبر الهضاب العليا لمنطقة پامير Pamir ـ في منع تلاقي القوّات العربيّة وحلفائهم التّيبيتيّين، حائلين بذٰلك، وعلىٰ نحوٍ حاسم، دون التقدُّم الإسلاميّ في آسيا الوسطىٰ (٧٤٧م [١٢٩هـ]).

لقد تحوّلت الدولة، "دارُ الإسلام"، التي تكوّنت علىٰ هٰذه الصورة، إلىٰ نوع من الإقطاعات للعرب، الذين كانوا فيها مواطنين من الدرجة الأولىٰ، وذٰلك منذُ قرّر عُمَر [بن الخطّاب]، الخليفة الثاني لمحمّد، أنّ علىٰ الخزينة العامّة [بيت مال المسلمين] أن تُعيل، أو أن تُؤدّي معاشاتٍ للمحتاجين المنتمين إلىٰ هٰذا الشعب. ومن ناحيةٍ أُخرىٰ، لما كان القُرَشيّون هم الوحيدون الذين كان في وُسْعهم أن يتطلّعوا، وبحظٍّ من النجاح، إلىٰ الخلافة، فقد تجمّعت السلطة في أيديهم. وكان أفراد هٰذه القبيلة، والعرب عامّة، ميّالين إلىٰ أن يستظلّوا أفياء أجهزة السلطة، ويبعثوا بالمؤمنين الجُدُد ـ "مؤطّرين" كما ينبغي بقياداتٍ عربيّة ـ ليفتحوا أراضيَ جديدة. وقد نصّ القرآن علىٰ أنه يتحتّم، قبل أن يُشَنّ الهجوم علىٰ العدوّ، أن يُعرَض عليه الدخولُ في الإسلام، فيكتسب ـ في حالة قبوله ـ من الحقوق والواجبات ما يترتّب علىٰ المسلمين كافّةً من حقوقٍ وواجبات. وغالبًا ما كان يتمّ قَبول هٰذا العرض، الذي كان يعني بالنسبة للأغنياء الاحتفاظَ بثرواتهم ودفع ضرائبَ تقلّ كثيرًا عمّا كان يُؤدّىٰ إلىٰ البيزنطيّين والفرسِ والقُوط، علىٰ حين كان ذٰلك بالنسبة للعبيد والأقنان بمثابة مدخلٍ إلىٰ الانعتاق*، ويتمثّل الخِيار الآخر في

* قلت: لم يعرف التاريخُ قِيَمًا يُحقّقها فاتحٌ للشعوب المفتوحة أفضلَ من التّخفيف من عبء الضريبة التي يرزح تحتها الذين يملكون، ومن إتاحة الفُرَص للأرقّاء والأقنان ليتنسّموا عبير الحرّيّة، وذٰلك فضلًا عن نشره ـ طواعيةً لا بحدّ السيف ـ دينًا يدعو إلىٰ التوحيد وإلىٰ رفع شأن الإنسان.

"الاستسلام"، وفق أحد الإجراءين المعروفين في الشرع الإسلاميّ: الصُلح أو العَهْد، والذين يرتضون هٰذا الاختيار ـ وذٰلك ما كان يحصُل غالبًا في إسبانيا ـ كان عليهم أن يُؤدُّوا ضريبةً خاصّة، غيرَ باهظة، هي الجِزية [ضريبة الفرد] (السورة ٩: ٢٩)* ، وكانوا يعيشون في ظلّ وصاية الشرع، وفق أحكام القرآن، التي كان تطبيقها يختلف تبعًا للاجتهاد الخاصّ بكلّ فقيه. وقد اعتمِد هٰذا النظام عينه ـ مع تعديلاتٍ ما ـ بعد عدّة قرون، من قِبل ألفونسو العاشر، المُلقّب بالحكيم، في [المدوّنة التشريعيّة السباعيّة المسمّاة] Las [Siete] Partidas، لدَمْج المُدجّنين [في المجتمع الإسبانيّ المسيحيّ]** . فإنْ لم يأخذ العدوُّ بأيٍّ من هٰذين الخِيارين السالفين، شرع المسلمون بشنّ الهجوم.

ولقد كانت القوّات الفاتحة، ابتداءً من نهاية القرن الثامن [٢ هـ]، مُشكَّلةً في قسمها الأكبر من غير العرب. وقد طَرح ذٰلك المشكلةَ التالية: إلىٰ أيّ حدٍّ كانت إمبراطوريّةُ الأُمويّين، حقًّا، إمبراطوريّةً عربيّة؟ وبعبارةٍ أُخرىٰ، هل كان الأمر، في الواقع، يتعلّق بتعريب الأراضي، المكتسبة بحدّ السيف، أم بأسْلَمَتها؟ وإنها لمسألةٌ ذاتُ أهمّيّةٍ خاصّة بالنسبة إلىٰ الغرب الإسلاميّ (الأندلس والمغرب)، حيث لم

* قوله، عزّ وجلّ، ﴿ قٰتِلوا الذين لا يُؤمنون بالله ولا باليوم الآخِر، ولا يُحرِّمون ما حرّم اللهُ ورسولُه، ولا يَدينون دِينَ الحقّ مِن الذين أُتوا الكتابَ، حتّىٰ يُعطُوا الجِزيةَ عن يدٍ وهم صاغِرون﴾، التّوبة: ٢٩.

** المُدجّنون لفظة عربيّة شاع استعمالها في الأندلس منذ أوائل القرن السابع الهجري (١٣م) بعد أن توالىٰ استيلاءُ الممالك المسيحيّة علىٰ أراضي الأندلس وتزايدت أعداد المسلمين الذين يخضعون لحُكم الإسبان. وكان قد سُمح لهم، في البدء، بحريّة العبادة والاحتفاظ بممتلكاتهم وبعض منشآتهم، ثمّ تردّت أوضاعهم تمامًا بعد سقوط غرناطة (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م)... وللمُدجّنين في إسبانيا تاريخٌ مؤثّر جدًّا!

والكلمة، لغةً، من دَجَنَ وتدجّن، أي أقام في المكان وأَلِفَهُ، ومصدره الدَّجْن والتّدجُّن، ومنه دواجن البيوت، الطيور والحيوانات الأليفة المُقيمة. وقد أخذت الإسبانيّةُ الكلمة عن العربيّة، فالمدجّنون هم: **Mudéjares**.

يُشكِّل العُنصرُ العربيّ إلّا أقلّيّةً ضئيلةً جدًّا*. في البداية، كان الأمر يتعلّق، بطبيعة الحال، بفتح أو بنزهةٍ عسكريّة كما قلنا، حيث لم تَلْقَ مجموعةٌ كبيرة من البربر ـ المؤطّرين كما ينبغي ـ صعوباتٍ كبيرة في الاَستيلاء على المغرب وإسبانيا، مثلما فرض القوط والوَنْدال أنفسهم، قبل هٰذا التاريخ بثلاثة قرون، على أراضٍ غريبةٍ عنهم، تسكنها أعدادٌ ـ أكثرُ كثافةً ـ من "الإسبان ـ الرومان" الذين كانوا عُزَّلًا، في مواجهة قوّاتٍ سريعة الحركة حسنة التنظيم. وإذن، فإنّ البربر ـ الذين اَعتنقوا الإسلام ـ هم الذين اَضطلعوا بالفتح، واَنضافت إليهم ـ في الأندلس ـ مَوْجتان عربيّتان؛ الحملة التي قادها موسىٰ بن نُصير عام ٧١٢م [٩٣هـ]، وحملةُ بَلْج [بن بِشْر] عام ٧٤٠م [١٢٣هـ]، تُمثّلان في مجموعهما قوّةً من ثلاثين إلىٰ أربعين ألف مقاتل. وعلىٰ مرّ الزمن، نجحت، هٰذه الفئة المُهيمنة، في تعريب الكتلة الضخمة من الإسبان؛ ثمّ إنّ اللغة العربيّة بدأت تسود في شبه الجزيرة الإيبيرية، في حوالي نهاية القرن العاشر [٤ هـ]، وذٰلك بفضل التأثير السياسي للحاكمين، وعُلُوّ ثقافتهم ـ اَبتداءً من منتصف القرن التاسع [٣ هـ] ـ قياسًا إلىٰ الثّقافة المسيحيّة. ومن ثمّ كان الدخول في الإسلام، في إسبانيا، الدّعامةَ المباشرة للتعريب، والعكس صحيح.

إنّ القدرة الفاتنة لهٰذه الثّقافةِ ـ الشرقيّةِ في نصفٍ واحدٍ منها ليس إلّا ـ كانت ـ تكمُن ـ اَبتداءً، في آدابها، ثمّ في مكتسباتها العلميّة.

فبينما كانت الأولىٰ [الآداب] أصيلةً، خالصةَ الأصالة، وقد تمثّلت منذ نشأتها في شعر ذي حيويّةٍ مدهشة، وذٰلك في منتصف القرن السادس [قُبيل الفتح الإسلاميّ]، علىٰ ضفاف الفرات ودجلة، كانت الثانية [المكتسبات العلميّة] ثمرةً لترجمة الأعمال الأساسيّة للعصر القديم ودراستها. ولم يَخْجَلْ من هٰذا الأمر قطّ المسلمون، الذين غالبًا ما كانوا يستعملون في هٰذا المضمار اللغة العربيّة، مُتخلّين

* جاء في النصّ الإسباني، تعبيرًا عن هٰذه "القِلّة": Con Cuentagotas، وترجمتُها الحرفيّة: "بِعَدِّ النُّقَط"، وبمصطلحنا الدّارج: "بالقَطّارة"، فالعبارة تعني: حيث كان العنصر العربيّ يَبلغُ في قِلّته حدَّ عَدِّ النُّقَط بالقَطّارة!

ـ مهما كانت أصولهم ـ عن لغاتهم الخاصّة ـ الأمّ، كالفارسيّة، والسَّنْسَكريتيّة، واليونانيّة، والرُّومنتيّة الأندلسيّة، واللاتينيّة. وتبيّن الرسالة الرقم ٢١ لإخوان الصّفا (نهاية القرن العاشر [٤ هـ]) أنّ اليونانيّين قد أخذوا الحكمة عن المصريّين واليهود، وأنّ كبار مترجمي القرن التاسع [٣ هـ]، بدورهم، يُقِرُّون بتبعيّتهم لليونانيّين أو الفرس أو اللاتين. ومن ثَمّ كانت الثقافة العربيّة، في بدايتها، ثقافةً توفيقيّة، وهٰذا لا يعني، إطلاقًا، أنها ستبقى كذلك على مدى تاريخها جميعا.

ويتجلّى، سلفًا، هٰذا الطابع التوفيقيّ، في أوّل عمل فنّيّ كبير للإمبراطوريّة الجديدة. ففي "قُصَير عَمْرة" نجد، على جدران الحمّامات..... تصاويرَ الملوك المغلوبين ـ ومن بينهم الملك رُوذْرِيكُو ـ وقد بدت في مظهرٍ بيزنطيٍّ خالص*، وفي رسم مجموعة نجوم نصف الكُرة الأرضيّة الشمالي، نلاحظ بعض الالتواءات، نتيجةً لتجنُّب الفنّان نقلَها عن الواقع ولكن عن شبكة أسْطُرْلابِ خارطةٍ نِصْفَي الكُرة

* يُعَدُّ "قُصَير عَمْرة"، واحدًا من أشهر القُصور التي بناها الأمويّون على تُخوم بادية الشّام، على أنقاض الحصون الرُّومانيّة السابقة. ويقع في الجانب الشرقيّ من نهر الأردنّ على خطّ مستقيم من ضفّة البحر الميّت الشماليّة. ويُرجَّح أنه بُني في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ما بين ٩٣ـ٩٦هـ/ ٧١٢ـ٧١٥م. وكان عبارةً عن ملهًى وحمّام، لا تزال تُزيِّن جُدرانهما تصاويرُ تُمثّل ستَّ شخصيّاتٍ ملكيّة، منها صورةٌ لروذْريكو Rodrigo ملك إسبانيا (لُذْريق عند العرب)، الذي هَزمه الفاتحُ طارق بن زياد. وليس في العالم الإسلاميّ ـ كما يقول فيليب حتّى في "تاريخ العرب" ـ صُوَرٌ محفوظةٌ كهٰذه الصُّور. ويُعتقَد أنّ تسمية القصر حديثة، لأنّ الآداب العربيّة لم تحفظ له ذكرا.

ولعلّ صورة هٰذا الملك الإسبانيّ ـ التي لا تزال ماثلةً على جدران هٰذا القصر الصحراويّ القديم ـ تُلهِب خيال الباحثين الإسبان وتحملهم على الاهتمام بالقصر وبالصُّور. ولكنّ عنايتهم بقُصور بادية الشّام تتجلّى، اليوم، في تلك البعثة الإسبانيّة للتنقيب عن الآثار، التي تبحث في قصر الإمارة الأمويّ بقلعة عمّان (شُغِل في عهد بني أُميّة على مدى أربعة عُقود، حتّى ١٢٧هـ/ ٧٤٤م)، وتُشرف على ترميمه منذ ١٩٧١. وكان من ثمرات هٰذه الجهود المتواصلة إصدار الجزء الأوّل الضخم من مشروع كتابٍ بالإسبانيّة بعنوان "القصر الأموي في عمّان El Palacio Omeya de Amman" الخاصّ بفنّ العمارة، تأليف أنطونيو الماگروگوربيا Antonio Almagro Gorbea (مدريد: المعهد العربيّ ـ الإسبانيّ للثّقافة، والإدارة العامّة للعلاقات الثقافيّة، ١٩٨٣).

السّماويّة، ولهٰذه الملاحظة فائدةٌ من وجهة النظر الفلكيّة: إذ إنها تُثبِت وجود هٰذه الآلات، علىٰ الأقلّ، في القرن السابع [الأول الهجري].

وفي الوقت الذي كان يُبنىٰ هٰذا القصر، كانت تجري الترجمات العلميّة الأولىٰ من اللغات الأجنبيّة إلىٰ العربيّة، بحسب شهادة ٱبن القوطيّة الأندلسي ومصادر أُخرىٰ سوف نعمد إلىٰ تحليلها لاحقًا. ولم تكن هٰذه الترجمات تقتصر ـ وهذا ما لاحظه سيزگين جيّدًا ـ علىٰ الترجمات المباشرة أو غير المباشرة عن اليونانيّة والفهلويّة إلىٰ العربيّة، وإنّما تتعدّاهما إلىٰ لُغاتٍ أُخرىٰ أكثرَ قِدَمًا، كالأعمال المكتوبة بالفارسيّة الأخمينيّة والمترجمة إلىٰ الفهلويّة، بناءً علىٰ أمرٍ من وزير أنو شَروان (٥٣١ـ٥٧٩م)، بُزُرْجَمِهْر بن بُخْتَاق.

لقد سقطت السُّلالةُ الأُمويّة الحاكمة بسبب أخطائها الذاتيّة، بالرغم من لامبالاة المُرجئة الذين كانوا يقولون، بما أنّ "كلّ شيء مُقَدّر"، لذٰلك فإنه أمرٌ سواءٌ القيامُ ضدّ السلطة القائمة أو مهادنتُها حتّىٰ إن كانت مستبدّة [!]. وبما أنّ أسلاف هٰؤلاء الخلفاء كانوا ألدَّ الأعداء الذين ٱضطُرّ النبيّ إلىٰ مقاتلتهم، فهناك ما يدعو إلىٰ الظّنّ بأنّ هٰؤلاء الخلفاء، إن لم يكونوا أصحاب وَرَع، قد تظاهروا به علىٰ الأقلّ، بُغية الحِفاظ علىٰ تأييد رعيّتهم. ولكنّ الملوك الأخيرين منهم، لم يأبهوا بهٰذا التظاهُر، لدرجة أنّ أحدهم ـ وهو يزيد [بن معاوية بن أبي سفيان] ـ أكسب ٱسمَه لفرقةٍ من "عَبَدة الشيطان"، أو "اليَزيديّين"*[1]، وذٰلك ـ إضافةً إلىٰ غَيْرة الأُسَر المنحدرة من عليّ (العلويّين) أو الذين كانوا ذوي قرابةٍ منهم (العباسيّين)[2] ـ ما قد سَبّب

* أفادتنا الدكتورة ليلىٰ الصباغ (أستاذة التاريخ بجامعة دمشق) بأنه لا يُعرف، في الحقيقة، الدور الذي كان للخليفة الأمويّ "يزيد بن معاوية" في تكوين هٰذه الفرقة وتسميتها "اليَزيديّة"... ولٰكن ـ تقول ـ يبدو، من معتقداتها الحاليّة، أنها لا ترجع إلىٰ زمن هٰذا الخليفة، ولا علاقةً مباشرةً له في تأسيسها، وهٰذا ما أكّدته دراساتُ عددٍ من المستشرقين والمؤرّخين، ومنها دراسات المستشرق "مِنْزل Menzel" (دائرة المعارف الإسلاميّة، بالفرنسيّة، ط ١، ٤: ١٢٢٧ـ٣٤).

إلّا أنّ ذٰلك لم يمنع باحثين آخرين من أن يؤكّدوا صعوبة نَفْي العلاقة بين هٰذه الفرقة وبين يزيد بن معاوية. فاليزيديّون أنفسهم، وإن كانوا لا يُلحّون علىٰ أنه المؤسّس لجماعتهم ـ المغايرة ←

نُشوبَ حربٍ أهليّة تجابهت فيها راية الأُمويّين البيضاء مع راية العباسيّين السوداء، وهو لونٌ كان، في ذَيْنك الزمان والمكان، يكتسب قيمةً أُخرويّة (مَعَاديّة).

وقد غُلِب الأُمويّون، وأُبيدت أُسرتهم، ونجح واحدٌ منهم فقط في النجاة بنفسه والآلتجاء إلىٰ الأندلس، حيث آستطاع أن يُؤسِّس، هنا، إمارة قرطبة المستقلّة. وهٰكذا كانت الأندلس، أقصىٰ صِقْعٍ في الإمبراطوريّة، هي الأُولىٰ في الآنفصال عنها، وهو آستقلالٌ سياسيٌّ، وإن لم يكن دينيًّا، لأنّ هٰؤلاء الأُمويّين، وطَوال قرنَين، آمتنعوا عن تبنّي لقب الخليفة ـ وفي الإسلام لا يجوزه إلّا خليفةُ المشرق ـ كما آمتنعوا عن سَكّ العُملةِ الذهبيّة، فذٰلك من آمتيازات خليفة النبيّ•.

← في معتقداتها للدين الإسلامي ـ يقولون بأنها فرقةٌ قديمة قِدمَ خَلْق البشر، وبأنّ الخليفة الأمويّ يزيد بن معاوية (حُكمه، ٢٥ـ٦٤هـ/ ٦٤٥ـ٦٨٣م) عمل علىٰ إحيائها، وهم يُصنّفون آسمه بين "السناجق" السبعة التي وصلت ـ بحسب آعتقادهم ـ إلىٰ مرتبة الألوهيّة عن طريق التناسخ، وهم: "إزدي"، و"داود"، و"الشيخ شمس الدين"، و"ويزيد [بن معاوية]" و"الشيخ عدي [بن مُسافر الهَكّاري"، ت نحو ٥٥٧هـ، متصوّف مسلم صالح، أسّس الفرقة العدويّة]، و"المنصور الحلّاج [الحسين بن منصور...]".

ويذكر الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) أنّ "يزيد"، الذي ينتسبون إليه، هو "يزيد بن عنيزة" من خوارج الإباضيّة، لا الخليفة يزيد بن معاوية.

ويُرجع المستشرق مِنْزل تسمية هٰذه الفرقة إلىٰ كلمة "إيزَد" الفارسيّة، وتعني: "الله، المَلَك"، ومعنىٰ إيزَدي: "عبد الله". وقد أُطلقت علىٰ هٰذه الفرقة تسمياتٌ أخرىٰ عديدة.

قلت: ويُقيم اليزيديّون، في هٰذا القرن العشرين، في منطقة جبل سِنْجار وفي القوقاز، وعددهم مئة ألف أو دون ذٰلك. وهم يتكلّمون الكرديّة غالبًا، وكذٰلك التركيّة والعربيّة، ويَصِمهم الأتراك بأنهم "عَبَدَة الشيطان"!

وآنظر: الدكتور خلف الجراد: "اليزيديّة واليزيديّون"؛ (اللاذقية: دار الحوار، ١٩٩٥).

• ... لم يُنازِعوا الخلافةَ في المشرق في آتّخاذ هٰذا اللقب، إلىٰ أن تراءىٰ لأمير الأندلس، ذي المَنَعة، عبد الرحمن الناصر (حُكمه: ٣٠٠ـ٣٥٠هـ) أن يتسمّىٰ "خليفةً"، وذٰلك سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٩م، وتبعه في ذٰلك أخلافُه، وكانت إمارة الأندلس قد آنعقدت لأوّل الأمويّين بقرطبة: عبد الرحمٰن الداخل (بن معاوية بن هشام بن عبد الملك)، سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٦م.

العباسيّون:

لكنّ العباسيّين لم يَعُدُّوا أنفسهم وَرَثة النبيّ فحسب، بل المُنتَدبين من الله علىٰ الأرض أيضًا، بواسطة حيلة بسيطة تتّصل بفِقه اللغة. فعَقِبَ وفاة محمّد، كان خلفُه أبو بكر قد تبنّىٰ لقب "خليفة[3] رسول الله"، وعندما نُودي بعُمَر خَلَفًا له، كان له أن يكتسب لقب "خليفة خليفة رسول الله"، فلاحظ عندئذ أنّ المُضيّ علىٰ هٰذا النَّسَق سيجعل لقب خلفائه يطول باَطّراد، لذٰلك اَصطلح علىٰ الاَحتفاظ بالصيغة التي تبنّاها أبو بكر ["خليفة رسول الله"]. ثمّ إنّ العباسيّين زادوا في اَختصارها بأن حذفوا كلمة "رسول" [من هٰذا اللقب]، فأتاح لهم ذٰلك أن يتجاوزوا الاَلتباس في لقب "خليفة الله". ولم يبقَ بينهم وبين إقامة حكومة تيوقراطية، تغيب فيها حريّة التعبير، إلّا خُطوةٌ سرعان ما اَجتازوها، وخُنِقت الديموقراطيّة الفِطريّة عند القبائل العربيّة[4]. ومن جهة أُخرىٰ، أسهم في إنجاز ما تبقّىٰ، إلغاءُ العون الذي يُقدَّم إلىٰ هٰذه القبائل، وكان ذٰلك في القرن الثالث للهجرة، التاسع الميلادي.

وقد حلّت محلّ التأثيرات البيزنطيّة التي كانت مُهيمنةً، من الناحية الثقافيّة، في عهد الأمويّين، تأثيراتٌ أخرىٰ إيرانيّة الطابع، لأنّ القوّة الحقيقيّة للأُسرة الحاكمة الجديدة كانت تكمُن في بلاد فارس. وقد أنشأت هٰذه الأُسرةُ (حوالي ١٩٨هـ/ ٨١٣م) نظامَ التفتيش، أو ما سُمّيَ بـ "المِحْنة"[5]، ترسيخًا لكيانها. ومَثُل أمام هٰذا النظام، في البداية، كلُّ مَن قال بأنّ نصّ القرآن أَزَليّ (لأنه كلام الله، وهٰذا الكلام أزليّ)، وكان هٰؤلاء، علىٰ نحوٍ ما، يقولون بالقضاء والقدر. ثمّ اَرتقَوا، اَبتداءً من ٢٣٤هـ/ ٨٤٩م، إلىٰ السلطة، فاَتّبعوا الأُسلوبَ ذاته مع القائلين بالمبادئ المخالفة، وهم المُعتزلة.

ومع ذٰلك يجب الاَعتراف بأنّ ضحايا هٰذه "المحنة"، التي غالبًا ما اُستُخدمت لدوافعَ سياسيّة، كانوا قلّةً قليلة[6]. ومع مرّ السنين حلّ تسامحٌ رَحْب، لدرجة أنّ رحّالةً أندلسيًّا كان يدرُس في بغداد، في نهاية القرن العاشر [٣ هـ]، روىٰ أنّ المجالس، التي

يَعقِدها المُتكلّمون [وقد حضر واحدًا منها]، كانت تحضُرها «الفِرقُ كلُّها: المسلمون من أهل السُّنّة ومن أهل البِدْعَة، والكُفّار من المَجُوس والدَّهْريّة والزَّنادقة واليَهود والنَّصارىٰ وسائر أجناس الكُفر، ولكلِّ فرقةٍ رئيسٌ يتكلّم علىٰ مذهبه ويُجادل عنه. فإذا جاء رئيسُ أيِّ فرقةٍ كان، قامت الجماعة إليه قيامًا علىٰ أقدامهم، حتّىٰ يجلس فيجلسون بجلوسه.

«فإذا غَصَّ المجلسُ بأهله، ورأَوا أنه لم يبقَ لهم أحدٌ ينتظرونه، قال قائلٌ من الكُفّار: "قد اجتمعتم للمناظرة، فلا يَحْتَجَّ علينا المسلمون بكتابهم ولا بقول نبيّهم، فإنّا لا نُصدّق ذٰلك ولا نُقِرّ به، وإنّما نتناظر بحُجج العقل وما يحتمله النظر والقياس!".

«فيقولون: "نعم، لك ذٰلك!"» *.

* مصدر هٰذا النصّ كتاب "بُغية المُلتمِس في تاريخ رجال أهل الأندلس"، للضَّبّي (أحمد بن يحيىٰ بن أحمد بن عُميرة، ت ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م)، المطبوع بمدريد ١٨٨٥، والمُترجَم إلىٰ الإسبانيّة بعد ذٰلك من قِبَل "م. آسين، الگاثيل "M. Asin, Algacel"، والذي طُبع في سرقسطة ١٩٠١ (كما ورد في حاشية البروفسور ڤيرنيت). وقد اعتمدنا النصّ العربيّ (القاهرة: دار الكتاب العربيّ، ١٩٦٧، سلسلة المكتبة الأندلسيّة الرقم ٦) صص ١٥٥ـ٥٨، العدد ٢١٤.

والذي رُوِيَتْ عنه الواقعة هو الفقيه المُحدِّث الأندلسيّ أحمد بن محمد بن سعدى، المُكنىٰ أبا عمر، الذي رحل قبل الأربعمئة هجرية (١٠٠٩م) بمدّةٍ إلىٰ المشرق، وحدّث، وهو في القيروان في منصرفه إلىٰ الأندلس، الفقيهَ أبا محمّد عبد الله بن أبي زيد، الذي سأله إن كان قد حضر "مجالس أهل الكلام" ببغداد؟ فقال: بلىٰ، حضرتُهم مرّتين، ثمّ تركتُ مجالستهم ولم أعد إليها! فقال له أبو محمّد: ولِمَ؟ قال: أمّا أوّل مجلسٍ حضرتُه، فرأيتُ مجلسًا قد جمع الفِرَق كلّها: المسلمين من أهل السُّنّة..... الخ.

ويُتابع الفقيه الأندلسي أبو عُمر:

«فلمّا سمعتُ ذٰلك لم أعدْ إلىٰ ذٰلك المجلس. ثُمّ قيل لي: "ثَمّ مجلسٌ آخر للكلام، فذهبتُ إليه، فوجدتُهم علىٰ مثل سيرة أصحابهم سواء، فقطعتُ مجالس أهل الكلام، فلم أعدْ إليها".

«فقال أبو محمد بن أبي زيد: "ورَضِي المسلمون بهذا من القول والفعل؟!".

«قال أبو عُمر: "هٰذا الذي شاهدتُ منهم!". ←

كانت الأُسرة الحاكمة الجديدة قد أصبحت عاجزةً عن القيام بفتوحاتٍ توسعيّة من النوع الخاطف، وكان عليها أن تُخصّص أفضل طاقاتها لتفادي تجزُّؤ الإمبراطوريّة، التي سُرعان ما تحوّلت إلىٰ فُسَيْفِساء من الدُّول المستقلّة: فبعد الأندلس، توالىٰ اَستقلالُ المغرب وتونس وبلاد فارس... الخ، وبرزت، في بعض الأحيان، بعُدوانيّةٍ رهيبة، بُؤَرٌ من الأقلّيات الضئيلة، علىٰ شاكلة "الشُّيوعيّة" متمثّلةً بالقرامطة[7] والرّقيق الزّنج، اَستطاعوا أن يُعرّضوا بغداد نفسها للخطر، تمامًا كما فعل، أو علىٰ نحوٍ مُشابهٍ، اسبارتاكوس قبل ذلك بعدة قُرونٍ، وأوشك أن يُسقِط روما!

ومن جهةٍ أُخرىٰ، تجمّع متطرّفو اليمين حول سُلالة عليّ. وبما أنهم كانوا يشعرون بالخيبة، لأنّ العبّاسيّين لم يُسلّموا زمام السلطة لساداتهم، أخذوا في إقلاق السلطة القائمة، مُنظّمين أنفسهم في جماعاتٍ سِرّيّة تعمل علىٰ تلقين تعاليمها خطوةً خطوة. وكانت أشهرها فرقة الفاطميّين، التي اَستولت علىٰ السلطة في تونس (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م)، ثمّ ما لبثت أن فَتحت، في ظلّ حُكم المُعِزّ،

← «فجعل أبو محمّد يتعجّب من ذلك، وقال: "ذهب العلماءُ وذهبت حُرمة الإسلام وحقوقها! وكيف يُبيح المسلمون المناظرة بين المسلمين والكُفّار؟ وهذا لا يجوز أن يُفعَل لأهل البِدَع الذين هم مسلمون ويُقِرُّون بالإسلام وبمحمّد عليه السلام، وإنّما يُدعىٰ، مَن كان علىٰ بِدعةٍ مِن مُنتحلي الكلام، إلىٰ الرُّجوع إلىٰ السُّنّة والجماعة، فإن رَجَع قُبِلَ منه، وإن أبىٰ ضُرِبت عُنُقه، وأمّا الكُفّار فإنّما يُدعَوْن إلىٰ الإسلام، فإن قَبِلوا كُفَّ عنهم، وإن أبَوْا وبذلوا الجزية في موضع يجوز قبولها كُفَّ عنهم وقُبِل منهم، وأمّا أن يُناظِروا، على ألّا يُحتَجَّ عليهم بكتابنا ولا بنبيّنا، فهذا لا يجوز، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون!"».

"بُغية الملتمس..."، ١٥٦ و٥٧.

وبدا أنّ الفقيه الأندلسيّ، أبو عمر أحمد بن محمّد بن سعدى، قد عاد إلىٰ المشرق، فقد سُمِع في مصر سنة ٤٠٩هـ/ ١٠١٨م.

وإنّما قدّمنا سائرَ النصّ، اَستكمالًا لمعالم الصورة الفكريّة في ذلك العصر، بجانبَيْها، المُتحرّر والمُحافظ.

مصرَ وجزءًا من سوريّة. وكانت هٰذه الانتصارات الكبرىٰ مُقدّمةً لبناء "القاهرة"، التي حلّت محلّ الفُسطاط عاصمةً لمناطقِ نُفوذٍ واسعة.

ولقد شُيِّدت القاهرة، علىٰ غِرار بغداد وفاس - وبيزنطة وبرشلونة، كما يزعُمون... الخ - علىٰ ما تقتضيه قواعدُ الفنّ جميعا، أي وِفق علم التنجيم. فاستطلاعات البُرُوج في بناء المُدن، التي تعتمد اختياراتٍ ما، أصبحت معروفةً لدينا، وبفضلها نعلم ما كان مؤسّسوها يتوقّعون من تقلّبات الزمان. ويبدو، مؤكّدًا، الاعتمادُ علىٰ هٰذه الاستطلاعات البُرجيّة في شأن المُدن الثلاث الأولىٰ [القاهرة وبغداد وفاس]، وإن لم تتطابقْ حياتها، هٰذه المُدُن، علىٰ الدوام، مع توقّعات كَشْف طوالعها.

ميلاد الثقافة العربيّة:

وخلال القرنين الأوّلَين من انتشار الإسلام، كانت أعداد المسلمين، القادرين علىٰ الكتابة بالعربيّة، قليلة، بينما كان كثيرٌ من حديثي العهد باعتناق الإسلام، يكتبون دونما صعوبةٍ بلغتهم الأمّ وليس بلغة الفاتحين. وهٰؤلاء، بحُكم انصرافهم قبل كلّ شيء إلىٰ توسيع الإمبراطوريّة، قلّما كانوا يَعْبَؤون بأسلوب إدارتها أو باللغة التي تُدَوَّن بها الوثائق الرسميّة، ما دامت الدواوين تعمل بصورةٍ مُرضية. ولم يتقرّر، إلّا في نهاية القرن السابع [الأول الهجري]، أن تُستَبدَل العربيّةُ باليونانيّة في الوثائق الرسميّة، عندما شارفت الفتوحات علىٰ نهايتها•.

وإذا لم يكن هناك، من وجهة النظر المدنيّة، محذورٌ من استعمال لغاتٍ أجنبيّة داخل الإدارة، فالأمر لم يكن كذٰلك في المجال الدينيّ، ولهٰذا السبب كان

• وقد كان هٰذا الاستبدال - وهو ما يُسمّىٰ "تعريب الدواوين" - في عهد الخليفة الأمويّ "عبد الملك بن مروان" (حُكمه: ٥٦ـ٦٨هـ/ ٤٨٦ـ٥٠٧م)، الذي أدرك أنّ تولّي ديوان الخراج والجبايات (ما يُعرف اليوم بـ"وزارة الماليّة") من قِبَل أهل الذّمّة من روم وفرس، يُشكّل خطرًا علىٰ الدولة الإسلاميّة، لأنهم يكتبونه بلُغاتٍ لا يُجيدها العرب، فهم يُدوّنونه بالرُّوميّة (اليونانيّة) في بلاد الشام، وبالفارسيّة في العراق، وبالرّوميّة أو القبطيّة في مصر.

يَتِمّ نَسخُ نصِّ القرآن على الدوام بالعربيّة، وحتّى في وقتنا الراهن لا تُقبَل ترجمته إلى لغاتٍ أُخرى. وإذا تمّت مثل هذه الترجمات فإنها تُعَدُّ، لهذا السبب، تفسيرًا للنصّ[8] ليس إلّا. والحديث النبويّ (السّنّة الدينيّة) ـ وهو مُعادل لِمِشْنا العِبريّين وللتقليد المجموع عن قَداسة البابوات لدينا ـ كان ينتقل شفويًّا من جيلٍ إلى جيل، حتّى أمكن تقييده خطّيًّا، بالعربيّة أيضًا، ٱبتداءً من النصف الثاني للقرن التاسع [٣هـ]، بفضل التعريب السريع للشرق الأدنى ومعرفة تَقَنيّة صناعة الورق.

ولكي يتحقّق المسلمون من صحّة الحديث النبويّ، ٱبتكروا نسقًا مُعقّدًا لنقد النصوص، تأويلًا حقيقيًّا. و[لكن] يهمّنا في هذا الصدد أن نكتفي هنا ببيان أنّ الأمر الأساسيّ كان إثباتَ سلسلةٍ من الأسماء (إسناد) بكلّ مَن نقل النصّ، وهذا يعني أنه كان من الضروريّ، قبل عرض محتوى كلّ حديث على حدة، أن يُذكَر الٱسمُ واللقب (ولنقلْ، تبسيطًا للمسألة) أسماء الرُّواة جميعًا. مثلًا: «روى فلان... الذي سمع عن فلان... وهذا بدوره عن فلان... أنّ هذا الأخير روى أنه شاهد النبيّ يُصلّي ويقول......». وسُرعان ما ٱمتدّت هذه "التّقَنيّة" إلى ميادينَ أُخرى خارجةٍ عن المجال الدينيّ ـ إلى بعض الفنون الأدبيّة على سبيل المثال ـ وٱستلزمت وضع معاجم مُتزامنة، وتطوُّريّة لُغويّة. وتضمّ الأولى ـ في صيغة "طبقات" ـ تراجِمَ كلّ مَن عُنُوا بتدوين الحديث، مُبيِّنةً، بعنايةٍ فائقة، فيما تُبيِّن، تاريخَ ميلادهم ووفاتهم، وذلك للتمكُّن من معرفة ما إذا كان قد تيسّرت، لأفراد الجيل اللاحق مباشرةً، معرفتُهم والٱستماع إليهم. وإذا ما طبّقنا هذه التّقنية على ٱنتقال المعارف العلميّة من المشرق إلى المغرب ـ وقد تمّ ذلك من قَبل، فيما يخصّ بعض النصوص الأدبيّة ـ رأينا كيف تعاقبت، منذ منتصف القرن الثامن [٢ هـ]، سلسلةٌ متّصلة من الأساتذة وتلامذتهم وأصدقائهم، ممتدّةً حتّى القرن الثاني عشر [٦ هـ].

ولنبدأْ بالرياضيّات وعلم الفلك.

في العام ٧٦٢م [١٤٥هـ] قام المُنجّمان نوبَخْت (ٱسم أُطلق على أسرةٍ من رجالات العلم على مدى أربعة أجيال على الأقلّ)، و"ما شاء الله" (ت حوالي

٨١٥م [٢٠٠هـ]) ـ وهو يهوديّ، ولعلّه مصريّ، اَعتنق الإسلام ـ بوضع الطالَع الفلكيّ لبغداد. وكانت كُتُب الثاني موجودةً قبل ذٰلك في الأندلس، في مستهلّ القرن العاشر [٤ هـ]. وفي الوقت ذاته، شرع الفزاريّان، إبراهيم الأب، ومحمّد الاَبن (ت حوالي ٨٠٦م [١٩٠هـ])، بترجمة مُصنَّفاتٍ علميّةٍ من السّنسكريتيّة، مستفيدَين من سفارة كَنْكَه، وصنعا الأَسْطُرلابات الأولىٰ. وقد كانوا جميعًا مرتبطين ببلاط هارون الرشيد والمأمون. وحين أنشأ هٰذان الخليفتان "بيت الحكمة"، الذي كان علىٰ رأسه الفلكيّ يحيىٰ بن أبي منصور (ت حوالي ٢١٧هـ/ ٨٣٢م)، تجمّع حول هٰذا البيت أبرزُ الوجوه في ذٰلك العصر، تمامًا مثلما كان معظم الباحثين في العهد الهيليني يُهرَعون إلىٰ مكتبة الإسكندريّة ومُتحفها، وللأسباب ذاتها. وكان رجالات العلم الذين يستقبلهم بيت الحكمة هٰذا، لا يجدون في متناول أيديهم مكتبةً ممتازة عامرة بالكتب ووسائل ماديّة للسير قُدُمًا في أعمالهم، وحسب، بل كانوا يتقاضَوْن، كذٰلك، مرتَّباتٍ يصعب علينا تقديرها. يخبرنا حُنين بن إسحق أنّ المأمون كان يُكافئ مترجمي المُصنَّفات علىٰ حسب وزنها: فإذا بلغ وزنُ كتابٍ ما رِطْلًا كافأ المترجِمَ برطلٍ من الذهب. فكان المُترجمون يُبالغون في الكتابة بأحرفٍ كبيرة، ويتركون في جوانب الورقة هوامشَ واسعة، ويُفرّجون كثيرًا ما بين الأسطر. وتؤكّد روايةٌ أُخرىٰ أنّ بني موسىٰ كانوا يُنفقون كلّ شهر خمسمئة دينار في مكتب الترجمة الخاصّ بهم، حيث كان يعمل حُنين بن إسحق وثابت بن قُرّة وحُبَيْش بن الحسن [الأعسم] وآخرون سواهم.

لقد حقّق مؤسّسو بيت الحكمة مَهَمّتَين كبيرتين: [الأولىٰ] تدوين لوائح فلكيّة جديدة، "زَيْج الممتحن"، المعروفة لدىٰ اللاتين بٱسم **Tabulae probatae**، علىٰ سبيل المجاز، وكانت معروفةً، في الأندلس منذ مطلع القرن العاشر [٤ هـ] علىٰ الأقلّ، و[الثانية] قياس درجةٍ من دائرة خطّ الطول، وقد اَطّلع كولومبوس عليه وعرف قيمته من خلال الفَرْغاني. ويتعيّن علينا أن نذكر، من بين هٰؤلاء العلميّين، الخوارزمي (ت حوالي ٨٤٥م [٢٣٠هـ])، الذي ربما تكون مناهجه الرياضيّة (عَدُّ الموقع، الجبر) والفلكيّة (الحساب وفق الأنساق الهنديّة)، قد أُدخلت إلىٰ الأندلس من قِبَل عبّاس بن فرناس (ت ٢٧٤هـ/ ٨٨٧م).

وقد وضع المأمون، تحت رعاية يحيىٰ بن أبي منصور، الأبناءَ الثلاثة لواحدٍ من "قُطّاع الطُرق" ـ الذي كان قد أصبح فيما بعد رئيسًا لشرطة الخليفة[9] ـ وهم الذين عُرِفوا بٱسم "بني موسىٰ". وفي وُسعنا أن نتصوّر نظام التعليم الذي ٱتّبعه معهم عن طريق ما أورد حُنين بن إسحق في كتابه "نوادر الفلاسفة"[10]:

«أصلُ هٰذه الٱجتماعات أنه كانت الملُوك، من اليونانيّة وغيرها، تُعَلِّم أولادَها الحكمةَ والفلسفة، وتُؤدِّبهم بأصناف الآداب، وتتّخذ لهم بيوتَ الذهب المُصوَّرةَ وأصنافَ الصُوَر. وإنما جُعلت الصُور لٱرتياح القُلوب إليها وٱشتياق النظر إلىٰ رؤيتها. فكان الصِّبيان يلازمون بيوتَ الصُور للتأديب بسبب الصُور التي فيها. ولذٰلك نَقَشت اليهودُ هياكلَها، وصوَّرت النَّصارىٰ بِيَعَها وكنائسها، وزوَّق المسلمون مساجدهم، كلُّ ذٰلك لترتاح النفوس إليها وتشتغل القلوب بها.

«فإذا حَفِظ المُتعلِّم، من أولاد المُلوك، عِلْمًا أو حكمةً أو أدبًا، صَعِد علىٰ دَرَجٍ، إلىٰ مجلسٍ معمولٍ من الرُّخام المُصوَّر المُنقَّش، في يوم العيد الذي يجتمِع فيه أهلُ المملكة إلىٰ ذٰلك البيت، بعد ٱنقضاء الصَّلاة والتّبريك، فيتكلّم بالحكمة التي حَفِظها، وينطِق بالأدب الذي (وعاه) علىٰ رؤوس الأشهاد في وَسَطهم، وعليه التّاجُ وحُلَلُ الجواهر، ويُحَيّي المعلِّمَ، ويكرم، ويبرّ. ويُشرِّفُ الغلامُ، ويُعَدُّ حكيمًا علىٰ قَدْر ذكائه وفهمه[...].

«ويتزيَّن الناسُ بأنواع الزِّينة.

«ويقي ذٰلك ـ إلىٰ اليوم ـ للصّابئة، والمجوس، واليهود، والنّصارىٰ، في الهياكل، وللمسلمين منابر في المساجد».*

كان الإخوة "محمد" و"أحمد" و"الحسن" ـ هٰكذا كانت أسماء بني موسىٰ ـ تلامذةً مُجلّين، وقد تسرّب عددٌ من مؤلّفاتهم أيضًا إلىٰ أوروبة القرون الوسطىٰ من خلال ترجماتِ طُليطلة. وبالإضافة إلىٰ ذٰلك، فقد أنشؤوا ـ لأنهم كانوا ميّالين إلىٰ

* حُنين بن إسحق، "نوادر الفلاسفة والحكماء وآداب المُعلِّمين القدماء" (كما سمّاه ٱبن أبي أصيبعة)، ص ٥١. وكلمة "وعاه" وردت في النصّ المحقّق العربيّ، دعاه! ←

العلم ويمتلكون من المال الوافر ما يُشبع رغباتهم ـ مدرسةً للترجمة خاصّةً بهم، بَرَعَ فيها رجالٌ لهم شأنٌ كبير، مثل حُبَيْش بن الحسن الطبيب ومترجم جالينوس [الإغريقي]، وحُنَيْن بن إسحق (المعروف باللاتينيّة بـ Johannitius)، والطبيب وعالم

← وقد كتب الطبيب حُنين هٰذا الكتاب، مُستمِدًّا مادّته من اليونانيّة وغيرها من اللغات والمصادر، ترجمةً وتوفيقًا وتأليفًا، وقد أثّر بالقِيَم الإسلاميّة ورموزها.

وأصلُ هٰذا الكتاب كاملًا مفقودٌ، والمخطوطة التي بين الأيدي هي مختصرٌ له بقلم محمّد بن عليّ بن إبراهيم... الأنصاري. وقد نُشرت طبعته العربيّة، أوّلَ مرّة، بتحقيق الدكتور عبد الرحمٰن بدوي، وصدرت ضمن مطبوعات معهد المخطوطات العربيّة بالكويت (التابع للمنظمة العربيّة للتربية والثّقافة والعلوم بتونس، أليكسو، ١٩٨٥) بعنوان "آداب الفلاسفة"!

ونحبّ أن نستشهد بنصّ آخر من الكتاب، جاء تاليًا للنصّ الأوّل، هو بالأحرىٰ مثالٌ "تطبيقيّ" له، يروي حكايةً خياليّة تدور حول غلام محدود المواهب هو ٱبنٌ للملك، يتلقّىٰ العلم والحكمة علىٰ يد أفلاطون الحكيم، هٰذا الذي يقوم علىٰ خدمته غلامٌ يتيم قد ٱمتلأ نباهةً وذكاءً:

«قال حُنين بن إسحق:

«وكان أَفْلاطُن المعلّمَ الحكيم، في زمن روفُسطانيس الملك، وكان ٱسم ٱبنه نطافورس.

«وكان أرسطاطاليس غلامًا يتيمًا قد سَمَت به هِمّتُه إلىٰ خدمة أفلاطُن الحكيم .

«وٱتّخذ روفُسطانيس الملكُ بيتًا للحكمة، وفرشه لٱبنه نطافورس، وأمر أفلاطُن بملازمته وتعليمه. وكان نطافورس غلامًا مُتخلّفًا، قليلَ الفهم، بطيء الحفظ.

«وكان أرسطاطاليس غلامًا ذكيًّا، فَهِمًا، حاذقًا، مُعَبِّرًا.

«فكان أفلاطُن يُعلِّم نطافورس الحكمة والآداب، فكان ما يتعلّمه اليوم ينساه غدًا ولا يُعبِّر حرفًا واحدًا.

«وكان أرسطاطاليس يتلقّف ما يُلقىٰ إلىٰ نطافورس، فيتحفّظه، ويرسخ في صدره، ويعي ذلك سرًّا من أفلاطُن، ويحفظه، وأفلاطُن لا يعلم بذٰلك من سرّ أرسطاطاليس وضميره.

«حتّىٰ إذا كان يومُ العيد، زُيِّن بيتُ الذهب، وأُلبس نطافورس الحُلِيّ والحُلَل. وحضر الملك روفُسطانيس، وأهلُ المملكة، وأفلاطُن وتلاميذه.

«فلمّا ٱنقضت الصلاة، صَعِد أفلاطُن الحكيم ونطافورس إلىٰ مرتبة الشّرف ودراسة الحكمة علىٰ الأشهاد والمُلوك. فلم يُؤدِّ الغلامُ نطافورس شيئًا من الحكمة، ولا نطق بحرفٍ واحد من الآداب! ←

الرياضيّات ثابت بن قُرّة (في اللاتينيّة Thebit ibn korra، ت ٩٠١م/ ٢٨٨هـ)، الذي قد يكون مكتشفَ تقنيّة تدليك القلب، مثلما كان رمزًا أسميًّا لأسرةٍ من الباحثين أمتدّ نشاطها على مدى أربعة أجيال[11]. وكان لواحدٍ من ذُرّيته، حفيدِهِ ثابت، تلميذان هما الفتَيان الأندلسيّان، الأخوان أحمد وعمر [أبنا يونس بن أحمد] الحرّاني*، اللذان توصّلا إلى مناصب عليا في إدارة قرطبة**.

← «فأُسقط في يد أفلاطُن، وأعتذر إلى الناس بأنه لم يَمتحنْ علمَهُ ولا عرف مقدار فهمه، وأنه كان واثقًا بحكمته وفطنته.

«ثمّ قال، "يا معشر التلامذة! مَن فيكم مَن يضطلع بحفظ شيء من الحكمة ينوب اليوم عن نطافورس؟".

«فبَدَرَ أرسطاطاليس، فقال، "أنا، أيها الحكيم!".

«فأزدراه، ولم يأذنْ له في الكلام. وأعاد القولَ على تلامذته.

«فبدرهم أرسطاطاليس، فقال، "أنا، أيها الحكيم، أضطلع بما ألقيتَ من الحكمة!".

«فقال له، "أرْقَ!".

«فرَقِيَ أرسطاطاليس الدَّرَجَ بغير زينة، ولا أستعداد، في أثوابه الزَّرِيّة [في المطبوع، اللدنيّة] المُبتذلة، فهَدَلَ كما يهدُل الطير [في المطبوع، فهدر كما يهدر... بالرّاء]، فأتى بأنواع الحكمة والآداب التي ألقاها أفلاطُن إلى نطافورس، لم يترك منها حرفًا واحدًا!

«فقال أفلاطُن: "أيها الملك! هذه هي الحكمة التي لَقّنتُها نطافورس، قد وعاها أرسطاطاليس سرقةً، وحفظها سرًّا، ما غادر منها حرفًا! فما حيلتي في الرّزق والحرمان؟".

«وكان الملك، في مثل ذلك اليوم، [يُريد أن] يُرشّح أبنه للمُلْك، ويُشرّف ويُعلي مرتبته. فأمر بأصطناع أرسطاطاليس، ولم يُرشّح أبنه للمُلك.

"آداب الفلاسفة"، ٥١-٥٣.

* عند ڤيرنيت، الفتَيان "الإسبانيّان"! muchachos españoles.

** رَحَل "أحمد" وأخوه "عُمر"، إلى المشرق في دولة عبد الرحمٰن الناصر، سنة ٣٣٠هـ/ ٩٤٢م، حيث أقاما مدّةً، ودخلا بغداد وتأدّبا فيها بالطبّ، وخدما الرؤساء، منهم، ثابت بن سنان بن ←

وكان لأبن يحيىٰ، علي بن يحيىٰ المُنَجِّم (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)، مكتبةٌ ومحترفُ أَستنساخٍ خاصّانِ به، عمل فيهما، مدّةً، أبو مَعْشَر الشهير (Albumasar، ت عام ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)*، الذي أَبتدأ حياته محدِّثًا، ثمّ غيّر توجُّهه نتيجةً لنقاشٍ مع الكِنْدي (Alchindus لدىٰ اللاتين، ت ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م)، عندما بلغ السابعة والأربعين (توفّي أبن مئة عام).

وكان حنين بن إسحٰق محور مدرسةٍ من المترجمين نَقلت إلىٰ العربيّة أعمالَ جالينوسٍ كلِّها تقريبًا، وقد ترجم أحد تلامذته، اصْطِفَن بن بَسيل، كتاب "المادة الطبيّة"** لديسقوريدس. أمّا حنين فلم يكن تلميذًا لأسرة بني موسىٰ وحسب،

← قُرّة، وقرأا عليه كُتب جالينوس عرضًا... ثم أنصرفا إلىٰ الأندلس، ودخلاها في دولة المُستنصر ٣٥١هـ/ ٩٦٢م، وشاركاه في بعض فتوحاته في الممالك المسيحيّة... ثمّ إنه أَلحقهما بخدمته. ومات عُمر شابًّا بعلّة المعدة.

وبقي أحمد مُستخلَصًا للمستنصر، الذي أسكنه في قصره بمدينة الزهراء، وكان يُرتِّب أكلَه بين يديه. وقد تولّىٰ إقامة خزانةٍ بالقصر للطبّ (صيدليّة، بالمصطلح المعاصر)، وأستأذن أميرَ المؤمنين في أن يُعطي منها للمحتاجين من المساكين والمرضىٰ! وولّاه هشام المؤيّد بالله (أبنُ المستنصر) خُطّة الشُرطة وخُطّة السُوق. كان حيًا بعد ٣٦٦هـ. "طبقات الأطبّاء والحكماء" أبن جُلْجُل: ١١٢ و١٣ (أنظر تعريفنا بهذا الكتاب، أدناه).

و أمّا نسبة هذين الطبيبين الأندلسيّين إلىٰ "حَرّان" (المدينة المشرقيّة العريقة، في ديار بكر من أرض الرُوم ـ تركيا اليوم)، فذلك إمّا لأنهما أقاما فيها مدّةً في أيّام طَلَب الطبّ فنُسِبا إليها، وإمّا لأنّ أحد أصولهما (الأب يونس، أو الجدّ أحمد) كان ينتسب إليها بأصله!

* أبو مَعْشَر، جعفر بن محمّد بن عمر البَلْخي، من أعلم المنجّمين في الحضارة الإسلاميّة. تعلّم النجوم بعد أن بلغ السابعة والأربعين. كان أعلم الناس بتاريخ الفرس وأخبار الأمم. له تصانيف كثيرة هامّة، ويُقال إنه نَيّف علىٰ المئة. يُعرف عند الغربيّين بـ Albumasar.

وكان كتابه، الموسوم بـ"الألوف..." أحد المصادر الأكثر أهميّةً التي عوّل عليها "أبن جلجل" القرطبي في تأليف كتابه "تاريخ الأطبّاء والحكماء".

** "المادّة الطبيّة *Materia médica*" وقد عَرَف العرب هذا الكتاب ـ بعد أن نقله إلىٰ العربيّة أَصطِفَن بن بَسيل في ترجمةٍ أجازها أستاذُه حُنين ـ بأسماء عدّة: الأدوية المفردة، كتاب الحشائش، المقالات الخمس.

بل ليوحنّا بن ماسويه أيضًا (Mesue Major باللاتينيّة، ت ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م)، الذي كان، بدوره، قد درس تحت إشراف جبرائيل بن بَخْتَيْشُوع (ت ٢١٤هـ/ ٨٢٩م)، أحد أفراد أسرةٍ من أطباء مرموقين عبر أجيال عديدة أخذ نجمها في الصُّعود منذ نجح عميدها، جرجيس بن بَخْتَيْشُوع (ت ١٥٤هـ/ ٧٧١م) في شفاء الخليفة المنصور من عُصاب مَعِدِيّ، وكان جرجيس آنذاك مديرًا لمستشفىٰ جُنْدَيْسَابُور.

كان خيرة الأطباء في ذٰلك العصر ينتمون إلىٰ فارس، حيث أنصهرت معًا تقاليد البلد المحليّة وتقاليد الهند. وقد جمع القسطَ الأكبر منها الطبيبُ المسيحيّ الأصل، عليّ بن رَبَّن الطَّبَري (ت حوالي ٢٤٧هـ/ ٨٦١م) في كتاب "فردوس الحكمة" الذي يتضمّن معلوماتٍ مستمدّةً من كراكا، وسوسروتا، إلخ...

وقد حقّق الأنصهار المنسجم لكلا التيّارين ـ الكلاسيكي والهندي ويمثّلهما حُنين والطبري ـ طبيبٌ إيرانيٌّ هو الرازي[12](Razes باللاتينيّة، ٢٥١ـ٣١٣هـ/ ٨٦٥ـ٩٢٥م)، وكان في شبابه موسيقيًّا ـ يعزف علىٰ العود ـ وأختتم أيّامه مديرًا لبيمارستان العَضُدي في بغداد* . وقد درج القول، تقليديًّا، بأنه كان تلميذًا للطبري، ولٰكن في وُسعنا وضع هٰذا الزعم موضع الشكّ، لأنّ تسلسل الأحداث يحول دون قيام رابطةٍ مباشرة بينهما. فالرازي، وهو واحدٌ من أكبر الأطباء علىٰ توالي العصور، كان له تلامذةٌ يَقْدِمون إليه من مختلف أصقاع العالم، من الصين حتّىٰ الأندلس، حيث عَرَّف به فيها محمد بن مفلط وكان يقوم بزيارة مرضاه بطريقةٍ مشابهةٍ جدًّا للتي يصفها "الكتاب الملَكي" *Liber regius* لعلي بن العبّاس المجوسي (Haly Abbas في اللاتينيّة، ت حوالي ٣٨٦هـ/ ٩٩٥م).

«وممّا ينبغي لطالب هذه الصناعة، أن يكون ملازمًا للبيمارستانات

* البيمارستان العَضُدي، منسوبًا إلىٰ "عَضُد الدولة بن بُوَيْه" (٣٢٤ـ٣٧٢هـ، أحد ملوك الدَّيْلم، حكم العراق وفارس، وهو أوّل من خُطِب له ببغداد مع الخليفة...)، وقد أنشأه في الجانب الغربيّ من بغداد، ورتّب فيه الأطبّاء والخدم والوكلاء والخُزّان، ونُقِل إليه من الأدوية والأشربة والعقاقير شيءٌ كثير ومن كلّ ما يحتاج إليه... أنظر: الدكتور أحمد عيسىٰ: "تاريخ البيمارستانات في الإسلام"، ط ٢ (بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٨١): ١٨٧.

ومواضعِ المرضى، كثيرَ المُداولة لأمورهم وأحوالهم مع الأُستاذِين من الحُذّاق مِن الأطبّاء، كثيرَ التّفقُّد لأحوالهم والأعراض الظاهرة فيهم، متذكِّرًا لما كان قد قرأه من تلك الأحوال وما يدُلّ عليه من الخير والشرّ، فإنه إذا فعل ذٰلك بلغ من هذه الصناعة مبلغًا حسنا. فلذٰلك ينبغي، لمن أراد أن يكون طبيبًا فاضلًا، أن يلزم هذه الوصايا، ويتخلّق بما ذكرنا من الأخلاق، ولا يتهاون بها، [فإنه إذا فعل ذٰلك، كانت مداواته للمرضى مداواةَ صواب، ووثق به الناس ومالوا إليه، ونال المحبّة والكرامة منهم والذِّكر الجميل، ولم يَعْدَم - مع ذٰلك - المنفعةَ والفائدة من قِبَلهم، والله تعالى الموفِّق]»* .

* علي بن العبّاس المجوسي، "كامل الصناعة الطّبيّة (المعروف بـ [الكتاب] الملَكي)". ([القاهرة]، المطبعة الكبرى، ١٢٩٤هـ [١٨٧٧م])، ١: ٩.

وممّا أورده المجوسي، في هٰذا الباب (الثاني: في ذكر وصايا أبقراط وغيره من القُدماء المتطبّبين وعلمائهم) من المقالة الأولى (والكتاب مؤلّفٌ من عشر مقالات في كلّ من جزأيه الاثنين)، وصايا في أدب الطّبّ ممّا يُسمّى اليوم في الغرب Déontologie، هي خلاصةٌ فائقة لما جاء به القدماء، منها:

- أنّ على طالبي الطّبّ - «بعد تقوى الله وطاعته - أن يُفضّلوا معلّميهم ويخدموهم ويشكروهم، ويُقيموهم مقام آبائهم ويُكرموهم كإكرامهم لهم، ويُحسِنوا مكافأتهم ويُكثروا بِرّهم كما يُكثرون برّ آبائهم، ويشركوهم في أموالهم...».
- «وقال [أبقراط مخاطبًا الأطبّاء]: وينبغي أن تتّخذوا أولاد معلّميكم إخوةً لكم كأولاد آبائكم...».
- «ولا تبخلوا على من أراد تعلُّم هذه الصناعة من المستحقّين لها بتعليمكم إيّاها لهم بلا أجرة، ولا شرط، ولا طلب مكافأة، وصيِّروهم بمنزلة أولادكم وأولاد معلّميكم، وامنعوها مَن لا يستحقّها من الأشرار والسَّفِلة...».
- وعلى الطبيب «ألّا يكون غرضه في مداواته [المرضى] طلبَ المال، لٰكن طلب الأجر والثواب».
- «وأن لا يُعطي لأحدٍ دواءً قتّالًا، ولا يصفه له، ولا يدُلّ عليه، ولا ينطق به».
- «ولا يدفع إلى النساء دواءً لإسقاط الأَجِنّة، ولا يذكُره لأحد».
- «وأن يكون طاهرًا، ذكيًّا، ديِّنًا، مراقبًا الله عزّ وجلّ، رقيقَ اللسان، محمود الطريقة».

←

وكان من معاصري حُنين وثابت بن قُرّة وعلي [ابن رَبَن] الطبري، وعلىٰ صلةٍ مباشرةٍ تقريبًا ببلاط الخلافة، اثنان من المعتزلة، هما: الجاحظ (١٥٠ـ٢٥٥هـ/ ٧٦٧ـ٨٦٩م)، والكِنْدي، و[ثالث هو] المتكلّم ابن قُتَيبة (٢١٣ـ٢٧٦هـ/ ٨٢٨ـ٨٨٩م). وقد كان الأوّل [الجاحظ]، وهو واحد من أعظم الناثرين العرب في كلّ العصور، رفيقَ دراسةٍ للنظّام (٢٣١هـ/ ٨٤٥م) عالم الدين وصاحب المؤلّفات المختلفة. وكان من تلامذته الأندلسيّان: فرج سلام (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) ومحمد بن هارون، وقد أصبح معروفًا لدىٰ ابن عبد ربّه، عن طريق فرج. وتعرّض الثاني، وهو الكِنْدي، للاضطهاد إبّان ردّة الفعل الأصوليّة التي ظهرت في حكم الخليفة المتوكّل. وقد صودرت مكتبته، ولٰكنه نجح في استرجاعها، ولم تمنعه هٰذه الواقعة من مواصلة أشغاله العلميّة.

والثالث [ابن قُتيبة]، وهو كاتبٌ جيّد، مؤلّفُ سلسلةٍ من الأعمال ذاتِ طابعٍ موسوعيّ، من بينها "كتاب الأنواء" (*Ana* باللاتينيّة)، كان الأندلسيّ قاسم بن أصبغَ تلميذه عام ٢٧٤هـ/ ٨٨٧م، الذي درّس، بدوره، ابنَ القوطيّة. وقد كانت مؤلّفاته موجودةً في الأندلس قبل ٢٩٨هـ/ ٩١٠م. وتجدر الإشارة هنا إلىٰ أنّ ابن أصبغ لا بدّ أنه كان علىٰ صلة بالفلكيّ البتّاني، خلال وجوده في المشرق، لأنّ ملاحظات هٰذا الأخير ظهرت لاحقًا منعكسة في كتاب الأنواء *Liber an* لقرطبة.

إلىٰ هٰذه الزُّمرة من المؤلّفين، يرجع إدخال مجموعة من أشباه العلوم إلىٰ

←

• «ينبغي ألّا يُفشي للمرضى سرًّا من علاجٍ وغيره».

• «وأن يكون رحيمًا، عفيفًا، لطيفًا، محبًّا لاصطناع الخير، لطيفَ الكلام، قريبًا من الناس، حريصًا علىٰ مداواة المرضى ومعالجتهم، لاسيّما الفقراء وأهل المسكنة، ولا يبتغي منهم لذلك نفعًا ولا مكافأة، وإنْ أمكنه أن يتّخذ لهم الأدوية من ماله فليفعل...».

• «ولا ينبغي للطبيب أن يكون متشاغلًا بالتلذّذ والتنعّم واللعب واللهو... ولا ينبغي أن يكون أكثر تشاغلِه إلّا بقراءة الكتب والحرص علىٰ النظر فيها...».

المصدر نفسه، ١، ٨.

الإسلام، من أصل كلاسيكي وبابلي، انضافت إلىٰ العربيّة منها، بحصر المعنىٰ، والتي يومئ إليها القرآن أحيانًا، دون أن يُسميّها صراحةً. وهٰكذا، فإنّ علم تفسير الأحلام، مثلًا، علمٌ مباح منذ أن أخذ به [النبي] يوسف مؤوّلًا رؤيا فرعون. ويرجع التطوّر الكبير المحلّيّ الأصيل إلىٰ أحمد بن سيرين، الشهير (ت ١١٠هـ/ ٧٢٨م)، الذي سرعان ما تُرجِم كتابُهُ إلىٰ اليونانيّة، وقورن حديثًا مع فرويد. وقد دخل التأثير الكلاسيكي مع ترجمة أرتيميدوروس **Artemidoro** إلىٰ العربيّة، التي أنجزها، في أغلب الظنّ، حُنين بن إسحٰق. ولدينا أمثلةٌ علىٰ تطبيق هٰذه التقنيّة في إسبانيا [بشطريها: الإسلامي والمسيحي] في أحلام [الحاجب] المنصور وألفونسو السادس.

والحُلُم الأوّل (٣٧٣هـ/ ٩٨٣م) أنّ [الحاجب المنصور]، «رأى في منامه، تلك
> *الليالي، كأنّ رجلاً أعطاه "الأسْبِراج"، فأخذه من يده وأكل منه. فعبّره علىٰ "ابن أبي جُمعة"، فقال له: "أخرجْ إلى بلد إليون، فإنك ستفتحها!"، فقال: "من أين أخذتَ هٰذا؟"، فقال: "لأنّ الأسْبِراج يُقال له في المشرق الهَلْيون، فمَلَكَ الرؤيا قال لك: ها لِيُون!"...»* .

• ابن الأثير، "الكامل في التاريخ"، ٩: ٣٣ «حوادث سنة ٣٧٣هـ»، (بيروت، دار صادر ١٩٧٩).

والهَلْيون (وضَبَطَها "المحيط": الهِلْيَوْن)؛ جنس نباتٍ من الفصيلة الزّنبقيّة، تمتدّ جُذوره تحت الأرض، له قضبانٌ رقيقة رَخْصة، تؤكل مطبوخةً وغير مطبوخة، ولا سيّما في السَّلَطة، وهو يَنبُت ويُستَنبت. والكلمة يونانيّة **Eleion**. وورد عند ابن البَيْطار أنّ الهليون هو «الأسفراج [لاتينيّة *Asparagues*] عند أهل الأندلس والمغرب أيضًا، [ومنه ما] يُسمّى ـ بعَجَمِيّة الأندلس ـ أسْبَرّغين [*Esparrago* لاتينيّة ـ إسبانية]» ("جامع المفردات.."، ٤: ١٩٥). ومِن نَفْعه، عند داود الأنطاكي، تحريكُ الشاهيّة، وكذلك بفعل أكْلُ مُخلَّله ("التذكرة.."، ١: ٣٣٥). وتُسمّيه العامّة في مصر، "كشك ألماس". ومنه ـ عدا ما يُتَبقَّل به ـ نوعٌ للتزيين، يُعَرَّش على الجدران، ويُسمّونه في حلب "زهر الهوا"، لرِقّة وَرَقه (الأسدي م. خير الدين: "موسوعة حلب المقارنة" (معهد التراث العربي العلمي، جامعة حلب)، ٧ (١٩٨٨)، ٣٦٥).

و"الحاجب المنصور"، (محمّد بن أبي عامر ٣٢٦ـ٣٩٢هـ)، قائدٌ قام بشؤون الأندلس بعد وفاة الخليفة "الحكم المستنصر بالله" (٣٦٦هـ)، فكانت الدعوة على المنابر لهشام (بن الحكم) ـ وهو محتجبٌ عن الناس ـ والمُلْكُ لابن أبي عامر. كان من الشجعان الدُّهاة، خفقت راياته في قشتالة، وليون (**Leon** التي وردت في النصّ)، وكثيرٍ من مناطق إسبانيا المسيحيّة. ←

أمّا ألفونسو السادس، فإنه لمّا علم بنزول المرابطين إلىٰ برّ [الأندلس] آستنفر جيشه. وقبل الخروج إلىٰ ملاقاتهم وتحقُّقِ آنهزامه في "معركة الزّلّاقة"، حَلَمَ بأنه يمتطي ظهر فيل ويقرع طبلًا، فأوّلَ له حكيمٌ مسلمٌ، من طُليطلة، حُلمه قائلًا:

«*تأويل هٰذه الرؤيا من كتاب الله العزيز، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كيف فعلَ ربُّك بأصحابِ الفيل﴾ [سورة الفيل: ١]، وقوله تعالىٰ: ﴿فإذا نُقِرَ في الناقور، فذٰلك يومئذٍ يومٌ عسير، علىٰ الكافرين غير يسير﴾ [سورة المُدَّثِّر: ٨ـ١٠]، ويقتضي هلاكَ هٰذا الجيش الذي تجمعه!*»•.

وإنّا نجد، في كتاب "الحيوان" للجاحظ، ما يدلُّ علىٰ أنه كان قد آطّلع علىٰ الترجمة العربيّة لكتاب پوليمون في "علم الفراسة" (حيًّا ١٤٤م)، الذي ما لبث أن عُرف في الأندلس، منذ أوْرَدَ آبن جُلجل، بالرجوع إلىٰ هٰذا الكتاب، الطرفةَ القائلة بأنّ أبقراط، بناءً علىٰ قسمات وجهه، كان يشعر بنُزُوع إلىٰ الخيانة الزوجيّة. وقد وصل الكتاب، المفقودُ نصُّه اليونانيّ، إلىٰ المغرب من خلال ترجمةٍ عربيّة ـ لاتينيّة مجهولة المترجم. ويقوم هٰذا الفنّ، حسبما يعرض الجاحظ، علىٰ مقارنة شكل وجه الإنسان بوجه الحيوان، ناسبًا إلىٰ الأوّل خصائص الثاني. وقد تناهىٰ هٰذا الضرب من التشخيص إلىٰ أيّامنا هٰذه، عن طريق ج. ب پورتا (١٥٣٤ ـ ١٦١٥م) وكُتّابٍ آخرين من عصر النهضة.

وآزدهرت في بغداد، في نهاية القرن [٤هـ/١٠م]، مدرسةٌ هامّة من الفلاسفة

← وعَبَّرَ المنام: فسّره. وقول ابن الأثير: عَبّرَ المنام على ذلك المفسّر، يريد: آستَعْبره إيّاه، أي: سأله تفسيرَه وتأويلَه، وأيضًا ـ كما شرح لي صديقي الدكتور عبد الكريم اليافي ـ «العُبورَ من الصورة إلىٰ الفحوىٰ والمراد».

• آبن الأثير: "الكامل في التاريخ"، ١٠، ١٥٣.

ومطلع النصّ في أصله العربيّ: «ورأىٰ في منامه كأنه راكبٌ فيلًا، وبين يديه طبلٌ صغير وهو ينقُر فيه، فقصّ رؤياه علىٰ القِسّيسين فلم يعرفوا تأويلها، فأحضر رجلًا مسلمًا عالمًا بتعبير الرؤيا، فقصّها عليه، فآستعفاه من تعبيرها فلم يُعفِه، فقال: «تأويل هٰذه الرؤيا..... إلخ».

المسيحيِّين، يرأسها أبو بشر متّىٰ بن يونس (ت حوالي ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م)، الذي أصبح شهيرًا عام ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م، وهو العام الذي توفي فيه اَبن النديم، لأنّ هٰذا الأخير ذكره في كتابه "الفِهْرِست". ويرىٰ مايرهوف أنّ هٰذا الفيلسوف وتلميذه التركيّ الفارابي، (حوالي ٢٥٦ـ٣٣٩هـ/ ٨٧٠ـ٩٥٠م)، هما الأصداء الأخيرة لمدرسة الإسكندريّة، التي اَنتقلت من هٰذه المدينة إلىٰ أنطاكية في سورية قبل التوسُّع العربيّ، وبعدئذ إلىٰ مَرْو وحَرّان، ومن هنا نقلها يوحنّا بن حيلان النّسطوري إلىٰ بغداد عام ٢٩٥هـ/ ٩٠٨م. وبعد الفارابي، الذي لا بدّ أنه قد أصبح معروفًا في الأندلس حوالي نهاية الخلافة (اَبن جلجل لا يذكره، خلافًا لصاعد)، اَستمرّت هٰذه المدرسة حيّة في شخص يحيىٰ بن عدي (ت حوالي ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م).

وإذا كانت الثقافة الإسلاميّة الكبرىٰ، قد ظلّت، حتّىٰ ذٰلك العصر، تتمركز في بغداد، فإنّ الأمر لم يطّرد اَبتداءً من الرُّبع الأخير للقرن العاشر [الرابع الهجري]، فقد اَنبثقت نُوَيّاتٌ من السلطة وظهر ملوكٌ مناصرون للأدب والعلوم في كثير من الأقطار القديمة التي أصبحت مستقلّة: وذٰلك في القاهرة، حيث عمل "الفيزيائي" الكبير اَبن الهيثم (٣٥٤ـ٤٣٠هـ/ ٩٦٥ـ١٠٣٩م)؛ وفي بلاطاتٍ مختلفة في بلاد فارس، اَبن سينا (٣٧٠ـ٤٢٨هـ [٩٨٠ـ١٠٣٧م])؛ وفي غَزْنة (أفغانستان اليوم)، البِيروني (٣٦٢ـ٤٤٠هـ/ ٩٧٣ـ١٠٤٨م). ولا يبدو أنّ سرعة اَنتشار مؤلّفاتهم قد تأثّرت بالسِّمة الجديدة التي تبنّاها العالم المشرقي: فالبِيروني واَبن الهيثم[13]، أصبحا معروفَين في الأندلس، وهما علىٰ قيد الحياة تقريبًا، وإن لم يكن متوقّعًا أن تُمارِس مؤلّفات الأوّل تأثيرًا لاحقًا علىٰ العالم اللاتيني؛ وبالعكس، فإنّ اَبن سينا لم يصبح معروفًا، من الناحية الفلسفيّة علىٰ الأقل، إلّا في حِقبةٍ متأخّرة، لأنه لم يَستعنْ به علىٰ نحوٍ كلّيٍّ سوىٰ اَبن طُفَيْل، أي في الوقت ذاته، تقريبًا، الذي تمّت ترجمته إلىٰ اللاتينيّة.

غير أنّ الشرق الأدنىٰ مرّ بحِقبةٍ جديدة اَنعدم فيها الاَستقرار، وحالَ فقدانُ الأمن السياسي ـ كما أشار اَبن جلجل ـ دون اَستمرار الاَنطلاقة الثقافيّة بالقوّة ذاتها التي كانت لها حتّىٰ ذٰلك الحين:

وَهَنَت الإمبراطوريّة العباسيّة، فما «ظهر رجلٌ بارع في تلك

الدُّوَل، فيكون معروفًا برئاسته ومشهورًا بإحسانه، مع تراخي تلك الدُّول، بما دخل فيها من مُلك الدَّيْلم والأتراك، الذين لا نَفاق لشيءٍ من العلمِ عندهم، وإنما يَظهَر الحكماء بظُهور دُول الملوك الطالبين للحكمة» .

وأكثر من ذلك، فقد هاجر، في منتصف القرن الحادي عشر (٥ هـ)، إلىٰ القسطنطينيّة، كثيرٌ من العلماء المنتمين إلىٰ أقلّيّات دينيّة، وأسهموا في النهضة المتجسّدة من خلال پْسيللو **Psello** (١٠١٨ـ١٠٧٨م)، وترجموا إلىٰ اليونانيّة مؤلّفاتٍ عربيّة لأبن سيرين ولأبي مَعْشَر، ووضعوها موضع التذوّق والأستساغة؛ علىٰ حين فَتَرت الحماسة في نَقْل المؤلّفات إلىٰ الغرب، فكان الطبيبان: أبن الطيّب (**Benattibus**، ت ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م) وأبن بطلان (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م)، والفيلسوف الغزالي... آخر رجال العلم من المُعَبِّرين بالعربيّة، الذين وصلوا في الوقت المناسب، لتُدْرَج أعمالهم في مجموعة الترجمات اللاتينيّة السابقة لعصر النهضة، والتي أُنجزت في الأندلس.

الإمارة العربيّة في الأندلس:

كانت شبه الجزيرة الإيبيريّة ـ كما رأينا ـ من جملة البلدان التي أسرع إليها الفتحُ العربيّ. ولقد حيّرت السرعةُ، التي تمّ فيها هٰذا الفتح، المؤرّخين علىٰ الدوام، ولٰكنها سرعةٌ تجلّت في بلدانٍ أخرىٰ كانت تمتلك آنذاك كيانًا قوميًّا وتقاليدَ دولةٍ أرفعَ مستوىٰ ممّا كنّا نمتلك [في إسبانيا]. فبلاد فارس، مثلًا، سقطت أمام الفاتحين، بالسرعة ذاتها التي سقطت فيها إسبانيا، وأوشكت بيزنطة ذاتها علىٰ الأستسلام، وخلال مدّة قصيرة فقدت، تقريبًا، الأراضي كلّها، التي كانت تحت سيطرتها في المشرق وفي شمال إفريقية. ونستطيع تفسير [هٰذه] الظاهرة بأنّ

• "طبقات.." أبن جُلْجُل، ١١٦.

وليس يَخفىٰ ما في قول أبن جلجل من مبالغة. فإنّ الطبّ وسائر العلوم والآداب، كانت ما تزال مزدهرةً في تلك الحقب من تاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة، في المشرق والمغرب علىٰ حدّ سواء!

الفاتحين كانوا علىٰ تفوّقٍ عسكريٍّ كاسح ـ ولم يكن الأمر كذٰلك ـ أو أنّ الدين الجديد الذي كانوا ينشرونه قابلٌ لسرعة التمثّل، أو ـ علىٰ الأقلّ ـ لن يدخل في صراعٍ مع معتقدات البلدان المفتوحة[14]، وهٰذا هو ما كان في الواقع؛ فالمسيحيّة لم تكن مترسّخة في بعض هٰذه البلدان، فإسبانيا، مثلًا، كان جزءٌ كبيرٌ منها لا يزال وثنيًّا. لذا كان سهلًا علىٰ نظامٍ جديد ـ مَنَحَ المغلوبين ٱستقلالًا ذاتيًّا واسعًا، ولم يطالبهم إلّا بضرائب متدنّيةٍ جدًّا قياسًا إلىٰ ما درجوا علىٰ تأديته ـ أن يتغلّب دونما صعوبةٍ علىٰ المقاومات العقائديّة. وٱعتنق كثيرٌ من المسيحيّين واليهود الدينَ الجديد، الذي كان، فضلًا عن ذٰلك، يُمثّل تقدُّمًا ٱجتماعيًّا جليًّا علىٰ كلّ ما سبق أن عرفوه حتّىٰ ذٰلك الحين.

وقد شكّل فتح العرب لإسبانيا منطلَقًا لنقاشٍ واسع وطويل، ولٰكنه مثمرٌ في آخر الأمر، بين أُستاذين كبيرين من أساتذة جامعتنا، كان كلاهما في المنفىٰ بسبب الحرب الأهليّة [الإسبانيّة]. ونقصد الجدال بين "أميريكو كاسترو **Américo Castro**" و"سانتشيث ألبُرنوث **Sànchez Albornoz**"، اللذين أفضت بهما، مناهجُ ووجهاتُ نظرٍ وأمزجةٌ متباينةٌ، إلىٰ ٱستنتاجاتٍ متضاربة!

فالأوّل [أميريكو كاسترو] يفترض أنّ الدين يُشكّل عنصرًا من العناصر الأساسيّة التي تُنبئ عن التركيب الحيويّ لشعبٍ من الشعوب، وٱنتهىٰ، من ثَمّ، ٱنطلاقًا من مفهوم الأمّة، إلىٰ القول بأنّ إسبانيا لم تبدأ في الوجود إلّا نتيجةً للغزو الإسلامي، هٰذا الذي عمل ـ بحُكم ردّةِ الفِعْل ـ علىٰ توطيد المسيحيّة في نفوس المنخرطين في حروب الاَسترداد. وهو يعتقد أنه عثر علىٰ ما يُؤيّد وجهة نظره في نصوصٍ رسميّة معيّنة ذات محتوىٰ دينيّ نُشرت بعد العام ١٩٣٦.

ورأىٰ الآخر [سانتشيث ألبُرنوث] ـ دون أن ينفي بعض مساهمات أميريكو كاسترو ـ أنّ تبديل الدِّين يتِمُّ بسهولةٍ تَفُوق سهولةَ تغيير التركيب الحيوي. وهناك وقائعُ كثيرة ـ حسبما نعلم في الوقت الحاضر علىٰ الأقلّ ـ تجعل رأيه صائبًا فيما يبدو: التهيُّبُ من العُرْي الأنثويّ عبر تاريخ الفنّ الإسبانيّ، ٱبتداءً من مرحلة الرسم [أو النحت علىٰ الصخور] حتّىٰ الرسم المعاصر، وذٰلك خلافًا لما جرىٰ في فرنسا.

ويُمكننا، كذٰلك، ملاحظةُ تبديل الدين، منذ القرن العاشر [الميلادي]، بل قبل ذٰلك، حين نقف علىٰ مسلمين يحملون أسماء مثل "كارلمان" و"باسكوال" [بَشْكُوال] و"گارثيا" و"كاستيّو"... إلخ، ويجوز الافتراض أنه حصل في سُلالتهم اَعتناقٌ للإسلام إبّان الفتح وعودةٌ إلىٰ المسيحيّة إبّان الاَسترداد... إلخ. ومن هنا جاءت نظريّة ألبُرنوث في عمليّات "النُّزُولِ" من البحر، الثلاثِ، التي صنعت معالم تاريخنا: النُّزول الإسلاميّ الذي فتح لنا الطُّرُق إلىٰ التقدُّم العلميّ الأكبر، من القرن العاشر حتّىٰ الثالث عشر؛ ونُزول كولومبس في أمريكا الذي زجّ بنا في طريق إمبراطوريّةٍ ما وراءَ البحار؛ ونُزول كارلوس الخامس في ڤياڤيثيوسا الذي أفضىٰ إلىٰ دروب الإمبراطوريّة، واَستنزف آخر الأمر همّة إسبانيا في سلسلةٍ من المشاريع كانت فائدة معظمها تبعث علىٰ كثير من الريبة*!

ومهما يكن من أمر، فإنه ما إن وَقَرَتْ فكرةُ الحروب الصليبيّة في أذهان الإسبان، حتّىٰ سُعِيَ لتناسي العلاقات المتشابكة التي ظلّت تنسجها قرونٌ عدّة، من الحياة المشتركة مع المسلمين ومن الجِوَار المغربيّ، وكانت ذات تأثيرٍ حاسم في تطوّر تاريخنا. ولنفكّرْ، علىٰ سبيل المثال ليس إلّا، في النتائج السياسيّة لمصرع الملك "دون سيباستيان" في معركة "القصر الكبير"، أو لنفكّر ـ في أيّامنا هٰذه ـ بنتائج اَحتلالنا لمنطقة الحماية، في المغرب!

وعلىٰ مستوًىٰ أسمىٰ مرتبةً، إن صحّ التعبير، نُواجَهُ باَنعدام التسامح الدينيّ، الذي غالبًا ما عُزِيَ إلىٰ إرثٍ إسلاميّ؛ فإنّ من المؤكّد أنه وقع في الأندلس، في مناسباتٍ مختلفة، إحراقُ كتبٍ واَضطهادُ علماء. ودونما حاجةٍ للذهاب بعيدًا، فإنّا نستطيع أن نسترجع ذكرىٰ حالات خليل الغفلة، ومكتبة الحكم الثاني [المستنصر بالله]، واَبن حزم، والغزالي... إلخ، وحالة علماء نُفُوا من أوطانهم، مثل أبي عثمان بن سعيد بن فتحون، والسَّرَقُسطي الحمّار، الذي طرده [الحاجب]

* نجد لألبُرنوث دراسةً مستفيضةً بعنوان "اَبن حزم قمّة إسبانيّة"، يَرُدّ فيها عبقريةَ اَبن حزم إلىٰ خصائص في أصوله الإسبانيّة. نشرها الدكتور الطاهر أحمد مكي في كتابه الجامع: "دراسات عن اَبن حزم وطوق الحمامة"، ط ٣ (القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٨١)، صص ١٣٩ـ١٨٢.

المنصور وتوفي في صِقِلّيّة. وإنه لمن المؤكّد، كذلك، أنّ مسيحيّي عصر النهضة سلكوا النهج ذاته، مُنَكّلين بكلّ مَن سَوّلت له نفسه أن يُخفي كتبًا ممنوعة، سواءٌ أكان من الموريسكيّين أو من غيرهم. ولكن من المؤكّد، على نحوٍ سواء، أنّ هٰذا الضرب من الاضطهاد قد وُجد أيضًا في العالم القديم، ولكي نستشهد بحالتين، نكتفي بالتذكير بأنّ أرسطو اضطرّ يومًا إلى الهرب من أثينا، لأنه أهدى هِرْمِيَاس Hermias نشيدًا حربيًّا عُدّ منافيًا للدين، ويُخيّل إلينا أنّ كتبه لم يُنظر إليها بعين الرضى، وأنّ الحَظْر قد طالها، ممّا يُفسّر لنا ما نجده فيها من أخطاء؛ وبأنّ أرِسْتاركوس دي ساموس قد اتُّهم بالكفر لأنه دافع عن نظام مركزيّة الشمس، وذلك قبل ظهور المسيحيّة والإسلام بزمنٍ طويل. وليس علينا أن نمضي بعيدًا جدًّا في تاريخ العصور الحديثة والمعاصرة، كي نَلقىٰ في أوروبة حالاتِ اضطهادِ مثقّفين لهٰذا السبب أو ذاك.

إنّ عدم التسامح الذي تبدّىٰ في الإسلام، إنما ظهر منذ فَقَدَ سائرُ العالم فضيلة التسامح في التعامل معه، فلم يعد في وُسْعه ـ مع حُسن قصده ـ أن يُطبّق آيات القرآن التي تنصُّ على أنّ الله سيحكُم، يوم القيامة، بين أهل الأديان فيما يختلفون فيه*. وممّا لا جدال فيه أنّ الإسبان [الأندلسيّين] إذا كانوا قد استطاعوا إبداعَ ثقافةٍ علميّة رفيعة المستوىٰ، خلال العهد الإسلاميّ، فليس هناك أيُّ سببٍ "عِرْقيّ" ـ وهٰذه دعوىٰ سانشيث ألبُرنوث ـ يُتذرّع به لتعليل الإخفاق الذي نُعاني منه في العهد الحديث والمعاصر، وإنّ عُقم هٰذا العهد ـ وهو "ما يخترعه الآخرون" علىٰ حدّ قول أونامونو ـ يجب أن نبحث له عن أسباب أُخرىٰ!

لقد اعتقدتْ أوروبةُ عصرِ النهضة ـ وهي التي أنجزت طبعاتٍ عديدةً من الكتب العلميّة العربيّة ـ أنّ جميع الشخصيّات الكبيرة من هٰذا العِرق [الأندلسيّ] كانت إسبانيّة. وفي أيّامنا هٰذه، لا يتردّد أكبر مؤرّخي العلم، ج. سارتون

* بشير فيرنيت، خاصّة، إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وقالت اليهود ليست النصارىٰ علىٰ شيء، وقالت النصارىٰ ليست اليهود علىٰ شيء وهم يتلون الكتاب، كذٰلك قال الذين لا يعلمون مثلَ قولهم، فالله يحكُم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾، سورة البقرة: ١١٣

G. Sarton، في أن يكتب أنّ إسبانيا القرونِ الوسطىٰ كانت أكبر مركزٍ ثقافيٍّ في العالم بفضل المسلمين واليهود.

غير أنّ المئة السنة الأولىٰ من الحُكم الإسلاميّ (القرن الثامن الميلادي [٢ هـ])، كانت ضَحْلةً وعقيمة تمامًا من الناحية الثقافيّة، وذٰلك لأنّ الفاتحين ـ وهم رجالُ حرب ـ كانوا في الواقع "أُمّيّين"، ولم يُحاول المؤرّخون أبدًا، في وقتٍ لاحق ـ مثل ٱبن القوطيّة وٱبن طَمْلوس ـ أن يُخفُوا هٰذا الأمر. وفي حين كان أمراء الأندلس، المرتبطون أوّل الأمر بدمشق ([٩٢ـ١٣٨هـ] ٧١١ـ٧٥٦م) والمستقلّون عنها فيما بعد، يهمّهم أن يكسبوا ولاء مختلف القبائل من عربيّةٍ وبربريّة، فإنّ "الثقافة القوطيّة" كانت تتنامىٰ وفق نموذج [القدّيس] إيسيدوروس. إلّا أنّ اللغة العربيّة كانت تتغلغل، لضروراتٍ إداريّة صِرْف، بين المسيحيّين، وما لبثت أن ظهرت سلسلةٌ من المخطوطات تحمل تَعليقاتٍ وحواشيَ بلُغة الحكّام، يرجع أقدمها ـ حسب رأي گارثيا ڤيّادا Garcia Villada ـ إلىٰ القرن التاسع [٣ هـ]، ويُتيح لنا الثَّبَتُ، المشتمل علىٰ عنواناتها، أن نتبيّن أنّ اللغة العربيّة كانت مترسّخةً بين المستعربين قبل عهد عبد الرحمٰن الثاني.

ولقد كان عبد الرحمٰن الأوّل، الداخل، الأمير الأمويّ الذي نجا من المجزرة التي ٱرتكبها العباسيّون [بحقّ أُمراء بني أُميّة في المشرق]، والذي يَدين بحياته علىٰ نحوٍ ما إلىٰ المنجّمين، هو الذي ٱتّخذ الخطواتِ الأولىٰ في نَقْل الثقافة المشرقيّة إلىٰ الأندلس، وذٰلك إذا ما قصدنا بالثقافة: الآداب والعلوم الشرعيّة ـ الدينيّة، أي تلك التي كانت تَكتسِب أهمّيةً كبرىٰ، ذيّاك العهد، عند الوافدين الجُدُد. وقد وَضَع ثَبَتًا بهٰذه "التسرُّبات" محمود علي مكي وليڤي پروڤنسال*. إلّا أنه كان لا بدّ من أن تنقضي قرابة مئة عام قبل أن تأخذ هٰذه العلوم ـ بسبب ضعف قابليّتها للنّقل من

* ... تسرُّبات في الآداب، وفي مجال العلوم، من طبّ... ومن نباتات كثيرة، ٱنتقلت من المشرق... ٱنظر فاضل السباعي، "رمّان الأندلس الذي وصل إليها من الشام"، مجلّة "العربي" (الكويت، وزارة الإعلام)، العدد ٤٢٨، يوليو /تموز ١٩٩٤، صص ١٥٨ ـ ٦٢، وكذٰلك: "فِلَاحة الرُّمّان في الأندلس"، مجلّة "التراث العربي" (دمشق ٱتّحاد الكتّاب العرب)، العدد المزدوج ٣٧ و٣٨، تشرين الأوّل ١٩٨٩ ـ كانون الثاني ١٩٩٠، صص ٦٤ ـ ٨٩.

بيئة إلىٰ أخرىٰ ـ في النفاذ إلىٰ العالم المسيحيّ. وقد حصل ذلك في عهد عبد الرحمٰن الثاني (٢٠٦ـ٢٣٨هـ/ ٨٢٢ـ٨٥٢م)، حين ظهر أوائل العلماء الجديرين بهٰذا الوصف، والذين بلغ نِتاجُهم مستوىٰ أعلىٰ ممّا نجد في النهضة الكارولنجيّة علىٰ سبيل المثال، وتَفَوّق هٰذا النّتاج علىٰ الكتب اللاتينيّة ـ العربيّة في علم الفلك والطبّ. وقد اتّخذ المؤرّخان البَلَديّان [ممّن أنجبت الأندلس] ابنُ جلجل والقاضي صاعد، من هٰذه المرحلة، نقطةَ انطلاق لتاريخ العلم لدىٰ كلّ منهما.

فالأوّل [ابن جُلْجُل]، وكان طبيبًا بقرطبة وذا ثقافة يونانيّة، بذل نشاطه في عهد الحكم الثاني [المستنصر بالله] و[ابنه] هشام الثاني [المؤيّد بالله]، وأثبت ـ في كتابه "طبقات الأطباء [والحكماء]"[15] ـ أنه كان جيّد الإلمام بتطوُّر علم الطبّ بأوسع معانيه*. وتتجلّىٰ في هٰذا الكتاب أصالةٌ يفتقر إليها، بالمقابل، "تاريخ الأطبّاء والحكماء" لسابقه المشرقيّ إسحٰق بن حُنين (ت ٢٩٨هـ/ ٩١٠م)**، الذي كان قد عوّل، بدوره، علىٰ مختصر يحيىٰ النحوي (حوالي ٦٤٠م [١٩هـ])[16]. وتضمّ مصادره الواسعة جدًّا، فيما تضمّ، النصوصَ اللاتينيّة التي كانت مستخدمةً آنذاك، طبيّةً أوغير طبيّة، كما تدلّ علىٰ معرفته بكتاب پاولو أوروسيوس **Paulo Orosio**، المسمّىٰ

* يُمكننا أن نَعُدّ كتاب ابن جُلْجُل، "طبقات الأطبّاء والحكماء" ـ علىٰ إيجازه ـ أقدم نصّ في تاريخ الطبّ والأطبّاء كُتِب في المغرب الإسلامي، وهو كذٰلك من أوائل ما صُنّف في هٰذه البابة في تاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

كتبه ابن جُلْجُل لشريفٍ من أمراء بني أميّة (لم يرد اسمه في النصّ)، وفرغ من تأليفه في صدر ٣٧٧هـ (أيّار ٩٨٧م). صدر بالقاهرة (المعهد العلميّ الفرنسيّ للآثار الشرقيّة، ١٩٥٥)، في ١٣٨ص + ٤٤ مقدّمة + ٨ بالفرنسيّة، حقّقه تحقيقًا علميًّا قارب حدّ الكمال الأستاذ فؤاد سيّد، أمين المخطوطات بدار الكتب المصريّة (١٩١٦ـ١٩٦٧). ثمّ إنه طُبع ثانيةً، مصوّرًا بالأوفست (بيروت، مؤسّسة الرسالة، ١٩٨٥).

وانظر، فاضل السباعي، "عصر ازدهار الطبّ في الأندلس: ابن جُلْجُل القرطبي"، "مجلّة كليّة الدعوة الإسلاميّة"، طرابلس ـ ليبيا، العدد الحادي عشر ١٩٩٤، صص ٢٣٥ ـ ٢٦٤.

** ظهر هٰذا الكتاب في نصّين مختلفين، بعنوان "تاريخ الأطبّاء والفلاسفة، تأليف إسحاق بن حنين"، وقد ذُيّل به كتابُ ابن جُلجل "تاريخ الأطبّاء والحكماء"، ملحَقًا بطبعته الثانية (المشار إليها أعلاه) صص ١٣٩ـ١٧٨، دونما تحقيق، وبطباعةٍ افتقدت ما يُتوقّع لها من العناية.

Historia adversus paganos•. ومن المؤلّفين الآخرين ـ وهٰذا مثالٌ بسيط ـ رجع إلىٰ القدّيس جيرونيمو والقدّيس إيسيدوروس الإشبيلي، وأبي مَعْشَر... إلخ.

وأمّا "صاعد"، فقد وُلِد في ٱلْـمَرِيَّة (٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م)، وٱنتهىٰ إلىٰ أن يُصبح قاضي طليطلة وراعيًا لكلّ من لجأ إليها من العلماء••، وأسهم في تحقيق السياسة العلميّة للمأمون [بن ذي النون، أمير طليطلة]، هٰذا الذي كان يأمل أن يُنافس بذٰلك

• كان هٰذا الكتاب ـ والترجمة الحرفيّة للعنوان، "تاريخ أعداء الوثنيّة" ـ ممّا قدّم قسطنطين السابع عاهل القسطنطينيّة من هدايا إلىٰ أمير الأندلس عبد الرحمٰن الثالث (الناصر)، عام ٣٣٨هـ/ ٩٤٩م. وقد ألّفه باللاتينيّة المؤرّخ الإسبانيّ أوروسيوس الذي عاش في القرنين الرابع والخامس للميلاد. وتمّ نقله إلىٰ العربيّة في الأندلس، فكان من أوائل النصوص اللاتينيّة التي نُقلت إلىٰ العربيّة، وقد ٱعتُمد مرجعًا من قبل بعض المؤرّخين العرب، كٱبن جلجل، وٱبن خلدون الذي ذكر أنّ نَقْل هٰذا الكتاب إلىٰ العربيّة كان أيّام الحَكم الثاني (المستنصر)، وقد أنجزه كلٌّ من قاضي النصارىٰ (الذي قد يكون هو حفص بن ألبر أو الوليد بن خيزران، أو كما يورد ڤيرنيت بعد قليل، "ربيع بن زيد")، بمشاركة من أحد قضاة المسلمين قاسم بن أَصْبَغ، وعُرف بتاريخ "هروشيوش".

وبقيت من الكتاب نسخةٌ محفوظة في مكتبة جامعة كولومبيا (في نيويورك). وقد نُشر مؤخّرًا بعنوان "تاريخ العالم"، بتحقيق الدكتور عبد الرحمٰن بدوي (بيروت، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ١٩٨٢) في خمسمئة صفحة.

•• يعود أبو القاسم، صاعد بن أحمد بن عبد الرحمٰن بن محمد بن صاعد، بنَسَبه إلىٰ قبيلة "تَغْلب" العربيّة، التي قَدِمت إلىٰ الأندلس عند الفتح الإسلامي. عُرف بٱنفتاحه علىٰ الشعوب والديانات الأخرىٰ، لعلّ مردّ ذلك إلىٰ تأثّره بأستاذه فقيه الأندلس وأديبها الكبير "ٱبن حزم". وله أيضًا "جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم".

طُبع "طبقات الأمم" غير ما مرّة، في:

- بيروت، المطبعة الكاثوليكيّة للآباء اليسوعيّين، ١٩١٢، بتحقيق لويس شيخو؛
- [القاهرة]، مطبعة السعادة، د.ت.؛
- بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٥، تحقيق حياة بوعلوان.

• وترجَمَهُ إلىٰ الفرنسيّة المستشرق ر. بلاشير **R. Blachère** (١٩٠٠ـ١٩٧٣، مترجم معاني القرآن الكريم إلىٰ الفرنسيّة) رسالةً بعنوان *Livre des Catégories des Nations*، نال بها دكتوراه الدولة من جامعة باريس ١٩٣٦.

ويُعرف الرجل، في المصادر العربيّة، بٱسم "القاضي صاعد" أو"صاعد الطليطلي" أو الأندلسي. ويذكره ڤيرنيت بكُنيته "ٱبن صاعد"، فعدّلناها.

سَمِيّهُ المشرقيّ. وقد خلّف عند وفاته (عام ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م) أعمالًا واسعة بما فيه الكفاية، يهمّنا منها هنا كتابه المسمّىٰ "طبقات الأمم"، وفيه ينفذ إلىٰ ما هو أبعد من المعلومات الملموسة التي يُقدّمها عن المؤلّفات والمؤلّفين، إذ يتعمّق مذاهبهم بحُسْن دراية، عارضًا وُجهات نظره الخاصّة، من ذٰلك ما يتعلّق بعدم تكافؤ المقدرة الخلّاقة في العُروق البشريّة، ممّا يوفّر تشابهًا غريبًا وأفكارَ كلٍّ من موللر وفريتش وشتراتز.

وإنّ كلا المؤلّفَين، ابنَ جلجل وصاعد، ليتّفقان معًا اتّفاقًا قاطعًا، علىٰ أنّ أصل العلم المحلّي، العربيّ ـ الأندلسيّ، ينبغي أن يُبحث عنه في عهد عبد الرحمٰن الثاني. وبصرف النظر عمّا دخل إلىٰ الأندلس من تيّارات لغويّة ـ أدبيّة وردت من المشرق، فقد ظهر في الغرب ـ في هٰذا العهد ـ نظامُ عَدِّ الموقع، وأدخل عبّاس بن فِرناس (ت ٢٧٤هـ/ ٨٨٧م) نظريّات السند هند الفلكيّة الهنديّة، وصنع نموذجًا يُمثّل النظام الشمسيّ وحركاته، وساعةً، وعلّم طريقة قطع الكريستال الصخريّ، وحاول الطيران؛ فقد كسا جسمه، فعلًا، بثوبٍ حريريٍّ مغطّىٰ بالريش، واصطنع جناحين يُماثلان جناحَي طائر، وقذف بنفسه إلىٰ الفضاء، في الرُّصافة [شماليّ قرطبة]، ونجح في أن يبقىٰ في الجوّ لحظات، مجتازًا مسافةً ما، إلّا أنه أخفق في أن يَحُطّ علىٰ الأرض، *«مُلحقًا الضرر بمؤخّرته، لأنه لم يأخذ بعين الاعتبار أنّ الطيور تستعين بذنبها عندما تَحُطّ علىٰ الأرض، فهو لم يصطنع لنفسه ذَنَبًا»*. وإذا كان هٰذا الإخفاق قد جرّ عليه أبياتًا من الشعر هجاه بها "عدوُّه" مؤمن بن سعيد (ت ٢٦٧هـ/ ٨٨٠م)، إلّا أنّ ما بدر منه من الجراءة قد دُوِّن في الأدبيّات العربيّة، وانتقل فيما بعد إلىٰ الزَّجَل الإسبانيّ المُغنّىٰ (الرومانثيرو Romancero)[17]. ويتعيّن علينا أن نفهم هٰذه المحاولة ـ والمحاولات اللاحقة التي قام بمثلها، فيما بعد، كلٌّ من أوليفيه دي مالْمِسْبورغ (القرن الحادي عشر [٥ هـ]) وليوناردو دافينشي، ولورنْزو دي گوشماو (١٧٠٩م)... إلخ ـ بوَصْفها طيرانًا قد خُطّط علىٰ طريقة ليلينتال (١٨٩٠)، وفيه الجناحان ـ اللذان تُحرّكهما الذراعان ـ يكاد لا يكون لهما دور[18].

وأمّا عن منزلة مُنَجّمي البلاط ـ التي كانت قد ترسّخت منذ صحّ ما تنبّأ به الضّبّي[19] من قِصَر مدّة حُكم مَلِكه هشام الأوّل (١٧٢ـ١٨٠هـ/ ٧٨٨ـ٧٩٦م) ـ فإنها ازدادت في هٰذا العهد، رسوخًا، وذٰلك عندما صحّ ـ وبأسرعَ ممّا يُتصوّر ـ ما تكهّن به

يحيىٰ الغَزَال، شِعرًا، بموت عبد الرحمٰن الثاني وبهلاك الخَصِيِّ "نَصر"، ذي الحُظوة عنده، وذٰلك اَستنادًا إلىٰ مواقع النجوم*. ويُمكننا الاَعتقاد بأنّ منجّمي بلاط قرطبة كانوا يتأثّرون خُطىٰ زملائهم في المشرق، وكانوا، مِن ثَمّ، يرتدون لباسًا موحّدًا خاصًّا بهم[20]. وقد ولّدت المناظراتُ والمجادلات بين المعتقدين بالتنجيم وبين مُنكِريه، في كَنَف الإسلام، أدبيّاتٍ غنيّةً، لا نستطيع الاَهتمام بها هنا. وإننا، أيضًا، نجد بين هٰؤلاء المنجّمين أبا عُبيدة البَلَنْسي، الملقّب بـ"صاحب القِبْلة" (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)، ربّما لأنه كان يعرف تحديد سَمْت مكّة بالحساب، والمعتزليّ يحيىٰ بن يحيىٰ المُكْنىٰ بـ"اَبن سمينة" (ت ٣١٥هـ/ ٩٢٧م)، و[عبد الله] بن الشِّمر**.

في ذلك الحين وصل إلىٰ قرطبة الموسيقيُّ العراقيّ زِرْياب (ت ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م)،

* لنصر الخَصِيّ ـ «الجريء، المُقدَّم، الوَسّاع الفهم، الذي كان قد غلب علىٰ قلب مولاه عبد الرحمٰن بن الحكم، واَستظهر باَنقطاعه إلىٰ حَظِيّته "طَرُوب" أمّ عبد الله، الغالبة عليه من بين جميع نسائه»، كما يقول اَبن حيّان ـ حكايةٌ عجيبة:

> فقد تطلّعت طروبُ، إلىٰ تقديم ولدها "عبد الله" للأمر بعد الأمير أبيه، علىٰ أخيه البِكْر "محمّد" (الذي اَنقاد له الأمر فيما بعد) وتواطأت مع نصر، فسعىٰ لاَغتيال مولاه بسُمٍّ اَجتهد في تحضيره له طبيبُ الأمير "الحَرّاني ـ يونس بن أحمد". فدسّ هٰذا إلىٰ "فَجْر"، حَظِيّة الأمير ضَرّةِ طروب، مَن يُعلمها بما يُدبِّر نصر. فكان أن تمنّع الأمير عن تناول "الدواء" الذي قدّمه له نصر بيده، وعزم عليه إلّا أن يشربه أمامه، فشربه، وهلك! (٢٣٦هـ/ ٨٥٠ـ٨٥١م).
>
> "المقتبس..."، تحقيق الدكتور محمّد علي مكّي (القاهرة: المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلاميّة، ١٩٧١)، ١٤٩ـ١٥١ و٢٥٠ـ٢٥٢.

ثمّ كانت وفاة عبد الرحمٰن بعد هٰذه الواقعة بعامين (٢٣٨هـ/ ٨٥٢م)، وقد اَمتدّ حكمه خمسًا وثلاثين سنة.

وكانت قصيدة يحيىٰ الغَزَال، قُبيل نهاية الأمير وحَظِيِّهِ نصر، ومطلعها (الكامل):

قُلْ للفتىٰ نصرِ أبي الفَتْحِ إنّ المقاتل حلّ بالنَّطْحِ

** هو الشاعر الذي سُئل أن ينظم ما يُنقَش علىٰ خاتَم الأمير عبد الرحمٰن الثاني، فقال (الرمل):

خاتَمٌ للمُلْكِ أضحىٰ حُكْمُه في الناس ماضي
عابِدُ الرحمٰن فيه بقضاء الله راضي

اَبن عِذاري، ٢، ٨١.

الذي أدخل لعبة الشِّطْرنج، تلك التي كانت معروفةً آنفًا من قِبَل الوزير الساساني بُزُرْجَمِهْر (القرن السادس [الميلادي])، وكانت واسعة الآنتشار في الشرق الأدنىٰ، [كما وصل] الطبيبُ الحرّاني، وهو واحدٌ من أوائل المسلمين، نذر نفسه لممارسة الطبّ في شبه قارّتنا الإسبانيّة [الإيبيريّة]. وآنتشرت في البلاد، كذٰلك، جملةٌ من العادات الفارسيّة، تبرز منها لعبةُ الصَّوْلجان، والآحتفالُ بأعيادها كعيد النَّيروز، الذي كان يُحتفل به في الأوّل من كانون الثاني [يناير]، وعيد المهرجان*، الذي كان يختلط بالعيد المسيحيّ، عيد القديس يوحنّا المعمدان (العُنْصرة)، الذي قرّر الأمير الصَّقْلبيّ لجزيرة مَيُورْقَة، مُبَشّر [بن سليمان] (١٠٠٩ـ١٠٤٤م)** أن يحتفل خلاله بسباق الزوارق ـ الذي تغنّىٰ به آبن اللبّانة ـ والذي يُمكن النظر إليه رائدًا للسباقات الحاليّة للزوارق. وفي تلك الحِقبة ـ التي شاع فيها كثيرٌ من العادات السائدة في بلاد فارس ـ أخذت في التسرُّب أيضًا ضروبٌ من التطيُّر لا تزال ماثلةً حتّىٰ وقتنا الحاضر عند الفرس والإسبان، من ذٰلك، بعضُ ما تتشهّاه الحواملُ في وَحْمهنّ، وتحذيرُ الأطفال بأنّ مَن يلعب بالنار يتبوّل في فراشه، وأكلُ أذناب الزبيب لتنشيط الذاكرة، والتطيُّر من آنكسار المرايا، والآعتقاد بأنّ توقُّف الحديث بين مُتحدِّثين مردُّه إلىٰ مرور مَلَكٍ بجوارهم، ووضعُ مكنسةٍ خلف الباب لدَرْء بلاء، والتطيُّر من العدد ١٣... إلخ.

وتَمُدُّنا، أيضًا، النصوص التاريخيّة والشرعيّة والأدبيّة، وخاصّةً الشعريّة، بمعلوماتٍ حول دخول، أو آنتشار، منتجاتٍ، أو صناعاتٍ معيّنة، في شبه الجزيرة

* مِهْرَكان، شهرُ "مِهْر"، فصلُ الخريف، آسمُ اليوم السادس عشر من شهر مِهْر، عيدٌ قديم للپارسيّين من اليوم السادس عشر إلىٰ الحادي والعشرين، وهو أكبر عيدٍ بعد عيد النوروز، أي اليوم الجديد من السنة الإيرانيّة، ويوافق ٢١ آذار... عن "المعجم الذهبي" فارسي ـ عربي، للدكتور محمّد ألتونجي (دمشق، المستشاريّة الثقافيّة للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، ١٩٩٣).

** في مدّة حُكم "مُبَشّر بن سليمان" ـ فيما نرىٰ ـ وهمٌ، صوابه: ١٠٩٣ـ١١١٥م. وكان الفتىٰ مُبشّر من أخصّ قادة أمير جزائر مَيُورْقَة "عبد الله المرتضىٰ"، فلمّا توفّي (١٠٩٣م/ ٤٨٦هـ) خَلَفه مبشّر، وتلقّب بـ"ناصر الدولة". وقد توفّي (١١١٥م/ ٥٠٩هـ) في أثناء حصارٍ للعاصمة ميورقة، كان قد أَحْكَمَهُ تحالفٌ بين جمهوريّتي بيزة وجنوة وإمارة برشلونة.

آنظر، آبن خلدون، ٤، ١٦٥؛ ومحمّد عبد الله عنان، "عصر المرابطين والموحّدين في المغرب والأندلس"، ١، ٧٦ و٧٧، و"دول الطوائف"، ط ٢، ٢٠٩ـ١٣.

الإيبيريّة، لا يزال كثيرٌ منها محتفظًا بٱسمه العربيّ، ومتداولًا بيننا حتّىٰ يومنا الراهن. من ذٰلك كلمة el azúcar (سُكَّر) سُكَّر القصب، التي حلّت محلّ كلمة hidromiel، ومنتجات أخرىٰ مماثلة. وقد ورد ذكر [السّكّر] في مصر عام ٦٤٣م [٢٢هـ]، وبعدئذ في سوريّة ٦٨٠، وقبرص ٧٠٠، وإسبانيا ٧١٤، وواصلت الكلمة مسيرتها في العالم الغربيّ دون توقّف، وسرعان ما ظهرت في النصوص الأدبيّة العربيّة والمسيحيّة (Conde Luconor, Berceo... إلخ). وel algodón (قُطن)، وأصله من الهند، ومع أنه كان معروفًا منذ القديم، فإنه لم يصبح واسع الٱنتشار إلّا عندما أدخل العرب زراعته إلىٰ الأندلس، ومنها ٱنتقل إلىٰ إيطاليا وفرنسا (القرن الثاني عشر [٦هـ])، وإلىٰ منطقة الفلاندر (القرن الثالث عشر)، وألمانيا (القرن الرابع عشر)، وإنكلترا (القرن الخامس عشر). وسلكت الطريق ذاته السبانخ والباذنجان والأرضي شوكي والبِطّيخ الأحمر والمِشْمِش والليمون والرُزّ والتين البريّ[21]، والزعفران... إلخ. وإذا كان بعض هٰذه المنتجات مستعملًا حقًّا في العالم المسيحيّ قبل التوسُّع العربيّ، فإنه بفضل هٰذا التوسّع وحسب، أُتيح لها أن تكتسب شعبيّةً وأن يُشرَع بزراعتها المنتظمة، مع ما ترتّب علىٰ ذٰلك من تأثيرٍ لاحق في فنّ الطبخ.

ولقد كان كثيرٌ من النباتات الجديدة يحتاج إلىٰ وفرة في الماء، فعمد العرب إلىٰ تنظيم أساليبَ للتصرُّف بالمياه، ليس في المناطق المرويّة وحدها، بل كذٰلك في النُّجود، بفضل ٱتّخاذ طريقةٍ للتزوُّد به تعود إلىٰ عصر الإخمينيّين علىٰ الأقل، ونجد في "مدريد" أوّل تطبيقٍ لها معروفٍ في إسبانيا. هٰذه المدينة [مدريد]، التي تكوّنت نواتها من حصنٍ بسيط كان قد أمر بإنشائه محمّد الأوّل [حُكمه ٢٣٨ـ٢٧٣هـ/ ٨٥٢ـ٨٨٦م]، وكان يُمَدُّ بالماء بوساطة مصارف جوفيّة تُسمّىٰ "الفجّارة" أو "الخطّارة" بحسب المناطق في العالم العربيّ، وكانت تُسمّىٰ آنذاك "القناة" أو "المجرىٰ" (باللاتينيّة Matrice)، وقد تولّدت عن إضافة اللاحقة اللفظيّة etu ـ التي تعني "الوفرة" باللغة الرُّومنتيّة ـ إلىٰ هٰذه الكلمة الأخيرة، تسميتان متوازيتان للمدينة الجديدة: "مجريط" بالعربيّة، "ومدريد" بالرُّومنتيّة، وتصدر كلتاهما عن الٱشتقاق ذاته: المكان الذي تكثر فيه الأنفاق الجوفيّة لجلب المياه. وقد ظهرت، خلال حَفْر هٰذه الأنفاق، أولىٰ بقايا الأحافير لـ"إلفاس أنتيكيوس Elephas antiquus"، التي عُثر عليها في إسبانيا. أمّا التِّقَنيّة المستعملة فنعرفها علىٰ نحو ما ينبغي، بفضل

مؤلّف الكَرخي "كتاب إنباط المياه [الخفيّة]*"، وفي توسُّع شبكة المياه مع اتّساع المدينة في آنٍ واحد، وظلّت قيد الاستعمال، تحت اسم viajes [المياه المجلوبة بالأنابيب]، حتّىٰ أيّامنا هٰذه تقريبًا. أمّا المشهد، الذي كان يتّسم به، ولا بدّ، مجال مدينة مدريد، بما ينتظم فيه من صفوف الآبار المتعلّقة بهٰذه المجاري، ففي وُسع أيّ مسافرٍ أن يتصوّره بسهولة، إذا ما حلّق [في زمننا هٰذا] فوق "أصفهان" ومدنٍ أخرىٰ في الشرق الأدنىٰ، حيث يستمرّ إنشاء هٰذه القنوات واستخدامُها بمردودٍ تامّ**.

* وردت في النصّ الإسباني *Kitâb inbâh al-miyâh* (إنباه... بالهاء). كما أنّ الاسم ورد Karaŷi (الكَرَجي، بالجيم).

** أفاد الدكتور محمّد هشام النعسان (الأستاذ في معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب) بأنّ فيرنيت يشير إلىٰ نظام عربي للريّ متكامل، عُمل به في الجزيرة العربيّة قديمًا، يوزّع المياه في الأراضي عبر شبكة من القنوات، قد تمتدّ عدّة كيلومترات في باطن الأرض (وتكون لها في كلّ مسافة آبارٌ شاقوليّة لصيانتها)، أو علىٰ سطح الأرض، فتبدو للعين سواقيَ عاديّةً مكشوفة. سمّىٰ العرب هٰذا النظام، فَلَج (ج فُلْجان)، وسمّاه الفرس، كاريز (أو كهاريز).

قلت، وممّا تحدّثت عنه المدوّنات الأندلسيّة، في شأن الماء تنقله المجاري مُحْكَماتُ الصُّنع عنبًا نقيًّا، أنّ الحكم المستنصر «أجرىٰ الماء إلىٰ سِقايات الجامع [جامع قرطبة الكبير] والميضأتين اللتين مع

جانبيه، شرقيّه وغربيّه، ماءً عذبًا، جلبه من عينٍ بجبل قرطبة، [وقد] خرق له الأرض، وأجراه في قناةٍ من حجرٍ، مُتقنة البناء، مُحكَمة الهندسة، أودع جوفَها أنابيبَ الرصاص لتحفظه من كلّ دَنَس. وابتُدِئ جريُ الماء من يوم الجمعة (العاشر من صفر ٣٥٦هـ) [٢٥ كانون الثاني ـ يناير ٩٦٧م]. وفي جري الماء إلىٰ قرطبة يقول [الشاعر] محمّد بن شُخَيص في قصيدةٍ له، منها [البسيط]:

وقد خرقتَ بُطونَ الأرض عن نُطَفٍ　　من أعذبِ الماء، نحو البيت، تُجريها
طُهْرُ الجُسُوم إذا زالت طَهارتُها　　رَيُّ القُلُوب إذا حَرَّتْ صواديها»

ابن عِذاري، ٢: ٢٤٠.

ويبدا أنّ هٰذه التقنيّة العربيّة، في جرّ المياه وفي صيانتها، ظلّت متّبعةً في الديار الإسلاميّة... ورد في كتابٍ للأخوين الإنكليزيّين ألكسندر وباتريك راسل، اللذين عملا سنين مديدةً في حلب طبيبَين للجالية الأوروبيّة في ظلّ السلطنة العثمانيّة، أنّ حلب كانت تستقي من ينابيع في شماليّ المدينة، ومن هناك تُنقَل المياه بقناة، يجري جزءٌ منها علىٰ مستوىٰ الأرض، مغطًىٰ أو مكشوفًا، «ويجري جزءٌ آخر منها تحت الأرض، وتتمّ تهويتُها بوساطة فتحاتٍ للتهوية... وتُوزَّع المياه، في أنابيب فخّاريّة أو رَصاصيّة، إلى الأحواض العامّة والحمّامات والسراي (قصر الوالي) والبيوت الخاصّة...»، "تاريخ حلب الطبيعي في القرن الثامن عشر" (نقله عن الإنكليزيّة خالد الجبيلي، حلب: د. ن، ١٩٩٧): ٤٧.

ولقد أتاحت بعثاتٌ عديدة، في منتصف القرن التاسع [٣ هـ]، اكتسابَ معارفَ جديدةٍ في قرطبة: بعضها طريف ـ مثل صيد الحوت ـ وبعضها الآخر مفيد. فقد تحقّق، في ذلك الحين، تجديدان مهمّان: دودةُ القزّ، والورق؛ اتّسم أوّلُهما، في بدايته، بمسحةٍ "قصصيّة" شبيهةٍ بتلك التي وقعت في القرن التاسع عشر حول "سرقة بُذور المطّاط" من البرازيل التي مكّنت إنكلترة من الشروع بزراعته المكثّفة في ماليزيا، أو قبل ذلك أيضًا، في القرن التاسع [٣ هـ] قيامُ الشاعر [يحيىٰ] الغَزَال بـ"سرقة بُذور تين الصّبّار"!

وقد نجحت بيزنطة ـ التي كانت عدوَّتها التقليديّة، فارسُ الساسانيّة، تسدُّ عليها طريق الوصول إلىٰ الصين[22] ـ في أن تحصُل، حوالي ٥٣٠ـ٥٣٢م، علىٰ عددٍ من بُوَيْضات دودةٍ من جنس القَزِّيّات تُعرف باللاتينيّة بـ **Bombyx mori**، قد وصلت إلىٰ حوزتها، إمّا عن طريق رهبانٍ هُنُود جاؤوا لزيارة جوستنيان، أو بوساطة فارسيٍّ فارٍّ كان علىٰ معرفةٍ جيّدة بصناعة الحرير! ولم تتمكّن الوَرَشات التي أُقيمت في بيزنطة، إلّا بعد سنوات عديدة، من تلبية حاجة السوق، هذه التي كانت تُلَبّىٰ ـ حتّىٰ ذلك الحين ـ فقط من الحرير المتولّد محليًّا عن دودةٍ تُدعىٰ **Bombyx de cos**•.

فلعلّ المُنَجِّم الشاعر [الأندلسي]، يحيىٰ الغَزَال، أُتيح له التعرّف علىٰ هذه الصناعة الجديدة، في أثناء سِفارةٍ له إلىٰ القسطنطينيّة (٢٢٥هـ/ ٨٤٠م). ذلك أنّ الحرير بدأ يُذكر في الأندلس، بُعَيْد هذا العام، علىٰ حين تأخّر ذكره في بقيّة أوروبة زمنًا.

وأمّا الورق، فقد تمّ اكتشافه ـ حسب الرواية التقليديّة ـ من قِبَل الصينيّ تْسَايْ لُون **Ts'ai Lun**، وابتدأ صنعه في تركستان الشرقيّة في القرن الخامس [الميلادي]. وكان يُنتج في حوالي ٧٥٧م في سَمَرْقَنْد من قِبَل حِرَفيَّين صينيَّين، ربّما

• **Bombyx** قَزِّيَّة: جنسُ حشراتٍ من فصيلة القزّيّات، فيها أنواعٌ تَحُوك صُلْجاتٍ أو أكياسًا حريريّة، هي: قَزِّيَّة الجِزْوَع، وقَزِّيَّة الإجّاص، وقَزِّيَّة البَلُّوط، وقَزِّيَّة باماماي، وكذلك قَزِّيَّة التوت هذه **Bombyx mori**، التي تُعرف في بلاد الشام بـ"دودة القزّ"، تُربّىٰ لقَزِّها وتُطعَم ورقَ التوت.

كانوا من أسرىٰ الحرب. ووصل إلىٰ [''إفريقية''] تونس، عبر الشرق الأدنىٰ، في زمن الأغالبة، أي قبل ٩٠٩م [٢٩٦ هـ]. وٱنتهىٰ إلىٰ الأندلس قبل منتصف القرن العاشر الميلادي [٤ هـ]. فإلىٰ هٰذه الحِقبة التاريخيّة تنتمي كلٌّ من مخطوطة *Breviarium et missale mozarabicum* في لَيْدِن [هولندة] (دير سيلوس Silos)، ومخطوطة *Glosario arábigolatino* في لَيْدِن أيضًا، المكتوبتين جزئيًّا علىٰ مادّة الورق.

وإنّا لنرىٰ تحوُّلاتٍ عميقةً قد وقعت، حوالي ٩٠٠م [٢٨٧هـ]، في الوضع السياسيّ لغربيّ البحر الأبيض المتوسّط [البحر الشاميّ]. فقد ٱنتهت الحرب الأهليّة الطويلة المدىٰ بين المولّدين بزعامة عمر بن حفصون وبين الإمارة الأُمويّة، ولصالحها، في الوقت ذاته الذي مُني فيه الشّيعةُ، بقيادة ٱبن القطّ، بهزيمةٍ نكراء أمام [مدينة] سَمُّورة (٢٨٨هـ/ ٩٠١م)، ممّا أبعدهم عن الساحة نهائيًّا بوصفهم جماعةً معارضة*.
وأمّا في إفريقية (تونس)، فقد ٱنتصر الفاطميّون ــ وهم فرقةٌ من الشّيعة ــ الذين قَضَوا علىٰ إمارة الأغالبة (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م)، وتمّ لهم إخضاع إفريقية الصغرىٰ كلّها

* وأمّا ''سَمُّورة'' فهي دار مملكة الجَلَالِقة في الشمال الغربيّ من شبه الجزيرة الإيبيريّة، تقع علىٰ ضفّة نهر دويرة، أخذها من يد المسلمين ــ ومعظمُ سكّانها من البربر ــ ألفونسو الثالث ملك ليون (جِلّيقية) سنة ٢٨٠هـ (٨٩٣م)، وٱتّخذ منها قاعدة يُغير منها علىٰ الأراضي الإسلاميّة المجاورة.

ومع ٱنتشار الثورات والفتن في الأندلس، أواخر القرن الثالث الهجري، ظهر في أحواز طليطلة وطَلَبيرة أمَويٌّ خرج علىٰ أهله هو ''أحمد بن معاوية بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل''، الذي عُرف ''بٱبن القطّ''. ودعا لنفسه بين البربر في تلك الأنحاء، وزعم أنه ''المهدي''. وكان عالمًا ومشعوذًا وافر الذكاء والعزم، فٱلتفّت حوله جموعٌ غفيرة من البربر، وٱلتقىٰ بجيش ألفونسو في مخائض نحو دويرة، فهزمه ٱبنُ القطّ أولًا. ثمّ لمّا ٱنسحب زعماء البربر بقوّاتهم خشية أن يتفوّق حليفهم فيغدر بهم، صمد ٱبن القطّ فيمن بقي معه، وقاتل ببسالة، حتّىٰ قُتل (رجب ٢٨٨/ تموز ٩٠١م)، وٱحتُزّ رأسه، وسُمِّر فوق أحد أبواب سَمُّورة.

محمّد عبد الله عنان: ''دولة الإسلام في الأندلس، من الفتح حتّىٰ بداية عهد الناصر''، ط ٤ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٩)؛ ٣٤٥.

وٱنظر أيضًا: الحِمْيَري: ''كتاب الرّوض المِعطار في خبر الأقطار''، ٣٢٤ و٣٢٥؛ ''والبيان المغرب...''، ٢: ١٤٠.

تقريبًا، فتحوّلت إلىٰ ملتجإٍ لكلّ مَن شايعهم من الأندلسيّين، الذين يُضطرّون غالبًا إلىٰ مغادرة أوطانهم، مُتَّهَمين بـ"انْحلال الأخلاق"، وهي تُهمةٌ لا تتعلّق بالأخلاق، بل بتصوُّرهم السياسيّ ـ الدينيّ، الذي بلغ حدَّ تأليه الحاكم، وإنّ الشاعر الأندلسي [المهاجر إلىٰ مصر الفاطميّة] ٱبن هانئ، لم يتورّع عن أن يستهلّ قصيدةً [مدح بها المُعِزّ] بهٰذا البيت [الكامل]:

ما شئتَ، لا ما شاءتِ الأقدارُ فٱحكُمْ، فأنت الواحدُ القَهّارُ!•

ولقد ٱتّخذ سيّد إفريقية الجديد، عُبَيد الله [المهدي] لنفسه لقب "خليفة"، محطِّمًا بذٰلك وحدة الإسلام الدينيّة، التي ظلّ أُمَوِيّو الأندلس يُراعونها حتّىٰ ذٰلك الحين. ثمّ إنّ عبد الرحمٰن الثالث [أمير الأندلس] لم يتردّد ـ وقد سبقه غيرُه إلىٰ المساس بهٰذه الوحدة ـ في أن يجعل هٰذا الانْقسام "مثلَّثَ الرُّؤوس"، فتسمّىٰ خليفةً وتلقّب بـ"الناصر [لدين الله]" (٣١٧هـ/ ٩٢٩م).

كانت الدعوة الشّيعيّة [في المشرق]، تُمارَس في الخفاء، مُتّخذةً من أسباب الحِيطة، الخاصّة بفرقةٍ باطنيّة، ما يكفُل لها نشرَ أفكارها بتعليمٍ تدريجيٍّ، يترقّىٰ خلاله المريدون سُلَّم التَّراتُب درجةً درجة. وقد ضمّت جانبًا كبيرًا من هٰذه المعارف "رسائلُ إخوان الصّفا"، التي صُنِّفت في المشرق، في نهاية القرن العاشر [٤ هـ]، وحملها

• وهو المطلع للقصيدة التي ٱستهجنها النقّاد القدامىٰ، حتّىٰ خلا منها كثيرٌ من مخطوطات ديوان الشاعر... وما يليه:

وكأنما أنتَ النبيُّ محمّدٌ وكأنما أنصارُك الأنصارُ
أنت الذي كانت تُبشِّرنا به في كُتْبِها، الأحبارُ والأخبارُ
. . . . .
هٰذا الذي تُجدي شفاعتُه غدًا حقًّا، وتَخْمُدُ ـ إنْ تراه ـ النارُ

والقصيدة (٦٩ بيتًا) تجدها في: "ديوان ٱبن هانئ الأندلسي"، تحقيق محمّد اليعلاوي، طبعة مزيدة، ١ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٤)، ١٨١ ـ ١٨٧.

معه إلىٰ الأندلس مَسْلمة [ابن أحمد] المَجْريطي، وعرّف بها تلميذُه [أبو الحكم عمرو] الكَرْماني (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) في سَرَقُسطة، حيث كان تحت رعاية بني هود ووزيرهم اليهودي ـ الذي أسلم فيما بعد ـ "أبي الفضل [ابن يوسف] بن حَسْداي" (حفيد حسداي بن شَبْروط، كما يُقال)؛ ثمّ إنها آنتشرت، في منتصف القرن الحادي عشر [٥ هـ]، علىٰ نطاقٍ واسع [في الأندلس]، حتّىٰ إننا نجد في أشعارٍ شتّىٰ تلميحاتٍ إليها، وقد آستخدمها اليهود، ومنهم موسىٰ بن عزرا ([٤٤٧ـ٥٣٢هـ] ١٠٥٥ـ١١٣٨م)*. وكانت هٰذه الموسوعة [رسائل إخوان الصفا] تتألّف من خمسين رسالةً تبحث في مختلف الأمور الإلٰهيّة والإنسانيّة، بأسلوبٍ مبسّط، وتُعرّف الجمهور العريض بالأفكار الأفلاطونيّة الجديدة والفيثاغوريّة.

وقد تأثّر بأفكار هٰذه الطائفة كاتبان أندلسيّان كبيران: الفيلسوف محمّد بن مسرّة (٢٦٩ـ٣١٩هـ/ ٨٨٣ـ٩٣١م) ـ الذي تتلمذ علىٰ أبيه عبد الله (ت ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م) ـ المعتزليّ الذي تابع دروس "خليل الغفلة"**، والشاعر الإشبيلي آبن هانئ (ت ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م).

* شاعرٌ من غرناطة، وكان شقيًّا في حياته، مستغرقًا في هواه، وهو يتغنّىٰ في "ديوانه" بذكر الخمر والهوىٰ والمسرّة وللذائذات العيش علىٰ طريقة شعراء العرب. وقد ضاع شعره في نصّه العربيّ، وبقيت ترجمةٌ له إلىٰ العبريّة، آنخِل گنثالث پالنثيا، "تاريخ الفكر الأندلسيّ"، ٤٩٨.

** ترد، هنا، الإشارة مرّةً ثانية لـ"خليل الغفلة"، وهو "خليل بن عبد الملك بن كُلَيب". ولم يتحدّث ـ في علمي ـ عن هٰذه الشخصيّة المثيرة للجدل، إلّا آبن الفَرَضي (ت ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م)، فقال، إنه «من أهل قرطبة، رحل إلىٰ المشرق، وروىٰ كتاب التفسير المنسوب إلىٰ الحسن بن أبي الحسن عن طريق عمرو بن فائد (...) وكان يؤمن بالآستطاعة. وكان ـ في بدء أمره ـ صديقًا لـ"محمّد بن وضّاح"، ثمّ لمّا تبيّن أمره لآبن وضّاح هجره».

ومن طريف ما أورد آبن الفَرَضيّ عنه، أنّ خليلًا «خطَر، يومًا، علىٰ محمّد بن وضّاح (ت ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م) [صديقه القديم]، وهو يُسْمِع، فآلتفت إليه خليل فقال: "يا مُغْوي هٰذه الأمّة!"... فما زاده آبنُ وضّاح علىٰ أن قال: "يا عَيْنَيْ ذئب!"...». ←

وقد اضطرّ الأوّل [محمّد بن مسرّة] إلى الهرب نحو المشرق، حيث تأثّر بالصوفيّ ذي النّون [الإخميمي] المصري (ت ٢٤٦هـ/ ٨٦١م) بشكلٍ غير مباشر، إذ لم يُتح له أن يعرفه وهو على قيد الحياة. وبعد عودته إلى الأندلس نشر أفكاره سرًّا، وتيسّر له أن يُنهي أيّام عمره دونما كبير متاعب. ولكنّ تلامذته تعرّضوا للملاحقة منذ اعتبرهم الخليفة [الناصر] (٣٤٠هـ/ ٩٥١م) خارجين على الشريعة بسبب دعوتهم إلى معتقداتٍ هدّامة، كالقول بحرّيّة الاختيار، ونَفْي الحقيقة المادّيّة لعذاب جهنّم، والدفاع عن أفكار وحدة الوجود التي قال بها أنباذُقْليس ـ المُزيّف، والأفكار الأخرى التي نادى بها فِيلُون [الإسكندري] وفُرْفُورِيُوس [الصُّوري] وبَرُوقْلِس.

← ويقول ابن الفرضي إنّ خليلًا أتى، يومًا، بَقِيّ بن مَخْلَد (ت ٢٧٢هـ/ ٨٨٦م)، فقال له بَقِيّ يمتحنه:

«"أسألك عن أربع".

«فقال، "ما هي؟".

«قال، "ما تقول في الميزان؟".

«قال، "عَدْل الله"، ونفى أن تكون له كفّتان.

«فقال له، "ما تقول في الصراط؟".

«فقال، "الطريق"، يريد الإسلام، فمن استقام عليه نجا.

«فقال له، "ما تقول في القرآن؟".

«فلَجْلَج ولم يقل شيئًا، وكأنه ذهب إلى أنه مخلوق.

«فقال له، "فما تقول في القَدَر؟".

«فقال، "أقول، إنّ الخيرَ من عند الله، والشّرّ من عند الرجل".

«فقال له بَقِيّ، "والله لولا حالةٌ لأشرتُ بسَفْك دمك! ولكن قُمْ، فلا أراك في مجلسي بعد هذا الوقت"!».

ابن الفرضي، "تاريخ علماء الأندلس"، ١، ١٣٩ و٤٠.

وتقول الرواية، إنه «لمّا مات، أتى "أبو مروان بن أبي عيسى" وجماعةٌ من الفقهاء، وأُخرجت كُتُبه وأُحرقت بالنار، إلّا ما كان فيها من كتب المسائل»! وذلك ما أشار إليه فيرنيت قبل هذه المرّة.

ولكني رأيتُ كتاب ابن الفرضيّ يُسمّيه: «خليل بن عبد الملك بن كُلَيب، المعروف بـ"خليل الفَضْلة"» (بالفاء والضاد المعجمة)، ورسمها ڤيرنيت "خليل الغفلة Jalil al-Gafla"، وكذلك قبله بالنثيا (٣٢٥ و٢٦).

ووضع ثانيهما [ابنُ هانئ]، "ذو الأخلاق الفاسدة"، نفسه في خدمة الخليفة الفاطميّ المُعِزّ، وتغنّىٰ بانتصاراته الحربيّة. ففي المديح المُهدىٰ لجعفر بن علي، يُقدِّم، لدىٰ وصفه المعركةَ بين الليل والفجر، تعدادًا مُشهّبًا للنجوم المعلّقة فيها ينِمّ علىٰ أنه كانت أمام ناظره كُرَةٌ سماويّة، وعلىٰ أنّ التصوُّر الساميّ[23] القديم، الذي يرىٰ في النجوم جيشًا، كان لا يزال سائدًا في صميم القرن العاشر [٤ هـ]، علىٰ نحو ما يتردّد، حاليًّا، في بعض الصلوات في الكنائس، مثل كنيسة القديس تريساخيون[24].

ويُمثّل قيامُ الخلافة في قرطبة (٣١٧ـ٤٢٢هـ/ ٩٢٩ـ١٠٣١م)، مبتدأً لثلاثة قرونٍ بلغت فيها الثقافة الأندلسيّة ذُروتَها. وتُتيح لنا المعلوماتُ، التي يُقدّمها كلٌّ من ابن عبد ربّه وابن جلجل و[القاضي] صاعد وابن حزم، وكذلك الكتب التي نعلم أنها كانت تُقرأ في القرنين العاشر والحادي عشر [٤ و٥ هـ] في شبه الجزيرة الإيبيريّة، أن نستشفّ ما كان يدور في عالم الفكر، ونتعرّف طرقَ التعليم، وكذلك ما كان قائمًا من الاختلاف بين شتّىٰ المدارس.

كان هناك تصنيفٌ، أوّلُ مبسّط، للمباحث، يُقسّمها ـ بحسب المنشأ ـ إلىٰ مجموعتين: محليّة أو إسلاميّة (علوم الدين، النحو، إدارة الدولة، الشعر... إلخ)، ومجموعة أخرىٰ وافدة، بمعنىٰ أنها دخلت إلىٰ الإسلام نتيجةً للترجمات التي أُنجزت في القرنين الثامن والتاسع [٢ و٣ هـ]. ومباحث المجموعة الثانية ـ وهي التي تَغنينا هنا أكثر من الأولىٰ ـ وكانت، حسب رأي الخوارزمي ([٣٨٧هـ] ٩٧٧م)؛ الفلسفة، والمنطق، والطبّ، والحساب، والهندسة، وعلم الفلك، والموسيقىٰ، وعلم الحِيَل [الميكانيك]، والكيمياء. وفي نصٍّ يرجع إلىٰ ذلك العصر، ذي علاقة بالمرجع السابق "رسائل إخوان الصفا"، نقرأ بوضوح أنّ هنالك أربعةً من العلوم الرياضيّة: الحساب، والهندسة، وعلم الفلك، والموسيقىٰ، أي ـ بعبارة أخرىٰ ـ المجموعة الرباعيّة التي يجب البحث عن أصلها البعيد عند أرشيتاس التارنْتي، وعن أصلها المباشر عند القديس أغسطينوس وبوئيثيو وآمونيوس بن هِرْمياس.

مقابل هٰذا التصنيف الثقافيّ المحض، كان هنالك تصنيفٌ آخر، دافع عنه ابنُ حزم بشدّة في كتابه "مراتب العلوم".

وينطلق هٰذا الكتاب [الرسالة] من المبدأ القائل بأنّ مُقامنا في هٰذه الدنيا هو مقامٌ عابر [«وليس للمرء إلّا داران: دار الدنيا، ودار مَعَادِهِ إذا فارق الحياة، وبيقينٍ لا ندري أنّ مدّة المُقام في هٰذه الدار إنما هي أيّامٌ قلائل»]، ليُنادي [ـ أبنُ حزم ـ] بأنّ المباحث الجديرة بالدراسة هي تلك التي تَهدينا إلىٰ طريق الخلاص وحسب، إلّا أنّ ذلك لا يعني مَنْعَ العلوم النافعة التي تُتيح لنا كسب العيش، وإن كان كسبه أيسرَ أحيانًا علىٰ العامّة منه علىٰ المتبحّر في العلم. [«واجهاد المرء نفسه ـ فيما

> لا يُنتفَع به إلّا في هٰذه الدار من العلوم ـ رأيٌ فائلٌ وسعيٌ خاسر، لأنّ المنتفَعَ به في هٰذه الدار من العلوم، إنّما هو ما أكتُسب به المال، أو ما حُفِظت به صحّة الجسم فقط، فهما وجهان لا ثالث لهما. فأمّا العلوم التي يُكتَسَب بها المال، فإنّ وجه الكسب فيها ضيّقٌ غيرُ متّسع، وأكتساب المال بغير العلم أجدىٰ وأشدُّ توصُّلًا إلىٰ المراد من التوسُّع في العلم لكسب المال، كصُحبة السلطان وعِمارة الأرض والتقلّب في التجارات. وهٰذه الوجوه كلُّها قد نجد الجاهل الأغتم أنفَذَ فيها من العالم النّحرير.... فإذ الأمر كما ذكرنا، فأفضلُ العلوم ما أدّىٰ إلىٰ الخلاص في دار الخلود، ووصل إلىٰ الفوز بدار البقاء...»]* .

ويتعيّن أن تُدرَج في عداد العلوم النافعة المباحث ذات المنفعة الدائمة[25]، وإقصاء الموسيقىٰ وعلم الطِّلَّسمات... إلخ. [«فإنّ لكلّ مَقام مقالًا، ولكلّ زمانٍ

> حالًا. وإنّ السالفين قبلنا كانت لهم علومٌ يُواظبون علىٰ تعليمها، ويورثها الماضي منهم الآتي. ثمّ إنّ مِن تلك العلوم ما بقي وبقيت

* أبن حزم: "رسائل أبن حزم الأندلسي: الجزء الرابع: رسالة مراتب العلوم". تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، الطبعة الأولىٰ من إصدار جديد (بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ١٩٨٣) ٦٣ و٦٤.

وفي مقدّمة المحقّق (صص ٧ـ٢٩) جدولٌ ـ أستخرجه من منهج أبن حزم ـ بمراحل الدراسة التي يُعانيها المرء منذ الخامسة من عمره، وقد رآها مراحل سبعًا.

ووجدتُني أغترف من نصوص أبن حزم الأصليّة، توضيحًا لهٰذا المنهج التعليميّ، الذي توقّف عنده فيرنيت، لا سيما وأنّ بَلَديّه الإسباني آ. گ. بالنثيا كان قد ظنّ (عام ١٩٢٨) أنّ تآليف أبن حزم «في مراتب العلوم والمنطق... قد ضاعت كلُّها»، "تاريخ الفكر الأندلسي"، ٢١٧.

الحاجةُ إليه، ومنها ما دَرَس رسمُه، ودَثَرتْ أعلامُه، وأنبتَ جملةً فلم يبقَ إلّا أسمُه. فمِن ذٰلك علمُ السّحر، وعلمُ الطِّلَّسمات، فإنّ بقاياها ظاهرةٌ لائحة، وقد طُمِس معرفة علمها، ومن ذٰلك علم الموسيقىٰ وأصنافها الثلاثة، فإنّ الأوائل يَصِفون أنه كان فيها ما يُشجّع الجبناء وهو "اللويّ"، ونوعٌ ثانٍ يُسَخّي البخلاء وأظنّه "الطّنينيّ"، ونوعٌ ثالث يؤلّف بين النفوس ويُنفّر [وهو التأليفيّ]. وهٰذه صفاتٌ معدومة من العالم، اليوم، جُملةً. فاعلموا ــ أسعدكم الله بتوفيقه ــ أنّ مَن رأيتموه يَدّعي علمَ الموسيقىٰ واللّحون، وعلمَ الطِّلَّسمات، فإنه مُمَخرَقٌ كذّابٌ ومُشَعوِذٌ وَقّاح! وكذٰلك مَن وجدتموه يتعاطىٰ علم الكيمياء، فإنه قد أضاف إلىٰ هٰذه الصفات الذميمة ــ التي ذكرنا ــ أستئكالَ أموال الناس، وأستحلالَ التدليس في النقود، وظُلْمَ مَن يُعامِل في ذٰلك، والتغريرَ بروحه وبَشَرَته في جنب ما يُعاني من هٰذه الرذيلة! فإنّ العِلمَين المذكورين أوّلاً، وإن كانا قد عَدِما وأنقطعا ألبتّة، فقد كانا موجودين دهورا. وأمّا هٰذا العلم الذي يَدّعونه، مِن قَلْب جوهر الفِلِزّ، فلم يزل عَدَمًا غيرَ موجود، وباطلًا لم يتحقّق ساعةً من الدهر..... وإنما الواجب أن يتهمّم المرء بالعلوم الممكن تعلّمُها، التي قد يُنتَفَع بها في الوقت، وأن يُؤْثِر منها بالتقديم ما لا يُتَوَصَّل إلىٰ سائره إلّا به، ثمّ الأهمّ فالأهمّ والأنفعَ فالأنفع...»]*.

ويضع [أبنُ حزم]، بعد هٰذا البيان المنهجيّ التمهيديّ، خطّةً قوامها:

آ ـ أن يَشرَع بالدراسة، في السنة الخامسة من العمر، بالتعليم الأبتدائيّ، القراءة والكتابة، مع تجنُّب الحرص علىٰ حُسن الخطّ. لأنه إذا طُلِب ذٰلك فإنّ المرء

«يُفني دهرَهُ، إمّا في ظلم الناس، وإمّا في تسويد القراطيس بتواقيعَ بعيدةٍ من الحقّ، مشحونةٍ بالكذب والباطل!».

[«فالواجب، علىٰ مَن ساس صغارَ وِلْدانه وغيرَهم، أن يبدأ، منذ أوّل أستعدادهم، وفهمِهم ما يُخاطَبون به، وقوّتهم علىٰ رَجْع

* "رسالة مراتب العلوم"، ٦١ و٦٢.

الجواب ـ وذلك يكون في خمس سنين أو نحوها من مولد الصبيّ ـ فيُسلِّمهم إلىٰ مؤدِّبٍ في تعليم الخطّ وتأليف الكلمات من الحروف، فإذا دُرِّبَ الغلامُ في ذلك درس وقرأ. والحدُّ، الذي لا ينبغي أن يقتصر المعلّم علىٰ أقل منه، أن يكون الخطّ قائم الحروف، بيِّنًا، صحيح التأليف الذي هو الهجاء. فإنّ الخطّ ـ إنْ لم يكن هٰكذا ـ لم يُقرأ إلّا بتعبٍ شديد. وأمّا التزيُّد في حُسْن الخطّ، فليس هو فضيلةً، بل لعلّه داعيةٌ إلىٰ التعلّق بالسلطان، فيُفني [المرءُ] دهرَهُ، إمّا في ظلم الناس، وإمّا في تسويد القراطيس بتواقيعَ بعيدةٍ من الحقّ، مشحونةٍ بالكذب والباطل [العبارة التي سبقت]، فيضيع زمانه باطلًا، وتخسر صفقته، ويندم حين لا ينفع الندم....

[«فهٰذا حدُّ تعلُّم الكِتَاب»]*.

وأن يحفظ القرآن غيبًا للحصول علىٰ لقب "حافظ" [«وحدُّ تعلُّم القراءة أن يمهُر في القراءة لكلّ كتابٍ يخرُج من يده بلُغته التي يُخاطِب بها صِقْعَه وينفُذ فيه. ويحفظ ـ مع ذٰلك ـ القرآن، فإنه يجمع بذٰلك وجوهًا كثيرةً عظيمة، أحدها التدرُّبُ في القراءة له وتمرينُ اللسان

* "رسالة مراتب العلوم"، ٦٥.

وبعد إشارة ابن حزم، هنا، إلىٰ ما قد يُغري صاحبَ الخطِّ البديع بخدمة السلطان، يعود ليُبيِّن الرزايا التي تَحيق بمن يُقدَّر له أن يخدم السلطان... يقول:

«وإن ابْتُلي بصحبة السلطان، فقد ابْتُلي بعظيم البلايا، وعُرِّض للخطر الشنيع في ذهاب دينه، وذهاب نفسه، وشَغْل باله، وترادُف همومه. [ويُهيب به، أنّ عليه] ألا يُشاركه في محظورٍ ألبتّة، وإن أدّاه ذلك إلىٰ التّلف. فلأنْ يتلَف مظلومًا مأجورًا محتسبًا محمودًا، أفضلُ من أن يبقىٰ ظالمًا سيّئًا آثمًا مذموما، ولعلّ تلفه سريع، وإن تأخر مدّةً فلا بدّ من التلف! [وينصح] وليَعلمْ أنّ السلطان إذا رأىٰ منه إشفاقًا علىٰ دينه ونصيحةً له فيما لا يؤذيه في معاده، فإنه تتزيّد ثقتُه به، ويَجِلّ في عينيه، وإذا رآه شَرِهًا مؤثِرًا عاجِلتَه علىٰ آخرته، ساء ظنّه به، ولم يأمنه علىٰ نفسه، إذا رأىٰ الحظّ له في هلاكه!».

"رسالة مراتب العلوم"، ٧٦.

علىٰ تلاوته فيحصُل من ذٰلك حدًّا، إلىٰ ما يحصل عنده من عهوده الفاضلة ووصاياه الكريمة، ليجدها عُدّةً عنده ـ مدَّخرةً لديه قبل حاجته إليها ـ يومَ حاجته إليها»]*.

ب ـ وفي التعليم المتوسّط يدرُس النحوَ، والشعر، والرياضيّات، وهندسة المساحة، وفق كتاب أُقليدس "الأصول"، [«فإذا نَفَذَ في الكتابة والقراءة ـ كما ذكرنا ـ فلينتقلْ إلىٰ علم النحو واللغة معًا. ومعنىٰ النحو هو معرفة تنقُّل هجاء اللفظ، وتنقُّل حركاته الذي يدُلّ كلُّ ذٰلك علىٰ اختلاف المعاني... فإنْ جَهِل هٰذا العلم عَسُر عليه علمُ ما يقرأ من العلم. واللغةُ هي ألفاظٌ يُعبَّر بها عن المعاني، فيقتضي من علم النحو كلّ ما يتَصَرَّف في مخاطبات الناس وكتبهم المؤلّفة، ويقتضي من اللغة المستعمَلَ الكثيرَ التصرّف... وإنْ كان ـ مع ما ذكرنا ـ روايةُ شيء من الشعر، فلا يكنْ إلّا من الأشعار التي فيها الحِكَم والخير... فإذا بلغ المرءُ، من النحو واللغة، إلىٰ الحدّ الذي ذكرنا، فلينتقلْ إلىٰ علم العَدَد، فليُحْكِم الضربَ والقَسْم والجمع والطرح والتسمية، وليأخذ طرفًا من المِساحة، وليشرف علىٰ الأرثماطيقىٰ ـ وهو علم طبيعة العدد ـ وليقرأْ كتاب أُقليدس قراءةَ متفهِّم له، واقفٍ علىٰ أغراضه، عارفٍ بمعانيه، فإنه علمٌ رفيع، به يُتَوَصَّل إلىٰ معرفة نصبة الأرض ومِساحتها وتركيب الأفلاك ودورانها ومراكزها وأبعادها، والوقوف علىٰ براهين كلّ ذٰلك، وعلىٰ دوران الكواكب وقطعها في البُروج، فهٰذا علمٌ رفيع جدًّا يقف به المرء علىٰ حقيقةِ تناهي جِرْم العالَم، وعلىٰ آثار صنعة الباري في العالم، فلا يبقىٰ له إلّا مشاهدةُ الصانع فقط، وأمّا الصنعة والإدارة والتركيب، فقد شاهد كلَّ ذٰلك بوقوفه علىٰ ما ذكرنا. وبمطالعة كتاب المِجِسطي يعرف الكسوفات، وعُروضَ البلاد وأطوالها، والأوقاتَ وزيادةَ الليل والنهار، والمدَّ والجزر، ومنازلَ

* "رسالة مراتب العلوم"، ٦٦.

الشمس والقمر والدّراري. وأمّا الإيغال في المِساحة فمنفعته في جَلْب المياه ورفع الأثقال وهندسة البناء وإقامة الآلات الحِكْميّة]*.

[ويدرُس] علم الهيئة [الفلك] الأوّليّ (لا علم التنجيم وقد فنّده)[26]، [«وأمّا الاشتغال بأحكام النجوم، فلا معنىٰ له. ولا يخلو من أن يكون ما يحكُون من قضاياها حقًّا أو باطلًا، إذ لا سبيل إلىٰ قسم ثالث؛ فإن كانت حقًّا، فما لها فائدةٌ إلّا استعجالُ الهمّ والغمّ والبؤس والنّكد، لتوقُّع المرض، والنّكبات، وموت الأحبّة، وانقطاع كمّية العمر، ومعرفة فساد المولد، فإن قالوا إنه قد يُمكن دفعُ ما يُتوقّع من ذٰلك، فقد قضَوا بأنها لا حقيقة لها، إذ الحقّ الحَتْمُ لا سبيل إلىٰ ردّه، وإن كان باطلًا، فأهلٌ أن لا يُشْتَغَل به. ونقول قولًا صحيحًا متيقّنًا ليعلم كلّ ذي عقل ينصح نفسه، بأنه لا سبيل إلىٰ قَلْب الأنواع وإحالة الطبائع، فمَن اشتغل بشيء من هٰذين العِلْمين، فإنما هو إنسانٌ محرومٌ مخذول، يطلب ما لا يَجِد أبدًا»]**.

و[يدرُس] المنطقَ، وعلم النبات، وعلم الحيوان، وعلم السُّلالات البشريّة، والتاريخ[27]، [«فإذا بلغ الإنسان حيث ذكرنا، أخذ في النظر في حدود المنطق، وعلم الأجناس والأنواع، والأسماء المفردة والقضايا والمقدّمات والقرائن والنتائج، ليعرف المرءُ ما البرهانُ وما الشَّغَب، وكيف التحفُّظ ممّا يُظَنّ أنه برهانٌ وليس ببرهان، فبهٰذا العلم يقف علىٰ الحقائق كلّها، ويُميّزها من الأباطيل تمييزًا لا يبقىٰ معه ريب.

[«ويَنْظُر في الطبيعيّات، وعوارض الجوّ، وتركيب العناصر، وفي الحيوان والنبات والمعادن، ويقرأ كتب التشريح ليقف علىٰ مُحْكَم الصّنعة، وتأثير الصانع، وتأليف الأعضاء، واختيار المدبّر وحكمته وقدرته.

* "رسالة مراتب العلوم"، ٦٦ ـ ٦٩.

** "رسالة مراتب العلوم"، ٦٩ و٧٠.

[«فإذا أحكَم ذٰلك، من خلال ٱبتدائه بالنظر في العلوم، فلا يكنْ منه إغفالٌ لمطالعة أخبار الأمم السالفة والخالفة، وقراءة التواريخ القديمة والحديثة، ليقف من ذٰلك علىٰ فَناء الممالك المذكورة، وخراب البلاد المعمورة، ودُثُور المدائن المشهورة، التي طالما حُصِّنت وأُحكِمت مبانيها، وذهابِ مَن كان فيها وٱنقطاعهم، وتقلُّب الدنيا بأهلها، وذهاب الملوك الذين قَتلوا النفوس وظلموا الناس وٱستكثروا من الأموال والجيوش والعُدَد ليستديموها لهم ولأعقابهم، فما دامت لهم، بل ذهبوا وٱنقطعت آثارهم، ورحل بنوهم وضاعوا، وبقي، ما تحمّلوا من الآثام والذمّ والذِّكر القبيح، لازمًا لأرواحهم في المَعاد ولذكرهم في الدنيا، فيَحدث له فيها بذٰلك زهدٌ وقلّة رغبة...»]* .

جـ - وللتعليم العالي دراسةُ علوم القرآن، والأحاديث النبويّة، والفِقْه (الأحكام الشرعيّة)، وعلوم الدين. [«فالعلوم تنقسم أقسامًا سبعة، عند كلّ أمّة، وفي كلّ زمان، وفي كلّ مكان، وهي: علمُ شريعة كلّ أمّة... وعلم أخبارها، وعلم لغتها، فالأمم تتميّز في هٰذه العلوم الثلاثة. والعلوم الأربعة الباقية تتّفق فيها الأمم كلُّها، وهي: علم النجوم، وعلم العدد، و[علم] الطبّ... وعلم الفلسفة.....

[«وعلم شريعة الإسلام ينقسم أقسامًا أربعة: علم القرآن، وعلم الحديث، وعلم الفِقْه، وعلم الكلام. فعلم القرآن ينقسم إلىٰ معرفة قراء[ا]ته ومعانيه، وعلم الحديث ينقسم إلىٰ معرفة مُتُونه ومعرفة رُواته، وعلم الفِقْه ينقسم إلىٰ أحكام القرآن، وأحكام الحديث، وما أجمع المسلمون عليه وما ٱختلفوا فيه، ومعرفة وجوه الدلالة وما صحّ منها وما لا يصحّ، وعلم الكلام ينقسم إلىٰ معرفة مقالاتهم ومعرفة حِجَاجهم وما يصحّ منها بالبرهان وما لا يصحّ....»]** .

ويَحمِل التصنيفُ الذي يعرضه ٱبن حزم، ملامح من التصنيف الذي ٱقترحه أرسطو، ولٰكن مع ٱستبعاد الفلسفة، التي لم تكن الأوساط الدينيّة [الإسلاميّة] تنظر إليها بعين الرضىٰ دائمًا، لتعدُّد مذاهبها ومناقشاتها.

* "رسالة مراتب العلوم"، ٧٢.

** "رسالة مراتب العلوم"، ٧٨ و٧٩.

ولم يُكتب النجاح لنظام التعليم [هذا] الذي اقترحه ابن حزم. فقد أكّد ابن العربي الإشبيلي (٤٦٨ـ٥٤٣هـ/ ١٠٧٦ـ١١٤٨م)، بعد قرنٍ من الزمان، أنّ الأندلسيّين يُقدِّمون تعليمَ اللغة العربيّة والشعر على سائر العلوم، لأنّ الشعر ـ حسب قوله ـ "ديوان العرب"، وبعدئذ يبدؤون بتعلُّم القرآن. إنهم يفعلون خلاف ما يفعله سائر المغاربة والمشارقة، الذين يبدؤون بتعليم القرآن قبل سائر العلوم. ففي رأيه، أنه يتعيّن أن يسبِق تعليمُ الشعر والنحو والحساب و"القوانين" دراسةَ القرآن، لأنّه... «*ويا غفلةَ أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبيّ بكتاب الله في أوامره، يقرأ ما لا يفهم وينصِب في أمر غيره أهمّ ما عليه!*»• . ويبدو أنّ منهجه مستلهمٌ من مجمل التعليم الكلاسيكي، على نحو ما يعرضه حُنين بن اسحٰق في كتاب "النوادر..."[28].

من البَدَهيّ أنّ هٰذه التصنيفات كانت بالغة التبسيط. أمّا التصنيفات الأعظمُ تأثيرًا فكانت أكثرَ تعقيدًا، وقد تطوّرت في العالم العربي تطوُّرًا بعيدًا جدًّا، لأنه ساد اعتقادٌ، على نحوٍ واسع، أنّ مَن يعرف هٰذه التصنيفات، وبالأحرى: [مَن يحفظ] أسماء العلوم المُندرجة فيها والعلاقات الخارجيّة القائمة بينها، مَلَكَ ناصية العلوم. ومن هنا فإنّ العلوم الأساسيّة تتفرّع وتتفرّع لدرجة إعطاء قوائمَ تغَصّ بالموادّ.

ويجدر بنا أن نذكر، من بين هٰذه التصنيفات الواسعة جدًّا، تصنيفَ الفارابي في كتابه "إحصاء العلوم"، وتصنيف ابن سينا في "كتاب النجاة".

• وفيما أورد ابن خلدون، في هٰذا الصدد، قوله:

«ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن عربي، في كتاب رحلته، إلى طريقةٍ غريبة في وجه التعليم، وأعاد في ذلك وأبدأ، وقدّم تعليمَ العربيّة والشعر على سائر العلوم، كما هو مذهب أهل الأندلس، قال: لأنّ الشعر "ديوان العرب"، ويدعو ـ على تقديمه وتعليم العربيّة في التعليم ـ ضرورةُ فساد اللغة. ثمّ ينتقِل منه إلى الحساب، فيتَمرّن فيه حتّى يرى القوانين، ثمّ ينتقل إلى درس القرآن، فإنّه يتيسّر عليك بهٰذه المقدّمة. ثمّ قال: "ويا غفلةَ أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبيّ بكتاب الله في أوامره، يقرأ ما لا يفهم وينصِب في أمر غيره أهمّ ما عليه!". ثمّ قال: ينظُر في أصول الدين، ثمّ أصول الفقه، ثمّ الجدل، ثمّ الحديث وعلومه. ونهى مع ذلك أن يُخلَط في التعليم عِلمان، إلّا أن يكون المتعلّم قابلًا لذلك بجُودة الفهم والنشاط...».

"المقدّمة" (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، ٥٣٩.

وكان تحت تصرُّف التعليم ثلاثة أصناف من الكتب: المختصرات الأساسيّة، ذات العبارة الدقيقة، وكانت تُفيد في اَستذكار النقاط الرئيسيّة بسرعة، وفي تعليم الخطوط الجوهريّة للموهوبين خاصّة؛ والعليا منها، وكانت تُفيد في دراسة المادّة أوّل مرّة؛ والمتوسّطة، وفيها تتوازن الفكرة والعبارة، وهي نافعة لكلّ فئة من القرّاء.

وفي التعليم الاَبتدائي، كان التلميذ يُعاقَب ـ وهو أسلوب لا يزال جاريًا في الوقت الراهن في المدارس الإسلاميّة والتلموديّة في شمال إفريقية ـ بأن يُضرب بالعصا ضرباتٍ علىٰ باطن قدميه، وذٰلك بعد أن تُثبَّتا مقيّدتين بأداةٍ ـ ترجع إلىٰ عهد اليونان! ـ تسمّىٰ "فَلَقَة". ويحصُل الطالب، عند نهاية دراسته وبعد اَجتيازه اَمتحانًا، علىٰ إجازةٍ من كلّ واحدٍ من أساتذته، تخوّله أن يُدرِّس ـ بدوره ـ الكتب التي قرأها وتعلّمها. ولم يكن هنالك لقبٌ نوعيٌّ يحوزه، إلّا أنّ مهنة التعليم كانت تُمارس بوصفها حصيلةً لجملةٍ من الإجازات المستقلّة التي كانت تُمنح، في حالاتٍ ما، دونما مناسبة.

ولقد اَستُحدثت في بعض المهن ـ في الطبّ علىٰ وجه التحديد ـ اَعتبارًا من القرن التاسع [٣ هـ] اَمتحاناتٌ، تُجرىٰ بين الحين والآخر، فاقت كثيرًا بجِدّيّتها ما سبق، ولم يكن يُستثنىٰ منها إلّا الممارسون المشهود لهم بالكفاءة. وكانت "الدراسات العليا" تتِمّ عادةً بين سنّ العشرين والخامسة والعشرين، وتُوَفِّر مزاولةُ المهنة مواردَ تتفاوت إلىٰ حدّ بعيد، بحسب ما يتمتّع به الممتهن من الاَعتبار، وقد لوحظ أنها بلغت، في حالات خاصّة، مبالغ فائقة، تُضاهي ما يحصُل عليه كبارُ شعراء البلاط، الذين كانوا بمنزلة "الصحفيّين" في ذيّاك العصر.

وفي المجالس الثقافيّة، كان لا بدّ من التعليق علىٰ العجز السياسيّ والذهنيّ لنصارىٰ الشمال [الإسباني]. وتصدر عن صاعد [الطليطلي] كلماتٌ جازمة بهٰذا الشأن: *«وأمّا الجَلالِقة، والبرابرة، وسائرُ سكان أكناف المغرب من هٰذه الطبقة، فأُممٌ خصّها الله، عزّ وجلّ، بالطُّغيان والجهل، وعمّها بالعدوان والظلم»*•.

• قسّم القاضي صاعد الطليطلي الأُممَ ـ في تقسيم أوّل ـ إلىٰ طبقات (واَنطلاقًا من ذٰلك وَسَمَ كتابه، علىٰ صغر حجمه، بـ"طبقات الأمم"!)، فـ «الناس كانوا، في سالف الدهور وقبل تشعُّب ←

كانت هٰذه المجالس تُعقَد في محافل شتّىٰ، أهمّها مكتبة القصر [قصر الخليفة عبد الرحمٰن الثالث] التي كانت ـ بأشتمالها علىٰ أربعمئة ألف مجلّد ـ تُعدّ أعظمَ

← القبائل وأفتراق اللغات، سبع أمم»: الفرس، والكلدانيّون (السريانيّون، والبابليّون، والأثوريّون، والعرب[...])، واليونانيّون (ومعهم الروم والإفرنجة والجَلالِقَة والصَّقالبة والرُّوس والبُلْغَر...)، والقِبْط (أهل مصر، والجنوب، وأهل المغرب)، وأجناس التُّرك، والهند والسند (أمّة واحدة)، والصين.

ثمّ إنه أعاد التقسيم، من حيث العنايةُ بالعلم حسب تصوُّره، فقال:

«وجدنا هٰذه الأمم ـ علىٰ كثرة فِرَقهم وتَخالُف مذاهبهم ـ طبقتين، فطبقةٌ عُنيت بالعلم، فظهرت منها ضروب العلوم، وصدرت عنها فنون المعارف؛ وطبقةٌ لم تُعنَ بالعلم عنايةً يستحقُّ منها أسمَهُ وتُعدُّ من أهله، فلم يُنقَل عنها فائدةُ حكمة ولا دُوِّنَت لها نتيجةُ فكرة.

«وأمّا الطبقة التي عُنيت بالعلوم، فثماني أُمم: الهند، والفرس، والكلدانيّون، واليونانيّون، والروم، وأهل مصر، والعرب، والعبرانيّون.

«وأمّا الطبقة التي لم تُعنَ بالعلوم، فهي بقيّة الأمم بعد مَن ذكرنا، كالصين ويأجوج ومأجوج، والتُّرك... والخَزَر... واللان، والصَّقالبة، والرُّوس... والبرابر، وأصناف السُّودان من الحبشة والنوبة والزَّنج وغانة... [إلىٰ أن يقول، وإنّ] مَن كان منهم موغلًا في بلاد الشمال، فإفراطُ بُعْد الشمس عن مُسامَتَةِ رؤوسهم برَّد هواءهم وكثَّف جوَّهم، فصارت لذٰلك أمزجتهم باردةً وأخلاقهم فجّة، فعظُمت أبدانهم وأبيضّت ألوانهم وأنسدلت شعورهم، فعدموا بهذا دقّة الأفهام وثُقوب الخواطر، وغَلَب عليهم الجهل والبلادة، وفشا فيهم العِيُّ والغباوة... [وبعد أن تصوَّر أحوال مَن سكن في الجنوب، عرّج في وصفه علىٰ طبقة أُخرىٰ] وأمّا الجلالقة، والبرابرة، وسائر سكّان أكناف المغرب من هٰذه الطبقة، فأمم خصّها الله عزّ وجلّ بالطغيان والجهل، وعمّها بالعدوان والظلم... [وأستدرك] علىٰ أنهم لم يوغلوا في الشمال فتلحقهم آفةُ البلد، ولا تمكّنوا من الجنوب فتُفضي إليهم طبيعةُ الموضع، بل مَساكنهم قريبةٌ من البلاد المعتدلة الهواء...».

"طبقات الأمم" (بيروت، ١٩٨٥)، ٣٣ـ٤٢.

وقد عرفت المصادر الإسلاميّة الجلالقة Los gallegos، بأنهم محاربون ذوو شدّة وبأس .«وكان أشدّ ما علىٰ أهل الأندلس، من الأمم المحاربة لهم، الجلالقة. كما أنّ الإفرنجة حربٌ لهم، غير أنّ الجلالقة أشدُّ بأساء، الحميري، ٣٢٤.

وإلىٰ الجبال الوعرة، في الشمال الغربي من شبه الجزيرة، كانت قد ٱلتجأت فلول الجيوش الإسبانيّة المندحرة عند الفتح الإسلامي، وهناك ما برحوا يتوسّعون، متحالفين، حتّىٰ أنتهوا إلىٰ إجلاء المسلمين عن شبه الجزيرة.

مكتبةٍ في الغرب كلّه، فكانت تضمّ، إلىٰ جانب الكتب المنقولة عن اللغة اليونانيّة من قِبَل ذوي الثقافة الإغريقيّة في قرطبة، ما ورد من كتبٍ من المشرق، وكذٰلك الترجماتِ اللاتينيّةَ العربيّة التي أمر بها وليُّ العهد الحَكَم [المستنصر]. ولم يصل إلينا، من هٰذه الثروة الضخمة [التي كان يضمّها ذٰلك القصر]، سوىٰ كتابٍ واحد يحمل تاريخ ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م. وقد بلغَ شَغَفُ وليِّ العهد بالكتب حدَّ أن يدفع مبالغ عالية لاقتنائها، وكانت أسعارها في المشرق تتراوح بين خمسمئة بيزيتة للنسخة العاديّة وخمسة آلاف بيزيتة [!] للنسخة النفيسة. وقد اَستطاع أن يقتني "كتاب الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني، قبل أن يُعرف هٰذا الكتاب في المشرق، بأن دفع ألف دينار ثمنًا له.

ويبدو أنّ الأندلس لم تشهد ـ فيما يبدو ـ إقامة مستشفيات، مع علمهم بوجودها وتنظيمها في المشرق، مع أنّ [طبيبًا] أندلسيًّا هو "اَبن عبدون الجبلي" [من القرن الرابع الهجري/ ١٠م] توصّل [وهو في مصر] إلىٰ أن يُصبح مديرًا لمستشفىٰ الفُسطاط. ويدلّ هٰذا أيضًا، كما يظهر، علىٰ أنّ صيدليّة القصر كانت تُمكّن الفقراء من أن يحصلوا علىٰ حاجاتهم من الدواء مجّانًا*.

وكانت تُلحق بالقصر، أيضًا، حدائقُ للحيوانات وللنباتات. وليس من شكّ في أنّ إنشاءها كان يستغرق وقتًا طويلًا، وأنّ السهر عليها كان باهظ التكاليف. علىٰ أنه كانت قد توافرت في قرطبة منذ أيّام عبد الرحمٰن الثاني [القرن الثالث للهجرة/ ٩م]، نماذج من حيوانات المناطق البعيدة، كالجِمال[30] والزّرافات، والنّعامات، والطّيور الناطقة**... إلخ، ممّا كان يُزوّدهم بها المُوالون لهم في إفريقية [تونس]. وقد

* «وتولّىٰ [أحمد بن يونس بن أحمد الحرّاني] إقامة خزانة بالقصر للطبّ [صيدليّة] لم يكن قطّ مثلها. ورتّب لها اَثني عشر صبيًّا [من الصقالبة] طبّاخين للأشربة، صانعين للمعجونات، واَستأذن أميرَ المؤمنين [الحَكَم المستنصر] أن يُعطي منها مَن اَحتاج من المساكين والمرضىٰ، فأباح له ذٰلك...».

"طبقات..." اَبن جلجل، ١١٣.

** وردت الكلمة في النصّ الإسباني "pájaros que hablaban"، أي: الطيور الناطقة. ثمّ أتبعها المؤلّف بين قوسين (zarzúr)، ولعلّه يقصد الببّغاوات، أو قد يكون الأندلسيّون أطلقوا علىٰ هٰذه الأخيرة زرزور ج زرازير.

اتّبع، فيما بعد، سُنّةَ اتّخاذ الحدائق، ملوكٌ أوروبّيون، مثل أنريكه الأوّل دي إنگلاتيرا (١٠٦٨ـ١١٣٥م) وفيديريكو الثاني دي هوهِنْشتاوْفِن.

ولقد تجلّت المعرفة، في هٰذه الحِقبة، في عددٍ من الأعلام: حَسْداي بن شَبْرُوط، يهوديٌّ، طبيبٌ ووزيرٌ وسفيرٌ للخليفة عبد الرحمٰن الثالث [الناصر]، وهو أيضًا "تلميذٌ" ـ مَثَله في ذٰلك، ربّما، مثل الرياضيّ مَسْلمة المجريطي وابن جُلْجُل أيضًا ـ للراهب البيزنطي [الطبيب] "نيقولا"، الذي بعثه الإمبراطور [قسطنطين السابع]، بطلبٍ من الخليفة [الناصر]، لكي يُوفّق بين مصطلحات [الأدوية] في الترجمة العربيّة المشرقيّة ـ لكتاب ديسقوريدس "المادّة الطبيّة" ـ وبين ما كان يُتّخذ في الأندلس من هٰذه المصطلحات•. وربّما كان في عِداد هٰذه الجماعة الطبيبُ والأديب [أبو عبد الله محمّد بن الحسين، المعروف بـ] ابن الكتّاني، تلميذ الأخوين الحرّانيَّيْن والأسقفُ أبي الحارث، وهٰذا بدوره كان قد تتلمذ علىٰ "ربيع بن زيد"، الذي عُيِّن أسقفًا من قِبل الخليفة، مكافأةً له علىٰ نجاحه في أداء كلّ ما عُهد إليه به من مَهَمّاتٍ رسميّة: سِفارةٌ إلىٰ ألمانيا، وَضَعَ فيها نهايةً لعناد السفير الألماني في قرطبة، القدّيس خوان دي گورثا، مُدْخِلًا ـ في سِفارته تلك ـ أوّلَ الكتب العلميّة المشرقيّة إلىٰ وسط أوروبة، وسِفارةٌ أُخرىٰ إلىٰ الشرق الأدنىٰ، حيث استورد من هناك موادَّ البناء المتميّزة التي استُعملت في تشييد مدينة "الزهراء"، وأخيرًا اشتغاله مترجِمًا من اللاتينيّة إلىٰ العربيّة بمشاركةٍ من القاضي "قاسم بن أَصْبَغ"••.

في هٰذه الحقبة من تاريخ الخلافة [الأندلسيّة]، كان يسود تسامحٌ دينيٌّ وسياسيٌّ رحيب. فقد كان العلماء، من مختلف الأعراق والأديان، يتعاونون تعاونًا وثيقًا، وخيرُ دليلٍ علىٰ ذٰلك ما كان يتمتّع به حَسْداي ـ المذكور آنفًا ـ من الرعاية،

• تجد، في الفصل الثاني، حديثًا من المؤلّف، مفصّلًا، عن كتاب ديسقوريدس هٰذا.

•• والكتاب الذي نقلاه إلىٰ العربيّة (وقد يكون الأسقف ربيع بن زيد هو المترجم له عن اللاتينيّة، ودور القاضي قاسم فيه إعادة صياغة النصّ بأسلوب عربي متين) هو تاريخ هروشيوش، الذي سبق تعريفنا به.

علىٰ قدم المساواة مع المسلمين والمسيحيّين، وكذلك إخوته في الدين، اليهود، ففي مزادٍ أجراه أمير البحر "ٱبن رُماحيس"، وُضِعَ قَيْدَ البيع في سوق قرطبة، بصفته عبدًا، العلّامةُ "الحاخام موسى بن حانوك"، عضو الأكاديميّة التلموديّة الشهيرة بـ"سُورا Sura"، وقد ٱفتكّته الطائفةُ الإسرائيليّة القرطبيّة، قبل أن تجعله وجيهها، وتحلّق حوله شعراء من أمثال مِناحيم بن سَروق الطُّرطُوشي ودُناش بن لَبْراط البغدادي*، هٰذا الذي أدخل علم العروض العربي إلىٰ الشعر العبري.

ولقد كان للمخاوف "الألفيّة" للعالَم المسيحي ما يُقابلها في الرُّموز الفلكيّة التي كانت تُنبئ ـ بحسب تكهُّنات المنجّمين القرطبيّين ـ بالنهاية الوشيكة للخلافة [الأمويّة في الأندلس]، فقد شهدت قرطبة كسوف الشمس (٣٩٤هـ/ ١٠٠٤م)، ثمّ ظهر مذنّب (١٠٠٦م)، وعلىٰ سبيل الختام، وقع ـ مثلما وقع في سائر أنحاء العالَم ـ قِرانُ المُشتري وزُحَل في بُرج العذراء**، فتكهّن المنجّمون، من هٰذه الوقائع كلّها، بٱندلاع الحرب الأهليّة. وفي شأن هٰذه الواقعة الأخيرة علىٰ وجه التحديد، ولأنها وقعت في برج ثنائيّ الطور، فقد خَلَصوا إلىٰ أنّ الحكّام، الذين يُقدَّر لهم أن يترأسوا في هٰذه الحِقبةَ، سيتولّون الحكم مرّتين منفصلتين! وهٰذا ما تحقّق علىٰ أرض الواقع،

* يُفسّر الدكتور حسن ظاظا هٰذا الاسم ـ الذي يبدو غريبًا ـ بقوله: فـ «دُونَش هو التحريف العامّي الإسباني في العصور الوسطىٰ لأدونيس، ولَبْرَط من الكلمة اللاتينيّة ليبرادو أو من ليبرتي، يعني المُعتَق أو الحاصل علىٰ حرّيّته».

ٱنظر: مجلّة "الفيصل" (الرياض، دار الفيصل الثقافيّة)، العدد ٢٤٤، شوال ١٤١٧ هـ (فبراير ـ مارس ١٩٩٧)؛ ص٢٠.

** يُحدّثنا ٱبن عِذاري فيقول:

«وفي دولة المظفّر [ٱبن الحاجب المنصور] ظهرت فصولٌ مختلفة من الآفات، منها، في هٰذه السنة [٣٩٤هـ/ ١٠٠٤م]، كسوفُ الشمس، في السّاعة السّابعة من يوم الاثنين لليلةٍ بَقِيَت من ربيع الأوّل [٣٠ منه]، وبعد ذٰلك ظهر النّجم الذّؤابي، وكان [لـ]للمنجّمين فيه أقوالٌ عظيمة وإنذاراتٌ مرهوبة... شنيعة...».

وفي حوادث ٣٩٧هـ يقول: ←

فمن بين الخلفاء، الذين تعاقبوا على عرش قرطبة ٱبتداءً من ١٥ شباط (فبراير) ١٠٠٩ (٣٩٩هـ) حتى ١٠٣١ (٤٢٢هـ)، رجع خمسةٌ منهم إلى السلطة بعد أن كانوا قد خُلعوا•.

تسبّبت الحرب الأهليّة ("الفتنة [البربريّة]") في نزوح عددٍ كبير من المثقّفين، بحثًا عن السلام في المناطق الواقعة في أطراف الأندلس. فقد لجأ الشاعر الكبير ٱبن درّاج القسطلّي [ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م] والطبيبُ الأديب ٱبن الكتّاني، إلى سَرَقُسطة. وصرف هٰذا الأخير ـ وكانت قد تقدّمت به السّنُّ ـ قسطًا كبيرًا من نشاطه متنقّلًا بين البلاطات المسيحيّة في جبال البيرينيه، وصنّف مجموعة مختارة من الشعر ممّا نَظَم شعراء الخلافة، ٱكتشفها مؤخرًا فؤاد سِزْكين ونشرها و. هونرباخ، وهي تُشكّل أهمّ مصدر حول هٰذا الموضوع، نظرًا لٱفتقادنا "كتاب الحدائق" لٱبن الفرج الجَيّاني [ت ٣٣٦هـ/ ٩٧٦م]

← «وكان القِران الواقع، في الأسد، في هٰذه السنة التي ٱجتمعت فيها الدّراري السّبعة، ووصل إلى السُّنبلة، وهي العذراء صاحبة قرطبة، التي وضع أقادِم حكمائهم صورتها فوق باب مدينتها القبليّ وهو باب القنطرة، وكان الٱستعلاء فيه ـ زعموا ـ لزُحَل، فدلّ على ٱنتقاض الدولة، وكَثُر كلام المنجّمين فيه، وأنذروا بأشياء عظيمة كان الناس عنها في غفلة. قال "محمّد بن عون الله"، فحكى لي، حينئذٍ، صديقٌ لي و"لمسلمة [المجريطي] الفيلسوف"، أنه باحَثَهُ عن تأثير هٰذا القِران، فقال له، "أهونُ ما فيه ٱنقلابُ هٰذه النصبة بأسرها، وٱنتقالُ الدولة إلى غير أهلها، وتسلّط الخراب على هٰذه العِمارة بجُملتها، فينال هٰذا الخلقَ قتلٌ ذريعٌ وبجاعةٌ لا عهد لهم بمثلها". فهلك هو ـ [مَسْلَمة المجريطي] ـ قبل ذٰلك، سنة ثمان وتسعين وثلاثمئة، وجاءت الفتنة إثر ذٰلك بأعظمَ ممّا ذكره وظنّه».

"البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، ٣، ١٠ و١١، ١٤ و١٥.

• عند ٱبن عِذاري أنّ ٱبتداء الفتنة كان بقيام أوّل المُتَنَزين محمّد بن هشام بن عبد الجبّار (المهدي) بخلع الخليفة هشام المؤيّد، وذٰلك «يوم الخميس لأربع عشرة ليلةً خَلَت من جمادى الأولى من سنة تسع وتسعين وثلاثمئة»، الذي يوافق يوم ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٠٠٩م.

ملوك الطوائف و[المَدّ المغربي*]:

كان عهد ملوك الطوائف أزهىٰ عهود العلم الأندلسيّ، الذي اَزدهر أروع اَزدهار علىٰ اَمتداد ترابنا [الإسباني] طولًا وعرضًا. وقد كان هٰؤلاء الملوك يتباهَوْن بكُتّابهم وعلمائهم. وحيث إنهم لم يكونوا يملكون الطاقة الاَقتصاديّة [التأمين] اَستيعاب الفارّين من قرطبة، جملةً، فقد عمدوا إلىٰ أن يستقبلوا، تبعًا لميولهم الخاصّة، بعضهم أكثر من بعضهم الآخر. وهٰكذا بدت إشبيلية، في منتصف القرن الحادي عشر (٥ هـ)، جنّةَ الشعراء، وطليطلة جنّةَ العلماء، وكان معظم هٰؤلاء الأخيرين قد تلقّوا العلم مباشرةً عن أبرز العلماء في قرطبة في أواخر القرن العاشر (٤ هـ).

كان الفلكيّان اَبن السّمح واَبن الصّفّار، وكذٰلك المنجّم اَبن الخيّاط والكَرْماني، من تلامذة مَسلمة [المجريطي].

هاجر اَبن السَّمْح [أبو القاسم أَصْبَغ بن محمّد المَهْري] (٣٦٨ـ٤٢٦هـ/ ٩٧٩ـ١٠٣٥م) من قرطبة إلىٰ غرناطة، لاجئًا عند [أميرها] حَبُّوس بن ماكسن [بن مناد الصنهاجي]. وكتب شروحًا مختلفة لكتاب الأصول لأُقليدس، ورسالتين حول الأسطرلابات، ومصنّفًا من مئة وثلاثين فصلًا في اَستعمال هٰذه الآلة، وزيجًا علىٰ أحد مذاهب الهند المعروفة بـ"السند هند"، وقد يكون قسمٌ من المبادئ المبيّنة قد ظهر تأثيره: أولًا في الفصول ٦٣ـ٦٥ من كتاب "الصفيحة" للزّرقيال، حيث يُحدّثنا الفصلُ الأوّل من الكتاب عن أنّ اَبن السّمح اَتّبع طريقة هرمس، وثانيًا لدىٰ الجهاني. كما ألّف (٤١٦هـ/ ١٠٢٥م) "كتاب الهيئة للكواكب

* العنوان عند ڤيرنيت: "... والغزو [أو الاَجتياح] الإفريقي".

وليس يخفىٰ أنّ التاريخ الإسلامي لم ينظر قطّ إلىٰ "التدخّل" المرابطي (في معركة الزلّاقة) والموحّدي (في يوم الأرَك)، وبعد ذٰلك إلىٰ العون المطّرد من بني مَرين إلىٰ مملكة غرناطة، إلّا مَدَدًا عسكريًا، ومن ثَمّ تأييدًا معنويًا، بهما اَمتدّ عمر الأندلس الإسلاميّة في شبه الجزيرة قرونًا أربعة.

السبعة" المحفوظ في ترجمةٍ ألفونسيّة [نسبة إلىٰ ألفونسو العاشر، الحكيم، الذي أستمدّ المعرفة من مؤلّفاته].

وإلىٰ مدينة دانية [علىٰ الساحل الشرقي] ألتجأ أحمد بن الصّفّار (ت ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م)، تجنُّبًا لمخاطر العيش في قرطبة بعد أن أفتقدت الأمن. وألّف زيجًا علىٰ مذهب السند هند، وكتب مصنّفًا في الأسطرلاب نشره ميّاس، وقد تُرجم إلىٰ اللاتينيّة مرّتين، من قبل يوحنّا الإشبيلي (الذي نسبه بغير حقٍّ إلىٰ مَسْلمة)، ومرّةً أخرىٰ أنجزها أفلاطون التيفولي. كما شهد الكتاب ترجمة إلىٰ العبريّة وأخرىٰ إلىٰ الإسبانيّة. وأنصرف أخوه، محمّد أبن الصّفّار، إلىٰ إنشاء الأسطرلابات، ووصل إلينا أحدُها، يحمل تاريخ (٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م).

وكان [يحيىٰ بن أحمد، المعروف بـ] أبن الحيّاط (ت ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) منجّم بلاط الخليفة سليمان بن الحكم (تولّىٰ الخلافة مرّتين، وأنتهىٰ مغتالًا في ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م)، قد حَظِي بأعتبارٍ فائق ترددت أصداؤه في مذكّرات "الملك" عبد الله [بن] زيري[31]، بفضل توقّعاته التي كانت تتحقّق علىٰ الدوام•! وقد حملته فطنتُه، في خضمّ الأحداث، علىٰ أن يُهدي أحد أعماله إلىٰ المأمون [بن ذي النّون] في طليطلة، متنبّئًا فيه بإجلاء المسلمين عن شبه الجزيرة الإيبيريّة، وما أنفكّ هٰذا التنبّؤ مثارًا لدهشة المنجّمين المغاربة في القرن الخامس عشر (٩ هـ).

وظهر الأهتمام بعلوم الطبيعة والطبّ، في القرن الحادي عشر (٥ هـ) عند

• عبد الله بن بُلُقّين (بن باديس بن حَبُوس بن زيري الصنهاجي). آلت إليه إمارة غرناطة، وهو صبيٌّ حدث، بعد وفاة جدّه باديس (٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م). ثمّ كان من بين ملوك الطوائف الذين أستدعوا المرابطين إلىٰ الأندلس بعد سقوط طليطلة بيد ألفونسو السادس (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م). وأنتهىٰ بأن تغلّب عليه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ٤٨٣هـ، وأنزله في بلدة "أَغْمَات" بالمغرب، حيث كتب مذكّراته التي سمّاها، "التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة". وقد نُشرت (القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٥٥) في كتاب بعنوان، "مذكّرات الأمير عبد الله" بعناية المستشرق الفرنسيّ ليفي بروفنسال.

تلامذة ٱبن جُلْجُل، وا[ٱبن عبدون] الجبلي، وحَسْداي بن شَبْروط. وكان منهم ٱبن البَغُّونش (ت ٤٤٤هـ/ ١٠٥٦م)، وأصله من طليطلة، المدينة التي عاد إليها بعد ما درس في قرطبة، وكان عالمًا أكثرَ منه طبيبًا ممارسًا (وفي ذٰلك تفوّق عليه تلميذُه عبد الرحمٰن بن خلف عساكر الدارمي)، وقد ٱهتمّ بكتب جالينوس* ؛ ومنهم أيضًا [أبو المطرِّف عبد الرحمٰن] بن وافد [بن مُهنَّد اللَّخْمي] (٣٨٩ـ٤٦٧هـ/ ١٠٠٧ـ١٠٧٤م). وقد يكون درس ـ حسب قول ٱبن الأبّار ـ بصُحبة الطبيب [الجرّاح] الشهير أبي القاسم الزّهراوي، ويبدو لنا ذٰلك مستحيلًا من الوجهة الفعليّة، إلّا إذا قدّمنا تاريخَ مولد الأوّل [ٱبن وافد] أو أخّرنا تاريخ وفاة الثاني[32]! وقد تُرجمت إلىٰ اللاتينيّة ـ أو إلىٰ بعض اللغات الرُّومنسيّة ـ عدّة كتب لٱبن وافد: "الأدوية المفردة"، وكتاب "الوِسَاد في الطبّ"، وكتاب في الزراعة. وهٰذا الكتاب الأخير بالغ الأهميّة، ليس بسبب تأثيره في عصر النهضة وحسب ـ من خلال گابريل دي هيرّيرا ـ ولٰكن لأنه كذٰلك، يُبرز ميول أندلُسِيّي ذٰلك العصر للعناية بشؤون الأرض، ويُمكننا، من خلال هٰذا الكتاب والكتب الأخرىٰ المماثلة، أن نضع قائمةً بالمعارف المتعلّقة بعلم الزراعة في القرن الحادي عشر (٥ هـ).

وقد ٱعتنىٰ ٱبن وافد ـ حسب رواية ٱبن الأبّار ـ بجَنّة أمير طليطلة [الجُنَيْنة،

* يقول بَلَنثِيَه، معاصرُه، صاعد الطليطلي:

«... أبو عثمان، سعيد بن محمّد بن البَغُّونش، كان من أهل طليطلة، ثمّ رحل إلىٰ قرطبة لطلب العلم، فأخذ عن مَسلمة بن أحمد العدد والهندسة ...... ثمّ ٱنصرف إلىٰ طليطلة، وٱتصل بأميرها الظافر إسماعيل بن ذي النُّون، وحَظِي عنده، وكان أحد مدبّري دولته. ولقيتُه أنا فيها بعد ذٰلك، في صدر دولة المأمون بن ذي النُّون، وقد ترك قراءة العلوم وأقبل علىٰ قراءة القرآن، ولزوم داره، والٱنقباض عن الناس؛ فلقيتُ منه رجلًا عاقلًا جميل الذِّكر والمذهب..... وتشاغل بكتب جالينوس، وجمعها وتناولها بتصحيحه ومعاناته، فحصل بتلك العناية علىٰ فهم كثير منها، ولم يكن له دُرْبةٌ بعلاج المرضىٰ! ولا طبيعة نافذة في فهم الأمراض....».

"طبقات الأمم"، ١٩٤ و٩٥.

الحديقة]، التي كانت تنبسط على السهل ما بين قصر گاليانا والنهر، قبيل جسر القنطرة، وانصرف فيها إلى إجراء العديد من التجارب في توطين النباتات، وربّما كان منها تجارب على التلقيح الاصطناعي أيضًا. ذلك أنّ هذا التلقيح ـ الذي كان قد اكتُشف في منطقةِ ما بين النهرين القديمة في تلقيح أشجار النخيل ـ كان معروفًا في الأندلس، ليس عند المزارعين وحسب، بل كذلك عند الجمهور الواسع، إذا ما "صَدَّقنا" مضمون هذا البيت من الشّعر الذي وجّهه ابن زيدون للمعتمد،

لقّحتَ ذِهْني، فاجْنِ غضّ ثماره　　　فالنخلُ يُحْرِزُ مجتناهُ الآبِرُ*

لقد اطّلع ابن وافد ومَن جاء بعده، بصورةٍ مباشرة أو غير مباشرة، على أعمال المؤلّفين الكلاسيكيين؛ ديموقريطس، وأرسطوطاليس الزائف، وتيوفْراسْت، وأناتوليوس، وكاسْتوس، وفيلمون، وڤيرخيليو وڤارون، وكولوميلا؛ وقد تكون أعمال هذا الأخير قد عُرفت بكاملها، فعَظُمَ ما خلّفته من تأثير. أمّا الإسهامات المشرقيّة، فقد تمثّلت في كتاب "الفِلاحة النَّبَطِيّة" (المكتوب في ٢٩١هـ/ ٩٠٤م)**، و"كتاب

* كان المعتمد قد عاد من سفر وأبلّ من مرض، فهنّأه الشاعر بالعودة والشفاء بقصيدةٍ مطلعها (الكامل):

أقْدِمْ، كما قَدِمَ الربيعُ الباكرُ　　وأطلَعْ، كما طَلَعَ الصباح الزاهرُ

وفيها هذا البيت.

"ديوان ابن زيدون ورسائله"، تحقيق علي عبد العظيم ([القاهرة]، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧)، ٥٠٦ـ٥٠٨.

والآبر هو الذي يأبُر النّخلَ، أي يُلقّحه. وأبَرَ النّخلة، لقّحها بنقل فُتات زهرة التذكير إلى ميسم زهرة التأنيث.

** ألّفه أبو بكر أحمد بن قيس الكسْداني (الكَلْداني)، المعروف بـ"ابن وَحْشِيّة" (من أهل العراق)، وبالأحرى «نقله عن لسان الكسدانيين إلى العربيّة»، وأملاه على ابن الزيّات سنة ٣١٨هـ/ ٩٣٠م. قيل إنّ تأليف الكتاب يعود إلى ما قبل ميلاد السيّد المسيح، وهو في أصول الفلاحة والزراعة، هامّ، مع ما يتخلّله من خُرافات. تمّ تحقيقه مؤخّرًا من قِبل توفيق فهد، (دمشق، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربيّة، الجزء الأوّل ١٩٩٣، والثاني ١٩٩٥، والثالث قيد الطباعة).

النبات" لأبي حنيفة الدِّينَوَري (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م)* الذي عُرف في الأندلس في منتصف القرن العاشر (٤ هـ)، فقد ذَكَره الصيدلاني ٱبن سَمَجُون (ت حوالي ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م)** ، فضلًا عن أنه كان موضع شرحٍ من ستّين مجلّدًا وضعه ٱبنُ أُخت غانم من أبناء مدينة ٱلْمَرِيّة.

إلّا أنّ الإنجاز الأصيل حقًّا، في هٰذا المجال، قد بدأ ولا شكّ مع ٱبن وافد، ثمّ مع الذي خَلَفه في إدارة جنّة [الأمير المأمون]، ٱبنِ بصّال، مؤلّف كتاب "القصد والبيان"، الذي تُرجم في القرون الوسطىٰ إلىٰ اللغة القشتاليّة، وقد ٱضطرّه الزحف المسيحيّ إلىٰ الٱنتقال إلىٰ خدمة المعتمد بإشبيلية. وإلىٰ هٰذه المرحلة ذاتها، ينتمي ٱبن حجّاج ([٤٦٥هـ] ١٠٧٣م)، وأبو الخير، والطُّغْنَري، وهم من إشبيلية. ولقد ضُمّت أعمالُ هٰؤلاء كلّها، في مؤلّف جامع، جاء فُسَيْفساء حقيقيّةً من الٱستشهادات، صنّفه ٱبن العوّام (حيًّا [٥٧١ هـ] ١١٧٥م)، وٱستخدمه كاسيري من أجل إعداد مستعربي الغد الإسبان، وبلغ ذٰلك علم كامبومانيس، الذي وجده ذا نفع، فطلب إلىٰ بانكيري أن يترجمه [إلىٰ الإسبانيّة]، وبذٰلك تمّ وضعه في متناول مُلّاك الأراضي الإسبان ليُتاح لهم ٱستثمار مزارعهم علىٰ نحو أرشد*** .

* أبو حنيفة، أحمد بن داود. من أهل دِينَوَر (من بلاد فارس). ممّا ألّف، "كتاب النبات" هٰذا، من ستّة أجزاء ضاع معظمها، إلّا جزأين نشرهما المستعرب الألماني برنهارد ليڤن (١٩٥٣ـ١٩٧٤). وجمع محمّد حميد الله ملتقطات من هٰذا الكتاب (القاهرة، المعهد العلمي الفرنسيّ للآثار الشرقيّة، ١٩٧٣). وقد ظلّ كتاب النبات مرجعًا للمصنّفين العرب علىٰ مرّ العصور.

** في رَسْم ٱسمه "سَمَجُون" (بالجيم المُعجمة)، وردتْ كذٰلك عند ٱبن أبي أُصيبعة (بيروت، ٥٠٠)، وعنه أخذ المستعرب الفرنسيّ الطبيب لوسيان لوكليرك **Lucien Leclerc** في كتابه **Histoire de la Médecine Arabe (T. 2: 436)**. ولٰكنني أخذتُ بما ورد عند ٱبن البَيْطار (في نُقُوله عنه)، وعند الضَّبّي في "بغية الملتمِس" (القاهرة، ٢٧٢)، بالحاء المهملة... ٱنظر، فاضل السباعي، "الطبيب الصيدلاني الأندلسي، حامد بن سَمْحُون، وريادته في التصنيف الموسوعيّ في الأدوية المفردة"، "مجلّة مجمع اللغة العربيّة بدمشق"، المجلّد ٦٨، الجزء ٣، تمّوز ١٩٩٣.

*** كان القرن الخامس الهجري (١١م)، في الأندلس، غنيًّا بالمؤلّفين الفِلاحيِّين الكبار، وقد صدرت طبعاتٌ، موجزةً أو مجتزأة، من أعمال كلّ من الطليطليّ ٱبن بصّال والإشبيليَّين ٱبن حجّاج وأبي الخير (عدا كتابٍ للأخير هو "عُمدة الطبيب في معرفة النبات" صدر كاملًا)، وأُهمِل بمرّةٍ الطُّغْنَري (محمّد بن مالك، الحاجّ الغرناطي، حيًّا ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م)، الذي صنّف "زهر البستان ونزهة الأذهان"، ←

إلى جانب هذا الاتّجاه التطبيقي الواضح، في مجال الزراعة، ظهر اتّجاهٌ آخر، نظريٌّ ومعرفيٌّ، استهدف استخراج المترادفات لأسماء النباتات المعروفة في مختلف لغات [أو لهجات] شبه الجزيرة الإيبيريّة. وفي سياق هذا الاتّجاه الثاني يتعيّن علينا أن ننوّه بعملٍ، مجهولِ المؤلّف فيما يبدو، نشره أسين(33)، يتمّ فيه وضع تصنيفٍ عضويٍّ للنباتات في زُمَرٍ بحسب الجنس والنوع والصِّنف* ـ يُذكّرنا بتصنيف سيزالپينو وكوفيه ـ أثر، فيما يبدو، في عمل الطبيب المغربي الغسّاني**.

ولا يبدو قطُّ، من ناحيةٍ أخرى، أنّ التقاليد التي أرساها العرب في مجال حدائق النباتات، قد نُسيت في شبه الجزيرة الإيبيريّة، وعلى ذلك فإنّ الحديقة، التي أوعز بإنشائها فيليپ الثاني بناءً على التماسٍ من آندريس لاگونا، تبدو مرتبطةً

← المتوافرة نُسَخٌ منه في قرطبة والرباط، وتُعِدّ دار إشبيلية نصّ هذا الكتاب كاملًا، محقّقًا تحقيقًا علميًا (٤٠٠ صفحة)، تُصدره قريبًا في سلسلة "الكتاب الأندلسي".

وكتاب ابن العوّام (من القرن التالي) هو: " كتاب الفِلَاحة". طُبع في مدريد العام ١٨٠٢ (عمودان في الصفحة، عربي وإسباني) بمجلّدين (٧٠٠ ص + ٧٥٦، ٢٢ × ٣٢ سم)، وقد أعيدت طباعته بالأوفست (مدريد، وزارتا الزراعة والخارجيّة، ١٩٨٨).

* ويبدو أنّ اسم هذا المؤلّف لم يعد مجهولًا، فقد أماط عنه اللثام الباحث المغربي محمّد العربي الخطّابي، فهو "أبو الخير الإشبيلي"، والمؤلّف الهامّ عنوانه "عُمْدةُ الطبيب في معرفة النبات". نُشر في مجلّدين، في إصدار أوّل (الرباط، أكاديميّة المملكة المغربيّة، ١٩٩٠)، ثمّ في إصدارٍ لاحق (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٥).

وكان المستعرب ميگيل أسين پلاثيوس (١٨٧١ـ١٩٤٤) قد عكف على مخطوطة الكتاب (المحفوظة في مكتبة الأكاديميّة الملكيّة للتاريخ بمدريد)، ولفت نظره فيها ورودُ عددٍ وافر من أسماء المفردات النباتيّة بمختلف اللهجات الرُّومنثيّة، فاستخلصها، هذه الألفاظ، وأعاد كتابتها بالحروف اللاتينيّة، ورتّبها، وتمكّن من تحقيق ٣٦٠ اسمًا، حاول ردّها إلى أصولها، وفسّرها وعلّق عليها، عدا ٨٨ لفظًا لم يتبيّن له أصلُها، فتحصّل له من ذلك كتاب سمّاه: "معجم الألفاظ الرُّومنثيّة، ممّا سجّله نباتيٌّ أندلسيٌّ مجهول (القرن الحادي عشر ـ الثاني عشر م [٥ و٦ هـ])".

** يُشير ڤيرنيت، هنا، إلى أبي القاسم بن محمّد بن إبراهيم الغسّاني، الشهير بالوزير، (نشأ في أسرة أندلسيّة استقرّت بمدينة فاس، بعد جلاء المسلمين عن آخر معاقلهم، غرناطة)، وإلى كتابه "حديقة الأزهار في ماهية العُشب والعقّار"، الذي ظهر بتحقيق محمّد العربي الخطّابي، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٥ و١٩٩٠).

بهذه التقاليد أكثر من تعلُّقها بالتقاليد التي أخذ عصر النهضة على عاتقه بأن يجعلها أسلوبًا دارجًا في سائر أقطار أوروبة.

وقد ظهر، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر (٥ هـ)، في طليطلة، رجلٌ عصاميٌّ في المعرفة، هو الزَّرقيال (ت ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م)، وكان قد بدأ حياته المهنيّة حِرَفيًّا متخصّصًا في صنع الآلات التي يُكلّفه عملَها الفلكيّون الذين يغصّ بهم بلاط المأمون [الأندلسي]، ممّن كانوا يسعَوْن، برئاسة القاضي صاعد، إلى محاكاة ما كان أنجزه المأمون في المشرق، بأن يضعوا جداول فلكيّةً جديدة تنافس جداول [الخليفة العباسي]. وقد بيّن إسحق إسرائيلي **Ishāk Israeli** بوضوح في كتابه *Yesod 'Olam*، كيف جعلت براعةُ الزّرقيال منه ـ أوّلًا ـ تلميذًا لزبائنه، ثمّ مديرًا لهم عندما أثبت أنّ ذكاءه الفذّ يُضاهي مهارتَه اليدويّة. ولمّا اشتدّ الخطر المسيحيّ، هُرع الزّرقيال لاجئًا إلى المناطق التي يحكمها المعتمد في قرطبة أوّلًا، ثمّ في إشبيلية ـ حيث كان الفلكيّ اليهوديّ إسحق بن باروك ([٤٢٧ـ٤٨٧هـ] ١٠٣٥ـ١٠٩٤م) يتمتّع بأداء دورٍ ممتاز بصفته محبًّا للعلم. ولسنا ندري ما إذا كان الحظّ قد أسعف الزّرقيال وهو في الأندلس [في قرطبة أو إشبيلية]، فعاد يترأس "فريق عمل" مثلما كان في "قشتالة"! وعلى أيّة حال، فإننا نعلم أنه كان ما زال يُقدّم ملاحظاتٍ فلكيّة عام [٤٨٠هـ] ١٠٨٧م، وأنّ عددًا من مؤلّفاته قد اتّخذ صيغته النهائيّة على ضفاف نهر الوادي الكبير [في قرطبة وإشبيلية]. أمّا مؤلّفاته ـ التي فُقِدت جميعها تقريبًا في أصلها العربيّ ـ فإننا نستطيع أن نقرأها، اليوم، لحسن الحظّ، في ترجماتها اللاتينيّة والعبريّة وورومنثيّات القرون الوسطى، فنحكم إلى أيّ حدٍّ أثّرت في الثورة الفلكيّة في عصر النهضة*.

وهناك شخصيّتان متميّزتان تُعتبران همزةَ الوصل بين عصر ملوك الطوائف

* اسمه عند فيرنيت "Azarquiel". وقد ذكره القاضي صاعد باسم "ولد الزّرقيال"، وهو «أبو إسحق إبراهيم بن يحيى النّقّاش، المعروف بولد الزّرقيال. فإنه أبصَرُ أهل زماننا بأرصاد الكواكب وهيئة أفلاكها وحساب حركاتها، وأعلمهم بعِلَل الأزياج واستنباط الآلات النُّجوميّة»، ١٨١.

وضبطه الزركلي في "الأعلام"، "ابن الزُّرقالة".

وقول فيرنيت، «مثلما كان في قشتالة»، يعني، في طليطلة، التي كانت قد سقطت، ذلك الحين، بيد القشتاليّين في ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م وضُمّت إلى مملكتهم.

وبين عَهدَي المرابطين والموحِّدين، وإنه لمن المستبعد أن يدلّ هٰذان العهدان [الأخيران] علىٰ بداية الانحطاط الثقافيّ للأندلس، وإنما تُشكّل [هاتان الشخصيّتان] ـ وفق ما لاحظه كوديرا ـ استمرارًا للتطوّر المنطقي لكلّ ما تمّ الوصول إليه وتحقّق نجاحُه حتّىٰ تلك الآونة، وهما "ابن باجّه" و"ابن زُهْر"، دون أن نُدخل في الحُسبان شخصيّة "ابن رُشْد" الذي به اختُتِم القرن الثاني عشر [٦ هـ]، وتصدّعت، في الواقع، استمراريّة الثقافة الإسبانيّة ـ الإسلاميّة [الأندلسيّة].

وُلِد [أبو بكر، محمّد بن يحيىٰ بن الصائغ، الملقّب بـ] ابن باجّه [التُّجيبي]، في سَرَقُسطة ([٤٦٣] ـ حوالي ٥٣٣هـ/ ١٠٧٠ـ ١١٣٨م)، وقضىٰ فيها شطرًا كبيرًا من حياته. ولٰكننا لا نعرف إلّا القليل عن مرحلة تتلمُذه، وليس لنا إلّا أن نفترض أنه قد اتّبع، بالضرورة، دروسًا عند أبرز الأساتذة المقيمين في المدينة بين عامي [٤٧٤ـ٤٨٤هـ] ١٠٨٠ـ١٠٩٠م، قبل أن يتراءىٰ له أن "يتدخّل" في السياسة المحلّيّة خلال العقدين الأوّلين من القرن الثاني عشر [٤٧٤ـ٤٩٥هـ]، وبعدئذ هاجر، قُبيل الغزو المسيحيّ، إلىٰ جنوب شبه الجزيرة الإيبيريّة، وأخيرًا إلىٰ المغرب حيث وافاه الأجل. وخلال حياته المتقلّبة ـ التي سُمّي فيها وزيرًا مرّاتٍ، وزُجّ به في السجن مرّاتٍ أخرىٰ! ـ تعرّف علىٰ جَدّ ابن رُشد، الذي كان قاضيا•.

كان عمله الفلسفيّ خِصبًا، ونحن نعرفه ـ ضمن أشياء أخرىٰ ـ لأنّ ابن رُشد عَوّل عليه. ويَفترِض أسين أنّ أعماله كانت موضع ترجمات لاتينيّة في القرون الوسطىٰ، ولٰكنّ هٰذه ـ إن وُجدت ـ لم تصل إلينا. وقد بدا ـ في نظريّة العقل ("رسالة الوداع"، و"رسالة اتّصال العقل بالإنسان") و"تدبير المُتَوَحِّد" ـ متأثّرًا بأعمالٍ مماثلة عند الفارابي (السياسة المدنيّة، فصول المدني). ويُبيّن ابن باجّه، في

• وكان بين ابن باجّه وبين الطبيب أبي العلاء زُهْر (ت ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م) خلافٌ، تهاجيا فيه شعرا... وروىٰ المقّري ("نفح الطيب.."، تح، إ. عباس، ٤: ١٢)، أنّ ابن باجّه مات في "أكلة باذنجان"، أعدّها له خادمٌ لابن زُهْر (يُسمّىٰ "ابن مَغيوب"، «وأكلةٌ من بَذِنْجانِ ابنِ معيوب»!).

انظر، فاضل السباعي، "الباذنجان في التراث العربي، مشروع دراسة مقارنة"، بحث أُلقي في الندوة العالميّة السادسة لتاريخ العلوم عند العرب، المنعقدة في رأس الخيمة ـ دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٩٦/ شعبان ١٤١٧.

أعماله هٰذه، عدمَ توافُق الفيلسوف والحياة الناقصة في ظلّ الحضارة؛ ومن ثَمّ يترتّب عليه أن يُهاجر إلىٰ مدنٍ فاضلة. وبما أنها مُفتقدةُ الوجود، فلم يبقَ له إلّا أن يعيش غريبًا، حبيسًا في بُرجه العاجيّ، بين قومه. وما هو إلّا حين حتّىٰ تلقّف ٱبنُ طُفَيْل أفكاره، وأدرجها داخل أسطورة ٱبن سينا ''حيّ بن يقظان''(34)، التي ٱستمدّ منها ٱسمَ البطل وبعضَ العناصر التي زيّنت له أن يرفض، بدوره، آراء ٱبن سينا. وقد ولّد عملُه تأثيرًا عميقًا، طَوالَ القرون الوسطىٰ، حتّىٰ إنه وصل ـ عبر الحكايات الشعبيّة ـ إلىٰ عِلم گرْسِيان نفسه!

ولٰكنّ ٱبن باجّه ٱهتمّ، فضلًا عن الفلسفة، بعلم الفلك، حتّىٰ لقد ٱقترح تصحيحًا لنظام مجموعة الكواكب السيّارة، الذي كان يؤخذ به آنذاك؛ وعُني بالموسيقىٰ وبالشعر، مما يحمل علىٰ الظنّ بأنه ربّما ٱبتكر التقطيع الشعريّ لما عُرف بالزَّجَل*.

أمّا [أبو مروان، عبد الملك بن محمّد بن مروان] بن زُهْر [الإيادي، الإشبيلي]، فهو من أبرز أبناء أسرةٍ من الأطبّاء ٱمتدّ نشاطها، في مجال الطبّ، خمسة أجيال، ويُمكن مقارنتها، بكلّ جدارةٍ، بأُسَرٍ أُخرىٰ مشهورةٍ زانت تاريخ العلم، مثل: ''آل بَخْتيَشوع'' و''ٱبن قرّة'' و''آل بِرْنُولِي **Bernouilli**'' [!]... إلخ. وكان الذي مَنَح الاسمَ لآل زُهر فقيهٌ من ''طَلَبِيرَة **Talavera de la Reina**''. وقد ٱغتنم واحدٌ من ذريّته، هو [ٱبنه] عبد الملك (ت ٤٧٠هـ/ ١٠٧٨م)، رحلتَهُ إلىٰ مكّة [المكرّمة] للحجّ، فدرس الطبّ في القيروان ثمّ في القاهرة. وفي ٱنصرافه إلىٰ الأندلس غدا طبيبًا لـ''مجاهد'' [العامري] صاحب مدينة ''دانية''**. وقد ٱكتسب ٱبنه، أبو العلاء [زُهْر]

* ولٱبن باجّه، أيضًا، إسهاماتٌ في الطبّ، فإنّ له، بالاشتراك مع الطبيب الأندلسي ''أبي الحسن سُفيان''، ''كتاب التجربَتَيْن علىٰ أدوية ٱبن وافد''، الذي تضمّن ٱستدراكاتٍ علىٰ الطبيب النباتي ٱبن وافد الطُّليطلي، فيما فاته في كتابه عن ''الأدوية المفردة''. وبدا أنّ الكتاب كان علىٰ جانبٍ من الأهمّيّة بدليل النُّقول التي ٱقتبسها منه ٱبنُ البَيْطار في كتابه ''الجامع لمفردات الأدوية والأغذية''. ٱنظر: ٱبن أبي أُصيبعة: ٥١٦ و١٧.

** ٱنظر في ذٰلك: فاضل السباعي: ''الطبيب الأندلسيّ عبد الملك بن الفقيه محمّد بن زُهْر''، مجلّة ''الدارة'' (الرياض: دارة الملك عبد العزيز)، السنة الثانية عشرة، العدد الثالث، ربيع الآخر ١٤٠٧/ ديسمبر ١٩٨٦.

(المعروف لدىٰ اللاتينيّين بأسماء عدّة: **Aboali, Abuleli, Ebilule, Abulelizor**)، ثقافةً دينيّة وأدبيّة راسخة، وأجرىٰ مراسلاتٍ مع الحريري [في المشرق] (٤٤٦ـ٥١٦هـ/ ١٠٥٤ـ١١٢٢م)، صاحب "مقامات الحريري" المشهور. واَهتمّ، فوق كلّ شيء، بالطّبّ، فأصبح طبيب المعتمد الإشبيلي، ثمّ وزيرًا عند يوسف بن تاشفين [أمير المرابطين]، ومات بقرطبة ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م. وفي أيّامه وصلت إلىٰ المغرب [الأندلس] نسخة من كتاب "القانون [في الطّبّ]" لاَبن سينا، فحازها أبو العلاء، وقرأها وفنّد بعض ما فيها*. وكتب اَبنه أبو مروان [عبد الملك بن زُهر] (٤٨٧ـ٥٥٧هـ/ ١٠٩٢ـ١١٦١م) ـ المعروف لدىٰ اللاتينيّين باَسم **Abbomeron Avenzoar**، وصديقُ اَبن رشد ـ "كتاب التيسير [في المداواة والتدبير]" المشهور، وهو مصنَّفٌ في المداواة والمعالجة الوقائيّة، وقد ترجمه إلىٰ اللاتينيّة پاراڤيسيني **Paravicini** (حوالي ١٢٨٠م [٦٧٩هـ])، وفيه يصف، لأوّل مرّة، اَلتهاب التامور، وينصح بخَزْع الرُغامىٰ وبالتغذية الصناعيّة عن طريق الحلقوم أو عن طريق الشرج، وهو من الأطبّاء الأوائل الذين وصفوا صُؤابة الجَرَب [طُفَيْلِيّة]**. وكانت شهرته طبيبًا ممارسًا واسعةً جدًّا، حتّىٰ إنّ

* وفي ذلك يقول اَبن أبي أصيبعة:

«... وفي زمان [أبي العلاء زُهر] وصل كتاب "القانون [في الطبّ]" إلىٰ المغرب، [قيل] إنّ رَجلًا من التُّجار جلب من العراق إلىٰ الأندلس نسخةً من هٰذا الكتاب، قد بولغ في تحسينها، فأتحف بها لأبي العلاء زُهر تقرّبًا إليه، ولم يكن هٰذا الكتاب قد وقع إليه قبل ذٰلك، فلمّا تأمّله ذمّه، واَطّرحه ولم يُدخله خزانة كتبه، وجعل يَقطَع من طُرَرِه ما يكتب فيه نُسَخَ الأدوية [الوصفات الطبّيّة] لمن يستفتيه من المرضىٰ!»، ٥١٧ و١٨.

إنّ هذه الرواية، وإن دلّت علىٰ اَعتداد أبي العلاء زُهر بالنفس ـ اَعتدادًا لا يليق بالعالِم المتواضع علىٰ كلّ حال! ـ فإنها ـ يقول الدكتور عبد الكريم اليافي (عضو مجمع اللغة العربيّة بدمشق) ـ روايةٌ «مبالَغٌ فيها، فـ [أبو العلاء] قد اَطّلع على ما كتبه اَبنُ سينا، وله مقالةٌ في الردّ عليه في مواضع من كتابه في "الأدوية المفردة"...». اَنظر كتاب اليافي، "معالم فكريّة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة" (دمشق، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، ١٩٨٢)، ١١٨ و١٩.

** اَنظر في ذلك، كتاب "الطبيب العربي الأندلسي عبد الملك بن زُهر الإيادي، بمناسبة ←

اَبن رُشد نفسه يُحيل، في نهاية كتابه "الكُلّيّات في الطبّ"، إلىٰ "كتاب التيسير" في كلّ ما يتعلّق بالمداواة [الأقاويل الجزئيّة]*.

وكذٰلك كان اَبن أبي مروان [الشاعر أبو بكر محمّد بن زُهر، ت ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م]، وحفيده [عبد الله، ت ٦٠٢هـ/ ١٢٠٦م]، [واَبن هٰذا الحفيد: أبو العلاء محمّد]، أطبّاء للموحّدين، ولٰكنّ أعمالهم لم تنتقل إلىٰ الغرب.

وإذا كان القرن الحادي عشر [٥ هـ، في الأندلس] هو عصر كبار علماء الفلك، فإنّ القرن الثاني عشر [٦ هـ] كان بالدرجة الأولىٰ عصر الأطبّاء والفلاسفة. وقد برع اَبن رُشد في كلا المجالين، وبلغ من تأثير أعماله في الغرب، حدٌّ أن اَعتقد العالَم الغربيّ، في القرن الخامس عشر [٩ هـ]، أنّ نور المعرفة لم يكن يصدر من المشرق، بل من الأندلس. وقد أورد الشاعر [الإيطالي] دانتي ذكره (الجحيم، الأنشودة الرابعة، ١٤٤) مقرونًا بتقريظ:

[وشاهدتُ] اَبنَ رُشد، الذي ألّف الشرح الكبير...

→ الذكرىٰ التسعمئة لمولده"، تعريف ومقالات، أسبوع العلم الثالث عشر، المنعقد في حلب، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٢، المجلس الأعلىٰ للعلوم، دمشق ١٩٧٢.

واَنظر أيضًا: فاضل السباعي، "الطبيب الأندلسي عبد الملك بن زُهر من خلال كتابه 'التيسير' خاصّةً"، بحث أُلقي في المؤتمر السنويّ التاسع لتاريخ العلوم عند العرب المنعقد في الرقّة (سورية)، شعبان ١٤٠٥/ نيسان (إبريل) ١٩٨٥، أبحاث المؤتمر، منشورات جامعة حلب ١٩٨٨.

* اَنظر: فاضل السباعي، "مناقشة اَبن أبي أصيبعة في مقولته عمّن دَفَعَ اَبنَ زُهر لتأليفه 'كتاب التيسير' "، "المجلّة العربيّة للثقافة" (تونس: المنظّمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم/ أليكسو، السنة الرابعة، العدد السابع، ذو الحجّة ١٤٠٤/ سبتمبر ١٩٨٤)، صص ٥٨ ـ ٧٣.

وقد حُقّق "كتاب التيسير في المداواة والتدبير" ونُشر مرّتين: الأولىٰ بتحقيق الدكتور ميشيل خوري، ووضع الدكتور مختار هاشم للكتاب "مَسْرَدًا" بالمصطلحات الطبيّة العربيّة الواردة فيه وما يُقابلها باللغة الفرنسيّة، وآخرَ بمفردات الأدوية والأغذية وما يُقابلها باللاتينيّة خاصّةً، صص ٤٨٩ـ٥٤٢، (تونس: المنظّمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، ودمشق: دار الفكر، ١٩٨٣)؛ والثانية بتحقيق محمّد بن عبد الله الرُّوداني (الرباط: أكاديميّة المملكة المغربيّة، ١٩٩١).

ثمّ ما لبث الإيطاليّون أن جعلوا من ابن سينا نفسِهِ أندلسيًّا، فقد عدَّهُ كلٌّ من مارسيليو فيسينو ولويجي پولسي ـ وهما من حلقة لورنزو المبجّل ـ من أهل قرطبة!

يقول پولسي [١٤٣٢ـ١٤٨٤] في كتابه *Morgante Maggiore* [مورگنته الأكبر]:

في قرطبةِ الزمنِ الغابر
هنالك، فيما يقول المؤرّخون والشعراء،
وُلِد ابن سينا، هٰذا الذي قد فَهِمَ
معاني ارسطو، والأسرار...

وفي إسبانيا، لم يتردّد، أيضًا، فرنان پيريث گوزمان(35)، بصدد جنسيّة كبار الحكماء، [في أن يقول]:

ومن ابن رُشد [آڤين رويث Avén Ruiz](36)، الوثنيّ،
يُعجبنا كتابه "الشرح"
وإذا ما الحكيمُ المصري
الحاخام موسىٰ
تذكّرته مملكةُ إسبانيا
فلسوف ترىٰ جيّدًا انه ليس عبثًا
ان أُطلق اسم "أثينا الأخرىٰ"
علىٰ قرطبة.

ولعلّ ابن رُشد (٥٢٠ـ٥٩٥هـ/ ١١٢٦ـ١١٩٨م) هو الأندلسيّ الذي كان له أكبرُ تأثيرٍ في الفكر الإنساني، عبر التاريخ. كان حفيدًا لقاضٍ من قرطبة (ومن هنا جاء لقب "الحفيد"، الذي يُطلق عليه أحيانًا)، لم يُقيَّض له أن يعرفه [أو يلتقي به] (ت ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م). وكان أبوه قاضيًا أيضًا، وقد حثّه علىٰ الاستماع إلىٰ الدروس التي كان يُلقيها كبار أساتذة عصره، ومنها دروس ابن بَشْكُوال (٤٩٤ـ٥٧٨هـ/ ١١٠١ـ١١٨٣م) في الحديث ودروس أبي جعفر [ابن] هارون التُّرجالي في الطّبّ. ولا بدّ أنه كان علىٰ ذاكرةٍ متميّزة، لأنّ كاتبي سيرته يؤكّدون أنه لم يكن يحفظ القرآن فقط

عن ظهرِ قلبٍ، بل أيضًا الكتاب الفقهي المعروف بٱسم "الموطّأ"، ولا بدّ أنه في قراءته النصوص الكلاسيكيّة، قد ٱستظهر قسمًا منها، كلمةً كلمة، حسبما يتراءىٰ لنا في بعض شروحه لأرسطو.

كان ٱبن رُشد في مرّاكش، نحو [٥٤٨هـ] ١١٥٣م، حيث أنجز ملاحظاتٍ فلكيّة، وفي [٥٦٥هـ] ١١٦٩م قدّمه ٱبن طُفَيل إلىٰ الخليفة أبي يعقوب يوسف. ومنذئذٍ أصبح ذا حُظوة عند الخلفاء [الموحّدين]، وٱضطلع بأعباء هامّة في الإدارة الموحّديّة، مثل قضاء إشبيلية وقرطبة. وخلال إقامته في أولىٰ هاتين الحاضرتين، تعرّف علىٰ ٱبن [مدينته] مُرْسِية الشابّ محيي الدين بن العربي (٥٦٠ــ٦٣٨هـ/ ١١٦٥ــ١٢٤٠م)، حسب ما ذكر هٰذا الأخير، وكان ما بينهما من حوار جذّابًا إلىٰ أقصىٰ حدّ، حتّىٰ ليصعُب التصديق بأنه حصل فعلًا. وفي ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، عندما تخلّىٰ ٱبن طُفَيل عن منصب طبيب البلاط، خَلَفَه ٱبنُ رشد، الذي كان قد أتمّ ([٥٦٥هـ] ١١٦٩م) تصنيف مؤلّفه الطبيّ الكبير "الكلّيّات". وبعد ذٰلك بٱثنتي عشرة سنة، في [٥٩٢هـ] ١١٩٥م، فَقَدَ حُظوته لدواعٍ سياسيّة. ذٰلك أنّ الخليفة يعقوب المنصور، الذي كان يستعدّ لحملةٍ [يخوضها مع مسيحيّي إسبانيا، سُمّيت فيما بعد بـ"يوم] الأرك Alarcos"، وَجَد أنّ من المناسب إثارةَ الحميّة في نفوس أولٰئك المنجذبين إلىٰ رهط الفقهاء، والذين كانوا لا ينظرون بعين الرضىٰ ـ كما هي الحال دائمًا ـ إلىٰ دراسة الفلسفة؛ فنَفىٰ ٱبن رشد إلىٰ "أَلِيُسَانَة"، المدينة اليهوديّة القديمة في الأندلس [قريبةً من قرطبة]، ومُنعت كتبه الفلسفيّة، وأُحرقت. وما إن تغلّب الخليفة علىٰ المسيحيّين [٩ شعبان ٥٩١هـ/ ١٨ تموز ١١٩٥م]، حتّىٰ عاد مجدّدًا إلىٰ ميوله القديمة، وردّ الٱعتبار إلىٰ ٱبن رشد، الذي لم يلبث أن وافاه الأجل المحتوم في مرّاكش، ونُقِل رُفاتُه إلىٰ إشبيلية، حيث حضر ٱبن عربي دفنه في مقبرة ٱبن عبّاس*.

* أنْ يكون الخليفة المنصور قد أبعدَ عنه ٱبنَ رشد استرضاءً لرهط الفقهاء والملتفّين حولهم، وهو في ٱستعداده لخوض معركته مع مسيحيّي إسبانيا، ثمّ يسترضيه بعد تمام الٱنتصار، مُعاوِدًا في ذٰلك ميوله القديمة إلىٰ الفلسفة... ذٰلك تفسيرٌ من ڤيرنيت يقف في مواجهة تفسير مواطنه المستعرب بالنثيا، الذي يقول عن النُّفْرة التي وقعت بين الخليفة والفيلسوف ما نصّه: ←

لقد ذاع صيت ابن رشد، طبيبًا وفيلسوفًا، وهو بعد على قيد الحياة، في العالمين الإسلامي والمسيحي جميعًا. وتولّدت ـ من آرائه التي لم تُفهم دومًا فهمًا جيّدًا ـ جملةٌ من الخرافات، جعلت منه آخر الأمر أنموذجًا للكافر والملحد! وذلك ما حصل في شأن التفسيرات التي يُقدّمها حول تدريس الفلسفة، وهي تفسيراتٌ لا يُمكن أن تكون متماثلةً عند الأميّين وعند المتعلّمين، لأنّ كلّ فريق من هؤلاء يُدرك ويتصوّر الحقائق على نحوٍ مغاير. فمثلًا، لو طُرح السؤال: «أين هو الله؟»، لأجاب الأُميّون: إنه في السماء؛ وأجاب مَن أُوتوا قدْرًا من العلم: إنه في كلّ مكان؛ وأجاب الحكماءُ: إنه ليس في أيّ مكان! إنّ طرائق في الفهم من هذا القبيل، كان من شأنها أن تُسهم إسهامًا كبيرًا في رسم صورةٍ خاطئة عن مؤمنٍ سعى إلى التوفيق بين العقل والإيمان، ولقد امتلك ـ خلافًا لما زعم بعض الفقهاء ـ قدرًا كافيًا من الذكاء والجرأة، يُمكّنه من ألّا يتّبع ـ اتّباعًا أعمى ودون مسوّغات ـ كائنًا مَن كان، حتّى أرسطو نفسه. وعلى ذلك نستطيع أن نَصُمّ آذاننا عن زعم "ابن سبعين" القائل: لو أنّ أرسطو أكّد أنّ المرء يُمكن أن يكون في الوقت ذاته واقفًا وجالسًا، لأيّده ابنُ رُشد أيضًا[37]. وليس من شيء أبعد من هذا عن الصواب. فإذا تركنا جانبًا، هنا، أعماله الفلسفيّة، فإنّ ذهنه الثاقب يستكشف، في المصنّفات العلميّة

← «ولا يُمكننا ردُّ ذلك إلى أسبابٍ تتّصل بالعقيدة، فقد كان المنصور على علم بمؤلّفات ابن رشد، وربّما كان سببه نفورٌ شخصيٌّ محض، أو أنه وقع نتيجةً لسعايات الحاسدين من أهل الحاشية، وربّما كان مردُّه كذلك إلى ما شمل نفسَ المنصور من حَمِيّةٍ دينيّة بعد انتصاره على النصارى في تلك الواقعة [يرى أنّ النُّفرة كانت بعد "يوم الأرك"]. ولا يبعد، كذلك، أنّ الفيلسوف غالى في الإفصاح عن خواطره التي لم تكن تأتلف تمامًا مع حرفيّة العقيدة، فلم يحتمل المنصور ذلك ثم سعى نفرٌ من سَرَوات إشبيلية عند [الخليفة المنصور] أبي يعقوب حتّى رضي عن ابن رشد في سنة ٥٩٥/ ١١٩٨، فاستقدمه إلى مراكش، حيث مات ذلك العام».

"تاريخ الفكر الأندلسي"، ٣٥٥ و٥٦.

قلت: وتُوفّي ابن رشد في ٩ من صفر ٥٩٥، أي في مطالع تلك السنة الهجريّة، فهو لم يتمتّع برضى الخليفة إلّا أسابيع، وربّما أيامًا!

علىٰ وجه الخصوص، الثغرات والأخطاء التي أرتكبها [الفيلسوف] الإصطاغيري*، لدرجةٍ يُظَنّ معها أنّ آراء [أبن رشد الصائبة] هي التي ربّما أوحت لكوپيرنيكو بضرورة أن يُفسِّر حركة مجموعة نظامنا الشمسيّ علىٰ نحوٍ مخالف لما ذهب إليه أرسطوطاليس وبطليموس، وأنّ تلميذًا مباشرًا لأبن رشد، البِطْرَوْجي (حيًّا [٥٩٧هـ] ١٢٠٠م)، هو الذي أقترح نظريّةً جديدة بهٰذا الصدد.

ويتمثّل إسهامُ أبن رشد، الفلسفيُّ الأساسيّ، في شروحه، التي تندرج في الأنماط التعليميّة الثلاثة ـ التي يُسلِّم بها العرب، وهي أوّلًا الجامع وجمعها الجوامع؛ ثانيًا التلخيص؛ ثالثًا التفسيرات أو الشرح، وقد تُرجمت معظم هٰذه [الأعمال] إلىٰ اللاتينيّة في بداية القرن الثاني عشر [٦ هـ]، ونحن نعرف القسم الأكبر منها، من خلال هٰذه الترجمات عينها ـ التي تكرّر طبعها في عصر النهضة ـ ذٰلك أنّ كثيرًا من نصوصه الأصليّة العربيّة قد فُقِد؛ ونعرف، كذٰلك، تاريخ وضع معظمها، ونستطيع من ثَمّ تتبّع التطوّر الفكري لمؤلّفها.

من بين أعمال أبن رشد الأصليّة، ينبغي أن نُشير إلىٰ كتابه "تهافت التهافت" ([٥٧٦هـ] ١١٨٠م) (المعروف لدىٰ اللاتينيّين بعنوان *Destructio*

* وفي المصادر العربيّة أنّ أرسطو وُلِد لأبٍ ماهرٍ في علم الطبّ، «في مدينة تُسمّىٰ أصطاغيرا، من البلادِ المسمّاة مقدونية»، وأنّه «لمّا مَلَكَ "الأسكندر"، وشَخَص عن مقدونية لمحاربة الأمم وحارب بلاد آسيا، صار أرسطاطاليس إلىٰ التبتُّل والتخلّي عن الاتصال بأمور الملوك، وأقبل علىٰ العناية بمصالح الناس... ورَفْدِ الملتَمسين العلمَ والتأديب... وإقامة المصالح في المدن؛ وجَدّد مدينة أصطاغيرا، وكان هو الذي وضع سُنَن أصطاغيرا عندهم... ونقل أهلُ أصطاغيرا عظامَهُ، بعدما بَلِيَت، وجمعوها وصيّروها في إناءٍ من نحاس، ودفنوها في الموضع الذي يُعرف بـ"أرسطاطاليسي"، وصيّروه مجمعًا لهم يجتمعون فيه للتشاور في جلائل الأمور.....».

الشهرزوري، "نزهة الأرواح وروضة الأفراح في تاريخ الحكماء والفلاسفة"، تحقيق خورشيد أحمد (حيدر أباد الدكن ـ الهند، دائرة المعارف العثمانيّة، ١٩٧٦)، ١: ١٨٨ و١٨٩ و١٩٣.

وتُسمّىٰ أصطاغيرا في بلاد اليونان، اليوم، "ستاڤروس Stavros".

(*destructionis*)، الذي يعترض فيه على بعض وجهات نظر [الإمام أبي حامد] الغَزالي في كتابه "تهافت الفلاسفة". فبينما يرى هذا الأخير ـ متّبعًا رأي أستاذه الجُوَيْني ـ أنّ دِقّة البرهان الفلسفي ليست مطابقةً لدِقّة البرهان الرياضيّ، فإنّ ٱبن رشد ـ متّبعًا أرسطو ـ يعتقد خلاف ذلك. ولهذا، عندما أصبح كتابه هذا معروفًا لدى المسيحيّين، ٱنقسموا إلى فريقين، وإنّ يول **Llull**، مترجم كتاب الغزالي "المقاصد"، أو ريمون مارتي (١٢٣٠ ـ نحو ١٢٨٦م)، كانا معارضين للرُّشديّة.

ويُرجَّح أنّ ٱبن رشد قد ذاع صيته [في وقت مبكّر من حياته]، ذلك أنّ [الشاعر الزَّجّال] ٱبن قزمان (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) أهداه قصيدةً زَجَليّة يقول فيها:

لَسْ لهذا المليح مِثَالْ
فمتى ذُكِرْ جَمَالْ
فإلى منْ هَويت يُمَالْ
ومتى ذُكرْ كَرَمْ
فلابن رُشْدَ أبو الوليدْ
رَفيعَ الهِمَّ هُ نَزيهْ
كُلّ مولا غُلامْ يَجِيهْ
وخِصال وِلْدُ خِلْقَ فيهْ
مَنْ شَبَهْ وِلْدُ ما ظَلَمْ
لم يَرِثْ خَصْل مِنْ بَعِيدْ
لا غنى أن يَكُنْ نَظيرْ
جَدُّ القاضي الكبيرْ
لَسْ ترى الكنْيَة كف تَسيرْ*

* ٱقتبس فيرنيت هذه الأبيات (أو الأشطر)، المتعلّقة بٱبن رشد، من ترجمة غارثيا غوميز إلى الإسبانيّة، وهي جزءٌ من القصيدة (أو المقطوعة) التي تحمل الرقم (١٠٦) في "ديوان ٱبن قُزمان" في نصّه العربي الذي حقّقه المستعرب كورينطي (مدريد، المعهد الإسباني العربي للثقافة، ١٩٨٠)، ٧١٠ـ١٥، وقد أُدرجت فيه الأزجال بالعربيّة (اللهجة الأندلسيّة) و"معبّرًا عنها بالحروف اللاتينيّة" أيضًا، حسب قول المحقّق.

←

غير أنّ شهرته هذه، التي اَستمرّت في العالم المسيحي ـ وتسرّبت أفكاره حتّىٰ إلىٰ "رواية الوردة *Roman de la rose*" ـ أخذت تتلاشىٰ في العالم الإسلامي، وذلك ما حدا بورخيس **Borges** علىٰ أن يكتب قصّةً حول إخفاق فيلسوفٍ «سجين ثقافة الإسلام، ولم يتمكّن قطّ من فهم معنىٰ كلمتَي "مأساة" و"ملهاة" [تراجيديا وكوميديا]»!

أجل، إذا كان اَبن رُشد لم ينل إلّا حظًّا ضئيلًا من الفهم من قِبَل إخوانه في الدين، فإنهم قد أحالوا، أيضًا، إلىٰ النسيان واحدًا من أكبر الجغرافيّين علىٰ مرّ العصور: الإدريسي (٤٩٣ـ٥٦٠هـ/ ١١٠٠ـ١١٦٥م)، اَبن مدينة "سَبْتَة"، الذي تلقّىٰ العلم في قرطبة، وطاف ـ دون هوادة ـ في أقطار المغرب الإسلاميّ، واَنتهىٰ إلىٰ أن يستقرّ في بلاط روجيه الثاني في صِقِلّيّة، وكتب تحت رعايته جغرافية وصفيّة: "نزهة المشتاق في اَختراق الآفاق"، جرىٰ تسميتُها بـ"كتاب روجيه". إنه كتاب جغرافية

← وقبل أن يمتدح اَبنُ قُزمان (وقد كان في أواخر حياته) اَبنَ رشد (الذي كان في ربيع العمر)، قدّم لمقطوعته بهذا المطلع (الخَرْجَة) المؤلّف من شطرين:

أبـدا لَـسْ نَـقُـلْ بِهِمْ
إذ رايـت الـذي نـريـدْ

وتنتهي المقطوعة بهذه الأشطر:

والنّبي، لو جَرَى الفَلَكْ
علىٰ قيس اَعتقادِ لَكْ
غَـيْرَك الـدُّنـيا مـا مَـلَـكْ
الـنِّـسـا كُـلُّـهُـمْ خَـدَمْ
والـرِّجَـال كُـلُّـهُـمْ عَـبِـيـدْ

ويُنظَر، اليوم، إلىٰ اَبن قُزمان بصفته متفوّقًا في نظم الزّجل الأندلسيّ، وإن لم يكن هو من اَبتدع هذا اللون من الشّعر الشعبيّ في الأندلس. وتتجلّىٰ أهمّيّة ديوانه ـ المكتشفةِ مخطوطتُهُ منذ حينٍ ـ في إفساح المجال للمقارنة بين الزّجل الأندلسي وبين الشعر الذي أصبح يُغنّى في اللغات الرّومنيّة (في إسبانيا والبرتغال وجنوبي فرنسا) وفي الشعر الغنائيّ الأوروبيّ عامّةً، وفي التأثير ـ الذي يكاد يُسلَّم به ـ للزّجل الأندلسي في هذه الغنائيّات جميعًا.

ممتاز، يفترض فيه الإدريسيُّ أنّ الأرض تنقسم إلىٰ سبعة أقاليم في اتّجاه خطوط العرض، وإلىٰ عشرة أجزاء في اتّجاه خطوط الطول. وقد تمّ تلخيص هٰذا الكتاب، الموثّق جيّدًا وعلىٰ نحو فائق، في عدّة ملخّصات، صدر واحدٌ منها في إحدىٰ الطبعات العربيّة الأولىٰ المنجزة في أوروبة، وتُرجم إلىٰ اللاتينيّة من قِبَل ب. بالدي (١٦٠٠م [١٠٠٨هـ])، واحتُفظ بالترجمة غير منشورةٍ في جامعة (مونبيلييه)، وترجم من قِبَل المارونيَّيْن ج. سيونيتا [جبرائيل الصهيوني] وخ. هِسْرونيتا [حنّا الحصروني]، وشكّل [الكتاب]، خلال قرونٍ، مصدرًا لا يُضاهىٰ في معرفة أصقاع مثل إفريقية أو آسيا الوسطىٰ، التي كان يستحيل عمليًّا علىٰ الرحّالة الأوروبيّ أنّ يُحقّق الوصول إليها•.

ولقد نال حظًّا من الشهرة، في تلك الآونة مع ابن رُشد والإدريسي، اليهوديُّ القرطبيُّ [ابن] ميمون ([٥٢٩ـ٦٠١هـ] ١١٣٥ـ١٢٠٤). تلقّىٰ العلم في موطنه [قرطبة]. إلّا أنّ الصُّعوبات المتزايدة، التي كانت تُعاني منها الأقليّتان: المستعرِبة [نصارىٰ الأندلس] واليهوديّة، نتيجةً لسياسة عدم التسامح التي كانت تنتهجها الأُسرتان الإفريقيّتان الحاكمتان [للأندلس] ـ المرابطون أوّلًا، ثمّ الموحّدون ـ حملته علىٰ الهرب ([٥٤٤هـ] ١١٤٩م) مع أفراد أسرته ـ وقد يكون تظاهر بالإسلام ـ إلىٰ المغرب، البلد الذي بدت فيه الأُسرتان الحاكمتان نفسُهما ـ بعيدًا عن تهديد مسيحيّي الشّمال ـ أكثرَ تسامحًا بما لا يُقاس. ثمّ رحل إلىٰ المشرق، حيث قُيّض له أن يُصبح طبيبًا للأيوبيّين، وبلغ ـ داخل طائفته [اليهوديّة] ـ مرتبةً رفيعة، مرتبة "نَجِيد **nagid**". وكتب معظم أعماله العلميّة بالعربيّة، التي سُرعان ما تُرجمت إلىٰ العبريّة

• يجد القارئ في "معجم" سركيس، تفصيلًا لهٰذه الطبعات الأوروبيّة، المختصرة والكاملة، ومنها ما صدر مترجمًا، إلىٰ اللاتينيّة والإسبانيّة والإيطاليّة والفرنسيّة مع نصّه العربي، ونشر ابتداءً من القرن السابع عشر حتّىٰ هٰذا القرن العشرين. انظر: يوسف إليان سركيس: "معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة" (القاهرة: مطبعة سركيس، ١٩٢٨)، ٤١٥ و١٦.

وبين الأيدي، اليوم، طبعتان حديثتان لـ "نزهة المشتاق.."، مصوّرتان بالأوفست عن إحدىٰ الطبعات الأوروبيّة، كلّ منهما في مجلّدين، إحداهما صادرة عن بيروت (عالم الكتب، ١٩٨٩)، والأخرىٰ عن القاهرة (دار الثقافة الدينيّة، د. ت).

واللاتينيّة، وأمست معروفةً عند الجماعات الإسبانيّة، ثمّ في سائر أقطار أوروبة. من هٰذه الأعمال كتاب "دلالة الحائرين Moré nebujim" ([٥٨٦هـ] ١١٩٠م)[38]، وفيه يوفّق بين الديانة الموسويّة والإيمان، علىٰ نحوٍ مُشابهٍ لفهم ٱبن رشد للمشكلة، هٰذا الذي عَرَفَ ٱبنُ ميمون بعض أعماله علىٰ الأقلّ، حتّىٰ إنّ فِكْر كلا المؤلّفين ينمّ علىٰ تشابهٍ مطّرد. وإذا كان ٱبن رشد قد ولّد الشكّ عند إخوانه في الدين، فإنّ الأمر ذاته قد وقع لأبن ميمون، الذي كان عدوًّا لعلم التنجيم، وللعلوم الخفيّة، وللصوفيّة المتطرّفة، وذٰلك إذا ما صدّقنا أقوال المسلم عبد اللطيف البغدادي (٥٥٧-٦٢٩هـ/ ١١٦٢-١٢٣١م)، الذي صحبه في القاهرة، وأكّد أنّ اليهود كانوا يَعُدُّون أحد أعماله بدعة. والواقع أنّ الجماعات اليهوديّة، التي كانت في معظمها عاجزةً عن فهم العمل الكبير الذي أنجزه "نَجيدُها"، قد ٱنقسمت، منذ القرن الثالث عشر [٧ هـ]، إلىٰ أنصارٍ "للميمونيّة" ومناوئين لها، ودخلوا في مساجلاتٍ فلسفيّة ـ لاهوتيّة واسعة النطاق، ٱستدعت أحيانًا [في أوروبة] تدخُّل السلطات المسيحيّة*.

* موسىٰ بن ميمون بن يوسف بن إسحٰق، أبو عمران. وُلِد في قرطبة، وهي في حُكم المرابطين. توجّه إلى المغرب (في ٥٤٤هـ، حسب ڤيرنيت، فكان له من العمر خمسة عشر عامًا!). تظاهر بالإسلام، وقيل: أُكره عليه، فحفظ القرآن وتفقّه بالمذهب المالكي. ودخل مصر (٥٦٧هـ، حسب الزركلي في "الأعلام")، فعاد إلى يهوديّته. وأقام بالقاهرة رئيسًا روحيًّا لليهود، وعمل طبيبًا في البلاط الأيّوبي. كَثُرت تآليفه وتنوّعت، منها "دلالة الحائرين" (ثلاثة أجزاء بالعربيّة) تُرجم إلىٰ اللاتينيّة، ومن تصانيفه في الطبّ "شرح أسماء العقّار".

قيل: هو عند اليهود بمنزلة الإمام الغَزالي عند المسلمين. وقد كان كلٌّ منهما نابغةً ونادرةً من نوادر الذكاء والعرفان، وذاع صيتهما في مشارق الأرض ومغاربها، وكان لهما تأثيرٌ مشهود، وأنصارٌ وخصوم. ولعلّ ذلك ما حدا أكاديميّةَ المملكة المغربيّة على أن تجعل من هذا التشابه موضوعًا لندوةٍ فكريّة عقدتْها في أكادير (المغرب) ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥، وأصدرت البحوث التي قُدّمت فيها بكتابٍ باللغات العربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة والإسبانيّة، بعنوان: "حلقة وصل بين الشرق والغرب: أبو حامد الغزالي وموسىٰ بن ميمون".

قلت: وأرىٰ "الأندلسيّة" في ٱبن ميمون (عاش في قرطبة الخمس عشرة سنةً الأولىٰ من عمره) من الضآلة حتّىٰ لتَغْلِب عليها "المغربيّة" (٢٣ عامًا، تتمثّل فيها الفُتوّة والشباب)، ثمّ كان في مصر عطاؤه الفكري حتّىٰ آخر حياته... فكان منطقيًّا من مؤرّخ الأطبّاء الدمشقيّ ٱبن أبي أُصيبعة، أن يُدرِج ٱسمه بين "أطبّاء ديار مصر" لا بين أطباء الأندلس والمغرب!

ولقد بقي نشاط المسلمين الأندلسيّين حيًّا، حتّىٰ مطلع القرن الثالث عشر [٧ هـ]. ولٰكن انحطّ فجأةً ما أن تحطّمت قوّة الموحّدين في [معركة] لاس ناڤاس دي تولوزا Las Navas de Tolosa (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م)*، وأصبح في وسع الفرسان المسيحيّين أن يجولوا بحرّيّةٍ في شبه الجزيرة الإيبيريّة بأسرها. وأفضىٰ افتقاد الأمن الداخلي، إلىٰ مرحلةٍ جديدة من التجزُّؤ، ما لبث أن أعقبها الغزوُ المسيحيّ لبَلَنْسية ومُرْسِيَة وجَيّان وقرطبة وإشبيلية وقادش... وتوجّه الأغنياء والمثقّفون ومُلّاك الأراضي، مغتنمين ما تسنح لهم الفرص، إلىٰ إفريقية أو المشرق. هٰذا، وقد تُوُفّي [أبو الحجّاج يوسف بن محمّد] بن طُمْلُوس، تلميذُ ابن رشد وخَلَفُه، في الوقت المناسب، حتّىٰ لا ترىٰ عيناه أرضه "ألثيرا Alcira" وهي في أيدي المسيحيّين، إلّا أنّ عالم النبات ابن البَيْطار (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، والصُّوفِيَّيْن ابن العربي (٥٦٠ـ٦٣٨هـ/ ١١٦٥ـ١٢٤٠م) وابن سبعين، وكثيرًا غيرهم، هاجروا إلىٰ مناطق أكثر أمنًا، علىٰ حين أصدر ألفونسو الثاني ملك قشتالة أمره إلىٰ اليهود خاصّة، بترجمة كلّ ما رآه هامًّا من الكتب العربيّة الكثيرة التي وقعت في أيدي الغزاة. وعندما شهدت "مملكة غرناطة"، بعد مئة سنة من عمر الزمان، استقرارًا نسبيًّا، وخاصّةً في ظلّ حكم محمّد الخامس، انبعثت من جديد نهضةٌ ثقافيّة ذات طابع عربيّ ـ أندلسيّ، ولٰكنها كانت ضعيفة ولا يمكن مقارنتها ألبتّة بنهضة تلك الحِقبة التي امتدّت من القرن العاشر حتّىٰ القرن الثاني عشر [٤ـ٦ هـ]، وإن تكن قد دخلت من خلالها تقنيّاتٌ جديدة إلىٰ أوروبة المسيحيّة.

وخلال القرن الثالث عشر [٧ هـ]، نشأت، في المقابل، مراكزُ جديدةٌ تهتمّ بالإسلام، وانْفُتِحت منافذ اتّصالٍ جديدة؛ فهناك ـ من جهةٍ ـ الميولُ الاستشراقيّة التي تبدّت عند الامبراطور فيديريكو الثاني دي هُوهِنْزتاوْفِن (١١٩٤ـ١٢٥٠م)، ومن

* وتُسمّيها المصادر الإسلاميّة بـ"وقعة العِقاب" (يوم الاثنين ١٥ من صفر ٦٠٩/ ١٦ تموز ١٢١٢)، وقد وقعت في سهلٍ جنوب غرب حصن العِقاب شمال شرق قرطبة (والعِقاب ج عَقَبة: المرتقىٰ الجبلي).

جهةٍ ثانية كان السفراء الأوروبيّون الكُثْر الذين أخذوا يذهبون إلىٰ آسيا، بدءًا من منتصف القرن، بفضل السلام المنغولي الذي أبقىٰ مختلف الطُرُق مفتوحةً، وٱضطرّ، بشكلٍ غير مباشر، البلادَ الإسلاميّة ـ التي ظلّت خارج نطاق سيطرته ـ علىٰ أن تُشْرِع أبوابها، بحثًا عن حلفاء لها جُدُد، أو عن الموادّ الأوّليّة التي تُمكّنها من تعزيز قدرتها الدفاعيّة. ومن هٰذا الوجه الأخير ٱعتقدت السلطة البابويّة أنّ عليها أن تُسرع في التدخُّل للحيلولة دون تصدير ما نُسمّيه ـ في عصرنا الراهن ـ بالموادّ الٱستراتيجيّة إلىٰ العالم الإسلامي.

ولقد أحاط فيديريكو الثاني نفسه بالعديد من المستشرقين والمستعربين، برز منهم ميكيل إسكوتو، الذي كان قد قضىٰ جانبًا من عمره مترجمًا في طليطلة، وأنهىٰ أيّامه إلىٰ جانب الإمبراطور، وكذٰلك تيودورو الأنطاكي، وليوناردو الپيزاني الشهير بـ"فيبوناتشي"... إلخ. وما كان له أن يكتفي بذٰلك، بل أجرىٰ مراسلاتٍ متوالية، كانت تتناول قضايا فلسفيّةً ـ علميّة مع كبار العلماء في الشرق والغرب الإسلاميّين، ووجّه جملةً من الأسئلة إلىٰ الخليفة الموحّدي الرشيد (٦٣٠ـ٦٤٠هـ/ ١٢٣٢ـ١٢٤٢م)، الذي عمل علىٰ توصيلها إلىٰ ٱبن سبعين، وكان يُقيم آنئذٍ في سبتة. فكتب هٰذا كتابه "الأجوبة عن الأسئلة الصِّقِلّيّة"، تناول فيه مسألة خلود العالم، وأُسس اللاهوت، والمقولات، والنفس، ولعلّه تأتّىٰ لهٰذا النصّ أن يكون آخر عمل مُسْهَب لمؤلّفٍ أندلسيٍّ يُتَرجم إلىٰ اللاتينيّة، إذ لا يجدر الٱفتراض أنّ فيديريكو الثاني كان يعرف العربيّة الفصحىٰ علىٰ نحوٍ يُمكّنه من قراءة النصّ في أصله. ولٰكن تبيّن ـ من ناحية أخرىٰ ـ أنّ من بين الكُتّاب، الذين كانوا يُحيطون به، نفرًا من أهل العلم العرب القادرين علىٰ ترصيع مراسلاته الرسميّة مع الأيوبيّين بٱستشهاداتٍ وافرة من أبياتِ شعرٍ لأكبر الشعراء العرب، المتنبّي.

ومع ٱبن سبعين يُمكِننا ٱختتامُ هٰذه اللوحة الإجماليّة لتطوّر العلم العربي، الذي ٱستحقّ شرفَ الٱنتقال إلىٰ لغاتٍ غربيّة. وإذا ما ٱتّفق لنا أن رأينا، بعد القرن الثالث عشر [٧ هـ]، هٰذا المؤلّفَ العربيّ الغرناطيّ أو ذاك، وقد ٱستحقّت [أعماله] الترجمة، فإنها كانت، بوجهٍ عامّ، ترجماتٍ جزئيّة، ولم يُكتب لها من الٱنتشار ما بلغته ترجماتُ أعمال المؤلّفين الذين أتينا علىٰ ذكرهم.

حواشي المؤلّف

1. هناك نظريّات أخرىٰ تقول بأصل مزدكي لهٰذه الطائفة. راجع [بهٰذا الشأن] ف. م. باريخا **Islamologia**، المجلّد الثاني، (مدريد، ١٩٥٢ـ١٩٥٤) صص ٧٥٥ـ٧٥٦.

2. أُطلقت هٰذه التّسمية، نسبة إلىٰ العبّاس بن عبد المطلب، عمّ محمّد.

3. تعني كلمة "خليفة" بالإسبانيّة، **delegado** (المندوب) أو **lugarteniente** (النائب)، ومن ثمّ، يتعيّن أن يُوَضّح، بعد هٰذه الكلمة، اسم المرجعيّة [الأصليّة] التي تُنال سلطاتها استخلافًا، فليس سواءً أن نتكلّم عن الخليفة، الذي كان قائمًا في منطقة الحماية الإسبانيّة بالمغرب وكان "خليفة السلطان"، أو عن الخليفة بالذات ومجازيًّا [مجاز قائم علىٰ استعمال اسم علم بمعنىٰ اسم جنس، والعكس صحيح] وهو موضوع الكلام هنا. وللاطلاع علىٰ كامل هٰذه المسألة، راجع كتاب علي عبد الرازق، "الإسلام وأصول الحكم" (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م).

4. راجع [مقالة] ڤيرنيت، "العربيّة الوسطىٰ وعلم المعاجم"، المنشورة في *Convivium*، العدد [المزدوج] ١٧ـ١٨ (١٩٦٤) صص ٢١٣ـ٢١٦، وفيه يحاول أن يبرهن، انطلاقًا من البنية اللسانيّة، علىٰ أنّ الديموقراطيّة كانت النظام السياسيّ الأصليّ للعرب.

5. بحسب رأي أميريكو كاسترو **Américo Castro** [في كتابه] *"La realidad histórica de España"* (واقع إسبانيا التاريخي) (ميكسيكو ١٩٥٤) صص ٤٩٦ـ٥١٨، ويتّفق هنا استثناءً، مع سانتشيث ألبُرنوث **Sánchez Albornoz** [في كتابه] *España, "un enigma histórico"* (إسبانيا، لغزٌ تاريخي) (بوينس آيرس ١٩٦٢)، ٢، صص ٢٥٥ و٢٨٦ وما يليها، وكلاهما من أصل يهودي.

6. لنعرض بعض الأمثلة، فمن بين الأوائل [الذين تعرّضوا لهذه المحنة]، نجد ٱبن حنبل، ومن بين المعتزلة والفلاسفة، الكِندي والفارابي وٱبن سينا.

7. تسعىٰ الشيوعيّة الحديثة في البلاد الإسلاميّة، إلىٰ الرّبط بين نظريّاتها وبين الصحابي أبي ذَرّ الغِفَاري وآرائه، وكان حمدان قِرْمِط قد عمل علىٰ تطوير هٰذه الآراء، ذات الصبغة الٱشتراكيّة، خلال سنوات من أواخر القرن العاشر [٤ هـ].

8. لهٰذا السبب، عَنْوَن أربري، الذي يحترم هٰذا الرأي إلىٰ أقصىٰ حدّ، الترجمة التي أنجزها إلىٰ الإنگليزيّة *The Coran interpreted* (لندن، ١٩٦٤) [أي ما يعادل "شرح معاني القرآن"].

9.كان الٱنتقال من "قاطع طريق" إلىٰ رئيس شرطة أمرًا مطّردًا في العالم الإسلامي[1]، وكان الذين يرتقون كذٰلك، علىٰ وجه العموم، يخدمون أولياء نعمتهم بإخلاص.

10. ثمّة ترجمة [لهٰذا النصّ] في [كتاب] روزنتال **Rosenthal**، *Das Fortleben...* (بقاء [أو خلود]...)، ص ١٠٤ و١٠٥. وقد ترجم هٰذا الكتاب إلىٰ القشتاليّة في القرون الوسطىٰ تحت عنوان، *Sentencias morales de los filósofos* (المأثورات [الأحكام] الأخلاقيّة للفلاسفة) ونشره كنوست بعنوان: *Flores de Filosofia, en Dos obras didácticas y dos leyendas* (أزهار الفلسفة في مؤلَّفَيْن تعليميّين وأسطورتين)، مدريد ١٨٧٨.

11. يُمكننا الٱطّلاع علىٰ شجرة النسب في عمل أو. ڤيدمان **E. Widemann**، المسمّىٰ "مباحث" *Aufsätze* الجزء الثاني (١٩٧٠)، ص٥٦٩. ولنلاحظ تكرار ظهور هٰذا الضرب من الأُسَر، علىٰ سبيل المثال: آل بَخْتَيْشُوع، وآل بِرْنُويي **Bernouilli** [؟]... إلخ.

12. يتعيّن عدم الخلط بين [هٰذا الطبيب] وبين الأسرة الفارسيّة التي تحمل هٰذا الٱسم في الحقبة ذاتها، وقد ٱستقرّت في قرطبة، وبرز بعض أفرادها في مجال التاريخ.

13. كان من تلامذته القاضي عبد الرحمٰن بن عيسىٰ بن عبد الرحمٰن (ت ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م) الذي قام بمهامّ منصبه علىٰ التوالي في طليطلة وطرطوشة ودانية.

14. ومن البدهي أنه لم يدخل في نزاع مع النصارىٰ. يقول القرآن، في السورة الخامسة [المائدة] ﴿لَتَجِدَنّ أشدّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليَهودَ والذين أشركوا، ولتجدَنّ أقربَهم مودّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارىٰ. ذٰلك بأنّ منهم قِسّيسين ورُهبانًا وأنهم لا يستكبرون﴾.

15. نشر النصّ العربيّ فؤاد سيّد (القاهرة ١٩٥٥)، وأنجز خوان ڤيرنيت الترجمة القشتاليّة للفصل الخاصّ بالأطبّاء الأندلسيّين، بعنوان *Los médicos andaluces*.

16. هو الكاتب الهيليني خوان فيلوپونوس گراماتيكوس (النحوي).

17. راجع مقالة أ. تيريس E. Terés "حول طيران عبّاس بن فرناس" [المنشورة] في [مجلّة] *Al-Andalus* ٢٩ (١٩٦٤)، صص ٣٦٥ـ٣٦٩، وفيها يَثبت أنّ ما خلّفه هٰذا الطيرانُ من الصدىٰ ظلّ باقيًا، حتّىٰ [إنه ظهر] في أحد أعمال أوغسطين دي روخاس (ت نحو ١٦١٨م).

18. أقام بوريلّي Borelli، في كتابه *De motu animalium* (١٦٨٠م)، الدليلَ علىٰ أنّ العضلات الصدريّة للكائن البشري، لا تُعادل سوىٰ جزءٍ واحد من المئة من وزنه، علىٰ حين تُشكّل هٰذه النسبة السُّدُس لدىٰ الطيور، ومن ثَمّ فالكائنات البشريّة لا تمتلك القوّة الكافية التي تُمكّنها من الطيران.

19. راجع *Analectas* ١، ص ٢١٦ = (المَقّري، طبعة القاهرة، ١٣٦٧/ ١٩٤٩)، ١، ص ٣١٤.

20. يروي "سَنَد بن علي"، اليهودي، [لمن سأله عمّن كان سببَهُ إلىٰ الخليفة المأمون، حتّىٰ اتّصل به وكان في جلسائه من العلماء؟ فحدّث عن تعلّقه بكتاب المِجِسْطي [في علم الهيئة]، بعد فراغه من قراءة كتاب أُقليدِس [في أصول الهندسة]، وعن دخوله بعد ذٰلك، وهو في العشرين من العمر، مجلس العبّاس بن سعيد الجوهريّ، تِرْب المأمون، الذي اَمتحنه فوجده جديرًا بأن يكون ممّن يُلازمون الخليفة... يقول:]

> *فعامر ان تُقْطَع لي اَقْبِيةٌ [واحدها قِباء: الثوب تُجمع اطرافه من امام بأزرار]، وتُرتاد لي مِنْطقةٌ منهّبة [كالحزام]، ففُرِغ من جميع ذٰلك في تلك الليلة، ودخل [الجوهريُّ] بي إلىٰ المأمون، وأمرني بملازمته، وأجرىٰ لي انزالاً ورزقا».*

[اَبن الداية] أحمد بن يوسف [الكاتب ت ٣٤٠هـ/ ٩٥٢م]: "كتاب المكافأة [وحُسْن العُقبىٰ]" [تحقيق: محمود محمّد شاكر] (القاهرة: [مطبعة الاَستقامة] ١٩٤٠): ص ١٤٣.

21. يبدو أنّ الغزال هو الذي جلب هٰذه النبتة (شجرة التين البرّيّة في الإسبانيّة doñegal أو boñigar) تهريبًا، وذلك لدىٰ عودته من سفارته إلىٰ بيزنطة! اَنظر: أ. گارثيا گوميث، مجلّة الأندلس *Al-Andalus* ١٠ (١٩٤٥): ص ١٣٤.

22. يُعزىٰ اَكتشاف تربية دود القزّ، تقليديًّا، إلىٰ حِقبةٍ موغلة في القدم. وكانت أسرة هان Han الملكيّة (٢٠٢ قبل الميلاد ـ ٢٢٠ بعد الميلاد) قد سمحت بتصدير المنسوجات الحريريّة، ونشرت، إضافةً إلىٰ ذلك، مجموعةً من الإشاعات الكاذبة، تفاديًا لفقدان اَحتكارها.

راجع [مقالة] G. K. C. Lin، "دودة القزّ والأستنبات الصيني"، [المنشور في مجلّة] *Osiris*، ١٠ (١٩٥٢)، ١٢٩_١٩٣.

23. راجع سفر إشَعْياء، الإصحاح ٤٠، ٢٦، «اَرفعوا إلىٰ العَلاء عيونكم، واَنظروا مَن خلق هٰذه. مَن الذي يُخرِج بعددٍ جُندَها يدعو كلّها بأسماء. لكثرة القوّة وكونه شديدَ القدرة لا يُفقَد أحد».

24. إنّ التغييرات الأخيرة ـ بعدما عَدَّلتْ في هٰذه الرؤيا "يَهْوه ـ صيباؤوت" (عند إشَعْياء، ٦، ٣) بمعنىٰ «أنه الرّبُّ إله الكون» بدلًا من «الربُّ إله الجنود» ـ تحت الصورةَ التقليديّة الألفيّة.

وفي العبريّة "صيباؤوت" معناها: الجيش. وعبارة "صيباؤوت ها ـ شامايِم"، "الجيش السماوي"، أي النجوم، ولا تُفيد بأيّة حال ـ في سياق نصّ إشَعْياء ـ الكون. وفي العربيّة يدلّ الجذر ذاته « ṣ b ' : ص ب ء » علىٰ طلوع نجم.

[قلتُ، في العربيّة، صَبَأ النجمُ: طَلَع، وصَبَأ الرجلُ: خرج من دين إلىٰ دين، والصابئة: قومٌ يعبدون الكواكب].

25. «وعند التحقيق وصحّة النظر، فكلّ ما عُلِمَ فهو عِلْم، فيدخل في ذٰلك علمُ التجارة، والخياطة، والحياكة، وتدبير السُفن، وفِلَاحة الأرض وتدبير الشجر ومعاناتها وغرسها، والبناء، وغير ذٰلك»، رسائل اَبن حزم: ٨١. ونقرأ في موضع آخر: «فإنْ كان [المرء] في أحد هٰذه السُبل، فليَنْصَح في صناعته تلك، وليطلب التزيُّد من العلم بما أمكنه، ليكون سببًا للخير في تعليم الجاهل، وإبراء الأدواء بإذن الله تعالىٰ...»، المرجع السابق: ٧٦.

26. «وبالجملة، فليس القضاء بالنجوم عِلْمَ برهان، وإنما هي تُراعىٰ أبدًا، وبالجملة تجارب، وإذ هي كذٰلك، فباطلٌ بلا شكّ، لأنّ التجارب لا تكون إلّا بتكرير الحال مرارًا كثيرة جدًّا علىٰ صفةٍ واحدة لا تستحيل أبدًا»، المرجع السابق: ٧٠.

27. كانت السُلالات تُفهم ـ وما زالت كذٰلك في الوقت الحاضر في بعض البلدان الإسلاميّة ـ علمًا لأنساب العشائر والقبائل، وكانت تُشكّل مبحثًا أساسيًّا لفهم التاريخ، بحُكم أنّ المفهوم البيولوجي للوطن كان يكتسب لدىٰ العرب في ذٰلك العصر أهمّيّةً أكبر من المفهوم الترابي الذي يسود في الوقت الحاضر.

28.أي: ١ـ الكتابة ومبحث الأمثال؛ ٢ـ النحو والشعر؛ ٣ـ الفِقْه؛ ٤ـ الحساب؛

٥. الهندسة، ٦. علم الفلك، ٧. الطبّ، ٨. الموسيقىٰ، ٩. المنطق، ١٠. الفلسفة. وتتقدّم هٰذا التصنيفَ موادُّ [المجموعتين] الثلاثيّة والرباعيّة، التي ما زالت آثارها باقيةً في الألقاب الدراسيّة الإنگليزيّة: **Bachellor**، **Master of arts**.

29. رقم نموذجي للإشارة إلىٰ الكمّ الهائل من الكتب أو إلىٰ أثمانها. فلقد بيعت مكتبة عبد الله الأندلسي بما مقداره ٠٠٠ ٤٠٠ درهم.

30. ضد الاعتقاد، المسلّم به بوجه العموم، الذي يذهب إلىٰ أنّ يوسف بن تاشفين كان صاحب الفضل في إدخالها إلىٰ الأندلس، وإلىٰ أنها كانت السبب في الانتصار الإسلامي بمعركة الزلّاقة.

31. [ممّا ورد في كتاب " مذكّرات الأمير عبد الله، آخر ملوك بني زيري في غرناطة"، المسمّاة بكتاب "التّبيان"، ما نصّه:]

> *«أنّ ابن هود [ت٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م] لمّا حصل علىٰ دانِيَة، انفسد طبعُه، وادركتْه الرغبةُ في البلاد، وزال عمّا كان عليه من جهاد الرُّوم، وطمع في بَلَنْسِية عند ذٰلك، وأعطىٰ عليها اموالاً جسيمة لألفونْش [الفونسو السادس]، والفونش في هٰذا كلّه ـ علىٰ ما قدّمنا ذكره ـ يأخذ الأموال، ولا يُحقّق لأحدٍ أن يُهاوده علىٰ اخذ بلدة. فتوفّي ابن هود في إثر اخذه لدانية وبلوغه آماله منها. وكان ابن الحيّاط المنجّم ذكر ذٰلك كلّه، ولقد قرأتُه في بعض كتبه قبل أن ينقضي، حتّىٰ رأيته عيانا».*
>
> *"مذكّرات..." ([القاهرة]: دار المعارف بمصر، ١٩٥٥): ٧٨.*

32. سلّمنا، هنا، بالتاريخ الذي ورد في كتاب "طبقات الأمم"، ولقد أكّد صاعد أنه أخذه من المعنيّ بالأمر نفسه [«وأخبرني أنه وُلِد في ذي الحجّة من سنة تسع وثمانين وثلاثمائة»]. وإذا نحن سلّمنا بالتاريخ الذي يقول به ابنُ الأبار (٣٨٩هـ/ ٩٩٨م)، فقد يتحتّم علينا أن نعتقد بأنه اتّبع دروس الزهراوي في الوقت الذي كان لا يزال يافعًا جدًّا، لأنّ هٰذا الأخير توفّي علىٰ أبعد تقدير سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م.

33. صدر بعنوان "عُمدة الطبيب، معجم الألفاظ المشتقّة من اللاتينيّة والتي سجّلها عالمٌ نباتي 'إسباني مسلم' مجهول". وعنوانه الفرعي بالإسبانيّة: *Glosario de voces romances registradas por un botánico anónimo hispanomusulmán, siglos 11-12*، مدريد، غرناطة، ١٩٤٣.

34. ... نُشير إلىٰ أنّ قصّة "حي بن يقظان" قد تُرجمت إلىٰ لغات أوروبيّة عديدة.

35. ... وفي هٰذا الاتّجاه الفكريّ ذاته، جعل لوكاس دي توي **Lucas de Tuy** (١٢٣٦) من أرسطوطاليس نفسه شخصيّة إسبانيّة.

36. لنلاحظ الصبغة القشتاليّة التي أُضْفِيَت على اَسم اَبن رشد "**Avèn Ruiz**"، [على حين أنّ الغربيّين يلفظون اَسمه: "**Averroès**"].

37. إني إذا ما ذكرت هٰذه الحالة، فذٰلك لأنّ النصّ الذي نحن بصدده تضمّه المنتخباتُ التي نشرها ميگيل أسين **Miguel Asín** بعنوان *Crestomatía de árabe literal* (منتخبات من العربيّة الفصحىٰ ـ الأدبيّة)، وهٰذا الكتاب نستخدمه عادةً في تدريس اللغة العربيّة بالأقسام الأولىٰ، ومن ثَمّ فهو معروفٌ علىٰ نطاق واسع في أوساط طلبة كلّيّات الآداب ببلادنا. غير أنّ هٰؤلاء، إن لم يسعَوْا نحو المزيد من تعميق معرفتهم، فإنّهم يُكَوِّنون فكرةً خاطئة عن اَبن رشد تختلف كثيرًا عن تلك التي كان أسين يمتلكها عنه.

38. أنجز بيدرو الطليطلي **Pedro de Toledo** الترجمة القشتاليّة التي ظهرت في القرون الوسطىٰ، عام ١٤٣٢؛ والترجمة الحديثة هي من إنجاز خوسيه سواريث لورنثو **José Suárez Lorenzo**، وصدرت في مدريد، دون تاريخ، عن معهد اَبن ميمون.

الفصل الثاني

معالم تراث العصور القديمة في العالم العربي

- [نظام] عد الموقع
- منهب علم التنجيم في قرانات الكواكب
- كتاب "المادة الطبية" لديسقوريدس
- اللاتينية لغة الثقافة في الغرب

الفصل الثاني

معالم تراث العصور القديمة في العالم العربي

رأينا، في الصفحات التي سبقت، كيف بدأ النُّموّ الأصيل للعِلْم الأندلسيّ في عهد عبد الرحمٰن الثاني [ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل، حُكْمه: ٢٠٦ـ٢٣٨ هـ]، انطلاقًا من عناصر مختلطة ومن مصادر متنوّعة. وتسمح لنا النصوصُ التاريخيّة، والتحليل المستند إلىٰ فِقْه اللغة، في بعض الحالات، أن نوضّح ـ بما لا يدع مجالًا للشكّ ـ أصلَ بعض الأفكار، ومراحلَ تطوُّرها، والتي اكتسبت "الجنسيّة الأوروبيّة" في شبه جزيرتنا الإيبيريّة في القرنين التاسع والعاشر [٣ و٤هـ]. وهٰذا ما كان، علىٰ سبيل المثال، في شأن الأعداد، التي نُسمّيها حاليًّا "عربيّة"، وهي ذات منشإٍ هنديّ، ومذهب قِرانات الكواكب السيّارة الذي نشأ في فارس السّاسانيّة، ودخول علم المداواة اليوناني [المعالجة بالعقاقير الطبيّة] من خلال كتاب "الأدوية المفردة" لديسقوريدس، وتسرُّبِ بعض النُّصوص التقنيّة والجغرافيّة اللاتينيّة، الذي يكاد يكون قد تمّ حصرًا عن طريق الأندلس.

[نظام] عدّ الموقع:

يُشير شتاينشنايدر إلىٰ أنّ ترجمة كتاب الخوارزميّ ـ المسمّىٰ "الجمع والتفريق بحساب الهند" (المعروف باللاتينيّة باسم **De numero indorum** والمصنَّف حوالي [٢٠٥هـ] ٨٢٠م) ـ تُنسب، علىٰ حدٍّ سواء، إلىٰ كلٍّ من آديلاردو دي باث ويوحنّا الإشبيلي. ويميل گ. مينيندث پيدال إلىٰ الأوّل، ويرىٰ أنّ "كتاب الخوارزمي في العمليّات الحسابيّة" هو إعدادٌ جديد لكتاب "الجمع والتفريق..." الذي فُقِد أصله العربيّ، علىٰ حين أنّ سوتر يرىٰ أنّ المترجِم مجهول.

ومع ذٰلك، فإنّ شخصيّة هٰذا المترجِم لا تهمّنا الآن، لأنّ الشهادات، الأجدرَ بالثقة والأبعدَ عهدًا، هي إسبانيّة، بحسب ما نرىٰ حالًا، وأنّ ترسيخ الأرقام "العربيّة" و[نظام] عَدِّ الموقع، قد تحقّق في شبه جزيرتنا الإيبيريّة.

وسوف نعني، فيما يلي، بـ"حروف الغُبار" (وتُعادل هٰذه التسمية عند اللاتينيّين **pulvis, pulvisculum**، وتُطلق التسمية ذاتها علىٰ صنفٍ من فنّ الخطّ العَرَبي الغَرْبي [الأندلسي ـ المغربي])، العلاماتِ التي كانت تُخَطّ علىٰ سطحٍ من غُبارٍ، أو من رملٍ، لإجراء العمليّات الحسابيّة، مع "الاحتفاظ" (وهٰذا مصطلحُ النصوص الرياضيّة) بالنتائج الجزئيّة أو الإجماليّة فقط. وقد تقوم، اليوم، مقامَ العلامات الغُباريّة، الأعدادُ التي نخطّها علىٰ السَّبُّورة، والتي "نحتفظ" كذٰلك بعد محوها بقيمها الهامّة، كي نتمكّن من الاستمرار في الحساب. وقد اعتقد ڤوپيكيه ـ وتابَعَهُ گاندز ـ أنه يستطيع أن يُرجع هٰذه العلامات، التي نجهل أشكالها في أغلب الحالات، إلىٰ مصدرين: رومانيّ فيما يخصّ الغربيّة منها (غُبار)، وهنديّ فيما يخصّ الشرقيّة (داڤانا گاري)، علمًا بأنه قد تكون أشكالُها ـ علىٰ الأقلّ أكثرُها قِدَمًا ـ متّصلةَ النَّسب بالأشكال المستعملة في ضرب الرمل [للكشف عن الغيب]. وكانت "المؤشّرات"، المسمّاة أيضًا "مؤشّرات بُوئيثيو **ápices de Boecio**"، تتكوّن من تسع "فيشات" موسومةٍ بحروف الألفباء اليونانيّة، أو بأيّة علامةٍ فارقة أخرىٰ (بما في ذٰلك الأرقام

العربيّة التي لا تحمل، في هٰذه الحالة، أيّة قيمةٍ عدديّة بوجهٍ عامّ)، وتُستخدم لإجراء عمليّاتٍ بوساطة جهازٍ يُسمّىٰ "المِعْداد ábaco" (لم يَعُد الأمر متعلّقًا بلوح الرمل)، وقد نشأت بعد بُوئيسيو (ت ٥٢٤م)، وقبل گِرْبِرتو (ت [٣٩٤هـ] ١٠٠٣م)، لأنّ گيرمو دي مالْمِسْبُوري (ت ١١٤٢م) يقول لنا أنّ هٰذا الأخير كان «*أوّل من اخذ المعداد عن مسلمي الغرب [الأندلسيّين]، ووضع قواعد استخدامه التي لا يَتوصّل إلىٰ معرفتها إلّا العدّادون، بعرق جبينهم!*»

هٰذا الصنف من الحساب قديمٌ جدًّا. ويُخيَّل إلينا أنّ كلمة "ábaco" ترجع إلىٰ أصلٍ صوتيٍّ ساميّ، لأنّ كلمة abaq في العِبْريّة تعني "غُبار". وليس يبعُد أنّ هٰذا الصنف من الحساب قد عرفه البابليّون والصينيّون، مُتَّخِذًا ـ مع مرّ الزمن ـ الأشكال التالية: حَيِّزٌ رمليٌّ مُؤطّر، أو مَنْصَبٌ مزوّدٌ بقِطَعٍ مستقلّة، أو منصبٌ مزوّد بقطع منزلقة، وهو المستخدم حاليًا. وولّدت كلمةُ abaq كلمةَ abax باليونانيّة•، وقد ورد ذكرُها عند أرسطوطاليس مشيرًا إلىٰ إطارٍ مُعَدٍّ لتسهيل عَدّ الأصوات [الانتخابيّة]. ويقول سِكْستو أمبيريكو (القرن الثاني للميلاد)، في كتابه "مقالات لأدريّة"، لدىٰ تناوله موضوع الرياضيّات، أنّ الـ abax عبارةٌ عن إطارٍ تمّ ذَرُّهُ بالرمل لرسم أشكالٍ هندسيّة. ويتعذّر علينا معرفة الكيفيّة التي كان يجري فيها الحساب بوساطة المعداد، في العصور القديمة، نظرًا لتعقّد تدوين أرقامه، والذي يتجلّىٰ منعكسًا بوضوح في مِزمال أرخميدس Arenario. إلّا أننا نمتلك معلوماتٍ أفضل عمّا اتُّبع في القرون الوسطىٰ منذ حاول گِرْبِرتو أن يستخدم المعداد مع الأرقام التسعة لعدّ الموقع المستخدم من العرب، وجَعَل يهودا البرشلوني الأعدادَ الغُباريّة مطابقةً لأرقام المعداد. ولٰكن ـ مع جهوده ـ استمرّ العمل بالمؤشّرات دون أن تكتسب قيمةً من حيث الموقع. علمًا بأنّ ج. بوجْوان عرضَ طريقة إجراء العمليّات بوساطتها في القرون الوسطىٰ.

• "الأَبَق"، في العربيّة، قشرُ القِنّب، أو الحبلُ منه؛ ويُمكن في حَبْل الأَبَق ـ يقول الدكتور مختار هاشم ـ نَظْمُ حبّاتٍ للعَدّ، كما في السُّبْحة.

هناك صنفٌ آخر من الكتابة العدديّة يسترعي اهتمامنا، لأننا نجده مستعملًا في الغرب الإسلامي بأسره وفي الوثائق اللاتينيّة لمستعربي طليطلة (القرن الثاني عشر للميلاد [٦ هـ])، إنها الكتابة التي عُرفت بآسم، أعداد الموثّقين، أو الأعداد الرُّوميّة. وهٰذه اللفظة الأخيرة (وتعني، إغريقيّة أو بيزنطيّة) تنِمّ علىٰ أصلها، ويَغْلِب علىٰ الظنّ أنها دخلت إلىٰ الإسلام لمّا أمر الخليفة عبد الملك (٦٥ـ٨٦هـ/ ٦٨٥ـ٧٠٥م) بتعريب الوثائق الرسميّة [الدواوين]، فحافظ الموظّفون علىٰ الرموز العدديّة ذاتها التي كانوا يستعملونها من قبل. ومن هنا جاء شكلها مشتقًّا من الحروف الصغيرة للألفباء اليونانيّة أو من القِبْطيّة، وبفضل إتقان إنشائها وكذٰلك قواعدِ آستخدامها، فقد آستمرّ العمل بها حتّىٰ القرن السادس عشر [١٠ هـ]، علىٰ أقلّ تقدير.

والأرقام، التي تَعنينا هنا، هي المسمّاة بـ"الهنديّة" أو "العربيّة"، ولا تكمن أهمّيّتها في أشكالها ـ وهي أشكالٌ متعدّدة ـ بل في أنها تمتلك قيمةَ موقع، ضمن نَسَقٍ علىٰ أساسٍ عِشْرِيّ. وقد ظهرت، أوّلَ مرّةٍ باللاتينيّة، أقدمُ القواعد الباقية المتعلّقة بآستخدامها، في ترجمةٍ أُنجزت بطليطلة في منتصف القرن الثاني عشر [٦ هـ]، فيما سُمّي *De numero indorum*، مع أننا نمتلك شواهد علىٰ أنّ النّسق كان معروفًا ومستخدمًا منذ القرن التاسع [٣ هـ] في "إسبانيا الإسلاميّة" ومنذ القرن العاشر [٤ هـ] في "إسبانيا المسيحيّة". وينطوي تطوُّر هٰذا النّسق علىٰ موازاةٍ غريبة ـ مع وجود فارقٍ زمنيّ مقدارُه ألفا سنة ـ بينه وبين النّسق السّتّينيّ المطلق الذي كان معمولًا به في بابل، وكلُّ ما هنالك يحمل علىٰ الآعتقاد بأنه آنحدر مباشرةً من هٰذا الأخير.

كان البابليّون، وبالأحرىٰ السُّومريّون، يستخدمون نسقًا علىٰأساس الموقع. ولٰكن بما أنه لم يتوافر لهم رمزٌ (هو الصِّفْر في نسقنا العِشْريّ) للدلالة علىٰ آنقطاع ترتيبٍ معيّن للوحدات، فقد كانوا يتركون فراغًا يفصل ما بين الترتيب الأعلىٰ مباشرةً والترتيب الأدنىٰ. وغنيٌّ عن البيان أنّ قراءة العدد كانت تتوقّف علىٰ إدراك القارئ ـ منتبهًا أو غيرَ منتبهٍ ـ لوجود الفراغ المشار إليه، وكثيرًا ما كان ذٰلك يدفع

إلىٰ الوقوع في أخطاء في المقدار، الأمر ذاته الذي كان يقع لدىٰ قراءة الأعداد الهندية قبل ظهور الصِّفْر؛ فمثلًا العدد "٢,٥" كان يُمكن أن يُقرأ:

(٢ × ٦٠^{١}) + ٥

أو (٢ × ٦٠^{٢}) + (٠ × ٦٠^{١}) + ٥

أو (٢ × ٦٠^{٣}) + (٠ × ٦٠^{٢}) + (٠ × ٦٠^{١}) + ٥

. . . .

وثمّة مثالٌ نموذجيٌ عن هٰذه الأخطاء، هو ذاك الذي وقع فيه هِلْبِرِشْت عند نشره اللوحاتِ الرياضيّة التي عثرت عليها جامعةُ بِنْسِلْفانيا في نيپّور، بتأكيده أنّ السنة الأفلاطونيّة الكبرىٰ، التي تَقيس وتحكُم حياة الأرض (كتاب "الجمهوريّة"، "القوانين")، هي من أصل بابليّ:

«كانت قوائم الضرب والتقسيم كلُّها، الموجودة في المكتبات ومعابد نيپّور وسيپار ومكتبة آشور بانيپال، تقوم علىٰ ١٢,٩٦٠,٠٠٠. ومن العسير أن تكون هٰذه المصادفة عَرَضيّة. فلا بدّ لنا من أن نخلُص، بالضرورة، إلىٰ نتيجةٍ مُفادها أنّ أفلاطون، وبالأحرىٰ فيثاغورس، الذي كان أفلاطون يتأثّر خطاه بشكل وثيق، قد اقتبس عدده المشهور، وكذٰلك كلّ ما يُظنّ في هٰذا العدد من تأثيرٍ حاسم علىٰ الحياة البشريّة، عن بابل مباشرةً».

ويرتكز تأكيد هِلْبِرِشْت علىٰ الاعتقاد بأنّ فيثاغورس قد حصل علىٰ معلوماته الرياضيّة في الشرق الأدنىٰ، وعلىٰ أنّ السنة الأفلاطونيّة الكبرىٰ تشتمل علىٰ ٣٦,٠٠٠ سنة، تتكوّن كلُّ واحدةٍ منها من ٣٦٠ يومًا، أي ١٢,٩٦٠,٠٠٠ يومًا (= ٦٠^{٤}). أضف إلىٰ ذلك أنه يؤكّد، في كتابه "الجمهوريّة" وفي كتابه "طيماوس"، أنّ الإنسان الذي يعيش مئة سنةٍ يكون قد عاش من الأيّام ما تتضمّنه السنة الكبرىٰ من أعوام.

ولكن نويگياور أثبت أنّ النصوص، التي قرأها هِلْبِرشت علىٰ هٰذه الصورة

(قوّة ٦٠)، هي ـ في الواقع ـ جداول "عكسيّات" (العدد الذي يُضرَب به عددٌ آخر للحصول على الوحدة)، وهٰذه الجداول، التي تسمح بتحويل التقسيم إلى ضرب (إنه لشيءٌ واحد [مثلًا] أن نقسّم على ٢ ونضرب في نصف، أو أن نقسّم على ٣ ونضرب في ثلث، أو أن نقسّم على ٤ ونضرب في ربع... إلخ). [أقول:] هٰذه الجداول كانت مشهورةً على مدى مئات السنين، بل حتّى مطلع القرن العشرين، وقد طبّقها على النظام العِشْريّ، وتولّى نشرها رامون ماس **Ramón Mas** في كتابه "الثورة العدديّة".

ومن أجل تفادي هٰذه البلبلة، ابْتُكر الصِّفر البابليّ ( ) سنة ٢٠٠ قبل الميلاد تقريبًا، وابتداءً من هٰذا التاريخ زال الالتباس عن الأعداد، لأنّ (٥ ، ٠ ، ٢) لا يمكن أن تُقرأ إلّا كالتالي:

$$٧٢٠٥ = ٥ + ٦٠ \times ٠ + ٦٠^{٢} \times ٢$$

ولقد قَبِلَتْ ـ خلافًا لما كان يُعتقد حتّى الآن ـ هٰذا النظامَ (بما فيه الصِّفر)، فئةٌ قليلة من علماء الفلك اليونانيّين، مستبقين النظامَ السِّتّينيّ فيما يخصّ القواسم الصحيحة **Los submúltiplos** ومتخلّين عن فكرة الموقع، التي ظلّ الأخذُ بها قائمًا، مع ذلك، في حلقات الأفلاطونيّة الجديدة والفيثاغوريّة الجديدة، التي كانت قد لجأت إلى بلاد فارس بسبب الاضطهادات الدينيّة التي تعرّضت لها في بدايات التاريخ الميلادي.

وفي منتصف الألف الأوّل للميلاد، ظهرت سلسلةٌ من الشواهد الأدبيّة، المنتمية مباشرةً إلى الشواهد الإسبانيّة وإلى نظامنا في العَدّ على أساس عِشْريّ. وتُشير كلّها إلى الهند، بوصفها المكان الذي نشأ فيه النظام الجديد. وقد كتب سيفيروس سابوخت، أُسقفُ قنّسرة *Qennesre*، في بلاد ما بين النهرين (حيًّا ٦٦٢م [٤٢هـ])، يقول إنّ «*اكتشافات الهنود في علم الفلك أبرعُ من اكتشافات اليونانيّين والبابليّين، وطريقتهم الأريبة في الحساب تسمو على كلّ قول. وأعني الحساب الذي*

يتّبعونه بوساطة تسعة رموز. وبالفعل، لقد اَستُخدمت [هٰذه الطريقة] في علم فلكِ أريَبهاطا الأوّل Âryabhaṭa I (حيًّا ٤٧٦م)، لاَستخراج الجذور التربيعيّة والتكعيبيّة، ونجدها في حوالي عشرين من [الشواهد] المكتوبة التي تعود إلىٰ الأعوام من ٥٩٥ـ٩٠٠م. وربّما كان المؤلّفون في الشرق الأدنىٰ، قد اَستخدموا في تلك المرحلة (القرن ٢ـ٦م)، ودونما تمييز، ثلاثة أنماطٍ من العدّ: أوّلها نمطُ القيمة العدديّة للحروف، الملائم خاصّةً للحساب السّتّينيّ، ونمطُ عدٍّ الموقع علىٰ أساس: تسعة أرقام (الثاني)، وعشرةُ أرقامٍ مع الصّفر (الثالث). ولا بدّ أنّ الاَلتباس في الترقيم بتسعة أعدادٍ يُماثل الاَلتباسَ الذي كان يقع في بابل قبل ذٰلك بألف عام، منذ أن كان من المحتمل لـ ٢٤ أن تَعني: ٢٤ أو ٢٠٤ أو ٢٠٤٠ أو ٢٤٠... إلخ، إلىٰ أن عمّ اَستعمال الصّفر. وهٰذه حالةٌ مماثلة لما اَتّفق وقوعه لصِيَغ حساب المثلّثات لحلّ مثلّثاتٍ عامّة، والتي لم تحلّ محلّ نظريّات اَرتفاع المثلّث إلّا بعد أن اَنقضىٰ علىٰ اَكتشاف هٰذه الصيغ طويلُ زمن. وإذا لم يكن لمفهومٍ ـ أو فكرةٍ ـ الصّفر، أن يتوارىٰ منذ عمل به البابليّون، فإنّ ما يؤكّد ذٰلك، فيما يبدو، أنّ بْراهْماگوپْتا (٥٩٨ـ٦٦٥م) قد وضع قواعد الحساب مع وجود الصّفر؛ ونجد هٰذا الرقم في نقشٍ كمبوجيّ [نسبة إلىٰ كمبوجيا] من القرن السابع، بينما يعود أوّل شاهدٍ من النقش الهنديّ إلىٰ العام ٨٧٦م. ثمّ إنه كان قد آن لهٰذا النظام، في القرنين الثامن والتاسع [٢ و٣هـ]، أن يترسّخ، مع اَستخدام الصّفر أو دون اَستخدامه، في العالم المتمدّن بأسْره: فقد كَتب الصينيّ "تشو ـ تان هْسِي ـ تا" (حيًّا ٧٠٠م) مصنّفًا في الحَوْليّات أَدرج فيه ترجماتٍ عن السّنسكريتيّة، وألّف الخوارزميّ كتابه "الجمع والتفريق بحساب الهند" (نحو ٨٢٠م [٢٠٥هـ])، وعُني الكِنْديّ (ت نحو ٨٧٣م [٢٦٠هـ]) بهٰذه المسألة في إحدىٰ رسائله، وفي إسبانيا ظهرت الأعداد في مخطوطةٍ مختلطةٍ من منطقة أوڤيدو، تحتفظ بها [مكتبة] الإسكوريال[1]، أصلحها القدّيس ألوخيو.

ومن جهةٍ أخرىٰ، تتّفق الاَستشهاداتُ المتعمّقة لمؤلّفٍ مثل المسعوديّ (ت ٩٥٧م [٣٤٦هـ])[2]، أو البِيروني (ت ١٠٤٨م [٤٤٠هـ])[3]، في إرجاع أصل النظام إلىٰ الهند.

ويؤكّد هٰذا الأخير أنّ الأعداد صدرت «عن الصورة الأكثر جمالًا للأشكال الهندسيّة». وأخيرًا، كان كُشيار بن لبّان **Kušyār ibn Labbān**، وتلميذه أبو الحسن علي النسوي (حيًّا ١٠٣٠م [٤٢١هـ])، أوّل من ٱستخدمها من العلماء الرياضيّين، بصورة مستديمة.

وهٰكذا أصبح الصّفر العنصرَ الأساسيّ في النظام، وإنّ أصوله الٱشتقاقيّة، بما في ذٰلك الخاطئة منها، تُبيّن منشأه بوضوح. ومع أنه لا ينحدر من **O**، وهي **ouden** اليونانيّة (ومعناها: لا شيء)، ولا من **sunya** السنسكريتيّة (ومعناها: فراغ)، بل من الجذر الساميّ "ص ف ر" (فراغ) أو "س ف ر" (سِفْر = شيء مكتوب)، فإنّ الأصلَين الٱشتقاقيّين الأوّلَين يحتفظان، علىٰ حدّ قول گاسپار دي تيخادا، بالفكرة القائلة بأنّ *«الصّفر ليس حرفًا، بل خانةٌ فارغة»*. وقد أعطىٰ محمّد بن أحمد الخوارزمي (حيًّا ٩٧٦م [٣٦٥هـ]) قبل ذٰلك التاريخ بزمنٍ بعيد، المعنىٰ ذاته في كتابه "مفاتيح العلوم"، عند كلامه عن الترقين، وهو الخطّ الذي يدخل في الحساب للدلالة علىٰ "لا شيء"، أي للمحافظة علىٰ الترتيب(4). ويبدو أنّ هٰذه القيمة قد ٱنتقلت عن طريق اللاتينيّة **nulla figura** (وبالألمانيّة **Null**)، أو عن طريق التحوير الطليطلي **zephirum**، الذي ٱنتقل إلىٰ الرُّومنسيّة في شكل **cero** بالقشتاليّة، وفي شكل **zero** (بالفرنسيّة والإنكليزيّة).

فمن الجذر "س ف ر"، "شيء مكتوب" (ٱنظر **séfer**، ومعناها: كتاب بالعبريّة)، ربّما ٱشتُقّت الكلمة اللاتينيّة **tziphra**، **ziffrae**، والقشتاليّة **cifra**، والفرنسيّة **chiffre**، والألمانيّة **ziffer**، وهي جميعًا تدلّ علىٰ شكل الأعداد (بٱستثناء ما بالإنكليزيّة التي تعني فيها كلمةُ **cipher** الصّفرَ). وقد كانت هٰذه القيم والمعاني معروفةً من قبلُ في العصور الوسطىٰ.

ولفائدة النظام ليس ثمّة من أهمّيّةٍ لشكل الأعداد أو الأرقام، المسمّاة أيضًا **guarismos**. وقد أوّلَ كبارُ علماء طليطلة، في القرن الثاني عشر [٦ هـ]، هٰذه الكلمةَ بأنها مشتقّةٌ ـ أوّلًا ـ من ٱسم مَلِكٍ أو فيلسوفٍ يُدعىٰ ألگور **Algor**،

أو أنها ـ ثانيًا ـ وَصْل "أل" التعريف العربيّة بكلمة arithmos اليونانيّة (algoritmo). إلّا أنّ التفسير الصحيح هو الذي قدّمه رينو Reinaud، فقد جعلها مشتقّةً من اسم الخوارزمي Juwarizmi. وبالمقابل، فإنّ صيغة algoritmo، التي تمتلك الاشتقاق ذاته، تخصّصت مع مرور الزمن للدلالة على "طريقة حساب".

لقد سعى بعضهم إلى تفسير شكل الأعداد بتطوُّرٍ خطّيّ (طولي) أو تكوُّنٍ متعدِّد. فاعتقد فُويْكيه Woepche أنّ شكلها البدائي يُناظر الحرف الأوّل من الكلمة السّنسكريتيّة التي كانت تدلّ على العدد. بينما أكّد كارّا دي فو، بعد ما لاحظ أنّ القيمة العدديّة تتوقّف على موقع الحرف داخل الألفباء المطابقة، أنّ الأرقام الأوّليّة كانت مكوّنةً من عُصَيّاتٍ مترابطةٍ فيما بينها حتّى العدد ٦، ويُحصل على بقيّة الأرقام عن طريق تدوير الأشكال من اليسار إلى اليمين، أو من الأعلى إلى الأسفل، كما يقع ـ مثلًا ـ في العدد ٧ (7) و٨ (8).

وفي الغرب، ربّما كان شكل الأرقام قد اشتُقّ من الحروف القُوطيّة الغربيّة التي كانت مستخدمةً في النصف الثاني من القرن العاشر [٤ هـ]، وهي تظهر في أسطرلاب ديتونب Destombes. ففي رأي هذا الأخير، أنّ الراهب الألبِلْديّ [نسبة إلى قرية]، فِخيلا Vigila، قد يكون شارك في مجمع رِسامة القُسُوس في ريبول عام ٩٧٧م، حيث أُتيح له ـ ربّما ـ الاطّلاع على عدّ الموقع الذي ظهر صداه في ملحق الكتاب الثالث للقدّيس ايسيدوروس، وذلك لدى تنويهه ببراعة الهنود في ابتكار هذه الأشكال التسعة التي يصفها في المخطوطة المودعة في الإسكوريال. لقد صُفّت الأرقام من اليمين إلى اليسار، فلا جدال إذن في منشئها العربيّ. ومن ناحيةٍ أخرى، فإنه يتبدّى، في الأعداد من ٦ إلى ٩، تشابهٌ كبير مع الأشكال التي نستخدمها حاليًا.

وإنّا لنقع، على الشهادة الخطّيّة التالية، في جدول الضرب المدرج في الورقة ٢٧ من المخطوطة ٢٧٥ في المكتبة الوطنيّة في ڤيينّا، المؤرّخة ١١٤٣م [٥٣٨هـ]، أي حين تمّت ترجمة كتاب "الجمع والتفريق بحساب الهند". كان النظام قد استقرّ وترسّخ

في الغرب، ولٰكن كان لمّا يزل نظام الأرقام التسعة يُستخدم دون تمييز، لأنّ ليوناردو دي پيزا (١٢٠٢م [٥٩٩هـ]) يتحدّث في كتابه Liber abbaci عن الأرقام الهنديّة التسعة، وعن نظام الأرقام العشرة الذي يُستخدم في الحساب دون [ٱستخدام] مِعداد.

إنّ تَغَيُّر شكل هٰذه الأرقام بتباين المؤلّفين اللاتينيّين (وذٰلك يدعونا إلىٰ ٱفتراض أنّ الأمر كان يقع بحسب المصادر التي يستخدمونها)، يُفَسِّر لنا الدافع إلىٰ إعدادِ جداولِ تعادُلات، مثل جدول آلڤارو دي أوڤيدو، كما يُفسّر لجوءَ السلطات ـ وذٰلك ما عمد إليه مجلسُ شيوخ فلورنسا عام ١٢٢٩م ـ إلىٰ منع العمل بالأرقام، وفرض كتابة الأعداد بحروفها، تجنُّبًا للٱحتيال الذي قد يُفضي إليه تغييرٌ طفيف في شكل هٰذه الأعداد!*

مذهب علم التنجيم في قِرانات الكواكب:

نستطيع القول بأنّ التأثير السّاسانيّ المزدكيّ الوحيد، في عِلْمَي الفلكِ والتنجيم في القرون الوسطىٰ ـ وهو حافلٌ بالنتائج، لأنه وصل حتّىٰ يومنا ـ يتمثّل في النظريّة التي تجعل الأحداثَ التاريخيّة خاضعةً لحركة الكواكب[5]! وقد دخلت هٰذه النظريّة إلىٰ العالم الغربيّ عبر الترجمة اللاتينيّة لـ"كتاب القِرانات الكبرىٰ" لأبي مَعْشَر ـ التي أنجزها يوحنّا الإشبيلي بعنوان *De magnis conjunctionibus et annorum revolutionibus* ـ وقد كُتب بعد ٨٦٩م [٢٥٦هـ]، وأُهدي إلىٰ ٱبن بازيار، تلميذ حبش الحاسب، ولهٰذا السبب تُنسب أحيانًا إلىٰ ٱبن بازيار أبوّةُ هٰذا العمل. ويقتصر ٱهتمامُنا بهٰذا الكتاب، حاليًّا، علىٰ القسم

* من الأعمال التراثيّة التي صُنّفت في الرياضيّات، في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، نُشير إلىٰ المؤلّف الهامّ "مفتاح الحساب"، الذي ألّفه جمشيد غياث الدين الكاشي (ت نحو ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م)، فجمع فيه علم المشرق والمغرب في الرياضيّات. حقّقه تحقيقًا علميًّا الأستاذ نادر النابلسي، وتولّت نشره وزارة التعليم العالي بدمشق ١٩٧٧ (٦٩٦ص بالعربيّة + ٦٨ بالفرنسيّة).

المخصّص لنشوء الممالك والإمبراطوريّات وزوالها، الذي ينتحل فيه المؤلّف لنفسه ـ دونما خجل ـ نصوصًا للكِنْدي. وبفضل النظريّات التي يُدافع عنها ـ ما من اَمبراطوريّةٍ ولا دولةٍ تبقىٰ خالدةً ـ حظي بقبولٍ واسع من أعداء العباسيّين، الشّيعة، الذين كانوا قد كتبوا قبل ذلك، في القرن التاسع الميلادي [٣ هـ]، تأويلاتٍ تنجيميّةً للتاريخ، علىٰ غرار ما نجده، مثلًا، في "كتاب الكامل" لموسىٰ بن نوبَخْت (حيًّا ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م). ومن شأن هٰذه التغيُّرات أن تخضع لقِرانات الكواكب الكبرىٰ، زُحَل والمُشتري وفي المقام الثاني المِرِّيخ. ويؤكّد اَبنُ خلدون، في مقدّمته، أنّ من شأن هٰذه التغيُّرات ـ التي تُولِّدها القِرانات الكبرىٰ ـ أن تؤثّر علىٰ الدِّين كلَّ ١٠٦٠ سنة بحسب هُرمُز دافريد وبُزُرْجَمِهْر وأوليوس، أو كلَّ ٩٦٠ سنة بحسب تيوفيلو، ومن شأن القِرانات المتوسّطة (٢٤٠ سنة) أن تُحدِّد عمر السُّلالات الحاكمة، هٰذه التي تُبيِّن القِراناتُ الصغرىٰ (٢٠ سنة)[6] تفاصيلَ ما يطرأ عليها من تقلُّبات.

علىٰ أنّ هٰذا "النَّسَق"، مثلما كان يروق للمسلمين المناهضين للسلطة القائمة، قد زيّن لمسيحيّي شبه الجزيرة الإيبيريّة، وللسبب ذاته، أن يتبنّوْه، منذ تَرجَم يوحنّا الإشبيلي "كتاب القِرانات الكبرىٰ"، لأنه عزّز الأملَ عندهم بأنهم منتصرون في يومٍ آتٍ علىٰ الإسلام[7]. وسرعان ما صدرت، ولدواعٍ مماثلة، أصنافُ التنبُّؤات كلِّها، اَبتداءً من الطُّوفان العامّ، للأعوام ١١٨٥ و١٢٢٩... إلخ ـ والتي يُحتمل حدوثها مرّةً بعد مرّة بحُكم طابعها العامّ ـ إلىٰ تنبُّؤاتٍ أخرىٰ أكثرَ تحديدًا مرّةً بعد مرّة، مثل تنبُّؤِ المنجّمين المَغُول بأن اَلتمسوا من جنكيز خان أن يُحجم عن الحملة علىٰ الصين، بسبب القِران الثلاثيّ للمِرِّيخ والمُشتري وزُحَل في تشرين الثاني ١٢٢٦م [ذو الحجّة ٦٢٣هـ]، الذي أعقبه قِرانُ الزُّهَرة في كانون الثاني ١٢٢٧م [ربيع الأوّل ٦٢٤هـ]؛ أو كتنبُّؤ الكردينال پيدرو دايي (١٣٥٠ـ١٤٢٠م)، الذي أنبأ بحصول تغيُّراتٍ كبيرة عام ١٧٨٩ «*وذٰلك إذا ما اَستمرّ العالمُ قائمًا حتّىٰ ذٰلك العام، وهٰذا أمرٌ لا يعلمه إلّا الله*»! وهٰذا النّسق بالذات هو الذي اَستخدمه نوستراداموس وتوريس ڤيلّاروئيل (تقويم سنة ١٧٥٦م) للتنبُّؤ بالثورة الفرنسيّة؛ وكيپلر لتحديد تاريخ ميلاد المخلِّص؛

وماوِبي كول للتنبُّؤ بهروب رودُلف هيسّ وبالحملة اللاحقة علىٰ روسيا، وكان أيضًا السبب في الذُّعر الذي ساد الهند في شباط ١٩٦٢!!

وتمّ، في نهاية القرن الخامس عشر [٩ هـ]، تأويل القِرانِ ذاته (١٥٢٤)، بطريقتين مُتباينتين: فأُوِّل في ألمانيا علىٰ أنه فيضان، واتُّخذ في إسبانيا حجّةً تذرَّع بها أسقفُ برشلونة، مارتين گارثيا (نحو ١٤٤١ــ١٥٢١م [٨٤٥ــ٩٢٧هـ])، للإسراع في حَمل المُدَجَّنين علىٰ الدخول في المسيحيّة، فقد شرح أمامهم المقطع الوارد في (إنجيل لوقا، ١٨: ٣٥)، «كان أعمىٰ جالسًا علىٰ الطريق»، مستخلِصًا ما يلي:

> «... وهٰكذا، كان هٰذا [الشعب] الأعمىٰ (المسلمون) في الطريق إلىٰ الرَّبِّ (....). وبما أنهم أصبحوا أكثر قربًا من طريق يسوع المسيح، فقد بات واجبًا علىٰ مُرشديهم أن يُبادروا إلىٰ قيادتهم إليه. ذٰلك أنه مُقَدَّرٌ لهٰذه المِلّة أن تنقرض عمّا قريب. وكما قال "أبو مَعْشر" في كتابه "القِرانات الكبرىٰ" ــ الفقرة السابعة ــ فإنّ "ملّة محمّد ستعيش ٨٧٥ سنة". فإذا ما سلّمنا بما يقول علماؤها، فإنه ليس لهٰذه المِلّة أن يمتدّ عمرها، بأيّة حالٍ من الأحوال، ألفَ عام ..... وقد حدّثني علماؤها بأنّ زوال ملّتهم ــ حسب ناموس فقهائها ــ يبدأ، من غير ما شكٍّ، بانهيار ممالكهم في الغرب ..... وهي ذي غرناطة، وقد استعادها ملكُنا فرناندو سنة ١٤٩١م. وملّة محمّد ظهرت سنة ٦١٦م. وإذا كان لها أن تعيش ٨٧٥ سنة ــ حسب رأي أبي مَعْشر ــ فإنّ حاصل جَمْع ٦١٦ و٨٧٥ هو ١٤٩١، أي السنة التي استُعيدت فيها غرناطة. هنا شرعت بدايةُ نهايةِ المسلمين، الذي لا بدّ أن ينقرضوا [بأَسْرهم] سنة ١٥٢٤، ففي تلك السنة، وفي شهر شباط/ فبراير ــ بحسب منجّميهم، يجب أن تتبدّل ممالكهم كلُّها تبدُّلًا خارقًا، لأنه سيقع أكثر من عشرين قِرانًا.....».

ومّما يزيد، كذٰلك، من أهمّيّة هٰذا العمل [كتاب القِرانات الكبرىٰ] أنه استُخدم، في القرن السادس عشر، وسيلةً لمحاربة الأرسطوطاليسيّة. فقد أكّد خيرومينو مونيوز، لدىٰ دراسة "مذنّب" عام ١٥٧٢م، أنّ أبا مَعْشر قد وضع، في كتابه

"القِرانات الكبرىٰ". القاعدة الصحيحة التي تُمكّن من تحديد ظهور هٰذه الكواكب، ثمّ اَستأنف ـ متّبعًا هٰذا المؤلّف، لا الكتاب ذاته (؟) ـ مُسلِّمًا بأنّ السمٰوات تخضع للفساد والتحوّل. وانتهج تيشو براهي المُحاجَّةَ ذاتها، بأن أكّد، بمزيدٍ من الصراحة، أنّ أبا مَعْشر ـ الذي اَستَشْهد به كاردانو ـ قد شاهد مذنّبًا أكثر بُعدًا من الزُّهَرَة، أي في السمٰوات التي لا يطرأ عليها الفساد، وهٰذا يتعارض وما أكّده أرسطوطاليس، في كتابه "الآثار العُلْوِيّة"، الذي لاحظ أنّ تلك الأجسام تتحرّك خارج مستوىٰ دائرة البُروج، فوضعها في دائرة النار. إلّا أنّ سينيكا، في كتابه "قضايا طبيعيّة"، كان أشدّ حَذَرًا، بأن اَقتصر علىٰ التأكيد: «*لسوف يولد، في يوم ما، رجلٌ يكتشف مداراتِ المذنّبات ويُخبِر عن مساراتها، التي تختلف اَختلافًا بيِّنًا عن مسارات الكواكب الأخرىٰ*». ولٰكنّ أبا مَعْشر كان ـ في الفِقْرة التي ألمح إليها كلٌّ من خيرومينو مونيوز وكاردانو وتيشو براهي ـ هو الذي قاطع الأفكار المسلَّم بها، وذٰلك في فِقْرةٍ وقف عليها و. هارتْنر في كتاب "المذاكرات"[8]، الذي عُرِف في الأندلس في القرن الحادي عشر [٥ هـ]، وترجمه إلىٰ اللاتينيّة في القرن الثاني عشر كاتبٌ مجهول، بعنوان *Memorabilia*، وتُرجم إلىٰ اليونانيّة (حوالي ١٠٠٠م)، وقد ورد في النصّ الذي نحن بصدده:

> «*يقول أبو مَعْشر: "يرىٰ الفلاسفة ـ ومنهم أرسطوطاليس نفسه ـ أنّ المذنّبات تقع في دائرة النار وليس في السمٰوات بأيّة حال، لأنه لا تغيُّرَ في السمٰوات. ولٰكنهم أخطؤوا في هٰذا التأكيد، فإني أعرف أنّ المذنّب يقع فوق الزُّهَرة، لأنّ لونه لا يتغيّر. وقد أكّد كثيرٌ منهم أنهم شاهدوا مذنّباتٍ أشدَّ بُعْدًا من المشتري، وأكّد آخرون أنها أشدُّ بُعدًا من زُحَل"*».

يعتقد هارتْنر أنّ هٰذه العبارات تُشير إلىٰ الكوكب السيّار التنجيميّ الكاذب المسمّىٰ "قَيْد"، المذكور ـ في المقدّمة ـ بِاَسم "قَنْت" ـ والخَلْط بين اللفظتين سهلٌ في الخطّ العربيّ القديم ـ ومن شأنه أن يدور حول الأرض في ١٤٤ سنةً فارسيّة وجزءٍ من اليوم، وقد يتجسّد أحيانًا في شكل جِرْم سماويّ.

ومهما يكن فإنّ العرب لم يتوخّوا الدّقّة في رصدهم المذنّبات؛ وكان ريجيو مونتانو أوّل من تتبّع سَيْر مذنّب عامٍ ١٤٧٢. إلّا أنّ تيشو براهي، بعد ذلك بقرن من الزمن ـ وقد اطّلع على أفكار كلٍّ من أبي مَعْشر وسنيكا ـ ولدى رصده مذنّب عام ١٥٧٧، شاء أن ينسب إليه مدارًا إهليلجيًّا، وباتّخاذه منهجَ زاوية الاختلاف، استنتج أنّ هذا المذنّب لا بدّ من أن يكون على مبعدةٍ كبيرة من الزُّهَرة، فانقطعت ـ بذلك ـ الصّلةُ بعلم الفلك الأرسطوطاليسي، وأكّد بوررللي (عام ١٦٦٦م) أنّ المذنّبات لا بدّ أنها ترسم مداراتٍ ذاتَ قطعٍ مكافئٍ في شكلها، وثبّت دورفيل ذلك في مثالِ مذنّب عام ١٦٨١م. وأخيرًا، اعتبر هالي ـ بعد دراسته لمذنّبات الأعوام ١٥٣١ و١٦٠٧ و١٦٨٢ ـ أنها ليست سوى مذنّبٍ واحد، محدّدًا مداره باعتماده الميكانيكا النيوتونيّة؛ ثمّ تنبّأ بعودته عام ١٧٨٥م؛ وهو المذنّب الذي نُسمّيه حاليًّا ـ تكريمًا لمكتشفه ـ "مذنّب هالي **Halley**".

كتاب "المادّة الطبّيّة" لديسقوريدس*:

انتقل التّراث اليونانيّ إلى [عالم] الإسلام، في معظم الحالات، بطريقةٍ مباشرة جدًّا، وغالبًا ما تتوافر لدينا تفصيلاتٌ عن الطريقة التي تمّ فيها هذا الانتقال. وخير شاهدٍ على ذلك ما وقع في نقل كتاب ديسقوريدس "المادّة الطبّيّة" *Materia médica* [أطلق عليه العرب تسمياتٍ عدّة: "الأدوية المفردة" و"المقالات الخمس" و"كتاب الحشائش"]، الذي يُقدّم لنا ابنُ جُلْجُل القرطبيّ، في شأنه، كلَّ ما قد نرغب فيه من معلوماتٍ مفصّلة... يقول**:

«إنّ كتاب ديسقوريدس تُرجم بمدينة السلام [بغداد] في الدولة

* حول ديسقوريدس، انظر: الدكتور مختار هاشم، "ديسقوريدس وكتابه"، مجلّة "التّراث العربي" (دمشق، اتّحاد الكُتّاب العرب)، العدد المزدوج ١٣ و١٤ (المحرم ـ ربيع الآخر ١٤٠٤/ تشرين الأوّل ـ كانون الثاني ١٩٨٤)، صص ١٥٠ـ١٦٣.

** ابن أبي أُصيبعة الدمشقي، "طبقات الأطبّاء" [عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء]، (بيروت، دار مكتبة الحياة، [١٩٦٦])، ٤٩٣ و٤٩٤، نقلًا عن ابن أبي أصيبعة عن ابن جُلْجُل.

العباسيّة في أيّام جعفر المتوكّل [حُكْمه: ٢٣٢_٢٤٧هـ/ ٨٤٧_٨٦١م]، وكان المترجم له أصطِفَن بن بَسيل، الترجمان من اللسان اليونانيّ إلىٰ اللسان العربيّ، وتصفّح ذٰلك حُنينُ بن إسحٰق المترجم، فصحّح الترجمة وأجازها، فما عَلِمَ أصطفن من تلك الأسماء اليونانيّة في وقته له أسمًا في اللسان العربيّ فسّره بالعربيّة، وما لم يعلم له في اللسان العربيّ أسمًا تركه في الكتاب علىٰ أسمه اليونانيّ، أتّكالًا منه علىٰ أن يبعث الله بعده مَن يعرف ذٰلك ويُفسّره باللسان العربيّ. إذ التسمية ..... تكون بالتواطُؤ من أهل كلّ بلدٍ علىٰ أعيان الأدوية بما رأوا [•]، وأن يُسَمُّوا ذٰلك إمّا بأشتقاق وإمّا بغير ذٰلك من تواطئهم علىٰ التسمية، فأتّكل أصطفن علىٰ شُخوصٍ يأتون بعده ممّن قد عرف أعيان الأدوية التي لم يعرف هو لها أسمًا في وقته فيُسمّيها علىٰ قدر ما سمع في ذٰلك الوقت فيخرج إلىٰ المعرفة».

ويُضيف أبن جُلْجُل:

«وورد هٰذا الكتابُ إلىٰ الأندلس، وهو علىٰ ترجمة أصطفن، منه ما عَرَف له أسمًا بالعربيّة ومنه ما لم يعرف له أسمًا. فأنتفع الناس بالمعروف منه بالمشرق وبالأندلس، إلىٰ أيّام الناصر عبد الرحمٰن بن محمّد، وهو يومئذٍ صاحبُ الأندلس [حُكْمه ٣٠٠_٣٥٠هـ/ ٩١٢_٩٦١م]. فكاتبه أرمانيوس الملك، ملكُ قسطنطينيّة [••]، في

• ورد النصّ في الطبعات العربيّة: «إنّ التسمية لا تكون بالتواطُؤ من أهل كلّ بلد...»، ونحسب أنّ الصواب بأتّخاذ أداة الأستثناء أو الحصر: "لا تكون إلّا بالتواطُؤ" (وهو التوافق، والتوافق الضمنيّ خاصّة). وقد قدّم ڤيرنيت النصّ صحيح المعنىٰ، التسمية تكون بأتّفاق أهل البلد...

•• في قول أبن جلجل: "أرمانيوس الملك، ملك القسطنطينيّة" وهمٌ. فلم يكن أرمانيوس (والصحيح رومانوس) ملكَ القسطنطينيّة أو أمبراطورَها، بل القائدَ المتسلّط علىٰ الأمبراطور "قسطنطين التاسع"، وكانت قد أنتهت سيطرته في ٩٤٤م/ ٣٣٣هـ (قبل أن يموت منفيًا في ١٥_٦_٩٤٨)، وعادت السلطات إلىٰ الأمبراطور الشرعي، الذي كان صهرًا لرومانوس (زوج أبنته)، ثمّ إنّ قسطنطين هٰذا توفّي عام ٩٥٩م/ ٣٤٨هـ. فقسطنطين هو مُهدي الكتاب (٣٣٧هـ/ ٩٤٨م)، وكان محبًّا للعلم وللتاريخ علىٰ وجه الخصوص.

سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م، وهاداه بهدايا لها قَدْرٌ عظيم، فكان في جملة هديّته كتابُ ديسقوريدس، مصوَّرُ الحشائش بالتصوير الرُّوميّ العجيب. وكان هٰذا الكتاب مكتوبًا بالإغريقيّ الذي هو اليوناني، وبعث معه بكتاب هروسيس صاحب القصص*، وهو تاريخ للرُّوم عجيب، فيه أخبارُ الدُّهور وقصص الملوك الأُوَل، وفوائد عظيمة. وكتب أرمانيوس في كتابه إلىٰ الناصر: "إنّ كتاب ديسقوريدس لا تُجتنىٰ فائدته إلّا برجلٍ يُحسن العبارة باللسان اليوناني، ويعرف أشخاص تلك الأدوية، فإن كان في بلدك مَن يُحسن ذٰلك فُزْتَ أيها الملك بفائدة الكتاب، وأمّا كتاب هروسيس فعندك في بلدك من اللطينيّين مَن يقرؤه باللسان اللطيني، وإن كشفتَ [لهم] عنه نقلوه لك من اللطيني إلىٰ اللسان العربيّ"».

ويُواصل ٱبنُ جُلْجُل:

«ولم يكُن يومئذٍ بقرطبة من نصارىٰ الأندلس مَن يقرأ اللسان الإغريقيّ، الذي هو اليونانيّ القديم**(9). فبقيَ كتاب ديسقوريدس في خزانة عبد الرحمٰن الناصر باللسان الإغريقيّ، ولم يُترجَم إلىٰ اللسان العربيّ، وبقيَ الكتاب بالأندلس والذي بين أيدي الناس بترجمة أصطفن الواردة من مدينة السلام بغداد.

* كتاب هروسيس، أو هروشيش، أو أوروسيوس (وهو ٱسم المؤلِّف) Paulo Orosio... ٱنظر ما سبق من تعريفنا به في الفصل الأوّل.

** نقرأ في حاشية ڤيرنيت (الرقم 9 آخر هٰذا الفصل) أنّ صديقه المستعرب سيزار إ. دوبلر César E. Dubler لا يرىٰ صحيحًا قولَ ٱبن جلجل من أنه «لم يكن يومئذ بقرطبة من نصارىٰ الأندلس من يقرأ اللسان الإغريقي...»، ونرى نحن أنّ ما عناه الطبيب الأندلسي بعبارته، ليس "القراءة" باليونانيّة القديمة وحسب، بل العلم بالموضوع، أي ما نُسمّيه في عصرنا "التخصّص"، وذٰلك ما توافر يقينًا في الموفَد الذي بعثه أمبراطور القسطنطينيّة لاحقًا: التخصّص في الطبّ والصيدلة وعلم النبات!

«فلمّا جاوب الناصرُ أرمانيوسَ الملك، سأله أن يبعث إليه برجلٍ يتكلّم بالإغريقيّ واللطينيّ ليُعلِّم له عبيدًا يكونون مترجمين*. فبعث أرمانيوس الملكُ إلىٰ الناصر براهبٍ كان يُسمّىٰ "نقولا"**. فوصل إلىٰ قرطبة سنة ٣٤٠ [٩٥١م]. وكان يومئذ بقرطبة من الأطبّاء قومٌ لهم بحثٌ وتفتيش وحرص علىٰ استخراج ما جُهِل من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس إلىٰ العربيّة، وكان أبحثَهم وأحرصهم علىٰ ذٰلك، من جهة التقرّب إلىٰ الملك عبد الرحمٰن الناصر، حَسْداي بن شَبْروط الإسرائيليّ، وكان نقولا الراهب عنده أحظىٰ الناس وأخصَّهم به، وفسّر [نقولا] من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس ما كان مجهولًا[10]، وهو أوّل مَن عمل بقرطبة ترياق الفاروق*** علىٰ تصحيح الشجاريّة التي فيه.

«وكان في ذٰلك الوقت، من الأطبّاء الباحثين عن تصحيح أسماء عقاقير الكتاب وتعيين أشخاصها: محمّد المعروف بالشجّار، ورجلٌ كان يعرف بالبسباسيّ، وأبو عثمان الجزّار الملقّب باليابسة،

* عبارةٌ تستحقّ أن نتوقّف عندها قليلًا: «ليُعَلِّم عبيدًا يكونون مترجمين»! والمقصود بالعبيد: الصّقالبة الذين كانوا يُباعون عبيدًا في أسواق مدينة "براگ Prag" (عاصمة دولة تشيكيا اليوم)، فيورَّدون إلىٰ دول أوروبة والأندلس، وقد كان الذين يتبدّىٰ فيهم الانسجام في حياتهم مع المجتمع الجديد، الأندلسي، المعتنقون للإسلام، يرتقون بسرعة سُلَّم الحياة الاجتماعيّة، ويحوزون المناصب والقيادات، ويبدا أنّ الأذكياء منهم عُرفوا باقتدارهم في تعلّم اللغات... وذٰلك كلّه يدلّ علىٰ مدىٰ انفتاح الحضارة الإسلاميّة علىٰ الشعوب المفتوحة دونما تمييز، وانفتاحها كذٰلك تجاه العبيد الأرقّاء، وتلك خصيصةٌ انفردت بها الحضارة العربيّة الإسلاميّة، التي اغتذت بمختلف الأعراق والكفاءات البشريّة.

** يبدا أنّ الراهب نقولا قد استقرّ بقرطبة، بعد أن أدّىٰ مهمّته، وبها توفّي ـ يقول ابن جلجل أدناه ـ في صدر دولة الحكم المستنصر، التي بدأت في ٣٥٠هـ/ ٩٦١م، فكأنه عاش في الأندلس عشرة أعوام أو يزيد.

*** الترياق Antidote: دواء يتمّ تركيبه من عشرات المفردات الدوائيّة، كان القدماء يعتقدون أنّ المداومة علىٰ تناوله تنفع في حفظ الصحّة وإزالة المرض وتقي من شرّ السموم!

وَمُحمّد بن سعيد الطبيب، وعبد الرحمٰن بن إسحٰق بن هيثم*، وأبو عبد الله الصِّقِلّيّ وكان يتكلّم باليونانيّة ويَعرِف أشخاص الأدوية. وكان هٰؤلاء النَّفَر كلُّهم في زمانٍ واحد مع نقولا الراهب، أدركتُ [زمانه]، وأدركتُ نقولا الراهب في أيّام المستنصر، وصحبتُهم في أيّام المستنصر الحَكَم [حُكمه: ٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١-٩٧٦م]، وفي صدر دولته مات نقولا الراهب. فصحّ، ببحث هٰؤلاء النَّفر الباحثين عن أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس، تصحيحُ الوقوف علىٰ أشخاصها بمدينة قرطبة خاصّة بناحية الأندلس، ما أزالَ الشكَّ فيها عن القلوب، وأوجب المعرفةَ بها بالوقوف علىٰ أشخاصها وتصحيح النُّطق بأسمائها بلا تصحيف، إلّا القليل منها الذي لا بال به ولا خطر له، وذٰلك يكون في مثل عشرة أدوية»**.

وكان لا بدّ من أن تقع، في ترجمة المصطلحات التقنيّة اليونانيّة، أخطاء بالرغم من كلّ شيء، وذٰلك مقارنةً [لهٰذا النصّ] ببعض النصوص الأخرىٰ. ولعلّ أفدح هٰذه الأخطاء، ممّا وقفتُ عليه، كان ما بيّنه بجلاء [المستعرب الفرنسيّ الطبيب گبرييل] كولان G. Colin قبل أعوام خلت، خطأً نجمت عنه عبارةُ "cólico miserere قولنج الأمعاء"، التي ظلّت متداولةً حتّىٰ عهدٍ قريب؛ فقد كان الأطبّاء اليونانيّون يُفرّقون بين نوعين من أوجاع البطن، يتموضعان علىٰ التوالي

* في شأن عبد الرحمٰن بن إسحٰق بن الهيثم... أنظر: فاضل السباعي: "عبد الرحمٰن بن الهيثم، طليعة الأطبّاء النباتيّين في الأندلس"، مجلّة "مجمع اللغة العربيّة الأردني"، العدد ٤٩، السنة ١٩، صص ٢٧-٥٤.

** ربّما جاء نصّ ابن جلجل هٰذا مقدّمةً لكتابه الذي ظُنّ أنه ضائع: "تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدوس". وقد وقفتُ قبل مدّة، في معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، علىٰ صورةٍ لمخطوطة هٰذا الكتاب، أصلها محفوظ في مجلس شورىٰ في إيران، ثمّ قرأت لإبراهيم بن مراد - في تحقيقه لتفسير ابن البيطار لكتاب ديسقوريدس (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٩) - أنّ هناك مخطوطةً لكتاب ابن جلجل هٰذا في المكتبة الوطنيّة بمدريد.

في الأمعاء الغليظة والأمعاء الدقيقة، أُطلق عليهما Kōlikos وeileós (ومعنىٰ هٰذه الأخيرة: "الأوجاع التي تجعل المريض يتلوّىٰ ألمًا"). وقد جرىٰ تعريب كلا الكلمتين، في القرن التاسع [٣ هـ]، في الصيغتين: "قولنج" و"أيلاوش". ولعلّ يهوديًا، أو نصرانيًا، في المشرق، قليل المعرفة باليونانيّة، كان قد قرأ الكلمة الثانية اسمًا مرفوعًا بالعربيّة: "إيلاوسون aylawsun"، التي قد تطرق السمع، باللهجة العاميّة البغداديّة، بالاتّصال الصوتيّ، علىٰ نحوٍ شبيه جدًّا بكلمة eyléson [اليونانيّة]. هٰذه الكلمة ربّما التبست بعبارة "Kyrie eleison" [اليونانيّة]، ومعناها: "ربّي، حنانَيْكَ!"، فحُملت علىٰ هٰذا التفسير. ونعتقد أنّ الأمر كان كذٰلك، لأنّ ابن سينا يقول في [كتابه] "القانون [في الطبّ]": «*القولنج هو المغص الذي نلتمس فيه الحماية الإلٰهيّة*»، ويقول [الطبيب] الغرناطي محمّد الشُّقُّوري (ت حوالي ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) في كتابه "تحفة المتوسّل [وراحة المتأمّل]": «*القولونج المسمّىٰ إيلاوش، التي تعني: "يا ربّي هبني الصّحة!"، هو أكثر أمراض القولنج ألمًا وخطورة. ويقال إنّ من تسمياته الأخرىٰ "القولنج [còlico]، ونتذرّع تجاهه بالحماية الإلٰهيّة!"*». ويضيف المؤلّف نفسه [الشُّقُّوري] في كتابه "المجرّبات": «*إنّ القولنج المتوضّع في الأمعاء الدقيقة يسمّىٰ إيلاوش، ومعناها "ربّي هبني الصّحة!"*».

وهناك مؤلّفٌ آخر، هو عبد الكريم بن موسىٰ بن يحيىٰ العلج، يقول [أيضًا] في شأن إيلاوش، إنّ هٰذه الكلمة تعني: "ربّي هبني الصّحة" أو "ربّي رحماك"!

وقد تكون هٰذه التعابير العربيّة تشير إلىٰ طبيعة هٰذا المرض الذي يُفضي بصاحبه إلىٰ الموت في أغلب الأحيان، وإلىٰ أنّ المترجمين من العربيّة إلىٰ اللاتينيّة كانوا علىٰ علم بها، فرأوا أنه تجدر ترجمتها بعبارة cólico miserere، ذٰلك أنّ هٰذه العلّة إذا ما أُصيب بها أحدهم لم يبقَ له من أملٍ إلّا أن يستعدّ للموت بتقوىٰ، وأن يتلو "مزمور التوبة" المناسب، عبارةً أوّل ما ظهرت عند أمبرواز پاريه Ambroise Paré (١٥٤٦م).

وفي أحيانٍ أخرىٰ كان النقل من اليونانيّة إلىٰ العربيّة، ومنها إلىٰ اللاتينيّة، يتمّ

بشكل أكثر طولًا وتعقيدا. وذلك ما وقع في ترجمة مصطلحات تقنيّة رياضيّة مختلفة، كالحال، مثلًا، في: "جَذْر **raiz**" و"جيب **seno**".

فالكلمة اليونانيّة **basis** (تُعادل **pleura**، أي جَذْر مربّع)، كانت قد تُرجمت إلىٰ السّنسكريتيّة بكلمة پادا **pada**، وتعني في آنٍ معًا: "قاعدة" و"جَذْر نبات"، فترجمها العرب بكلمة "جَذْر"، وترجمها اللاتينيّون بدورهم بكلمة **radix**. ذلك هو تاريخ [الكلمتين الإسبانيّتين]: **raiz** (جَذْر) و**radical** (علامة الجَذْر).

واليونانيّون أطلقوا كلمة "أوتار" علىٰ المستقيمات المحتواة داخل محيط الدائرة. والهنود اَستعملوا كلمات **djiva** (وَتَر)، وقَوْس وسَهْم (**seno verso**)، ثمّ ما لبثوا أن اَستبدلوا "بالأوتار": أنصاف أوتار القوس المزدوج (أي: كلمة **seno** بلغتنا الإسبانيّة)، وسمّوا هٰذه الأخيرة **ardhadjva** [بالسّنسكريتيّة] (ومعناها نصف وتر) ومختصرها **djiva** فتحوّلت إلىٰ "جيب". وقد اَعتقد أديلازدو دي باث وجيرازدو الكريموني أنّ كلمة "جيب" تعود إلىٰ مجانستها اللفظيّة: جوف، فترجماها إلىٰ **seno** [أي: جوف، بالإسبانيّة] (**sinus**)!

اللاتينيّة لغة الثقافة في الغرب:

إذا كان الوضوح هو السمة الغالبة في نقل تراث اليونان إلىٰ [عالم] الإسلام، فإنّ الأمر لم يجرِ علىٰ هٰذا المنوال في تلك المعارف التي ترجع بمصادرها إلىٰ النصوص اللاتينيّة، مع اَنتفاء كلّ شكّ في وجود ترجماتٍ من اللاتينيّة إلىٰ العربيّة ـ خاصّة في الأندلس ـ قبل القرن الحادي عشر الميلادي [٥ هـ]. ويُضاهي، هٰذا النشاطُ في الترجمة، ذاك الذي تعرّفناه قُبيل قليل: الترجمة عن اليونانيّة والسّنسكريتيّة والفهلويّة؛ ذلك أنه لم يكن ثمّة بدٌّ، من أن يُبحث ـ في إسبانيا التي لم تكن تتوافر فيها المخطوطات اليونانيّة ـ عن تراث العصور القديمة الكامن في النصوص اللاتينيّة، وهي أفقر بكثيرٍ من تلك المخطوطات، وذلك ما يُفسّر لنا السبب في عُزوف بعض

المشارقة - من أمثال يحيىٰ بن البطريق (حيًّا ٨٣٠م [٢١٥هـ]) الذين كانوا يتقنون اللاتينيّة واليونانيّة أو السُّريانيّة - عن الاهتمام بالأعمال المكتوبة باللغة الأولىٰ [اللاتينيّة]. وأمّا في الأندلس، فلم يكن ثمّة من وسيلةٍ أخرىٰ سوىٰ التعويل علىٰ الترجمة عن اللاتينيّة، التي تتوافر فيها الكتب والمخطوطات. يقول ابن عبد البرّ أنه

> *«من بين الأشياء التي وجدها طارق [ابن زياد] بالأندلس [يوم الفتح]، كان هناك اثنان وعشرون كتابًا (مصحفًا) وُشِّيت اغلفتها بجواهر، وكانت تتضمّن نصوص الكتاب المقدّس، وكان هناك كتابٌ آخر مُغَشّىٰ بالفضّة، يتناول خصائص الصخور والأشجار والحيوانات، وكان يحتوي طلاسم غريبة. فنقلها [طارق] إلىٰ الوليد [بن عبد الملك، الخليفة بدمشق]. ومن ضمن المؤلّفات الأخرىٰ كان أحدها يبحث في السيمياء وطرق صناعة الياقوت الأحمر»*•.

ونستطيع أن نرتقي بهذا الخبر إلىٰ سنة ٧١٥م [٩٦هـ]. فحوالي ٧٧٥م [١٥٨هـ] نعرف أنّ الخليفة المشرقيّ [أبا جعفر] المنصور أمر بترجمة مؤلّفاتٍ عن اليونانيّة والفهلويّة واللاتينيّة والسريانيّة. ولٰكن في تلك الآونة ذاتها، ترجم الضبّيّ في الأندلس، من اللاتينيّة إلىٰ العربيّة، رسالةً في علم الفلك لم نتثبّت بعدُ من حقيقة أصلها اللاتينيّ، وتَظهَر، في نصّها العربيّ المترجَم، أقدمُ الرموز الكوكبيّة في القرون الوسطىٰ، والتي جاءت لتنضاف إلىٰ قائمة الرموز المعروفة من قبل. وتُظهِر مقارنةُ أشكالها، بأشكال الرموز المعاصرة التي استخدمها يحيىٰ بن أبي منصور، أنها من أصلٍ مختلف.

ويُمكننا أن نعزو، إلىٰ تلك الحِقبة ذاتها - القرن التاسع [٣ هـ] - الترجماتِ ذاتَ الطابع النقديّ - الأدبيّ التي أبرزَها إ. ليڤي ديلّاڤيدا[11]، والتي نَقلت إلينا،

• كتاب "القصد والأمَم" (القاهرة، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م): ٣٤.

في ثناياها، بعضَ الأبيات الشعريّة اللاتينيّة لمؤلِّفٍ مجهول وبعضَ الأبيات لڤيرخيليو. وبالمثل، كانت ثمّة ترجماتٌ علميّة، كما يتّضح من ذٰلك التأكيد الجازم الصادر عن ابن جُلْجُل، الذي بيّن أنّ الطبّ الذي مارسه العرب الأوائل في الأندلس، كان يقوم علىٰ كتابٍ منقول عن اللاتينيّة يسمّىٰ "الفصول *Aforismos*"، وأنّ الأطبّاء الأساسيّين كانوا ـ حتّىٰ بداية القرن التاسع [٣ هـ] ـ مسيحيّين. وفي هٰذا الاتّجاه، تكثر الاستشهادات الحَرْفيّة، من أعمالٍ لخونيو موديراتو كولوميلا وماركو تيرانثيو ڤارّون، واستشهاداتٌ قد تكون أُخذت من كتاب الشِّعر الفِلاحي لڤيرخيليو، ممّا حفظتْه لنا نصوصُ علماء الزراعة الأندلسيّين في القرن الحادي عشر [٥ هـ]، أو كتبُ العجائب الشرقيّة. وتلك هي الحِقبةُ التي ظهرت فيها معلوماتٌ جغرافيّة، من كتاب "الأصول" أو "الاشتقاقات" *Etimologías* للقدّيس إيسيدوروس [الإشبيلي]، منقولةً إلىٰ العربيّة في المخطوطات القوطيّة الغربيّة.

وكانت الترجمات، التي تمّ نقلها من اللاتينيّة إلىٰ العربيّة حتّىٰ ذٰلك الحين، في معظمها مجهولةَ المؤلِّف، ومُجتزأةً علىٰ نحو ما نعرفها في وقتنا الراهن. إلّا أننا نستطيع أن نتكهّن بأسماء المؤلِّفين ابتداءً من القرن العاشر [٤ هـ]، فنعرف ـ مثلًا ـ أنّ الأسقفّ خيرونا گومار الثاني (٩٣٩م [٣٢٧هـ])، قد حرّر، بتكليف من الحَكَم الثاني، كتاب أخبار الملوك الفرنج، الذي نُقل إلىٰ العربيّة، ثمّ أُدرج ملخّصه في كتاب المسعودي "مروج الذهب"، وأيضًا "تاريخ أعداء الوثنيّين" *la Historia adversus paganos* [تاريخ العالم] لأوروسيوس، الذي نقله إلىٰ العربيّة القاضي قاسم بن أصبغ (ت ٣٤١هـ/ ٩٥٢م) وقاضي النصارىٰ وليد بن خيزران؛ أو كذٰلك تأليف "تقويم قرطبة"، الذي كان ثمرةَ تعاونٍ بين الطبيب عَريب بن سعد والأسقفّ ربيع بن زيد، هٰذا الكتاب الذي ترجمه إلىٰ اللاتينيّة، بعد قرنين من الزمان، جيرادو الكريموني تحت عنوان "كتاب الأنواء" *Liber anohe*، ويضمّ بين دفّتيه، نصَّ طَقْسٍ قُدّاسٍ للمستعربين، والأنواء حسب المذهب الساميّ ذي الأصل البابليّ، الذي يقوم علىٰ مجموعةٍ من

ثمانيةٍ وعشرين زوجًا من النجوم ـ يتطابق الغربُ الأُفوليّ لأحدها مع الطُّلوع الشمسيّ للآخر (رقيب raqib) ـ وتسمح [هٰذه المجموعة] بالتنبُّؤ بالطقس خلال مدّةٍ أقصاها أسبوع. ويتعيّن البحث عن أصل هٰذا النظام في العصر الحجريّ الأخير للشرق الأدنىٰ، حيث اكتُشفت العلاقة المتبادلة بين الأعمال الزراعيّة والسنة الشمسيّة. فإذا سلّمنا بمقولة هارتنر، نظرًا لاستحالة تحديد موقع الشمس في السماء في وَضَح النهار، فقد تقرّر معرفة ذٰلك عن طريق رصد النجوم التي تظهر علىٰ نحوٍ مقابل كُلّيًا لها لحظةَ غروبها. وهٰكذا لوحظ، حوالي عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد، أنّ الاعتدال الربيعيّ يُصادف برج الثور ويظلّ محدّدًا بالثُّريّا (مُلْمُل *mulmul* = الآلهة [السبعة] الكبار، وقد انتقلت إلىٰ الميثولوجيا اليونانيّة)، بينما يُقابل انقلابُ الشمس الصيفيّ لبرج الأسد (أورگولا **urgula**). وكان يُمثّل التّعاقُب من الربيع إلىٰ الصيف، في الأيقونات والأدب بوصفه معركةً بين الثور (گودانّا **gudanna** ومُلْمُل) وبين الأسد الذي تُمثّله نجمة لوگال **Lugal** (المَلِك، باللاتينيّة **Regulo**، وبالعربيّة قلب الأسد **calbalazada**). ونرىٰ مثل هٰذه الصُّور ـ دون أن نتبيّن دلالاتها ـ علىٰ علب المجوهرات العاجيّة الإسلاميّة وفي الشعر العربيّ. ويُقابل اعتدالُ الخريف برجَ العقرب (جِرْتاب **Girtab**، وبالأكاديّة أقْرَبو **aqrabu**، وبالعربيّة عقرب، وبالإسبانيّة **alacrán**) ويُمثّله نجمُ نَيّر العقرب (**Antares**). لٰكن مع قرب انقلاب الشمس الشتائيّ، فإنّ مجموعة النجوم البروجيّة، ما يُسمّىٰ إيبكس **Ibex**[12]، وهي لا تسطع إلّا قليلًا، فلا يمكن رصدها بسهولة. لذٰلك يتعيّن أن يُبحث عن مجموعةِ نجومٍ أُخرىٰ أكثر استلفاتًا للنظر (علىٰ سبيل المثال: مجموعة المنبر أو ذات الكرسيّ **Casiopea**، أو مجموعة بيتا الفَرَس الأعظم **β de Pegaso**) يكون لها الطُّلوع الشمسيّ ذاته. وهٰكذا نشأت التقاويم الزراعيّة الأولىٰ، وكان نموذجها الأوّل ما نشره ر. لابات، والذي ينبغي أن يربط ما بينه وبين تأكيد ديودورو **Diodoro**: «..... *كلّ عشرة أيّام، توفَدُ نجمةٌ رسولًا من كواكبِ المناطق العليا إلىٰ المناطق السفلىٰ، بينما تَتْرُك نجمةٌ أخرىٰ*

المناطق الواقعة فيما دون الأرض كي تصعد إلىٰ المناطق الواقعة فيما فوقها. هٰذه الحركة محدَّدةٌ بشكلٍ دقيق، *وتحدُث علىٰ الدوام في مدّةٍ ثابتة*. وقد انتقلت هٰذه الأفكار إلىٰ هيزيودو وإلىٰ [كتاب] "الظواهر" لآراتو ***Los fenómenos* de Arato** (٣١٥ـ٢٤٠ قبل الميلاد).

إنّ بداية كتاب "الظواهر" بدايةٌ ساميّة بشكلٍ جليّ: «*فلْنبدأ بزيوس Zeus. إنّ علينا ـ نحن الفانِين ـ ألّا نكُفّ أبدًا عن ذكره. فإنها لحافلةٌ بزيوس شوارعُ البشر وساحاتهم كلُّها*». وقد نُقل هٰذا الكتاب إلىٰ العربيّة، ولقي الحظّ ذاته الكتابُ المماثل له *Faseis aplanon asteron* لبطليموس **Tolomeo**، وقد نقله سنان بن ثابت تحت عنوان "أنواء".

ثمّ إنه اختلط، مع مرور الزمن، مفهوم علم الأرصاد الجوّيّة بمفهوم منازل القمر ذي الأصل السّنسكريتيّ (**naksatras**)، وقد ضمّ ذٰلك كلّه كتابُ "الأنواء" *Liber anohe*، جنبًا إلىٰ جنب مع مُعطياتٍ فلكيّةٍ أخرىٰ استقاها المؤلّفون من جداول السند هند ومن البتّاني.

حواشي المؤلّف

1. [رمز هٰذه المخطوطة في الاسكوريال]: R. II. 18 fol. 55. تُظهر الأعداد ١٦، ١٧، ٢١، ٢٤، ٢٧، ٢٩، مكتوبةً في هٰذه المخطوطة كما تُكتب في الوقت الحالي. ولٰكنّ العدد ١٠٢ له رقمٌ [خاصّ] للمئة، وآخر للعدد ٢، والعدد ٢٠ له رمزٌ واحد. والصفر موجود. إلّا أنّ هٰذه الأرقام جميعها موجودةٌ على الهامش، ويجوز التساؤل فيما إذا كانت معاصرةً أم لا لوقت تأليف المخطوطة، أي قبل عام ٨٤٤م [٢٢٩هـ]، تاريخ وصولها إلى أوفيدو. وهناك دراسةٌ مفصّلة لهٰذه المخطوطة أنجزها ج. مينيدث پيدال [في مقاله] "المستعربون والأشتوريّون [نسبة إلى أشتوريا في شمال إسبانيا] في ثقافة القرون الوسطى المتقدّمة" المنشور في *BRAH*، ١٣٤ (١٩٥٤)، صص ١٣٧ـ٢٩١.

2. راجع "مروج الذهب" (طبعة القاهرة، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م)، ١: ٧٦. ويتضمّن هٰذا النصّ عناصر أسطوريّةً يبدو أنها تومئ إلى أصل أفلاطوني جديد ـ فارسي، لأنه يُحدّثنا بعد ذلك عن "تاريخ البدء" الفارسي.

3. راجع كتاب البيروني ["تاريخ الهند"]، وقد ترجمه ساشاو، ١: ١٧٤. ابتكر الهنود الأرقام، بحسب البيروني، لأنّ كثرة عدد الحروف في ألفبائهم منعتهم من استخدام الحروف بقيمةٍ عدديّة. وتقول، بالأصل الهندي ذاته، مخطوطةُ الإسكوريال العربيّة ١٩٣٣، ٨. (راجع مقال خ. أ. سانشيث پيريث، [في مجلّة] *Al-Andalus*، ٣ [١٩٣٥]، ص ٣٧).

4. يذكر النصّ العربي بوضوح أنّ "الترقين" خطٌّ معادلٌ للصفر، ويفيد في مراعاة الأنساق المتباينة. ولٰكنّ الجذر [الثلاثي] ر ق ن (وله، بحسب النصّ ذاته، في النبطيّة [الآراميّة] قيمةُ "فراغ")، يتّسم بتوافقٍ مع ر ق م، لذا ندرك أنّ الترقين يعني الإشارة بواسطة نقطة أو دائرة.

5. راجع [مقال] د. پانگري "علم الفلك والتنجيم في الهند وإيران" [المنشور في مجلّة] *Isis*، ٥٤، ٢ (١٩٦٣) صص ٢٢٩ـ٢٤٦، [وأيضًا كتاب] س. كينيدي "تفرّعات مفهوم

السَّنة ـ العالم في علم الفلك الإسلامي"، ١ (١٩٦٢ إيتاكا)، صص ٢٣ـ٤٣. ولعلّ هٰذه النظريّة ترقىٰ إلىٰ بابل القديمة، لأنه عندما يتّفق لكلّ الكواكب السيّارة أن تكون في برج السرطان، بحسب رأي بيروزو، فإنّ العالم يفنىٰ بالنار. وعندما تكون في برج الجدي، [يفنىٰ] بالماء... إلخ (راجع كتاب هرمس وعنوانه *Poimandrés* [إصدار دار *Les Belles Lettres*، الجزء الأوّل، باريس، ١٩٦٠]، ١٥٦ n). ويجوز أن تمتلك الأصلَ ذاته نظريّةُ سينيكا (QN، ٣، ٢٩، ١) حول انقلاب الشمس الصيفيّ والشتويّ في السنة الكبرىٰ. ويُعارض أورِشمه Oresme هٰذه النظريّة، إذ يؤكّد استحالة قياس حركات دوران الأجرام السماويّة، فيما بينها، ويخلص إلىٰ رفض علم التنجيم.

6. تنشأ الأرقام [حسبما يلي]: ١: الكبيرة منها، عن قِران كوكَبَي الأحداث الكبيرين في درجة واحدة من دائرة البروج؛ ٢: والمتوسّطة منها، [عن قرانهما] في كلّ مجموعة ثلاث علامات في دائرة البروج، وهٰذا يَحدُث اثنتي عشرة مرّة كلّ ٢٤٠ سنة؛ ٣: والصغرىٰ، [عن قرانهما] في كلّ برج. راجع كتاب س. كينيدي "تفرّعات..."، [المذكور سابقًا].

7. كانت هٰذه النظريّات معروفةً من قَبل في شبه الجزيرة الإيبيريّة، لأنّ صاعد يذكر المصنّفات التي تتضمّنها، في كتابه "طبقات الأمم" ٥٧/ ١١٣ ٥٩/ ١١٥. ونحن نعلم أنّ ابن گبيرول حاول تقصّي مجيء المسيح [المنتظر]، مستخدمًا هٰذا النظام. (راجع كتاب خ. م. ميّاس "شلومو بن گبيرول، شاعرًا وفيلسوفًا"، [مدريد، ١٩٤٥]، ص ٥٧).

8. العنوان الكامل للمصنّف الذي ألّفه تلميذه أبو سعيد شاذان هو "مذاكرات أبي معشر في أسرار علم النجوم".

9. أبدىٰ لي سيزار دوبلر شفهيًّا، في مناسباتٍ مختلفة، شكّه في هٰذا القول.

10. تُثبتُ هٰذه الفقرة القول بأنه لم تُنجَز بقرطبة ترجمةٌ جديدة لكتاب ديسقوريدس، وإنّما تمّت مراجعة نصّ ترجمة اصطفن وحسب. راجع ما كتبه مايرهوف في مجلّة *AL-Andalus* ٣ (١٩٣٥)، ص١١.

11. راجع مقال ليفي ديلّافيدا "المستعربون بين الغرب والإسلام"، [المنشور في وقائع] "أسابيع دراسة..." ١٢، ٢ (سپوليتو، ١٩٦٥)، صص ٦٦٧ـ٦٩٥. ويبدو أنّ الخبر، القائل بأنّ النصّ الكامل لتيتو ليفيو يُحتفظ به في العربيّة، هو من تلفيق علي بيك. وإن تأكّد، فربّما احتُفظ بالنصّ في المسجد الكبير بالقيروان.

12. كانت مكوّنة من المجموعتين النجميّتين الحاليّتين لبرجَي الدلو والجدي. وقد استدعى تقسيم فَلك البروج إلى اثنتي عشرة مجموعة نجميّة وتحديد هذه المجموعات بدقّة، قرونًا عدّة. وإلى تلك الحقبة يعود التقسيم الحالي لقبّة السماء إلى نجوم قطبيّة (درب آنو) ونجوم بروجيّة (درب إنليل) ونجوم زواليّة (درب إيا).

الفصل الثالث

تقنيّة الترجمة

- ترجمة نصوص من العصور القديمة إلى العربية
- النصوص المترجمة من العربية إلى اللاتينية
- مترجم... إذن خائن!
- تحديد النص المحص
- فن الترجمة
- أخطاء الترجمة

الفصل الثالث

تَقَنِيّة الترجمة

نبدأ، مع ٱستقرار الأُسرة العباسيّة الحاكمة في السلطة عام ٧٥٠م [١٣٢هـ]، بالحصول على مُعطَياتٍ، تزداد غزارةً بمرور الأيّام، حول الطريقة التي تسرّبت فيها علومُ العصور القديمة إلى العالم العربي، وكذلك حول المؤسّسات ـ العامّة أو الخاصّة ـ التي أسهمت في ٱنتقال المعارف السريع.

ترجمة نصوص من العصور القديمة إلى العربيّة:

ٱلتزم علماءُ شتّى، غالبًا ما تنتمي كلُّ جماعةٍ منهم إلى أُسرةٍ واحدة، بترجمة ما كان في متناولهم من الكتب العلميّة الأساسيّة، السّنسكريتيّة والفهلويّة والسُّريانيّة واليونانيّة، وكذلك اللاتينيّة بدرجةٍ أقلّ. وتمّت، ما بين ٧٧٠ـ٧٨٠م تقريبًا [١٥٣ـ١٦٣هـ]، الترجمات الأولى لكتُبٍ سنسكريتيّةٍ في علم الفلك (سيدْدهانْتا *Siddhantas*)، كانت قد وصلت بغداد في أثناء سِفارة الطبيب الفلكيّ الهندي كَنْكَه Kanka[1]، وتكفّل بها كلٌّ من محمّد بن إبراهيم ويعقوب بن طارق، وتلتها، بعد مدّةٍ وجيزة (حوالي ٨٠٠م [١٨٤هـ])، ترجمةُ آريابهاتيّا *Aryabhatiyya* تحت ٱسم "زيج الأرجبهار" التي يشير إليها البِيروني[2]. وقد أُنجزت ترجمة سلسلة من الكتب الطبّيّة

عن السّنسكريتيّة، في النصف الأوّل من القرن التاسع الميلادي [٣ هـ] ـ وأحيانًا عن ترجمةٍ وسيطة فهلويّة ـ مثل كتاب شاناق الذي شكّل مع كتب كاراكا Caraka[3] وسُشروتا Susruta، مصدر معلوماتٍ لعلي بن سهل بن ربّن الطبري في تأليفه كتاب "فردوس الحكمة".

ولقد كان [ابن ربّن] ـ حسب المصادر العربيّة ـ أستاذًا للرازي، إلّا أنّ ما توافر لنا حول السيرة الذاتيّة لكلٍّ منهما لا يُجيز مثل هذه الصلة بشكلٍ دقيق، ولكن يسمح بقبولها على نحوٍ ما، لأنّ الرازي استفاد ممّا عند ابن ربّن من معلومات. وما أسرع ما وصل عمل الرازي إلى الأندلس، لأننا نعرف ـ مثلًا ـ أنّ محمّد بن مُفْلط قد درس وإيّاه.

والأمر ذاته كان في علم الفلك. فالترجمات التي أشرنا إليها أعلاه، استخدمها الخوارزمي (ت حوالي ٨٤٧م [٢٣٢هـ]) لوضع جداوله الفلكيّة. تلك التي وفّق مَسْلَمة [المجريطي] بينها وبين دائرة خطّ الزوال لقرطبة، وترجمها إلى اللاتينيّة أديلاردو دي باث.

وشجّع خالد بن يزيد [ابن معاوية بن أبي سفيان] (ت حوالي ٩٠هـ/ ٧٠٨م) على الترجمة من اللغة القبطيّة. فانطلاقًا من رغبته في معرفة أسرار السيمياء (الصَّنْعة)، اتّفق، لتحقيق ذلك، مع لفيفٍ من العلماء المصريّين، من ذوي المعرفة بالقبطيّة واليونانيّة والعربيّة*. واشتهرت الترجمات التي أنجزوها بأنها [نُقلت عن]

* وتعريف "الصَّنْعة" (السيمياء Alchemy)، عند ابن النديم، أنها ـ كما زعم أهلها ـ «صَنْعة الذهب والفضة من غير معادنها، [و] أنّ أوّل من تكلّم على علم الصنعة هرمس الحكيم البابلي، المنتقل إلى مصر عند افتراق الناس عن بابل، وأنه مَلَكَ مصر، وكان حكيمًا فيلسوفًا، وأنّ الصنعة صحّت له... وأنه نظر في خواصّ الأشياء وروحانياتها، وصحّ له ببحثه ونظره علم صناعة الكيمياء ووقف على عمل الطِّلَّسْمات...». "الفهرست"، تحقيق الدكتور يوسف علي طويل (بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٩٩٦)، ٥٤١.

ويحدّثنا ابن النديم أنّ خالد بن يزيد أجاب ـ عندما سئل عن طلبه الصنعة ـ «ما أطلب بذاك إلّا أن أُغني أصحابي وإخواني... فلا أُحوِج أحدًا، عرفني يومًا أو عرفتُه، إلى أن يقف بباب سلطانٍ رغبةً أو رهبةً» "الفهرست"، ٥٤٤.

مؤلّفاتٍ أصليّة للحكيمين الأُسطوريّين: أگاتوديمون **Agatodemón** وهِرْمِس **Hermes**، ثمّ إنها ظهرت ـ منسوبةً إليهما ـ في النصوص اللاتينيّة المتأخّرة، التي كُتبت باللهجة الدارجة، وقد وصلت إلينا من خلال أعمال السيميائيّين المدريديّين من أهل القرنين العاشر والحادي عشر [٤ و٥هـ].

ولكننا أكثر اطّلاعاً في شأن ما نُقل من اللغة الفهلويّة. فبعد فتح إيران، دخل كثيرٌ من سكّانها في دين المنتصرين، وسَعَوا إلىٰ تعريفهم بعلوّ ثقافتهم الأصليّة، مثلما فعل ابن المقفّع (١٠٢ـ١٣٩هـ/ ٧٢٠ـ٧٥٦م) وعمر بن الفرُّخان (ت ٢٠٠هـ/ ٨٢٥م) والبلاذري (ت ٣٠٢هـ/ ٨٩٢م). ولقد وجدنا مرّاتٍ كثيرة، أُسَرًا بكاملها، تصرف جهدها، خلال جيلين أو يزيد، في أعمال الترجمة، صنيعَ آل نوبَخْت (من القرن الثامن إلىٰ العاشر للميلاد [٢ـ٤هـ]). بيدَ أنّ ثقافتهم ذاتها كانت قد تغذّت من مصادر سنسكريتيّة ويونانيّة. وقد شهدنا حالةَ نقلٍ مباشر إلىٰ العربيّة عن المصادر الأولىٰ. وقد استطاع نَلّلينو **C. A. Nallino** أن يُبيِّن لنا، في شأن المصادر الثانية، كيف وصلت أعمال فئةٍ من علماء الفلك اليونانيّين في العصور القديمة ـ وأهمّهم فيتيوس فالنس ـ إلىٰ العالم العربي عن هٰذا الطريق، وإلىٰ اللاتينيّة والقشتاليّة من خلال كتاب "أحكام النجوم" لعلي بن رجيل[١] **'Ali Abenragel** (ت حوالي ٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م). وثمّة أعمال أخرىٰ مثل طبّ تيودوسيوس (حيًّا ٣٧٩م)، فُقدت بعد نقلها إلىٰ العربيّة، وهناك، أخيرًا، الإسهام الفارسي الذاتي الكبير في عالم الفكر، مذهب القِرانات، الذي لا زال ماثلًا حتّىٰ الزمن الحالي، حسبما رأينا، بفضل تصانيف أبي معشر.

ولٰكنّ أهمّ نواةٍ من المترجمين إلىٰ العربيّة، انصرفت إلىٰ نقل أفضل العطاءات اليونانيّة وأكثرها أهمّيّةً، إلىٰ هٰذه اللغة. وقد ارتكزت ترجماتهم، في البداية، علىٰ مترجماتٍ سُريانيّة كان قد أنجزها ـ بدءًا من القرن الثالث [الميلادي] ـ كثيرٌ من كبار علماء الشرق الأدنىٰ، الذين رأوا أنّ فلسفة العصور القديمة تتّفق والمسيحيّة، فسعوا إلىٰ إثبات ذٰلك بدراسة المؤلّفين الكلاسيكيّين، وخاصّةً أرسطو، فترجموا أعمالهم إلىٰ السُّريانيّة. وهٰذا ما يُفسّر وفرة النصوص الفلسفيّة اليونانيّة التي نجدها

مترجمةً إلىٰ العربيّة في نهاية القرن الثامن الميلادي [٢ هـ]. وتلت ذٰلك ـ بدرجةٍ أقلّ بكثير ـ ترجماتُ نصوصٍ طبيّة لأبوقراط وجالينوس، شكّلت ـ مع المصنّفات الهنديّة والفهلويّة ـ المعلوماتِ الأساسيّة لأطبّاء مشفىٰ ـ مدرسة جُنْدَيْسابور. ومع ذٰلك، جاء كثيرٌ من هٰذه الترجمات حرفيًّا ومتقيّدًا إلىٰ حدّ كبير، ومن ثَمّ مُبْهَما.

إلّا أنه اَشتدّ، منذ منتصف القرن الثامن الميلادي [٢ هـ]، اَهتمامُ الخلفاء بالعلوم اليونانيّة، علىٰ نحو ما سوف يقوله الغرناطي موسىٰ بن عزرا بعد بضع مئات من السنين، لأنّ «*همّة الأمّة اليونانيّة اَنصرفت، علىٰ نحوٍ عجيب، إلىٰ*

> *مختلف فروع العلم والفلسفة، وراحت تبحث في الميادين العلميّة، وما وراء الطبيعة، والفيزياء، واللاهوت، الذي يمثّل أنبل ما يمكن أن تصبو إليه الحقيقة. وهي، فضلًا عن ذٰلك، أمّةٌ تمتلك سلطةً سياسيّة واَجتماعيّة كبيرة، واَلّفت خطاباتٍ ذكيّة، وأعمالًا فلسفيّة، حتّىٰ إنّ كلمة فلسفة أمست مرادفةً للعلم اليوناني*».

ولقد تعيّن علىٰ المترجمين ـ الذين أخذوا يتلقّون، اَبتداءً من هٰذه الحِقبة، المكافآتِ السخيّة من الخلفاء ـ أن يصرفوا جهدهم كلّه لتحقيق ما يُمليه عليهم أولو الأمر، وأن يقتنوا ـ من ثَمّ ـ ويُترجموا أوّلًا المخطوطات التي تتناول العلوم البحتة. وتدلّ ترجماتهم، في هٰذه المجالات الأخيرة، علىٰ أنهم كانوا يعتمدون نصوصًا أصليّة تختلف عن تلك التي وصلت إلينا ـ نحن هنا في الغرب ـ وهي غالبًا أصحّ. ذٰلك ما وقع، علىٰ سبيل المثال، مع كتاب "*De mensura circuli*" في الترجمة العربيّة لثابت بن قُرّة، والترجمة اللاتينيّة لجيراردو الكريموني. وهٰذا كلّه يفسّر أنّ كتابَي أُقليدِس، "المِجِسْطي" و"الأصول"، قد تمّت ترجمتهما إلىٰ العربيّة قبل نهاية القرن الثامن ميلادي [٢ هـ].

وبالمقابل، لم يُبْدِ العرب اَعتناء بأن ينقلوا عن اليونانيّة النصوص الأدبيّة، مع أنهم عرفوها، يؤكّد ذٰلك أنْ وردتْ في أعمالهم هٰذه الأحداث، أسطورةُ حصان طروادة، كَرَاكي إيبيكو [واحدها كُرْكِيّ]، البيضات الذهبيّة.

وإذا تجاوزنا ذٰلك، فإنّ أصداء للأوديسة تتردّد في نصوص مثل "ألف ليلة وليلة"، وفي الكتاب التركي "دادا قُرقُط" [أصداء] لألَسيسْت Alcestes، وكذٰلك نَظَمَ أدباء [شعراء] ذائعو الصيت كالمتنبي، أمثالًا يونانيّة شعرًا. بل أكثر من ذٰلك، فإنّ من الثابت لدينا أنّ بعض المترجمين، من أمثال تيوفيل بن توما (حيًّا [٦٥ـ١٦٨هـ] ٦٨٥ـ٧٨٥م) وحُنين بن إسحٰق وأصطِفَن بن بَسيل، كانوا يستظهرون، أو كانوا قد ترجموا، مقاطع من قصائد هوميروس. ولٰكن يبدو أنّ هٰذه الترجمات لم تلقَ قبولًا حسنا. ويتقدّم المؤلّفون العرب في القرون الوسطىٰ بنظريّةٍ عامّة حول أسباب ضآلة ما يُصيبه هٰذا النوع من الترجمات من نجاح. إذ يقول لنا أبو سليمان المنطقي [السجستاني، محمّد بن طاهر، ت بعد ٣٩١هـ] إنّ أصطفن [بن بسيل] ترجم بعض قصائد هوميروس من اليونانيّة إلىٰ العربيّة. ولٰكن من المعروف أنّ الأشعار تفقد، في الترجمة، كثيرًا من رونقها، وتتلاشىٰ أفكارها الأكثر تعبيرًا عندما تغيب الصيغةُ الفنّيّة للشعر.

ويُنَوِّه الجاحظ، وهو شاهدٌ أستثنائيّ بصفته كاتبًا كبيرًا، في كتابه "الحيوان":

> *«وفضيلةُ الشعر مقصورةٌ علىٰ العرب، وعلىٰ من تكلّم بلسان العرب. والشعر لا يُستطاع أن يُترجَم، ولا يجوز عليه النقل. ومتىٰ حُوِّل، تقطّع نظمُه، وبطل وزنُه، وذهب حُسنُه، وسقط موقع التعجُّب، لا كالكلام المنثور، [والكلام المنثور ـ المبتدأ علىٰ ذٰلك ـ أحسنُ وأوقعُ من المنثور الذي تحوّل من موزون الشعر]»* [*].

وتُعَدّ الترجمات العربيّة، التي وصلت إلينا، وثيقةً من المرتبة الأولىٰ للتعرُّف علىٰ تراث العصور القديمة، لأنّ كثيرًا من الأعمال الكلاسيكيّة التي فُقِدت أصولها لم تُحفظ إلّا في هٰذه الترجمات. فإذا ما تركنا جانبًا الآراء المشهودة والغنيّة التي نقلها

* الجاحظ: "كتاب الحيوان"، تحقيق محمّد عبد السلام هارون (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٩)، ١: ٧٤ و٧٥. وما بين المعقوفتين أضفناه من كلام الجاحظ.

عددٌ من الكتّاب العرب، والتي ألقىٰ عليها الضوء [الدكتور عبد الرحمٰن] بدوي[4]، والمصنّفات الفلسفيّة التي أشار إليها كلٌّ من بدوي وڤالتزر، فلا بدّ من أن نُنوّه بالكُتب العلميّة التي لم يُكتب لها البقاء إلّا بفضل هٰذه السُّنّة المشرقيّة المتّبعة، ومنها ـ علىٰ سبيل المثال ـ شرح پاپّو Pappo للجزء العاشر من كتاب "الأصول" (أبو عثمان الدمشقي/ جيراردو الكريموني)، وكتاب "علم الحركة" لهيرون الإسكندري، والأجزاء ٥ـ٧ من كتاب "المخروطات" لأپولونيوس الذي أَنجز أ. هاللي (١٦٥٦ـ١٧٤٣)، آنطلاقًا منها، ترجمةً لاتينيّة أُدرجت في طبعة النصّ اليوناني بأكسفورد (١٧١٠)، وأعمال مختلفة لجالينوس... إلخ.

وآعتقد العرب كذٰلك أنّ في وُسعهم أن يَعْرِفوا، من خلال اللغة اليونانيّة أيضًا، تراث بابل القديمة. ويعترف كتاب "الفِهْرِست"، بجلاء، بأنّ الإنسانيّة قد كَتَبت علىٰ ألواح من الفَخّار، في مرحلةٍ سابقة علىٰ تلك التي يهتمّ بها [المؤلّف] آبن النديم[5]. وكان اليونانيّون قد عمدوا إلىٰ شرح هٰذه النصوص وترجمتها، عندما غزا الإسكندر الكبير [المقدوني] الشرق الأدنىٰ[6]، فوصلت هٰكذا إلىٰ العرب. وقد سلّم بهٰذه الآراء وطوّرها د. شڤولسون. ومع أنها سرعان ما فَقَدت آعتبارها، إلّا أنها في الوقت الحاضر، بعد ظهور دراسات إ. ماركيه ويلسنر، رُدَّ إليها الآعتبار، مع تعديل بعض فرضيّاتها. ومهما يكن من أمر، فإنه يبدو مسلّمًا به تمامًا أنّ مركز حرّان ـ الذي سُمّي سُكّانه بـ"الصابئة" وظلّوا وثنيّين إلىٰ ما بعد القرن العاشر الميلادي [٤ هـ] ـ قد حفظها، حيّةً، حتّىٰ عهد الإسلام، تقاليدَ بابليّةً قديمة كثيرة. وفي هٰذا المنحىٰ، يُلاحَظ أنّ بعض المشكلات الملتبَسة، التي تظهر في أعمال الرياضيّين العرب في القرن العاشر [٤ هـ]، لا وجود لها عند ديوفانتو. ومن جهة أخرىٰ، يُلاحَظ بآستغرابٍ أنّ العلماء البابليّين الذين يذكرهم لنا صاعد [الطليطلي]، في كتابه "طبقات الأمم"، لا علاقة لهم بالبابليّين القُدامىٰ، بل بالمنجّمين اليونانيّين الذين آنتقلت أعمالهم إلىٰ [عالم] الإسلام عن طريق فارس، ومنهم ـ علىٰ سبيل المثال ـ ڤيتيوس ڤالنس.

الترجمات من العربيّة إلى اللاتينيّة:

ومثلما أبدىٰ العرب تقديرًا ـ وإن يكن متفاوتًا جدًّا ـ للتراث الذي كانوا قد تلقَّوه من العصور القديمة، فكذٰلك أظهر المترجمون اللاتينيّون، في القرون الوسطىٰ، تفضيلًا ما للتراث الذي تلقَّوْه، بدورهم، من العالم العربي. وقد أجرىٰ ج. سارتون موازنةً إحصائيّة تقريبيّة في شأن المؤلِّفين العرب والمؤلِّفين العبريّين (من ذوي الثقافة العربيّة) الذين كانت تجري دراسة أعمالهم في أوروبة في القرن الخامس عشر. وتلك أرقامه، التي لا يُمكن قبولها إلّا علىٰ سبيل الاَستئناس:

من بين المؤلِّفين المعروفين في أوروبة ٥ عاشوا في القرن التاسع [٣ هـ]، و٤ في العاشر، و٨ في الحادي عشر، و٢ في الثالث عشر، وواحد في الخامس عشر.

ومن بين هٰؤلاء المؤلِّفين، البالغ عددُهم ٢٨، عاشت الأكثريّة منهم (١٦) في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. والذين اَستحقّوا شرف رؤية أعمالهم مطبوعة في ترجماتٍ لاتينيّة مصدرها غالبًا إسباني، قبل العام ١٥٠٠، عددُهم ٢٦. من بينهم ٢ عاشوا في القرن الثامن، و١٠ في التاسع، و٥ في العاشر، و٥ في الحادي عشر، و٤ في الثاني عشر.

فإذا أخذنا بعين الاَعتبار أنّ إنجاز هٰذه الطبعات كان يستجيب لقانون العرض والطلب، وراجعنا مجموع إصدارات الأعمال العلميّة (بما في ذٰلك علم التنجيم)، اَستطعنا أن نتبيّن أنها تعود إلىٰ مؤلِّفين عاشوا ما بين ٧٥٠ـ١٠٥٠م [١٣٢ـ٤٤٢هـ]، وعددهم ٢٥، من بينهم ٢٢ عربيًا.

وكانت بعضُ هٰذه الكتب تَلقىٰ من الرّواج الشعبيّ ما أوجب تكرار طبعها مرّاتٍ عديدة، رغم ما قد يعتري النصّ اللاتينيّ من الغموض.

ويُتيح لنا جرد الترجمات اللاتينيّة بحسب الموضوعات، الذي نُقدّمه أدناه، أن نتلمّس الاَتّجاهات الثقافيّة في ذٰلك العصر:

في المقدّمة تأتي العلوم البحتة (الرياضيّات، وعلم الفلك، وعلم التنجيم)، ونسبتها ٤٧٪؛ تليها الفلسفة ٢١٪؛ والطبّ ٢٠٪؛ والعلوم الخفيّة (أي الضرب بالرمل والسيمياء... إلخ) ٤٪؛ وبنسبة أدنىٰ موضوعات الدين والفيزياء. ولم يُبدِ المترجمون اللاتينيّون اهتمامًا بالمصنّفات الفقهيّة ـ اللغويّة والأدبيّة ـ بينما اليهود ـ الذين اكتشفوا التشابه بين لغتهم واللغة العربيّة ـ أكبّوا علىٰ ترجمة كتب النحو والمعاجم ـ مثلما فعل اليهودي ابن يعيش Ibn Yaiš ـ ممّا أتاح لهم أن يُضْفُوا، باطّراد، صبغةً خاصّة علىٰ ترجماتهم. ولا نصادف، إلّا نادرًا، ترجماتٍ لمصنّفاتٍ تقنيّة من شأنها أن تيسّر علىٰ القُرّاء تعلُّم صنعةٍ جديدة أو إدخالها. أمّا النصوص الدينيّة المترجمة فقد عَوَّل عليها كلٌّ من المسلمين والمسيحيّين واليهود، في تعزيز معتقداتهم وتسويغها، ممّا جعلهم يترجمونها غالبًا بصورة غير نزيهة. وكانت تُشرَح، في أوساط طائفةٍ دينيّة بعينها، نصوصٌ دينيّة وأدبيّة وشرعيّة باللغة الحاملة [المستخدَمة] السائدة، فتستفيد من هٰذه النصوص عَرَضًا فئاتٌ أخرىٰ. بدا ذٰلك في الباب الثاني من كتاب "طوق الحمامة" لابن حزم القرطبي، فقد استخدمه أطبّاء عصر النهضة [الأوروبيّة] استنادًا إلىٰ نصّه المترجم إلىٰ اللغة القشتاليّة*.

* يُعَدّ "طوق الحمامة في الإلفة والألّاف" أروعَ كتاب، في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، درس الحبَّ دراسةً صريحة، ألّفه أديب الأندلس وفقيهها ابن حزم، عام ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م وهو في ريعان شبابه (٣٨٤ـ٤٥٦هـ/ ٩٩٤ـ١٠٦٤م)، قَصَدَ فيه أن يكون تسليةً لصديقٍ ودود، وجاء كذٰلك تعزيةً للنفس بما رسم فيه من ملامح لسيرته الذاتيّة!

وقد قُيِّض للنسخة الوحيدة الباقية للكتاب، أن يحملها سفيرُ هولندة في استنبول، المستعرب "فون وارنر"، لدىٰ عودته إلىٰ بلاده ١٦٦٥. ثمّ يظهر الكتاب مطبوعًا في لَيْدن ١٩١٤، ويمضي زمنٌ قبل أن تتوالىٰ طبعاته في المشرق، دمشق ١٩٣٠، والجزائر ١٩٤٩، والقاهرة ١٩٥٠ و١٩٧٥، وبيروت ١٩٨٠، ويُترجَم في أثناء ذلك إلىٰ عددٍ من اللغات هي: الإنكليزيّة والروسيّة والفرنسيّة والإيطاليّة والإسبانيّة والبولونيّة...

وعنوان الباب الثاني، الذي أشار إليه ڤيرنيت، "علامات الحبّ"، نقتطف منه عنوانات هٰذه العلامات وملامح منها:

•أوّلها: إدمانُ النظر، والعينُ بابُ النفس الشارعُ... ←

لقد كان إنجاز ترجمةٍ صحيحة، دومًا، أمرًا أقربَ إلى المستحيل. وقد أدرك

← «ومنها الإقبالُ بالحديث، فما يكاد [المحبّ] يُقبِل على سوى محبوبه... والإنصاتُ إلى حديثه إذا حدَّث... وتصديقُه وإنْ كذب، وموافقتُه وإن ظلم!...

«ومنها الإسراعُ بالسير نحو المكان الذي فيه [المحبوب]، والتعمُّدُ للقعود بقربه... والاستهانةُ بكلِّ خَطْبٍ جليلٍ داعٍ إلى مفارقته...

«ومنها بَهْتٌ يقع، وروعةٌ تبدو على المحبّ عند رؤية مَن يحبّ فجأةً.

«ومنها اضطرابٌ يبدو على المحبّ عند رؤية مَن يُشْبِه محبوبه، أو عند سماع اسمه فجأةً.

«ومنها أن يجود المرء ببذلِ كلِّ ما كان يَقْدر عليه، ممّا كان يمتنع به قبل ذلك.

«وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحبّ، وتأجُّج حريقه، وتَوَقُّد شُعَله.

«ومن علاماته، وشواهده الظاهرة لكلِّ ذي بصر، الانبساطُ الكثير الزائد [في المكان الضيّق]، والتضايقُ في المكان الواسع، والمجاذبةُ على الشيء يأخذه أحدهما، وكثرة الغَمْز الخفيّ، والتعمُّد لمسّ اليد عند المحادثة...

«ومنها علاماتٌ متضادّة... والأضداد أنداد، والأشياء ـ إذا أفرطت في غاياتِ تضادّها... ـ تشابهت... فنجد المحبَّيْن، إذا تكافيا في المحبّة، كَثُرَ بهما تضادُّهما في القول تعمُّدًا، وخروجُ بعضهما على بعض في كلِّ يسيرٍ من الأمور، وتتبُّعَ كلٍّ منهما لفظةً تقع من صاحبه وتأوُّلها على غير معناها...

«ومن أعلامه أنك تجد المحبّ يستدعي سماع اسم مَن يُحِبّ، ويستلذّ الكلام في أخباره...

«ويَعْرِض، للصادق المودّة، أن يبتدئ في الطعام، وهو له مشتهٍ، فما هو إلّا وقتَ ما يَهتاجُ له ذِكرُ مَن يُحِبّ، صار الطعامُ غُصّةً في الحلق، وشجًى في المريء...

«ومن علاماته حبُّ الوَحدة، والأُنسُ بالانفراد، ونُحولُ الجسم...

«والسهرُ من أعراض المحبّين...

«ويعرض للمحبّين القلقُ، عند أحد أمرين: أحدهما عند رجائه لقاءَ من يُحِبّ فيعرض عند ذلك حائلٌ... والثاني عند حادثٍ يحدث بينهما من عتابٍ لا تُدرى حقيقته إلّا بالوصف، فعند ذلك يشتدّ القلق حتّى يَوقَف على الجليّة... ←

المترجمون ونُقّادُ الأدب ـ منذ تمّ لنا الاطّلاعُ على أساليب عمل المترجمين، على الأقلّ ـ حقيقة مقولة: «مترجمٌ... إذن خائن!»*.

وقد كتب، في المشرق، الجاحظ يقول[7]:

«... ثمّ قال بعضُ مَن ينصُر الشعر ويحوطه ويحتجّ له: إنّ التَّرجمان لا يؤدّي أبدًا ما قال الحكيمُ، على خصائص معانيه،

← «ويعرِض للمحبّ الاستكانةُ لجفاء المحبوب عليه...

«ومن أعراضه الجزعُ الشديد... عندما يرى من إعراض محبوبه عنه ونفاره منه، وآيةُ ذلك الزفيرُ، وقلّةُ الحركة، وتنفُّسُ الصُّعداء...

«ومن علاماته أنّك ترى المحبّ يُحبّ أهلَ محبوبته وقرابته وخاصّته، حتّى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصّته.

«والبكاء من علامات المحبّ، ولكنْ يتفاضلون فيه...

«ويعرِض في الحبّ سوءُ الظنّ، واتّهامُ كلّ كلمة من أحدهما، وتوجيهُها إلى غير وجهها، وهذا أصل العتاب بين المحبّين...

«وترى المحبّ ـ إذا لم يثق بنقاء طَويّة محبوبه له ـ كثيرَ التحفُّظ... مُتقّفًا لكلامه...

«ومن آياته مراعاةُ المحبّ لمحبوبه، وحفظُه لكلّ ما يقع منه...

ويروي ابن حزم:

«ولقد كنتُ، يومًا، بالمَريّة، قاعدًا في دكّان إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلي، وكان بصيرًا بالفِراسة محسنًا لها، وكنّا لمّةً. فقال [له أحدُنا]: "ما تقول في هذا؟"، وأشار إلى رجلٍ منتبذٍ عنّا ناحيةً... فنظر إليه ساعةً يسيرة، ثمّ قال: "هو رجلٌ عاشق!"، فقال له: "صدقتَ. فمن أين قلت هذا؟"، قال: "لبَهْتٍ مفرطٍ ظاهر على وجهه فقط، دون سائر حركاته، فعلمتُ أنه عاشقٌ وليس بمُريب!"...».

ابن حزم: "طوق الحمامة في الألفة والألّاف": تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكّي، ط ٤ (القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٨٥)، ٢٧ـ٣٥؛ وبإصدار آخر، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس (بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ١٩٨٠)، ١٠٣ـ١١٤.

* يستعير ڤيرنيت، عنوانًا لهذا المقطع، العبارة الإيطاليّة الشهيرة: "Traduttore, traditore!".

وحقائق مذاهبه، ودقائق اختصاراته، وخفيّات حدوده، ولا يقدِر أن يُوَفّيها حقوقَها، ويؤدّي الأمانة فيها، ويقوم بما يُلْزِم الوكيلَ ويجب علىٰ الجَرِيّ. وكيف يقدِر علىٰ أدائها، وتسليم معانيها، والإخبار عنها علىٰ حقّها وصدقها، إلّا أن يكون في العلم بمعانيها، واستعمال تصاريف ألفاظها وتأويلات مخارجها، مثلَ مؤلِّف الكتاب وواضعِه! فمتىٰ كان ــ رحمه الله تعالىٰ ــ ابن البِطريق، وابن ناعمة، وابن قُرّة، وابن فِهريز، وثيفل، وابن وهيلي، وابن المقفع، مثلَ أرِسطاطاليس؟ ومتىٰ كان خالدُ [ابن يزيد بن معاوية] مثلَ افلاطون؟!

«ولا بدّ للتَّرجُمان من أن يكون بيانُه في نفْس الترجمة، في وزْن علمه في نفْس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلمَ الناس باللغة المنقولة والمنقولِ إليها، حتّىٰ يكون فيهما سواءً وغاية. ومتىٰ وجدناه ــ أيضًا ــ قد تكلّم بلسانين، علمنا أنه قد أدخل الضَّيم عليهما؛ لأنّ كلّ واحدةٍ من اللغتين تجتذب الأخرىٰ، وتأخذ منها، وتعترض عليها! وكيف يكون تمكُّن اللسان منهما مجتمعا[تَـ]ـيْن فيه، كتمكُّنه إذا انفرد بالواحدة، وإنّما له قوّةٌ واحدة! فإنْ تكلّم بلغةٍ واحدة استُفرِغت تلك القوّة عليهما، وكذٰلك إذا تكلّم بأكثر من لغتين، علىٰ حساب ذٰلك تكون الترجمة لجميع اللغات.

«وكلّما كان الباب في العلم أعسرَ وأضيق، والعلماء به أقلّ، كان أشدَّ علىٰ المترجم وأجدرَ أن يُخطئ فيه. ولن تجد ألبتّةَ مترجمًا، يَفِي بواحدةٍ، من هٰؤلاء العلماء.

«هٰذا قولنا في كتب الهندسة، والتنجيم، والحساب، واللُحون[8]، فكيف لو كانت هٰذه الكتب كُتُبَ دين؟...» *.

* "كتاب الحيوان". ١، ٧٦ و٧٧.

والجَرِيّ في معنىٰ الوكيل، وابن فِهريز: هو حبيب، أو عبد يشوع، بن فهريز. وأمّا ثيفيل، فهو تيوفيل بن توما (من أهل القرن الثاني للهجرة) أحد المترجمين لأرسطو.

وأمّا موسىٰ بن عزرا (حوالي [٤٤٧ـ٥٢٩هـ] ١٠٥٥ـ١١٣٥م)، فقد طرح المشكلة ذاتها، وحلّها بأن روىٰ هٰذه المُلْحَة[9]:

في أيّام شبابي، وأنا في مسقط راسي، سألني، يومًا، عالمٌ ذائع الصيت من العلماء المسلمين (وكان صديقًا لي، ويُسلَك في عداد المحسنين)، وهو مُتَفَقِّهٌ في دينه، أن أتلو عليه "الوصايا العشر" باللغة العربيّة. وقد أدركت ما رمىٰ إليه: أن أتلفّظ بها وهي فاقدةٌ بلاغتها في العربيّة!

فسألته أن يتلو عليّ أولىٰ سُوَر القرآن باللاتينيّة (التي كان يتكلّمها وهو علىٰ معرفةٍ عميقة بها)[10]. فحاول، ولٰكن جاءت عبارته ناقصةً جدًّا، ومفتقِدَةً ألَقَ العبارة الأصليّة[11].

وكان أن تبيّن ما وراء قولي، فلم يعد إلىٰ طلبه بعد ذٰلك أبدًا.

ونظرًا للصعوبات التي تكتنف عمليّة الترجمة، نُدرك أنّ أفضل الكُتّاب الذين مارسوها كانوا ـ كحنين بن إسحٰق ـ يدركون مدىٰ قُصورهم الذاتي، وقد عبّروا عن ذٰلك علنًا. يقول لنا حنين، في ترجمته "كتاب في الأسماء الطبيّة" لجالينوس، أنّ هٰذا «يَذْكُر أرسطو[أرستوفان، في النصّ الإسبانيّ]. ومع ذٰلك فإنّ المخطوطة

اليونانيّة التي اَعتمدتُها لنقل هٰذا العمل إلىٰ السُّريانيّة، تشتمل علىٰ أخطاء عديدة، حتّىٰ تعذّر عليّ فهمه، لولا اَلْفَتي قبل ذٰلك لمصطلحات جالينوس، وسابقُ فهمي له، ومعرفتي لمعظم أفكاره خلال أعماله الأخرىٰ. إلّا أني لم آلف لغة أرسطو [أرستوفان]، لذٰلك لم أفهم هٰذه "الفِقْرة" فأغفلتُها. غير أنّ ثمّة سببًا آخر، هو أني ـ بعد قراءتي له ـ لم أتبيّن رأيَ جالينوس فيه. فرأيتُ أنّ الأفضل أن أدعه جانبًا، وأُواصل اَهتمامي بأمورٍ أخرىٰ تكون أكثر نفعًا».

تحديد النصّ المخصّص:

إذا افترضنا أنّ المترجم كان متضلّعًا من العلم علىٰ نحوٍ كاف، فإنّ جُودة عمله كانت تتوقّف علىٰ نوعيّة "الأصل" المتوافر، وأنّ نزوعه الفطري كان يقوم علىٰ تجميع أكبر عددٍ يستطيعه من النصوص، أو من الترجمات، للعمل ذاته، كي يؤسّس عليها ترجمته الخاصّة، التي ينبغي لها، إن أمكن، أن تتفوّق علىٰ سابقاتها. وهكذا ظهرت المكتبات العربيّة الأولىٰ حوالي الأعوام [٨١ـ١٢٠هـ] ٧٠٠ـ٧٢٠م، فإنّ الأمير الأمويّ خالد بن يزيد [ابن معاوية بن أبي سفيان] قد اهتمّ، يحدوه هدفٌ محدّدٌ، بأن يُغني موروثه من الكتب الذي آل إليه عن [جدّه] معاوية. يقول ابن النديم:

> «*كان خالد بن يزيد بن معاوية يُسمّىٰ حكيمَ آل مروان. وكان فاضلًا في نفسه، وله همّةٌ ومحبّة للعلوم. خطر بباله الصنعة [السيمياء]، فأمر بإحضار جماعةٍ من فلاسفة اليونانيّين، ممّن كان[وا] ينزل[ون] مدينة مصر وقد تفصّح[وا] بالعربيّة، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليونانيّ و[اللسان] القبطي إلىٰ [اللسان] العربي. وهذا أوّل نقلٍ في الإسلام من لغةٍ إلىٰ لغة*»* .

هذه المعلومة ترجع بأصلها إلىٰ الجاحظ، الذي كان أكثر وضوحًا، لأنه أكّد أنّ خالد كان أوّل مَن ساعد [مَوّل] المترجمين والفلاسفة، وأحاط نفسه بعلماء

* ابن النديم: "الفِهرست"، وقد فضّلنا أحدث تحقيق للكتاب (للدكتور يوسف علي الطويل، بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٩٩٦) علىٰ ما عداه، لمحاولته أن يتجاوز ما تفشّىٰ في الإصدارات السابقة من الأخطاء في كتابٍ، ضمّ فيضًا من أسماء الأعلام والأعمال.

ويظلّ اسم المؤلّف معروفًا بالكنية: "ابن النديم"، وحقّه أن يُعرف باللقب: "النديم"، فاسمه كما أجمعت المصادر: "محمّد بن إسحٰق النديم" (ت ٤٣٨هـ/ ١٠٤٧م، حسب الزركلي). ومن عجبٍ أنّ المحقّق رسم الاسم في مقدّمة الكتاب مُكنّىً: ابن النديم، على حين رسمه في صفحة العنوان بلقبه: النديم!

وخبراء في شتّىٰ أصناف "العلوم التطبيقيّة". وكان في طليعة حركة ترجمة كتب علم التنجيم والطبّ والكيمياء والفنّ العسكري والحرف والصنائع.

وقد عوّل في هٰذا الجهد علىٰ خدمات أصطفن العجوز [القديم]، الذي قد يكون أنجز ترجماته نقلًا عن اليونانيّة*.

وربّما كانت المجموعة الثانية، من الأعمال التي أَمَدَّت المكتباتِ العربيّة، قد جاءت من طليطلة، ممّا يُمكّننا من الافتراض أنها كانت مكتوبةً باللاتينيّة. ولقد رأينا - أعلاه - ما أنبأنا به ابنُ عبد البرّ بصدد المصاحف [أي مجلّدات "الكتاب المقدّس"][12].

ويُقدّم لنا ابنُ جلجل الشهادة الثالثة في هٰذا الموضوع، ويليه ابن القفطي. ويتعلّق الأمر بكتاب الطبيب الإسكندراني أَهْرُن [ابن أعيَن، القسّ] (حيًّا ٦٣٠م [السنة التاسعة للهجرة])، والذي نقله إلىٰ العربيّة ماسرجويه. فحين وجد الخليفةُ الورع عمر الثاني [ابن عبد العزيز، الأمويّ] (حُكْمه ٩٩ـ١٠١هـ] ٧١٥ـ٧١٧م) هٰذا الكتاب في مكتبته، لم يدرِ ما يفعل: هل يسمح بالاطّلاع عليه أم لا؟ «*فأمر بإخراجه ووضعه في مصلّاه، فاستخار اللهَ في إخراجه إلىٰ المسلمين للانتفاع به، فلمّا تمّ له في ذٰلك أربعون صباحًا أخرجه إلىٰ الناس وبثّه فيهم*»**. ويُلاحظ أنّ ثمّة عنصرًا أسطوريًّا في الرواية: العدد أربعون، عدد الأيام اللازمة لاتّخاذ قرار، وهو عدد

* نَعْتُهُ بالقديم تمييزٌ له عن "أصطِفَن بن بَسِيل"، الذي تلاه زمنيًّا وترجم كتاب ديسقوريدس في عهد المتوكّل العبّاسي.

** طبقات الأطبّاء والحكماء، ٦١.

وأَهْرُن القسّ من أهل الإسكندرية.

وماسرجويه الطبيب البصري (ويكتب اسمه مارسرجيس)، كان يهوديًّا سريانيًّا، عاصر الخليفة مروان بن الحكم (حكمه ٦٤ و٦٥هـ). نقل الكتاب - وهوكُنّاش في ثلاثين مقالة - عن السّريانيّة، وزاد عليه مقالتين.

الأيّام ذاتها التي قضاها المسيح في الصحراء، وعدد الشهداء الأربعين، ومدّة الأربعين يومًا التي أستغرقها الطوفان... إلخ.

يُمكننا الأفتراض ـ لأفتقاد المعطيات ـ أنّ مكتبات الإسلام أستمرّت في أغتنائها خلال النصف الآخر من هٰذا القرن [٢هـ/ ٨م]، وكان من نتيجة تولّي الأسرة العبّاسيّة زمام السلطة أن أزداد أقتناء المخطوطات، فقد كان من سياستها الحصول علىٰ أكبر عددٍ من الكتب في أسرع وقت. وهٰكذا ألتمس الخليفة المنصور (ت [١٥٨هـ] ٧٧٥م)، من إمبراطور بيزنطة ـ الذي بادر إلىٰ الأستجابة ـ أن يُزوِّده بمؤلّفاتٍ في الرياضيّات، فكان أن تمّ له التزوُّد بنصٍّ لأُقليدِس وبعض كتب الفيزياء[13]، وفي نهاية حياة هٰذا الخليفة كان قد تهيّأ للمسلمين أن يقرؤوا ترجمة نصّين، عن الفهلويّة أو عن السّنسكريتيّة، هما: "كليلة ودِمْنة" و"السّند هند"، وأربع ترجماتٍ عن اليونانيّة: كتب أرسطو في المنطق (الأورگانون)، والمِجِسطي، و"الأصول" لأُقليدِس، و"كتاب الحساب" (لنيقوماخوس؟).

وقد تابع الذين خَلَفُوا المنصور، هٰذه السياسة. فأغتنىٰ ما يقتنون بمؤلّفاتٍ أغتنموها من المدن المفتوحة، مثل أنقرة وعَمُّوريّة (أموريوم)، أو حصلوا عليها بصفة تعويضاتِ حرب، وبالمفاوضات... إلخ، مُنوِّهين في ذٰلك بجهود [الخليفة] المأمون.

تُحدِّثنا الأسطورة بأنّ هٰذا الخليفة أشتدّ شغفُه بالعلوم اليونانيّة، لحُلُمٍ كان رآه، يُقدِّم أبنُ النديم لنا عنه روايتين مختلفتين:

«انّ المأمون رأىٰ في منامه ـ يقول أبنُ النديم ـ كأنّ رجلًا ابيض اللون، مُشرَبًا حُمرةً، واسعَ الجبهة، مقرون الحاجب، اجلع الرأس، أشهل العينين، حسن الشمائل، جالسٌ علىٰ سريره، قال المأمون: وكأنّي بين يديه قد مُلئت له هيبةً!

«فقلت: "مَن أنت؟"،

«قال: "أنا ارسطوطاليس!"،

«فسررتُ به، وقلت: "أيها الحكيم، أسألُكَ؟"،

«قال: "سَلْ!"،

«قلت: "ما الحَسَن؟"،

«قال: "ما حَسُن في العقل"،

«قلت: "ثمّ ماذا؟"،

«قال: "ما حَسُن في الشرع"،

«قلت: "ثمّ ماذا؟"،

«قال: "ما حَسُن عند الجمهور"،

«قلت: "ثمّ ماذا؟"،

«قال: "ثمّ لا 'ثمّ'!"».

«وفي رواية أخرىٰ: [يتابع ٱبنُ النديم] قلتُ: "زِدْني!"، قال: "مَن نصحك في الذَّهَب [أو المذهب]، فليكن عندك كالذهب. وعليك بالتوحيد"»*.

فكان هٰذا الحُلُم ـ حسب رواية ٱبن النديم ـ هو الذي دفع المأمون إلىٰ تجميع المخطوطات اليونانيّة، عن طريق سِفاراتٍ، مُثْقَلَةٍ بهدايا ثمينة، يبتعثها إلىٰ إمبراطور بيزنطة، ملتمسًا منه تزويده بكتبٍ في الفلسفة. وقد تلقّىٰ، بعد السفارة الأولىٰ، أعمال أفلاطون وأرسطو وأبوقراط وجالينوس وأُقليدِس... إلخ. ولا بدّ أنّ هٰذه المفاوضات قد جرت قبل سقوط بغداد [!].

وهناك سفارةٌ ثانية (حوالي ٨٢٠م [٢٠٥هـ]). ربّما تكون هي التي يُشير إليها كتاب "الفهرست":

«أنّ المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات. وقد ٱستظهر عليه المأمون، فكتب إلىٰ ملك الروم يسأله الإذنَ في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدّخرة ببلدة الروم، فأجاب إلىٰ ذٰلك بعد ٱمتناع، فأخرج المأمون لذٰلك جماعةً، منهم: الحجّاج بن مطر،

* "الفهرست"، ٣٩٧.

وابن البطريق، وسلمان صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فأخذوا ـ مما وجدوا ـ ما اختاروا، فلمّا حملوه إليه أمرهم بنقله فنُقِل»*.

وكانت هناك طريقةٌ أخرى للحصول على المخطوطات: أن يَفرِض [الغالبُ] تأديتها [على المغلوب] بصفتها تعويضاتِ حرب. وتجري وقائع القصّة التالية في قبرص، أو في بيزنطة ذاتها**: طالَبَ [الخليفة] المأمون، المنتصِر، بأن تُسدَّد له نفقات الحرب كتبًا (مثلما طالب المغربي مولاي إسماعيل ـ بعد ذلك التاريخ بألف عامٍ ـ ملكَ إسبانيا كارلوس الثاني بتسليم مخطوطاتٍ عربيّة مُقابل أسرى!).

«فراسل المأمونُ ملكَ الروم... وطلب منه كتبَ الحكمة من كلام أرسطوطاليس. فطلبها ملكُ الروم [من قومه] فلم يجد لها ببلاده أثرا. فاغتمّ لذلك، وقال: يطلب منّي ملكُ المسلمين علمَ سَلَفي من يونان فلا أجده! أيّ عذرٍ يكون لي، أم أيّ قيمة تبقى لهذه الفرقة الروميّة عند المسلمين؟!

«وأخذ في السؤال.

«فحضر إليه أحدُ الرهبان المنقطعين في بعض الأديرة النازحة عن القسطنطينيّة، وقال له: "عندي علمُ ما تريد"،

«فقال له: "أدرِكْني!"،

«فقال: "إنّ البيت الفلاني في موضع كذا، الذي يَقفِل كلُّ ملكٍ عليه قفلًا إذا ملك ما فيه"،

«قال: "فيه، على ما يُقال، مال الملوك المتقدّمين، وكلُّ ملكٍ يجيء يُقفل عليه حتّى لا يُقال قد احتاج ما فيه لسوء تدبيره ففتحه!"،

* "الفهرست"، ٣٩٧ و٩٨.

** يقول ڤيرنيت إنه يقدّم القصّة ملخّصةً لأنها طويلة، ونحن قدّمناها بتمامها!

«فقال له الراهب: "ليس الأمر كذلك، وإنما في ذلك الموضع هيكلٌ كانت يونان تتعبّد فيه، قبل أستقرار ملّة المسيح. فلما تقرّرت ملّته بهذه الجهات، في أيّام قسطنطين بن هيلانة، جُمِعَت كتب الحكمة من أيدي الناس، وجُعلت في ذلك البيت، وأُغلق بابه وقَفَل الملوكُ عليه أقفالا[14] كما سمعت".

«فجمع الملك مقدّمي دولته، وعرّفهم الأمر، وأستشارهم في فتح البيت، فأشاروا بذلك.

«فأستشار الراهبَ في تسييرها، إذا وُجِدت، إلىٰ بلد الإسلام، وهل عليه في ذلك خطرٌ في الدنيا أو إثمٌ في الآخرة؟

«فقال الراهب: "سَيِّرها، فإنك تُثاب عليه، فإنها ما دخلت في ملّةٍ إلّا وزلزلت قواعدها"[15]!

«فسار إلىٰ البيت وفتحه، ووجد الأمر فيه كما ذكر الراهب، ووجدوا فيه كتبًا كثيرة، فأخذوا من جانبها ـ بغير علمٍ ولا فحصٍ ـ خمسة أحمال. وسُيِّرت إلىٰ المأمون.

«فأحضر لها المأمون المترجمين، فأستخرجوها من الرُّوميّة إلىٰ العربيّة [... وكان] بعضها تامًّا وبعضها ناقصًا. فالناقص منها ناقصٌ إلىٰ اليوم ولم يجد أحدٌ تمامه»*.

* "إخبار العلماء بأخبار الحكماء"، طبعة مصوّرة (القاهرة: مكتبة المتنبي، د. ت)، ٢٣.
وممّا قاله أبن النديم في هذه البابة أيضًا:

«سمعتُ أبا إسحٰق بن شهرام يُحدِّث في مجلسٍ عامّ:

«أنّ ببلد الروم هيكلًا قديمَ البناء، عليه بابٌ لم يُرَ قطّ أعظمُ منه، بمصراعين [من] حديد، كان اليونانيّون في القديم، وعند عبادتهم الكواكب والأصنام، يُعظّمونه، ويَدْعون ويذبحون فيه.

«قال: فسألتُ ملكَ الروم أن يفتحه لي، فأمتنع عن ذلك، لأنه أُغلق من وقتِ تنصّرت الرُّوم. فلم أزل أَرْفُق به وأراسله وأسأله شفاهًا عند حضوري مجلسه. ←

وسرعان ما اْقتدىٰ بالخلفاء ـ في سلوكهم هٰذا ـ أقرباؤهم وأتباعُهم، الذين راحوا يقتنون من المخطوطات العلميّة بما يُعادل وزنها ذهبًا! ونعرف أنه قد اْشترىٰ منها البطريق (حيًّا ٧٩٦ـ٨٠٦) والد يحيىٰ، وقسطا بن لوقا (ت حوالي [٣٠٠هـ] ٩١٢م)، وسلام الأبرش (حيًّا ٧٨٦ـ٨٠٥م) وجبرائيل بن بَختيَشوع (ت [٢١٣هـ] ٨٢٨م)، ولاسيّما الإخوة بنو موسىٰ، الذين بلغ من حرصهم علىٰ اْقتناء كتب العلوم القديمة حدٌّ أن قيل: إنّ «هٰؤلاء القوم ممّن تناهَ[وْا] في طلب العلوم القديمة،

> *وبذل[وا] فيها الرغائب، وأتعبوا فيها نفوسهم، وأنفذوا إلىٰ بلد الروم مَن أخرجها إليهم، فأحضروا النَّقَلة من الأصقاع والأماكن بالبَذْل السَّنِيّ، فأظهروا عجائب الحكمة. وكان الغالب عليهم من العلوم: الهندسة، والحِيَل [الميكانيك]، والحركات، والموسيقىٰ، والنجوم»*•.

وكان حنين بن إسحٰق مِن بين مَن قصدوا بيزنطة علىٰ نفقة بني موسىٰ، وكانت الكتب التي يقتنونها هٰكذا تتّفق وميولَهم: الفلسفة والهندسة والموسيقىٰ وعلم الحساب والطبّ.

← «قال: فتقدّم بفتحه، فإذا ذٰلك البيت من المرمر والصخر العظام ألوانًا، وعليه من الكتابات والنقوش ما لم أرَ ولم أسمع بمثله كثرةً وحُسنا. وفي هٰذا الهيكل من الكتب القديمة ما يُحمَل علىٰ عدّة أجمال ـ وكثّر ذٰلك حتّىٰ قال: ألف جمل! ـ بعض ذٰلك قد أَخْلَق، وبعضه علىٰ حاله، وبعضه قد أكلته الأَرَضة.

«قال: ورأيتُ فيه من آلات القرابين من الذهب وغيره أشياء طريفة.

«قال: وأَغلقَ الباب بعد خروجي، واْمتنّ عليّ بما فعل معي.

«قال: وذٰلك في أيّام سيف الدولة.

«وزعم أنّ البيت علىٰ ثلاثة أيّام من القسطنطينيّة، والمجاورون لذٰلك الموضع قومٌ من الصابئة الكلدانيّين، وقد أَقَرّتهم الروم علىٰ مذاهبهم وتأخذ منهم الجزية».

"الفهرست"، ٣٩٨.

• "الفهرست"، ٤٣٤.

إذن، فقد كان الآستكثار من آقتناء المخطوطات يُعَدّ أمرًا جوهريًّا، علىٰ ألّا تقتصر علىٰ فرعٍ واحد قدر الإمكان. يُحدّثنا حنين بن إسحٰق في معرض كلامه عن ترجمته كتاب "فرق الطبّ للمتعلّمين":

«قد كان ترجَمَه، قبلي إلىٰ السُّرياني، رجلٌ يقال له "آبن سهدا" من أهل الكَرْخ، وكان ضعيفًا في الترجمة. ثمّ إني ترجمتُه ـ وأنا حَدَثٌ من أبناء عشرين سنةً أو أكثر قليلًا ـ لمتطبِّبٍ من أهل جُنْدَيْ سابور يُقال له "شيريَشوع بن قطرب" من نسخةٍ يونانيّة كثيرة الأسقاط. ثمّ سألني بعد ذٰلك ـ وأنا من أبناء الأربعين سنةً أو نحوها ـ حبيشُ تلميذي إصلاحَه، بعد أن كانت قد آجتمعت له عندي عدّة نسخ يونانيّة. فقابلتُ تلك بعضها ببعض، حتّىٰ صحّت منها نسخةٌ واحدة. ثمّ قابلت بتلك النسخة السُّريانيَّ وصحّحتُه. وكذٰلك من عادتي أن أفعل في جميع ما أترجمه. ثمّ ترجمتُه من بعد سُنَيَّات إلىٰ العربيّة لأبي جعفر محمّد بن موسىٰ» *.

ويُبيّن لنا حنين أنه، لدىٰ تناوله مرّةً ثانية ترجمة "كتاب حيلة البُرء" لجالينوس، وذٰلك آستجابةً لنصيحةٍ أسداها إليه بَختيَشوع بن جبرائيل، [يقول:]

«كانت عندي، للثماني المقالات الأخيرة منه، عدّةُ نُسَخٍ باليونانيّة، فقابلتُ بها، وصحّحت منها نسخةً، وترجمتها بغايةِ ما أمكنني من الآستقصاء والبلاغة. فأمّا الستّ المقالات الأُوَل، فلم أكن وقعتُ لها إلّا علىٰ نُسخةٍ واحدة، وكانت مع ذٰلك نسخةً كثيرة الخطإ فلم يُمْكِنّي لذٰلك تخلّصُ تلك المقالات علىٰ غاية ما ينبغي.

«ثمّ إني وقعتُ علىٰ نُسخةٍ أخرىٰ، فقابلتُ بها، وأصلحتُ ما أمكنني إصلاحه. وأخلو إلىٰ أني أُقابل به ثالثةً، إن آتّفقتْ لي

* الدكتور عبد الرحمٰن بدوي، "دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب" (بيروت، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ١٩٨١)، ١٥١.

*نُسخةٌ ثالثة. فإنّ نَسَخ هٰذا الكتاب باليونانيّة قليلة، وذٰلك أنه لم يكن مّما يُقرأ في كُتّاب [مدرسة] الإسكندريّة...»** .

وأمّا يحيىٰ بن عُدَي، في آخر شرحه للمقالة الصغرىٰ من كتاب "ما بعد الطبيعة" لأرسطو، فإنه يقول لنا: هٰذا الفصل (أي الأخير) لا يوجد إلّا في ترجمة إسحٰق بن حنين، ولم أجده لا في الترجمات السُّريانيّة ولا في ترجماتِ كُتّابٍ عرب آخرين. فهو ليس فصل الخاتمة للكتاب. ويبدو لي أنه ـ علىٰ النقيض من ذٰلك ـ البدايةُ لكتاب المقالة الكبرىٰ، إذ يتطابق معه ويتّفق ومعناه. ويعني ذٰلك أنه كان يُدرك إدراكًا تامًّا أبعاد العلاقة التي كانت تربط ما بين النصوص التي بين يديه.

فإذا لم يتوافر نصٌّ قد وضع علىٰ نحوٍ سليم، أمكن اللجوء إلىٰ المقارنة، من خلال ترجماتٍ أخرىٰ. وقد عبّر حنين بن إسحٰق عن وجهة نظرٍ "حديثةٍ جدًّا"، لدىٰ توضيحه لنا كيفيّة إنجازه ترجمة "كتاب حيلة البرء" (الذي ترجمه جيراردو الكريموني تحت اسم *De ingenio sanitatis*)، وذٰلك حين يقول إنّ من الأفضل للمرء أن يُترجِم ترجمةً مباشرةً علىٰ أن يُصحّح ترجمةً قام بها كاتبٌ عديم الخبرة:

> *«وقد كان تَرجَم هٰذا الكتابَ إلىٰ السُّريانيّة سرجِس، فكانت ترجمته الستُّ المقالاتِ الأُوَلَ وهو بعدُ ضعيفٌ لم يقوَ في الترجمة. ثمّ إنه ترجم الثماني المقالات الباقية مِن بعد أن تدرَّب، فكانت ترجمته لها أصلحَ من ترجمته المقالات الأُوَل.*
>
> *«وقد كان سَلْمَويه أَذْأَرَني [آلجَأني] علىٰ أن أُصلح له هٰذا الجزء الثاني، وطمح أن يكون ذٰلك أسهلَ من الترجمة وأجود. فقابلني ببعض المقالة السابعة: ومعه السّرياني ومعي اليوناني، وهو يقرأ عليّ السّريانيّة، وكنتُ كلّما مرّ بي شيءٌ مخالفٌ لليوناني خبّرتُه به. فجعل*

* "دراسات ونصوص..."، ١٥٨ و٥٩.

يُصلح، حتّىٰ كَبُرَ عليه الأمر، وتبيّن له أنّ الترجمة من الرأس أرخىٰ وأبلغ، وأنّ الأمر يكون أشدّ أنتظاما!

«فسألني ترجمةَ تلك المقالات، فترجمتُها عن آخرها. وكنّا بالرَّقّة في أيّام غزوات المأمون. ودفعها إلىٰ زكريّا بن عبد الله ـ المعروف بالطِّيفوري ـ لمّا أراد الأنحدار إلىٰ مدينة السلم [السلام] لتُنسخ له هناك، فوقع حريقٌ في السفينة التي كان فيها زكريّا، فأحترق الكتاب ولم يبقَ له نسخة»• .

لقد أتُّبع المنهجُ ذاته في الغرب. فقد عمد اليهودي تيمون **Themon** (حيًّا ١٣٦٠م [٧٦١هـ]) ـ عندما عَجَز عن فهم النصّ الذي ترجمه جيرادرو الكريموني لكتاب أرسطو "الآثار العُلْويّة "ـ إلىٰ أن يُقارنه بالترجمة التي أنجزها گيّيرمو دي موئيربيكه عن اليونانيّة مباشرةً (حوالي ١٢١٥ـ١٢٨٦م)، لأنه يراها أفضل من الأولىٰ ويؤثرها لأجل عمله المسمّىٰ "أسئلة حول الأجزاء الأربعة للآثار العلوية" *Questiones super quatuor libros Meteorum*. ولمّا حصل جيرادرو دوبْرُوي علىٰ ترجمتَي كتاب أرسطو في علم الحيوان ـ ولم يكن هناك غيرهما آنئذ ـ وهما، الترجمة العربيّة ـ اللاتينيّة لميگيل إسكوتو [الإسكتلندي مايكل سكوت]، والأخرىٰ اليونانيّة ـ اللاتينيّة لگيّيرمو دي موئيربيكه، عمد إلىٰ الجمع بينهما كي يشرع في عمله. وقد أدّىٰ "عدمُ الرضا" هٰذا إلىٰ توالي إنجاز ترجماتٍ جديدة لا يفصل بين الواحدة والأخرىٰ زمنيًّا سوىٰ بضع سنين، مثلما أتّفق لكتاب "مدخل إلىٰ علم التنجيم" *Introductorium* لأبي معشر، الذي ترجمه أوّلًا يوحنّا الإشبيلي (١١٣٣م [٥٢٧هـ])، وتلاه هرمان الدلماتي في ترجمةٍ أقلّ تقيُّدا.

وهناك طريقةٌ أخرىٰ: أن يُقدَّم، الأصلُ والترجمةُ معًا، نصّين متقابلين، أو أن يُدرَج سطرٌ من الأصل وسطرٌ من الترجمة، بالتتابع، كما هو متّبع، بشكلٍ أساسي،

• "دراسات ونصوص..."، ١٥٨.

في النصوص التي تنطوي على قيمةٍ دينيّة، كالكتاب المقدّس والقرآن. وبذلك تُتجاوَز المحاذير التي أشار إليها موسى بن عزرا[16]، ذلك أنّ قارئ النصّ ـ الذي نفترض فيه امتلاك قدرٍ كافٍ من المعرفة ـ يكون في مستطاعه، على الدوام، أن يحكم على قيمة الترجمة. وقد انتقل هذا الأسلوب من ترجمة النصوص المقدّسة ليُعمَل به في الأدبيّات العلميّة، وإنّ في متناول أيدينا مخطوطاتٍ عديدةً لأرسطوطاليس تُقدِّم، على أساس التقابل أو التتابع، سطرًا فسطرًا، ترجمةً يونانيّة ـ لاتينيّة وأخرى عربيّة ـ لاتينيّة.

وثمّة نظامٌ ثالث: أن يُعطي المترجمُ قراءاتٍ مزدوجةً تُقدِّم معادلاتٍ مختلفةً لمصطلحٍ واحد بعينه. وهكذا يقول روبير گروسْتيسته، في شرحه لكتاب "التراتُب السماويّ" لديونيسيوس ـ الزائف: «فَلْينتبه القارئ إلى أننا حين نقول: "esto o eso" (هذا أو ذاك)، لا نعني بهما شيئين متميِّزين، بل نقصد أنّ الكلمة اليونانيّة ذاتها قد يكون لها، في ذهن المؤلِّف، معانٍ مختلفة».

فنّ الترجمة:

بعد الفراغ من مسألة تحديد النصّ الممحَّص، يبدأ الاستعداد لعمليّة الترجمة.

ولقد كان، هنالك في المشرق، فئتان من "الناشرين" محدَّدتان على نحوٍ واضح: أُولاهما الدولة، ممثَّلةً بالخليفة، ولها تنظيمٌ خاصّ يتمركز في "بيت الحكمة" الذي أُسِّس في مطلع القرن التاسع الميلادي [٣ هـ]، والثانية تتمثَّل بالأفراد ممّن يحتضنون العلم، وهم أحيانًا من المتبحّرين في العلوم، أمثال بني موسى الذين كانوا يتأثّرون خطى ما كان جاريًا في البلاط.

ولا يبدو أنّ تنظيمًا من هذا القبيل قد وُجِد في إسبانيا: لا في العهد الإسلامي ولا في العهد المسيحي. وإنّ رعاة العلوم [والفنون] فيها، الذين ظلّوا يُزاولون رعايتهم هذه في مختلف المراحل التاريخيّة (الحَكَم الثاني، بنو ذي النون في

طليطلة، المعتمد الإشبيلي، المطران دون رايموندو **Don Raimondo**، ألفونسو العاشر)، لم ينتهِ بهم الأمر إلىٰ إنشاء مؤسّساتٍ تؤدّي هٰذه المهمّة. ويبدا أنهم حافظوا علىٰ تلك الطريقة، التي تروي لنا النصوصُ العربيّة أنه كان معمولًا بها في العهد القوطي، وهي ذاتها النموذج الذي اتّبعه المعجميّ أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن محمّد بن هانئ الأندلسي.

ولقد كان اختيارُ المترجم، وأسلوب انجاز الترجمة، مُشابهَين، وعلىٰ نحوٍ غريب، لما هو عليه الحال في عصرنا هٰذا! كان الناشر (أمين التحرير) يَختار أحد المترجمين ـ الذي غالبًا ما يكون منتميًا إلىٰ "الدّار" وذا شهرةٍ مشهودة ـ ويَعْهد إليه بالترجمة. فإذا كان هٰذا المترجم مُثْقَلًا بالعمل، حَوّل الطلب إلىٰ مترجم آخر أو إلىٰ "مساعد" له. فحين كان وقتُ حنين بن إسحٰق يكتظّ بالعمل، يتنازل عمّا يُعهد إليه من ترجمةٍ إلىٰ "قيضا الرّهاوي"، وإذن فقد كان يتولّىٰ الترجمة أحيانًا مَن تنقصهم الخبرة في الموضوع المترجَم، فلم يكن بدٌّ من أن يُكِبّ عليها المترجم "الرسميّ"[17] في تصحيح وتنقيح، حتّىٰ إذا تلقّاها الناشرُ، وهي علىٰ هٰذه الصورة، عَهِد إلىٰ كاتبٍ متمكّن لتصحيح الأسلوب. وتلك هي ـ إن أحببنا ـ المَهمّة التي نهض بها ألفونسو العاشر، الحكيم، في شأن "كتب المعرفة بعلم الفلك"، وذٰلك أيضًا ما قام به، بين الحين والحين، جيراردو الكريموني في كتبٍ عدّة. وغنيٌّ عن البيان أنّ أفضل النُّسّاخ كان ذاك الذي يمتلك المعرفة بالموضوع المستنسَخ ـ مثل ابن الهيثم [البصري] في ميدان الرياضيّات ـ وكذٰلك الأمر بالنسبة للمترجم الحقيقي. ولذٰلك بدت الترجمات اللاتينيّة لقسطنطين الإفريقي ـ وكان طبيبًا ـ أفضل حالًا من ترجمات الأعمال ذاتها التي أنجزها، بعد مئة سنة، جيراردو الكريموني، الذي كان لُغويًا.

ويُلخّص موسىٰ بن عزرا، في سطرين اثنين، ما يتوجّب علىٰ المترجم عمله: إمعان النظر في المعنىٰ، وتحاشي الترجمة الحرفيّة، فاللغات تختلف في نحوها وصَوْغ كلامها.

وقد قام صلاح الدين الصفدي، بتحليل كلا المنهجين، في كتابه "غيث المُسَجَّم..."، فهو يقول لنا:

> أنّ طريق يوحنّا بن بطريق وأبن النّاعمة الحمصي وغيرهما، كانت تقوم على «أن ينظر (المترجم) إلى كلّ كلمةٍ مفردة من الكلمات اليونانيّة وما تدلّ عليه من المعنى، فيأتي الناقل بلفظةٍ مفردةٍ من الكلمات العربيّة تُرادِفها في الدلالة على ذلك المعنى فيُثبتها، وينتقل إلى الأخرى كذلك، حتّى يأتي على جملة ما يريد تعريبه. وهذه الطريقة رديئةٌ لوجهين: أحدهما (أنّ المترجمين آنئذ لم يجدوا ألفاظًا عربيّة) تقابل جميع الكلمات اليونانيّة (ولذا أستخدموا الكلمات اليونانيّة بألفاظها)، الثاني: أنّ خواصّ التركيب والنسب الإسناديّة (وأستخدام المجاز يختلف من لغة إلى أخرى).
>
> «والطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن إسحٰق والجوهري وغيرهما. وهو أن يأتي (المترجم) إلى الجملة فيحصّل معناها في ذهنه، ويُعبّر عنها من اللغة الأخرى بجملةٍ تطابقها، سواءٌ ساوَتْ الألفاظ أم خالفتها. وهذه الطريق أجود. ولهذا، لم تحتج كتب حنين بن إسحٰق إلى تهذيبٍ إلّا في العلوم الرياضيّة، لأنه لم يكن قيّمًا بها، بخلاف كتب الطبّ والمنطق الطبيعي والإلهي، فإنّ الذي عرّبه منها لم يحتج إلى إصلاح ولا إلى المراجعة. وأمّا (ترجماته لأقليدس وللمِجِسطي، ولكتبٍ أخرى بين هذه وتلك، فقد صحّحها ثابت بن قرّة الحرّاني)»*.

إنّ هذه الرواية الأخيرة تكتسب أهمّيّةً خاصّة، من ناحية أنّ قُصور [حنين] في

* صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ/ م): "الغيث المُسَجَّم في شرح لاميّة العَجَم". ط ٢ (بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٩٩٠) ١: ٧٩. وما بين (قوسين) فيه تعديل طفيفٌ من عمل ڤيرنيت.

هٰذا الضرب من النصوص جعلته يدفع بأبنه [إسحٰق] إلىٰ الدراسة علىٰ يد ثابت بن قرّة، فغدا خبيرًا مثله في الرياضيّات. ذٰلك، علىٰ الأقلّ، هو أبسط أنطباع يُمكن أن نخرج به ممّا يقوله لنا نصير الدين الطوسي في توطئته لتحرير كتابه "الكُرَة والأسطوانة":

«إني كنت في طلب الوقوف علىٰ بعض المسائل المذكورة في كتاب "الكُرَة والأسطوانة" لأرشميدس، زمانًا طويلًا، لكثرة الأحتياج إليه في المطالب الشريفة الهندسيّة، إلىٰ أن وقعتْ إليّ النسخةُ المشهورة من الكتاب، التي أصلحها ثابت بن قرّة، وهي التي سقط عنها بعض المصادرات، لقصورِ فهم ناقِلِه إلىٰ العربيّة عن إدراكه، وعجزه بسبب ذٰلك عن النقل، فطالعتُها.

«وكان الدفتر سقيمًا لجهل ناسخه، فسدّدته بقدر الإمكان، وجَهَدْتُ في تحقيق المسائل المذكورة فيه، إلىٰ أن أنتهيت إلىٰ المقالة الثانية، وعثرت علىٰ ما أهمله أرشميدس من المقدّمات مع بناء بعض مطالبه عليه، فتحيّرت فيه، وزاد حرصي علىٰ تحصيله، فظفرت بدفترٍ عتيق فيه شرح أوطوقيوس للعسقلاني لمشكلات هٰذا الكتاب، الذي نقله إسحٰق بن حنين إلىٰ العربيّة نقلًا علىٰ البصيرة. وكان في ذٰلك الدفتر أيضًا متنُ الكتاب، من مصدره إلىٰ آخر الشكل الرابع عشر من المقالة الأولىٰ أيضًا من نقل إسحٰق، وكان ما يذكره أوطوقيوس في أثناء شرحه من متن الكتاب مطابقًا لتلك النسخة...»*.

وكثيرًا ما أستُخدِمَت، علىٰ أمتداد عهود تاريخ الترجمة، لغةٌ وسيطة. يُحدّثنا

* "كتاب الكُرَة والأسطوانة" لأرشميدس، تحرير نصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢هـ) (حيدر آباد الدكن ـ الهند، دائرة المعارف العثمانيّة، ١٣٥٩هـ [١٩٤٠م])، ص ٢.

البيروني، في القرن الحادي عشر [٥ هـ]، في معرض كلامه عن الترجمات المنجزة انطلاقًا من السنسكريتيّة، أنّ الفزاري وابن طارق (وقد عاشا في أواسط القرن الثامن [٢ هـ]) سمعا أستاذهما الهندي يقول إنّ حساب دوران الكواكب، الذي كان يتحدّث عنه، هو حساب سددهانتا الكبير، في حين يعطي آريابهاطيّا[18] جزءًا من ألف من هذه الأرقام. ومن هنا استنتجا [خطأ] أنّ آريابهاطا [اسم المؤلّف] تعني "واحدًا من الألف [مليم]".

وقد استخدَم منهج الترجمة الوسيطة، فيمن استخدمه في إسبانيا، جيرادو الكريموني، وميگيل إسكوتو، ودانييل دي مورلي (حيًّا ١١٨٠م)، وهرمان الألماني (ت ١٢٧٢م)، وآخرون، ساعدهم مستعربون [من المسيحيّين الذين يعيشون في المجتمع الأندلسي]، ومسلمون[19]، ويهودٌ نعرف أسماءهم (غالب، وأبو طوس... إلخ). وكثيرًا ما وُسِمَتْ هذه الترجمات بمياسم من اللغة الوسيطة (السُّريانيّة، الرُّومنثيّة)، كان لها أن تُمكّننا ـ عندما لا تنِمّ على ذلك الحواشي أو استهلالاتُ المخطوطات أو المصادرُ الأدبيّة[20] ـ من أن نكتشف الطريقة التي اتُّبعت [في الترجمة]، تلك التي تتجلّى لنا، فضلًا عن ذلك، في منحاها المتحذلق، أو المبسّط.

هذا وقد اتّبع المنهجَ ذاته، استخدامَ لغةٍ وسيطة، في القرن الماضي، مترجمون عربٌ كانوا يرغبون في وضع العِلم الغربيّ في متناول مواطنيهم. يقول جورجي زيدان[21] *إنّ يوحنّا [حنين] عَنحوري «كان ضعيفًا باللغة الفرنسيّة ومتمكّنًا من اللغة الإيطاليّة، فكان ينقل من هذه إلى العربيّة. فإذا كان الكتاب مؤلّفًا في اللغة الفرنسيّة، ترجموه له إلى الإيطاليّة أوّلًا، ثمّ ينقله إلى العربيّة»**. وكان يراجع ترجمته، فيما بعد، لغويٌّ عربيٌّ على معرفةٍ جيّدة بموضوع الكتاب، وبعد هذا الإجراء الأخير يُسلّمها للناشر، الذي يُحيلها إلى مصحّح المطبعة.

* جرجي زيدان، "تاريخ آداب اللغة العربيّة"، (بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٣)، المجلّد الثاني، ٥٣٤. وورد في "أعلام" الزركلي أنه توفّي في ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٥م.

وكان بَدَهِيًّا أن تختفي، بوجه العموم، مياسم اللغة الوسيطة، عندما تتمّ الترجمة إلىٰ إحدىٰ اللهجات العامّيّة الإسبانيّة (القشتاليّة، أو القَطَلونيّة)، ويكتسب الأسلوبُ سلاسةً وعفويّة.

أُخطاء الترجمة:

تمدُّنا المقارنة، بين ترجماتٍ مختلفة لكتابٍ ما، بمعلوماتٍ تتعلّق بخصوصيّاتها وبشخصيّة أصحابها ومنهجهم في العمل، وفي ذٰلك كلّه يُعَدّ، تحليل ما يتَّفِق وقوعُه فيها من أخطاء، أمرًا أساسيًا.

هناك نوعٌ، ممّا يقع من الأخطاء أحيانًا، يكون المترجم فيه بريئًا منه كلّ البراءة: تلك التي تنجُم عن اضطرابٍ في ترتيب صفحات [المخطوطة ـ الأصل] أو في طَيِّها من قِبل مجلِّدٍ قليل الحذر. ذٰلك ما وقع غير ما مرّة في مخطوطات عديدة: لدىٰ ترجمة "المِجِسْطي" لحنين بن إسحٰق، مثلًا، أو في "رسالة في سلوك الأمراء" للرجروي (وكلاهما كتابان ممّا تضمّه مكتبة الإسكوريال)، أو "المقتبس" [لابن حيّان الأندلسي] في مخطوطة المكتبة الملكيّة للتاريخ[22].

علىٰ أنّ الأخطاء الأشدّ خطورةً، والتي تستعصي علىٰ الاكتشاف، هي تلك الصادرة عن المترجمين أنفسهم. ويُرَدّ معظمها إلىٰ سوء القراءة. وهٰكذا فإنّ يوحنّا الإشبيلي، لدىٰ ترجمته كتاب قسطا بن لوقا [البعلبكي] المسمّىٰ "الفصل بين الروح والنفس"، قرأ جملة: «الصياغة علّة حركة الصائغ» علىٰ هٰذا النحو: «الصناعة علّة حركة الصانع»، فترجمها علىٰ هٰذه الصورة: **«magisterium est causa motus magistri»**. أمّا جاكوبو [يعقوب] البندقيّ [نسبة إلىٰ مدينة البندقيّة]، فلدىٰ ترجمته كتاب الميتافيزيقا، بدلًا من أن يترجم فيقول: استخدم أناكساگوراس العقل بوصفه آلةً لتشكيل العالَم»، كتب ما يلي:

«Anaxagor enim mechico (mexane) id est adultero utitur intellectu ad mundi creationem»

ويقع، أحيانًا، مزج كلمتين [أو أكثر] فتصبحان كلمةً واحدة، كما يُشير إلىٰ ذٰلك ڤان ريت. فعبارة "necesse est [من الضروري]" تُكتب بالعربيّة "فلا بُدَّ أن"، ولٰكن إذا قرأنا هٰذه الكلمات [العربيّة] الثلاث علىٰ أنها كلمة واحدة فإنّ هٰذه المكوّنات "تتجمّع" معًا وتصبح "فلأبْدان"، وهٰكذا قرأها جاكوبو البندقيّ [مع الضمير المتّصل]: "فَلِأبْدَانِها" وترجمها بكلمة corporibus [أَبْدان، واحدها بَدَن]!

وتنجُم هٰذه الأخطاء عن القراءة المتسرّعة المفرطة في سرعتها. وكثيرًا ما تقع في أسماء الأعلام، ولا سيّما أنّ المخطوطات اليونانيّة الأصليّة لم تكن تستعمِل أحرف البداية، وهي ممّا يجهله العرب تمامًا. ولمّا كانت الكتابة العربيّة تتمتّع بخصوصيّتها (نقاط بسيطة تفرّق بين الحروف: ف، ق، ب، ت، ن، ث، ي)، أمكن التوقّع أن تعتري المترجمين اللاتينيّين الحيرةُ التامّة [بإزاء ذٰلك] مهما بالغوا في الاَحتراس. وهٰكذا فإنّ اَسم كتاب "التّقانة!" ـ المنسوب إلىٰ اَبن وحشيّة في الكتاب المسمّىٰ *Picatrix* ـ يجدر النظر إليه علىٰ أنه تحريفٌ [للكلمة العربيّة] "الطبقة" [ت ق ن؛ ت ب ق!] وغالبًا ما كان النُّسّاخ اللاتينيّون يقعون في الأخطاء ذاتها، بسبب عدم اَستيعابهم للاَختصارات في النصوص التي كانوا ينقلونها؛ فكلمة **substantia** تصبح: **sententia** و**numeri** تصبح: **nervi**... إلخ.

وأمّا التحريف في أسماء الأعلام فمردّه إلىٰ ثلاثة أسباب رئيسة: أوّلًا: سوء القراءة بسبب رداءة الخطّ في الأصل (فيدون تصبح: كادون، ومينيلاو: ميلوس...)؛ وثانيًا: التغييرات الصوتيّة التي تخصّ اللهجات المنطوقة في كلّ إقليم (اَبن رشد يصبح: افرّويس، واَبن سينا: آفيسينا، وحنين: خواَنّيتيوس، ومحمّد: ماهوما، والبِيروني: آثاروني...)؛ وثالث الأسباب: ضعف الثقافة (كأن يترجم اَسم المكان **Pireo** بالاَسم **fuego**، أي: نار!).

وتتردّد الأخطاء، كذٰلك، في نقل الأعداد مهما كان النوع المستخدم، سواء في

الأرقام العربيّة بسبب الأضطراب الواقع في رسمها، أو في الحروف المستخدمة بقيمة عدديّة، بسبب الأختلاف بين الألفباء المشرقيّة والمغربيّة (مثلًا: ٦٠ = س = ص، ٩٠ = ص = ض، ٣٠٠ = ش/ س، ٨٠٠ = ض/ ظ، ٩٠٠ = ظ/ ج، ١٠٠٠ = ج/ ش...)*، أو بسبب الطريقة التي كانت تُتّخذ في كتابة الأرقام الرومانيّة في القرون الوسطىٰ[23].

ويُقرأ النصّ الأصلي، أحيانًا، قراءةً خاطئة تبعًا لفكرةٍ مسبقة. وحسبنا أن نوضح ـ أنموذجًا لهٰذا النوع من الألتباس ـ ما أتّفق وقوعه للمستشرق الكبير جوزيف هوروفِتز **Josef Horovitz** مع أحد تلامذته؛ كان، هٰذا الأخير، موقنًا بأنّ "أُسقُفِيّةً" ما كانت قائمةً [في بلاد الشام] في العهد الأُموي. ذٰلك أنه وقف علىٰ نصٍّ [عربيٍّ] قرأه علىٰ هٰذا النحو: «بيتٌ لأُسقُفٍ عليه»، ولم يتبيّن أنّ الألف ـ التي دعّمها هو بالضمّة [فأصبحت أُ] ـ لا تُشكّل جزءًا من كلمة أُسقف [لِأُسقُف]، ولٰكنها [ـ هٰذه الألف ـ] تُشكّل، مع اللام التي سبقتها، أداةَ النّفي: "لا"، فيصبح النصّ: «بيتٌ لا سَقْفَ عليه»، وإنه لمعنًىٰ يختلف الأختلافَ كلّه عمّا قرأ!**

* كانت حروف الهجاء، في العربيّة، يختلف ترتيبها في المشرق عنه في المغرب والأندلس، في نصف عددها، تلك الحروف التي تقع في الوسط تقريبًا. فترتيبها في المغرب كان علىٰ هٰذا النحو:

أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز

ط ظ ك ل ص ض ع غ ف ق س ش (موضع الأختلاف)

هـ و ي

ونحبّ أن نُشير إلىٰ أنّ أبا الخير الإشبيلي، قد رتّب المفردات النباتيّة، في كتابه "عُمدة الطبيب في معرفة النبات"، حسب الطريقة المغربيّة.

** في مجال النسخ وأعمال الوِراقة، عرَف العرب بنوعين من هٰذه "الأخطاء" التي يقع فيها النُّساخ أو القراء: التحريف والتصحيف. وقد صُنّفت كتبٌ كثيرة دارت حول دلالة هٰذين المصطلحين في مجال التأليف والوِراقة، وتعدّدت التعريفات بأختلاف المؤلّفين الذين تناولوا هٰذا الموضوع.

ويمكن القول بأنّ التحريف خاصّ برسم الحروف المتقاربة الصورة، كالألتباس الذي يقع في مثل هٰذه الكلمات: الوجوم والرجوم، السرور والشرود، يتحرّك ويتحوّل... ←

وإلىٰ هٰذا النوع، من الرغبات اللاشعوريّة [التي تدفع إلىٰ التحريف عمدًا]، يَدين بالاَحترامُ، الذي كان العالِمُ المسيحيّ يُكِنّه لِڤيرخيليو Virgilio [المتوفّىٰ سنة ١٩ قبل الميلاد] ـ وقد كانت تُنسب إليه قصيدةٌ رعويّة متعلّقة بالمسيح ـ وللمنجّم المُسلم أبي مَعْشَر. وآية ذٰلك أنّ كلًّا من يوحنّا الإشبيلي (في عام ١١٣٣م [٥٢٧هـ]) وهرمان دي كارينْتيا Hermann de Carintia (في ١١٤٠م [٥٣٤هـ])، لدىٰ ترجمتهما "كتاب المدخل الكبير" (*Introductorium maius*) لأبي معشر، جعلاه يقول ـ في فقرةٍ، في الجزء السادس، تلك التي تتناول الدرجاتِ التنجيميّةَ العشرَ من برج العذراء ـ ما لم يكن ليخطر علىٰ باله قطّ.

ويجدر بنا أن نستعرض، أدناه، [الفُروق في] كلتا الترجمتين، مُقابِلين بينهما فِقْرةً فِقرة*(24).

← وأمّا التصحيف فهو الاَلتباس في نُقَط الحروف المتشابهة في الشكل: تمر وثمر، ذاتية وداتية، اَحترازٍ واَجترار...

وقد يجتمع التحريف والتصحيف معًا في الكلمة الواحدة، مثل: اَستخفاء واَستحقاق، ليس بخاف وليس بخائن...

• ورد نصّا الترجمتَيْن، في كتاب ڤيرنيت، باللاتينيّة. ونحن نقلناهما إلىٰ العربيّة عن طبعة الكتاب بالفرنسيّة. وتجدر الإشارة إلىٰ أنّ ما نورده، في النصّ الآتي، من كلمات ـ حرصنا علىٰ تنضيدها بالحرف المائل، حسب حاشية ڤيرنيت (24) ـ هو ما أُضيف إلىٰ النصّ الأصلي العربي في الترجمة التي أنجزها هرمان دي كارينتيا.

ترجمة يوحنّا الإشبيلي (١١٣٣م)	ترجمة هرمان دي كارينتيا (١١٤٠م)
في وجهها الأوّل، تَطْلُع	في الدرجة الأولىٰ من دائرة البروج، مثلما **يقول الفرسُ والكلدانيّون والمصريّون، كلّ أولٰئك الذين علّمهم الأميران هرمس وأستاليوس في العصور الأولىٰ، تَطْلُع**
فتاةٌ شابّةٌ نُسمّيها سلشيوس داروستال[25]	فتاةٌ شابّة، اَسمُها الفارسي سكليوس دارزامة، وبالعربيّة [عذراء نظيفة]، أي عذراء أنيقة،
وهي عذراء، نبيلةٌ وأنيقة	أقول فتاةٌ شابّة **عذراءُ غير مدنّسة**، جسمُها رشيق، وجهُها ساحر،
شعرُها طويل، ووجهُها جميل	**هيأتُها ذات حشمة**، شعرُها طويل، تَزِين يديها أحجارٌ كريمة، وهي تجلس علىٰ عرش،
وتُرضِع طفلَها في حضنها، في مكانٍ اَسمه أبري، وهٰذا الطفل تُسمّيه بعضُ الشعوب يسوع، وترجمتُه بالعربيّة عيسىٰ.	وتُرضِع في حضنها طفلًا، في مكان اَسمه هِبْرِينا، طفلٌ إذن تُسمّيه بعضُ الشعوب يسوع ـ ويُريدون بذٰلك عيسىٰ ـ ونُسمّيه نحن باليونانيّة المسيح. ويَطْلُع مع هٰذه العذراء رجل جالس علىٰ العرش ذاته، **ولٰكنه لا يمسُّها**.

إنّ هٰذا النصّ، المفهومَ علىٰ هٰذا الوجه، يُصوِّر مسبقًا صعود العذراء، وقد ساعد علىٰ أن يجعل قراءة النصوص الإسلاميّة أكثرَ قبولًا، كما أنه اَندرج في "رواية الوردة"، وربّما يكون قد أسهم في تحديد [تاريخ] الاَحتفاء بذكرىٰ العيد [صعود العذراء] في ١٥ آب [أغسطس].

وهناك نوعٌ آخر من الأخطاء [في الترجمة]، يتمثّل في تلك التي يُعْمَد إليها تلطيفًا لما يكون في النصّ من فِقْرات تبدو غيرَ سائغة للأخلاقيّين المسيحيّين؛ وقد رأينا، حالًا، مثالًا علىٰ ذٰلك فيما يتعلّق بالعذراء، بإغفال كلمة "غانية" في نصّ يوحنّا الإشبيلي أو في تبديلها عند هرمان دي كارينْتيا. وقد عمد يوحنّا الإشبيلي، في ترجمته لـ "كتاب النُّكَت" *Flores*، إلىٰ أن يُلخّص العبارة العربيّة "الخِصيان والنساء والجواري" بعبارة **mulierum sponsalium**، وأغفل، هو نفسه، إيراد فِقْرةٍ طويلة من "مدخل إلىٰ علم التنجيم"، لأنها تتحدّث عن تأثير النجوم في تنامي الحبّ وتَصِف مضاعفاته؛ بينما اَحتفظ مترجمون آخرون بهٰذه الفِقْرة، مُلطِّفين إيّاها حسبما أَمْلَت عليهم أمزجتُهم الخاصّة. وقد اَتّبع العرب المعيار ذاته، فقد حذف المأمون، مثلًا، فصلًا كاملًا من ترجمة الكتاب السّنسكريتيّ في الطبّ لـ"شاناق" أنجزها الجوهري، وذٰلك لأنه رأىٰ فيه مساسًا بالأخلاق.

وتُعَدّ صِيَغ التعبير عن المصطلحات العلميّة، ذات دلالةٍ بالغة. فعندما تتوافر هٰذه المصطلحات في لغةٍ ما علىٰ حين تُفتقد في لغة أخرىٰ، تطرأ علىٰ هٰذه الأخيرة سلسلةٌ من التقلّبات قبل أن تفرض كلمةٌ ذاتَها علىٰ نحوٍ لا جدال فيه؛ مثال ذٰلك: اَستخدام هٰذه الكلمات في اللغة الإسبانيّة المعاصرة: **ordenador** [ناظم]، أو **computador** [حاسوب]، أو **cerebro electrónico** [عقل إلكتروني]، وأيضًا المفاهيم المتباينة، التي كان علماء الرياضيّات في القرن الثامن عشر يُكوّنونها عن كلمة **función** [دالّة، تابع...]؛ وعدم اَستقرار مصطلح "حساب متناهي الصغر"، إلىٰ أن اَكتشف كوشي قيمته بصورةٍ دقيقة؛ والاَختلاف بين العناصر المميّزة والأجسام في السيمياء (فالكبريت، وعنصر الكبريت، لم يكونا الشيء ذاته).

إنّ المترجم، إذا ما عرف بشكلٍ دقيق ما تَعنيه الكلمة التي هو بصدد ترجمتها، اَلتمس لها، عادةً، مقابلًا مناسبًا، في صورة كنايةٍ أو غيرها؛ فالكلمتان اليونانيّتان diagnosis وprognosis، اَنتقلتا إلىٰ العربيّة في عبارتَي "تشخيص" و"تَقْدمة المعرفة" [إنذارات] ، وكلمة batrakhos أصبحت "ضفدعة" وفي اللاتينيّة ranula. وقال جيراردو الكريموني، لدىٰ ترجمته لاَبن سينا: «إنّ نهاية العصب البصري تُغلّف الجسم الزجاجيّ كشبكة reta»، فاَبتكر بذٰلك الكلمة التي شاعت retina.

وكانت الكلمات المتشابهة لفظًا سببًا في اَلتباسٍ متكرّر وتبدُّلٍ في الدلالة. وهٰكذا، فإنّ العدد الأصمّ [اللامعقول] ـ مثلًا ـ يُسمّىٰ باليونانيّة alogos، أي لامنطقي أو خالٍ من العقل، ولمعادل هٰذه الكلمة بالسُّريانيّة معنيان: خالٍ من العقل وفاقد الكلام، وبالمعنىٰ الأخير وردت في إنجيل مرقُس (٩) للدلالة علىٰ الأصمّ الأبكم. ومن العربيّة، تَرجَم هٰذه الكلمةَ، كلٌّ من روبيرتو الكتيني في كتاب *liber algebræ et almucabola* [الجبر والمقابلة] وجيراردو الكريموني في كتاب *scientiis*، بكلمة surdus، أي: أصمّ. وأخيرًا، قال گونديسّالينوس في ترجمته لكتاب الميتافيزيقا لاَبن سينا (٣ و٤): «*ما لا يتوافر في ذاته اليقين، لا يُمكنه أن يتّصف بانه أوّل، قابل للقسمة، كامل أو غير كامل بسبب الوفرة أو النقص، مربّع، مُكعّب،* ***surditatis*** *أي: أصمّ، أو أيّة صفةٍ من صفات الأعداد*».

فإذا كان المترجم ـ وقد كان ،في القرون الوسطىٰ، يفتقد معجمًا تَقَنيًّا ـ يجهل معنىٰ كلمةٍ ما جهلًا تامًّا، ونقلها كما هي بحروفها إلىٰ لغةٍ أخرىٰ، فإنه يبتدع بذٰلك عُجْمةً غريبة! وهٰكذا اَنتقلت كلمة nawaŷid، "نواجذ" العربيّة (أضراس العقل) إلىٰ اللاتينيّة في صيغة nuaged أو neguegidi*! وتُرجمت كلمة ureter

* وردت "نواجذ" في الكتاب سهوًا naŷawid (نجاوذ). والنواجذ (واحدها ناجِذ)، عند الفيروزآبادي: أقصىٰ الأضراس وهي أربعة، أو هي الأنياب، أو التي تلي الأنياب، أو هي الأضراس كلّها.

اليونانيّة إلىٰ العربيّة بكلمة "الحالب"، وٱحتفظ بها ج. الكريموني في صيغة **alhaleb**. وتجنُّبًا لهٰذه العبارة العربيّة، حوّلها مترجمون آخرون إلىٰ **vena uritis** [وريد بولي]، فوقعوا بذٰلك في خطإ فادح في المصطلح التشريحي، أسهم النُّسّاخ في تفاقُمه لسوء قراءتهم، فغدت العبارة **vena viridis** (أي، الوريد الأخضر)!

وحين كان المترجمون يُواجهون فِقْراتٍ تستبهِمُ عليهم، لنقصٍ في ٱطّلاعهم علىٰ الثقافة العربيّة، فإنّ ٱنحرافهم يصبح أكبر. من ذٰلك إهمال يوحنّا الإشبيلي، في ترجمته لكتاب "النُّكَت"، فِقْراتٍ تُشير إلىٰ أقاليم عربيّة كانت مجهولةً منه (الدَّيْلم)، أو أن يتصرّف بتقديم شروح مطوّلة عامّة يُعَتِّم بها علىٰ إلماعات أبي مَعْشر إلىٰ التاريخ العربي (الخوارج مثلًا) الذي لم يكن [يوحنّا] مطّلعًا عليه.

حواشي المؤلّف

1. يذكره يوحنّا بن ماسويه في كتابه حول طبّ العيون.

2. نصرف النظر عن الترجمات التي أنجزها البِيروني (٩٧٣ـ١٠٤٨م) في وقت لاحق، لأنها لم تنتقل إلى الأندلس ولم تظهر في الترجمات اللاتينيّة.

3. كان [كاراكا] يعيش في القرن الثاني للميلاد. راجع [ما كتبه] فؤاد سيزگين في *GAS*، ٣، ص١٩٨.

4. [كتاب عبد الرحمٰن بدوي] "انتقال الفلسفة اليونانيّة إلى العالم العربي" (باريس، ١٩٦٨). وراجع كتاب مبشّر بن فاتك "مختار الحِكَم ومحاسن الكَلم"، وقد نشره عبد الرحمٰن بدوي (مدريد ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م)، وكتاب أبي سليمان المنطقي (ت حوالي ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) "صِوان الحكمة". ولعلّ هٰذا التاريخ الممتاز للفلاسفة اليونانيّين والمسلمين أصبح معروفًا في الأندلس بفضل محمّد بن عبدون الجبلي، تلميذ المنطقي، وطبيب الحكم الثاني، ابتداءً من ٣٦٠هـ/ ٩٧١م ("طبقات الأمم"، ٨١/ ١٤٧).

5. راجع ص ٤، السطور ٢٢ـ٢٤ [من الفهرست]:

> *«وقال كعب ـ وأنا أبرأ إلى الله تعالى من قوله ـ انّ أوّل من وضع الكتابة العربيّة والفارسيّة وغيرها من الكتابات، آدم عليه السلام، وضع ذٰلك قبل موته بثلثمائة سنة في الطين وطبخه، فلمّا أصاب الأرض الطوفان سلم فوجد كلّ قوم كتابتهم فكتبوا بها».*

6. راجع تاريخ هٰذه الترجمات المعقّد في "الفهرست"، ص ٢٣٩ [د. الطويل، بيروت، ١٩٩٦، ١٣٠].

7. راجع كتاب "الحيوان"، الجزء الأوّل (القاهرة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م)، صص ٣٨ـ٣٩، ويُقدّم ع. بدوي في كتابه "أنتقال الفلسفة اليونانيّة إلىٰ العالم العربي" صص ٢١ـ٢٤ الترجمة الفرنسيّة لهٰذه الفقرة بأكملها، وهي أوسع بكثير من المقطع الذي نُقدّمه.

8. يُلاحَظ أنّ الجاحظ يُعدّد بشكل واضح موادّ "الرباعيّة".

9. "كتاب المحاضرة والمذاكرة".

10. من الواضح أنه يُشير إلىٰ الرُومنتيّة المحكيّة [آنذاك] في غرناطة.

11. كان في وسعه أن يُضيف، كما فعل الجاحظ، في نصٍّ اَستُشهد به، أنّ الخطأ في مادّة الدين أخطر منه في الرياضيّات والكيمياء والفلسفة... إلخ.

12. يدلّ سياق النصّ علىٰ أنّ هٰذه الكلمة [مصحف] لها معنىٰ "كتاب مجلّد"، ولم تختصّ، إلّا في زمنٍ لاحق، بالدلالة علىٰ القرآن.

13. يستفاد ضمنًا ممّا ورد في "مقدّمة" اَبن خلدون، وفي كتاب إيخيه "المكتبات..."، ص ٢١، أنّ هٰذه الأعمال وصلت إلىٰ بغداد مترجمةً إلىٰ العربيّة، أي أنها كانت قد تُرجمت من قبلُ في بيزنطة.

14. "سرح العيون" لاَبن نباتة (القاهرة، ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م)، ص ١٣٢.

15. تُشبه هٰذه الفقرة شبهًا كبيرًا الفقرة التي تروي فيها النصوص العربيّة الأندلسيّة أسطورة بيت الأقفال بطليطلة.

16. يقول موسىٰ بن عزرا، «في زمن لاحق، تُرجمت كتبنا المقدّسة إلىٰ العربيّة وإلىٰ اليونانيّة *اَستنادًا إلىٰ السُريانيّة. ولٰكن، بما أنّ لغةً من اللغات قد تنقصها أسماء وأفعال ممّا تمتلكه لغةٌ أخرىٰ، فقد ألفىٰ المترجمون أنفسهم مضطرّين إلىٰ اَستخدام كلماتٍ بمعنًىٰ مجازيّ وعباراتٍ مكافئة. ولٰكن، لمّا كان المعنىٰ ليس هو ذاته تمامًا، لذا يضيع في الترجمة جمال النصّ الأصلي ومسحته الطبيعيّة*»، نقلًا عن كتاب "موسىٰ بن عزرا" لـ ديبث ماشو، ص ١٢١.

17. يزعم اَبن أبي أُصيبعة، في الجزء الأوّل من كتابه صص ١٨٦ـ١٨٧، أنّ حنين كان

ينهض بهذا الدور في عهد المأمون، أي لمّا كان عمره، على الأكثر، عشرين عامًا، وهذه سنٌّ جدُّ مبكّرةٍ للنهوض بمثل هذه المهمّة.

18. يتعلّق الأمر، بوجه الدقّة، بأسم مجموعة من الكتب الرياضيّة ـ الفلكيّة (سيددهانتاس)، وبأسم مؤلّفٍ، هو أرياباهاطيّا، وكان يعيش حوالي ٤٨٦م.

19. أستجاب المسلمون لهذا التعاون، ما دام الفقيه الإشبيلي أبن عبدون يقول:

«لا يجب علينا أن نبيع لليهود والمسيحيّين كتب العلم، ما عدا الكتب التي تبحث في شريعتهم، لأنهم بعدئذ يترجمون الكتب العلميّة وينسبونها إلىٰ علمائهم وأساقفتهم، بينما يتعلّق الأمر بأعمالٍ إسلاميّة»...

ويعني منع بيع الكتب أنهم كانوا يبيعونها، ولا يبدو أنه من الجرأة الكبيرة الأعتقاد بأنّ [الكتبيّين] المسلمين كانوا يُساعدون زبائنهم علىٰ قراءتها، إن أقتضىٰ الأمر.

20. علىٰ سبيل المثال، يقول لنا "الفهرست" ص ٢٤٤، ١، ١٦، أن *«مرلاحي، في زماننا، جيّد المعرفة بالسُّريانيّة، عفطيُّ الألفاظ بالعربيّة، ينقل بين يدي علي بن إبراهيم الدّهكي من السُّرياني إلىٰ العربي، ويُصلح نقلَه أبن الدهكي»* [د. طويل: ٣٩٩].

وفي إسبانيا كتب يوحنّا بن داود، وهو إسرائيلي، لدىٰ إهدائه ترجمته لـ"كتاب الشفاء" لأبن سينا، إلىٰ رئيس أساقفة طليطلة، ما يلي: *«ها هو ذا، إذن، هذا الكتاب، وقد تُرجم من العربيّة وفقًا لتعليماتكم، وقد كنت أترجم كلّ كلمة إلىٰ اللغة العاميّة، ويقوم رئيس الشمامسة دومنكو [السيگوفي] بترجمتها إلىٰ اللاتينيّة»*.

راجع، ١ (١٩٥٤ ميّاس)، ص ٣٩، دالفيرني.

21. "تاريخ آداب اللغة العربيّة"، ٤ (القاهرة، ١٩١١ـ١٩١٤) صص ٢٤ـ٢٥.

22. هذا النوع من الأخطاء، الذي يمتنع إطلاقًا على المؤلّف أو المترجم التحكُّم به ، يحصل علىٰ نحوٍ مطابق في النصوص المطبوعة. وعلىٰ سبيل المثال، في طبعة "رسائل" إبراهيم بن سنان (حيدر آباد الدكن ـ الهند ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م)، علىٰ الأقل في نسختي الخاصّة، نقف علىٰ خللٍ كبير.

23. ابتداع رمز خاصّ ($\bar{X}$) للدلالة على عدد ٤٠، قابلٌ للخلط مع العدد ١٠. وعلى هذا الأساس، فالعدد $L\bar{X}$ قد يُقرأ ٩٠ ($L\bar{X}$) أو ٦٠ (LX).

24. يدلّ النصّ [المطبوع] بالحرف المائل على أنه قد أضيف إلى النصّ الأصلي العربي.

25. إيزيس دوستا ISIS DUSTA (اشتقاق يقترحه ديروف)، وهو اسم إيزيس بالفارسيّة [دوستا = صديقة].

الفصل الرابع

العلوم في القرنين العاشر والحادي عشر (م)

الفصل الرابع

العلوم في القرنين العاشر والحادي عشر [٤ هـ]

تمت الترجمات الأولى، من العربيّة إلى اللاتينيّة، في أواسط القرن العاشر الميلادي [٤ هـ]، في الثغر الإسباني*. ولم يعد الأمر يتعلّق، بتعليقاتٍ هامشيّة، مثل تلك التي تُتيح لنا، كما رأينا، أن نستشفّ دخول "عَدِّ الموقع" آنذاك، ولٰكنها كانت نصوصًا طويلة تُلخّص غالبًا عملًا علميًّا مشرقيًّا، دون أن تُبيّن اَسم المؤلّف ولا اَسم المترجم. وإنّا لنمتلك مخطوطةً، هي تلك التي تحمل الرقم ٢٢٥ في دير القدّيسة ماريا

* الثّغر، الموضع يُخاف هجومُ العدوّ منه، وكذٰلك الموضع الذي يَخاف منه العدوّ.

وقد قسّم الأندلسيّون، ما يَحُدُّ بلادَهم من جهة الممالك المسيحيّة، إلى ثلاث مناطق، هي، الثّغر الأعلى، والثّغر الأوسط، والثّغر الأدنى، وذٰلك بدءًا من الحدود الشّماليّة ـ الشرقيّة إلى الحدود الجنوبيّة ـ الغربيّة [البرتغال اليوم]. وغنيٌّ عن البيان أنّ هٰذه الثّغور ما برحت تتراجع جنوبًا وشرقًا، حتّى غدا ما يُشكّل الأندلسَ هو مدينة غرناطة وما جاورها.

والثّغر، الذي يُشير إليه ڤيرنيت، ثغرٌ إسبانيٌّ مسيحي، كان يُتاخم الثّغر الأعلى الأندلسيّ في إحدى الحِقَب الأندلسيّة، وهو "كاتالونيا Cataluña" الذي لفظ اَسمَه العرب "قَطَلونية"، قاعدتُهُ ـ على البحر الأبيض المتوسّط (البحر الشامي كما سمّاه الأندلسيّون) ـ برشلونة، وفيها اليوم الجامعة التي قضى البروفسّور خوان ڤيرنيت الشطر الأكبر من حياته العلميّة يُدرّس فيها، وإلى شعب هٰذا الإقليم ينتمي.

دي ريبول **Monasterio de Santa Maria de Ripoll**، المحفوظة حاليًا في سجلّات التّاج في إقليم أراگون **Archivo de la Corona de Aragón**، والتي قام أُستاذنا خوزيه ماريا مِيّاس **José María Millás** بدراستها دراسةً مُحكَمة! ومنها يمكننا أن نتبيّن المستوىٰ الثقافيّ الرفيع الذي كان سائدًا في إقليم قَطَلونية، خلال القرن العاشر، نتيجةً لهجرة المستعربين [من النصارىٰ] الوافدين إليه من سائر أنحاء الأندلس؛ يَنِمّ علىٰ ذٰلك أنّ بعض المفردات اللاتينيّة، المستعملة في الترجمة، لم تكن ممّا هو متداولٌ في المنطقة القَطَلونيّة (مثال ذٰلك كلمة *carnarius*).

وتتضاف، لحسن الحظّ، إلىٰ النقد الداخليّ لهٰذه المخطوطة، معطياتٌ خارجيّة علىٰ نحوٍ واضح، تُبيِّن مدىٰ تفوُّق ثقافة الثغر الإسبانيّ علىٰ ثقافة سائر أوروبة، وذٰلك منذ أُوفِد الراهبُ گيزبرتو دي أورياك (٩٤٥_١٠٠٣م [٣٣٣_٣٩٣هـ]) إلىٰ ڤيك **Vic** (التي تقع علىٰ مبعدة أربعين كيلو مترا عن ريبول) للدراسة، وهو الذي غدا ـ فيما بعد ـ أحد البابوات بٱسم سيلڤستري الثاني، وقد أخذ يُراسل بعد عودته إلىٰ بلاد الغال، دون ٱنقطاع، المترجِمَ البرشلوني لوبيتوس **Llobet** (يوبيت)، وٱهتمّ بعمل المسلم يوسف (العالِم؟) **Sapiens**[1] (حيًّا ٩٨٤م [٣٧٤هـ]). وقد ٱستمرّت الاتّصالات بين برشلونة والراين مفتوحةً طوال هٰذين القرنين [١٠ و١١ م/ ٤ و٥ هـ] ـ مثلما هي خلال عصر النهضة، وفي الوقت الحاضر ـ عبر محورِ نهر الرون، ومنه وصلت، إلىٰ إقليم اللورين وألمانيا (راينخيناو)[2]، بواكير العلم المشرقيّ: نصُّ المصنَّف المسمّىٰ *Mathematica Alhandrei Summi astrologi*؛ وكذٰلك ـ علىٰ الأرجح ـ بعضُ العلوم التنجيميّة الشعبيّة بمصطلحاتها العربيّة، تلك التي نشرها سڤينبرگ.

ومن الممكن أنه كانت لأوروبة الشّماليّة والغربيّة، قبل هٰذه التواريخ، ٱتّصالاتٌ ثقافيّة مع عالَمِ شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط، حتّىٰ قبل ظهور الإسلام، إذا ما ٱعتمدنا أطروحة هارتنر، في شأن مدلول حروف الكتابة الإسكَندنافيّة القديمة في أطراف گاالليهوس (٤١٣م). ومهما يكن من أمر، فإنّ تلك العلاقات كانت غير

مطّردة، ولم يكن لها تأثيرٌ دائم في حياة الجرمانيّين أو في أسلوب وجودهم. وقد يُقال هٰذا أيضًا عن رحلات الذهاب والإياب، التي كان الرهبان الفرنجة ينهضون بها، في النصف الثاني من القرن التاسع [٣ هـ]، إلىٰ سرقسطة وقرطبة وبَلَنسية... إلخ، بحثًا عن رُفات أولٰئك المستعربين الذي قضىٰ عليهم [الأمير] عبد الرحمٰن الثاني، مثلما يُقال عن السفارات المتبادلة بين الملوك المسيحيّين والقرطبيّين قبل مرحلة الخلافة [أُعلنت رسميًا ٣١٦هـ/ ٩٢٩م].

نستخلص، ممّا تقدّم، أنّ نصوص ريپول ـ علىٰ ما تبدو لنا في الوقت الحاضر ـ تُعَدّ أقدمَ شهادةٍ معروفة عن التأثير الإسلاميّ في ثقافة العالم الغربيّ. وإنها لتُتيح لنا، فضلًا عن ذٰلك، أن نستشفّ أسماء بعض المؤلّفين [العرب] الذين تُرجمت أعمالٌ لهم، مثل "ما شاء الله" الذي يبدو عمله عن الأسطرلاب ملخّصا. ولعلّ رهباننا قد أستخدموا المصنَّف الذي كتبه عبد الرحمٰن الصوفي. وربّما أفادت تلك الأعمال في صنع الأسطرلابات الأولىٰ في الأندلس، والتي كانت قد أُدخلت في أواسط القرن العاشر، وتمّ تبنّيها في الثغر الإسباني كما يُظهر نموذج ديتونب.

إلىٰ جانب الأسطرلاب، عُرفت "المِزْوَلة الرُّبعيّة"، التي يُمكن النظر إليها علىٰ أنها آلةٌ مشتقّةٌ عنه، وكان من شأنها أن تُحدّد أرتفاع الشمس لحظة مرورها في دائرة خطّ الزّوال، فإذا جرت الملاحظات في الأوقات المناسبة، توفّرت المعطيات الضروريّة لحساب مَيْل دائرة البروج والبُعد الزّاويّ لمكان الرصد. وبَدَهِيٌّ أنّ الآلة، التي تصفها لنا هٰذه النصوص، كانت أكثر أتقانًا بكثيرٍ من آلة بطليموس ـ وهي متميّزةٌ عمّا نُسمّيه "المزولة الشمسيّة "ـ وتشتمل علىٰ عناصر تُماثل تلك التي نجدها في الأسطرلاب، وتمتاز بأنها تُمكّن من قراءةٍ أفضل للحافّة المدرّجة، في حالةِ تساوي الحجم.

كانت المزولة الربعيّة معروفةً في المشرق خلال تلك الحِقبة، لأنّ أبا عبد الله محمّد الخوارزمي (حيًا ٣٦٦هـ/ ٩٧٧م)، يذكرها في كتابه "مفاتيح العلوم"، وكانت تتكوّن ـ كما يتبيّن من أسمها ـ من ربع دائرة، تنزل منه ـ علىٰ كلّ واحدٍ من

الأنصاف القصوىٰ للدائرة ـ خطوطٌ شاقوليّة، تُمكِّن، بمجرّد القراءة، من معرفة القيم العدديّة للجيوب وجيوب التّمام للقوس المناظر لها. ويُسمّىٰ هٰذا النوع من المزولة الربعيّة، دستور، أو **quadrans canonis**. ولم يكن تطوّرها واضحًا في تلك النصوص العربيّة الأوّليّة، ولٰكنه بدا واضحًا في مخطوطة ريپول رقم ٢٢٥، حيث يُقدِّم المصنَّفُ المختصَرُ، المسمّىٰ *Regulæ de quarto parte astrolabii*، وصفًا موجزًا للآلة مُشتَقّىٰ من مصادرَ عربيّةٍ مفقودة، تُمثّل مرحلةً أكثر تقدُّمًا إلىٰ حدٍّ ما من تلك التي تعرضها النصوص المشرقيّة. ذلك أنّ "الزالق" يظهر لأوّل مرّة في أنموذج ريپول. وقد أطلق عليه ميّاس اسم *Vetustissimus* تمييزًا له عمّا يُسمّىٰ *Vetus* (الذي وصفه روبير أنگليز، وساكرو بوسكو، والحاخام ساگ)، وعمّا يُسمّىٰ *novus* الذي أدخله پرفياط طِبّون حوالي عام ١٢٩٠م [٦٨٩هـ]. وهٰكذا نخلُص إلىٰ أنّ فكرة الزالق لا بدّ أنها قد تبلورت حوالي منتصف القرن العاشر [٤ هـ]، أي أنها سابقةٌ بقرنٍ من الزمان عمّا كان يُعتقَد، إذا أخذنا بتأكيد العالم المغربيّ أبي الحسن علي (حيًّا ١٢٦٢م [٦٦٠هـ])، الذي كان ينسب هٰذه الآلة إلىٰ الزَّرْقيال.

ولا بدّ أن تكون طُرُق صُنْع الساعات الرمليّة أو المِزْوَلات، قد دخلت مجدَّدًا، في هٰذه الآونة، إلىٰ أوروبة المسيحيّة، وهي واحدةٌ من أقدم الآلات في التاريخ، لأنه ورد ذكرها في التوراة، وقد عُثر علىٰ بقايا منها ـ قديمةٍ نسبيًّا ـ استرعت انتباه فتروبيو في مختلف أصنافها. ولٰكن يبدو أنّ تقنيّة صنعها قد اختفت في أوروبة المسيحيّة في أعقاب غزوات البرابرة ـ ولم تَزِدْ معرفة القدّيس إيسيدوروس وبيدا عن كونها معرفةً عاديّة ليس إلّا ـ ولم تعد [تلك التقنيّة] إلىٰ الظهور إلّا مع گيزبرتو، الذي صنع حوالي عام ٩٩٦م [٣٨٦هـ] "ساعة مگدبورگ الرمليّة". وهٰذه تسميةٌ تحملنا علىٰ التخمين بوجود مؤثّرٍ عربيّ. فقد صنع العرب، منذ بداية القرن التاسع الميلادي [٣ هـ]، ساعاتٍ من هٰذا النوع في كلٍّ من المشرق والأندلس. فإذا صرفنا النظر عن المصنّفات النظريّة التي كُتبت حول الموضوع، تعيّن علينا أن نُشير إلىٰ

اللُقىٰ من المخلَّفات الأثريّة في أماكن مختلفة، مثل قصبة ألمَريّة ـ التي قد ترجع بتاريخها إلىٰ أواخر القرن العاشر [٤ هـ] ـ وقرطبة، وغرناطة. ويتّفق التعريف العامّيّ الذي قدّمه ٱبنُ ميمون لهٰذه الآلة وتعريف الدائرة الهنديّة: «بلاطةٌ من رخام، مُثبّتةٌ في الأرض، قد رُسمت عليها خطوطٌ مستقيمة وسُطِّرت أسماء السّاعات. إنها عبارةٌ عن دائرةٍ، في مركزها مسمارٌ مستقيم وقائم الزاوية. وكلّما ألقىٰ هٰذا المسمار بظلّه فوق خطٍّ من هٰذه الخطوط، بان ما تقضّىٰ من ساعات النهار. ودرج علماء الفلك علىٰ تسمية هٰذه الآلة بـ"البلاطة"»[3].

وقد توصّل الحاخام ساگ، آنذاك، إلىٰ تجميع القواعد الفنّيّة لبناء هٰذه الآلات، وأدرجها في "كتب معرفة علم الفلك"[4] تحت عنوان "ساعة بلاطة الظلّ" و"ساعة بَلاط (قصر) السّاعات". وهناك نوعٌ من هٰذه المزاول ـ وقد أدخله هرمان الدّلماتي (١١١٢ـ١١٥٤م) إلىٰ العالم المسيحيّ ـ هو ساعات المسافرين، التي لا زالت، في شكلها الأسطوانيّ، تُستعمل إلىٰ وقتنا من قِبَل رعاة جبال البيرينيه. وفيما بعد صُنعت مزاول بأشكالٍ متنوّعة جدًّا، كأنْ تكون علىٰ هيئة كتاب!

وبالمقابل، يُشكّل ٱستعمال ساعات الشمعة، التي كان يستخدمها ألفريدو الكبير دي انگلاتيرا (حوالي ٨٧٥)، ٱستمرارًا للتقليد الكلاسيكي، مثل السّاعات المائيّة[5]. ولعلّ السّاعة، التي أهداها هارون الرشيد إلىٰ شارلمان (٨٠٧م [١٩١هـ])، كانت مائيّةً ومتقنة الصُّنع جدًّا، وربّما كانت مُزَوّدةً بآليّةٍ ذاتيّة. كما أنّ السّاعات المائيّة الهائلة، التي بناها الزّرقيال بطليطلة، ربّما كانت من هٰذا الصنف من الآلات، ولا بدّ أنها حظيت بشهرةٍ واسعة، ذٰلك أنّ [الشاعر] موسىٰ بن عزرا خصّها بقصيدةٍ ٱستهلّها بقوله: «أيها الرُّخام... يا مَن صَنَعَهُ الزّرقيال!...». ويغلب علىٰ الظنّ أن تكون السّاعات المائيّة العربيّة قد أضافت، إلىٰ أصولها الكلاسكيّة، التحسينات التي أتىٰ بها الهنود، إذا أخذنا بإحالة الجغرافيّ الأندلسيّ "الزّهري" ـ إلىٰ فِقْرةٍ عند [المؤرّخ المشرقيّ] المسعودي ـ لدىٰ وصفه ساعات الزّرقيال المائيّة[6]، فقد كان

الزُّهري سمع أنه كانت هناك، في مدينة آرئين بالهند[7]، آلةٌ تُشير إلىٰ [أرقام] الساعات بواسطة [عقارب] أذرع، من مطلع الشمس حتّىٰ مغيبها، ورغبةً منه في صنع آلةٍ مماثلة، فقد أقام أحواضًا كبيرة علىٰ ضفاف نهرِ تاجُهْ بالقرب من طليطلة، فكان [ما صنع] يُشير [كلَّ ليلة] إلىٰ عُمر القمر، وإلىٰ أوجهه، كما يُشير إلىٰ ساعات النهار والليل. وقد ظلّت كلتا الآلتين تعملان حتّىٰ ١١١٣م [٥٠٧هـ]،حين سمح ألفونسو السابع [بعد اَستيلائه علىٰ طليطلة] للساحر وعالم الفلك اليهودي حمير بن ثَبْرَة، بتفكيك إحداهما قصد التعرّف علىٰ آليّة عملها، فأخفق هٰذا في التحقُّق من ذٰلك، مثلما عَجَز عن إعادة تركيب الآلة!

وإنّا لَنَدين لگيرْبِرتو ـ كما دِنّا له بالعديد من الأمور ـ بفضل إعادة إدخال الأنابيب البصريّة التي تَظْهَر في بعض المنمنمات، والتي كان من شأنها، إذا ما سُدِّدت نحو نجمٍ معيَّن وثُبِّتت علىٰ ذٰلك، أن تُمكِّن التلاميذ من رؤية النجم بوضوح. هٰذا الصنفُ من الأجهزة كان العرب يُسمُّون الواحد منه "بالأُنبوبة"، وليس له، أيّة علاقة، بالنظّارة الفلكيّة، ذٰلك أنه، لو كان الأمر بخلاف ذٰلك، لما كان أديلاردو ألمع إلىٰ عجز حواسّنا عن الإحاطة باللامتناهي في الكِبَر، أي السماء، واللامتناهي في الصِّغر، أي الذرّات.

إنّ هناك شهاداتٍ قليلةً جدًّا ـ إن لم نقل بآفتقادنا لمثل هٰذه الشهادات ـ علىٰ ترجماتٍ من العربيّة، يُمكن أن تكون قد تمّت في القرن الحادي عشر الميلادي [٥ هـ] في شبه الجزيرة الإيبيريّة. فقد حَظَّر آبن عَبْدون (حيًّا ١١٠٠م [٤٩٣هـ])، في مصنَّفه عن الحِسْبة[8]، بيع بعض الكتب العربيّة للمسيحيّين واليهود*. وقد كانت

* «يجب ألّا يباع من اليهود، ولا من النصارىٰ، كتابُ علم، إلّا ما كان من شريعتهم؛ فإنهم يترجمون كتب العلوم، وينسبونها إلىٰ أهلهم وأساقفتهم، وهي من تواليف المسلمين...».

"ثلاث رسائل أندلسيّة في آداب الحسبة والمحتسب"، تحقيق ليفي بروفنسال، الفصل الأوّل "رسالة آبن عبدون في القضاء والحسبة" (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقيّة، ١٩٥٥)، ٥٧.

ملاحظاته سديدة، ذٰلك أنّ أسماء مؤلّفيها لم تكن تقترن بأعمالهم في الترجمات التي تُنجز في الثّغر الإسباني، لا ولا كانت تُذكَر في الترجماتِ الطبيّة العديدة التي كان يقوم بها قسطنطين الإفريقي وتلامذتُه في سالرنو، في عصر اَبن عبدون. ولٰكنه لم يكن مُصيبًا في اَعتقاده بأنّ توجيهه هٰذا سيكون مُجديًا، فقد ظهر في القرن الحادي عشر هٰذا، لفيفٌ من المترجمين من العربيّة إلىٰ العبريّة [باشروا ترجمة الكتب العربيّة رغم ذٰلك]، أمثال اَبن سِقَطِلّة Ibn Chicatella السرقسطي (حيًّا ١٠٥٠ـ١٠٨٠م [٤٤٢ـ٤٧٣هـ])، وإسحق بن روبين البرشلوني (ت ١٠٤٣م [٤٣٤هـ])، وطوبيا بن موسىٰ بن مَغْتِق*.

خلاصة القول، كانت حركة الترجمة، فيما يتعلّق بأسبانيا، أضعفَ بكثير ممّا كانت عليه في القرن العاشر. وأمّا تأثير الثقافة الإسلاميّة في أوروبة، فقد كان أكثر ما يتمّ عن طريق نسخ الكتب، وتنقيحها، والاَقتباس منها، والتي كانت تنتشر في النصف الثاني من القرن العاشر، عبر مقاطعة اللورين. إلّا أنّ المصطلحات فيها لم تكن موحّدةً ألبتّة، ولم تكن محرّرة علىٰ نحوٍ واضح، كما أنّ مصنّفات ريبول لم تكن تشتمل إلّا علىٰ الخطوط الأساسيّة والمختصرة لأصول النصوص العربيّة، وذٰلك ما يُجيز لنا اَفتراض أنّ قرّاءها لم يكونوا يفهمونها إلّا فهمًا قاصرًا، ويكون القُصور أشدّ إذا لم يكن في حوزتهم ـ كما كانت الحال في الأسطرلاب مثلًا ـ أدواتٌ عليها كتاباتٌ باللاتينيّة ـ خلا أسطرلاب ديتونب الوحيد ـ تُمكّنهم من أن يتدرّبوا عليها في أثناء دراستهم للنظريّة!

* قلتُ، لا بأس علىٰ المحتسب اَبن عبدون أنه لم يمتلك القدرة علىٰ إعمال توصيته، في زمنٍ كان يستطيع أيٌّ من الناس أن يقتني مخطوطةً أو يستعيرها فينتسخها، ثمّ يبعث بها إلىٰ ما وراء الحدود، في ذٰلك الثغر الإسباني، فتتمّ ترجمتها.

وإنّنا في عصرنا هٰذا، الذي اَتّسعت فيه وسائل الإعلام، واَمتدّت كذٰلك عيون الرقابة إلىٰ كلّ مكان، ووُقّعت الاَتّفاقيّات الدوليّة التي تحفظ الحقوق العلميّة والأدبيّة والفنّيّة، نرىٰ الكتب تُترجَم دون إذن مصنّفيها، بل إنّ أعمالهم تصوّر وتُطبع بالأوفست أحيانًا وتوزّع علنًا.

إنّ الشخصيّة الأكثر تمثيلًا، لما تقدّم بيانه، هي هرمان كونتراكتو (١٠١٣ـ١٠٥٤م [٤٠٤ـ٤٤٦هـ])، رئيس الدير البندكتي في رايخيناو (ألمانيا)، الذي كتب مصنّفين حول الأسطرلاب، معتمدًا على ترجمات ريبول، فترسّخت في أوروبة الموجةُ المشرقيّة الأولى من مبحث مواقع النجوم، والحساب بواسطة العدّادة، التي كان گيزبرتو ـ بحسب رأي گيرمو دي مالمسبوري (حوالي ١٠٨٢ـ١١٤٢م [٤٧٥ـ٥٣٧هـ])، «أوّل من *أخذها عن المغاربة المسلمين، ووضع قواعدها، التي كان العدّادون يبذلون جهدًا كبيرًا في تعلّمها*». هٰذا الصنف من العدّادات، المختلف عن العدّادة التي آستخدمها الرّومان أو تلك التي نجد وصفًا لها في نصٍّ ـ حُشِر في كتاب الهندسة لبوئيسيو ـ تسرّب بنجاح بارز إلى مدارس الكنائس الأسقفيّة، وشيئًا فشيئًا حلّ محلّه، في نهاية الأمر، الحسابُ الخاصّ بعَدّ الموقع. وإلى هٰذا التيّار ينتمي كتاب أديلاردو دي باث، الذي قد يكون كَتَبَهُ قبل أن يدرُس العربيّة (حوالي ١١٢٦م [٥٢٠هـ])، وهو بعنوان قواعد العدّادة *Regule abace*.

هٰذا إلى أنّ هرمان كونتراكتو كان المؤلّف لأوّلِ مصنّفٍ حول لعبة التوافقات، وهي لعبةٌ رياضيّة يُعزى آختراعها إلى فيثاگوراس وبوئيسيو وگزبرتو، وكانت تتطلّب معرفة الأنظمة والتناسبات والمتواليات الحسابيّة والهندسيّة والتوافقيّة، في مستوى يفوق ما يُعتقَد أنه كان موجودًا آنئذٍ في المدارس المسيحيّة.

حواشي المؤلّف

1. يبدو لنا أنّ توحيد الهويّة الذي يقترحه سوتر في "الرياضي *Die Mathematiker*..."، العدد ١٨٢، بين يوسف المذكور وبين الشاعر القرطبي يوسف بن هارون الرمادي (ت ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م)، ينطوي على إشكال كبير!

2. كان هذا هو الطريق الذي يسلكه الرقيق السلافي، الذي كان تجّار اليهود يشترونهم من أسواق ڤيردون وبراگ ويتوجّهون بهم إلى مركز المريّة التجاري حيث يتمّ خِصَاؤهم. راجع [ما ذكره] خ. ڤيرنيت في "وادي إيبرو.." *El valle del Ebro*.

3. راجع [ما ورد] في كتاب البيروني "تفهيم..." (الفقرة ٤٩، ص ٤٩ من الطبعة والترجمة الإنگليزيّة التي أنجزها ر. ر. رايت، لندن، ١٩٣٤).

4. راجع كتاب سانتشيث پيريث "شخصيّة ألفونسو العاشر الحكيم العلميّة، وساعاته" (مرسية) ١٩٥٥.

5. راجع مقال أ. پوگو "الساعات المائيّة المصريّة" المنشور في *Isis*، ٢٥ (١٩٣٦) صص ٤٠٣ـ٤٢٥. وكانت تُستعمل في العصور القديمة ـ كما في الوقت الراهن في كنيسة داليكارليا بالسويد ـ لتحديد أوقات [أحاديث] الوعّاظ.

6. راجع [ما ذكره] خ. م. مِيّاس في "دراسات حول الزرقيال" (مدريد، ١٩٤٣ـ١٩٥٠)، صص ٦ـ٩، حيث تُرجمت الفقرة المعنيّة استنادًا إلى النصّ العربي. ونجد الوصف على نحوٍ مماثل، في الترجمة القشتاليّة التي أنجزت في القرون الوسطى (القرن الرابع عشر [٨ هـ]) لكتاب "الجغرافيا" للزهري.

7. لعلّه ينبغي أن نفترض أنّ الأمر يتعلّق بالصين ـ واتّصالاتها مع بغداد في مطلع القرن العاشر معروفة ـ حيث بلغ هذا الصنف من الآلات درجةً كبيرة من الاتقان.

8. تشتمل هذه الكلمة [الحِسْبة] على الأنظمة جميعها، التي يترتّب على نظّار السوق معرفتها.

الفصل الخامس

العلوم في القرن الثاني عشر [م]

الفلسفة، والعلوم الخفية، والرياضيات

- المترجمون
- الفلسفة
- العلوم الخفية
- الرياضيات

الفصل الخامس

العلوم في القرن الثاني عشر [٦ هـ]
الفلسفة، والعلوم الخفية، والرياضيات

المترجمون:

تكاد الترجمات، التي أُنجزت من العربيّة إلىٰ اللاتينيّة، ما قبل القرن الثاني عشر الميلادي، تكون دائمًا مغفلة، ومن الصعب التعرُّف علىٰ هُويّة المؤلّف الذي تُرجم [عمله]. إلّا أنه حصل خلافُ ذلك ٱبتداءً من القرن الثاني عشر [٦ هـ]. هٰذه الحِقبة التي آل إلينا منها كثيرٌ من المخطوطات، وأصبحنا علىٰ ٱطّلاع جيّد نسبيًا، علىٰ ما كان يُلتمس آنذاك، بفضل مقدّماتها، وكذٰلك خواتيمها [ٱسم الناسخ، وتاريخ النسخ، ومكانه].

لقد عمل، في تلك الحِقبة الزمنيّة في إسبانيا، عديدٌ من الباحثين، ٱنضوىٰ قسمٌ كبير منهم، تحت رعاية المطران دون رايموندو (١١٢٥ـ١١٥٢م [٥١٩ـ٥٤٧هـ])، وقد ٱعتُبر هٰذا مؤسّسًا لما يُسمّىٰ "مدرسة مترجمي طليطلة"، وإذا توخّينا الدقّة لم يكن لنا أن نُسمّيها "مدرسة"، لٱفتقارها إلىٰ "الأستاذيّة" تنظيمًا وٱستمرارًا، ولم يكن الرابط الوحيد الذي يجمع بين مختلف المترجمين أو بين جماعاتهم ـ هٰذا إن

كان ثمّة رابطٌ ما ـ ليتجاوز الرابط الجغرافيّ ومحبّة العلوم ليس إلّا. وكان كثيرٌ منهم يعملون في مدنٍ تنأىٰ عن طليطلة. ولم تكن المصنّفات [العربيّة] المشرقيّة لتُترجَم إلىٰ اللاتينيّة وحدها، بل إلىٰ اللغة العبريّة أيضًا، ممّا جعلها في متناول المدارس التابعة للكاتدرائيّات [المسيحيّة] والكُنُس [اليهوديّة]، وعَبْرها ٱنتقلت إلىٰ سائر أنحاء أوروبة. وممّا يسّر هٰذا الٱنتقال عدم تجانس الطّلّاب ـ المترجمين، الذين ما برحوا يَفِدون إلىٰ إسبانيا، ليستقرّوا في المدن الرئيسة في شبه القارّة الإيبيريّة، مثل برشلونة (أفلاطون التيفولي) وطَرّكُونة (هوكو السنتايي) وطليطلة (جيراردو الكريموني)...إلخ، وليُترجموا كلّ ما يقع في أيديهم من المخطوطات!

وإنّ تحديد هُويّة المخطوطات العربيّة، التي ٱعتمدها كلّ هٰؤلاء المترجمين في عملهم، ليثير مشكلةً معقّدة أحيانًا، وخاصّةً إذا ما كان الأمر متعلّقًا بمصنّفات أبي مَعْشر، أو تعلّق ـ في القرن الثالث عشر [٧ هـ] ـ بٱبن رشد. وفيما يخصّ الدراسة المقارنة للترجمات اللاتينيّة مع النصوص الأصليّة العربيّة، فإنها لم تتمّ، حتّىٰ وقتنا الراهن، إلّا علىٰ نحوٍ متقطّع. ومن ناحيةٍ أخرىٰ، كان ما يُقدّمه هٰؤلاء المترجمون من نِتاجٍ أصيل شيئًا نادرًا، وكان يتركّز ـ إنْ وُجد ـ علىٰ الفلسفة أوالعلوم الخفيّة. وكلا هٰذين الفرعين ما كانا يتطلّبان مستوًىٰ رفيعًا من التخصّص علىٰ نحو ما تقتضيه العلومُ البَحْتة. فإذا ٱتّفق أن برز مؤلِّفٌ ما في هٰذا الميدان، علىٰ غرار الإيطاليّ فيبوناتشي مثلًا، فليس مردّ ذٰلك إلىٰ أنه توصّل إلىٰ هٰذه الترجمات وحسب ـ ونعني، هنا، ترجماتِ أفلاطون التيفولي ـ بل يعود كذٰلك إلىٰ ظروفٍ خاصّة جدًّا: أنه تَثقّف منذ نُعومة أظفاره في قطر عربي!

ويرجع الفضل، إلىٰ مترجمي القرن الثاني عشر هٰؤلاء، في تعريف الغرب، بالعلم الكلاسيكي (ارسطوطاليس، أرخميدس، بطليموس، أُقليدس... إلخ)، فضلًا عن العلم المشرقي، وذٰلك قبل أن تُتاح الترجمةُ الأولىٰ المباشرة عن الأصول اليونانيّة بزمنٍ طويل. وقد كان هٰؤلاء الكتّاب جميعًا يَعْقِدون فيما بينهم صلاتٍ من صداقةٍ

وعمل، مع أننا نفتقد غالبًا تفاصيل سِيَرهم. فقد عمل أفلاطون التيفولي في برشلونة (حيًّا ما بين ١١٣٤ـ١١٤٥م [٥٢٩ـ٥٤٠هـ]) بالاشتراك مع اليهودي أبراهام بار حِيَّة، الشهير بسَفَسوردا (ت ١١٣٦م [٥٣١هـ])، والمسمّىٰ أيضًا بأبراهام اليهودي أو ها ـ ناسي، وقد كان يعمل مترجمًا وسيطا. و"أهدىٰ" أفلاطون كتاب ابن الصفّار "الأسطرلاب"، *Liber Abulcasim de operibus astrolabiæ*، إلىٰ يوحنّا الإشبيلي (حيًّا ما بين ١١٣٥ـ١١٥٣م [٥٣٠ـ٥٤٨هـ]) وهو شخصيّةٌ يصعب تحديد هُويّتها، وقد تقدّم لوماي، بما لا يعدو كونَه مجرّد فرضيّة، أنّ يوحنّا قد يكون ابنًا للكونت الشهير المستعرب سيسناندو داڤيدث، وأنه تعلّم في إشبيلية وبلغ مرتبة وزير عند المعتمِد [ابن عبّاد، أميرِها]، ويرىٰ ـ لوماي ـ أنّ أسماء مثل "يوحنّا الإسباني" و"يوحنّا الطليطلي" و"يوحنّا اللوني" [نسبةً إلىٰ مدينة **Luna**] (ابن داود أو آڤندوث **Avendeuth**)، قد تكون تسمياتٍ أخرىٰ ليوحنّا الإشبيلي نفسه. وقد ردّ سانشيز ألبُرنوث هٰذه الفرضيّة، وكذٰلك تلك المقولةَ التي تُوَحّد ما بين هُويّة كلٍّ من آڤندوث وأبراهام بن داود، التي تبنّاها م. ت. دالڤرني. ومهما يكن من أمر، فإنه يُمكن النظر إلىٰ يوحنّا الإشبيلي ـ أيًا كانت هُويّته الحقيقيّة ـ علىٰ أنه أهمُّ المثقفين في النصف الأوّل من القرن الثاني عشر، وقد كان يحظىٰ برعاية المطران رايموندو. ولقد عمل [يوحنّا]، متعاونًا مع دومينگو گونزاليث (ت حوالي ١١٨١م [٥٧٧هـ]) رئيسِ شمامسة بلدة سيگوڤيا، فكان يوحنّا يُترجم [النصّ] من العربيّة إلىٰ القشتاليّة، فيقوم دومينگو بترجمتِهِ ـ ثانيةً ـ إلىٰ اللاتينيّة. و"أهدىٰ" رودلفو دي بروخاس (حيًّا ١١٤٣ [٥٣٨هـ]) ـ وهو التلميذ الوحيد الذي عُرف لهرمان الدلماتي (حيًّا ١١٣٨ـ١١٤٣م) ـ إلىٰ يوحنّا الإشبيلي ترجمته لكتابٍ من تأليف مَسْلَمة المجريطي. و"أهدىٰ" الدلماتي، من جهته، ترجمته لكتاب بطليموس "الخريطة السطحيّة للكُرة السماويّة" إلىٰ أستاذه تيئودوريكو دي شارتر (ت ١١٥٥م)، وتعاون ـ [استجابةً لما أبداه] بيدرو المبجّل (١٠٩٤ـ١١٥٦م) من إلحاح ـ مع روبرتو دي

شيستر (حيًّا ١١٤١ـ١١٥٠م)*. وعلىٰ هامش هٰذا "التواصل"، الذي كان يربط بين المترجِمَين الرئيسَين في بداية القرن الثاني عشر، تظلّ هنالك ثلاثُ شخصيّاتٍ علىٰ درجةٍ من الأهمّيّة: موسىٰ سِفَرْدي، وهو يهوديّ من بلدة هويسكا **Huesca** تحوّل إلىٰ المسيحيّة متبنيًّا اسم پيدرو ألفونسو، وكان طبيبًا لكلٍّ من ألفونسو المحارب وأنريكه الأوّل دي إنكلاتيرا (١٠٦٢ـ١١١٠م)، وكان من تلامذته والشر دي مالڤرن (ت ١١٣٥م)، وربّما أيضًا أديلاردو دي باث (حيًّا ١١١٦ـ١١٤٢م)، و[الثاني] هوگو دي سانتايا (حيًّا ١١١٩ـ١١٥١م)، و[ثالثهم] اليهودي أبراهام بن عزرا (١٠٨٩ـ١١٦٧م)، وهو جوّال لا يكلّ، ومن المحتمل أن يكون ابْنُهُ إسحق هو من أدخل إلىٰ إسبانيا نظريّة المَيْل **impetus** لأبي البركات البغدادي (حوالي ١٠٩٦ـ١١٧٤م [٤٨٩ـ٥٧٠هـ]).

وقد هيمنت، علىٰ النصف الثاني من هٰذا القرن، فيما يبدو، شخصيّةٌ فريدة، هي جيراردو الكريموني (١١١٤ـ١١٨٧م [٥٠٨ـ٥٨٣هـ])، الذي وفد إلىٰ طليطلة ـ وبها مات ـ ليحظىٰ بكتاب المِجِسْطي، هٰذا الذي كان يعزّ الحصول عليه آنئذ في

* نودّ أن نُبيّن، هنا، أنّ "پيدرو المبجّل" (والصفة مستمدّةٌ من لقبه الوظيفي **venerable**)، ليس جديرًا بأن يكون مبجّلًا في نظر المسلمين، وكذٰلك معاونوه التراجمة، اللذين كان وكانوا من غُلاة المتعصّبين ضدّ الإسلام، بكتاباتهم عنه المشوّهة والمضلّلة، وكانوا قبل ذٰلك من أشدّ دعاة الحملات الصليبيّة!

ونذكُر أنّ پيدرو (پيير، بطرس) كلّف بعضَ هؤلاء ترجمةَ القرآن الكريم إلىٰ اللاتينيّة أوّلَ مرّة، فبادر روبرتو دي شيستر إلىٰ إنجاز ترجمةٍ له مشوّهة، وأضاف إلىٰ ذٰلك تأليفَه، أو تلفيقَه، كتابًا بعنوان، "رسالة عبد المسيح بن إسحق الكندي"، في "الردّ" علىٰ رسالةٍ مزعومة وضعها علىٰ لسان مسلم منتحَل سمّاه عبد الله بن إسماعيل الهاشمي "دعاه" هٰذا فيها إلىٰ الإسلام! وتحتوي الرسالة والردّ علىٰ مزيدٍ من الافتراءات والأباطيل ممّا كانت الأوساطُ هناك قد دأبت علىٰ ترديده ضدّ الإسلام، ثمّ إنّ النسخة العربيّة لهٰذا الكتاب المزيَّف طُبعت بلندن ١٨٨٥، بتمويل من الجمعيّة الإنكليزيّة المعروفة بـ"جمعيّة ترقية المعارف المسيحيّة".

انظر في ذٰلك، الدكتورة شَذىٰ سلمان الدّرْكَزَلّي (جامعة درم، المملكة المتّحدة)، مقالها، "الترجمة من العربيّة في المجال العلمي"، مجلّة "الفيصل" العدد ٢٤٣ (رمضان ١٤١٧ ـ يناير/ فبراير ١٩٩٧)، ص ١٣٢ و٣٣.

سائر أنحاء أوروبة. وقد كانت مَهَمّته ـ مترجمًا ـ جليلةً، ويوم تُوفّي كان قد تَرجم إلىٰ اللاتينيّة قسمًا كبيرًا من العلوم المشرقيّة أو من علوم العصور القديمة حسب وجهة نظر العلوم المشرقيّة. وتبدو أعمال غيره من المترجمين ـ مثل أعمال الكاهن القانوني ماركوس ـ أقلّ أهمّيّةً إذا ما قورنت بأعماله.

الفلسفة:

تركّز الإنتاج الفلسفي، في إسبانيا المسيحيّة في القرن الثاني عشر الميلادي [٦هـ]، علىٰ ترجمة المؤلّفين الأساسيّين الذين كان بالإمكان التعرّف إليهم من خلال النصوص العربيّة، ولا سيّما [أعمال] أرسطوطاليس أو ما يُنسب إليه منها. وغنيٌّ عن البيان أنّ بعض الباحثين ألّفوا أعمالًا أصيلة، غير أنها ـ باستثناء كتاب *De eodem et diverso* لأديلادو دي باث ـ تَنِمّ علىٰ تأثّرٍ بالعلوم المشرقيّة. ونذكر، علىٰ سبيل المثال، كتاب القضايا الطبيعيّة العويصة *Questiones naturales perdifficiles* لدى باث نفسه، وكتاب *De essentiis* لهرمان الدلماتي، وأعمال دومينگو گونزاليث *De inmortalitate animæ*، *De unitate*، *De anima*، *De processione mundi*، التي كانت متأثّرةً بأفكار فلسفة المشّائين والأفلاطونيّة الجديدة، ومتأثّرةً علىٰ نحوٍ بيّنٍ بالفيلسوف اليهودي الإسباني سليمان بن گابيرول، الذي كان يوحنّا الإشبيلي قد فرغ من ترجمة كتابه *Fons vitæ*.

بيد أنّ العمل الأساسيّ لهؤلاء المؤلّفين تركّز علىٰ أرسطوطاليس، فقد تَرجم جيراردو الكريموني، فيما ترجم، كتابه "في الكون والفساد" (وتُرجم شرح ابن رشد لهذا الكتاب إلىٰ اللاتينيّة من قبل ميگيل إسكوتو*)، والتحليلات الثانية *Analytica posteriora* (*Apodíctica* البرهان). وكان قد تَرجَم هذا الكتاب الأخير إلىٰ

* صدرت طبعة من هذا الكتاب بعنوان "تلخيص الكون والفساد"، تحقيق الباحث المغربي جمال الدين العلوي (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٥).

السُّريانيّة إسحٰق بن حنين، ونقله منها إلىٰ العربيّة أبو بشر متّىٰ بن يونس (ت حوالي ٩٤٠م [٣٢٨هـ])[1]. وقد عُرفت هٰذه الترجمة في الأندلس، لأنّ ٱبن رشد ٱستخدمها في الجزء الثاني من "الشرح الكبير"، إلّا أنّ جيراردو أنجز ترجمته ـ حسبما أثبت مينيو پالوييو ـ معتمدًا ترجمةً أخرىٰ فضّلها وهي لمترجم مجهول، ومستخدمًا في ذٰلك عَرَضًا ترجمةَ بشر، كما ترجم شروح تيميستيوس والفَارابي (في البرهان)، وكذٰلك أعمالًا للإسكندر الأفروديسي، كانت قد عُرفت من خلال ترجمتها العربيّة التي أنجزها أبو عثمان الدمشقي وحنين بن إسحٰق.

ونَدين أيضًا لهٰذا الأخير [حنين بن إسحٰق]، فيما يبدو، بٱقتباسٍ له إلىٰ العربيّة ـ عن عمل كان قد قام بتنقيحه پروكليس ـ وذٰلك تحت عنوان: "كتاب الخير الأوّل" أو "الخير المَحض". ويوم وصل هٰذا النصّ [المقتبس] إلىٰ الأندلس، كان هٰذا الكتاب قد نُسب قبلئذ إلىٰ أرسطوطاليس، وقد ترجمه جيراردو، وٱتّخذ في العالم اللاتيني ـ علىٰ نحوِ ما كان في العالم العربي ـ عنوانين مختلفين: *Liber de causis* و*Liber bonitatis puræ*. ويقوم الكتاب علىٰ إحدىٰ وثلاثين مسألة من مبادئ اللاهوت لپروكلس جمعها تلامذته.

وأغرب ما هنالك أنّ الاَلتباس، الذي أحاط بهٰذا الكتاب في العالم اللاتينيّ، مردُّه إلىٰ حدٍّ كبير إلىٰ القدّيس ألبرتو الكبير (١٢٤٤م)، الذي لم يمتلك ما يُمكّنه من تلافي النقص في معلوماته، وذٰلك حتّىٰ عام ١٢٦٨، حين ٱنتهىٰ گييرمو دي موئيربيكيه من ترجمة "مبادئ اللاهوت" مباشرةً عن اليونانيّة. وقد كان يكفي القدّيسَ ألبرتو، كي يكتشف المصدر، أن يُقارن بين هٰذه الترجمة وبين نصّ كتاب *De causis* [لجيراردو]. وأمّا القدّيس توما، الذي بيّن ذٰلك في معرِض شرحه، فقد وقف علىٰ جليّة الأمر، قال: «*هناك حقائق حول المبادئ الأولىٰ تُصاغ بصورةٍ مُقتضبة، وفي مسائلَ منفصلٍ بعضُها عن بعض؛ وإنّ كتاب پروكليس الأفلاطوني، في اليونانيّة، وعنوانه "مبادئ اللاهوت"، هو الذي يتضمّن المسائل المئتين والتسع. وثمّة في العربيّة كتابٌ يُسمّيه اللاتينيّون De causis، وقد تُرجم، دون أيّ شكّ، عن*

العربيّة، ولم يُحتَفَظ بنصّه في اليونانيّة. ولٰكنّ كلّ شيءٍ يحمل علىٰ الآعتقاد بأنّ فيلسوفًا عربيًّا قد آستخلصه من كتاب لبروكليس - الذي ذكرناه توًّا - فإنّ ما يتضمّنه هٰذا الكتاب نجده في الكتاب الآخر علىٰ نحوٍ أوسع وأكثر تفصيلًا».

ومع ذٰلك ظلّ التقويم السائد في العالم اللاتيني، حتّىٰ القرن التاسع عشر، هو ما قال به القدّيس ألبرتو، والذي نافح عنه، بدوره، في العالم العربي، آبنُ سبعين في "مسائل صِقِلّيّة".

ونَدين لجيراردو الكريموني بترجمة كتابين للكِنْدي:

الأوّل: "في العقل"[2] ويعتمد علىٰ كتاب *De anima* للإسكندر الأفروديسي - وإنْ نَسَبَهُ المؤلِّف إلىٰ أرسطوطاليس - وهو يُميّز بين: أوّلًا العقل بالفعل، ثانيًا: العقل بالقوّة في النفس، ثالثًا: العقل الذي ينتقل من القوّة إلىٰ الفعل في النفس أو عن طريق العقل الأوّل، رابعًا: العقل البرهاني *Intellectus demonstrativus*، الذي من شأنه أن يُعادل - في رأي دوهم **Duhem** - النفسَ الحسّيّة *Anima sensitiva* عند الإسكندر الأفروديسي، والتي قد تكون - حسب رأي دي بوئير - النشاط الفعلي للعقل الثالث.

أمّا الثاني، فهو "كتاب الماهيّات الخمس" *Liber de quinque essentiis*[3]، ويشتقّ من كتاب "المقولات" لأرسطوطاليس. فالماهيّات الخمس هي: المادّة، والصورة، والحركة، والمكان، والزمان. وممّا يسترعي الآنتباه أنها خمس، وهو رقمٌ عزيز عند الهنود، شأنه شأن الرقم ٤ عند اليونانيّين، والرقم ٣ عند الصينيّين.

ومن الأعمال المختلفة الأخرىٰ، التي سبقت معرفتُها في العالم اللاتيني في القرن الثاني عشر، تبرز أعمال آثنين من كبار المفكّرين الإسلاميّين، هما: آبن سينا والغزالي، وقد ترجم [بعضَ أعمالهما] يوحنّا الإشبيلي: ترجم للأوّل، بالتعاون مع دومنگو گونزالث، الجزء السادس من "الشفاء"، المخصّص للنفس، ومصنّفاتٍ أخرىٰ مثل "ما بعد الطبيعة"، وترجم للثاني "مقاصد الفلاسفة" حول المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة.

وممّا شغل المفكّرين العرب فاْهتمّوا به اْهتمامًا فائقًا، موضوعُ تصنيف العلوم، الذي كان وثيق الصلة بالفلسفة ويكاد يُعَدّ مدخلًا إليها. ولمّا كانوا يأخذون بالفكرة السامِيّة القديمة القائلة إنّ معرفة اْسمٍ ما ـ لشيءٍ أو لشخص ـ تُعادل الحيازة أو السيطرة علىٰ ذٰلك الشيء أو الشخص، فقد ضاعفوا، إلىٰ ما لا نهاية، تقسيمَ العلوم وتقسيماتها الفرعيّة. وإنّا لنَدين بأحد هٰذه التصنيفات الأولىٰ للفيلسوف الفارابي (ت ٩٥٠م [٣٣٩هـ])، الذي غدا كتابه "إحصاء العلوم" موضع ترجمتين: إحداهما ليوحنّا الإشبيلي بعنوان *Opusculum de scientiis*، والأخرىٰ لجيرارد و الكريموني وهي أكمل من الأولىٰ.

ولٰكن كان معروفًا، في تلك الآونة، كتاب "نوادر الفلاسفة" (أي أديهم)، الذي أتاح تقديم معطياتٍ حول ما كان العرب يعتقدونه من أوضاع التعلّم في اليونان القديمة. وعلىٰ أساس ذٰلك كلّه وضع دومنكُو گونزاليث كتابه *De divisione philosophiæ*، الذي يُضيف إلىٰ المصادر المشرقيّة مصادر أخرىٰ غربيّةَ المنشأ وصلت إليه علىٰ هامش التقليد العربي.

فالعلوم عنده تتكوّن من:

١ـ التعليم التحضيري: النحو، وفنّ الشعر (بما في ذٰلك التاريخ)، والبلاغة، علمًا بأنّ المصادر التي اْعتمدها كانت، أساسًا، مصادر لاتينيّة؛

٢ـ المنطق؛

٣ـ علوم الحكمة، وتشتمل علىٰ: أولًا: المجموعة الرباعيّة (الحساب، والهندسة، وعلم الفلك، والموسيقىٰ)، هٰذه التي كان قد ترسّخ وضعها تمامًا قبل قرونٍ خلت، وتمّ له الوصول إليها مباشرةً عن طريق مصادر لاتينيّةٍ وعربيّة (حنين بن إسحٰق، وإخوان الصفا، واْبن سينا)، [ثانيًا]: ميادين أخرىٰ، مثل الطبّ والزراعة. ولٰكن إلىٰ جانب هٰذه العلوم، كانت هناك العلوم الخفيّة، نظرًا لما كانت تتمتّع به آنذاك من قبولٍ واسع، مع كلّ ما كان يُعلنه كبار المفكّرين

في تلك الحِقبة، من التحذير من هٰذه الخرافات ومن تأكيدهم أنها محرّمة.

العلوم الخفية:

وعلىٰ ذٰلك لم يكن بمستغربٍ أن يلوب هوگو دي سانتايا بحثًا عن مصنّفاتٍ عربيّة تتعلّق بالتكهّن بوساطة الظواهر الجوّيّة، وبوساطة النار والماء ـ ولم يَهتدِ إليها مع توافرها ـ وأن يقوم بترجمة كتابٍ يُسمّىٰ *Espatulomancia* (أي في العِرافة، عن طريق تفحّص بُنية عظم الكتف أو أضلع الحيوانات المضحّىٰ بها)[4]، وكتاب [آخر] في العِرافة بضرب الرمل، وهو عملٌ [لمغربيٍّ] من أفراد قبيلة زَنَاتة الذين كتبوا حول الموضوع، وقام الرّاهب آرسينيو (١٢٦٥م [٦٦٣هـ]) بترجمة عمل أحدهم إلىٰ اليونانيّة. إنّ هٰذا "العلم" الأخير، الذي لا يزال يُعمَل به في وقتنا الحاضر في منطقةٍ واسعة من آسيا وإفريقيّة، قد حظي بٱهتمام المسلمين، لأنّ القرآن أجازه (٤٦: ٤)*. وكان يُسمّىٰ في الأوساط العربيّة، إلماعًا إلىٰ المادّة المستخدمة فيه، "علم الرّمل"، ويقوم، بوجه الدقّة، علىٰ كتابةٍ ذات شطرين، مُستخدَمةٍ لغاية العِرافة. وسرعان ما ظهر مقلّدون لهوگو دي سانتايا، فقد أقبل جيراردو الكريموني وأفلاطون التيڤولي وميگيل إسكوتو وگييرمو دي موئيربيكيه، وكثيرون غيرهم، علىٰ ترجمة أو شرح العديد ممّا يقع في أيديهم من الكتب العربيّة المتعلّقة بالعرافة بضرب الرّمل!

ويُمكننا أن نُدرج، بين هٰذه المجموعة من الترجمات، كتاب "سرّ الأسرار"

* يُشير المؤلّف، هنا، إلىٰ الآية ٤ من سورة الأحقاف، وقد ورد فيها ﴿... أو أَثَارةٍ مِنْ عِلْمٍ...﴾. ولدىٰ الرجوع إلىٰ تفسير الإمام محمّد بن أحمد بن جُزَيّ الكَلْبي، "كتاب التسهيل لعلوم التنزيل"، نقرأ ما يلي: «أي بقيةٌ من علم قديم يدلّ علىٰ ما يقولون، وقيل معناه من علم تُثيرونه أي تستخرجونه، وقيل هو الإسناد، وقيل هو الخطّ في الرمل وكانت العرب تتكهّن به...». ([القاهرة]، المكتبة التجاريّة الكبرىٰ بمصر، ١٣٥٥هـ)، ٤، ١٤.

وقد أخذ ڤيرنيت بأحد هٰذه الأقوال، علىٰ نحوٍ قاطع.

لیوحنّا الإسباني، والذي نُقل إلىٰ القشتاليّة بعد ذٰلك بمئة *Secretum secretorum* سنة، انطلاقًا من نسخةٍ معدَّلةٍ أُخرىٰ، تحت اسم *Poridat de las poridades*. ويرجع الأصل العربيّ[5] [لهٰذا الكتاب] إلىٰ يحيىٰ البطريق، الذي يؤكّد أنّ الكتاب مستمدٌّ من نصٍّ يونانيّ ـ وليس ثمّة من أثر لهٰذا النصّ في العهد الهلينيستيّ! ـ كان قد عَثَرَ عليه في معبدٍ لهرمس، وأنه كان يُنسب إلىٰ أرسطوطاليس. وكانت هٰذه النسخة المحرّرة، أو نسخةٌ مماثلة لٰكن مختلفة، موجودةً في الأندلس في القرن العاشر الميلادي [٤ هـ]، فقد أشار إليها كلٌّ من ابن عبد ربّه وابن جُلْجُل. وانطلاقًا من هٰذا المؤلَّف، انتشرت في الغرب العلوم الزائفة، مثل المعرفة بالأعداد (التعليم النقلي التصوّفي عند اليهود، والمربّعات السحريّة، والطلاسم)، وعاد إلىٰ الظهور علم الفِراسة والتنجيم بالمنحوتات. كما ندين ليوحنّا الإسباني بترجمة "مقالة في الطِّلَّسمات" لثابت بن قرّة، ولّدت تأثيرًا كبيرًا علىٰ العِرافة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر [٨ و٩ هـ]، ولاسيّما في تورميدا.

الرياضيّات:

يرجع الفضل في الترجمة الأولىٰ الكاملة، إلىٰ لاتينيّة القرون الوسطىٰ، لكتاب "الأصول" الذي ألّفه النجار أُقليدس[6]، إلىٰ أديلاردو دي باث، الذي استند إلىٰ ترجمةٍ عربيّة للحجّاج يوسف بن مطر (القرن التاسع [٣ هـ])[7]، وهناك ترجمةٌ أخرىٰ أنجزها إسحق بن حنين وصحّحها ثابت بن قرّة. وقد ترجم أبو عثمان الدمشقي عددًا من الكتب وشرحها النيريطي. ويُقدّم ابنُ النديم، من جهته، روايةً تُفصح عن الشُّكوك التي كانت تحوم، في القرن العاشر [٤ هـ]، حول تصنيف الكتاب، يقول[8]:

> «وذكر الكِنْديُّ، في رسالته في أغراض كتاب أُقليدِس [Euclides]، انّ هٰذا الكتاب ألّفه رجلٌ يُقال له أبَلينُس [Apolonio] النجّار، وأنه رَسَمَه خمسةَ عشر قولًا. فلمّا تقادم عهدُ هٰذا الكتاب وأُهمل، تحرّك بعضُ ملوك الإسكندرانيّين لطلب علم الهندسة، وكان علىٰ عهده "أُقليدِس"، فأمره بإصلاح هٰذا الكتاب

وتفسيره، ففعل، فنُسب إليه. ثمّ وَجَد، بعد ذٰلك، ابسقلاوس [Hipsicles]، تلميذُ أُقليدس، مقالتين، وهما الرابعة عشرة والخامسة عشرة، فأهداهما إلىٰ الملك، وانضافتا إلىٰ الكتاب. وكلّ ذٰلك بالإسكندريّة»*.

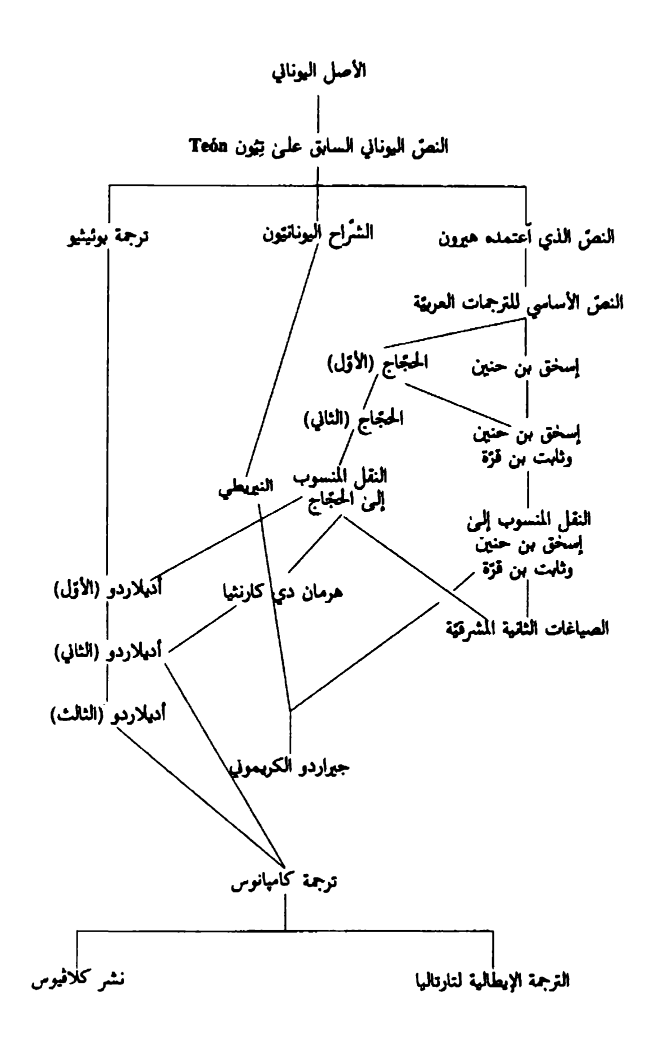
فقد كانت ثمّة شكوكٌ، عند الكِنْدي ـ كما هو الحال عند ج. إيتار عضو جماعة بورباكي ـ حول "أُبوّة" هٰذا الكتاب، الذي كان من شأنه أن يُعتبر حصيلةَ عملٍ جماعيٍ، أو صياغةً مجدَّدة ومراجعةً لعملٍ سَبَقَ ما كان قدّمه أپولينوس من عمل[9]. كما أنّ التقليد العربي في القرن التاسع [٣ هـ] يُقيم فصلًا واضحًا بين الثلاثة عشر جزءًا الأولىٰ وبين الجزأين الرابع عشر والخامس عشر اللذين أُضيفا، فعلًا، إلىٰ كتاب "الأصول" في وقتٍ لاحق، ذٰلك أنّ الجزء الرابع عشر هو من تأليف هيپسيكْلِس الإسكندراني (القرن الثاني قبل الميلاد) والجزء الخامس عشر من تأليف ايسيدورو الميلي، المهندس المعماري لكنيسة القدّيسة صوفيا (حيًّا ٥٣٢م).

ولقد كان كتاب "الأصول" معروفًا، قبل ذٰلك، في الأندلس، في القرن العاشر [٤ هـ] علىٰ الأقلّ، فإنّ عبد الرحمٰن بن بدر (ت نحو ١٠٠٠م [٣٩٠هـ]) كان قد لُقِّب بـ"أُقليدس الأندلس"**، كما كتب ٱبن السمح [ت ١٠٠٠م/ ٤٢٦هـ] شرحًا لهٰذا الكتاب***.

* الفهرست، ٤٢٨.

** هو «عبد الرحمٰن بن إسماعيل بن بدر، المعروف بـ"الأقليدسي"، كان متقدّمًا في علم الهندسة، معتنيًا بصناعة المنطق، وله تأليفٌ مشهور في ٱختصار الكتب الثمانية المنطقيّة... رحل عن الأندلس إلىٰ المشرق في أيّام الحاجب المنصور، وتوفّي هناك»، "طبقات الأمم"، ١٦٧ و٦٨.

*** «ٱبن السمح، أبو القاسم أصبغ بن محمّد بن السمح المهري، كان متحقّقًا بعلم العدد والهندسة... له تواليفُ حسان، منها، كتاب المدخل إلىٰ الهندسة في تفسير كتاب أقليدس...»، "طبقات الأمم"، ١٦٩ و٧٠.


الأصل اليوناني
النصّ اليوناني السابق على ثِيُون Teón
ترجمة بوئيثيو
الشرّاح اليونانيّون
النصّ الذي اعتمده هيرون
النصّ الأساسي للترجمات العربيّة
الحجّاج (الأوّل)
إسحق بن حنين
الحجّاج (الثاني)
إسحق بن حنين
وثابت بن قرّة
النيريطي
النقل المنسوب
إلى الحجّاج
النقل المنسوب إلى
إسحق بن حنين
وثابت بن قرّة
أديلاردو (الأوّل)
هرمان دي كارنثيا
الصياغات الثانية المشرقيّة
أديلاردو (الثاني)
أديلاردو (الثالث)
جيراردو الكريموني
ترجمة كامپانوس
نشر كلافيوس
الترجمة الإيطالية لتارتاليا

وأنجز أديلاردو دي باث، في القرن الثاني عشر [٦ هـ]، ما بَلَغَ عددُه ثلاث ترجمات أو ٱقتباسات، من هٰذا العمل، ٱستطاعت أن تحلّ تمامًا محلّ الشذرات اليونانيّة اللاتينيّة التي كانت متبقيةً في أواخر العالم القديم. وقد تولّدت الترجمة الأولىٰ عن نصٍّ للحجّاج، قريبٍ من النصّ الذي نعرفه ولٰكنه غير مطابقٍ له، وتتبدّىٰ صعوباتٌ في التوحيد بينها وبين إحدىٰ الترجمتين اللتين أنجزهما المؤلِّف المذكور، أمّا الترجمة الثانية فهي تلخيص (شرحٌ [الترجمة] أديلاردو الثالثة)، وكانت أشهر، وأوسع ٱنتشارًا في القرون الوسطىٰ؛ وتنطوي، شأنها في ذٰلك شأن الترجمة الثالثة، علىٰ تعابير يونانيّة ـ إضافةً إلىٰ ما فيها من تعابير عربيّة ـ تدلّ علىٰ ما أُدرج فيها من موادَّ آلت إليها من خلال نقل بوئيثيو، حسبما يتبيّن من الرسم البياني الذي نقتبسه، ملخَّصًا، عن ج. مردوخ. وقد ٱنتهىٰ كلا النقلين إلىٰ كامپانوس النوڤاري (ت ١٢٩٦ [٦٩٥هـ]) ومنه إلىٰ تارتاليا (١٤٩٩ـ١٥٥٧م).

ونَدين لهرمان دي كارينتيا بالترجمة اللاتينيّة الثانية لكتاب "الأصول". وقد قام هـ. ل. ل. بوسار بنشرها. ويبدو أنّ الأصل الذي تُرجمت عنه هو ذاته النصّ الذي نقله الحجّاج إلىٰ العربيّة وٱستخدمه أديلاردو في ترجمته الأولىٰ، ولٰكن مع الرجوع أيضًا إلىٰ ترجمة أديلاردو الثانية. وأخيرًا، أنجز جيراردو الكريموني ترجمةً ثالثة ٱستنادًا إلىٰ النصّ العربي لإسحٰق بن حنين وثابت بن قرّة؛ كما ترجم شرح النيريطي (حيًّا ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، الذي كان قد أدخل أحد البراهين الفعلية لنظريّة فيثاغورس (القضيّة ١، ٤٧)، وكذٰلك شرح عبد الباقي (حيًّا ١١٠٠م [٤٩٣هـ])، للجزء العاشر، وقسمًا من ترجمة أبي عثمان الدمشقي لشرح پاپّو للجزء العاشر ذاته.

لقد كان، مِن ثَمّ، تحت تصرُّف الغرب، منذ نهاية القرن الثاني عشر [٦ هـ]، نصٌّ ـ من مستوىً رفيع ـ [كتاب "الأصول" لأُقليدس]، وكان في وُسعه، ٱنطلاقًا منه وبالاَعتماد علىٰ الشروح العربيّة المذكورة، أن يستمرّ في تطوير الرياضيّات. ولٰكن لم يكن الأمر كذٰلك؛ فعلىٰ حين ٱستُفيد من هٰذه النصوص، في العالم العربي، لتحقيق التقدّم في مضمار العلوم البحتة، فقد وُضعت، في الغرب، في خدمة

الفلسفة، وٱنقضت مئاتٌ من السنين قبل أن يتأتّىٰ [لهم في الغرب] أن يطرحوا الإشكاليّة ذاتها التي كانت بادية، ليس في النصوص التي ألمعنا إليها سابقًا وحسب، ولٰكن أيضًا عند أرسطوطاليس نفسه. وحسبنا أن نُمعن النظر في إشكاليّة المصادرة الخامسة كي نتبيّن ذٰلك.

كانت المصادرة ـ أو البديهيّة ـ الخامسة للمتوازيات، معروفةً منذ العصور القديمة، تؤكّد ذٰلك فقرتان لأرسطوطاليس. ففي كتابه "في السماء *De cæle*"، يرىٰ ما يلي:

«*أقول إنّ الوضع هو بحيث إذا لم يكن مجموع زوايا مثلثٍ مساويًا لزاويتين قائمتين، فإنّ قطر "المربّع" قد يكون قياسيًا*». ونقرأ في التحليلات الثانية (٢، ٢)؛ «*ومن شاكلة ذٰلك، علىٰ سبيل المثال، (أنّ مجموع زوايا المثلّث) يساوي أو يزيد أو ينقص عن زاويتين قائمتين*». وذٰلك يقتضي أنّ هٰذه الإمكانات كان قد جرىٰ النظر فيها في عهد أرسطوطاليس، وربّما قبل ذٰلك بكثير. وأمّا أُقليدس فإنه يُثبت، في المصادرة الخامسة، أنه «*إذا قَطَعَ خطٌّ مستقيمٌ خطّين مستقيمين آخرين، وشكّل في الجهة ذاتها زاويتين داخليّتين مجموعهما أقلّ من زاويتين قائمتين، فإنّ الخطّين إذا مُدّدا إلىٰ ما لا نهاية، فإنّ من شأنهما أن يلتقيا في الجهة التي تكون فيها الزاويتان أقلّ من زاويتين قائمتين*».

وقد حاول العرب أن يُبرهنوا علىٰ هٰذه المسلّمة ـ دون أن ينجحوا كما هو منطقيّ ـ وذٰلك منذ القرن التاسع، حين عمد النيريطي إلىٰ أن يُقلّد في شرحه، عالمًا رياضيًّا يُدعىٰ آگانيس ـ عاش قبل سَمْپليسيوس ـ وٱستبدل بالأُطروحة الأُقليدسيّة أخرىٰ معادلةً لها تقوم علىٰ خطّين متساوِيَي البعد في السطح ذاته، وٱستنتج، ٱنطلاقًا من ذٰلك، وجود مضلّعٍ رباعيٍّ ذي أربع زوايا قائمة، وٱعتقد من ثَمّ أنه برهن علىٰ المصادرة.

وبعد أن تمّت معرفة ما تقدّم من أبعاد المشكلة، ٱهتمّ بها الجوهري،

وثابت بن قرّة، وعمر الخيّام، ونصير الدين الطوسي، وشمس الدين السمرقندي. ولا بدّ أنّ الأفكار، التي عرضها كلٌّ من ٱبن الهيثم في ٱثنين من أعماله ("شرح مصادرات أُقليدس في كتاب الأصول"، و"حلّ شكوك كتاب أُقليدس") وثابت بن قرّة، أمست معروفةً في الأندلس في القرن الحادي عشر [٥ هـ]، فإننا نقع علىٰ أصداء لها عند الكاتب الغربيّ الوحيد الذي تناول هٰذا الموضوع في القرون الوسطىٰ، وهو ليڤي بن گرسون (١٢٨٨_١٣٤٤م [٦٨٧_٧٤٥هـ])، الذي صاغ المصادرة بطريقةٍ مطابقة لإحدىٰ الطرق التي ٱستخدمها المؤلّفون العرب، وفصّل فكرته بصيغةٍ موازية لصيغة ٱبن الهيثم. ويتعذّر علينا الحكمُ بما إذا كان لعمله "شرح المدخل إلىٰ كُتب أُقليدس" *Comentario de la intoducción de los libros de Euclides* المكتوب بالعبريّة، تأثيرٌ ما في نشوء الإشكاليّة الغربيّة حول الموضوع، مع تأخُّر مدّة خمسة قرون عن هٰذه الإشكاليّة [علىٰ الصعيد] العربي. فإن كان الأمر كذٰلك، فإنّ تأثيره أتىٰ مُتزامنًا مع ما أحدثه إصدارُ الترجمة الثانية لكتاب الأصول (روما ١٥٩٤م [١٠٠٢هـ]) للطوسي، التي ٱستفاد منها ج. واليس (١٦٩٣م) وساكيري ولامبير وليجاندر، مُفضيةً _ آخر الأمر _ إلىٰ الهندسات اللاأقليدسيّة للوباتشفسكي وبولياي وريمانّ، التي أدخلها إلىٰ إسبانيا ڤنتورا ريس پروسپر (١٨٦٣_١٩٢٢م).

ومن بين الشُّرّاح، أو المتمِّمين، العرب لأُقليدس، نجد أحمد بن يوسف الداية (حيًّا ٩٠٥م [٢٩٢هـ])، الذي فصّل الأفكار المعروضة في الجزء الخامس من "الأصول"، وفي المجسطي (١، ١٣)، وألّف كتاب "النسب والتناسب"، الذي ترجمه جيراردو الكريموني، إذ وضع الثماني عشرة حالةً الممكنة للنسب (ستّ حالات لثلاثة مقادير، وثمانٍ لأربعة مقادير، وأربعة لستّة مقادير)، وقد ٱستخدم هٰذا الكتابَ فيبوناتشي في كتابه *Liber abaci*، وفي المشكلات حول الضرائب، وبرادواردين في تأمُّلاته حول المتّصل، وكامپانوس النوڤاري في شرح تعريفات الجزء الخامس من "الأصول". ويتّهم هٰذا الأخير (بحقٍّ) ٱبنَ الداية بٱستخدامه، أحيانًا، الدور الفاسد منهجًا في البرهان!

وترجم روبيرتو دي شيستر، في ١١٤٥م [٥٤٠هـ]، القسم الأوّل من كتاب الخوارزمي المسمّىٰ "المختصر في حساب الجبر والمقابلة"، تحت عنوان *Liber algebræ et almucabola*. وما هو إلّا قليل حتّىٰ أنجز جيراردو الكريموني ترجمة ثانية للكتاب بعنوان *De jebra et almucabola*، وهي أفضل من الأولىٰ، وتتفوّق حتّىٰ علىٰ الترجمة الإنكليزيّة المعاصرة التي أنجزها ف. روسن. وهٰكذا دخل إلىٰ أوروبة عِلْمٌ ظلّ مجهولًا كلّ الجهل حتّىٰ ذٰلك التاريخ، تُرافقه مصطلحاتٌ جديدة ما زالت متقلّبة، ولٰكن بلغت تمام التطوّر. وقد أُطلقت، علىٰ هٰذا المبحث الجديد، الكلمتان الفنّيّتان اللتان وردتا في عناوين ترجماته اللاتينيّة الأولىٰ، إلىٰ أن أخذ كناشي (في القرن الرابع عشر) في اَستعمال الكلمة الأولىٰ فقط، كلمة الجبر **álgebra**. وما هي إلّا مئتا عام، حتّىٰ كان هٰذا التجديد قد فرض ذاته، في نهاية الأمر، وأُهملت كلمة المقابلة كلّيًّا!

يذهب گاندز إلىٰ أنّ كلمة "جَبْر" قد تكون منحدرةً من كلمة گبرو **gabru** الآشوريّة. وقد يكون الاَشتقاق مقبولًا من وجهة النظر العلميّة، ذٰلك أنّا نجد ــ فيما يربو علىٰ مئةٍ من الرُّقُم الرياضيّة التي ترجع بتاريخها إلىٰ الألف الثاني قبل الميلاد ــ مسائلَ من الصنف الجبري، مُماثلةً للتي يقترحها الخوارزمي. وتُبيِّن ــ بحسب رأي برونيس ــ أنهم كانوا يعرفون المعادلات النموذجيّة الستّ التي اَستخدمها الخوارزمي. ومع ذٰلك، يؤخذ علىٰ هٰذا الاَشتقاق، من وجهة النظر التاريخيّة الخالصة، أنه يَفتقد شهادةً تؤيّده في أيّة لغةٍ وسيطة، وعلىٰ التعيين اليونانيّة؛ ومن العسير أن يستمرّ قائمًا في اللغة الآراميّة، بمفردها، حتّىٰ عصر الخوارزمي[10]. ولعلّه أكثر اَحتمالًا أن تكون هٰذه الكلمة ذاتَ "أصول طبّيّة"، حيث يعني الفعل "جَبَرَ": وَضَعَ، أَوْلَجَ العضو المنخلع [أو العظم المكسور] في موضعه؛ تمامًا كما هو الحال، في زمننا، في معجم الأكاديميّة الملكيّة الإسبانيّة، حيث تعني ضمنًا كلمةُ الـ **álgebra** عمليةً حسابيّة وتأشيرها، وكلمةُ **algebrista** مرادفةً لكلمة خبير بالجروح [خبير بالكسور! أي المُجَبِّر][11]! وفي النصوص التي

نحن بصددها تقوم كلمة "جَبْر" على تغيير موضع الحدود بغية جعلها جميعًا حدودًا موجبة، على نحو ما يلي:

$$٦س^٢ - ٣٦س + ٦٠ = ٢س^٢ - ١٢$$

وتُصبح بواسطة الجبر (أو باللاتينيّة restauratio ،jebra ،algebre) ما يلي:

$$٦س^٢ + ٦٠ + ١٢ = ٢س^٢ + ٣٦س$$

إنّ مصطلح "المُقابلة" (...oppositio)، الذي يُفيد حرفيًا معنى "مقارنة" بين مقدارين، يُعادل ما نعرفه - اليوم - بأختصار الحدود المُتماثلة، ومن ثَمّ تتحوّل المعادلة السابقة إلى:

$$٤س^٢ + ٧٢ = ٣٦س$$

وهٰذه المعادلة الجديدة هي، الآن، أحد النماذج - الأنموذج الخامس - التي سنراها حالًا، ولٰكنّ المعادلة الموضوعة على هٰذا النحو، يُمكن تبسيطها بتقسيم طرفيها على أربعة (حَطّ، رَدّ) فتصبح في الصيغة التالية:

$$س^٢ + ١٨ = ٩س$$

وفي المعادلات، التي تشتمل على مقادير كسريّة، نقوم بحذف مقامات [مخارج] الكسر [إكمال].

أمّا باقي المصطلحات، فلها ما يوازيها في اللغة السنسكريتيّة، ويكون ذٰلك في الكلمات التي تدلّ على العدد المطلق (درهم، باللاتينيّة dragma، بالسنسكريتيّة rûpa أو rûpaka)، وعلى المقادير بوجهٍ عامّ (مال، dhānam ،census)، وعلى المجهول (شيء، res، ars rei، [وبالسنسكريتيّة] yāvat tāvat، وأنظر في الألمانيّة regel coss، وفي الإيطاليّة arte (regola) de la cosa)، وعلى جَذْرِ مال (ŷidr، radix).

وقد وضع الخوارزمي النماذج التالية، التي يُتوصَّل إليها بعد إجراء العمليّات التي بيّنّاها توًّا،

١) آ س^{٢} = ب س

٢) آ س^{٢} = ج

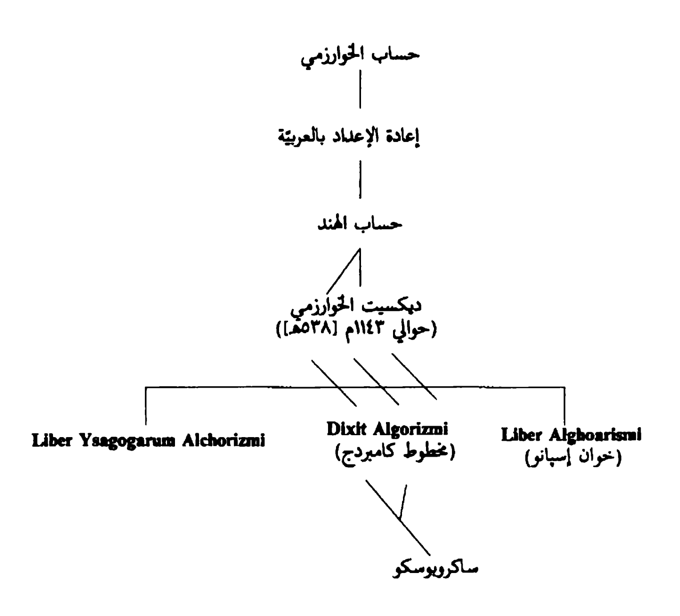
٣) آ س = ج

٤) آ س^{٢} + ب س = ج

٥) آ س^{٢} + ج = ب س[12]

٦) آ س^{٢} = ب س + ج

وفي وقتٍ معاصر لهٰذه الترجمات، ظهر كتاب الخوارزمي في التطبيق الحسابي *liber alghoarismi de practica arismetrice*. ولم يعد الأمر يتعلّق بحساب الخوارزمي، وإنما "بإعادة إعدادٍ" هي من وَضع مؤلِّفٍ مسلم، أو يوحنّا الإشبيلي نفسه. وهو يستخدم كسورًا عشريّة (وإن لم يكن على الدوام النظام العشري). ولا يتطرّق لذكر المعداد، ويختتم بمُربّع سحريّ. ويبدو أنّ هٰذا العمل، عينه، قد ترجمه جيراردو الكريموني، وأمّا العلاقات، بين كتاب "حساب الهند" *numero indorum* كما تُقدّمه مخطوطةُ كامبردج الفريدة التي قد نكون مَدينين بها إلى أديلاردو دي باث، وبين "كتاب الخوارزمي" *Liber alghoarismi* ليوحنّا الإشبيلي، فإنّ في وُسعنا ان نتبيّنها في المخطّط التالي، الذي نقتبسه من ك. فوگل:



وقد اُستخدم الكسور المصريّة، أي كسورًا بَسْطُها [صورتُها] العدد ١، يُضاف إليها ٢\٣ و٣\٤ وتُجمع هذه، فتشكّل الكسور الباقية. وهكذا على سبيل المثال:

$$\frac{١}{٣} + \frac{١}{١٥} = \frac{٢}{٥}$$

$$\frac{١}{٤} + \frac{١}{٢٨} = \frac{٢}{٧}$$

$$\frac{١}{١٠١} + \frac{١}{٢٠٢} + \frac{١}{٣٠٣} + \frac{١}{٦٠٦} = \frac{٢}{١٠١}$$

ولقد ظهر، قديمًا، هٰذا النمط من الكسور في جدول على ورق البَرْدي في رِنْد Rhind. ونجد، في ورق البَرْدِي بِفيينًا (القرن الأوّل قبل الميلاد)، هٰذا النمط من الترقيم مُفصَّلًا تفصيلًا كبيرًا. وتظهر، على سبيل المثال، العمليّة التالية:

$$٥٢ + \frac{١}{٢} + \frac{١}{٨} + \frac{١}{١٦} + \frac{١}{٣٢} + \frac{١}{٦٤} = ٥٢\,\frac{٤٧}{٦٤}$$

(ولْنلاحظ أنّ مقامات (مخارج) الكسور الأربعة الأخيرة تُشكّل متواليةً هندسيّة). ولٰكن، حتّىٰ في تلك الحِقبة، كانت تترافق الكسور المصريّة مع الكسور العامّة، لأنّ ورق البردي ذاته يُسجّل ٢\٥، ٤\٥، ٧\٥، ٣\٢٠ دونما ضرورة لهٰذه.

واستخدم هٰذه الطريقة كلٌّ من ديديموس، وبطليموس، وبروكليس (٤١٠ـ٤٨٥م).

وتمّ انتقال هٰذه الكسور، في القرون الوسطىٰ، عن طريقين يُفضي كلاهما إلىٰ يوحنّا الإشبيلي؛ فأمّا طريق أهل العلم، فتَدين به ـ حسب رأي البيزنطي پسيللو (١٠١٨ـ١٠٧٨م [٤٠٩ـ٤٧١هـ]) ـ لأنتدليوس الإسكندراني (حيًّا ٢٦٩م) وديوفانتوس، اللذين كتبا مصنّفاتٍ حول مناهج الحساب المصريّة؛ وأمّا الطريق الشعبي، فكان من خلال أوراق البردي، بميشيگان (الرقم ٦٢١، القرن الرابع) وأخمين (حوالي ٦٠٠م) والأستراكا القبطيّة بوادي سرگة، والقرآن نفسه.

وفي الواقع، لقد [عمل الإسلام علىٰ تحسين] وضع النساء الاجتماعي. ففي السورة ٤ [النساء]، الآيات ١١ـ١٥ والآية ١٧٦، [نجد] قواعد يُغيّر فيها تلك التي كانت تُتّبع في الإرث حسب قرابة العَصَبة، وهي القواعد الوحيدة التي كانت معروفةً آنذاك، وذٰلك لصالح النساء الأكثر قرابةً داخل الأسرة، الزوجة والأمّ ـ بالإضافة إلىٰ الأب ـ وبذٰلك حماهنّ من "الحَجْب" من قِبَل الأبناء الذكور. وقد دفع تطبيقُ أحكامها إلىٰ دراسة العمليّات الحسابيّة، علىٰ نحوٍ فائق، باستخدام

الكسور المصريّة، وهٰكذا نشأ "علم الفرائض"، أو علم توزيع الميراث، والذي يتحاشىٰ، في جميع الأحوال، آستبعاد السَّلَف والخَلَف*.

وقد آنتقل هٰذا النظام، المتطوّر آنفًا، إلىٰ أوروبة من خلال الترجمات الإسبانيّة وأعمال فيبوناتشي.

وإنها لتتّصف، بأهمّيّةٍ مماثلة أو بأهمّيّةٍ أكبر، العملياتُ ذاتُ الكسور الستّينيّة، تلك التي لا يُستغنىٰ عنها في ممارسة علم الفلك. وقد أتىٰ الخوارزمي ببعض القواعد (Algorismus de minutiis)، التي سُرعان ما دخلت، من خلال كتاب الحساب الهندي ـ ولٰكن علىٰ الأخصّ بفضل يوحنّا الإشبيلي ـ في التعليم بالجامعات الأوروبيّة. ونلاحظ أنّ الأعمال العربيّة في القرن التاسع [٣ هـ]، المخصّصة لهٰذه الموضوعات، كانت تشتمل علىٰ جدول ضرب، علىٰ نسقٍ ستّينيّ، يتألّف من ٥٩ × ٥٩، أو ٦٠ × ٦٠ (= ٣٦٠٠) خانة، مماثلةً لجدول الضرب الذي نُسمّيه جدول فيثاغورس، وإنما يظهر لأوّل مرّةٍ في كتاب علم الحساب لبوئيثيو (أو كسبورگ ١٤٨٨م)[14]. وقد ورد جدولٌ ستّونيٌّ من هٰذا الصنف في عمل خشيار بن اللبان (حوالي ٩٧١ـ١٠٢٩م [٣٦٠ـ٤٢٠هـ])، "كتابٍ في أصول حساب الهند"، وهو مفقود للأسف، علمًا بأنّ أقدمَ جدولٍ محفوظ هو ذٰلك الذي نجده في الترجمة اللاتينيّة للجداول الفلكيّة للخوارزمي (الورقة 57 B)، والتي أنجزها أديلاردو دي باث[15]، ويُذكّرنا هٰذا النوع من الجداول بتلك التي نراها (مطبّقة علىٰ النظام الستّينيّ

* جاءت العبارة، في الإسبانيّة، علىٰ هٰذه الصورة: «وفي الواقع، لقد سعىٰ محمّد، بقدر ما سمحت له قدراته، إلىٰ أن يُحسّن من وضع المرأة الاجتماعي. وفي السورة ٤، الآيات ١١ـ١٥ والآية ١٧٦، "يضع" (!) قواعد يُغيّر فيها تلك التي كانت تُتّبع في الإرث...»، فآستبدلنا بها ما أثبتناه أعلاه.

ونحن لن نناقش البروفسّور خوان فيرنيت في آعتقاده، أو قناعته، في أمر القرآن الكريم، ما إذا كان منزّلًا من عند الله أو أنه من "وضع" النبي محمّد ﷺ، ولٰكنّا كنّا نودّ لو أنه آكتفىٰ ـ آنسجامًا مع نزاهته العلميّة الملحوظة ـ بالإشارة إلىٰ الآيات القرآنيّة التي تُعزّز رأيه، دون المساس بعقيدة المسلمين، الذين ألّف كتابه هٰذا في بيان منجزات حضارتهم التليدة.

المطلق، بينما كانت القرون الوسطىٰ تستخدمها فقط في الكسور) في اللوحات المسماريّة التي كانت توضع للغرض ذاته.

وربّما كنّا نَدين لجيراردو الكريموني بأنه عرّف العالم اللاتيني بكتابٍ وصل إلينا أصلُه اليونانيّ منقوصًا، ونعني به "مخروطات" أبولونيوس دي پيرگا التي نشأت عنها في حقل الرياضيّات نظريّةُ المقاطع المخروطيّة، والتي برهن فيها أنّ القطع المكافئ، والقطع الزائد، والقطع الناقص [أهليلج]، ومحيط الدائرة، تحدُث من تقاطع مخروطٍ وسطح يُشكّل، بالتدريج، زوايا مختلفة مع محوره. ونَدين له في ميدان علم الفلك بنظريّة الدوائر مختلفة المراكز[16].

وكان كتاب "المخروطات" يشتمل علىٰ ثمانية أجزاء، تلقّينا منها باليونانيّة (الأجزاء ١ـ٤) وبالعربيّة (الأجزاء ١ـ٧)، وفُقِد الثامن. ونَدين بترجمة الأجزاء الأربعة الأولىٰ إلىٰ العربيّة لهلال الحمصي، وبترجمة الأجزاء الثلاثة الأخرىٰ (٥ـ٧) لثابت بن قرّة، الذي لم يقف آنئذ إلّا علىٰ النظريّات الأربع الأولىٰ من الجزء الثامن، وقد تُرجم هٰذا النصّ إلىٰ اللاتينيّة، وابتداءً من ١٥٣٧م بدأ نشر الإصدارات المطبوعة. وأخرج هالي في طبعةٍ رئيسة (أكسفورد ١٧١٠م) الأجزاء الأربعة الأولىٰ (باليونانيّة) والأجزاء الباقية باللاتينيّة.

وقد أتاح المترجمون الإسبان، في القرن الثاني عشر [٦ هـ]، للغرب أن يطّلع علىٰ أسلوبٍ من أدقّ أساليب الهندسة اليونانيّة، يُعَدّ رائدًا يُرْهِص بحساب لامتناهي الصِّغَر، أسلوب التحليل الاستنفادي، الذي وصف أرخميدس خصائصَه أحسنَ وصف، وكان واحدًا من أكبر من استخدموه في كتابه "المنهج"[17]. وكان بنو موسىٰ وثابت بن قرّة أكثر المستفيدين من هٰذا النظام، اقتفىٰ الأوّلون [بنو موسىٰ] مصادره اليونانيّة، فطوّروها وأغنَوها بصِيَغ وبراهين جديدة، وعمّم ثابت بن قرّة ـ الذي كان تلميذًا لهم ومساعدًا ـ هٰذا النظام، حسبما أثبت يوشكفيتش[18]، وتُعتبر طريقته ـ كما بَسَطها في كتاب "تربيع القطع المكافئ" ـ منهجًا حديثًا في حساب التكامل سابقًا لأوانه.

وترجم جيراردو الكريموني العمل الأساسي لبني موسىٰ، "كتاب معرفة مساحة الأشكال"، ترجمةً جيّدة جدًّا بعنوان *Verba filiorum Moysi filii sekir*، وأدخل إلىٰ الغرب، لأوّل مرّة، المعارف التالية:

١ـ البرهنة علىٰ القضية الأولىٰ من **De mensura circuli**، بشكلٍ يختلف عن برهنة أرخميلس، ولٰكنها ترتكز، أيضًا، علىٰ التحليل الاَستنفادي؛

٢ـ تحديد π؛

٣ـ نظريّة هيرون (ولٰكنها وردت قبل ذٰلك في كتابٍ لأرخميلس لم يُحفَظ إلّا في نسخة عربيّة)[19] حول مساحة المثلّث تبعًا لأضلاعه

$$(A^2 = s(s-a)(s-b)(s-c))$$

٤ـ مساحة المخروط وحجمه؛

٥ـ مساحة الكرة وحجمها، علمًا بأنّ برهنة أرخميلس من شأنها أن تعادل حساب [المعادلة التالية] (باَصطلاحاتٍ رمزيّة معاصرة):

$$\int_0^{\pi} 2\pi r^2 \operatorname{sen} \varphi \, d\varphi = 4\pi r^2$$

هٰذا وقد حَسَب بنو موسىٰ سلسلةً متناهية:

$$\cos\frac{\pi}{4n}\cot\frac{\pi}{4n} < 2\sum_{k=1}^{n} \operatorname{sen}\frac{k\pi}{2n} < \csc\frac{\pi}{4n}$$

٦ـ دستور للحصول علىٰ مساحة الدائرة (πr^2)، الذي جاء لينضمّ إلىٰ دستور أرخميلس ($1/2\ cr$)

٧ـ دراسة مشكلة الحصول علىٰ معدّلين متناسبين بين مقدارين معيّنين، وتقديم حلّين: الأوّل: الحلّ المنسوب إلىٰ مينيلاوس، وبحسب رأي أوتوسيوس، إلىٰ أركيتاس[20]؛ والثاني: الحلّ الذي يُقدّمه بنو موسىٰ بوصفه خاصًّا بهم، بينما ينسبه أوتوسيوس إلىٰ أفلاطون؛

٨ ـ أوّل حلّ باللاتينيّة لمشكلة تقسيم الزاوية إلىٰ ثلاثة أقسام، وهو يُذكّر بالحلّ الذي يُقدّمه أرخميدس في *Lemnata*، أو *Liber assumptorum*،

٩ـ طريقة لاَستخراج جذور تكعيبيّة، مع كلّ ما يُرغب فيه من تقريب.

لقد كان لهٰذه الترجمة التأثيرُ الحاسم في العالم الغربي، فقد اَستخدمها فيبوناتشي في كتاب "التطبيق الهندسي"، واَستلهمها كلّ من جوردانوس نيموراريوس وروجيه بيكون وتوماس براداواردين وجميع الرياضيّين الأوروبيّين تقريبًا، حتّىٰ عصر النهضة.

بيد أنّ مشكلة اللامتناهي الصّغر، لم تَبلُغ الغرب عن طريق الرياضيّات وحسب، بل عن طريق الفلسفة أيضًا ـ ولنعد بالذاكرة إلىٰ اَنتقادات بِرْكِلي التي ظهرت بعد خمسة قرون! ـ وذٰلك نتيجةً لفكرة اللحظة حسبما أمكن الوقوف عليها عند الكِنْدي في كتابه *Liber de quinque essentiis* [كتاب الماهيّات الخمس]، أو في فِقرةٍ ما عند أبراهام بار حيّة لدىٰ تناوله للّامتجزّئات.

ولقد اَسترعىٰ اَنتباه المترجمين الإسبان، أيضًا، كتابٌ آخر لأرخميدس، هو *De mensura circuli*، الذي عرفوه في الترجمة العربيّة الممتازة لثابت بن قرّة، اَنطلاقًا من نصّ أصليّ قديم مختلف عن النصّ اليوناني الذي نحتفظ به حاليًا وأفضل منه. وسرعان ما أدركوا، لدىٰ مجرّد قراءتهم إيّاه آنذاك، أنهم أمام عملٍ أفضلَ بما لا يُقاس، من ذاك الذي كان فرانكو دي ليبخا (حيًّا ١٠٥٦م [٤٥٧هـ]) قد كتبه قبل قرنٍ من الزمان، والذي لا نلمس فيه تأثيراتٍ مشرقيّة. لذٰلك لم تكن تُستغرَب تلك المبادرةُ إلىٰ إنجاز ترجمتين له، لأفلاطون التيفولي ولجيراردو الكريموني. وقد كانت ترجمة الكريموني، التي اَستفاد منها كلّ من جيراردو البروكسلي وروجيه بيكون وبراداواردين وغيرهم، نقطةَ اَنطلاقٍ لكلّ الأعمال التي كُتبت حول هٰذا الموضوع حتّىٰ عصر النهضة. وقد طرأ، علىٰ النسخ التي أُخذت عنها، كلّ لونٍ من ألوان التعديل، والإضافة، والحذف، والإكمال، وذٰلك ما يُبيّن الكيفيّة التي نمّىٰ فيها العالَمُ اللاتينيّ، خطوةً خطوة، معارفه، وتمرّن علىٰ اَستخدام التحليل الاَستنفادي.

حواشي المؤلّف

1. نشره عبد الرحمٰن بدوي "منطق أرسطو" (القاهرة، ١٩٤٩) صص ٣٠٩ـ٤٦٢.

2. "رسالة في العقل"، نشرها ألبينو ناجي في كتابه "رسائل الكندي الفلسفيّة.."، ٢٢، ٢ (١٨٩٧ مونستر) صص ١ـ١١.

3. نشر أ. ناجي النصّ اللاتيني في كتابه "رسائل.." المذكور آنفًا، صص ٢٨ـ٤٠، وقد ترجم أبو رضا [هٰذا الكتاب] إلىٰ العربيّة (القاهرة، ١٩٥٣)، صص ١ـ٣٥.

4. ما زال هٰذا النوع من الكِهانة يُمارَس، حاليًا، في أفريقية الشّماليّة والصحراء (وليس في المشرق)، وهو ما تبقّىٰ من العِرافة. ويُقال، تقليديًّا، أنّ الخليفة علي [بن أبي طالب] والفيلسوف الكندي هما اللذان حدّدا قواعدها. راجع كتاب توفيق فهد "العِرافة..." ص ٣٩٥.

5. نشره ع. بدوي في كتابه "الأصول اليونانيّة للنظريّات السياسيّة في الإسلام" (القاهرة، ١٩٥٤)، صص ١٦٧ـ٧١.

6. لم يُميَّز، في القرون الوسطىٰ اللاتينيّة، بين هٰذا المؤلِّف، المعروف بٱسم [أقليدس] الإسكندراني، وبين أقليدس المگاري، تلميذ سقراط وصديق أفلاطون. وٱستمرّ الخلط إلىٰ أن صحّحه فيديريكو كومّادينو في ترجمته اللاتينيّة (پيسارو، ١٥٧٢). وترىٰ النصوصُ العربيّة (الفهرست، ٱبن القفطي، ٱبن خلدون) أنّ علماء الهندسة يَبرُزون، أساسًا، من بين طائفة النجّارين.

7. يقول لنا "الفهرست"، ص ٢٦٥، أنّ الحجّاج يوسف بن مطر نقله نقلَين ٱثنين، أحدهما يُعرف بالهاروني [نسبة إلىٰ الخليفة هارون الرشيد]، وهو الأوّل، ونقلًا ثانيًا هو الذي يُعرف بالمأموني [نسبة إلىٰ الخليفة المأمون]، وعليه يعول.

8. "الفهرست"، ص ٢٦٦، السطور ٩ـ١٤، و"طبقات الأمم".

9. يُعَدّ كتاب "الأصول" *los Elementos* عملًا لعدّة مؤلّفين، ويُسلَّم بأنّ الأجزاء ١ـ٤

تعود إلى أيام الإيونيّة والفيثاغوريّة، والجزأين ٥ و٦ من تأليف أودوكسيوس، والأجزاء ٧ـ٩ فيثاغوريّة، والعاشر من تأليف تيئيتيتوس، والحادي عشر إيوني، والثاني عشر من تأليف أودوكسيوس، والثالث عشر من تأليف تيئيتيتوس. وأقلّ ما يُمكن قوله هو أنّ هناك ٱختلافاتٍ بالغةً في شأن هٰذه التنسيبات.

10. يؤكّد أبسقلاوس وجيمينوس أنه كان للبابليّين مصنّفاتٌ في الرياضيّات، لم تصل إلينا، ولٰكن لا يرقىٰ أيٌّ منها إلىٰ تاريخ له من القِدَم ما للرُّقُم التي نعرفها اليوم. ولا يبدو لنا أنّ ٱنتقال هٰذه المعارف إلىٰ الإسلام، من خلال العمل اليهودي "مِشنا ها ـ مِدّول" من القرن الثاني للميلاد، والذي نحتفظ به في الطبعة المتأخّرة لأبراهام بار حيّة، أمرٌ مُثبتٌ بما فيه الكفاية.

11. نصرف النظر عن الاشتقاق الذي [كان يُؤخذ به] في القرون الوسطىٰ، ويُرجع أصلَ هٰذه الكلمة إلىٰ ٱسم جابر.

12. يشرح الخوارزمي [هٰذا الأنموذجَ] علىٰ النحو التالي: «إذا صادفتَ مشكلة تعود بك *إلىٰ هٰذه الحالة، تحقّقْ ممّا إذا كانت تُحَلّ عن طريق الجمع، وإلّا فإنها تُحَلّ بالضرورة عن طريق [باقي] الطرح. وهٰذه الحالة تقتضي جمعًا وطرحًا. والأمر ليس كذٰلك فيما يتعلّق بالحالات الأخرىٰ، حيث ينبغي أخذ نصف الجذور*».

ولم يكن العرب يتناولون الحالة التالية، وهي أ س^{٢} + ب س + ج = ., وذٰلك لأنها ذات جذرٍ سلبي، ولم يفهمها لا العرب ولا ديوفانتو ولا ديكارت. أمّا السومريّون والهنود فقد فهموها.

13. راجع كتاب سانشيث پيريث "علم الحساب في بلاد بابل ومصر" (مدريد، ١٩٤٣)، صص ٣٦ـ٤٠، حيث نجد، فضلًا عن ذٰلك، جدولًا حول التحليل إلىٰ كسور مصريّة.

14. كان قد مثّله، في العالم العربي، ٱبنُ البَنّا، في شكلٍ مقسّم إلىٰ مثلّثات.

15. تحتفظ الأدبيّات العربيّة اللاحقة بنماذج من هٰذا الصنف من الجداول.

16. "المجسطي"، ١٢، ١.

17. ٱكتشف هايبرگ هٰذا العمل، المجهول (؟) بالنسبة إلىٰ العرب، في رَقٍّ بالقسطنطينيّة (١٩٠٦).

18. "تاريخ الرياضيّات في القرون الوسطىٰ"، (بال، ١٩٦٤)، صص ٢٨٨ـ٢٩٥. وهو يُحدّد مساحة جزء من قطع مكافئ بطريقة جموع التكامل، ويحسب،

$$\int_0^a \sqrt{x\,dx}$$

ويُطبّق تقسيم جزء التكامل إلى أقسام غير متساوية تشكّل متواليةً حسابيّة. وقد نشر بوشكيفيتش دراستين أُخريين حول هذه الموضوعة، إحداهما "مذكّرة حول الحسابات التفاضليّة عند ثابت بن قرّة"، *AIHS* ١٧، ٦٦ (١٩٦٤)، صص ٣٧_٤٥. ونجد مثل هذه الأفكار في عمل آخر لثابت بن قرّة حول انحناء المكافئات الدورانيّة.

19. راجع، في شأنها، مقال خ. ڤيرنيت وأ. كاتالا "أرخميدس العربي، مبحث الدوائر المماسة"، المنشور في مجلّة *Al-Andalus* ٣٣ (١٩٨٦)، صص ٥٣_٩٣.

20. [المصدر السابق]، هذه المسائل محفوظة في المخطوط العربي ٩٦٠ في الإسكوريال.

الفصل السادس

العلوم في القرن الثاني عشر [م]

علم الفلك، والتنجيم، والبصريات، والسيمياء، والطب

- علم الفلك
- علم التنجيم
- البصريات
- السيمياء الباطنية
- كتاب "المنتخبات الفلسفية"
- السيمياء الظاهرية
- الطب

الفصل السادس

العلوم في القرن الثاني عشر [٦ هـ]

علم الفلك، والتنجيم، والبصريات، والسيمياء، والطب

علم الفلك:

نَدين لجيراردو الكريموني بترجمة عملين جليلين لأرسطوطاليس: [الأوّل] "كتاب السماء"، الذي عرفته القرونُ الوسطىٰ موحّدًا غير منفصلٍ عن "كتاب العالم"، و[الثاني] "كتاب الظواهر الجوّيّة" [الآثار العُلْويّة]. وقد كان الأوّل موضع ترجماتٍ عربيّة مختلفة، أنجز منها يحيىٰ بن البطريق الترجمتين الأُولَيَيْن، وكان سرجيوس الرأسعيني قد ترجم إلىٰ السُّريانيّة ـ ثمّ منها إلىٰ العربيّة ـ كتاب العالم، الذي يتألّف من موادّ أُعيد إعدادها في القرن الأوّل قبل الميلاد. ونُقِل شرح تمستيوس إلىٰ العربيّة، وهو مفقودٌ في اليونانيّة، وفيه كانت تُبيَّن مختلف الأنظمة الفلكيّة، التي كانت معروفةً في العصور القديمة ـ وعَرَضًا ـ مبدأ دوران الأرض المنسوب إلىٰ أفلاطون (كتاب السماء).

وقد نَقل ابنُ البطريق إلىٰ العربيّة كتاب الظواهر الجوّيّة، انطلاقًا من أصل سُرياني، وترجم جيراردو الكريموني الأجزاء الثلاثة الأولىٰ منه إلىٰ اللاتينيّة. أمّا

الجزء الرابع ـ الذي يتناول السيمياء والذي قد نَدين به إلىٰ استراتون ـ فكان محلّ ترجماتٍ مختلفة عربيّة ـ لاتينيّة، إحداها ترجمة لميگيل اسكوتو. ويغلب علىٰ الظنّ أن يكون هٰؤلاء المترجمون قد أستعانوا بشرح أولمپيودوروس، الذي عَثَر الدكتور عبد الرحمٰن بدوي حديثًا علىٰ أصله العربيّ. لقد وضع أرسطوطاليس، في هٰذا الكتاب، المبدأ الذي يربط بين الكون الأكبر والكون الأصغر، وهو المبدأ الذي أستخدمه المنجّمون والسّيمياتيّون فيما بعد كثيرًا: «*يرتبط هٰذا العالم بشكلٍ ما، وعلىٰ نحوٍ ضروريّ، بالحركات الموضعيّة للعالم العُلْوي، بحيث إنّ كلّ ما في عالمنا من القوّة محكومٌ بهٰذه الحركات، ومن ثَمّ فإنّ مبدأ الحركة هو ـ من بين الأشياء جميعًا ـ الذي يجب أعتباره العلّة الأولىٰ*». وتُلخّص هٰذه الفِقرة، في لوح الزُّمُرُّد *Tabula Smaragdina* كما يلي: «*يتبع العالمُ السفليُّ العالمَ العلويّ، وتتوقّف الأجسام الفرديّة في الأوّل علىٰ تلك التي في الثاني، لأنّ الهواء متّصل مع خارج الأجسام كلّها، ومن جهةٍ أخرىٰ مع الأفلاك*».

وإلىٰ هٰذا الصّنف من الأعمال ـ التي يُمكننا أن نُسمّيها الأعمال المتعلّقة بالوصف العامّ للكون ـ ينتمي العمل الذي عرّف به خ. م. ميّاس تحت عنوان: "كتاب في علم الفلك غير معروف ليوحنّا بن داود الإسباني"، ولاسيّما كتابُ الفرغاني "أصول علم النجوم" الذي ترجمه يوحنّا الإشبيلي (١١٣٤م [٥٢٨هـ]) وجيراردو الكريموني، وعن ترجمة هٰذا الأخير أنبثقت الترجماتُ الإيطاليّة والفرنسيّة في القرون الوسطىٰ.

لقد أثّر هٰذا المصنّف تأثيرًا كبيرًا في الغرب حتّىٰ عصر ريجيومونتانو؛ وفي نسخةٍ من كتاب صورة العالم *Imago mundi* لپيدرو دي آيي ـ محتَفَظٍ بها في مكتبة كولومبوس ـ أَدْرَج، هٰذا الأخيرُ، حاشيةً ـ [يعود تاريخُها إلىٰ] ما قبل (؟) أكتشاف أميركا ـ يُعرب فيها عن موافقته علىٰ رأي الفرغاني حول قيمة درجة خطّ نصف النهار الأرضي، وهي ليست إلّا القيمة التي حدّدها فلكيو الخليفة المأمون. ويؤكّد كولومبوس قائلًا: «لقد رصدتُ بأهتمام، لدىٰ إبحاري من لشبونة نحو جنوب

غينيا، المسارَ الذي يسلكه الربابنة والبحّارة. وقِسْتُ عُلُوَّ الشمس بالمزولة الرُّبعيّة وأدواتٍ أُخرىٰ باتّجاهاتٍ مختلفة، فوجدتُه مطابقًا لمعطيات الفرغاني، اي انّ كلّ درجة يُقابلها ٢\٣ ٥٦ من الأميال....»[1]، وهٰذا من شأنه أن يُعادل، بدوره، تقريب الشواطئ الشرقيّة لآسيا، علىٰ نحوٍ غريب، من الشواطئ الغربيّة لأوروبة، وذٰلك ما يُفسّر لنا اعتقاد كولومبوس أنه قد وصل إلىٰ الهند عندما وطئت قدمه الأرض.

ويُلاحَظ أنّ أوّل ما ذكره العرب من قياسٍ للأرض، قد دخل إلىٰ الغرب مع الجداول الفلكيّة التي ترجمها أديلاردو دي باث عام ١١٢٦م [٥٢٠هـ]، تحت عنوان: *Ezich Elkauresmi per Athelardum bathoniensem ex arabico sumptus*، وإنّا لنعرف بالتفصيل أمر دخولها إلىٰ إسبانيا، كما نعرف بعض سمات تحريرها، وذٰلك بفضل المراجع الأدبيّة التي تُقدّمها لنا النصوص العربيّة - الغربيّة [الأندلسيّة] وبعضُ النصوص اللاتينيّة من القرن الثاني عشر.

ولأننا سنستخدم فيما يلي، غيرَ ما مرّةٍ، كلمتَي: "جدول" و"تقويم"، فليس يخلو من فائدةٍ أن نُذكّر بالتعريف الذي يُقدّمه معجم الأكاديميّة الملكيّة [الإسبانيّة] عن كلٍّ منهما. فالجدول هو: «لوحة، أو قائمة، تشتمل علىٰ أعدادٍ من نوعٍ محدَّد»، بمعنىٰ أنه لا يرتبط ارتباطًا نظريًّا وثيقًا بتاريخ معيّن. فهي جداول فلكيّة، علىٰ سبيل المثال، جداولُ پ. ف. نويگيباور لحساب التقويمات الفلكيّة المتعلّقة بالماضي. أمّا التقويم فهو «سجلٌ لكلّ أيّام السنة، موزّعةً بحسب الشهور، مع معطياتٍ فلكيّة، وبياناتٍ متعلّقة بالأعياد الدينيّة، والاحتفالات المدنيّة... إلخ»، ونحن نفهم هٰذه الكلمة بمعناها النوعي إذا ما قامت علاقةٌ مقابلة نظريّة وثيقة بين مجموعة من التواريخ ومجموعة أخرىٰ من مواقع الكواكب، كالحال مثلًا في التقويمات الحديثة التي وضعها ب. توكرمان، أو في حوليّات مرصد مدريد، أو "تقويم" سان فرنسيسكو.

ويتكوّن كلٌّ من صنفَي الكتب، عادةً، من قسمين: مقدّمة تُبيّن طريقة الاستخدام، وأحيانًا، الأسلوب الذي اتُّبع في إجراء الحسابات (القوانين، القواعد)؛ ثمّ القسم الخاصّ بالجدول علىٰ وجه التحديد. وهٰكذا فإننا نحتفظ بالترجمة

اللاتينيّة لأديلاردو دي باث الذي اَستند حسب رأي ج. م. ميّاس، إلىٰ ترجمةٍ لاتينيّة أخرىٰ سابقة (١١١٥م [٥٠٩هـ])، نَدين بها لليهودي المتنصّر، پيدرو ألفونسو (موسىٰ سيفاردي سابقًا) من بلدة هويسكا. وقد اَستند هٰذان المؤلّفان، بدورهما، علىٰ التعديل الذي أدخله مَسْلَمة المجريطي (ت حوالي ١٠٠٧م [٥٠٠هـ]) علىٰ خطّ منتصف النهار لقرطبة، وربّما كان تحت نظرهم الأصلُ العربيّ للشرح الذي كتبه أحمد بن المثنىٰ للإصدار الكبير لهٰذه الجداول، لأنّ أبراهام بن عزرا أنجز ترجمته [للشرح]، بعد هٰذا التاريخ بقليل، إلىٰ العبريّة (١١٦٠م [٤٥٢هـ]) وترجمه هوگو دي سانتايا إلىٰ اللاتينيّة (قبل عام ١١٥١م [٤٤٣هـ]).

مع هٰذه الجداول، دخل إلىٰ أوروبة حشد من موادّ من منشإٍ متباين، تُعَلِّم أسلوب حساب التقويمات الفلكيّة التي كانت ضروريّة جدًّا للتمكّن من إعداد خريطة البروج. وهٰذا ما يُفسّر الكمّ الواسع من الجداول المعروفة لدينا. ويصعب جدًّا توصيفها، لأنّ الجداول المنسوبة إلىٰ أديلاردو، تنطوي ـ كما بيّن ذٰلك أ. نويگيباور ـ علىٰ معطياتٍ عديدة مُقْحَمة، وفي العصر الذي تمّت فيه الترجمة اللاتينيّة كانت تُعرف جداول أخرىٰ كثيرةٌ أحصاها أبراهام بن عزرا في "كتاب أسس الجداول الفلكيّة" الذي حرّره باللاتينيّة قبل عام ١١٤٥م [٤٣٧هـ]. وقد ذكر، حرفيًّا، جداول اَبن أبي منصور[2] والزّرقيال الأندلسي.

في هٰذه الترجمة، ظهرت الرموز الرياضيّة الأولىٰ للقرون الوسطىٰ: ثلاث نقاط في وضعيّة مثلّث [∴] تدلّ علىٰ الجمع (+ =)، ونقطة واحدة [.] تدلّ علىٰ الطرح (– =).

مثال ذٰلك:

∴ I . VII

II XLIX XXIX

ويُقرأ [من اليسار إلىٰ اليمين]:

1 + 2 49 7 - 29

لقد تطوّرت أساليب الترميز هٰذه تطوّرًا تدريجيًّا، فمن الكلمة العربيّة "شيء" ـ التي انتقلت إلىٰ اللاتينيّة فأصبحت xai ـ نشأ رمز x لدينا، والعبارات، التي أشرنا إليها فيما تقدّم ـ وهي *ars rei* ،*regola della cosa y regel Coss* التي كانت تدلّ علىٰ كلمة الجبر في عصر النهضة، ظلّت قائمة إلىٰ أن حلّت محلّها كلمة *álgebra*، أي الجبر. وقد استعمل الأندلسي القلصادي الحرف الأوّل من كلمة "جَذْر" العربيّة بهٰذا المدلول. وأخذ رودولف (١٥٢٥م) حرف *R* من كلمة *radix* لنفس الغاية. ولٰكن الحلول تتباين أحيانًا، فبينما استعمل القلصادي حرف ل وديكارت الحرفين *ae*، وذٰلك علىٰ التوالي اختصارًا من كلمة "المُعَدَّل" العربيّة وكلمة *aequalis* اللاتينيّة، أدخل روبرتو ريكورديه (١٥٥٧م)، وبنفس المدلول، إشارة =، وذٰلك لأنّ «شيئين [متساويين] لا يمكنهما أن يكونا أكثر تساويًا من خطّين مستقيمين متوازيين». وهٰذه الإشارة هي التي فرضت نفسها حين استخدمها نيوتن.

ويهمّنا الزّرقيال علىٰ نحوٍ خاصّ، لأنه حرّر بعض الجداول الفلكيّة (المعروفة باللاتينيّة بالتسمية (*Tabulæ Toletanæ*) التي ترجمها جيراردو الكريموني، مُضيفًا إليها موادّ من مصادر أخرىٰ، مسيحيّة بحسب رأي زينر، وهناك منها مخطوطات لاتينيّة وفيرة، كانت إحداها في حوزة مَن يُدعىٰ رامون، مؤلّف "جداول مرسيليا" قبل ١١٤٠م [٥٣٥هـ]، تاريخ تحرير هٰذه الأخيرة. وربّما يكون أديلاردو دي باث قد استخدم "الجداول الطليطليّة *Tablas toledanas*" لإنجاز ترجمته لجداول الخوارزمي، لأنّ بعض مخطوطات القرن الثاني عشر تُضيف علىٰ الأقلّ مقطعًا مصدره تقويم الزّرقيال، حسبما بيّن ذٰلك ميّاس، كما عرفها روجيه دي هيريفورد (١١٧٨م) مؤلّف جداول لندن (١٢٣٢م)، وروجيه بيكون، وكمپانوس النوفاري، وليوپولدو النمساوي.

وقد حظيت الجداول الطليطليّة باعتبارٍ بالغ، لدرجةٍ أنها تُرجمت إلىٰ اليونانيّة ذاتها ـ انطلاقًا من اللاتينيّة طبعًا ـ حوالي ١٣٤٠م. وكان الزّرقيال ألّفها بأمرٍ من

الملك المأمون [بن ذي النون] ـ راعي ألفونسو السادس ـ الذي كان يرغب في أن يتأثّر خطىٰ الخليفة المشرقي [المأمون العبّاسي] وكان قد تلقّب بٱسمه. وبما أنّ هٰذا الأخير ٱعتزم أن يكون راعيًا لعلماء الفلك ـ كان في خدمته كلٌّ من يحيىٰ بن أبي المنصور، والخوارزمي، وحبيب الحاسب ـ فليس غريبًا أن تكون الجداول التي تمّ وضعها تحت رعايته، وهي "زيج الممتَحَن" أو *Tabulæ probatæ* لدىٰ اللاتينيّين، قد شكّلت مصدر إلهام للزّرقيال[3].

وإذا تركنا جانبًا الخصائص التقنيّة لهٰذه الجداول جميعًا، ولكلّ واحد منها بمفرده ـ ونجد في جملتها جداول خايين التي ٱشتُقّت مباشرةً من جداول الخوارزمي[4] ـ أمكننا أن نتكلّم هنا عن تحليل موضوعين أو ثلاثة توضّح للعَيان ما كان الغرب يَدين به للثقافة العربيّة في أواسط القرن الثاني عشر.

في المقام الأوّل، لم تكن المعرفة الواسعة، القائمة علىٰ التسلسل الزمني ـ سواء من الناحية الرياضيّة أو التاريخيّة ـ لتخلو دائمًا من الأخطاء. كانت تعرض، أوّلًا للتقاويم المختلفة المستخدمة، مع الإشارة إلىٰ الفارق في السنين والأيّام والشهور الذي يفصل بين الأصول المختلفة. ومن البَدهيّ أن يُذكر دائمًا التقويمان المسيحي والإسلامي (أو الهجري)، ويُضاف إليهما ـ في مصنّف الخوارزمي ـ تقويم الطُّوفان، وتقويم الإسكندر[5]، والتقويم الإسباني (السفري) الذي يبدأ قبل التقويم المسيحي، أو التجسّد، بثمانٍ وثلاثين سنة. وفضلًا عن ذٰلك، تتناول "الجداول الطليطليّة" تقويم يزدجرد، وتقاويم أخرىٰ غير مألوفة عندنا، ولم يَسبق لها أن طُبّقت في رقعة بلادنا. وفي الوقت ذاته، وبما أنه كان ضروريًّا لحساب الأزياج التحويل الصحيح للتواريخ في هٰذا التقويم أو ذاك، تعلّمت أوروبة أن تأخذ بعين الٱعتبار وجود تقويم آخر ـ قبالة التقويم الشمسي، السنةُ فيه ٣٦٥ يومًا، المصريّ المنشأ، والخاصّ بالشعوب الحضريّة والزراعيّة، ألا وهو التقويم القمري، والسنةُ فيه ٣٥٥ يومًا. وبينما تتطابق في التقويم الأوّل المراحل الكبرىٰ للحياة الزراعيّة مع الشهور ذاتها عامًا بعد عام، فإنّ أوجه القمر، في التقويم الثاني، هي التي تتطابق مع اليوم ذاته في الشهر،

شهرًا بعد شهر. وهناك نوعٌ ثالث، هو التقويم القمري ـ الشمسي الذي يستعمله عادةً اليهود والكنيسة لتحديد الأعياد المتحرّكة، وهو إمّا أن يُصرَف النظر عن ذكره أو يكتسب أهمّيّةً ثانويّة جدًّا في هٰذا النوع من الجداول.

وبالمقابل، لعبت هٰذه الجداول دورًا أساسيًّا في تعليم الغرب علمًا جديدًا آخر: حساب المثلّثات. ويبدو أنّ أصله عربيٌّ خالص. فقد ٱستخدم اليونانيّون الأوتار ـ عن طريق نظريّات بطليموس ومينيلاوس ـ لحلّ المثلّثات. ومن الممكن أن نقع علىٰ بعض السوابق في تابع (دالّة) أُكُلُو/ شاگال ("ثمرة") وهو يُعادل مُماسّ التّمام [في لغتنا]، وكان يستخدمه العاملون في سجلّ المساحة في الماليّة البابليّة؛ وفي الهند لم يُعرف إلّا في مصنَّفَي السددهنتا والأريابهاطا، اللذين كانا يستخدِمان الجيب وفرق جيب التّمام (1 ـ cos α) حوالي القرن الخامس [الميلادي] بالاًرتباط مع الكرداگاس أو الأقواس ـ الوحدة، تبعًا لأنظمة القياس المختلفة التي كانت مستخدمةً في ذٰلك العصر. وقد ٱستخدم العرب ـ وبالتحديد المجموعة التي كانت تعمل حول يحيىٰ بن أبي منصور وحبش الحاسب ـ الخطّ المماس (R = ٦٠)، ومماسات التّمام (R = ١٢)، ولربّما الخطّ القاطع وقاطع التّمام؛ وأن تكون هٰذه الخطوط لم يُقَيَّض لها أن تدخل، في آنٍ واحد، إلىٰ أوساط العلماء المسلمين في القرن التاسع [٣ هـ]. فالدليل علىٰ ذٰلك أنّ كلّ واحد منهم كان يُعطي قيمًا مختلفة لنصف القطر (١٢، ٦٠، ١٢٠، ١٥٠)؛ وكانت قيد الاًستخدام، دونما تمييز، في كتابٍ ما بعينه في الأندلس في القرن الحادي عشر [٥ هـ]، وفي الترجمات اللاتينيّة في القرن التالي. وكان التطوّر، الذي أدخله العرب إلىٰ هٰذا المبحث، خارقًا، وصل إلىٰ حلّ معادلة كپلر (M = E - e sen e) بطريقة المقاربات المتتالية التي يصفها حبش بالتفصيل. ويكمن الاًختلاف بين كپلر والخوارزمي في أنّ الأوّل توصّل إلىٰ العمليّة الحسابيّة وتأشيرها، فيما توصّل إليه من أشياء أخرىٰ، ليحلّ [مسألة] الاًنتقال من "الحاصّة anomalia" المتوسّطة إلىٰ الحاصّةِ مختلفةِ المركز في الحركة الإهليلجيّة، وأنّ الثاني توصّل إليها لتحديد زوايا الاًختلاف.

وقد كانت الجداول، من وجهة نظر التسلسل الزمني، تُدخِل، ضمنيًّا، من خلال قيمها العدديّة، نظامًا كوكبيًّا جديدًا، لأنها ما دامت تُثبت أنّ الحركات المتوسّطة، أي ما نُسمّيه بالخاصّة المتوسّطة (*medialitas* ،*elwacat*) للزُّهَرة وعُطارد، مماثلةٌ لحركات الشمس، فإنها كانت تُلمح إلىٰ أنّ كلا الكوكبين يدوران حول الشمس. وقد ظهرت هٰذه الفكرة، لأوّلِ مرّة في العالم العربيّ، في أزياج اَبن أبي منصور *Tabulæ Probatæ*. ويُذكّر هٰذا كلّه، بالنظام القديم لهيراكليدس دي پونتو، الذي كان معروفًا لدىٰ طائفة كبيرة من مفكّري العصور القديمة، ووصل إلىٰ القرون الوسطىٰ، مع مرسيانوس كاپيّا وخوان إسكوتو دي إريخينا. ومن ثَمّ فقد وصل هٰذا النظام إلىٰ الغرب اللاتيني عن طريقين مختلفين تمامًا، وهما النقل المباشر الكلاسيكي، والنقل الشرقي من خلال الجداول التي نحن بصددها وجداول أبراهام بن عزرا. وبدءًا من هٰذه الحِقبة (القرن الثاني عشر [٦ هـ]) ظلّ اَستمراره مؤمّنًا، بصفته فرضيّةً ليس إلّا، من خلال جداول ألفونسو، وپويرباخ (ت ١٤٦١م) وكوپرنيكو عينه، إلىٰ أن اَنتهىٰ به الأمر إلىٰ أن يفرض نفسه خلال القرن السابع عشر في الروايتين المختلفتين اللتين وضعهما له تيكو براهي وريكسيولّي.

ومن بين مجموعة الجداول، التي كُتب لها أن تكون ذات تأثيرٍ كبير علىٰ الغرب، علىٰ الأقلّ حتّىٰ القرن السابع عشر، نجد جداول الفلكي المشرقي البتّاني، المعروف لدىٰ اللاتينيّين باَسم **Albategnius**، التي كانت معروفةً من قبل في قرطبة في أواسط القرن العاشر [٤ هـ]، وكانت موضع ترجمتين لاتينيّتين: ترجمة روبيرتو كيتيننسيس المفقودة، وترجمة أفلاطون التيڤولي، وهناك أيضًا الإسبانيّة المترجمة مباشرةً عن العربيّة، وقد تمّ إنجازها بناءً علىٰ أمرٍ من ألفونسو العاشر الحكيم، ولهٰذا العمل أهمّيّته من وجهتي نظر مختلفتين تمامًا: أوّلًا، بحكم إسهاماته العلميّة الذاتيّة، أمثال اَكتشاف الدستور الأساسي لحساب المثلّثات الكروي:

$$\cos a = \cos b \cos c + \text{sen } b \text{ sen } c \cos A;$$

والتبدّل السنوي لقطر الشمس الظاهري [زاوية رؤية الشمس]، والذي يُثبت

أمكانيّة الكسوفات الحلقيّة، وحلّ مسائل حساب المثلّثات عن طريق أستخدام الإسقاط المتعامد، وقد أثّرت هٰذه الطريقة الأخيرة، بعد زمن طويل، في ريجيومونتانو.

ونَدين له، فضلًا عن ذٰلك، بالصياغة النهائيّة للقواعد الرياضيّة وللدورة الكبيسة والتي ما زالت تُنظّم، حتّىٰ وقتنا الراهن، التقويمَ الإسلامي. وأستُخدم لهٰذه الغاية نظام الفلكي البابلي كيدينّو (المعروف بأسم *Cidenas* عند أسترابون، المتوفّىٰ ٣١٥ قبل الميلاد)[6]، الذي يُعتبر مُكتشف طريقة حساب الأزياج والمعروفة بأسم طريقة B، تمييزًا لها عن طريقة A. في الطريقة A (الأزياج من الفئة الأولىٰ)، التي أبتكرها نابوريانوس في عصر داريوس، يُقسّم مدار الكوكب إلىٰ قطّاعاتٍ عدّة يتحرّك الكوكب داخلها بسرعة متماثلة، وهي الطريقة التي أستخدمها الزّرقيال في الصفيحة الزّرقياليّة. وفي الطريقة B (الأزياج من الفئة الثانية)، تتحوّل سرعة الكوكب تحوّلًا تدريجيًّا علىٰ مدىٰ السنة، فتتكيف تكيُّفًا أفضل مع الواقع المرصود، وكان كيدينّو قد أكتشف المساواة التالية: ٢٥١ شهرًا أقترانيًّا = ٢٦٩ شهرًا شمسيًّا، ووضع جداول القمر التي أستخدمها فيما بعد ڤيتيوس ڤالنس، وعلماء التلمود، وأنتقلت إلىٰ العالم الإسلامي وإلىٰ البتّاني، ثمّ أبن ميمون في *Yad ha-hazaqá*، محدّدًا هٰكذا تحديدًا رياضيًّا أوان أعياد القمر الجديد وأقواس رؤية الكواكب السيّارة، بيَقينٍ تامّ.

رأينا كيف تتضمّن ترجمة أديلاردو لجداول الخوارزمي نصوصًا دخيلة مصدرها صفيحة الزّرقيال. وهٰذا الأخير، بدوره، لم يقم سوىٰ بإعادة إعداد (١٠٨٩م [٤٨٢هـ]) إصدارٍ عربيٍّ يعود إلىٰ حوالي ٨٠٠م [١٨٤هـ] لعملٍ سابقٍ أنجزه آمونيوس، وهو، بحسب رأي ميّاس، ليس سوىٰ آمونيوس (ت ٥٢٦م) بن هرمياس، تلميذ بروكلوس وأستاذ داماسيوس وفليبونو وسامپليسيوس، والذي رمّم مدرسة الإسكندريّة في أوائل القرن السادس.

كان هٰذا العمل قد ترجمه، قبل ذٰلك، إلىٰ اللاتينيّة عام ١١٥٤م [٥٤٩هـ] شخصٌ يُدعىٰ يوهانس پاپيينسيس (خوان دي پاڤيا؟)، الذي طابق ما بين السنوات القبطيّة للنصّ العربي وسنوات جوليانوس. ثمّ كان، في وقتٍ لاحق،

موضع ترجمةٍ قشتاليّة عنوانها "كتاب جداول الزّرقيال"، وترجماتٍ أخرىٰ لاتينيّة وعبريّة... إلخ، ويجدر بنا أن نذكر منها ترجمات گيورمو دي سان كلو (١٢٩٦م [٧٠٠هـ])، ولا سيّما ترجمة دون پروفيت طيبون (١٣٠١م [٦٩٥هـ]) التي اَستخدمها الشاعر دانتي في تأريخه لـ"الكوميديا الإلٰهيّة"، وربّما تشوسر أيضًا. وقد أُجري الحساب، فيما يخصّ خطّ طول مونپلييه وتاريخ الأوّل من آذار ـ مارس ١٣٠٠م (١٣٠١ من التجسّد)، وبيّن لنا في التوطئة، أنّ عمله مشتقٌّ من عمل آرمينيوت، تلميذ الملك بطليموس ـ وكان [المصنّفون] العرب يخلطون بين بطليموس الفلكي وبين اَبن أحد اللاخيديسيّين[7] ـ وقد صحّح الزّرقيال ذٰلك علىٰ نحو ما ينبغي. بيدَ أنّ هٰذه التنقيحات لم تكن كافية، وكانت تنطوي علىٰ أخطاء صحّحها پروفيت طيبون، معتمدًا في ذٰلك علىٰ "الجداول الطليطليّة"، وحذف القسم النظري بأكمله: حساب المثلّثات، تاريخ الأحداث، الرياضيّات... إلخ، مُعدِّلًا الثوابت الإضافيّة في ختام كلِّ مرحلة أو دورة. وأُنجزت، بطرطوشة (١٣٠٧م [٧٠٧هـ])، في الوقت ذاته تقريبًا الذي كان فيه پروفيت طيبون يكتب عمله، ترجمةٌ لاتينيّة جديدة اَنطلاقًا من النصّ العربي، ومن هٰذه النصوص نشأت التّرجمات إلىٰ اللغات الرّومنسيّة، أمثال القطلونيّة والبرتغاليّة والقشتاليّة. وشيئًا فشيئًا تراكمت أخطاء جديدة صحّحها، أو اَكتشفها، أندالو دي نگرو (١٢٦٠ـ١٣٤٠م)، وليڤي بن گرسون وأبراهام زاكوتو. وقد وسّع ريجيومونتانو النصّ ليشمل دورات الأعوام ١٤٧٥ ـ ١٤٩٤ ـ١٥١٣، واَستخدم كوپرنيكو وراينهولد وكلاڤيوس وكپلر التقويم الذي نحن بصدده بحسب التعديلات الأخيرة.

وتُبيّن لنا دراسة القيم الجدوليّة لهٰذا النصّ، الفريدة بين الأدبيّات العربيّة للقرون الوسطىٰ حتّىٰ ذٰلك الحين، أنّنا أمام تهجينٍ للقيم الكوكبيّة والثوابت البطليموسيّة مع نظريّة السنوات ـ الحد[8] البابليّة، محسوبةً بالطريقة الخطّيّة A لنابو ـ ريمانّو، نجل بالاطو (نابوريانوس)[9]، حسبما أثبت ذٰلك ڤان دير ڤايردن،

والتي وصلت من خلال المِجسطي، الذي اَقتبسها عن هيپاركو وأعمال الزّرقيال، إلىٰ كلٍّ من البِطْرَوْجي وكوپرنيكو (الجزء الخامس من كتاب حركات الأجرام السماويّة).

لقد أسهمت جداول حساب المثلّثات من "تقويم" [الزّرقيال] في إدخال التوابع (الدالّات) المثلّثيّة الخاصّة بالجيب، وجيب التّمام، وفرق جيب التّمام، وخطّ القاطع، وخطّ المماس، إلىٰ أوروبة.

ولعلّه كان، بين يدي جيراردو الكريموني، إصدارٌ من الكتب التي كان العرب يُشيرون إليها بوصفها "متوسّطات" بين الهندسة وعلم الفلك، والتي كان لا بدّ من دراستها بعد "الأصول" وقبل "المِجسطي". وكانت هٰذه الأعمال مجموعة علىٰ هٰذا النحو قبل ذٰلك، عندما حرّر پاپوس جزأه السادس، وكان قد أطلق عليها في أوساط اليونانيّين اَسم *Ho micros astronomaumenos*، وكانت مستنسخةً معًا، واَنتقلت جملةً إلىٰ العالم العربيّ، حيث قام قسطا بن لوقا بترجمتها. وقد نقل جيراردو، بدوره، معظمها إلىٰ اللاتينيّة. وهٰذه الكتب هي:

١ـ أُقليدس: طريقة داتا Data، ويرتبط المصنّف اَرتباطًا وثيقًا بالأجزاء الستّة من "الأُصول"، وقد ترجمه جيراردو.

٢ـ أُقليدس: البصريّات Optica، وربّما يكون أديلاردو هو الذي ترجمه.

٣ـ أُقليدس: الظاهرات Phænomena.

٤ـ تيودوسيوس (حيًّا في القرن الثاني قبل الميلاد): الأشكال الكرويّة، وقد ترجمه أفلاطون التيڤولي وجيراردو الكريموني اَنطلاقًا من الترجمة العربيّة التي أنجزها قسطا بن لوقا، بناءً علىٰ أمرٍ من [الخليفة] المعتصم. ولم يتيسّر لقسطا أن يُترجم سوىٰ ما ورد حتّىٰ النظريّة الخامسة من المقالة الثالثة. واَستكمل الباقي مترجِمٌ آخر، وراجع المجموع ثابت بن قرّة. وقد اَشتُقّ العمل من نواة سابقة نَدين بها لأوتوليكوس، ويذكّر مرارًا بالجزء الثالث من "الأصول". ويُماثل

ما نُسمّيه حاليًا بعلم الفلك الكُرَوي.

٥ـ تيودوسيوس: الكتاب المسمّىٰ *De habitationibus*، وقد ترجمه قسطا بن لوقا إلىٰ العربيّة، وجيراردو الكريموني إلىٰ اللاتينيّة. وهو يُعطي وصفًا للسماء في مختلف مراحل السنة.

٦ـ تيودوسيوس: الكتاب المسمّىٰ *De diebus et noctibus*.

٧ـ أوتوليكوس (حيًا ٣٠٠ قبل الميلاد): الكتاب المسمّىٰ *De sphæra mota*، وقد صحّح ترجمته العربيّة ثابت بن قرّة. ونقلها إلىٰ اللاتينيّة جيراردو الكريموني. وهٰذا الكتاب عبارة عن هندسة الكرة. وقد استخدمه أقليدس في كتابه الظاهرات *Phænomena*.

٨ـ أوتوليكوس: الكتاب المسمّىٰ *De ortu et occasu siderum inerrantium*، وقد ترجمه إلىٰ العربيّة ثابت بن قرّة.

٩ـ أرخميدس: الكرة والأسطوانة، وقد ترجمه جيراردو [إلىٰ اللاتينيّة].

١٠ـ أرخميدس: الكتاب المسمّىٰ *Dimensio circuli*، وقد ترجمه إلىٰ العربيّة ثابت بن قرّة. وأنجز الترجمات اللاتينيّة أفلاطون التيفولي وجيراردو الكريموني، وترجمةُ هٰذا الأخير أكمل من النصّ اليوناني المحفوظ.

١١ـ أرخميدس: الكتاب المسمّىٰ *Liber assumtorum*، وقد ترجمه إلىٰ العربيّة ثابت بن قرّة.

١٢ـ أرستاركوس (حوالي ٣١٠ـ٢٣٠ قبل الميلاد): الكتاب المسمّىٰ *De solis et lunis magnitudinibus et distantiis*، وقد ترجمه إلىٰ العربيّة قسطا بن لوقا.

١٣ـ هيبسيكلس (حيًا ١٧٥ قبل الميلاد): الكتاب المسمّىٰ *Anaforica*، وقد ترجمه إلىٰ العربيّة قسطا بن لوقا، وإلىٰ اللاتينيّة جيراردو الكريموني، تحت عنوان: *Liber Esculei De Ascensionibus*

١٤ـ مينيلاوس (حيًّا ٩٨م): الكتاب المسمّىٰ *Sphærica*، وقد ترجمه إلىٰ العربيّة إسحٰق بن حنين، ومنها إلىٰ اللاتينيّة جيراردو الكريموني، وهي مهمّة، لأنّ النصّ اليوناني الأصلي مفقود. ويشكّل سابقة جديرة بالذكر لما سيصبح عليه حسابُ المثلّثات الكروي لاحقًا.

ولنُشِر إلىٰ أنّ مترجمي القرن الثاني عشر قد عرفوا من هٰذه الكتب الأربعة عشر، التي تُشكّل ما يُسمّىٰ بالكتب المتوسّطة[15]، عشرة كتب علىٰ الأقلّ.

قَدِم جيراردو للدراسة في إسبانيا، أملًا في الاطّلاع علىٰ العمل الكبير لبطليموس ***Sintaxis matemática*** (باليونانيّة، ***Mathematiké syntaxis*** ***Megalé syntaxis y Megiste syntaxis***)، الذي لم يتيسّر له الحصول عليه بإيطاليا. فلم يكن ليفترض، إذن، أنّ الترجمة اللاتينيّة الأولىٰ، المنقولة مباشرةً عن اليونانيّة، من شأنها أن تُنجَز في صِقِلّية قبل خمسة عشر عامًا من إكماله هو ترجمته (١١٧٥م [٥٧١هـ]) التي حلّت محلّ تلك. وقد أطلق العرب علىٰ هٰذا الكتاب اَسم "المِجِسطي"، وهي كلمة ربّما قد اَشتقّت من إضافة ال التعريف إلىٰ ***megiste*** (حسب رأي سوتر)، أو من إدغام في اللهجة بحيث أصبحت عبارة ***megalé syntaxis*** مختصرةً في كلمة "المِجِسطي". وتنحدر ترجمة جيراردو من الترجمة العربيّة، المرتكزة علىٰ ترجمة أخرىٰ سُريانيّة أنجزها الحجّاج بن يوسف (٨٢٧م [٢١٢هـ]). وقد تكون تلتها ترجمةٌ قشتاليّة أُنجزت بناءً علىٰ أمر من ألفونسو العاشر.

مع كتاب المِجِسطي دخل إلىٰ أوروبة علمُ فلكٍ رياضيّ من مستوىٰ عالٍ، ومجموعة من السلاسل الدائرة الدوريّة لظاهراتٍ معيّنة، مثل الظاهرة المسمّاة **exeligmos**، وهي مدّةٌ مكوّنةٌ من ٥٤ سنة و٣٤ يومًا اَكتشفها جيمينوس دي روداس (القرن الأوّل للميلاد)، وتشتمل علىٰ أربعة سواهير. ويقيم الساهور، بدوره، المساواة التالية:

٢٢٣ شهرًا اَقترانيًا = ٢٤٢ شهرًا شمسيًا = ٦٥٨٥,٣٢ يومًا = ١٨ سنة جوليانيّة و ١١يومًا.

وهٰذا دور السلسلة الدائرة للكسوفات، الذي اكتشفه البابليّون ـ حسبما يُقال ـ ولعلّ طاليس الميلي قد أجرىٰ علىٰ أساسه تنبُّؤه المشهور[11].

وكان العرب قد تناولوا، في وقتٍ مبكر جدًّا، المجسطي بالدراسة والتلخيص والنقد. وفي الأندلس شرعوا، مثلما كان الأمر في المشرق أو لعلّهم فاقوه، بتناول هٰذا الصنف من الدراسات من وجهة النظر الفلسفيّة، وكذٰلك من وجهة النظر الفلكيّة. ونَدين لجيراردو نفسه بترجمة عملٍ لثابت بن قرّة مُعَدٌّ للطلّاب مدخلًا إلىٰ قراءة المِجِسطي. وقد كتب، بدوره، أندلسيٌّ، معاصرٌ لجيراردو، هو جابر بن أفلح[12] الإشبيلي مصنّفًا في علم الفلك سمّاه "علم الهيأة، إصلاح المِجِسطي"، وقد ترجمه جيراردو تقريبًا في الآونة ذاتها التي تمّ تأليفه فيها، وذٰلك لما ينطوي عليه من روح ناقدة ومجدِّدة. أمّا ملاحظاته، الملخّصة في التوطئة، فتتناول التفاصيل أكثر من تناولها للمضمون، ولٰكنها لا تخلو من الفائدة، ولا سيّما أنها تمتدّ إلىٰ أعمال أخرىٰ ـ "الأشكال الكرويّة" لتيودوسيوس ومينيلاوس ـ مُدخلًا إلىٰ حساب المثلّثات الكروي الدستورَ التالي:

جيب التمام A = جيب التمام = جيب B.

كما أثبت أنّ الكرة هي المجسّم الذي يمتلك، في حال تساوي المساحة، الحجم الأقصىٰ، مُدخِلًا ـ من ثَمّ ـ مسائل تساوي المحيط المنبثقة عن الموضوعات التي يعرضها أرخميدس في كتاب "الكرة والأسطوانة"، وعالجها كلٌّ من زينودوروس وبابوس وثِيُون في العالم القديم، وبرزت في العالم الإسلامي لدىٰ إخوان الصفا، وتناولها الحسن [البصري، اَبن الهيثم] بالدراسة في رسالة خاصّة[13]، وواصلت طريقها في العالم الغربي مع كلٍّ من ليوناردو البيزاني، وبرادواردين، وألبرتو الساكسي، وريجيومونتانو.

ومن وجهة علم الفلك علىٰ وجه التحديد، يُلمح إلىٰ مجموعة من العيوب في

"المِجسطي"، ليس فيها أيُّ عيبٍ جوهريّ، القول بأنّ بطليموس لم يوضح لماذا ينقسم انحراف الكواكب العليا إلىٰ قسمين متساويين، والقول بأنّ عُطارد والزُّهَرة كوكبان واقعان فيما دون الشمس بينما تُبيِّن زاوية الاختلاف أنهما فوقها (الجزء السابع). وفي الجزء الخامس، يُثير الاهتمامَ الوصفُ الذي يُقدّمه عن آلة فلكيّة تُسمّىٰ بـ *Torquetum* التي يعزو ريجيومونتانو إليه اختراعها، وأشاعها علىٰ نحوٍ واسع في العالم اللاتيني، ولٰكنها، في الواقع، ترجع بأصلها إلىٰ الصين. وكانت مزيّتها أنها تُتيح قراءة الإحداثيّات الاستوائيّة والمختصّة بالدائرة الظاهريّة لمسير الشمس [أو بدائرة البروج]. وقد عاد تكوين آلة القرون الوسطىٰ هٰذه إلىٰ الظهور، وذٰلك في البوصلة الفلكيّة المستخدمة حاليًّا في الملاحة الجوّيّة.

ولقد كانت إحدىٰ النظريّات الفلكيّة، الأكثر إثارةً للجدل علىٰ مدىٰ القرون، هي تلك المعروفة باسم نظريّة التأرجُح أو حركة النَّوَسان في اعتدالي الربيع والخريف. وبسبب هٰذا التأرجُح، لا يُمكن لتقاطع خطّ الدائرة الظاهريّة لمسير الشمس مع خطّ الاعتدال (نقطة برج الجدي أو الاعتدال الربيعي)، أن يتراجع إلىٰ ما لا نهاية إلّا أن يتّخذ حركة تأرجُح أو نَوَسان حول الاعتدالين. وقد أَدخلت هٰذه النظريّةَ، إلىٰ أوروبة، الترجمةُ اللاتينيّة التي أنجزها جيراردو الكريموني لكتاب ثابت بن قرّة باسم *De motu accessionis et recessionis*. ومنذئذ، اعتُبر هٰذا المؤلِّفُ العربي مبتكرًا لهٰذه النظريّة، بينما ترجع، في الواقع، هٰذه النظريّة الخاطئة، إلىٰ عهد پروكلوس وثيُون الإسكندراني. إذ يقول هٰذا الأخير، في كتابه *Tablas manuales*، الذي كان معروفًا قبل ذٰلك لدىٰ العرب منذ أوائل القرن التاسع، ما يلي:

> *«يزعم المنجّمون القدامىٰ، انطلاقًا من بعض التكهُّنات، أنّ نقطتَي الانقلاب الشمسي تتقدّمان نحو الشرق بمعدّل ٨ درجات، خلال مدّة معيّنة، وبعدئذ تتراجعان إلىٰ نقطة انطلاقهما. ولا يبدو هٰذا الافتراض ممكنًا لدىٰ بطليموس، لٰكنّ الحسابات المبنيّة علىٰ الجداول ــ وإن لم يقبل بهٰذه الفرضيّة ــ تتطابق مع عمليّات الرصد*

بالآلات. لذلك لا نقبل نحن أيضًا (والكلام لتِيُون) بهذا التصحيح. ومهما يكن من أمر، فإننا سنقوم بعرض الطريقة التي يتّبعها هؤلاء المنجّمون في حساباتهم. فهم يَعُدّون ١٢٨ سنة قبل أوغسطينوس، ثمّ ينظرون إلىٰ التاريخ الذي حصلوا عليه، بٱعتباره اللحظة التي فيها بدأت نوبة الحركة هٰذه، بمعدّل ٨ درجات، نحو البروج التاليّة (نحو الشرق)، وبلغت قيمتها القصوىٰ لتشرع بتراجعها. وهم يُضيفون إلىٰ هٰذه الـ ١٢٨ سنة، الـ ٣١٣ سنة التي ٱنقضت منذ عهد أغسطينوس حتّىٰ عهد ديوكليسيانوس، والسنوات المنقضية بعد ديوكليسيانوس. ويأخذون بعدئذ الموقع الذي يتّفق وهٰذا المجموع من السنوات، مُسَلِّمين بأنّ الموقع، في غضون ٨٠ سنة، سينتقل بمقدار ١°، فيطرحون من ٨° عدد الدرجات الذي يُحصل عليها عن طريق هٰذه القسمة (قسمة عدد السنوات علىٰ ٨٠)، فيُشير الباقي إلىٰ الدرجة التي تقدّمت نحوها نقاط الٱنقلاب الشمسي. فيجمعون هٰذا الباقي مع الدرجات التي تُعطيها الحسابات المذكورة سابقًا فيما يخصّ موقع الشمس والقمر والكواكب الخمسة الأخرىٰ».

فلنلاحظ الإلماع إلىٰ المِجِسطي، حيث يتمّ تفسير ٱكتشاف هيبار كوس لمبادرة الٱعتدالين (مبادرة نقطة الٱعتدال)، ويُسلّم بقيمة ١° لكلّ قرن، أي أنّ بطليموس، لدىٰ إعطائه هٰذه القيمة، كانت تتمثّل في ذهنه الفكرة الأفلاطونيّة حول السنة الكبرىٰ: فمبادرة الٱعتدالين من شأنها أن تكون، بالنسبة إلىٰ هٰذه، ما تكونه السنة الجارية بالنسبة إلىٰ الحياة البشريّة. ومن ثَمّ، فنحن إزاء نظريّتين مختلفتين تتجابهان لتفسير الظاهرة ذاتها منذ العصور القديمة، وعلىٰ الرغم من أنه كلّما ٱنقضىٰ قرنٌ علىٰ ذلك العهد كان يزيد من سهولة تقدير الخطإ المتعاظم الناجم عن تطبيق النظريّة التنجيميّة علىٰ الحسابات، فإنّ أنصارها لم يتخلّوا عنها حتّىٰ بعد ٱنقضاء خمسة عشر قرنًا، بل عمدوا، أمام ٱنتقادات أنصار بطليموس ـ أمثال الفرغاني والبتّاني

وعبد الرحمٰن الصوفي - إلىٰ إجراء إصلاحاتٍ في التفاصيل أو تصحيحات في الثوابت لم تتطابق قطّ مع نتائج الرصد، ممّا دفع بمؤلّفٍ عمليٍّ جدًّا، مثل ٱبن البَيْطار، إلىٰ تبنّي نزعةٍ واقعيّة متطرّفة جعلته ينصرف عن النظريّات ويَقبل بالقيم التي تُمليها الممارسةُ اليوميّة. ولٰكن ثابت بن قرّة كان رجل علم، ويرغب في تفسير الواقع، موفّقًا بينه وبين النظريّة. لذٰلك، عندما ٱطّلع علىٰ نظريّة التأرجُح، سواء من خلال الأرياباطا، أو "الجداول اليدويّة"، وأدرك عدم التطابق القائم بين المواقع الحاصلة عن الحسابات وبين المواقع المرصودة، أخضع هٰذه الأخيرة لمعالجةٍ رياضيّة دقيقة. وهٰذا الأنموذج هو الذي أدخله جيراردو إلىٰ العالم اللاتيني، وٱستُنتِج منه بأنّ قيمة ميل دائرة البروج لا بدّ له من التغيّر مع مرّ القرون. ومن ثَمّ كان يُحصَل، ٱنطلاقًا من نظريّةٍ خاطئة، علىٰ نتيجةٍ صحيحة يدلّ عليها الرصد، ولٰكن لم يكن هناك مَن يُدرك ذٰلك!

بيد أنّ الأخطاء المتراكمة، خلال السنوات المنقضية بين [عَصْرَي] ثابت بن قرّة والزّرقيال، أدّت بهٰذا الأخير إلىٰ أن يُعيد طرح المشكلة، وأن يكتشف الحركة القرنيّة لمستوىٰ دائرة البروج، ممّا دفعه إلىٰ التسليم بالتأرجُح. وقد عرض نتائج أعماله في "رسالة في حركة النجوم الثابتة"، التي ٱحتُفِظ بها من خلال ترجمةٍ عبريّة ليس إلّا، ولٰكن البِطْرَوْجي عرفها وٱستخدمها. وبما أنّ گروشتيسته وألفونسو العاشر الحكيم وبرناردو دي ليتريي (١٢٤٠-١٢٩٢)، قد سلّموا بهٰذه النظريّات مع إدخال بعض اللمسات، والتي دفعت الثاني إلىٰ تهجين مبادرة الٱعتدالين في الكرة التاسعة (٤٩٠٠٠ سنة) مع التأرجُح في الكرة الثامنة (٧٠٠٠)، فإنّ ذٰلك يُبيّن لنا أنّ الأكثريّة العُظمىٰ من المفكّرين في العالم اللاتيني قد سلّموا بها، ومن بينهم أشخاص مثل ج. ڤرنر (١٥٢٢)، وكوپرنيكو وگاليليو نفسه، أمّا تيكو براهي وكپلر، فكانت لديهما شكوكُهما حول هٰذه النظريّة، وفي نهاية الأمر، حلّ نيوتُن المشكلة في كتابه "المبادئ الرياضيّة للفلسفة الطبيعيّة"، مفسّرًا مبادرة الٱعتدالين بوصفها نتيجة الجاذبيّتين المشتركتين للشمس والقمر علىٰ المنطقة الٱستوائيّة الأرضيّة.

وإحدىٰ المسائل الرئيسة التي كانت تشغَل أذهان مؤلِّفي القرون الوسطىٰ، هي تحديدُ حركات الشمس والقمر تحديدًا صحيحًا وعلىٰ نحوٍ دقيق، لأنها أساس التقويم، وهٰذا سبب الوَفرة في المصنَّفات حول الموضوع، وتَشابُه عناوينها، ممّا سهّل الخلط بينها. وحسبما يُستخلص من "كتاب الأسس" لأبراهام بن عزرا، عَرَف العالم اللاتيني مصنَّفين في هٰذا المضمار، من أصل عربي، هما:

١ـ *رسالة ثابت بن قرّة، وقد ترجمها إلىٰ اللاتينيّة جيراردو الكريموني بعنوان De anno solis، وقد أستخدم ثابت في تأليفها الترجمة العربيّة لكتاب المِجسطي التي أنجزها الحجّاج. وقد تخلّىٰ فيها عن طريقة بطليموس الكلاسيكيّة (٣ و٤) لتحديد عناصر المدار الشمسي، مستعيضًا عنها بطريقة أخرىٰ ـ ربّما ترجع فكرتها إلىٰ علماء الفلك في بغداد، وذٰلك قبل عام ٨٣٢م [٢١٧هـ] أو خلاله ـ تقوم علىٰ أن يُستبدَل بالأقطار العموديّة بين الأعتدالين والأنقلابين الأقطارَ التي تُقسّم إلىٰ قسمين الأقواسَ الواقعة بين الأعتدالين والأنقلابين، وتتّسم بمزيّةِ تجنُّبها الصعوبات التي يُثيرها ضمنًا التحديد الصحيح للحظة الأنقلابين. وقد حقّقت هٰذه الفكرة أنتشارًا واسعًا، ليس في المشرق وحده، عند أبي نصر منصور، بل في الغرب أيضًا، لدىٰ كوبرنيكو (٣ و١٦) وتيكو براهي (Progym. I).*

٢ـ *"الخلاصة المتعلّقة بحركة الشمس" للزَّرقيال، وهو مفقودٌ في العربيّة كما في اللاتينيّة، ولٰكن گ. ج. تومر أعاد بناء نصّه، علىٰ أساس أستشهادات عند مؤلِّفين لاحقين، أمثال أبن الكمّاد* **Ibn al-Kammād**[14] *وأبراهام بن عزرا... إلخ، وقد كتبه المؤلِّف بعد خمس وعشرين سنة من أعمال الرصد.*

وكانت هٰذه الأعمال تهدف إلىٰ تحديد عناصر المدار الشمسي تبعًا لمدّة السنة، أو بالأحرىٰ، تبعًا لمختلف أصناف السنة والتي تمّ أكتشافها. فلم يكن هناك، بالنسبة إلىٰ المصريّين القدامىٰ، سوىٰ صنفٍ واحد من السنة المدنيّة يتكوّن من ٣٦٥ يومًا، تتكرّر لدىٰ أنتهائه، علىٰ نحوٍ تقريبيّ، ظواهر الحياة النباتيّة ذاتها. ففي لحظةٍ معيّنة،

كان يتمّ تحديد بداية هٰذه السنة مع الطلوع الشمسي للنجمة سوتيس (سيريوس ألفا من كوكبة نجوم الكلب الأكبر، [الشِّعرىٰ بالعربيّة]) الذي كان يتزامن مع بداية فيضان النيل، ومع أشدّ أيّام السنة قيظًا (وهٰذا أصل العبارة التي لا نزال نستعملها حاليًّا [في الإسبانيّة] وهي الأيّام **caniculares** الكلبيّة [نسبة إلىٰ الكلب الأكبر]، أي القائظة). ولٰكن بما أنّ السنة التي لا بدّ أنهم قد اَستخدموها هي السنة "المداريّة" (مُرُوران متتاليان للشمس بالاَعتدال الربيعي، أو نقطة برج الجدي) وتُقدّر بـ ٣٦٥,٢٤٢٢١٧ يومًا (٣٦٥ يومًا و٥ ساعات و٤٨ دقيقة و٤٥ ثانية)[15]، لذا كانوا يرتكبون خطأً يزحزح دورة الأعمال الزراعيّة علىٰ مدىٰ الشهور، ولم تكن بداية التقويم المدني تعود إلىٰ التطابق مع الطلوع الشمسي لسيريوس إلّا بعد ١٤٥٦ سنة (المرحلة السوتياكيّة sotiaco). وتفاديًا لهٰذا الخلل، وضع جوليوس قيصر، بناءً علىٰ نصيحة عالم الفلك المصري سوزيجنس ـ الذي لم يفعل سوىٰ تطبيق اَقتراحات مجلس كانوبة (٢٣٨ قبل الميلاد) ـ تقويمًا مدنيًّا يتكوّن من ٣٦٥ يومًا خلال ثلاث سنوات، ومن ٣٦٦ يومًا في السنة الرابعة. وقد أتاحت هٰذه القاعدة تقليص التباين القائم بين السنة المداريّة والسنة المدنيّة إلىٰ يوم واحدٍ فقط كلّ ١٢٨ سنة، وظلّ معمولًا به حتّىٰ الاَصلاح الگريگوري عام ١٥٨٢م.

في غُضون ذٰلك، كان هيپاركوس قد اَكتشف ظاهرة مبادرة الاَعتدالين، ومن ثَمّ وجود سنةٍ فلكيّة تتكوّن من ٣٦٥,٢٥٦٣٦ يومًا (٣٦٥ يومًا و٦ ساعات و٩ دقائق و٩ ثوان)، إلىٰ جانب السنة المداريّة، وكان هٰذان النوعان من السنة الشمسيّة النوعين الوحيدين اللذين كان بطليموس وثابت بن قرّة يعرفانهما. ولٰكن الزّرقيال[16] قارن بين عمليّات الرصد في العصور جميعًا، فوصل إلىٰ نتيجة مفادها أنّ البعد الأقصىٰ للشمس عن الأرض يمتلك حركة ذاتيّة في اَتّجاه مباشر بمعدّل ١٢,٠٤ سنويّة، ممّا يعني وجود سنةٍ شمسيّة ـ مروران للشمس بالبُعد الأقصىٰ عن الأرض ـ تتكوّن من ٣٦٥ يومًا و٦ ساعات و١٣ دقيقة و٥٣ ثانية، وتمكّن بوساطتها من تقديم تفسيرٍ للمدّة المختلفة للمنازل وللتغيُّرات التي تطرأ علىٰ هٰذا البُعد الأقصىٰ.

وقد أُدرجت نتائجه، آنفًا، في جداول مرسيليا (١١٤٠م)، كما ٱستفاد منها، فيما بعد، كلٌ من گروسّتيسته وروجيه بيكون. وقد طوّر ريجيومونتانو التفسير النظريّ للظاهرة، وذٰلك علىٰ أساس فلك التدوير، وخلَص إلىٰ أنّ مدار الشمس، علىٰ غرار مدار عُطارد لدىٰ الزّرقيال، ذو شكلٍ إهليلجيّ، وتبنّىٰ أفكاره، في نهاية الأمر، كوپرنيكو ("حركات الأجرام السماويّة") ومبدئيًّا، كپلر أيضًا.

علم التنجيم:

كانت الترجمات في علم التنجيم من الكثرة إلىٰ حدٍّ أنه يتعذّر علينا أن نجرُد هنا سوىٰ القليل منها. فقد ترجم أفلاطون التيڤولي (١١٣٨م) الكتاب المسمّىٰ *Tetrabiblos* الرباعيّة، االذي ألّفه بطليموس، ربّما ٱنطلاقًا من الترجمة العربيّة التي أنجزها إبراهيم بن الصلت، وراجعها ثابت بن قرّة. وتلتها الترجمة المغفلة عام ١٢٠٦م، وترجمة إيخيديو دي تيبالدس التي أنجزها لألفونسو العاشر، وترجمة سيمون دي برودون، حوالي ١٣٠٥م.

وتَرجم هٰذا العمل، الذي لُخّص بٱسم *Centiloquium* (بالعربيّة "ثمرة"، وباليونانيّة *Karpos*)، يوحنّا الإشبيلي (١١٣٦م) مع شرح ٱبن الداية (ت حوالي ٩٤١م [٣٢٩هـ])، وتلت هٰذه ترجمتا أفلاطون التيڤولي (١١٣٨م) وهوگو دي سانتايا. ونَدين ليوحنّا الإشبيلي بترجمة كتاب "الثمرة" للبتّاني.

وترجم أفلاطون التيڤولي كتاب *De revolutionibus nativitatum* لأبي بكر الحاسب (حيًّا ٨٠٠م [١٨٤هـ])، وتلت هٰذه الترجمة ترجمة ساليو الپادوي (١٢١٨).

وترجم يوحنّا الإشبيلي، بالتعاون مع دومنگو گونزالث، أعمالًا مختلفة لـ"ما شاء الله"، ومنها كتاب *De rebus eclipsium* و*De conjunctionibus planetarum*. وقام، أوّلًا، أفلاطون التيڤولي (١١٣٦م)، وبعدئذ يوحنّا الإشبيلي، بترجمة كتاب *De judiciis nativitatum* لأبي علي الخيّاط (ت حوالي ٨٣٥م

[٢٢٠هـ]). وعمل يوحنّا الإشبيلي بالتعريف بكتاب *De nativitatibus et interrogationibus* لابن الفرخان الطبري (ت حوالي ٨٤٠م [٢٢٥هـ])، الذي عُرف لدىٰ اللاتينيّين بٱسم عمر تيبرياديس **Omar Tiberiadis**، وترجمَ هرمانٌ دي كارنثيا (١١٣٨م) كتاب *Zælis Fatidica* لسهل بن بشر (ت حوالي ٨٥٠م [٢٣٦هـ]).

تكلّمنا آنفًا عن بعض الترجمات لأعمال أبي معشر. وقد ترجم له يوحنّا الإشبيلي، علاوةً علىٰ ذلك، "كتاب النُّكت" = "كتاب تهاويل العالم *Flores*." وترجم له أديلاردو دي باث، عام ١١٣٠م، "المدخل الصغير لعلم الفلك" *astrologiæ*، وعام ١١٣٣ "المدخل الكبير". وسرعان ما شهدت أعمال أبي معشر ٱنتشارًا واسعًا، وسلّم بها، أو ناقشها، من هم في مستوىٰ جيراردو دي سلتيو (حيًّا ١٢٥٠) وجيل دي ليسينس (١٢٣٥ـ١٣٠٤م)، وهنري باتس دي مالیناس (١٢٤٦ـ١٣١٠م)... إلخ. وترجم يوحنّا الإشبيلي كتاب *De imaginibus astronomicis* لثابت بن قرّة (ت ٩٠١م/ [٢٨٨هـ])، وأبراهام بارجيّة كتاب *De electionibus* للعمراني (ت ٩٥٥م/ [٣٤٤هـ])، ويوحنّا الإشبيلي كتاب *Libellus ysagogicus Abdilazi*، الذي كان موضع ترجمة باللغة القشتاليّة أنجزها پيرو فيرانديث الإشبيلي (١٣٣٣م)، وكتاب *De conjunctionibus planetarum in duodecim signis* للقابسي (المعروف في اللاتينيّة بٱسم **Alchabitius**)، تلميذ العمراني ومنجّم البلاط لدىٰ سيف الدولة؛ وقد عُرف في الغرب، من خلال هٰذا المترجم وأبراهام بن عزرا، عملُ المنجّم الفهلوي أندرزگار بن زادان الفروخ. وأخيرًا نَدين ليوحنّا الإشبيلي نفسه بترجمة كتاب *Regulæ utiles de electionibus* لعلي بن غازل. وتَرجم جيراردو الكريموني كتاب *Liber alfadhal id est arab de bachi*، وربّما يكون من تأليف الفضل بن نوبخت (ت حوالي ٨١٥م [١٩٩هـ]).

بعد هٰذه السلسلة المملّة من الأسماء، والتي تُظهر بوضوح نوعيّة الطلب الأساسي علىٰ الكتب في العالم المسيحيّ في النصف الأوّل من القرن الثاني عشر، يمكننا التسلّي لدىٰ رؤية ما يكمن وراء هٰذا القدر من العناوين الغامضة. ففي

المقام الأوّل، هناك الإلماعات إلىٰ مختلف أنواع التنجيم المتداولة والمرتبطة بالمواعيد:

١ـ التنجيم الطالعي *Judiciis nativitatum*، الذي كان يسعىٰ إلىٰ ٱستشفافِ مستقبل الفرد بناءً علىٰ لحظة مولده (الطالع الأساسي). وبما أنه يجب أن يُحدَّد ذٰلك، بموجب القواعد المتّبعة، بأقصىٰ دقّة ممكنة، لذٰلك كان هناك أساليب من أجل "تصحيح" الساعة، إذا لم تكن معروفة علىٰ نحو ما ينبغي من الدقّة. وعلىٰ هٰذا تصرّف كلٌ من روبرتو لوفيڤر (حوالي ١٣١٠م) والمنجّمون الحديثون الذين وضعوا الطالع الفلكي لٱبن خلدون. ومع ذٰلك، يمكن الٱفتراض بأنّ أمراء القرون الوسطىٰ ـ علىٰ غرار أمراء عصر النهضة [فيما بعد] ـ قد عُنُوا بتسجيل ساعة مولد أبنائهم بمنتهىٰ الدقّة، ومن ثَمّ فإنّ الطوالع الفلكيّة من الصنف الذي ٱحتَفظ به رئيس كهنة هيتا في حكايته عن الملك الكراث ("كتاب الحبّ الرائع"، الفِقْرة ١٤٠ وما يليها)، لا بدّ أنها كانت أمرًا متواتر الحدوث آنذاك[17].

٢ـ التنجيم المتعلّق بالأحداث العامّة، المرتكز إمّا علىٰ القرانات الكبرىٰ (راجع ص ٧٢ من كتاب *De conjunctionibus*)، وإمّا علىٰ ولوج الشمس في برج الجدي، أي في بداية ربيع السنة المناظرة، أو دورة سنوات محدّدة. وإلىٰ هٰذا الصنف من التنبّؤات، تنتمي تلك التي أنبأت بنهاية خلافة قرطبة وبالحرب الأهليّة التي أعقبتْها.

٣ـ التنجيم الٱستفهامي أو المتعلّق بالٱختيارات **De interrogationibus**، **De electionibus** ، الذي يحسب اللحظة المناسبة التي يترتّب فيها الشروع بفعلٍ ما، بهدف أن تكون وضعيّة الكواكب مواتيةً، أو يُحدّد مستقبل الأحداث ٱنطلاقًا من الطالع الفلكي في اللحظة التي تمّت فيها الٱستشارة. وعلىٰ هٰذا النحو، أسّس العرب بغداد بعدما تمّ "ٱختيار" اللحظة المناسبة لذٰلك، وفي القرون الوسطىٰ، كانت المدن تَعتَبِر معرفة الطالع الفلكي لتأسيسها "مسألة كرامة"، وكانت تَعمَد إلىٰ ٱختلاقه ـ مثلما فعلت بيزنطة وبرشلونة ـ إنْ كانت تفتقده.

وفي كثيرٍ من المرّات، كانت الجيوش المستنفَرة تشرع، فيما يبدو، بالزحف نحو

العدوّ، متقيّدةً باللحظات التي اَختارها منجّم البلاط. وهٰذا، فيما يبدو، ما كان يفعله المنصور الموحّدي. ت ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م]، واَستمرّ العمل بهٰذا النهج في القرن الرابع عشر [٨ هـ](18) في بلاط أبي الحسن. هٰذه المعتقدات كان القدّيس أوكسطين قد دانها في العصور القديمة، ولم يكن يفهم كيف يُمكن لأخوين توأمين، أو لطفلين وُلدا في يوم واحد وفي مكانٍ واحد أن لا يكون لهما المصير ذاته. وهٰذه الحجّة دحضها أبو معشر في "كتاب الميل في تحويل سنّ المواليد"، مؤكّدًا أنّ ذٰلك لا بدّ له أن ينشأ عن الأخطاء الرياضيّة التي قد تُرتكب في حساب المتواليات (*De revolutionibus nativitatum*)، أو في الطريقة التي يُوَفّق المنجّمون بموجبها الطالع الفلكي الأساسي لمختلف سني حياة المُستشير (الطالع الفلكي المتدرّج). والملاحظة التالية للقدّيس أوكسطين، القائلة بأنّ نظام الاَختيارات يستبعد العناية الإلٰهيّة، لأنّ في اَستطاعتنا دائمًا أن نختار اللحظة الملائمة لغايتنا، قد رفضها الفلكي المسيحي اَبن هِبِنْتا **Ibn Hibinta** (حيًّا ٣٣٠هـ/ ٩٤١م)، وعلىٰ السؤال: كيف نعرف مَن قُدِّر له الهلاك [الأبديّ] أو الخلاص؟ يُجيب: «*اَمعن النظر في البرج الخامس، بإشاراته والكواكب الموجودة فيه، فإذا كانت حسنة المظهر، ومبشّرةً بالخير، فإنها تدلّ علىٰ الخلاص والرحمة الإلٰهيّة، إن شاء الله ذٰلك. وإذا حصل العكس، فمعنىٰ ذٰلك العكس تمامًا، ما لم يشإ الله الرحمة*». وفي هٰذا السياق الأخير من الأفكار، يندرج رأي القدّيس توما، الذي يُسلّم بوجود تأثيرٍ ما للكواكب علىٰ الجانب الجسماني من الإنسان (الكون كلُّه يؤثّر بعضُه في بعض)، وبطريقةٍ غير مباشرة، علىٰ العقل (الذي يؤثّر فيه كلُّ تبدُّلٍ يطرأ علىٰ المخيّلة والغريزة والذّاكرة... إلخ)، ولٰكنه يستبقىٰ المجال دائمًا أمام القدرة الإلٰهيّة المطلقة.

تُفسّر لنا هٰذه الأفكار السرّ في اَتّخاذ خلفاء بغداد لأنفسهم، شأنهم في ذٰلك شأنُ خلفاء قرطبة، منجّميهم الشخصيّين، والسبب في اَنتشار هٰذه العادة في أوروبة عندما دخلت إليها بكثافة الكتب آنفة الذكر.

البصريّات:

دخلت المعرفة العلميّة بالبصريّات، أيضًا، إلىٰ العالم المسيحيّ في القرن الثاني عشر [٦ هـ]. ويبدو أنّ أديلاردو دي باث هو الذي ترجم كتاب البصريّات لأقليدس، ربّما أنطلاقًا من ترجمةٍ عربيّة لحنين صحّحها ثابت. أمّا كتاب بطليموس [في البصريّات] فقد أدخله إلىٰ صِقِلّية أوجينيو البالرمي (المعروف بأسم **Eugenius Amiratus**)، وذٰلك بعد قرن من الزمان (١١٥٤م). ولٰكنّ كلا الكتابين، وكذٰلك دراسات آنتيميو دي ترابيس (حيًّا ٥٥٠م) كان قد أستخدمها أبن الهيثم (ت ١٠٣٩ [٤٣٠هـ]) لوضع عمله الكبير الأصيل، الذي فاقها مع إضافات تحت عنوان ''كتاب المناظر لذوي الأبصار والبصائر''، ومن المحتمل أن يكون جيراردو الكريموني هو الذي ترجمه إلىٰ اللاتينيّة، وقد نَشَر هٰذه الترجمة، في نهاية الأمر، ريسنر (بال ١٥٧٢م). ولا بدّ أنّ أبن الهيثم قد أستخدم أيضًا في وضع كتابه في البصريّات كتاب *De aspectibus* للكِنْدي، الذي كان بدوره قد أستخدم مصدرًا له أقليدس وهيرون وبطليموس. كانت أوروبة، إذن، في أواخر القرن الثاني عشر، مطّلعةً علىٰ النظريّات الثلاث المقدَّمة حول طبيعة الضوء، أي نظريّة صدور أشعّة عن العينين والتي قال بها أرسطوطاليس وأقليدس، ونظريّة أستقبال الأشعّة الصادرة أو المعكوسة في كلّ الأتّجاهات من قِبل مختلف الأجسام والتي قال بها أبيقورس، والنظريّة الوسط وتذهب إلىٰ أنّ الأشعّة حصيلة إصدار مزدوج، وقد قال بها أمپيدوقليس. وقد دافع أبن الهيثم (الجزء الأوّل من كتابه) عن النظريّة الثانية، وسلّم بأنّ الصورة تتشكّل في جسم العين البلّوري، فلو كان ذٰلك في الشبكيّة لظهرت مقلوبةً علىٰ غرار ما تبيّن له في تجاربه مستعينًا بالبيت المظلم، وقد تُرجم هٰذا المصطلح بحرفيّته في النصّ اللاتيني. وأكتَشَف، من جهةٍ أخرىٰ، دوام الصورة في شبكيّة العين، ممّا دفعه إلىٰ الأعتقاد بالطبيعة المادّيّة للضوء، (فكان بوضوح رائد النظريّة الجسيميّة)، وبذٰلك كان يُعارض رأي

أرسطوطاليس، ومفاده، حسبما بيّن حنين بن إسحٰق، «أنّ الضوء ليس بجسم». وقد أثّر بعضُ هٰذه الأفكار علىٰ بلاسيوس دي پارما (١٣٤٥ـ١٤١٦م). كما أثبت ٱبن الهيثم في كتاب البصريّات أنّ ضوء القمر مصدره الشمس، وقد فصّل ذٰلك علىٰ نحوٍ واسعٍ في بحثٍ عنوانه "مقالة في ضوء القمر"، لٰكن لا يبدو أنّ العالم اللاتيني قد ٱطّلع عليه. وحلّل تركيب العين، وشرح الرؤية بعينين، وتناول في الجزء الرابع قوانين الانعكاس، فقاده ذٰلك إلىٰ طرح وحلّ المشكلة المعقّدة التي تحمل حاليًّا ٱسمه[19]. وقد ٱهتمّ بهٰذه المشكلة، بعد ذٰلك بوقتٍ طويل، ليوناردو دي ڤينشي الذي حلّها حلًّا ميكانيكيًّا، وكذٰلك هاريوت (١٥٦٠ـ١٦٢١م) وگريگوري (١٦٣٨ـ١٦٧٥م) وأخيرًا قدّم ك. هويْخينْس أبسط الحلول وأكثرها لباقةً. وتناول في الجزء السادس أخطاء الرؤية بسبب الانعكاس.

وفي الجزء السابع والأخير تناول الانكسار، وعالج بصريّات بطليموس، واصفًا آلةً لقياس هٰذه الظاهرة التي كانت قد حملت هٰذا الفلكيّ الإسكندراني علىٰ إعداد قائمةٍ بالانكسار في وسطَي الهواء/ الماء، وعلىٰ أن يُلاحظ بأنّ الشمس تظلّ مرئيّةً وقتًا ما مع أنّ ٱرتفاعها أصبح سلبيًّا (كليئوميدس). وأدرك ٱبن الهيثم أنّ العلاقة بين زاوية الورود وزاوية الانكسار ليست ثابتة، وأنّ شعاع الورود والشعاع المنكسر والخطّ العمودي علىٰ السطح الفاصل للوسطين، تكون كلّها في مستوًىٰ واحد. وكان لا بدّ من ٱنقضاء خمسمئة سنة قبل أن يكتشف و. سنيلّ (١٥٩١ـ١٦١٦م) قانون الجيوب الذي أشاعه ديكارت فيما بعد.

أدّت دراسة ٱبن الهيثم للانكسار إلىٰ تقديم تفسيرٍ صحيح (نسبه روجيه بيكون فيما بعد إلىٰ بطليموس) لتزايد القطر الظاهريّ للشمس والقمر (زاوية رؤيتهما) لدىٰ ٱقترابهما من الأفق، وإلىٰ تناول التضخيم بوساطة العدسات، وذٰلك ما كان معروفًا في العصور القديمة، لأنّ سينيكا قد أكّد أنه في وسعنا، إذا كان الحرف صغيرًا، زيادة حجمه وقراءته بالنظر إليه من خلال كرةٍ زجاجيّة مملوءة ماءً. ويصف القزويني، من جهته، مَصّ البعوضة بدقّةٍ بالغة، بحيث لا يمكن أن يتيسّر له

ذلك إلّا بفحص الممصّ من خلال عدسةٍ مُكَبِّرة. والأمر كذٰلك فيما يتعلّق بوصفِ عينَي جندبٍ ٱلتقطه أبو العلاء المعرّي*.

وأسفرت دراسته أيضًا عن نتيجةٍ، جاءت على غرار ما خَلص إليه البِيروني، وخلافًا لما ٱعتقده ٱبن سينا، مفادها أنّ سرعة الضوء كبيرة جدًّا ولٰكنها متناهية، ورسّخ في الوقت ذاته المبادئ النظريّة التي ٱرتكز عليها أوائلُ الحِرَفيّين في القرون الوسطى، الذين ٱنصرفوا إلى صنع عدسات لتصحيح مدّ البصر منذ أواسط القرن الثالث عشر، وكذٰلك المؤلّفون المتخصّصون اللاتينيّون الذين تناولوا الموضوع أمثال ڤيتيلو وبيكهام وروجيه بيكون.

وفي المنحى ذاته، كان ثمّة تأثيرٌ بالغ للاَطّلاع – عن طريق العرب – على مجموعة من الأعمال حول المرايا الحارقة. هٰكذا كان، مثلًا، شأن المصنّفات التي ينسبها ٱبن الهيثم إلى أرخميدس *De speculo comburente* وإلى أنتيميوس، عالم الرياضيّات البيزنطي (ت حوالي ٥٣٤م). وقد ترجم جيراردو الكريموني إلى اللاتينيّة

* مع أنّ الشاعر الفيلسوف أبا العلاء المعرّي قُدِّر له أن يفقد بصره في طفولته المبكّرة، فهو إذ وصف عينَي الجُندب، وكذٰلك إذ وصف الليل:

لِيلتي هٰذه عروسٌ من الزَّنْـ ج، عليها قلائدٌ من جُمانِ!

إنّما كان في وصفه، وهو ذو البصيرة النافذة، يستمدّ من "تجارب" ذوي الأبصار الثاقبة، وذٰلك يؤيّد ما ذهب إليه ڤيرنيت من أنّ العرب قد عرفوا نوعًا من "المُكَبِّرات" أو "المجاهر".

قلت، ولٰكني أحبّ أن أضيف، إلى ما قدّم مؤلّفُنا من نماذج، نصًّا للطبيب عبد الملك بن زُهْر الإشبيلي – الاَبن (ت ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م)، يدلّ على أنه ٱكتشف "طُفَيْليّ الجَرَب"، هٰذا الذي لا يُرى بالعين المجرّدة، وسمّاه: "صُؤابة الجَرَب"، يقول:

«ويَحدث في الأبدان، في ظاهرها، شيءٌ يعرفه الناسُ بالصُّؤاب، وهو حِكّةٌ تكون في الجلد، ويخرج – إذا قُشر الجلد – من مواضع منه، حيوانٌ صغيرٌ جدًّا يكاد يفوت الحسّ». ("كتاب التيسير في المداواة والتدبير"، ط دمشق: ١٩٨٣، ص ٣٤٦، ط الرباط، ١٩٩١، ص ٣٩٢).

مّما سَوّغ القول بأنّ ٱبن زُهْر الأندلسي كان – في تاريخ الطبّ – أوّل من وَصَفَ طُفيليّ الجَرَب!

"كتاب المرايا الحارقة" لٱبن الهيثم، ومصنّف ديوكلس (من أهل القرن الثاني للميلاد). ويُعزىٰ إلىٰ هٰذا الأخير ٱكتشاف المرايا المقعّرة والٱستعانة بها للحرق. ومعنىٰ هٰذا أنّ مؤلّفي ذٰلك العصر كانت لديهم فكرةٌ واضحة عن أنّ الأوَّلين في العصور القديمة قد ٱستخدموا عدساتٍ أو مرايا بهدف الإحراق، لذٰلك ليس بالغريب أن يواصل مؤلّفو القرون الوسطىٰ ـ مثل روجيه بيكون ـ الكتابة في الموضوع.

السيمياء الباطنيّة:

يُنظر إلىٰ هوگو دي سانتايا علىٰ أنه هو الذي أدخل إلىٰ العالم اللاتينيّ "التقليد" الخفيّ، الباطني، القديم والمعقّد، الذي كان قد وصل إلىٰ الأندلس قادمًا من المشرق، علىٰ نحوٍ متواصل منذ أواخر القرن التاسع [٣ هـ]. فقد خلّف ذو النون (٧٩٦ـ٨٩٥م [١٨٠ـ٢٨٢هـ])، بوجه الٱحتمال، تلميذًا له هو القرطبيّ عبد الله (الذي أقام في المشرق ٱبتداءً من ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م وتوفّي هناك عام ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م)، وكان رجلًا متقّفًا، معتزليًّا، خلّف كتبه بأكملها لٱبنه ٱبن مَسَرّة (٢٦٩ـ٣١٩هـ/ ٨٨٣ـ٩٣١م)، ويتبيّن لنا منها أنه ٱتّبع أفكار ذي النون.

وبعد ذٰلك بزمنٍ يسير، كتب أبو مَسْلَمة المجريطي، ٱبن مدريد (ولا ينبغي أن نخلط بينه وبين أبي القاسم مَسْلَمة المجريطي، الفلكي) مصنَّفيه الكبيرين في السيمياء، وهما "رتبة الحكيم" (حوالي ١٠٤٧م [٤٣٩هـ]) و"غاية الحكيم" (١٠٥٦م [٤٤٨هـ])، وقد تُرجم هٰذا الأخير إلىٰ القشتاليّة تحت ٱسم *Picatrix* في عهد ألفونسو العاشر. وثمّة ملخّصٌ في السيمياء لتلميذٍ لأبي مَسْلَمة، من مدريد أيضًا، هو ٱبن بشرون، ٱحتفظ لنا به ٱبن خلدون في شكل رسالةٍ موجّهة إلىٰ ٱبن السمح (ت ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م). وكانت هٰذه المذاهب تتّسم منذ آنذاك بالمَعْلَم المزدوج الذي ميّز تطوّر السيمياء خلال القرون: المَعلم العملي (الرازي والحرّاني، مثلًا) والمَعلم النظري الرمزي، الذي يَحتمل تأويلات التحليل النفساني التي تشفّ من خلال "لوح الزمرّد" المنسوب إلىٰ هرمس مثلّث الحكمة، والذي أصبح [أي اللوح]

معروفًا في قرطبة في القرن العاشر، وترجمه هوگو دي سانتايّا وصار شائعًا في العالم اللاتيني عندما ألحقه القدّيس ألبرتو الكبير بنهاية كتابه المسمّىٰ *De rebus metalicis et mineralibus*•.

يقول روجيه بيكون عن هٰذا الصنف من الكيمياء:

• صدر كتاب "سرّ الخليقة وصنعة الطبيعة ـ كتاب العِلَل"، عن معهد التراث العلمي العربي ـ جامعة حلب ١٩٧٩، في ٧٠٣ ص بالعربيّة + ٦٦ بالألمانيّة، بتحقيق الباحثة الألمانيّة أورسولا وايسر، وإشراف البرفسور فؤاد سيزگين.

والكتاب منسوبٌ، في نصّه العربي (الذي ليس له نظيرٌ في أيٍّ من اللغات الأخرى!)، إلىٰ مَن سُمّي "بلينوس الحكيم" (والمقصود الفيلسوف اليوناني **Apollonius** من سكّان تيانا في القرن الأول الميلادي)، الذي عاش في ذاكرة الأجيال بصفته "صاحبَ خوارق" عظيمًا يتمتّع بقوى تفوق البشر!

وفي نصّ الكتاب ما يُشير إلىٰ أنّ مترجمه عن اليونانيّة هو قسٌّ من أهل مدينة نابلس اسمه ساجيوس **Sāgiyūs** من أهل القرن الثامن أو التاسع الميلادي (٢ـ٣ هـ).

وقد آختلفت آراء الباحثين من الكُتّاب والمستشرقين الغربيّين ـ الذين زادت عنايتهم بهٰذا الكتاب في القرن التاسع عشر ـ حول حقيقة المؤلِّف، فذهب غيرُ قليلٍ منهم إلىٰ أنه من "المزيّفات" التي ظهرت في العصر الإسلامي قصد آكتساب الأهميّة وذيوع الصيت، علىٰ حين آفترض آخرون ـ ومنهم سيزگين وتلميذته وايسر ـ أنّ للكتاب أصلاً يونانيًّا (مجهول المؤلِّف)، تُرجم عنه إلىٰ السُّريانيّة، ومنها إلىٰ العربيّة، وأمّا زمان النصّ العربي، فيُظنّ أنه يعود إلىٰ عهد الخليفة المأمون (١٩٨ـ٢١٨هـ).

وفي شأن "لوح الزُّمُرُّد"، ورد في آخر المقالة السادسة (الأخيرة في الكتاب)، علىٰ لسان "مترجمه":

> «قد فرغنا من "كتاب العِلَل"، الذي سمّاه بلينوس، "الجامع للأشياء"، وأنا الذي ترجمتُه... وذَكَر الحكيمُ بلينوس] في آخر كتابه، قال، "قد فسّرتُ، في كتابي هٰذا، عِلَمَ عِلَل الأشياء علىٰ ما كان مكتوبًا في المصحف الذي كان بين يدَيْ هرمس في السَّرَب المظلم [السَّرَب، الحفير تحت الأرض الذي لا منفذ له]، ووضعتُ ذلك لبَنِيَّ ونَسَبي ولمن كان حكيمًا من أبناء الحكماء، وحرّمتُ علىٰ كلّ مَن وصل إليه هٰذا العلم ألّا يدفعه إلّا إلىٰ حكيمٍ هو له أهل... فإنّ فيه سرّ الخليقة، وهو السرّ الذي كتمه هرمس عن الناس، ووضعه بين يديه في السَّرَب، وعمل عليه طِلَّسمات] لئلّا يقع عليه إلّا حكيم... فاكتموه... ولا يُشارككم في علمكم غيرُكم من السُّفَهاء!"...»، ٥٢٢ و٢٣. ←

«إنها تبحث في تولّد أشياء، انطلاقًا من العناصر، ومن جميع الأشياء الجامدة، والأخلاط البسيطة والمركّبة، والأحجار العاديّة والكريمة، والذهب ومعادن أخرىٰ، والكبريت والأملاح والأصباغ، واللازورد والسّلاقون [السيلقون] والألوان الأخرىٰ، والزيوت والزّفت المعدني المتوهّج، وأشياء أخرىٰ لا حصر لها، لا نجد شيئًا بشأنها في كتب أرسطوطاليس. كما لا يَعْلم عنها شيئًا الفلاسفةُ الطبيعيّون ولا أحد من المؤلّفين اللاتينيّين. وبما أنّ هٰذا العِلم مجهولٌ من الطلّاب عامّة، لذٰلك يجهل أيضًا هٰؤلاء كلّ ما يرتبط به ويتعلّق بالأشياء الطبيعيّة، أي تولّد الأشياء الحيّة والنباتات والحيوانات والبَشَر، لأنّ من يجهل ما يأتي أوّلًا، يجهل بالضرورة ما يأتي بعدئذ».

ويلتقي كلا المَعْلَمَيْن علىٰ نحوٍ ملتبس في الترجمات اللاتينيّة المتعلّقة

← وكان قد ورد، في المقالة الثالثة (علىٰ لسان "المؤلّف" بلينوس!)، نصٌّ يتعلّق بتحويل المعادن، ممّا كان يُلهب خيالَ العلماء والسلاطين... يقول:

«وقد أمكن أن يكون الياقوت زُمُرُّدًا، ويكون الزُّمرّد ياقوتًا، كما أمكن أن تكون الفضّة ذهبًا، والنحاس فضّةً، بانقلاب بعضها إلىٰ بعض، إذ كان أصلها من شيءٍ واحد، كما عملتُه أنا ودبّرتُه بما كان مكتوبًا في "لوح الزُّمُرُّد"، الذي كان في يد هرمس ـ المثلّث الحكمة ـ في السّرَب المظلم الذي تحت العمود... وإنما انقلبت هذه الأجساد بعضها إلىٰ بعض، والأحجار، لأنّ أصلها كان شيئًا واحدًا، ثمّ اختلفت بعدُ بالأعراض التي عرضت فيها، فانقلبت من لونٍ إلىٰ لون، حتّى صارت علىٰ ما هي عليه. كذٰلك تنقلب من لونٍ إلىٰ لون، حتّى تصير إلىٰ جوهرها الذي ابتدأت له، وكذٰلك الأحجار علىٰ مثال الأجساد...»: ٢٨١ و٨٢.

وممّا هو جدير بالذكر، في أمر طباعة هٰذا الكتاب بجامعة حلب، أنّ محقّقته الألمانيّة قد تأنّقت في كتابة نصّها العربيّ المحقّق، خطًّا وتنسيقًا، ممّا زيّن لمطبعة الجامعة أن تصوّره هو ذاته وتطبعه بالأوفست... فجاء بين الكتب شكلًا يستحقّ الإعجاب!

ووردت في "الفهرست"، تسميةُ أخرىٰ لهٰذا الكتاب: "كتاب السّرَب المظلم في سرّ الخليقة!": ٤٢٤.

بهرمسٍ فارسي. ويقترن هٰذا الأخير أحيانًا بآسم أبي مَعْشر، وفي الكتاب المسمّىٰ *Hermetis Trimegisti Liber de secretis naturæ et occultis rerum causis ab Apollonio Translatus* يجري الحديث عن «هرمس، الفيلسوف مثلّث المعرفة *Hermes, philolsophus Triplicem sapientiam vel tripficem scientiam appellat*».

تقودنا هٰذه الإشارات، مباشرةً، إلىٰ عالم التنجيم الكبير الفارسي أبي معشر، الذي سعىٰ في أحد أعماله المفقودة، "كتاب الألوف" ـ الذي أعاد بناءه بنگريه، والذي آتّخذه مرجعًا له [قبل ذٰلك] القرطبيُّ آبن جلجل ـ إلىٰ أن يُقدِّم روايةً موحّدة عن أصول الثقافة آنطلاقًا من ثلاثة مصادر:

١ـ تراث بابل القديمة، الذي ما زال حيًّا في حرّان، وقد كانت لدىٰ العرب فكرةً عن أن الألواح المسماريّة تشتمل علىٰ نصوصٍ مكتوبة؛

٢ـ موادّ مستمدّة من مؤلِّف كلاسيكي لأعمالٍ فلسفيّة وعلميّة وسحريّة؛

٣ـ أسطورة الإلٰه المصري توت، مبدع العلوم، مثل هرمس، وبحسب قول أبي معشر، تنبّأ هرمس الأوّل بكارثة سماويّةٍ من ماء ونار، وخوفًا منه علىٰ الحضارة من أن تندثر بسبب الطُّوفان، أمر بأن تُحفر علىٰ جدران المعابد رسومٌ تمثّل ذوي المهن والحرف، والآلات التي كانوا يستعملونها، ووضع كتبًا مختلفة كي تُنقل أسس العلوم إلىٰ الأجيال اللاحقة.

ويؤكّد مصنِّفُ السيمياء، المسمّىٰ "كتاب ذخيرة الإسكندر"[20]، أنّ كلّ هٰذه الموادّ قد بقيت في سرداب بالقرب من ساحل البحر. وقد وجدها هناك آپولونيوس دي تيانا، المعروف لدىٰ اللاتينيّين بآسم **Balinas** أو **Belenus**. ويروي لنا "لوح الزمرُّد" كيف عمل هٰذا علىٰ إيصالها إلىٰ أرسطوطاليس والإسكندر، وقد أمر العاهل المقدوني، بدوره، أنتيوكوس الأوّل (وهو ذاته السلوقيّ الذي أهدىٰ

إليه بيروسو كتابه المسمّىٰ *Babiloniaca*) بأن يُخبّئها في جدار ديرٍ بعَمُّوريّة، حيث وقع عليها المعتصم لدىٰ فتح المدينة (٢٢٣هـ/ ٨٣٨م)، وهو فتحٌ قد تمّ رغم تنبُّؤات المنجّمين، ممّا دعا [الشاعر] أبا تمّام إلىٰ تناولهم بقصيدةِ هجاءٍ مشهورة*. وكثيرةٌ جدًّا هي الروايات المختلفة والتفاصيل المتعلّقة بهذه الأسطورة، وكذٰلك سِيَر حياة هرمس الأوّل والثاني والثالث، التي توردها لنا النصوصُ العربيّة، ولٰكنها تتّفق جميعًا مؤكّدةً، كحدٍّ أدنىٰ، وجودَ أصلٍ مزدوج للعلم (ما بين النهرين، ومصر) أنتقل إلىٰ العالم القديم، ووصل إلىٰ علماء القرن التاسع [٣ هـ]، إمّا عن طريق العالِم المذكور أو بطريقة مباشرة. وتُنسب إلىٰ حاملي أسم هرمس الأعمال الثلاثة مثل كتاب *Liber latitudinis clavis stellarum*[21]، الذي تُرجم إلىٰ العربيّة (٧٤٣م [١٢٥هـ])، [تحت عنوان "كتاب عرض مفتاح أسرار النجوم"]، وترجمه إلىٰ اللاتينيّة روبرتو شِستر.

ويبدو "لوح الزمرُّد" وكأنه قد أُلحق، في بداية الأمر، في شكلِ خاتمةٍ لكتابٍ آخر في السيمياء، هو "سرّ الخليقة" أو "كتاب العلل"، وقد كانت هنالك من قبل ترجمةٌ لاتينيّة له في القرن الثاني عشر [٦ هـ] نَدين بها لهوگو دي سانتايّا. ولابدّ أنّ المؤلّف قد أستلهم من "كتاب الكنوز" ليعقوب الرّهاوي (٨١٧م) وحرّر مصنّفه في عهد [الخليفة] المأمون، ووضع عمله، ليُكسبه أعتبارًا أكبر، بأسم أبولونيو دي تيانًا. وقد وصل هٰذا العمل إلىٰ الأندلس في عهد الحكم الثاني.

وقد أكتسبت أفكار أبي معشر، حول حاملي أسم هرمس الثلاثة، أوسع أنتشارٍ

* ومطلعها:

السيفُ أصدقُ إنباءً من الكُتُبِ في حدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعِبِ

وهٰذه القصيدة مديح للمعتصم المنتصر، وفيها يُعرِّض بالمنجّمين الذين يستقرئون الصحف والقراطيس:

بيضُ الصفائح، لا سودُ الصحائفِ، في متونهنّ جلاءُ الشكِّ والرِّيَبِ

لها في العالم اللاتيني خلال القرن الثالث عشر [٧ هـ]، وظهرت، على سبيل المثال، في كتاب خلاصة الفلسفة *Summa philosophiæ*، المنسوب إلى روبيرتو گروستيسته.

كتاب "المنتخبات الفلسفيّة":

في الوقت الذي أُنجزت الترجمة اللاتينيّة للوح الزُّمرّد، أُنجزت أيضًا ترجمة كتاب "المنتخبات الفلسفيّة *Turba philosophorum*، الذي آستطاع پليشنر أن يعود بزمن مَنْشئه إلى حوالي ٩٠٠م [٢٨٧هـ]، لأنّ أحد المؤلّفين المسلمين في العلوم الخفيّة، هو **Ibn Umayl** (آبن عميل)، المتوفّى حوالي (٩٦٠م [٣٤٩هـ])، عرض لذكره، كما أنّ الإشارة الواردة فيه إلى شمٌّ في جسم آمرأةٍ (المقالة ٥٩) يجدر ربطها بالأُسطورة الهنديّة القائلة بـ"الآمرأة السّمّ" التي تقتل الرجل عن طريق معانقته. وقد دخلت هٰذه الأُسطورة إلى العالم الإسلامي مع الكتاب السّنسكريتي المسمّى "في السّموم" لشاناق، في النصف الأوّل من القرن التاسع [٣ هـ]. وتُذكّر صيغةُ الكتاب بصيغة المناظرات التي تميّز الأدب العربي، وتُعزى إحداها، التي يورد "الفهرست" ذكرها، إلى عثمان بن سويد الإخميمي. وبما أنّ مدينة إخميم المصريّة كانت مركز التعاليم الباطنيّة في ذلك العصر، لذلك يُفترض أنّ الكتاب المذكور "مناظرات العلماء ومفاوضاتهم" هو أصل كتاب الخليط *la turba* [أو المنتخبات]، أو على الأقلّ، هناك كتابٌ من الصنف ذاته يضمّ موادَّ من مصادر مختلفة. فقد كان آبن عميل، المسمّى السيّد زاديث **Senior Zadith** وزاديث بن هامويل **Zadith Ibn Hamuel** لدى اللاتينيّين، يستسيغ القيام بجولاتٍ للآطّلاع على الآثار في معابد مصر القديمة، وعلى وجه التحديد، في بشير السِّدْر، بحثًا عن حكمة الماضي، ورأى نُصُبَ أمنحوتب ولٰكنه لم يتوصّل إلى فهمه. وقد تُرجمت إحدى قصائده، وهي "رسالة الشمس إلى الهلال"، إلى لاتينيّةِ القرون الوسطى *Epistala solis ad lunam crescenden*، كما تُرجم شرح هٰذه الرسالة، وهو "الماء

الورقي والأرض النجميّة"، تحت عنوان *Tabula chimica*، ونجد في عداد الجمع المشوّش من أسماء الأعلام الذين يرد ذكرهم في هٰذه الأعمال آسم ذي النون.

وكان كتاب "المنتخبات الفلسفيّة" مصدر إلهام لكتابٍ سُمّي "الخليط الگالي *Turba Gallica*" [أو المنتخبات الگاليّة]، ألّفه، بحسب رأي دوفال، روبرتو دي كتنيه، في تودبلا، ما بين ١١٤٤ و١١٨٠م.

ويتكرّر، في كتاب "المنتخبات الفلسفيّة"، ذكر شخصٍ يُدعىٰ آگادِيمون، آگاذمون، أذمِيُون... إلخ، يَظْهر ذُكره أيضًا في الكتاب المسمّىٰ *Picatrix* "غاية الحكيم" وفي كتب باطنيّة أخرىٰ، بوصفه معلّمًا في فنّ صنع الطّلاسم ـ المكوّنة في كثيرٍ من المرّات من مربّعاتٍ سحريّة ـ وتقدّمه لنا المصادر العربيّة بوصفه أستاذًا أو تلميذًا لأحد هٰؤلاء المسمَّيْن بهرمس، ومؤسّس المدرسة الفيثاغوريّة، ويعزو له آبن وحشيّة آبتكار الأبجديّات الثلاث، ممّا يدعو إلىٰ تذكُّر أنظمة الكتابة الثلاثة «الهيروغليفيّة، والكهنوتيّة، والشعبيّة المبسّطة (الديموطيقيّة)»، التي كان يستعملها المصريّون القدامىٰ، كما يعزو إليه مَنْعَ أكل الفول، وأقرّ ذٰلك المنع بعدئذٍ هرمس. ويُتيح لنا ورودُ هٰذا الأمر التفصيليّ بأن نُحدِّد موطن هٰذه التقاليد كلّها في شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط، ففي هٰذه المناطق، وفي مصر خاصّةً، يولّد تناول الفول (*vitia fava*) عددًا كبيرًا من حالات فقر الدم المقترن بآنحلاله، عن طريق صدمةٍ عُواريّة [فرط حساسيّة] تتسبّب، خلال ١٢ـ٢٤ ساعة، بفقر دم آنحلاليّ مميت، نظرًا لندرة وسائل العلاج آنذاك (عدم معرفة طريقة نقل الدم)!

وثمّة كتابٌ آخر، بين الكتب المذكورة في "كتاب المنتخبات"، وهو كتاب "الرّوابع"، *Liber Quartorum*، الذي يُعزىٰ إلىٰ أفلاطون[22]، وكان قد تُرجم إلىٰ اللاتينيّة قبل عام ١٢٠٠م [٥٩٦هـ]، وفيه يُجيب أحمد بن الحسين جَهَار بن بُختار علىٰ بعض أسئلة ثابت بن قرّة.

وتكمن أهمّيّة المصنّفات السيمياتيّة، خاصّة، فيما تكون قد أحدثته نظريّاتها من تأثيرٍ علىٰ التعبير الأدبي لكثيرٍ من أفكار القرون الوسطىٰ: إمّا الأدبيّة، مثل

أسطورة [الكأس] گرال في كتاب "پارزيفال" لوولفرام وعند كريتْيان دي تروا، وإمّا الفلسفيّة.

وقد يُعزىٰ إلىٰ روبرتو دي شِسْتر دخول هٰذا الصنف من السيمياء، علىٰ نحوٍ كثيف، إلىٰ العالم الغربي، لأنه تَرجَم كتابًا عنوانه *Liber de compositione alchemiae* يروي فيه قيام الرّاهب ماريانوس بتعليم الأمير وراعي العلوم والآداب خالد بن يزيد [بن معاوية بن أبي سفيان]، الذي أهدىٰ إليه المؤلّف هٰذا الكتاب، وربّما قد ترجم أيضًا كتاب *Libro de Krates*، الذي أُدرج قسمٌ منه في "كتاب الخليط [المنتخبات]".

السيمياء الظاهرية:

في مقابل الكيمياء الرمزيّة، نجد الكيمياء التطبيقيّة التي يأخذ عليها ابنُ عميل إدعاءها صنع إكسيراتٍ انطلاقًا من موادَّ عضويّةٍ عاديّة، مثل البيض والشعر، ويقول عنها روجيه بيكون أنها:

> *تُعلّم صنع المعادن الثمينة والألوان وأشياء أخرىٰ كثيرة، علىٰ نحوٍ أفضل أو أوفر ممّا هو موجود في الطبيعة، عن طريق براعة الصنعة. إنّ علمًا من هٰذا الصنف أعظم بكثيرٍ من جميع العلوم السابقة، لأنه ينتج منافع عظمىٰ. فهو لا يمدّنا بالثروة وبأشياء أخرىٰ كثيرة بما يؤمّن الصالح العامّ فحسب، بل يُعلّمنا أيضًا كيفيّة اكتشاف تلك الأشياء الكفيلة بإطالة الحياة البشريّة مُدّةً أطول بكثيرٍ ممّا يحصُل بالأسلوب الطبيعيّ [....] ويُثبِّت [أي العلمُ] السيمياء النظريّةَ عن طريق أعماله، ومن ثَمّ الفلسفةَ الطبيعيّة والطبّ، وهٰذا ما يُستنتج من كتب الأطبّاء. فهٰؤلاء المؤلّفون يُعلّمون كيفيّة التصعيد والتقطير التي تطرأ علىٰ عقاقيرهم بطُرُقٍ أخرىٰ كثيرة، بما يتّفق وعمليّةَ هٰذا العلم، وحسبما يظهر بجلاء في المياه الصحيّة والزيوت وأشياء أخرىٰ كثيرة».*

هٰذا التعريف يُمكن النظر إليه وكأنه صادرٌ عن طبيبٍ كيميائي قبل زمانه. وتندرج في إطاره المصنّفات التي تُجيد عرض النظريّات، ولٰكنها تُبدي التفضيل للوصفات التي تُمكّن من تحضير شتّىٰ المنتجات المستعملة في مختلف محالّ العقاقير في القرون الوسطىٰ. وكان من شأن المصنّفات التي تتضمّن ذكرها، مثل كتاب *Mappæ clavicula* أو كتاب *Compositiones ad tingenda*، أن تتضخّم عن طريق إضافاتٍ متتابعة لوصفاتٍ طبّيّة جديدة، ومن هنا نرىٰ أنه، اَستنادًا إلىٰ نواةٍ أساسيّة إسكندرانيّة، ظهرت طُرقٌ أخرىٰ في وقتٍ لاحق متأخر، ومن العسير جدًّا تحديد المكان والعصر والمؤلّف الذي أدخلها. وعلىٰ ذٰلك فإنّ آخر تحرير لكتاب *Mappæ clavicula* لأديلاردو دي باث يضمّ ٢٩٣ وصفة بدلًا من ٢٠٩ وصفات في الرواية السابقة، ومن جملتها وصفة الكُحُول. وتدلّ هٰذه الكلمة، في اللغة العربيّة، علىٰ موادّ مختلفة مثل كبريت الإثمد (الأسود) أو حامض كبريت الإثمد الطبيعي (الأحمر الداكن). وقد ظهرت كلمة "كُحُول" هٰذه، آنفًا، مقرونةً بأل التعريف، في اللغة الرُّومنتيّة في شبه الجزيرة الإيبريّة، عام ١٢٧٨م [٦٧٧هـ]، ولٰكنها لم تكتسب معناها الحالي حتّىٰ نهاية القرن الخامس عشر. ومع ذٰلك، كان من المعروف في التَرجمات المنجزة في ساليرنو وإسبانيا في أواخر القرن الثاني عشر ـ **Abulcasis** أبو القاسم [الزهراوي] ـ أنّ تقطير النبيذ يولّد محروقًا سائلًا (باللاتينيّة *aqua ardens*، وبالقشتاليّة *aguardiente* ١٤٠٦م) يُمكن اَستخدامه لغايات سحريّة(١٦٢).

الطبّ:

نَدين لجيراردو الكريموني وماركو الطليطلي بالتَرجمات الأولىٰ للمصنّفات الطبّيّة في العصور القديمة، ومنها علىٰ سبيل المثال أعمال أبقراط. ولٰكن المؤلّف المفضّل عند العرب كان جالينوس، فقد كان حنين بن إسحٰق، مثلًا، يعرف ١٢٩ عملًا من أعماله، وكتب بحثين حول هٰذا الموضوع: بيان حول كتب جالينوس

التي تُرجمت، وبعض كتبه التي لم تُترجم بعدُ، و[الآخر] في الكتب التي لم يذكرها جالينوس في سيرته (*pimax*). كما أدخل جيراردو وماركو الطليطلي عددًا منها.

من بين الأطبّاء العرب الذين تُرجمت اعمالهم في إسبانيا، نجد ٱبن سرافيون [القديم]، وماسويه، وحنين بن إسحٰق، وعلي بن عيسىٰ (ت حوالي ١٠٣٠م [٤٢١هـ]) الذين كانت أعمالهم ـ بالرغم من تأثيرهم الإيجابي في طبّ بدايات القرون الوسطىٰ ـ أقلّ أهمّيّةً من أعمال مؤلّفين آخرين من مواطنيهم، كالكِنْدي مثلًا. وقد ترجم جيراردو العمل، الذي أدخل فيه هٰذا الأخير علم النفس الفيزيائي إلىٰ الطبّ، وعنوانه: ''في معرفة قوىٰ الأدوية المركّبة''[23]، ولنظريّته سوابق في أفكار أرسطوطاليس والإسكندر الأفروديسي. وهي تتناول تحديد نجاعة الأدوية خلال مدّة الأمراض. وترىٰ أنّ جُرعة المُنبّه (الدواء) إذا ما ٱزدادت، بحسب تتالي الأعداد الطبيعيّة فإنّ الفارق [يتّجه نحو الصفر]، ويؤكّد الكِنْدي، من ثَمّ، أننا نستطيع أن نعقد المقارنة بين الدواء والمفعول، وذٰلك بموجب التدرُّج التالي:

الإحساس	١	٢	٣	٤	
الـــــدواء	١	٢	٤	٨	١٦

وهٰذا ليس سوىٰ قانون ڤيبر (١٧٩٥ـ١٨٧٨م): «*إنّ زيادة الإحساس، بموجب متواليةٍ حسابيّة، ينجم عن زيادةٍ للمنبّه بموجب متوالية هندسيّة*»، أو، أيضًا، مبدأ فيشنر (١٨٠١ـ١٨٨٧م): «*إنّ الإحساس متناسبٌ مع لوغاريتم المنبّه*». وقد تلقّىٰ أفكار الكِنْدي وسلّم بها أرنو دي فيلانوڤا، وبرناردو دي گوردون، وأنتونيو ريكار. أمّا ٱبن رُشد، الذي ٱتّبعه پيدرو دي آبانو، ففضّل أن يختار متواليةً حسابيّة بنسبة ١، وذٰلك لٱعتبارات رياضيّة بالٱستناد إلىٰ تماثُلٍ مزعومٍ للنغمات الموسيقيّة!

ومع ذٰلك فإنّ العلاقة التي شقّت طريقها إلىٰ مؤلّفي القرون الوسطىٰ هي تلك التي قال بها الكِنْدي، فهي لم تكن فقط قادرةً علىٰ التعبير عن العلاقة بين المنبّه والإحساس، بل إنها بدت كذٰلك مناسبةً لمعرفة سرعة جسمٍ متحرّك يخضع لحركة

متغيّرة، متسارعة. وحين قدّر برادواردين سرعة جسم متحرّك تبعًا للعلاقة قوّة/سرعة، حصل على ما توصّل إليه المختصّون بتحديد جُرَع الأدوية من سلاسل:

السرعة	٠	١	٢	٣	٤
القوّة/المقاومة	١	٢	٤	٨	١٦

ومن خلال ترجمات جيراردو، جرى التعرُّف على الرازي الشهير لدى اللاتينيّين بأسم **Rhazes**، وعلى علي بن عبّاس المجوسي (ت حوالي ٩٨٠م [٣٧٠هـ])، وربّما ندين، أيضًا، لجيراردو بإدخال المصنّفات الطبّيّة التي أكسبت الرازي شهرةً كبيرة، مثل كتاب الجُدَري والحَصْبة[24]. وتَرجم، إضافةً إلى ذلك، ثلاثة مصنّفاتٍ متخصّصة كان من شأنها أن تُلبّي كلّ الحاجات العلميّة التي قد يستشعرها معاصروه: مصنّف في الطبّ العام، كتاب "القانون" لأبن سينا، ومصنّف في التشريح، وهو كتاب أبي القاسم [الزهراوي]، ومصنّف في علم الأدوية والأغذية وهو كتاب أبن وافد.

يتكوّن كتاب أبن سينا "القانون [في الطبّ]" من خمسة أجزاء [أو كتب] يُقدِّم فيها على التوالي:

١ـ نظرة عامّة في تشريح مختلف الأعضاء ووظائفها، وعلم الأمراض والصحّة؛

٢ـ بيانًا بالأدوية المفردة مصنّفةً بحسب حروف الهجاء، مع وصف كلٍّ منها وخصائصه الدوائيّة؛

٣ـ عرضًا لمختلف الأمراض، مُتَّبِعًا الترتيب التقليدي، أي أنه يبدأ بالأمراض التي تُصيب الرأس، ليَختتمها بتلك التي تُصيب القدمين؛

٤ـ الأمراض من الصنف العامّ، أي تلك التي تبدأ بالظهور في موضعٍ ما، ثمّ تنتشر في أعضاء أخرى: الحُمّيات، الأورام، البُثور؛

ه وصفًا لـ ٧٦٠ دواءً مركّبًا.

لقد نحىٰ هٰذا المصنَّفُ، في الواقع، جانبًا مصنّفاتِ المؤلّفين الآخرين، وٱنفصلت أقسامٌ كثيرة منه، أي تلك التي تتناول الحُمّيات وأمراض القلب... إلخ، عن مجموع العمل، وٱكتسبت كيانًا خاصًّا، كما لو كانت مصنّفاتٍ مستقلّة. وتعود بعض المعلومات ممّا يعزوه لنفسه، يقينًا، إلىٰ مؤلّفين سابقين، ولٰكن لا مجال للشكّ في أنها حُفظت وشاعت بفضله، كالتمييز بين ٱلتهاب المنصّف وذات الجنب، وقابليّة السلّ للعدوىٰ... إلخ. كما أنّ إسهاماتٍ أخرىٰ، كالمعالجة النفسيّة البدنيّة بما فيها النفسانيّة لحالاتٍ معيّنة، لَقِيت من طِيب الاستقبال ما جعل "السينويّة" الطبّيّة تسود في الجامعات الأوروبيّة حتّىٰ نهاية القرن السادس عشر.

وترجم جيراردو الكريموني الجزء الثلاثين من الموسوعة الطبّيّة الكبرىٰ، "التصريف [لمن عَجَز عن التأليف]" لأبي قاسم الزهراوي (المعروف لدىٰ اللاتينيّين بٱسم **Abulcasis Alsaharavius**)، والذي يتناول الجراحة، بينما ترجم سيمون الجَنَوي، في وقتٍ لاحق (حوالي ١٢٩٠م [٦٨٩هـ])، الجزء الثامن والعشرين حول علم العقاقير، وساعده في ذٰلك أبراهام دي تورتوسينو، ونَقل هٰذه الترجمة، بدورها، إلىٰ القشتاليّة ألفونسو رودريگث دي توديلا وطبعت في ڤايادوليد [بلد الوليد] (١٥١٦م). وأنجز ترجمة قسم الأغذية إلىٰ القطلونيّة البلنسي بيرنگوير آيمِرِث (١٣٣٢م)، وٱنتقلت من هٰذه اللغة إلىٰ اللاتينيّة تحت عنوان *Dictio de .cibariis infirmorum*

ٱشتمل علم الجراحة، في كتاب "التصريف..."، علىٰ معارف من العصور القديمة، مستلهمةً من پاولوس الإيجي [بولس الأجانيطي] من جهة، وعلىٰ مبتكراتٍ خاصّة بأبي القاسم، أو مستقاةٍ من شتّىٰ ميادين العالم الإسلامي، من جهة أخرىٰ. وهٰكذا يُقدّم، مثلًا، أحد أوائل التوصيفات المعروفة للمزاج النزفي، قائلًا:

ٱلتقيت رجلًا في إحدىٰ القرىٰ فروىٰ لي انه كلّما اصيب احد جيرانه بجرحٍ بليغ نَزَف حتّىٰ الموت، وأضاف أنه إذا ما فرك صبيٌّ

لثّته شرع بالنزف دونما توقّف حتّىٰ يتسبّب له الموت. وهناك شخصٌ آخر فَصَدَ له فصّادٌ وريدًا فمات في نهاية الأمر من النزف.

وأُضيف إنّ الأكثريّة، بوجه العموم، كانت تموت علىٰ هٰذا الشكل. ولا أذكر أني رأيت أيّ شيء مشابه، إلّا في هٰذه القرية، ولا أني وقعت علىٰ إشاراتٍ إلىٰ مثل ذٰلك في نصوصٍ للكُتّاب القُدامىٰ. إنني أجهل سبب هٰذا المرض، ولٰكن فيما يخصّ معالجته، أفترض أنه ينبغي إجراء الكَيّ منذ أوّل لحظة. لم أجرّب ذٰلك قطّ، ولٰكنّ ذٰلك كلّه يُحيّرني حقًّا.

كما كان أحد أوائل المؤلّفين في تقديم وصف سريريّ جيّد للجُذام.

ووصف ٱستخراج حصاة المثانة بالشقّ، والبتر، وعمليّات النواسير، والفتق، وثقب العظام... إلخ، ونصح بٱستعمال القثاطير الفضيّة بدلًا عن البرونزيّة، وٱستخدام أنماط مختلفة من الدُرَز، وشرح مِن بينها ٱستخدام النّمل الأسود (الأرضة) في العمليّات الجراحيّة علىٰ البطن، وقد وصف ذٰلك، من قبلُ، الهنديُّ سوسروتا، وهٰذا أمر مميّز لدىٰ الشعوب البدائيّة حتّىٰ في العصر الحاضر. إذن، فقد دلّ دخول أعمال أبي القاسم إلىٰ العالم المسيحي علىٰ تقدُّم عميق في علم التشريح، علىٰ الرغم من أنّ الٱستخدام المفرط للميسَم، الذي يُنصح به في هٰذا العمل، قد شكّل عائقًا من بعض الوجوه، لم يُزِلْهُ سوىٰ أمبروزيو پاريه. ولٰكن، علىٰ الرغم من ذٰلك، ٱتّبع تعاليمَه كثيرٌ من الأطبّاء والجرّاحين، مثل گي دي شولياك (١٢٩٠ـ١٣٧٠م)، وجيرونيمو برونشويگ (١٤٥٠ـ١٥١٢م). وفي المشرق أعاد شرف الدين إعداد عمل أبي القاسم، وأهداه لمحمّد الثاني [السلطان؟].

وفي وقتٍ لاحق، تُرجم كتاب "الأدوية المفردة" لٱبن وافد إلىٰ القطلونيّة من قبل كاتبٍ مجهول، وقد جمع فيه تجاربه علىٰ مدىٰ عشرين سنة من العمل. ولا نجد [في الكتاب]، علىٰ وجه العموم، تأثُّرًا بديسقوريدس أو جالينوس، ما خلا معلومة جديدة هنا ومعلومة هناك؛ وتُبيّن لنا بِنيةُ الكتاب ما يقوله لنا كاتبُ سيرته وصديقُه

القاضي صاعد، أنه كان لا يستسيغ الأدوية المركّبة، ويصف المفردة منها، وإن أمكن له آستغنىٰ حتّىٰ عن هٰذه، قاصرًا معالجته علىٰ حِمْيةٍ غذائيّةٍ مدروسةٍ جيّدًا*.

* ممّا قاله القاضي صاعد في حقّ معاصره الطبيب النباتي آبن وافد الطليطلي:

«وله، في الطبّ، مَنْزَعٌ لطيف ومذهبٌ نبيل، وذٰلك أنه كان لا يرىٰ التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية أو ما كان قريبًا منها، فإذا دعت الضرورة إلىٰ الأدوية، فلا يرىٰ التداوي بمركّبها ما وصل إلىٰ التداوي بمفردها، فإن آضطرّ إلىٰ المركّب منها لم يُكْثِر التركيب، بل آقتصر علىٰ أقلّ ما يُمكنه منها». "طبقات الأمم": ١٩٦.

فشاع هٰذا الرأيُ، منقولًا عن صاعد ومنسوبًا إلىٰ آبن وافد، عند الكتّاب والمستشرقين، وكثيرًا ما ردّده الباحثون في المؤتمرات والكاتبون في المصنّفات المعاصرة.

والواقع أنّ هٰذا "المنزع اللطيف" كان قد أجمله، قبل ذٰلك التاريخ، الطبيبُ الجرّاح أبو القاسم الزهراوي، فقد خاطب ـ بوصفه معلّمًا ـ في موسوعته "التصريف لمن عَجَز عن التأليف"، الطبيبَ المتعلّم بقوله:

«... إن كان الدواء غذائيًّا كان أفضل... وما قَدِرْتَ أن تُعالج بالأغذية فلا تُعالج بالأدوية... وما قدرتَ أن تُعالج بدواءٍ مفرد فلا تُعالج بمركّب... ولا تلتفت إلىٰ الأدوية الغريبة المجهولة ما أمكنك، إلّا أن يَصِحّ عندك من ذٰلك أمرٌ قويٌّ بالتجربة والمشاهدة». "الطبّ والأطبّاء في الأندلس الإسلاميّة"، محمّد العربي الخطّابي (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨)، ١، ١٤١.

والحقّ أنه مذهبٌ أخذ به الأطبّاء العرب والمسلمون منذ فجر حضارتهم. وكان رائدهم في ذٰلك العشّاب اليونانيّ ـ الشاميّ ديسقوريدس، الذي جاء كتابه الخالد في الحشائش تأييدًا حاسمًا لهٰذه النظريّة.

واليوم، وقد أسرف العالَم في صنع الأدوية الكيميائيّة المركّبة وفي آتّخاذها حتّىٰ لم تعد تَخْفىٰ مضارُّها، بدأ الأطبّاء يتّجهون إلىٰ الأدوية المفردة، النباتيّ منها بوجهٍ خاصّ، علىٰ قول الطبيب الزهراوي الأندلسي القديم.

حواشي المؤلّف

1. تساوي القيمة التي نقلها [إلينا] الخوارزمي - مسلمة (الفصل السابع) ٦٦,٦٦٦. وحول الأصل العربي لكلتا القيمتين، راجع ر. أ. لاگواردا في [كتابه]: "الإسهام العلمي للمايورقيّين والبرتغاليّين في رسم الخرائط الملاحيّة من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر"، ص ٣٤.

2. هو الشهير يحيى بن أبي منصور، معاصر الخوارزمي وحبش الحاسب وزميلهما.

3. كانت جداول تيون الإسكندري معروفةً من قِبَل هؤلاء المؤلّفين، لأنّ المسعودي (في مروج الذهب) يقول، في معرض كلامه عن جدول حبش: "المقصود هو جدول الرصد الذي ما هو في قسمه المستمدّ من بطليموس سوى قانون تيون الذي كتبه هذا المؤلّف بالاستناد إلى المجسطي"، وهذا ما يفسّر وجود بعضها في ترجمة آديلاردو، والتسرّب المباشر للمبدإ الخاطئ حول تأرجح الاعتدالين إلى مؤلّف ثابت بن قرّة.

4. إنّ مؤلّفها، ابن مُعاد، مجهول عمليًّا بالنسبة إلينا. وقد عاش في القرن الحادي عشر [٥ هـ]. وقد طُبعت جداوله، بحسب ترجمة جيراردو، في نورمبرگ (١٥٤٩م). وكتب، فضلًا عن ذلك، مصنّفًا في حساب المثلّثات الكُرَوي.

5. أسّس هذا التقويم سلوقوس نيكاتور، وينطلق من ٢٠ مارس/ آذار ٣١١ (٣١٢ قبل الميلاد)، وأطلق عليه اسم الإسكندر أو ذي القرنين (ويجب ألّا نخلط بينه وبين تقويم فيليبه آرّيدو، الذي يبدأ في ١٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ٣٢٣)، وأدخل الحساب المستمرّ للسنوات، بصرف النظر عن أسماء ذوي السلطة وسنوات الحكم، منجزًا، من ثَمّ، إحدى الخطوات الحاسمة في ميدان علم تاريخ الأزمان والأحداث الرياضي.

6. عُزِيَ، بغير حقّ، إلى هذا المؤلّف، اكتشافُ مبادرة الاعتدالين.

7. يدحض هذا الرأيَ المسعودي في [كتابه] "تنبيه، ١٢٩"، و[كتاب] "طبقات، ٢٩/ ٧٢". وجعلته نصوص عربيّة أخرىٰ ٱبن الأمبراطور كلوديو أو ٱبن تيبيريو.

8. [تسمّىٰ بالإنگليزيّة] **Goal-year**، و[بالألمانيّة] **Zieljhar** [أي السنة ـ الهدف]. وهي فترات تشتمل علىٰ عددٍ صحيح من السنوات، يعود بعدها موقع الكوكب السيّار، بالنسبة إلىٰ الشمس وإلىٰ النجوم، ليُصبح في ذات الموقع، ويتمّ خلالها عددٌ صحيح من الدوران الاقتراني والفلكي. راجع كتاب فان دير ڤائيردن، **..Die Anfänge** (بدايات..)، صص ١٠٧ـ١٠٨.

9. عمل تحت رعاية داريوس، وجمع في سلسلة واحدة الدوراتِ الخاصّة بكلّ كوكب من الكواكب السيّارة، كلًا علىٰ حدة، ما بين ٦٢٠ و٤٤٠ [قبل الميلاد]، راجع مقالة ب. ل. فان ڤائيردن "تاريخ ٱبتكار النظريّة الكوكبيّة البابليّة" [المنشورة] في *AHES* ٥ (١٩٦٨)، صص ٧٠ـ٧٨. وقد كان نابوريانوس أحد الفلكيين البابليّين القلائل الذين عرفهم [المؤلّفون] الكلاسيكيّون. ويَرِد في المِجسطي ذكرُ جداوله المتعلّقة بالقمر ـ وهي مختلفة عن جداول كيلينو/ سيدیناس.

10. يضيف الفهرس العربي عملين لثابت بن قرّة، الأوّل *Data*، والثاني *De figura sectores* أو *De figura alchata*، وعملًا لمحمّد بن موسىٰ *De mensura figurarium*، وآخر لنصر الدين الطوسي*De figura secantis*. وبصرف النظر عن الكتاب الأخير، لأنّ مؤلّفه من أهل القرن الثالث عشر، تجدر الإشارة إلىٰ أنّ الأعمال الثلاثة الأخرىٰ كانت معروفة من جيراردو. ويبدو أنّ كتاب *Data* ملخّصٌ لعمل لأقليدس، وسَمِيٌّ له، لذلك لا يرد في قائمة أعمال ثابت بن قرّة.

11. يرد في المِجسطي، حرفيًّا، أنّ الكلدانيّين ٱكتشفوا أنّ «القمر، خلال ٦٥٨٥ يومًا و٨ ساعات، يعود ٢٢٣ مرّة إلىٰ الشمس، و٢٣٩ مرّة إلىٰ أَوْجِهِ، و٢٤٢ مرةً إلىٰ نقطةِ تقاطع مدارَيْه، وبزيادة قدرها ١٠° ١٤َ يعود ٢٤١ مرّة إلىٰ النقطة ذاتها في دائرة البروج».

12. عاش في أواسط القرن الثاني عشر، لأنّ ٱبنه عَرَف ٱبنَ ميمون شخصيًّا.

13. كتاب "في أنّ الكرة أوسع الأشكال المسطّحة التي إحاطتها متساوية". يبرهن [ٱبن الهيثم] في هذا الكتاب علىٰ أنه «إذا ما رُسم مضلّعان منتظمان في دائرة بعينها، فإنّ المضلّع الأكثر أضلاعًا، هو أيضًا الأكبر محيطًا ومساحة».

14. كتب هٰذا المؤلِّف، ولعلّه إشبيلي (ت ١١٩٥م [٥٩١هـ])، أعمالًا عدّة، وفق نظريّات الزرقيال. وقد عثر خ. م. مِيّاس على أجزاء من أعماله، المفقودة في العربيّة، في ترجمة لاتينيّة. (راجع "ترجمات.." صص ٢٣١_٢٤٧). وأحد هٰذه الأعمال، "المقتبس"، في ترجمة قشتاليّة ـ وتتّفق جيّدًا مع الترجمة اللاتينيّة ـ من قِبَل ج. بوجوان [تحت عنوان] *sobre circunferencia .de moto*

15. القيم التي أعرضها هي القيم الحديثة، نظرًا لضآلة تغيّراتها على مدى القرون.

16. أن يكون الفضل في هٰذا الاكتشاف عائدًا إلى الزرقيال، فهٰذا أمر لا جدال فيه، فيما يبدو. راجع [بهٰذا الشأن، البحث الذي كتبه] و. هارتنر، "البتّاني"، في *DSB*، ١، ١٩٧٠، ص ٥١١.

17. قد يُعلّق منجّمٌ معاصرٌ قائلًا إنّ الأخطار والمصائر المختلفة التي ينسبها [لطالع] شخصٍ بعينه خبراءُ الملك الكرات الخمسة، تماثل التوقّعات المتباينة التي يُصدرها في الوقت الراهن عددٌ من خبراء الأرصاد الجوّيّة بإزاء خارطة جوّيّة ما، أو عددٌ من الأطبّاء إزاء تحليلات بعينها.

18. راجع [كتاب] خ. ڤيرنيت، "علم الفلك وعلم التنجيم..". وأتوجّه بالشكر إلى الدكتورة ماريا خيسوس ڤيكويرا على سماحها لي بٱستخدام أطروحتها (نشر مُسند ٱبن مرزوق) التي تضمّ أسانيد عديدة من هٰذا الصنف من التكهُّنات.

19. إذا كان لدينا نقطتان أ، ب داخل سطح دائرة مركزها ز ونصف قطرها ن، [فالمطلوب] أن نجد في [هٰذه] الدائرة (متصوّرين أنها مرآة) النقطة م، التي ينبغي أن ينعكس فيها الشعاعُ الضوئيّ الصادر عن [النقطة] أ كيما يمرّ [بالنقطة] ب. إنّ برهان ٱبن الهيثم، وهو بالغ التعقيد، يُفضي إلى معادلة من الدرجة الرابعة، يحلّها عن طريق تقاطع قطع زائد متساوي الأضلاع (أو قطع مكافئ) مع دائرة. راجع [ما نشره] ر. راشد في *RHS*، ٢١ (١٩٦٨)، صص ١٩٧_٢٢٤.

20. لعل آبولونيو دي تيانا قد أعطى هٰذا الكتاب لأرسطوطاليس، وقدّمه هٰذا الأخير إلى الإسكندر. وقد أثبت پلنسر العلاقة [القائمة] بين توطئة هٰذا المصنّف وقصّة الطوفان البابليّة.

21. هو "كتاب عرض مفتاح أسرار النجوم". راجع [ما نشره] ف. سيزگين في *GAS*، ٤، ص ٤١، [وما ورد] في *HMES*، ٢، ص ٢٢٢.

22. هو: «روابع أفلاطون».

23. [هو كتاب] "في معرفة قوى الأدوية المركّبة". راجع [كتاب] ل. گوتييه "السوابق اليونانيّة ـ العربيّة لعلم النفس الفيزيائي" (بيروت، ١٩٣١)، وورد ثانية لدى المؤلّف نفسه في [كتابه] "ابن رشد" (١٩٤٨ باريس) صص٩٥ـ١١٢.

24. [هو كتاب] "الجدري والحصبة". راجع [ما ورد في] *EU*، "الرازي" *g*.

الفصل السابع

العلوم في القرن الثالث عشر [م] وما تلاه: الفلسفة، والدين، والعلوم الخفية، والرياضيّات وعلم الفلك، وعلم التنجيم، والفيزياء

- الفلسفة والدين
- العلوم الخفية
- الرياضيات
- علم الفلك
- الأدوات الفلكية
- علم التنجيم
- الفيزياء

الفصل السابع

العلوم في القرن الثالث عشر [٧ هـ] وما تلاه:

الفلسفة، والدين، والعلوم الخفيّة، والرياضيّات وعلم الفلك، وعلم التنجيم، والفيزياء

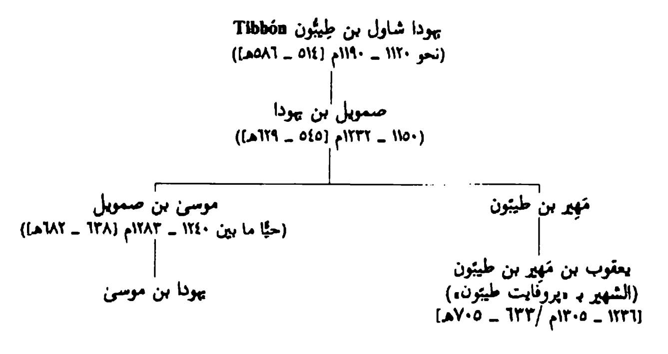
يغلب على الظنّ أنّ القرن الثالث عشر الميلادي [٧ هـ] ينطوي على أهمّيّة بالغة في دراسة انتقال الأفكار من الشرق إلى الغرب، وذلك أنه طرأت، خلاله، أوضاعٌ ثلاثة ساعدت ظاهرةَ انتقال الأفكار هذه.

فبادئ ذي بدء عمد الإمبراطور فيديريكو الثاني، المولع بالثقافة المشرقيّة، إلى أن يجمع في بلاطه أفضل العارفين من المسيحيّين في هٰذا الميدان: ميكيل إسكوتو الذي كان قد عمل مترجمًا في طليطلة، وليوناردو البيزاني، الشهير بـ"فيبوناتشي" عالم الرياضيّات الكبير... إلخ. ولٰكنه لم يكتفِ بذٰلك، بل أقام مراسلاتٍ ـ مباشرةً وغير مباشرة ـ مع أهمّ العلماء المسلمين آنذاك: ليس مع ابن سبعين [الأندلسي] وحسب، بل كذٰلك مع علماء مشارقة، أمثال كمال الدين بن يونس (١١٥٦ـ١٢٤٢م [٥٥١ـ٦٤٠هـ])، والفيزيائي القَرَافي (ت حوالي ١٢٨٥م [٦٨٤هـ])، الذي أرشد السلطانَ الكامل (١٢٣٩م [٦٣٧هـ]) في شأن الإجابات التي كان عليه أن يُوافي بها الإمبراطور؛ وقد تأثّر خطاه في هٰذه السياسة ابنُه مانفريدو، الذي كان بلاطه يضمّ

أحد السفراء، مؤرّخ الأيوبيّين الشهير ٱبن واصل. وعلىٰ ذٰلك فليس بمستبعدٍ أن يكون فيديريكو الثاني قد حظي، منذ (١٢٣٢م [٦٢٩هـ])، بالترجمة اللاتينيّة لأعمال ٱبن رشد.

وفي العام ذاته، الذي توفّي فيه فيديريكو الثاني علىٰ وجه التحديد، ٱعتلىٰ عرش قشتالة ألفونسو العاشر، الذي ٱتّبع، من الوجهة الثقافيّة، سياسةً تتشابه إلىٰ حدٍّ كبير وسياسةَ فيديريكو الثاني. وأمّا جهوده ـ بصفته راعيًا للعلوم ومشجّعًا علىٰ تلك الترجمات العربيّة ـ الرّومنثيّة، التي أُنجزت فعلًا في ظلّ رعايته ـ وكانت بلاشكّ [ترجماتٍ] حرفيّةً للغاية ـ فقد كانت موضع ثناءٍ ودراسةٍ مرارًا وتكرارًا. وحسبنا هنا أن نُذكّر، موقّتًا، بدراسات گونزالو مينينْدِث پيدال وداڤيد رومانو، التي يُمكننا أن نتتبّع فيها الجهد الثقافي لهٰذا الملك، الذي ٱستقطب لخدمته العديد من اليهود الناطقين بالعربيّة، أمثال الحاخام زاگ وموشيه ها ـ كوهين وأبراهام الفقين (أبراهام الطليطلي)، ومن العرب المرتدّين أو المستعربين، مثل برناردو العربي، الذي عمل بالتعاون مع هٰذا الأخير. ولعلّ إسهام الملك نفسه كان ضئيلًا جدًّا، وربّما ٱقتصر علىٰ قيامه بدور "سكرتيرِ تحريرٍ" أمينٍ، وسماحِهِ بأن يُرصَّع التاريخ العام [الإسباني] بنصوصٍ عربيّة مقرونة بترجمة لها، بيد أنّ نتائج سياسته الثقافيّة، التي سنحلّلها في هٰذا الفصل عينه، ظلّت بادية الأثر حتّىٰ مطالع القرن السابع عشر الميلادي!

وقد حصلت، في هٰذه الآونة ذاتها، واقعتان كُتب لهما أن تُحَوِّلا، تحويلًا عميقًا، مشهدَ الثقافة الأوروبيّة: ظهور الجامعات الأولىٰ التي حاول ريبيرا أن يُفتّش عن أصلٍ مشرقيٍّ لها، عراقيٍّ بالتحديد[1]، والترجمات من العربيّة إلىٰ العبريّة ـ وسرعانَ ما أمكنها، بحُكم عددها وجودتها، أن تُقارَن بالترجمات من العربيّة إلىٰ اللاتينيّة ـ التي ٱنطلقت في القرن الثاني عشر [٦ هـ] وٱكتسبت، الآن، نشاطًا منقطع النظير. ولئن كانت الترجمات العربيّة ـ اللاتينيّة، بالأحرىٰ، من نمطٍ مستقلٍّ عن كلّ رابطةٍ عائليّة، فلم يحصُل الأمرُ ذاته فيما يخصُّ الترجمات العربيّة ـ العبريّة، التي غالبًا ما كان المترجمون فيها تجمعهم صلة القرابة. وأوضح مثال وأشهره "آل طِبُّون Tibbón"، الذين تتكوّن شجرة نَسَبهم علىٰ هٰذا النحو:



كان واهبُ اَسمِهِ لهٰذه الأسرة يعيش في غرناطة، ولٰكنه، بفعل الاَضطرابات السياسيّة التي هزّت الأندلس حين اَنتقال الحكم من يد المرابطين إلىٰ الموحّدين، هاجر إلىٰ جنوبيّ فرنسا، إلىٰ لونل Lunel، حيث اَلتقىٰ بنيامين التُّطيلي عام ١١٦٠م، ومارس العمل طبيبًا فيها. وقد نَذَرت ذُرّيّته، كلُّها تقريبًا، نفسها، لتترجم إلىٰ العبريّة الأعمال الأساسيّة للثقافة الإسلاميّة و[الثقافة] اليهوديّة، المكتوبة اَبتداءً بالعربيّة، مثل أعمال بَحْيَه بن پاقوده، وسَلُمون بن گابيرول ، ويهودا ها ـ ليڤي، واَبن جنّاح... إلخ. وقد أنجز أشهر أعضاء هٰذه الأسرة، يعقوب بن مَهِير، الذي عُرِف خاصّةً بآسم "پروفايت طيبّون" (مرسيليا؟ حوالي ١٢٣٦ ـ مونپلييه ١٣٠٥م [٦٣٣_٧٠٥هـ])، دراساتٍ في مدينة خيرونة، حيث كان، فيما يبدو، تلميذًا للحاخام الشهير جدًّا، موسىٰ بن نحمان. وتتمثّل أهمّيّة أسرة طيبّون هٰذه، في أنها حافظت دائمًا علىٰ صلتها بالجاليات اليهوديّة في إقليم قَطَلونية، واَرتبطت معها في جهدها العلمي لدرجة أنها ـ وهي التي كانت تعمل في جنوبي فرنسا ـ قد نقلت إلىٰ الغرب العِلْمَ الأندلسي، وسرعان ما تُرجمت أعمالٌ مختلفةٌ لهم إلىٰ اللاتينيّة (أو أنها أُلِّفت فيها مباشرةً؟).

من المترجمين اليهود القَطَلونيّين آنذاك، يُمكننا أن نذكُر ـ وإن كان ذٰلك عرضًا ـ اَبن حَسْداي (ت ١٢٤٠م [٦٣٨هـ])، وسام طوب بن إسحق، وقد اَشتهر بآسم بابي دي طرطوشة. (حيًّا ما بين ١١٩٦_١٢٦٧م) وزراخيا گراشيان (حيًّا

١٢٨٨م). وكانت نواة طليطلة تتكوّن من شخصيّات من مستوىٰ أبراهام بن ناتان (حيًّا ١٢٠٤م) أو الحريزي (حيًّا ما بين ١١٧٠ـ١٢٣٥م). وشهدت آنبعاثًا خارقًا حين شرع ألفونسو العاشر في النصف الثاني من هٰذا القرن، بمساعدةٍ من اليهود علىٰ نحوٍ أساسي، في ترجمة الأعمال العلميّة العربيّة إلىٰ الرُّومنثيّة. وقد برع في هٰذا العمل يهودا بن موسىٰ، الذي ترجم خمسة أعمال، وربّما أيضًا كتاب *Picatrix*، وكذٰلك إسحق بن سِيِّد.

ونستطيع أن نستدلّ، من الترجمات العربيّة ـ الرُّومنثيّة التي وصلت إلينا، علىٰ توافر ترجماتٍ أخرىٰ كثيرة، فقد بقيت لنا ترجماتٌ إلىٰ اللاتينيّة، نكتشف في ثناياها كثيرًا من الاَصطلاحات الإسبانيّة. وهٰذا ما حصل، علىٰ سبيل المثال، في كتاب أبي كامل في الجبر في ترجمته العبريّة التي أنجزها مُرْدخاي فينزي (حيًّا ١٤٦٠م).

ولٰكن من البدهي أنّ العدد الأكبر من الترجمات تَتابَعَ إنجازه باللغة اللاتينيّة، وقد برز في هٰذا المجال، ميگيل إسكوتو (ت ١٢٣٥م) وهرمان الألماني (حيًّا ما بين ١٢٤٠ـ١٢٧٢م)، وذٰلك لنذكر بعض الأمثلة ليس إلّا.

ونَدين للمغول بالتوارد الكثيف للمعارف الشرقيّة، إلىٰ أوروبة في القرن الثالث عشر [٧ هـ]، تواردها الثالث والأخير. ذٰلك أنّ غزوهم لبلاد الفرس، وآنتقال السلطة إلىٰ الأُسرة الإلخانيّة، التي ظلّت تتبادل، السّفارات مع الملوك المسيحيّين، أفسح المجال لدخول أفكار، لا سيّما تقنيّات، كانت معروفةً قبل زمنٍ طويل في الشرق الأقصىٰ. وخير مثال علىٰ ذٰلك: المعلوماتُ الأولىٰ حول إسبانيا (مو ـ لان ـ پي)، وقد جمعها الصيني شان خو كوا، وتعاونُ علماءِ فلكٍ غرناطيّين وفرسٍ وعرب وصينيّين في مراغة ببلاد فارس، وإدخالُ الخريطة المسطّحة ذات المربّعات، والبارود إلىٰ الغرب... إلخ، والذي تمّ في الثلث الأخير من القرن، عن طريق قنوات لم تكن دومًا إسبانيّة، لأنّ الرحّالة الأسيويّين، مثل بار صوما، كانوا يقصدون دونما تمييز، هٰذا البلد أو ذاك، حسبما يروق لهم.

الفلسفة والدين:

أبدىٰ المترجمون، طَوال القرن الثالث عشر بأكمله [٧ هـ]، اهتمامًا خاصًا بالفلسفة، وبالأعمال المختصّة بالحكمة التي يجوز ربطها بالفلسفة. وقد أصبحت الأولىٰ [أي الفلسفة] محور الاهتمام كلّه، منذ اكتُشفت، مع بدايات القرن ـ إن لم يكن قبل ذلك ـ قيمة عطاء ابن رُشد. فقد ترجم له ميگيل إسكوتو، خلال إقامته بإسبانيا، كتبًا مختلفة، من بينها علىٰ الأرجح كتاب "في النفس" وكتاب "ما بعد الطبيعة" الأرسطوطاليسيَّيْن مع شروح ابن رشد، هٰذا الذي اطّلع، كي يقوم بكتابتها، علىٰ غير ما ترجمةٍ لها إلىٰ العربيّة. وترجم هرمان الألماني، فيما بعد، كتاب "فنّ الشعر". وخلال قرونٍ عدّة، أُتيح لكثيرٍ من الفلاسفة أن يتعرّفوا علىٰ الفكر الأرسطوطاليسي من خلال هٰذا الشارح الكبير.

ولا بدّ أنه قد انتشرت، في الوقت ذاته، مصنّفاتٌ أرسطوطاليسيّة مُنتحَلة عدّة، فإنْ لم يبدُ أنها قد ترجمت في إسبانيا، فإنها كانت، علىٰ الأقلّ، معروفةً فيها قبل زمن بعيد. وهٰذا ما كان شأن كتاب "اللاهوت" الذي سبق أن عرفه ابن گابيرول، أو "كتاب التفّاحة"، الذي تُعزىٰ ترجمته اللاتينيّة إلىٰ مانفريدو الصِّقِلّي. وقد ورد آنفًا ذكر هٰذا الكتاب، وهو تنقيح لكتاب *Fedro* لأفلاطون ربّما أنجزه الكِنْدي، لدىٰ إخوان الصفا، ولا بدّ أنه كان معروفًا في أواخر القرن الثاني عشر في شمالي إسبانيا. وإنّ تقديمه، بوصفه تأمُّلات أرسطوطاليس قبيل وفاته، يجعله ذا صلةٍ بالصنف العربيّ المعروف بالوصايا، التي كانت كثيرة التداول في هٰذه الأدبيّات.

وكانت ترتبط بالفلسفة أيضًا المجموعات الحِكَميّة، التي تحتفظ بمئات ومئات الأقوال المأثورة المنسوبة إلىٰ كثيرٍ من المفكّرين القدامىٰ، أمثال هرمياس وديوجين وزينون الكيتي ولوكريسيو، وإپيكتيتو وكثيرٍ غيرهم. ويبدو أنها ترجع، في معظمها، إلىٰ العصور القديمة، وإن كانت نسبتها إلىٰ فيلسوف معيّن غير مؤكّدة. وتنِمّ هٰذه النصوص، علىٰ العموم، علىٰ صيغة حِكَميّة، وقد أمكن لكرايمر أن يُثبت أنّ

الأمثال الموضوعة بٱسم هوميروس مستقاةً، في قسم كبير منها، من *Menandrou gnōmai*. وليس من شكّ في أنّ أهمّ هٰذه الأعمال كلّها هو مؤلّف مُبَشِّر بن فاتك (حيًّا ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م)، الذي تُرجم إلىٰ القشتاليّة، تحت عنوان *los bocados de oro* (اللقمات الذهبيّة) أو *Bonuim*، ببلاط ألفونسو العاشر[2]. كما تُرجم إلىٰ اللاتينيّة والپروڤنسيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة. ومن الأسلوب ذاته كتاب ٱبن مسكويه (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) *La tabla de cebes*، الذي لم يُترجم إلّا في وقت متأخّر إلىٰ القشتاليّة[3]، أو "كتاب أدب الفلاسفة" لحنين بن إسحٰق*، والذي تُرجم تحت عنوان *Llibro de los buenos proverbios*، وربّما تمّ ذٰلك سابقًا في عهد فرناندو الثّالث، القدّيس. وٱتّخذ إذ ذاك كتاب "سرّ الأسرار" شكله بالقشتاليّة تحت عنوان *Poridat de Poridades*، مؤثّرًا هٰكذا في فقرات مختلفة من الكتاب المسمّىٰ *Partidas*. وفي باقي العالم المسيحي، تمّت إعادة صياغة هٰذه الأمثال كلّها، لتنبثق عنها أعمالٌ من نوع كتاب المئة فصل *El libro de los cien capítulos* وكتاب النصيحة والناصحين، وكتاب كلمات وأقوال الحكماء والفلاسفة *Llibre de paraules e dits de savis e filosofs* لليهودي القَطَلوني خافودا بونسينيور، وكتاب الحكمة *Llibre de saviesa* الذي يُعزىٰ، دونما أساس، إلىٰ خايمي الفاتح... إلخ.

كان الدافع إلىٰ الٱهتمام بالفلسفة هو علاقتها بالدين من ناحيتين مختلفتين: الدفاع عن الدين، وتوافق العقل مع الإيمان. كانت أولاهما تُثير هوىٰ رجال العلم، حيث كان يتعايش في إسبانيا أناسٌ ينتمون إلىٰ ثلاثة أديان ـ المسيحيّة والإسلام والموسويّة ـ وفي باقي أوروبة كان اليهود والمسيحيّون متجاورين. وما إن تمّ التخلّي عن الٱلتجاء إلىٰ الحرب ـ مع إخفاق الحملات الصليبيّة ـ لفرض العقيدة، حتّىٰ لم يبقَ هناك من الوسائل سوىٰ بيان تفوّقها عن طريق العقل، وكانت تستجيب لهٰذه الغاية الترجمات المتتابعة للقرآن؛ وكانت أولاها جميعًا بإسبانيا تلك التي أنجزها روبرتو الكتني بناءً علىٰ طلب من پيدرو المبجّل، رئيس دير كلوني، حوالي

* قد وقفنا وِقْفةً عند فِقراتٍ منه في الفصل الأوّل.

١١٤١_١١٤٣م [٥٣٥_٥٣٧هـ]، ثمّ شرعت، ٱبتداءً من القرن الثالث عشر [٧ هـ]، مرحلة ترجمته إلىٰ اللغات الرُّومنثيّة، وبرزت بينها التّرجمة القَطَلونيّة التي أنجزها بيدرو الرابع من بلدة بونياليت Punyalet (١٣١٩_١٣٨٧م)، ولا سيّما الثلاثيّة منها: اللاتينيّة ـ القشتاليّة ـ العربيّة، لخوان السيگوفي (١٤٠٠_١٤٥٨م)، وقد فُقدت كلتاهما مع الأسف. وتلت هٰذه التّرجمات، في القرن السادس عشر، ترجماتٌ أخرىٰ، ثنائيّة، ذات طابع طَقْسيّ، أنجزها الفقهاء الموريسكيّون لتثقيف رعيّتهم بكلام الله، لأنهم أمسَوا عاجزين عن فهم النصّ الأصلي بعدما نسوا اللغة العربيّة وأصبحوا لا يعرفون سوىٰ القشتاليّة.

ويرجع هٰذا التطلُّع، بغية التعرّف فكريًّا علىٰ معتقدات الديانات الأخرىٰ، إلىٰ أصول الإسلام الأولىٰ نفسها ـ وقد ظهرت هٰذه الرغبة، قبلئذ في الشرق في القرن الثامن [الميلادي] ـ وأصبحت دارجةً في الأندلس عندما ألّف ٱبن حزم أوّل كتابٍ في تاريخ الأديان جديرٍ بهٰذا الٱسم، وهو كتاب "الفِصَل [في المِلَل والأهواء والنِّحَل]"، الذي لم يظهر مثيلٌ له في العالم المسيحيّ حتّىٰ القرن التاسع عشر. وإلىٰ هٰذا المناخ، المدافع عن الدين، يجدر بنا أن نعزو قيام هوگو دي كلوني بإيفاد بعثة إلىٰ سرقسطة (١٠٧٨م [٤٧١هـ])، وتلقّت الردّ من الفقيه أبي الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م). وتلت بُعيد هٰذا التاريخ، مصنّفات هِرمان دي كارينتيا في الجدل المضادّ للإسلام، وترجمة كتاب "العقيدة" لٱبن تومرت (١١٣٠م [٥٢٤هـ])، مؤسّس دولة الموحّدين، وأعمال ألفونسو بوين ـ أومبريه أسقف المغرب [الأقصىٰ] مارّويكوس Marruecos (حيًّا ١٣٣٩م [٧٩٥هـ])، ولاسيّما كتاب *Cribratio Alchorani* لنيكولاس الكوسي (١٤٠١_١٤٦٧م)، الذي ينطلق فيه من فكرة القدّيس يوحنّا الدمشقي القائلة بأنّ الإسلام بدعة (هرطقة) في المسيحيّة، ويسعىٰ إلىٰ تحديد الأجزاء قويمة الرأي (الأرثوذكسيّة) في القرآن!*

* أي بحسب تصوّره هو، ٱستنادًا إلىٰ الأناجيل والتعاليم المعتمدة كَنَسِيًّا.

هٰذا المناخ العقائدي، هو الذي يُفسّر التدخّل الإلٰهي الواضح في أحداث الحياة البشريّة. فحين يَظهر القدّيس سانتياگو Santiago علىٰ حصانه الأبيض في معركة كلافيخو الأسطوريّة، لا يفعل الله سوىٰ التجلّي [التدخّل] بصورةٍ صريحة، علىٰ نحو ما فعل منذ ظهور الإسلام، لصالح مختلف الفرق المتصارعة: إمّا إلىٰ جانب الشّيعة (عام ٦٧هـ/ ٦٨٦م)، وإمّا ليبتّ في خلافة المهدي المُوَحّديّ ٱبن تومرت، وإمّا ليرسل مَلَكًا إلىٰ أبي يعقوب قبل معركة الأَرَك.

يُفسّر هٰذا التعايش بين الديانات الثلاث، تصرُّف شخصيّات أمثال رامون يول (حيًّا ما بين ١٢٣١_١٣١٥م [٦٢٨_٧١٥هـ]) ورايموندو مارتي (حيًّا ما بين ١٢٣٠_١٢٨٦م [٦٢٧_٦٨٥هـ]). فالأوّل الذي كانت تؤرّقه هواجس دينيّة منذ شبابه، ٱنهمك بتعلُّم اللغة العربيّة بتعمُّق، حتّىٰ أصبح قادرًا علىٰ أن يُحرِّر مباشرةً بهٰذه اللغة العديد من أعماله التي كُتبت بهدف إقناع المسلمين وتحويلهم، سلميًّا، إلىٰ المسيحيّة. وكيما يُضفي صيغةً علىٰ منهجه في الدفاع عن الدين، قام برحلاتٍ عدّة إلىٰ شمال إفريقية، وحثّ البابا علىٰ إنشاء مدارس للدراسات الشرقيّة يُدرّس فيها اللغات العربيّة والآراميّة (الكلدانيّة) والعبريّة. وقد تبنّىٰ مجمع ڤيينّا أفكاره، وأوصىٰ بإنشاء هٰذه المراكز في روما ومدينة بولونيا Bolonia، وباريس وأكسفورد وسلمنقة، والتي كان من شأنها أن توسّع العمل الذي كان ينهض به من قبل المعهد الفرنسيسكاني في ميرامار (ميورقه).

كان يول متأثرًا جدًّا بالثقافة الإسلاميّة، لدرجة أنه سعىٰ إلىٰ الدفاع عن المسيحيّة مستخدمًا الحجج التبريريّة ذاتها التي كان الإسلام يُدافع بها عن حقائقه. وإذا كانت إحداها القولَ بعدم إمكان الإتيان بمثل "القرآن"، أي أنّ هٰذا الكتاب بلغ في نصّه من الجودة ـ بٱعتبار أنه كلام الله ـ حتّىٰ ليعجز أيُّ كائنٍ بشريّ عن محاكاته، فإنّ يول [قد ساقه الوهم إلىٰ أن يحسب أنه] جاء في كتابه "أسماء الله المئة" بأسلوب يتفوّق به علىٰ أسلوب "القرآن"!. وبما أنه كان مثابرًا علىٰ قراءة الغزالي، وقد ترجم كتابه في المنطق ترجمةً مُلخّصة إلىٰ القَطَلونيّة، فقد خضع لتأثير

النثر المسجوع لدى المؤلّفين العرب، الذي يتكرّر ظهوره في كتبه، وتسرّب بعدئذ إلىٰ قشتالة، وآستخدمه رئيس كهنة [مدينة] طَلَبِيرة **Talavera**. كما سلّم بالأفكار الإسلاميّة فيما يتعلّق بالصلاة الذهنيّة التي عرضها في كتابه "صلوات رامون" *Oracions de Ramon*، وبالصياغة الرياضيّة للمنطق التي وضع خطوطها الأولىٰ بعضُ المؤلّفين في شمال إفريقية .

ولئن كان الرّاهب الفرنسيسكاني يول قد حصل علىٰ تكوينه الفكريّ في ميورقه وشمال إفريقية، فإنّ الرّاهب الدومينيكاني رايموندو مارتي، تلميذ القدّيس ألبيرتو الكبير بباريس، لا بدّ أنه قد أنجز دراسته الآستشراقيّة بمدينة مُرْسِية، وكانت فيها مدرسة دومينيكانيّة معدّة لهٰذه الأغراض. وكانت كفاءته في المواضيع العربيّة كبيرةً مثلما هي في المواضيع العبريّة، ويُثبت ذٰلك كتابه *Pugio fidei adversus mauros et judaeos* [الموجّه ضدّ الإسلام واليهود] (١٢٧٨م [٦٧٧هـ]).

وكان يول ومارتي، كلاهما، متأثّرَيْن بالغزالي ومعادِيَيْن لآبن رشد، وقد أرسيا أسس المواجهة الفكريّة اللاحقة بين المسيحيّين والمسلمين. وهما اللذان أدخلا إلىٰ الغرب الصراعات العقائديّة، مكيّفةً كما ينبغي مع الفكر المسيحي، والتي كانت تُقسّم العالم الإسلامي [إلىٰ مذاهب متصارعة] والعالم اليهودي (الصراعات بين أنصار آبن ميمون والنّخمانيّين).

كان موقف القدّيس توما معتدلًا إلىٰ أقصىٰ حدّ، فقد عرف كيف يستفيد من حُجج هٰذا الطرف أو ذاك، ولم تكن لتُعميه النظريّات الرُّشديّة المتسرّبة إلىٰ العالم اللاتيني، التي دانها أسقفُ باريس إ. تمْپيه، عام ١٢٧٧م، والتي كانت، في أغلب الأحيان، واهية الصلة بأفكار آبن رُشد ذاتها، حسبما نعرفها في الوقت الحاضر. وفي نقطة محدّدة تمامًا من نظريّات توما الإكويني، وهي المتعلّقة بالنبوّة والوحي، والتي حلّلها خوسيه ماريّا كاسيارو تحليلًا بارعًا، آستطاع هٰذا أن يُثبت أنه من بين الموادّ الآثنتين والعشرين التي تضمّها قضايا النبوّة الأربع في كتاب *Summa theologica* ثمّة آثنتا عشرة مادّةً ترتبط آرتباطًا وثيقًا بمصادر عربيّة وبالمصادر الحاخاميّة المنبثقة

عنها، وأربع موادّ مولَّدة عن هٰذه المصادر علىٰ نحوٍ جوهريّ، وإن كانت تُفنِّد العقيدة جزئيًّا.

العلوم الخفيّة:

تروي الأسطورة أنّ العرب كانوا أساتذةً في كلّ أصناف العلوم الخفيّة، وأنّ طليطلة ـ وريثةَ كلّ ما هو صالح وكلّ ما هو سيّئ في العلم العربي ـ قد عُدَّت المكان الملائم لدراستها. وليس عبثًا أن يتّخذ دون خوان مانويل من هٰذه المدينة مسرحًا لمغامرة نائب المطران سانتياگو مع دون إيّان. وأمّا العجز عن بلوغ الغايات المستهدفة من ممارسة الفنون السحريّة فقد كان أمرًا قليل الأهمّيّة، لأنّ المشايعين لها، يحدوهم هٰذا الإيمان الذي يُحرّك الجبال، اَستمروا في الاَعتقاد بها، عاملين علىٰ توسيع اَنتشارها؛ فقد اَمتدّ اَستخدام التشخيص الطبيّ التنجيمي ليشمل الحيوانات الأهليّة كالحصان، وحين اَشتكىٰ أبراهام بار حيّة، في رسالة موجّهة إلىٰ يهودا بن بارسياك البرشلوني، من قلّة المعرفة بالعلم العربي في پروفانسيا، ففي وسعنا الظنّ أنه كان يُلمع إلىٰ الجهل بالتنجيم "العلمي" الذي كان قائمًا في جنوب فرنسا.

من بين هٰذه العلوم، حظي، باَعتبارٍ خاصّ، علم تفسير الأحلام العربي، الذي يرتكز، من الناحية العلميّة، علىٰ مصدرين؛ ترجمة كتاب *Onirocritica* لأرتيميدوس الأفسوسي (حيًّا ١٣٨ـ١٨٠م) التي أنجزها حُنين بن إسحٰق[4]، وينقل اَستشهاداتٍ مقتبسةً عن ميناندروس، وپنداروس، وأوريپيدس ومن الإلياذة؛ وكتاب منسوب إلىٰ شخصٍ أُسطوريّ هو محمّد بن سيرين (٣٤ـ١١٠هـ/٦٥٤ـ٧٢٨م)، لا يسعنا أن نقولَ عن وجوده الحقيقي[5] إلّا القليل* ؛ وتُوَحَّد هويّته، أحيانًا، مع شخص أبي مَعْشَر، إنما يُربط باَسمه "كتاب الرؤيا"، الذي لا يبدو أنه اَشتمل في بداية الأمر علىٰ عددٍ كبيرٍ من الروايات، ولٰكن شهرته تعاظمت حتّىٰ

* تستبعد الدكتورة مهجة الباشا (أستاذة الأدب الأندلسي بجامعة حلب) أن يكون محمّد بن سيرين شخصًا أُسطوريًّا، أو أن يُشَكّ في وجوده، ما دامت وردت ترجمته في معظم كتب التراجم الموثوقة..... وعدّدت منها بضعة عشر مصدرًا.

أُضيفت، مع مرّ الزمن، أحلامٌ وأحلام إلىٰ نواة الكتاب الأصليّة. ولا ترجع أقدم مخطوطاته العربيّة إلىٰ ما قبل القرن الخامس عشر الميلادي [٩هـ]، ولٰكن لا بدّ أنّ هنالك مخطوطاتٍ أخرىٰ أقدم، فقد تمّت ترجمة الكتاب من العربيّة إلىٰ اليونانيّة حوالي ١٠٠٠ للميلاد [٣٩٠هـ]، وترجمه من هٰذه اللغة إلىٰ اللاتينيّة ٱبن مدينة پيزاليو: ليئوتوسكوس، سكرتير الإمبراطور البيزنطي مانويل الأوّل كومنيرو، عام ١١٧٦م، وتُرجم بعدئذ إلىٰ لغات أوروبيّة مختلفة (الفرنسيّة ١٥٨١، والألمانيّة ١٦٠٧). وتُعتبر هٰذه الترجمة اليونانيّة ـ اللاتينيّة، تقليديًّا، مصدر تأثير التفسير الشرقي للأحلام في الغرب. لٰكننا نعتقد أنّ الأمر لم يكن علىٰ هٰذا النحو، لأنّ ٱبن عبد ربّه (ت ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م) في الأندلس، أورد، في حينه، ذِكر ٱبن سيرين. ونقع علىٰ رواياتٍ عرضيّة عن أحلام مُبشِّرة أو منذرة ـ مثل الحلم الذي بشّر [الحاجبَ] المنصور بفتح مدينة ليون، وحلمُ ألفونسو السادس حول هزيمة الزلّاقة* ـ ويستند تأويلها إلىٰ قواعد مستلهمةٍ من العمل المنسوب إلىٰ ٱبن سيرين. بناءً علىٰ ذٰلك، يتعيّن علينا أن نُسلّم بأنّ ٱنتقال هٰذا الكتاب قد تمّ عن طريقين: الطريق اليوناني والطريق الأندلسي.

وإذا كانت هٰذه الأحلام المنذرة لم تتحقّق في كثير من المرّات ـ مثلًا، أنّ الحُكم الإسلامي [الشبه الجزيرة الإيبيريّة]، بحسب رأي يهودا ها ليفي، كان لا بدّ من ٱنتهائه عام ١١٣٠م [٥٢٤هـ] ـ فإنّ ذٰلك لم ينتقص من ٱعتبار علم الأحلام، لأنه تطوّر إلىٰ درجةٍ أنه يُنسب إلىٰ ٱبن سيرين أنه «*حين كان يُروىٰ له حلمٌ من الأحلام، كان يُخصّص قسمًا هامًّا من اليوم لسؤال صاحب الحلم عن وضعه، وشخصه، ومهنته، وعائلته، ونمط عيشه، وما يعرف من الأسئلة المطروحة عليه وما لا يعرف منها. ولم يكن ليُغفِل شيئًا من شأنه ان يُقدّم دليلًا، وكان يأخذ بعين الٱعتبار أجوبة الحالم لتفسير الحلم*»[6]. وقد دفع هٰذا التحليل العميق جدًّا، وكذٰلك نصّ بعض تأويلاته، إلىٰ الٱعتقاد بأنّ ٱبن سيرين من شأنه أن يكون رائدًا سابقًا لفرويد.

ويتجلّىٰ تأثيرُ ٱبن سيرين في علم الأحلام الغربي، في عمل شخصٍ مثل

* ٱنظر ما ورد عن ذٰلك في الفصل الأوّل.

كيرمو دي آراگون ـ الذي تُوحَّد هويّته أحيانًا مع المدعو أرناو دي ڤيلانوڤا ـ يحمل عنوان: *Liber de pronosticationibus sompniorum*، "كتاب تشخيص الأحلام"، ويسعىٰ فيه إلىٰ إرساء التأويل علىٰ البرهان، وإن لم يستطع التخلّي عن الالتجاء إلىٰ التنجيم. ويمكن أن نتصوّر مدىٰ ما كانت أفكارُه تُمارِس من تأثير، إذا ما علمنا بأنّ آرناو دي ڤيلانوڤا قد أوّلَ، مرّاتٍ عديدة، أحلام أهمّ الشخصيّات في عصره.

وكان ثمّة تيارٌ آخر في تأويل الأحلام، وهو التيّار الموضوع بأسم النبي دانيال. فعندما كان لويتپراندو اللومباردي (ت ٩٧٢م [٣٦١هـ]) سفيرًا في القسطنطينيّة لاحظ أنّ «لدىٰ اليونانيّين والمسلمين كتبًا يُسمّونها رؤىٰ دانيال، وأنا قد أسمّيها كتب عِرافة. ونقرأ فيها عدد السنوات المُقدَّرِ أن يعيشها كلُّ إمبراطور، وما هي سماتُ أيّام حُكمه، وهل يكون فيها مسالمًا أم لا، وهل يُقيم مع المسلمين علاقاتٍ حسنة أم سيّئة؟». ومن البديهيّ أنّ هٰذه الرؤىٰ قد أعتُبرت علىٰ الفور أحلامًا، لأنّ الطرف المسيحيّ كان ينطلق بفكرِهِ إلىٰ الأحداث التي يرويها سفر دانيال التوراتي، وسرعان ما أنبثقت سلسلةٌ واسعة من الكتب اللاتينيّة في علم الأحلام موضوعةً بأسم هٰذا النبي. ولٰكن إذا ما صدّقنا ما يرويه أبن خلدون، فإنّ هٰذه الأدبيّات كانت كلّها في الأصل من صنع بائع كتبٍ في بغداد، بارعٍ في التزييف، أُطلق عليه لقب الدانيالي (ت ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م)، وقد درّت عليه صفقاتُه ذهبًا، لأنه «كان يعرف كيف يُضفي علىٰ الصفحات مسحة القِدَم، ويكتبها بخطٍّ قديم، ويُلمِع في النصّ إلىٰ شخصيّاتٍ عظيمة، ناسبًا بعض الحروف إلىٰ أسمائهم وإلىٰ المقامات العليا ومراتب الشرف التي كانوا يطمحون إليها. وكان يُقدّم عمله بوصفه تكهُّنًا». وكيما يُقنع الناس بصحّة تنبُّؤاته كان يُضيف إلىٰ النصوص أحداثًا سبقت، عامّةً أو غير عامّة، تدفع إلىٰ التسليم بحقيقة الوثائق التي كان يعرضها وما فيها من تنبُّؤ[7]. وقد أُطلق علىٰ هٰذا الصنف من التنبُّؤ، والذي حظي بشهرةٍ كبيرة في الغرب الإسلامي، أسم "جِفْر" أو "ملاحم"، ولم تكن له بالضرورة وشيجةٌ تربطه بعلم التنجيم.

وكلا التيّارين، تيّار ٱبن سيرين وتيّار دانيال، هما اللذان تحكّما بأساليب تأويل الأحلام في الغرب حتّىٰ عصر النهضة.

وهنالك فرعٌ آخر من العلوم الخفيّة شهد ٱنتشارًا واسعًا في القرون الوسطىٰ، هو علم الفِراسة، الذي يتعيّن البحث عن أصله في حضارات ما بين النهرين القديمة، التي كانت تَستخلِص التنبُّؤاتِ من البُقع الجلديّة والشّامات. وقد نظّم اليونانيّون هٰذا العلم، وكتب پوليمون اللاذقاني (حيًّا ١١٧ـ١٦١م) مصنّفًا كان معروفًا، لدىٰ العرب، في النصف الأوّل من القرن التاسع الميلادي [٣ هـ]. وعلاوةً علىٰ ذٰلك، كانت بحوزتهم معلوماتٌ حول الأعمال التي كتبها في هٰذا الموضوع الهندي جَوبار **Ŷawbar** والإغريقي ميلامپوس، وٱنتقل موجزٌ عن هٰذه المعارف كلّها ليُشكّل مادّة الجزء الثاني من كتاب "سرّ الأسرار" الذي ترجمه إلىٰ اللاتينيّة ـ في جملة ما ترجم ـ فيليپ الطرابلسي (حوالي ١٢٠٠م [٥٩٦هـ]). وقد ٱستخدمه ميگيل إسكوتو في كتابه، *Liber fisiognomie... cum multis secretis mulierum*، الذي أهداه إلىٰ فيديريكو الثاني، كما ٱستخدمه، فضلًا عن ذٰلك، ألبيرتو الكبير وروجيه بيكون. وقد أتبع الثاني [بيكون]، بوجهٍ خاصّ، المؤلّفين العربَ الغربيِّين [المغاربة] عن كثب، مردِّدًا الحكاية القائلة بنُزوع أبقراط إلىٰ الزِّنا، علىٰ نحوٍ شبيهٍ جدًّا بما يرويه لنا ٱبن جُلْجُل*.

ومن بين مختلف أساليب التشخيص المستخدمة، يتميّز ٱثنان من الأساليب

* ما رواه ٱبن جلجل، في "طبقاته..."، في حديثه عن أبقراط، قال:

«رأيتُ حكايةً طريفة لبُقراط، ٱستجلبنا ذكرها لندلّ بها علىٰ فضله. وذٰلك أنّ أفليمون صاحب الفِراسة، يزعُم في فراسته أنه يستدلّ بتركيب الأسنان علىٰ أخلاق نفسه [أخلاق صاحبها]. فٱجتمع تلاميذ بقراط، وقال بعضهم لبعض:

"هل تعلمون، في دهرنا هٰذا، أفضلَ من هٰذا المرء الفاضل بقراط؟"؛

«قالوا: "ما نعلم!"؛

«فقال بعضهم: "تعالوا نمتحن به علم أفليمون فيما يدّعيه من الفراسة". ←

الأخرىٰ جميعًا: قراءة خطوط الكفّ، والعِرافة بالقَدَم من العالم الكلاسيكي، وقد نشأ عنها لدىٰ العرب منهجٌ خاصٌ في البحث عن النّسَب[8]. ويبدو أنّ الأسلوب الأوّل ـ بوصفه شكلًا من أشكال العِرافة بالمستقبل ـ كان أمرًا مؤكّدًا في شبه الجزيرة العربيّة ما قبل الإسلام ([مطالع] القرن السابع الميلادي)، ويعزو "الفهرست" تطوّره إلىٰ الهنود. ولا يوجّه اللومَ، إلىٰ ممارسة هٰذا الأسلوب، علىٰ نحوٍ جِدّيٍّ، لا ميگيل إسكوتو ولا القدّيس توما [الإكويني] ولا القدّيس ألبرتو الكبير، في الصفحات التي خصّصوها لهٰذه الدراسات!

وظهرت، أيضًا، العِرافة بالأعداد والحروف في القرن الثامن في النصوص المسيحيّة ـ التي ما كانت من جهة أخرىٰ ـ لتجهلها كلّ الجهل. وقد تسرّبت، مع كتاب "سرّ الأسرار"، العِرافة بالأعداد، التي كان يسخر منها گودوفريدو دي واترفورد (ت حوالي ١٣٠٠م). وأثّر كتاب *Picatrix* في انتشار الطلاسم العدديّة (مثلًا، العددان ٢٢٠ و٢٨٤ قد يكون لهما قدرةٌ جنسيّة)، وفي الميل إلىٰ الكلمات الغريبة ـ والتي تفتقد غالبًا أيّة دلالة لغويّة ـ لاستجلاب مساعدة القوىٰ الغامضة الباطنيّة.

← «فصوّروا صورة بقراط، ثمّ نهضوا إلىٰ أفليمون، فقالوا له: "أيها الفاضل، انظر إلىٰ هٰذا الشخص واحكمْ علىٰ أخلاق نفسه من تركيبه".

«فنظر إليه، وقرن أعضاءه بعضها ببعض، ثمّ حكم فقال: "هٰذا رجلٌ يُحبّ الزّنا!"،

«فقالوا له: "كَذُوب! هٰذه صورة بقراط الحكيم"،

«فقال لهم: "لا بدّ لعلمي أن يصدُق، فاسألوه، فإنّ المرء لا يرضىٰ بالكذب".

«فرجعوا إلىٰ بقراط، وأخبروه الخبر وما صنعوا، وما قال لهم أفليمون.

«فقال بقراط: "صَدَقَ أفليمون! أُحِبُّ الزّنا، ولٰكنّي أملك نفسي!".

«فهٰذا يدلّ علىٰ فضل بقراط، ومَلَكته لنفسه ورياضته لها بالفضيلة».

"طبقات الأطبّاء والحكماء": ١٧.

وقد سبقت في الفصل الأوّل إشارةٌ من ڤيرنيت إلىٰ هٰذه الطُرفة (نزوع أبقراط إلىٰ "الخيانة الزوجية" بناءً علىٰ قسمات وجهه).

وقد ٱزدادت هٰذه المناهج في العِرافة تعقيدًا مع مرّ الزمن، حتّىٰ أواسط القرن الثالث عشر [٧ هـ]، في إفريقية الشّماليّة، حيث أصبحت تُشكِّل، لدىٰ الشاذلي والسَّبتي، نوعًا من "آلة" تصنع تنبُّؤاتٍ بواسطة دوائر مشتركة المركز تضمّ معًا العِرافة بالحصىٰ والتنجيم. ولعلّ هٰذه "الآلة" هي التي أوحت بالوسائل الٱستدلاليّة التي يعرضها لنا رامون يول في كتابه *Ars Magna* .

الرياضيات:

شهد القرن الثالث عشر [٧ هـ] عالِمين بارزين في الرياضيّات، الألماني جوردانوس نيموراريو (ت ١٢٣٧م) والإيطالي ليوناردو بيزانو، الشهير بٱسم فيبوناتشي. ولم يتأثّر الأوّل، إلّا قليلًا، بالمساهمة العلميّة العربيّة، بالمقارنة مع الثاني، وإن بدا أنّ كتابه *Demonstratio de algorismo* ذو علاقة بعمل النَّسَوي. أمّا فيبوناتشي، فقد كان متأثّرًا بالثقافة الإسلاميّة. كان تاجرًا مثل أبيه، وعاش في شمال إفريقية، حيث تعلّم أساليب الحساب "الهندي"، أي العمليّات القائمة علىٰ عدّ الموقع، وطاف عمليًّا في بلدان حوض البحر الأبيض المتوسّط بأسرها، وأصبح، في نهاية الأمر، عالم الرياضيّات لدىٰ الإمبراطور فيديريكو الثاني، والواقع أنّ بلاط هٰذا الإمبراطور، كان يضمّ مجموعةً من العلماء الذين سبق لهم العمل بإسبانيا، أو أنهم كانوا يُقيمون علاقاتٍ مع العلماء المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيريّة، حتّىٰ مع عُلماء يهود مثل الطليطلي يهودا بن سَلُمون كوهِن، تلميذ ماير أبو العافية (ت ١٢٤٤م [٦٤٢هـ]).

ويجوز لنا أن نتساءل، في بعض الحالات وهي قليلة، عمّا إذا كان فيبوناتشي قد قرأ شخصيًّا أعمال علماء الرياضيّات العرب التي ٱستخدمها. فإنه يتبيّن لنا، بصورةٍ عامّة، من ٱستقصاء أعماله، أنه ٱطّلع علىٰ ترجمات آديلاردو دي باث، وروبرتو دي شيستر، وجيراردو الكريموني، وأفلاطون التيفولي، وهِرمان الكارنتي... إلخ. ولنتفحّص عددًا من الأمثلة، فهو يُبيّن في كتابه *Liber abbaci* المُهدىٰ إلىٰ

ميگيل إسكوتو (١٢٠٢م، وتمّت مراجعته عام ١٢٢٨م)، كيفيّة إجراء العمليّات الحسابيّة بوساطة الأصابع **dactilonomia** (حساب العُقد، حساب الهوائي، حساب اليد). أي دون اللجوء إلىٰ العلامات الكتابيّة. وربّما نجد أصل هٰذه الطريقة في العصر القديم، وفي الوصف الذي يُقدّمه لنا بيدا المبجّل (٦٧٣ــ٧٣٥م) في الفصل الأوّل من *De loquela per gestum digitorum*، ومن *De temporum ratione*، كما تناول هٰذا المنهج في وقت لاحق آبّو دي فلوري (حيًّا من ٩٤٥ــ١٠٠٤م). وهناك، فيما يبدو، ما يؤكّد ٱستخدام هٰذه الطريقة في العالم العربي ـ وبصورة تشبه شبهًا غريبًا الصورة التي يعرضها بيدا ـ ٱعتبارًا من القرن العاشر، علىٰ الرغم من أنّ ٱبتكارها يُعزىٰ أحيانًا إلىٰ ٱبن سينا. فالمصنّفات العربيّة، شأنها شأن المصنّفات اللاتينيّة، تتدرّج علىٰ مدار الزمن، وفي وسع كلا التيّارين أن يلتقيا لدىٰ فيبوناتشي. ولٰكن، إذا جاز لنا، فيما يتعلّق بهٰذه المسألة، أن نُناقش ما إذا كان المصدر، الذي ٱستقىٰ منه المؤلّف، مسيحيًّا أم إسلاميًّا، فإنّ الأمر ليس علىٰ هٰذا النحو فيما يتعلّق بمعظم الحالات الأخرىٰ، حيث نقع علىٰ مشكلاتٍ ذات أصلٍ بعيد ـ صينيّ مثلًا ـ ما كانت لتصل إليه إلّا عن طريقٍ عربي؛ فالمصطلحات، حتّىٰ القيم العدديّة ذاتها، تُتيح لنا أن نرىٰ أنه يتتبّع الخوارزمي والنّسَوي والكُرَجي. وقد أهدىٰ كتابه *Practica geometriæ* (١٢٢٠م) إلىٰ شخصٍ يُدعىٰ ماجيستير دومينيكوس يغلب علىٰ الظنّ أنه دومينيكوس الإسباني الذي نعرفه من خلال مصادر أخرىٰ. وقد ٱستخدم في هٰذا العمل المصنّف المسمّىٰ *Liber embadorum* لأفلاطون التيفولي الذي قام، بدوره، بترجمة كتاب الهندسة العبريّة لأبراهام بار حِيّة، وهي نسخة عن النماذج العربيّة التي كانت متداولةً في إسبانيا في القرن الثاني عشر. ويُبيّن هٰذا العمل أيضًا أنه كان مُطّلعًا علىٰ كتاب *Verba filiorum* لبني موسىٰ، وعلىٰ عمل أبي كامل في كتابه ...*Flos super solutionibus*، وٱستخدم جَبْر "الكُرَجي" لحلّ مسائل غير محدّدة من الدرجة الأولىٰ والثانية، ولم يتفوّق عليه في هٰذا الصنف من الأمور سوىٰ باشيه دي مزيرياك (١٥٨١ــ١٦٣٨م). وأعطىٰ، في حالة مُحدّدة، الحلّ

التقريبي (١ ؛ ٢٢ ، ٧ ، ٤٢ ، ٣٣ ، ٤ ، ٤٠) للمعادلة س^{٣} + ٢س^{٢} + ١٠س = ٢٠، ولٰكن دون أن يُبيّن كيفيّة حصوله عليه. ونجد المسألة ذاتها محلولةً في جبر عمر الخيّام (١٠٤٨ـ١١٢٣م [٤٤٠ـ٥١٧هـ]). وحَرِيٌّ بنا أن نفترض أنّ فيبوناتشي قد اَستخدم الطريقة التي عرفها الصينيّون والعرب، في العصر القديم، ووصفها هورنر عام ١٨١٩ م. وقد ظلّ تأثير فيبوناتشي في ميدان نظريّة المعادلات ظاهرَ المفعول إلىٰ حينٍ متقدّم في القرن السادس عشر، حين أظهر كلٌّ من سيبيونيه ديل فيرو (١٤٦٥ـ١٥٢٦م) ونيقولا شوكيه (حيًّا ١٤٩٣م) معرفةً متعمّقة بعمل هٰذا المؤلّف.

هنالك مشكلةٌ أخرىٰ شغلت المفكّرين علىٰ نحوٍ متزايد، اَعتبارًا من القرن الثالث عشر، وهي مشكلة علم الحركة المجرّدة. فقد كان أرسطوطاليس قد خلص إلىٰ النتيجة القائلة بأنّ الحركة لا معنىٰ لها في الفراغ، لأنّ هٰذا الأخير لا وجود له، ومن ثَمّ، فإنّ سرعة جسم متحرّك تتناسب مع القوّة الدافعة له، وتتناسب عكسًا مع مقاومة الوسط الذي يجتازه. وينزع الجسم المتحرّك إلىٰ السكون ما لم تدفعه قوّةٌ ثابتة، ولٰكنّ هٰذه القوّة، سواءٌ أكانت ثابتةً أم لا، كيف تعمل عملها؟ والمثال الأنموذجيّ هو مثال المقذوفات. فهٰذه، بحسب ما أورد الآصطاغيري [أرسطوطاليس]، تتحرّك مبتعدةً عن اليد التي أكسبتها الدفعة، إمّا بفعل التبادل المشترك في الدفعة، وإمّا بفعل دفعةٍ من الهواء الذي تلقّىٰ الدفعة هو ذاته، والتي تُكسب المقذوفة حركةً أسرع من الحركة التي تعمل علىٰ إعادة هٰذه المقذوفة إلىٰ مكانها الطبيعي. غير أنّ خوان فيلوبونو الإسكندراني (حيًّا ٦٢٧ـ٦٤٠م) رأىٰ، لدىٰ شرحه لكتاب "الطبيعة"، أنّ الأداة الدّافعة هي التي تتخلّىٰ للمحرّك عن كميّة معيّنة من الطاقة المحرّكة (**impetus**)، متخلّيًا هٰكذا عن الفكرة الأرسطوطاليسيّة القائلة بأنّ الجسم المتحرّك يتلقّىٰ القوّة التي تدفعه من خلال الهواء. وقد كانت هٰذه الأفكار معروفةً عند العرب، وقد طوّرها يحيىٰ بن عدي تطويرًا كبيرًا لدرجة أنّ اَبن سينا اَهتمّ بالميل القسري «*الذي بوساطته يرفض جسمٌ من الأجسام ما يمنعه من التحرك في اَتّجاه معيّن*». ولٰكن

هٰذه الفِقْرة كانت غير مفهومة في ترجمتها اللاتينيّة، ولا يُمكن أن يُفسَّر من خلالها آنتقال الفكرة إلىٰ العالم المسيحي. وثمّة مؤلِّفٌ مشرقيّ آخر، هو أبو البركات البغدادي (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م) الذي كان يُسلِّم بوجود المكان اللانهائي، نظرًا لعجز الذهن الإنساني عن تصوّر العكس، وقد كان يعتقد أنه يُمكن أن يكون في المقذوفة ذاتها كلا المَيْلَيْن معًا، الميل الطبيعي والميل القسري، وأنّ ما نُلاحظه من مسارٍ لها إنما ينشأ عن آندماج كلا الميلين فيها. ولعلّ أفكاره قد دخلت إلىٰ الأندلس عن طريق إسحٰق بن إبراهيم بن عزرا، الذي كان قد وجّه، عام ١١٤٣م [٥٣٨هـ]، قصيدةً إلىٰ أبي البركات.

ومهما يكن من أمر، فإنّ هٰذه النظريّات كانت معروفةً في الأندلس في الوقت ذاته تقريبًا الذي عُرفت فيه بالمشرق، لأنّ آبن رشد يعزو إلىٰ آبن باجّه تصوّراتٍ ترجع في الحقيقة إلىٰ خوان فيلوپونو. ولٰكن ظهر إذ ذاك تصوُّرٌ جديد للمشكلة، ذٰلك أنّ آبن رشد آقترح معالجةً ديناميكيّة لها، وآتّبع هٰذا الطريق إيخيدو دي روما (ت ١٣١٦م). وقد قدّم تلميذه، البِطْرَوْجي، ملخّصًا جيّدًا عن نظريّة الميل حسبما كانت مفهومةً آنذاك: «*تصبح السماء العليا منفصلةً عن الخاصّة التي حَبَتْها هي نفسها للسموات الأخرىٰ، تمامًا مثل أنّ مَن رمىٰ حجرًا، أو اطلق سهمًا، يصبح هو نفسه بعيدًا عن الحجر أو السهم. ولٰكنّ الجسم المتحرك يواصل مسيره بفضل خاصّةٍ أو قوّة ظلّت متّحدة به، مثلما يبتعد السهم عن محرّكه، وكلّما آزداد بعدًا تناقصت القوّة الدّافعة، حتّىٰ تندثر لحظة سقوطه. وبالطريقة ذاتها، فإنّ القوّة التي يمنحها المحرك الأوّل للأفلاك الدنيا، تتلاشىٰ تدريجيًا كلّما نأت هٰذه الأفلاك عنه، وتنعدم لدىٰ وصولها إلىٰ الأرض التي تبقىٰ، لهٰذا السبب، ثابتة*».

آنتقلت هٰذه الأفكار إلىٰ العالم المسيحيّ مع ترجمة ميگيل إسكوتو (١٢١٧م [٦١٤هـ]) عملَ آبن رشد والبِطْرَوْجي إلىٰ اللاتينيّة، وكان قد ردّد أصداءها القدّيس توما [الإكويني] الذي تناول المشكلة من وجهة النظر الحركيّة، وذٰلك في فِقرتين أبرزَهما آبنُ بلدة سيگوڤيا دومنگو دي سوتو (١٤٩٤ـ١٥٦٠م). إنّ آهتمام هٰذا الأخير

بأن يُثبت أنّ القدّيس توما كان مطّلعًا علىٰ نظريّة الميل، إنما يكمُن في أنّ تطوّر هٰذه الأفكار كان قد أعطىٰ نظرة جديدة لعلم الحركة في القرون الوسطىٰ، لأنه مهّد السبيل لإجراء دراسة علميّة للحركة المتسارعة بٱنتظام، وذٰلك حسبما أخذت خطوطها الأولىٰ تظهر في أعمال جيرارِدو البروكسلي (حيًّا ١٢٥٠م) وگيرمو دي هيتسبيوري (حيًّا ١٣٣٠ـ١٣٧١م) من كلّيّة ميرتون. وقد توصّل الأوّل، مُطوِّرًا شروح ٱبن رشد فيما يتعلّق بالفوارق بين الحركة المستقيمة والحركة منحنية الخطّ، إلىٰ فرضيّته الثامنة التي أثبت فيها أنّ النسبة بين حركات (أي سرعات) النقاط هي مثل نسبة الخطوط المرتسمة في الوقت ذاته. ولاحظ الثاني آنفًا، متّبعًا ٱبن رشد ولاسيّما إيجيدو دي روما، أنّ المدىٰ الذي يقطعه جسمٌ، يكون، خلال الثانيةِ الثانيةِ، أكبر بثلاث مرّات منه في الثانية الأولىٰ، وأنّ الجسم المتحرّك حركةً منتظمةَ التسارع يقطع المسافة ذاتها خلال الوقت ذاته الذي يتحرّك فيه جسمٌ آخر بحركةٍ منتظمة وبسرعة تبلغ النصف بين السرعة الأوّليّة والسرعة النهائيّة للجسم السّابق. وقد قام بتحليل المقتضيات المتتابعة للمشكلة ومناقشتها جماعةٌ من المفكّرين، أمثال الإيطالي فرانسيسكو دي لاماركا (حيًّا ١٣١٩ـ١٣٤٤م) وفرانسيسكو دي ميرونس (حيًّا ١٢٨٥ـ١٣٣٠م)، إلىٰ أن أثبت خوان دي بوريدان (١٢٩٥ـ١٣٥٨م) بوضوح أنه «*يجب أن نُسلِّم بأنّ المحرّك، إذ يُحرّك الجسمَ المتحرّك، يُكسبه ٱندفاعةً معيّنة (ميل)، قوّة محرِّكة معيّنة في المنحىٰ ذاته الذي حرّكه فيه المحرّك. إنّ الميل هو ذاته الذي يُحرّك الحجر [المقذوف] بعدما تكفّ الذراع عن تحريكها له. ولٰكن، بسبب مقاومة الهواء وثقل الحجر، [الأمر] الذي يجذبه في منحًىٰ معاكس للمنحىٰ الذي يحمله إليه الميل، يتناقص الميل بٱستمرار*». وهٰذه ملاحظةٌ تذكّرنا بالملاحظات التي قدّمها بعض المؤلّفين المسلمين في القرن الحادي عشر [٥ هـ]، لدىٰ مناقشتهم مسألة حركة جسم في الجوّ في حال ٱتّخاذ الأرض حركة دوران. وهٰكذا، بدأت ترتسم معالم تشكيل فرع جديد في الفيزياء، وهو علم الديناميك.

وأخيرًا، قامت بمناقشة هٰذه الأفكار جميعًا طائفةٌ من الأساتذة والطلّاب الإسبان الذين كانوا يتردّدون في بدايات القرن السادس عشر، علىٰ السوربون:

لويس نونييز كورونيل (ت ١٥٣١م) وخوان دي سيلايا (حيًّا ١٤٩٠ـ١٥٥٨م)، ولاسيّما تلميذه وتلميذ سيروبلو (١٤٧٠ـ١٥٥٤م) وهو دومينگو دي سوتو (١٤٩٤ـ١٥٦٠م)، الذي كان أوّل من لاحظ أنّ الجسم يسقط وفق حركةٍ متسارعة بانتظام، ومن ثمّ فإنّ القانون الذي صاغه هيتسبوري قابل للتطبيق في هذه الحالة.

علم الفلك:

طلب ألفونسو العاشر من أبراهام العبري أن يُترجم إلىٰ الإسبانيّة عمل ابن الهيثم في علم الفلك "كتاب في هيئة العالم"، الذي كان أيضًا موضع ترجماتٍ إلىٰ اللاتينيّة تحت عنوان *Liber de mundo et cælo*، وكذلك إلىٰ العبريّة. ويشكّل الكتاب في حدّ ذاته وصفًا عامًّا للكون (كوسموغرافيا)، دونما آليّةٍ رياضيّة من أيّ نوع، وقد مارس تأثيرًا كبيرًا علىٰ المؤلّفين في عصر النهضة، ولاسيّما علىٰ بويرباخ، ومن خلال كتاب هذا الأخير المسمّىٰ *Theoricæ novæ planetarum* علىٰ ريجيومونتانو و كوبرنيكو ورابنهولد.

ومن المهمّ أن نرىٰ الكيفيّة التي تناول بها ابن الهيثم مشكلة الواقع الطبيعي للكون وحلّها. كان علىٰ اطّلاع، ومن ثَمّ كان في وسعه أن يختار: إمّا نظريّة الدوائر مشتركة المركز التي قال بها أودوكسو وأرسطوطاليس (كتاب "ما بعد الطبيعة" ١٠٧٣ب ـ١٠٧٤آ)، وإمّا تبنّي الأفكار المطروحة في عمل من أعمال بطليموس، لاحقٍ علىٰ "المِجِسطي"، هو الكتاب المسمّىٰ *Hipótesis*[9]. كان ابن الهيثم، إذن، علىٰ غرار علي بن رضوان، يعلم أنّ بطليموس إذا كان قد حلّ، في كتابه "المجسطي"، المشكلة الرياضيّة للحركات السماويّة دون أن يهتمّ بدعاماتها الفيزيائيّة، فإنه كان قد اقترح، في كتابه *Hipótesis*، نظم الأجرام السماويّة، لا في دوائر مشتركة المركز، وإنما في سلسلة من الحلقات كانت أكثر انسجامًا مع المبدأ الأرسطوطاليسي القائل بأنّ الطبيعة لا تخلق شيئًا عبثًا. فإذا ما سلّمنا بهذا المبدإ بنتائجه كلّها، فمن شأن ذلك أن يُفضي إلىٰ نظرةٍ مثاليّة حول الأفلاك السيّارة. غير

أنّ آبن الهيثم لم يُسلِّم بهٰذه الفرضيّة، وآقترح، خلاف ذٰلك، أنموذجًا ماديًّا صريحًا، يتوافق والمبدأ القائل بأنّ الطبيعة تكره الفراغ. وقد فرضت أفكاره نفسها في نهاية الأمر، إلىٰ أن شرع تيكو براهي بمناقشتها نتيجةً لرصده لمذنَّبي عام ١٥٧٢ وعام ١٥٧٧م.

وينبغي أن نُدرج، بين مجموعة الأعمال المتعلّقة بالوصف العامّ للكون، شروحَ آبن رشد لكتاب "في السماء والعالم" الذي ترجمه ميكيل إسكوتو، ولكتاب "الطبيعة" لأرسطوطاليس، واللذين سرعان ما آنتشرا في أوروبة كلّها بترجمةٍ لاتينيّة. وقد كانت هٰذه الشروح الأساس لواحدٍ من الإصلاحات العلميّة التي كان لها أكبرُ الأهمّيّة في تطوّر الفكر الإنساني: إصلاح كوپرنيكو. فقد كانت، في الواقع، تشتمل علىٰ الآنتقادات لنظام مركزيّة الأرض، ولٰكنها، فضلًا عن ذٰلك، كانت توحي لقرّائها بضرورة فصل دراسة اللاهوت عن دراسة الفلسفة الطبيعيّة. وقد كانت نهجًا شائعًا في الأوساط الجامعيّة بمدينة كراكوڤيا في القرن الخامس عشر[10]، لدرجة أنها أثّرت تأثيرًا ملحوظًا في كتاب *commentariolus super theoricas novas planetarum Georgii Purbachii* لأدالبرتو دي برودزوو، الذي تتلمذ عليه كوپرنيكو في محاضراته عن شرح كتاب "في السماء"، كما آطّلع علىٰ "مسائل" خوان دي گلوگان حول كتاب "الطبيعة"، والتي كانت متأثّرةً أيضًا بآبن رشد، وتظهر فيها نظريّة الميل. وقد شُرحت هٰذه "المسائل"، بدورها، عام ١٤٩٣م من قبل أستاذ آخر من كراكوڤيا، هو ميگيل دي بريسلاو. وكانت هٰذه النصوص كلّها تُدرّس للطلّاب في السنوات (١٤٩١ـ١٤٩٥م) التي كان كوپرنيكو يتلقّىٰ دروسه خلالها. ولم ينتهِ نزوعُ هٰذا الأخير إلىٰ الأفكار الرُّشديّة بآنتهاء إقامته في وطنه، لأنه ظلّ، خلال مدّة دراسته في إيطاليا (١٤٩٧ـ١٥٠٤م)، علىٰ آتّصالٍ بالجامعات، كجامعة مدينة بولونيا، وپادوا، وفرّارا، التي كانت تُدرّس نظريّات الفيلسوفَين العربيّين آبن سينا وآبن رشد.

ومن الغريب أن نرىٰ التأثير الرُّشدي ذاته قد وصل إلىٰ الشرق الأدنىٰ تقريبًا في الوقت الذي بدأ بالآنتشار في العالم المسيحي. ومن ثَمّ، ليس هناك داعٍ لأن

تعترينا الدهشة لأنّ الحلول الرياضيّة، الرامية إلىٰ إعادة الأرسطوطاليسيّة إلىٰ نقائها الأصلي ـ مُكيَّفةً من قبل مدرسة علماء الفلك بمراغة ـ قد أستخدمها كوپرنيكو، الذي جمع هٰكذا في عمله النتائج الفكريّة للنقد الرُّشدي في الغرب مع النتائج الرياضيّة التي نشأت في الشرق عن هٰذا النقد عينه[11].

لقد أكتسبت المصنّفات اللاتينيّة في علم الفلك، التي أشتُقّت من أعمال الفرغاني والبتّاني وأبن الهيثم، شهرةً فائقة في القرن الثالث عشر [٧ هـ]، وأعاد إعداد هٰذه المصنّفات خوان دي هوليود المعروف أكثر بأسم ساكروبوسكو (ت حوالي ١٢٥٦م)، وگروسّيتيشتيه (١١٦٨ـ١٢٥٣م). فأشتهر الأوّل بكتابه "الكُرَة"، الذي ظلّ يُستخدم بوصفه كتابَ نصوصٍ حتّىٰ أواخر القرن السادس عشر في الجامعات الأوروبيّة. يعرض هٰذا الكتاب، في أربعة فصول، شكل الكرة الأرضيّة، ودوائرها، ومطالع النّجوم ومغاربها، ومدارات الكواكب السيّارة وحركاتها. وقد قام بتحليل هٰذا العمل، علىٰ بساطته، شخصيّاتٌ لهم أهمّيّتهم، أمثال برنار دي لوتربي (١٢٤٠ـ١٢٩٢م)، وپدرو دي آبي، وريجيو مونتانو وميلانشتون وكلاڤيوس. وحينما أرتاب ميلانشتون في أنّ ريتيكو، التلميذ الأوحد لكوپرنيكو، قد يسعىٰ إلىٰ أن يُدخل في موادّه التدريسيّة تفسير نظام مركزيّة الشمس، ألزمه (في النصف الثاني من السنة الدراسيّة لعام ١٥٤٠م) بأستخدام الكتاب التقليدي، كتاب ساكروبوسكو. وقد بلغ من الشعبيّة حدًّا حمل علىٰ المبادرة إلىٰ إصدار طبعة منه في مدينة لَيدِن عام ١٦٥٦.

وكتب الثاني، گروسّيتيشتيه، مُلخّصًا عن عمل ساكروبوسكو، أضاف إليه بعض المعطيات ـ مثل أرتجاج الأعتدالَين الربيعي والخريفي ـ المنبثقة عن مصادر عربيّة. ولٰكنه طوّر، إضافةً إلىٰ ذٰلك، وبالتعاون مع روجيه بيكون، كتابًا فلكيًّا من صنفٍ جديد، هو *theorica planetarum*، يبدو أنّ عيّنته الأولىٰ مشتقّةٌ من القسم الأخير من كتاب "الكرة" لساكروبوسكو، والذي ربّما كانت تمّت إضافته إلىٰ أقسام المصنّف الأخرىٰ من قِبل فلكيٍّ آخر من أواخر القرن الثالث عشر، وقد قدّم عنه عرضًا جيّدًا كامپانوس النوڤاري، في مصنّف ألّفه حوالي عام ١٢٦٥م. ويشرح

هٰذا العمل منهج حساب حجم الكون وأبعاده بالتوافق مع الأفكار التي يعرضها بطليموس في كتابه *Hipótesis*، وربّما يكون كامپانوس قد عرفه من خلال الفرغاني في ترجمة يوحنّا الإشبيلي. وتقوم الطريقة على الانطلاق من المسافة المطلقة والمعروفة لأقرب كوكب، وهو القمر، لكي نمضي في استنتاج مسافات الكواكب الأخرى شريطة أن نعتبر أوجَ كلّ كوكب منها يَحُدّه حضيضُ الكوكب الذي يعلوه مباشرةً، وهٰكذا دواليك، ومعنى ذلك أننا إزاء فضاءٍ من كُراتٍ وحلقاتٍ مشتركة المركز على تماسٍّ وثيق بعضها ببعض.

ونَدين لألفونسو العاشر بإصداره الأمر بوضع الجداول الفلكيّة، التي أصبحت الأكثر شيوعًا، واستُخدمت على مدى قرونٍ عدّة. وقد حرّرها يهودا بن موسى وإسحق بن سِيِد عام ١٢٧٢م، متّخذَين نقطة انطلاق أوّلَ كانون الثاني/ يناير ١٢٥٢، العام الذي بدأ فيه حكم الملك الحكيم، ومن طليطلة مكان المنشأ، كما تُشير إلى ذلك قواعدُ الجداول المكتوبة بالقشتاليّة. وتختلف القيم الجدوليّة التي نجدها في الترجمات اللاتينيّة ـ وتبرز من بينها ترجمةُ خوان دي ساخونيا (حيًّا ١٣٢٧ـ١٣٣٥م) ـ إذ تُحدّد الأوّلَ من تموز/ يوليو ١٢٥٢ نقطة انطلاق، وخطَّ عرض طليطلة بـ ٤١ درجة. كما توجد روايات عديدة مختلفة في الترجمة العبريّة التي أنجزها موسى بن أبراهام النيمي (١٤٦٠م). وكانت الترجمة اللاتينيّة لهٰذه الجداول ـ لكلٍّ من القواعد والقيم الجدوليّة ـ قد انتهت عام ١٢٩٦م، وكانت تُستخدم في فرنسا، لأنّ جان دي لينيير (ت عام ١٣٥٥م) قد كيّفها مع باريس. وظهرت في إنكلترا، بدورها، في أواسط القرن الرابع عشر، وتمّ تكييفها هنا أيضًا مع خطّ نصف النهار وخطّ العرض لأكسفورد.

ولقد أتاح ظهور المطبعة انتشارًا واسعًا للجداول اللاتينيّة المكيّفة، وخاصّةً تلك التي أنجزها خوان دي ساخونيا. وبدأت الشكوك حول صحّتها بالظهور بعد نشر كتاب "حركات الأجرام السماويّة" لكوپرنيكو (١٥٤٣م)، حين لاحظ عددٌ من علماء الفلك ـ وأوّلهم زمنيًّا راينهولد (١٥٤٤م) ـ أنّ الأزياج المحسوبة وفقًا لطرق

الكاهن القانوني فرومبورك كانت أكثر توافقًا مع الرصد من تلك المبنيّة علىٰ التكهُّنات وفقًا للطريقة الألفونسيّة. ويمكننا أن نعتبر أنّ المجادلات حول هٰذه المسألة قد آنتهت مع صدور "الجداول الرودولفيّة" لكپلر (١٦٢٧م)، ولٰكن علىٰ الرغم من ذٰلك، وخلال عدّة عقود أخرىٰ، آستمرّ نشر جداول ألفونسو في إسبانيا، حيث كانت تتعايش ومنذ القرن السادس عشر مع الجداول المحسوبة وفقًا للطرق الكوپرنيكيّة. أمّا الإصلاح الگريگوري للتقويم الذي شرّعه كلاڤيوس (١٥٣٧ـ١٦١٢م)، مستندًا إلىٰ نظريّات ألوازو جيليو، فقد آرتكز علىٰ طول السنة الآستوائيّة الذي حدّده ألفونسو العاشر الحكيم.

ويكمُن النجاح الكبير للجداول الألفونسيّة القائمة علىٰ الجداول الطليطليّة للزّرقيال، كما أوضح ذٰلك پولله وخينْخِريش **gingerich**، في التحسين الناجم عن إجرائها مستقلّةً عن التقاويم المسيحيّة والإسلاميّة، بفضل حيلةٍ رياضيّة بسيطة. ويفسّر آنتشارها الكبير السببَ الذي حمل علىٰ التخلّي تدريجيًّا عن اليوم الأوّل من آذار/ مارس في الحسابات الفلكيّة، لصالح اليوم الأوّل من كانون الثاني/ يناير، تاريخًا لبداية السنة. ويُبيّن تحليل القيم الجدوليّة أنّ عناصر مدارات الكواكب السيّارة لم تكن تُعتبر ثوابت.

وشهدت، مصيرًا مختلفًا تمامًا، الجداولُ ثلاثيّة اللغة ـ القَطَلونيّة واللاتينيّة والعبريّة ـ التي أمر پيدرو الرابع الآحتفالي بأن يضعها كلٌّ من پيريه جيلبير ودالماو پلاناس واليهودي يعقوب كارسونو **carsono**. وعلىٰ الرغم من إجراء أعمال رصدٍ فلكيّ لتحديد جذور (فترة) الحركات المتوسّطة، فإنّ هٰذه الجداول، التي تمّ حسابها علىٰ أساس خطّ عرض برشلونة وسنة ١٣٢٠م، تاريخ ميلاد الملك، كان يعتوِرُها تبسيطٌ مفرط سرعان ما جعلها عديمة الجدوىٰ. ويجوز، من جهةٍ أخرىٰ، أن تُنسب بعض الأخطاء الموجودة فيها إلىٰ أحد المصادر المستخدَمة، وهو آبن الكمّاد [آبن القمّاط] (حيًّا ١١٩٥م [٥٩١هـ])، التلميذ غير المباشر للزّرقيال والذي كانت أعماله قد تُرجمت آنفًا إلىٰ اللاتينيّة وإلىٰ القشتاليّة. ولكي ننتهي من جداول عام

١٣٦١م، ذات الجذور المتشابكة العربيّة، يتعيّن علينا أن نذكر الترجمة، القَطَلونيّة أيضًا، للجداول العبريّة ليعقوب بن داود يومطوب دي پرپنيان.

ومنذ القرن الحادي عشر [٥ هـ]، كانت أعمال أرسطوطاليس، كلّها تقريبًا، معروفةً معرفةً تامّةً في الأندلس، وكانت قد بدأت بالظهور نزعةٌ أرسطوطاليسيّة جديدة كان قد سار بها السّرَقُسْطي ابن باجّه (ت عام ١٠٣٨ [٤٢٩هـ]) إلى أقصى نتائجها، إذ لاحظ أنّ النظام البطليموسي المعمول به لا يتقيّد بمصادرات الفيزياء السماويّة التي وضعها الإصطاغيري [أرسطوطاليس]، ولا يبدو أنّ شكوك ابن باجه وخَلَفِه ابن طُفَيْل (ت ٥٨١هـ/ ١١٨٥م) كانت موضع ترجمةٍ إلى اللاتينيّة. ولكن بما أنّ هذه الانتقادات قد تحقّقت في أعمال ابن رشد وتلميذه البِطْرَوْجي، وأنّ هذه الأعمال سرعان ما تُرجمت إلى اللاتينيّة، لذلك نجد أنّ الجدل في النصف الأوّل من القرن الثالث عشر [٧ هـ]، حول التكوين الحقيقي للكون، كان يرتكز على بعض الأسس الإيديولوجيّة، وأنّ هذه الانتقادات في الغرب، خلافًا لما كان يجري في المشرق مع نصير الدين الطوسي، كانت تتركّز، فوق كلّ شيء، على الناحية المتعلّقة بعلم الكونيّات. وكانت الأفكار الرئيسة موجودةً في ترجمة كتاب "السماء" (و"العالم") من العربيّة إلى اللاتينيّة التي أنجزها جيراردو الكريموني، وترجمة كتاب علم الفلك للبِطْرَوْجي، والشرح المتوسّط لابن رشد من إنجاز ميكيل إسكوتو في ١٢١٧م أو نحوها. وكان كتاب "السماء" يُشكّل، بالنسبة إلى العرب، كلًّا موحّدًا مع كتاب "العالم" الذي لا يبدو أنه من تأليف أرسطوطاليس، وإنما يُشكّل إعادة إعداد لمجموعةٍ من الموادّ تمّ إنجازها في أحد القرون الأخيرة قبل الميلاد، وتُرجمت من اليونانيّة إلى السّريانيّة من قبل سرجيوس دي ريساينا (ت ٥٣٦م). وقد ترجم يحيى بن البطريق، فيما ترجم، هذا الكتاب، وكان يُدخل إشكاليّةً تتوافق في حالاتٍ عدّة مع الإشكاليّة التي طرحها ابن الهيثم، وتقوم على المصادرة القائلة بأنّ السماء مكوّنةٌ من سلسلةٍ من الكرات، [متداخلةٍ]، مشتركة المركز أو متراكزة.

ومن الممكن أن تكون بابل القديمة مصدر هذه الفكرة القائمة على الاعتقاد

بتداخل كُراتٍ بعضها في بعض، كما لو أنّ الأمر يتعلّق "بدُمية الأمّهات" الروسيّة [اليوم] المسمّاة "ماتريوشكا"، فهٰذا ما يوحي به أحدُ الرُّقُم المسماريّة في عصر الأسرة الملكيّة الأولىٰ. أضف إلىٰ ذلك أنّ بعض النصوص التي قام أ. نويگباور بدراستها تُشير، فيما يبدو، إلىٰ أنّ البابليّين «*كانوا يتصوّرون شكلًا للكون يتألّف من ثماني كُراتٍ مختلفات، انطلاقًا من كرة القمر. وينتمي هٰذا الأنموذج، بداهةً، إلىٰ مرحلةٍ موغلة في القدم، حتّىٰ لم يبقَ لنا منها أثرٌ في علم الفلك الرياضيّ اللاحق الذي أجرىٰ عمليّاتِه دونما استنادٍ إلىٰ أنموذجٍ تحتيّ. ولٰكن لا بدّ من التشديد علىٰ أنّ تأويل نصٍّ كنصّ نيبور وما يُماثله من النصوص، يُستبعد أن يكون مؤكّدًا*». وثمّة أنموذجٌ مُشابهٌ، هو ذٰلك الذي يظهر لدىٰ أودوكسو (حوالي ٣٧٠ قبل الميلاد) ويتناوله أفلاطون في "أسطورة Er" ("الجمهوريّة"،١٠، ٦١٦ب ـ٦١٧د) وفي "طيماوس"، ٣٦ جـ ـ د. ويستلزم هٰذا النظام، المفهوم علىٰ هٰذا النحو، مسافةً ثابتة بين كلّ الكواكب ومركز الكون، أي الأرض. ولٰكن أوتوليكوس اعترض، وتبعه في ذلك سمپليسيوس، فقد رأىٰ أنّ هٰذا النظام ليس من شأنه أن يسمح بتفسير التغيُّر الظاهر في تألُّق بعض الكواكب السيّارة، وبتحديد أكبر، تألّق الزُّهَرة والمِرّيخ. ولهٰذا السبب، من بين أسباب أخرىٰ، تمّ إدخال أفلاك التدوير، ومنحرفات المركز، أو تصوُّر أنظمةٍ أخرىٰ مثل نظام مركزيّة الشمس، الذي كان أكبر شارح له أرستاركوس[12]، أو نظام مركزيّة الأرض والشمس الذي قال به هيسيتاس.

وكان النظام، الذي اقترحه البِطْرَوْجي، يستهدف استبعاد منحرفات المركز وأفلاك التدوير التي كانت تقطع الصلة مع المبدأ الأرسطوطاليسي القائل بالحركة الدائريّة المنتظمة، في العالم السماوي.

وقد رأينا أنّ الأعمال العربيّة المرتبطة بحركة الشمس، أو ـ لو شئنا ـ الهادفةَ إلىٰ دراسة مختلف أصناف السنة الشمسيّة، كانت قد تمّت ترجمتها في أواسط القرن الثاني عشر [٦ هـ]. ومع ذٰلك، لا يبدو أنّ الحاسبين قد أَوْلَوها اهتمامًا، لأنهم كانوا يُؤثرون مناقشة مسألة: متىٰ بدأ حقًّا، التاريخ المسيحي؟ وهل يتّفق تاريخ تسلسل الأحداث، القائم علىٰ دراسات ديونيسيوس القديم، مع الواقع؟ ولٰكنْ شغلتهم إذ

ذاك، في أواخر القرن، مشكلتان: ١ـ مشكلة التفاوت المتعاظم بين البدايات المدنيّة والفلكيّة (الاعتدال الربيعي، أو دخول الشمس في نقطة برج الجدي) للربيع، التي كانت قد بلغت قيمة ملحوظة؛ و٢ـ مشكلة تحديد قمر عيد الفصح بما يتّفق مع القاعدة التي وضعها مجمع نيقية (٣٢٥م)، والتي سَنّت، تفاديًا للتطابق بين عيد الفصح المسيحي وعيد الفصح اليهودي، بأنه ينبغي الاحتفال به «يوم الأحد الذي يلي اليوم الرابع عشر للقمر، والذي حلّ وقتذاك في الواحد والعشرين من شهر آذار/ مارس»(13).

كان بالإمكان حلّ المشكلة الأولى عن طريق المصنّفات حول حركة الشمس. أمّا المشكلة الثانية فلا، لأنها كانت ترتبط بمدّة الشهر الاقتراني القمري، ومن ثمّ، كان لا بدّ من التفتيش عن حلّ لها، إمّا انطلاقًا من تقويم قمريّ بحت، مثل التقويم الإسلاميّ، وإمّا انطلاقًا من تقويم قمريّ شمسي، مثل التقويم اليهودي. وكان هذا التقويم الأخير معروفًا معرفةً تامّةً في الأندلس، لأنّ صاعد [الطليطلي] يقول لنا إنّ الإسرائيليّين كان «لهم حسابٌ دقيق في تاريخ شريعتهم ومعاملاتهم، لا أدري: هل

هو من نتائج علمائهم؟ [أم] أورثته لهم بعضُ العلماء من غيرهم؟ ويُسمُّون حسابهم هذا "العِبُّور"، وشهورهم فيه قمريّة، وسِنُوهم ناقصةٌ ومُكَبّسة: فالناقصة قمريّة والمكبّسة شمسيّة. ويُسمُّون كلّ تسع عشرة سنة من مبدأ تاريخهم "محصورًا"، وهو العدد الذي يتمّ فيه كسور السنين، فيجتمع منها سبعة أشهر، يزيدون منها شهرًا في سنين معيّنة من المحصور، وهي السنة الثالثة والسادسة والثامنة والحادية عشرة والرابعة عشرة والسابعة عشرة والتاسعة عشرة، فتكون هذه السنون السبعةُ شمسيّةً مكبّسة، كلّ سنة منها ثلاثة عشر شهرًا قمريًا.....» •.

• "طبقات الأمم" (بيروت، ١٩٨٥)، ٢٠١. ووردت في الكتاب كلمة "محصور" بالزاي، محزور.

إنّ أُولىٰ المصنّفات، التي تتناول هٰذه القواعد علىٰ نحوٍ موسّع، هي الأعمال العربيّة للخوارزمي (٨٢٣م [٢٠٨هـ]) والبِيروني (٩٧٣ـ١٠٤٨م [٣٦٢ـ٤٤٠هـ])، وبعد ذٰلك بكثير، في الأعمال العبريّة لأبراهام بار حِيّة البرشلوني (ت حوالي ١١٣٦م)، وآبن ميمون (١١٣٥ـ١٢٠٤م) والطليطلي إسحٰق إسرائيلي الشابّ (حيًّا ١٣٣٠م). وقد قارَنَ ر. دي هيريفولد، في عام ١١٧٦م، بين التقويم اللاتيني والعبري، بينما خاض گروسّيتيشتِه في أعماله في نقد دورة ميتون (١٩ سنة جوليانيّة)، المطبّقة علىٰ التساوي في التقويمين المسيحي واليهودي، لأنّ ٢٣٥ شهرًا قمريًّا (٦٩٣٩,٦٨٧٢٨٧ يومًا) تُعادل ١٩ سنة جوليانيّة (٦٩٣٩,٧٥ يومًا)، ويحصُل خطأ يبلغ، بتراكُمه، مقدار يوم و٦ دقائق، مع ما يحصل عنه من نتائج في حساب عيد الفصح. وبناء علىٰ ذٰلك، آقترح إجراء إصلاح علىٰ التقويم يأخذ بعين الآعتبار القيم الصحيحة للسنة (الآستوائيّة) وللشهر (الآقتراني). وقد تبيّن من الرصد أنّ "جداول" البتّاني تتطابق تطابقًا جيّدًا مع حركة الشمس، وقد آستخدَم في كتابه "الزيج" دورة كاليبو المكوّنة من ٧٦ سنة، من أجل العلاقة المتبادلة القمريّة الشمسيّة، بينما آقترح في كتابه *Compotus correctorius* آستخدام الدورة العربيّة المكوّنة من ثلاثين سنة وتضمّ ما مجموعه ١٠٦٣١ يومًا، لأنّ الدورات القمريّة تعود إلىٰ التطابق في أعقاب هٰذه المدّة.

لقد أعاد، إذن، گروسّيتيشتِه طرح المشكلة ذاتها، التي شغلت أذهان المختصّين بالتقاويم في الألف سنة الأخيرة قبل التاريخ المسيحي. وآكتشفوا، قبل حوالي ٥٠٠ سنة من الميلاد، دورةً من ثماني سنوات (الثُمانية **Octaerida**) ذات ٣٦٥,٢٥ يومًا، وتعادل ٩٩ شهرًا (٢٩٢٤ يومًا). وكان يُكتفىٰ، مع هٰذه الدورة، بثلاث سنوات كبيسة، أي مكوّنة من ثلاثة عشر شهرًا، للحصول علىٰ مطابقةٍ مقبولة (خطأ قدره ١,٤٧ يومًا) بين التقويمين القمري والشمسي. وبُعيد ذٰلك التاريخ، ظهرت الفترة المكوّنة من ١٩ سنة (٦٩٣٦,٧٥ يومًا)، والتي نُسمّيها فترة ميتون (وإن كان من المحتمل أن تكون هٰذه الدورة، هي والدورة الثامنة أيضًا، قد تمّ آكتشافهما علىٰ نحوٍ مستقل، في بلاد فارس واليونان، مع فارق ضئيل في الزمن)، وكانت

تُعادل ٢٣٥ دورةً قمريّة (٦٩٣٩,٦٨ يومًا)، الأمر الذي كان يُكسبها قيمةً أدقّ بشكلٍ ملحوظ من الثُمانية. وكانت تستخدم مجموعةً من سبع سنوات كبيسة، وأثنتي عشرة سنة عاديّة، لإحداث المطابقة بين التقويمين القمري والشمسي (خطأ مقداره ساعة و٣٠ دقيقة = ٠,٠٦ [من اليوم]). ولم يتمّ، في أيّ نظام من الأنظمة، تحديد توزيع السنوات الكبيسة تحديدًا دقيقًا، إذ تمّ وضعه في وقتٍ لاحق (العدد الذهبي، وقد أستُبدل في الإصلاح الگريگوري بقاعدة القمر). ولٰكنّ الخطأ الذي أشار إليه گروسّيتيشتِه، وقدره يومٌ واحد كلّ ثلاثة قرون بوجه التقريب، لم يَغِبْ عن نظر فلكيّي العصور القديمة، فقد أدرك كاليپو دي سيزيكو (حيًّا ٣٣٠ قبل الميلاد)، أننا إذا طرحنا من أربع دورات ميتون (٧٦ سنة) يومًا واحدًا، فإننا نحصُل علىٰ مطابقة جيّدة، وقد أَستَخدَم نظامَهُ، بوجه العموم، الفلكيّون، ومنهم بطليموس مثلًا، ولٰكن لم يكن له تطبيقٌ في الأَستخدامات المدنيّة.

ولكي يتلافىٰ گروسّيتيشتِه ما يواجهه من محاذير مع الأنظمة التي جرىٰ الإلماع إليها حتّىٰ الآن، بغية تحديد تاريخ عيد الفصح، أقترح، نتيجةً لذٰلك، أستخدام الفترة المكوّنة من ١٠٦٣١ يومًا (٣٦٠ شهرًا قمريًّا، تُعادل ٣٠ سنة) الخاصّة بعلماء الفلك العرب. وقد كتب كامپانوس، من جهته، مصنّفًا بعنوان *Computus maior*، أظهَر فيه أنه كان علىٰ معرفةٍ جيّدة بعلم الفلك العربي، ووجّه أنتقاداتٍ إلىٰ عمل گروسّيتيشتِه.

كان أحد أوائل الأعمال التي أمر ألفونسو الحكيم بترجمتها إلىٰ الإسبانيّة "كتاب الكواكب الثابتة المصوّر" لعبد الرحمٰن الصوفي (ت ٩٨٦م [٣٧٦هـ]). وقد قام بهٰذه الترجمة ـ بطريقةٍ حرفيّة جدًّا ـ من شهر كانون الثاني/ يناير إلىٰ أيّار/ مايو ١٢٥٦، يهودا الكوهين وگيّيم أرّمون داسپا. وقد صحّح الملك الأسلوب من حزيران/ يونيو إلىٰ كانون الأوّل/ ديسمبر ١٢٧٦، وساعده في ذٰلك آنذاك، فيما يتعلّق بالقسم التقني، جون دي ميسينا وجون الكريموني، وكذٰلك يهودا وصمويل ليڤي، وقد شكّلت هٰذه الترجمة أساسًا للعمل المسمّىٰ "الكتب الأربعة للكرة الثامنة" التي

تتقدّم إصدار ريكو وسينوباس لمصنّف "كتب المعرفة بعلم الفلك". ولا يبدو أنّ هٰذا السجلّ قد ٱستند إلىٰ سجلّات هيپاركو وبطليموس، وإنما إلىٰ سجلّ مينيلاوس الاسكندراني، وتتراءىٰ فيه وضعيّة النّجوم وكأنها قد نُقلت عن قبّة سماويّة رُسمت لغرض تعليمي.

كان هٰذا العمل هو الذي أدخل إلىٰ أوروبة آخِرَ وأغزرَ إسهام بالأسماء العربيّة للنّجوم في سجلّاتنا الحاليّة. ونتعرّف ـ في مجموعة الأسماء هٰذه ـ علىٰ مصدرين: المصدر السومري ـ الأكادي الكلاسيكي، والمصدر العربي الأصيل، ويتراكب هٰذان المصدران أحيانًا، مما يُولِّد ٱلتباسًا في تحديد أصل كلٍّ منهما.

الأدوات الفلكيّة:

يتميّز القرن الثالث عشر [٧ هـ] بنشوء، أو ـ إذا شئنا ـ بإحياء ٱهتمام العلماء بالأدوات الفلكيّة. ففي پكّين كما في بلاد فارس (مراغة)، وفي فاس (أبو الحسن علي) كما في طليطلة، صنع الفلكيون أدواتٍ جديدةً أو كتبوا مصنّفاتٍ تهدف إلىٰ شرح تفاصيل صنعها وٱستعمالها. بل أكثر من ذلك: فهٰذه الأدوات، التي تمّ تجميعها في أماكن ملائمة، نشأ عنها أوّل مرصدٍ فلكيّ حَظِي بٱستمراريّةٍ معيّنة: وهو مرصد مراغة.

كانت أبسط الأدوات، وهي تلك المعروفة منذ العصور القديمة، هي الأدوات الكُرويّة، أي التي كانت تُمثّل السماء أو الأرض علىٰ شكل كرة. في الحالة الأولىٰ، كانت تُنقش علىٰ الكرة النجوم الأساسيّة، وفي الحالة الثانية، القارّات. ولم تكد تُبقي لنا الأيّام مرجعيّاتٍ ونماذجَ من هٰذا الصنف الأخير: يروي ٱسترابون أنّ كراتيس (حوالي ١٥٠ قبل الميلاد) صنع أداةً فلكيّة في پرگاموس، وتظهر الأرض ممثّلةً في شكل كرةٍ في بعض إصدارات النقود الرومانيّة. ولٰكن، في الحقيقة، لم تُصبح الكُرات الأرضيّة ـ إلّا مع مجيء مارتان بيهايم (١٤٩٢م) ـ أداةَ عملٍ علميّ، ثمّ شُرع بصنعها علىٰ نحوٍ متواتر.

وحصل العكس تمامًا فيما يتعلّق بالقِباب السماويّة، التي ترجع الشواهد الأولى عليها إلىٰ أواسط الألف الأخيرة قبل الميلاد، وأقدم عيّنةٍ محفوظة منها، وطول قُطرها ٦٥ سنتيمترًا، هي تلك التي تحمل أَطْلَسًا، في المتحف الوطني بناپولي (٣٠٠ قبل الميلاد). ولقد كانت، كراتٍ من هٰذا الصنف، تلك التي صنعها هيخينيو، وكان لا بدّ أن تُنقش عليها إحدىٰ الكُرتين اللتين كانتا دارجتَي الاَستعمال ـ اليونانيّة[14] أو كرة البرابرة ـ وتلك التي اَستخدمها العرب. وأقدم أنموذج نحتفظ به (المتحف الوطني لتاريخ العلم، فلورنسة) هو أنموذج البلنسي إبراهيم بن سعيد السهلي، والذي يحمل تاريخ ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م، ويشتمل علىٰ ٢١ مجموعة نجميّة شَماليّة، و١٢ مجموعة من دائرة البروج، و١٤ مجموعة جنوبيّة، ويتبنّىٰ، فيما يخصّ مواقع النّجوم، القيم التي كان الزّرقيال بصدد تحديدها في ذٰلك التاريخ ذاته. وفي تلك الآونة، لا بدّ أنه كان هنالك، في إسبانيا، "كتاب العمل بالكرات الفلكيّة" لقسطا بن لوقا، الذي ترجمه إلىٰ القشتاليّة (١٢٥٩م) خوان دي آسپا ويهودا الكوهين، مساعدا ألفونسو العاشر الحكيم، وترجمه إلىٰ اللاتينيّة بعد ذٰلك بقليل ستيفانوس أرنالدوس.

وقد طلب ألفونسو العاشر إلىٰ يهودا بن موشيه أن يستكمل هٰذا العمل بإضافة فصل يتناول الآلات الفلكيّة ذات الكرة والحَلَق وتحديد التقسيم الاَثني عشري للفلك، والمنازل الفلكيّة بحسب رأي هرمس. هل أنجز يهودا بن موشيه هنا عملًا أصيلًا أم اَقتصر علىٰ التّرجمة؟ إنه لأمرٌ ما زال يستدعي التوضيح، ولٰكن، علىٰ أيّة حال، لا مجال للشكّ في أنه كانت في متناول يده أعمالٌ عربيّة يستلهم منها، وبعيدًا عن الدخول في التفصيلات، المتعلّقة بهاتين المشكلتين الأخيرتين، فقد تيسّر له، فيما يخصّ صنع الآلات الفلكيّة ذات الكرة والحلق، أن يستلهم، علىٰ حدٍّ سواء، من "المِجسطي"، أو من أحد المصنّفات العربيّة الكثيرة التي كانت متوافرةً حول هٰذا الموضوع. وقد أدّىٰ المضيُّ في تطوير طراز هٰذه الآلات، إلىٰ الأسطرلاب الكروي. وتبيّن لألفونسو بوضوح أنّ الكرة كانت الأُنموذج الأصلي

الذي اَشتقّت منه الأدوات الأخرىٰ، ومن ثَمّ، هٰذا الأسطرلاب الكرويّ أيضًا، الذي لم يبقَ منه سوىٰ عيناتٍ قليلة جدًا. وكان قد أورد ذكره، قسطا بن لوقا، ثمّ النيريطي والبيروني، ولا بدّ أنه وصل إلىٰ الأندلس في عهد عبد الرحمٰن الثالث. ويتكوّن، بحسب وصف ألفونسو، من :

١ـ كرة معدنيّة رُسمت عليها ثلاث دوائر كبرىٰ، تمثّل الأفق ودائرة خطّ الزوال والدائرة الراسيّة الأولىٰ؛ وفي نصف الكرة العُلوي، المقنطرات والدوائر الراسيّة، وفي نصفها السّفلي، السّاعات غير المتساوية[15]*، وعلىٰ اَمتداد دائرة خطّ الزوال، سلسلةً من أزواج الثقوب، متقابلةً تمامًا، تسمح بتكييف الآلة مع أيّ خطّ عرض كان؛*

٢ـ والعنكبوت، الذي يشتمل علىٰ فلك البروج، وخطّ الاَستواء، وبعض النّجوم، ومزولة ربعيّة لقياس الاَرتفاع، وأخرىٰ لقياس الظلّ، وتقويم؛

٣ـ شريط معدني صغير نصف دائري يتطابق مع سطح العنكبوت، يُثبّت، ويدور حول قطب فلك البروج، ويحمل كاسِرَيْن موصولين بنهايتيه، بشكلٍ مماسّ، يُعادلان عضادة الأسطرلاب المسطّح؛

٤ـ المحور الذي يمرّ من خلال زوج معيّن من ثقوب الكرة ومن خلال القطب الاَستوائي للعنكبوت[16].

وقد كانت هٰذه الأدوات كلّها صعبة الاَستخدام وكبيرة الحجم جدًا. لذٰلك اَبتكر بطليموس فكرة النظام القائم علىٰ تمثيل الكرة في شكل سطح، ووضع قواعد الإسقاطات المِجْسَامِيّة **estereográfica** والمتعامدة **ortográfica**.

وقد تناول موضوع هٰذه الكرة في كتابه *planisferio*، الذي فُقِد نصّه الأصلي، ولٰكن لا بدّ أنه كان معروفًا في الشرق في القرن السادس، لأنّ سيڤروس سابوخت كتب مصنّفًا حول الأسطرلاب المسطّح نحتفظ به لحسن الحظّ. وقد تكون هناك تمثيلاتٌ مسطّحة عن الكرة، وفقًا لهٰذا النظام، وإلّا لما أمكن تفسير الاَلتواء الذي يبدو في تمثيلات القبّة السماويّة في بعض المنشآت، مثل "قُصَير عَمْرة" (المشيّد

بين عامي ٧١١ و٧١٥)*، أو في مُنَمْنمات كتلك التي تقترن ببعض مخطوطات الصوفي.

كانت هٰذه الأساليب معروفةً في قرطبة في القرن العاشر [٤ هـ]، حين ترجم مَسْلَمة المجريطي كتاب *Planisferio* إلىٰ العربيّة[17]، وعلّق عليه. وقد ٱحتُفظ لنا، بالنصّ العربي المفقود، في الترجمة اللاتينيّة التي أنجزها هرمان الدلماتي (١١٤٣م [٥٣٨هـ]). أمّا الملاحظات فقد نجت من الضياع في كلتا اللغتين[18]. ويعرض الكتاب الإسقاط المِجْسَامي، المناسب، الذي يحتفظ بالزوايا. وبعد ذٰلك التاريخ بزمن طويل، وكان في العالم المسيحي قبل ذٰلك، جوردان نيمورا أوّل من بيّن أنّ الدوائر تظلّ ممثّلة في شكل محيطات.

ويمكن تعريف الأسطرلاب المسطّح بوصفه إسقاطًا مِجْساميًا للكرة علىٰ خطّ سطح الاَستواء، مع نهاية رصد في أحد القطبين، ونتيجةً لذٰلك، تصبح هٰذه واقعةً في مركز الصفيحة الدائريّة التي تُشكّل محور الأسطرلاب. وتُرسم، علىٰ هٰذه الصفيحة، دوائر ذات مركزٍ واحد مشترك، هي دوائر مدارات السرطان وخطّ الاَعتدال والجَدْي، وعلىٰ نحوٍ مماثل ترسم المقنطرات والدوائر الرأسيّة. ولٰكن، بما أنّ رسم هٰذه الأخيرة يتغيّر تبعًا لخطّ العرض، لذٰلك نُدرك سبب الحاجة إلىٰ كلّ هٰذا القدر من الصفائح ودرجات العرض التي نعتزم أن نستخدم فيها الأداة. وحفاظًا عليها، يُعطىٰ الجهاز شكل صندوق أسطواني يتراوح قطره بين ٢٥ـ٣٠ سم، يحتوي علىٰ الصفائح (يُنقش علىٰ كلّ واحدة مُنْحَنَيا خطّ الطول المقابلان لها، منحنًىٰ علىٰ كلّ وجهٍ من وجهيها). ويتمّ التحكّم بالمجموع عن طريق وتدٍ يمرّ عبر محوره أو ما يُمثّل القطب، وعبر العنكبوت، حيث مواقعُ النّجوم الأساسيّة ممثّلة بكلاليب ومؤشّرات، ويُطلق علىٰ الصندوق الأسطواني الذي يحتوي الصفائح ٱسم

* ٱنظر حاشيتنا عنه في الفصل الأوّل.

الأمّ، وتُنقش داخله إشاراتٌ مختلفة، بينما تُرسم علىٰ خارجه سلسلةٌ من الدوائر لمعرفة اَرتفاعِ الكواكب ـ الذي يُحصَل عليه عن طريق العِضَادة التي تدور فوق الصندوق ـ وموقعِ الشمس في البروج، وتوابعَ (دالّاتٍ) مختلفةٍ متعلّقة بحساب المثلّثات.

وسرعان ما اَنتشر هٰذا الجهاز، في أوروبة، وكان موضع اَهتمام لوبيتو البرشلوني، وجربرتو، وهرمان دي كارنتيا، وحنّا الإشبيلي، وآديلاردو دي باث، ولا سيّما رايمون المرسيلي (حيًّا ١١٤٠م)، الذي كان قد وقع علىٰ ترجماتٍ أوفرَ وأجود من ترجمات القرن العاشر، ممّا أتاح له أن يكتب مصنّفًا أصيلًا، تمّ فيه الإلماع، لأوّل مرّة، إلىٰ اَستخدام الأسطرلاب علىٰ ظهر السفن وقيام البحّارة باَستعماله لتحديد درجة العرض عن طريق رصد الاَنتقال الأعلىٰ والأدنىٰ لنجمةٍ واقعة حول أحد القطبين، مثل بنات نعش الكبرىٰ (η ـ كوكبة الدبّ الأكبر) أو الجَدْي، التي يُطلق عليها اَسم (α ألفا ـ كوكبة الدبّ الأصغر). وكان نجاح الأسطرلاب كبيرًا جدًّا، حتّىٰ إنّ الاَهتمام به لم يقتصر علىٰ علماء القرون الوسطىٰ ـ بمن فيهم تشوسر (١٣٤٣ـ١٤٠٠م) ـ بل حظي بحيويّةٍ كبيرة اَمتدّت حتّىٰ قلب القرن السابع عشر، حيث خصّه بيون نفسه (١٦٥٢ـ١٧٣٣م) بصفحاتٍ واسعةٍ في عددٍ من أعماله. ذاك هو تاريخ الجهاز الموصوف في المصنّف المسمّىٰ "الكتب" *Libros* (٢، ١٨٦٣، صص ٢٢٥ـ٢٩٢)، وأحد الأجهزة الأكثر شهرةً عند الجمهور المعاصر الواسع، نظرًا للأثمان المرتفعة التي تبلغها في سوق الأثريّات. ويمثّل بعضها، فضلًا عن ذٰلك، أهمّيّةً بالغة في دراسة الثقافة الغربيّة، مثلما هي الحال مع جهاز ديتونب، الذي عُنينا به في صفحاتنا السابقة، أو مع تطوّر الجهاز إلىٰ أن تحوّل إلىٰ آلة مناسبة للاَستخدام في الملاحة.

وبَدَهيٌّ أنّ الجهاز، علىٰ نحوِ ما تمّ وصفه، كان ينطوي علىٰ محذورَين اَثنين، علىٰ الأقلّ: قلّةُ تقريبه [دقّته] نظرًا إلىٰ حجمه، ووزنُه الذي ما زال بالغًا، ممّا كان يجعل نقله عسيرا. ولتلافي العائق الأوّل، تمّ اللجوء إلىٰ اَستحداث أدواتٍ ضخمة،

وبالنسبة إلىٰ الثاني، جرىٰ البحث عن حلولٍ جديدة، ومن ذٰلك، مثلًا، الحلّ الذي تصوّره الأندلسي علي بن خلف (حيًّا ١٠٧٠م [٤٦٢هـ])، وكان يقوم علىٰ إسقاطٍ مِجَسَامي علىٰ سطحٍ متعامد مع دائرة البروج، ويقطعها وِفقًا لخطّ برج السرطان ـ برج الجديّ، و "صفيحة" الزّرقيال (مصنَّف "الكتب"، ٣، ١٨٦٤، صص ١٣٥ـ٢٣٧) التي نعرف نوعين منها (المأمونيّة، والعبّاديّة)، وقِوامهُ إسقاط مِجَسَامي علىٰ سطحٍ متعامد مع دائرة البروج وفقًا للخطّ الانقلابي لبرج الجدي ـ برج السرطانَ، مع إسقاط نصف كرةٍ علىٰ دائرة سَمْت الانقلابين اعتبارًا من برج الميزان، والنصف الآخر اعتبارًا من برج الحمل.

وهٰكذا يُلاحظ أنه قد نشأت عن الإسقاط المِجْسَامي سلسلةٌ واسعة جدًّا من الأدوات، تكرّر استخدامها كثيرًا، وحُفظ منها قسم كبير.

أمّا الإسقاط المتعامد، الذي تناوله بطليموس في كتابه *Analemma*[19] والبيروني تحت اسم [الإسقاط] الأسطواني في مصنّفه "كتاب في استيعاب الوجوه الممكنة في صنعة الأسطرلاب"، فكانت نتائجه أضأل جدًّا من نتائج الإسقاط المِجْسَامي، ولم يُستخدم في الواقع، إلىٰ أن كتب الفارس الإسباني هوگو دي روخاس الكتاب المسمّىٰ *Commentarium in astrolabium quod planisphærium vocant*، الذي أثّر بدوره، في نهاية الأمر، في أسطرلاب الصَّفَوي شاه حسين (١٦٩١ـ١٧٢٢م [١١٠٢ـ١١٣٤هـ])[20]، ولٰكنّ جميع الشهادات كانت متّفقةً علىٰ أنّ كلًّا من خيمّا الفريزي وروخاس قد استندا إلىٰ كتابٍ عربي في ترجمةٍ ألفونسيّة، نجدها ـ لدىٰ تقصّي أدوات عصر النهضة ـ مستخدمةً علىٰ ظهر أسطرلابات ريجيومونتانو (١٤٦٢م) ودورن (١٤٨٠ـ١٤٨٣م).

ولٰكن، عند الكلام عن ظهر "صفيحة" الزرقيال في "كتب المعرفة بعلم الفلك"، يتمّ وصف ربع دائرةٍ ترسم فيها خطوط الجيوب الستّينيّة، بينما تشتمل الأرباع الثلاثة الأخرىٰ علىٰ سلسلاتٍ من أنصاف القَطْع الإهليلجي تختلط بخطوط منتصف النهار لإسقاطٍ متعامد. ونجد نظير هٰذه الترسيمة في صفيحة

محمّد بن محمّد بن هُذيل، محفوظةً في مرصد فابرا، تحمل تاريخ ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م. ويمكن مشاهدة صفائح أخرىٰ مشابهة في أسطرلابات الإشبيلي محمّد بن فتّوح الخمائري (حيًّا ٦٠٩ـ٦٣٤هـ/ ١٢١٢ـ١٢٣٦م)، وخاصّة في الصفيحة التي وصفها هـ. سوفير ورييالهاد.

هٰذه الترسيمة، التي ربّما قد أخذها روخاس، انتقلت بدورها في نهاية الأمر، ومن خلاله، إلىٰ أسطرلابٍ مُغْفَلٍ، للشاه حسين الصفوي (١٦٩١ـ١٧٢٢م). ويُشكّل هٰذا، إذن، أحد الأمثلة النادرة التي نعرفها عن عودةٍ في المعارف إلىٰ شرقيّي العصر الحديث أنفسهم، والتي كان قد جرىٰ تلقّيها منهم في العصر الوسيط.

ما خلا الأدوات التي تناولناها حتّىٰ الآن، هناك أدواتٌ أخرىٰ يُمكن اعتبارها ممهِّدةً للأدوات التي صُنعت اعتبارًا من القرن السّادس عشر لبيان آليّة الحركات السماويّة، وما زالت، مع كلّ ما أُدخل عليها من التعديلات التي فرضتها الميكانيكا السماويّة، تُشكّل، حتّىٰ في الزمن الراهن، وسيلةً تعليميّة من المقام الأوّل. ونستطيع أن نجمعها في صنفين: "مشخّصات القبّة الفلكيّة"، وتقوم علىٰ ترتيب الأجرام السماويّة داخل مقصورات أو صناديق، مثلما فعل، فيما يبدو، ڤيتروڤيو[21] والقرطبي عبّاس بن فرناس[22]، و"الأسطرلابات ذات المسنّنات المتداخلة" التي ينبغي اعتبارها ممهِّدةً حقيقيّة للمَراقِب [الميكانيكيّة] **ecuatorios** وللسّاعات الميكانيكيّة.

وهناك أقدمُ المسنّنات المتداخلة، التي لا تزال محفوظة، في أجزاء آلة آنتيسيترا، التي يُحتمل أن تكون أسطرلابًا ميكانيكيًّا قديمًا أو مرقبًا، بهدف بيان سير الكواكب السيّارة. وتُشكّل إذن دليلًا ثابتًا علىٰ الرأي القائل بأنّ أرخميدس كان قد صنع جهازًا ميكانيكيًّا يُبيِّن سير النّجوم والكواكب السيّارة، وأنّ سيشرون كان رأىٰ هٰذا الجهاز يعمل. وإنه لمن الصعب أن نعلم ما إذا كانت هناك مسنّناتٌ متداخلة في السّاعة القائمة علىٰ التكرار التي وصفها ڤيتروڤيو، ولٰكنها علىٰ الأقلّ كانت مندرجةً في خطّ المراقب، لأنها كانت تُشير إلىٰ التبدُّل في السماء، كلّما طرأ،

بصورةٍ شبيهة بما هو موصوفٌ في الكتاب الذي ألّفه الحاخام ساگ حول السّاعة الزئبقيّة.

ويظهر، في العالم الإسلامي، ذكر المسنّنات المتداخلة في رسم بمخطوطٍ للبيروني (ت ١٠٤٨م)، سلسلةُ الدواليب فيه ذات ٤٠ ـ ١٠ + ٧ ـ ٥٩ + ١٩ ـ ٥٩ + ٢٠ ـ ٤٨ [سنًّا]. يُجري الدولاب، المشتمل على ٤٨ سنًّا، ١٩ دورة (سنويّة)، بينما يُحدِّد الدولاب الذي يضمّ ١٩ + ٥٩ [سنًّا] ١١٨ زوجًا من شهرَين قمريّين، مكونَين من ٢٩ + ٣٠ يومًا. ويُجري دولاب الـ ٤٠ [سنًّا] دورةً قمريّةً مكوّنةً من ٢٨ يومًا، وتُحقّق العضادة الموصولة بالمسنّنَين ٧ + ١٠ بالضبط دورة واحدة في الأسبوع. ولٰكن يتعلّق الأمر هنا بفكرةٍ صادرة عن منظِّرٍ، لا عن صانعٍ حِرَفيّ، فقد كان من الصعب، بالوسائل التي كانت متوافرةً في ذٰلك العصر، الحصولُ على مسنّنات ذات عددٍ وِترٍ من الأسنان، لأنها كانت تُصنع، بوجه العموم، عن طريق تقسيمات ثنائيّة متتالية. ولٰكن، على الرغم من ذٰلك، ربّما ألهم هٰذا الرسم محمّدًا بن أبي بكر الأصفهاني صُنْعَ الأسطرلاب الذي يحمل تاريخ ١٢٢١م [٦١٨هـ]، والمحفوظ في متحف تاريخ العلم بأكسفورد، وسلسلة الدواليب فيه ذات ٤٨ ـ ١٣ + ٨ ـ ٦٤ + ٦٤ ـ ٦٤ + ١٠ ـ ٦٠ سنًّا، وربّما كان أسطرلابًا من هٰذا النوع ذٰلك الذي أهداه صلاح الدين [الأيوبي] عام ١٢٣٢م إلى الإمبراطور فيديريكو الثاني. كان «*آلة رائعة الصنع، يبلغ ثمنها أكثر من خمسة آلاف دوكة. وبالفعل، كانت تتراءى من الداخل قبّةٌ سماويّة، قد صُوِّرت فيها، بأقصى مهارةٍ، أشكالُ الشمس والقمر والكواكب السيّارة الأخرى، وكانت هٰذه تتحرك بفعل أوزان ودواليب، على نحوٍ تُشير فيه، لدى إتمامها مسارها في مُدَدٍ زمنيّةٍ محدّدة، إلى السّاعة في الليل مثلما في النهار، بدقّةٍ محقّقة. وكانت البروج الاثنا عشر، مع بعض الميزات المناسبة، والمتحرّكة مع السماء، تشتمل في ذاتها على سير الكواكب السيّارة*»[23].

لقد تناولنا، حتّى هنا، أجهزةً توالى انتشارها في العالم المسيحي، وأشارت إلى بداية تطوُّر الأسطرلاب. وبدلًا من أن نعمد إلى بيان آليّة حركة النّجوم، بصورةٍ

تعليميّة، كما هي الحال بهذا الشأن، فإنّنا، إذا ما ٱعتزمنا الحصول على الموقع الصحيح لهذه النّجوم تفاديًا للحساب، وجدنا أنفسنا إزاء المرقب الذي يتوافر لدينا عنه القليل من الأوصاف المكتوبة، ونماذج أقلّ. هذه الآلة، وما لم يثبت العكس، هي ٱختراعٌ أندلسي أُنجِز في القرن الحادي عشر [٥ هـ] أو قبله. وقد حصل شيءٌ مشابه لما رأينا حدوثه مع المزولة الربعيّة ذات الزّالق. والواقع أنّ كلّ المراقب المعروفة ـ ما عدا مرقب الكاشي (١٤١٦م [٨١٩هـ]) [في سمرقند]• ـ هي غربيّة، وأنّ أقدم ثلاثةٍ منها هي من صنع أندلسيّين، ٱبن السمح (حيًّا ١٠٢٥م [٤١٦هـ]) والزّرقيال (ت ١١٠٠م [٤٩٣هـ]) وأبو الصلت (حوالي ١١١٠م [٥٠٤هـ]). وتلتها فيما بعد مراقب كامپانوس النوڤاري (١٢٦٤م) وريكاردو دي والنگفورد (١٣٢٦م) وخوان دي لينيير (حوالي ١٣٣٠م)، ومرقب مرتون كوليج (حوالي ١٣٥٠م) ومراقب تشوسر (حوالي ١٣٩٢م) وخوان فوزوريس (١٤١٤م) وگييرمو دي جيليسزون (١٤٩٤م) وفرانسيسكو سارزوسيو (١٥٢٦م).

نجد وصفًا لأقدم مرقبين، وهما مرقبا ٱبن السمح والزّرقيال، في كتب "المعرفة بعلم الفلك"، تحت عنوان "كتاب لوحات الكواكب السيّارة السبعة" (٣ [١٨٦٣] ص ٢٤١ـ٢٧١، وص ٢٧٢ـ٢٨٤). يعرض أوّلًا نظام ٱبن السمح (لوحة لكلّ كوكب سيّار)، بعدئذ نظام الزّرقيال (لوحة لكلّ الكواكب السيّارة). ودرس المرقب الثالث أو. س. كينيدي.

وإنّنا نَدين بأوّل مرقب مسيحيّ لكامپانو النوڤاري، وٱنطلاقًا منه، بدأ تطوُّر الأداة في الغرب. ويُميِّز أ. پوپيه بين ثلاثة أصناف من هذه الأدوات:

• حول هذا المرقب، ٱنظر: "مفتاح الحساب" تأليف جمشيد الكاشي (مرجع سبقت الإشارة إليه)، مقدّمة المحقّق نادر النابلسي، وفيها رسمٌ لنموذج تخيُّليٍّ للمرصد، الذي هو في الواقع "مرصد ألوغ بيك" (ت ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م) حفيد الغازي تيمورلنك، وقد بناه الفلكي جمشيد الكاشي، صص ١٩ـ٢٤.

١ـ الصنف "الهندسي"، المنبثق عن كامپانوس، كما هي أدوات فوزوريس (١٣٦٠ـ١٤٣٦م)، وجيليسزون (١٤٩٤م)، التي أفضت إلىٰ أدوات فرانسيسكو سارزوسيو المتقنة جدًّا، والمحفوظة في متحف تاريخ العلم بأكسفورد، وأدوات أو. فينّه، التي تحلّ مشكلة تعدّد المراكز؛

٢ـ الأصناف "الحسابيّة"، المخصّصة لموضوع واحد، مثل أدوات سيباستيان دي مونستير وريكاردو دي والنگوفورد؛

٣ـ الأصناف "المثلّثاتية" أو "الستّينيّة"، التي ابتكرها عالمٌ فلكيّ من القاهرة، وقد أدخلها إلىٰ بلنسية فقيهُ [مدينة] باطرنة حوالي عام ١٤٥٠م [٨٥٤هـ]، وامتنع عن التعريف بها، ولٰكن لم يُفِده ذٰلك شيئًا، لأنها أخذت، بالرغم منه، في الانتشار اعتبارًا من عام ١٤٦٣م.

وظهرت السّاعة الميكانيكيّة في القرن الرابع عشر [٨ هـ]، بحسب رأي پرايس، ليس نتيجةً لاختراع ميزان السّاعة بقدر ما كان ذٰلك حصيلةً أولىٰ لتطوُّرٍ طويل ومستقلٍّ للسّاعة القائمة علىٰ التكرار ـ وهي أسطرلاب ميكانيكيّ حقيقيّ ـ وللأجهزة ذات المسنّنات المتداخلة، والتي انبثقت عنها المراقب [الميكانيكيّة]. وقد عمل اتّحاد هٰذين العاملين معًا، وظهور ميزان السّاعة فيما بعد عام ١٢٧١م (ولم يعرفه روبرتو أنگليكو)، علىٰ إنجاز الباقي. وأوّل ساعةٍ ميكانيكيّة وُصِفت بوضوح هي ساعة دوندي (١٣٦٤م). ويبدو أنّ ميزان السّاعة قد نشأ في الصين، ووصل إلىٰ أوروبة نتيجة للعلاقات الوديّة بين الإلخانيّين وبعض الملوك [المنضوين تحت لوائهم]، في بدايات القرن الرابع عشر.

وفي الوقت الذي شرعت السّاعة الميكانيكيّة بالظهور، بدأت المزولة الربعيّة بالتحوّل وفقًا لما بيّناه آنفًا. فنجد في المقام الأوّل المزولة الربعيّة "السنّيرو" الألفونسيّة، التي وصفها الحاخام زاگ، ولٰكنه ترجم ذٰلك، دونما شكٍّ، من مصنّفٍ عربي، وتعرض في الأنموذجين المتحرّك والثابت، وتسمح بأن تحلّ، علىٰ نحوٍ مناسب، المشكلات المتعلّقة بتحوُّل الإحداثيّات وبعلم الفلك الكُروي، دون التمكّن من اكتناه أنماط الرسوم الهندسيّة الموجودة في وجهها وفي ظهرها، لأنه لم يُحتفَظ بأيّ وصفٍ أو

رسم عنها، ما خلا التعليمات المتعلّقة بطريقة ٱستخدامها، والتي ترتبط بمسائل خاصّة بحساب المثلّثات أكثر ممّا ترتبط بها هي ذاتها.

ولٰكنّ أكبر تقدّم في هٰذا الميدان هو ما حقّقه اليهودي دون بروفايت طيبّون، وكان خارج إسبانيا، بٱبتكاره المزولة الربعيّة الجديدة، ولن تكون موضع ٱهتمامنا هنا، كما لن نُركّز على المزولة الربعيّة "الشكّازي" التي ٱستنبطها المصري ٱبن طيبوغة (ت ١٤٧٧م [٨٨٢هـ]) من صفيحة الزّرقيال.

علم التنجيم:

كان واحدًا من أهمّ الأعمال، من الناحية الفكريّة، في القرون الوسطى المتأخّرة، مصنّفُ علم التنجيم لعلي بن أبي الرجال القيرواني، والذي طلب ألفونسو العاشر من يهودا موشيه (١٢٥٤م) أن يترجمه إلى القشتاليّة، تحت عنوان *El libro conplido de los iudizios de las estrellas*. ويتبيّن من سياق الترجمة أنّ هناك "مصحّحًا" ربّما كان گارسيه پيريز، وهو مسيحي، ٱمتُدح في مقدّمة الكتاب المسمّى *Lapidario* بوصفه «ضليعًا جدًّا من هٰذه المعرفة بعلم التنجيم». وتشتمل الترجمة القشتاليّة المنشورة، على الأجزاء الخمسة الأولى من أجزاء النصّ العربي الثمانية. وفي وقتٍ لاحق، وَقّع ج. بوجوان على الجزء الثامن، علمًا بأنّ الجزأين السادس والسابع معروفان بفضل الترجمة اللاتينيّة التي أنجزها إيخيدو دي تيبالديس ويترّوس دي ريخيو، أو النسخة اليهوديّة ـ البرتغاليّة لمخطوط أوكسفورد. وينبثق كلاهما، شأنهما في ذٰلك شأن الموجز القَطَلوني لترسبنز (حوالي ١٣٥٩م)، من الترجمة القشتاليّة التي أنجزها يهودا.

ويتّضح الٱهتمام الذي أولاه ألفونسو العاشر إلى هٰذا الكتاب، إذا ما أخذنا بعين الٱعتبار ما يتمتّع به المؤلّف من علم واسع (حوالي ٩٦٥ـ حوالي ١٠٤٠م)، والذي لا بدّ أنه كان يمتلك مكتبة كبيرة كما يليق بشخصٍ أُتيح له أن يدرس في بغداد مع الكوهي، وأصبح منجّم الأمير المعزّ في القيروان (١٠١٦م [٤٠٧هـ])، وأُهديت

إليه مجموعة المنتخبات الأدبيّة لصاحب "العمدة"، اَبن رشيق [القيرواني] الحاجب، ويبدو من المحتمل، أنه تبادل الرسائل مع البِيروني، لأنه وضع طالعًا فلكيًا باَسم هٰذا الأخير *Azarone* يمكن أن يكون تاريخه كانون الثاني/ يناير ١٠٢٤م [٤١٥هـ].

ولٰكنّ أهمّ أمرٍ هنا، هو أنّ اَبن أبي الرجال، قد اَحتفظ لنا بنصوص تنجيميّة تعود إلىٰ ما قبل الإسلام، نُقلت إلىٰ العربيّة، إمّا مباشرةً عن اليونانيّة، وإمّا عبر ترجماتٍ فهلويّة.

ولنستعرض بعض الأمثلة عن الشخصيّات الأكثر تميُّزًا، ولم نتعرّف عليها حتّىٰ الآن:

١ـ دوروسيوس، أي دوروتيوس الصيداوي (القرن الأوّل) مُؤلّف "المصنّفات الخمسة" Pentateuco، ولم يصل إلينا عن هٰذا الكتاب باليونانيّة سوىٰ شذرات، وكان موضع ترجماتٍ عدّة إلىٰ العربيّة، ووصل إلينا كاملًا.

٢ـ فويليوس أو فويلوس ، أي فيتيوس فالنس (حيًّا ١٦٠م)، منجّم يوناني، ويعتبره العرب بابليًّا أو مصريًّا، مؤلّف مجموعة "مختارات". وقد ترجمها إلىٰ الفهلويّة بُزُرْجَمِهْر، الوزير الشهير لخسرو الأوّل أنوشروان (٥٣١ـ٥٧٩م)، تحت عنوان *Vizidhak* (المختار)، وبالعربيّة "يراناداج"، وتحوّل هٰذا العنوان في كتاب اَبن أبي الرجال بالقشتاليّة إلىٰ *Enzireth*، *Yndedech*... إلخ. وقد فُقِد النصّان الفارسي والعربي.

٣ـ أنتيوكوس أنتيكوس، أي أنتيوكوس الأثيني. (حيًّا في القرن الثالث م)، ويبدو أنه اَتّبع التقليد البابليّ، علىٰ غرار فيتيوس فالنس.

٤ـ زردست أو زوروأسترو، وهو اَسم مؤلّف فارسي، لعلّه أُسطوري، يعزو إليه اليونانيّون واللاتينيّون (راجع، بلينيو، HN، ٣٠، ٢، ٤) كتابات تنجيميّة عديدة أُحرقت مع كتابات أخرىٰ من الصنف ذاته، عام ٤٨٧م.

٥ـ نوفل، نويفل أو تيفيل الحكيم، ولعلّه المسيحي الماروني

تيوفيلوس، رئيس منجّمي الخليفة المهدي (١٥٨ــ١٦٩هـ/ ٧٧٥ــ٧٨٥م)، ويبدو أنّ قسمًا من عمله قد تُرجم إلىٰ اليونانيّة.

وشهد الكتاب، المسمّىٰ *El libro conplido*، صروفًا غريبة جدًّا، في قَطَلونية، ومنها، علىٰ سبيل المثال، أنّ الملك بيدرو الرابع الآحتفالي، بتاريخ ٢٤ أكتوبر/ تشرين الأوّل ١٣٥٩، منع إعارته إلىٰ منجّمه دالماو سيس پلانس، أحد مؤلّفي جداول عام ١٣٦١م، ومنحه، من جهة أخرىٰ، إذنًا بالآطّلاع علىٰ الكتب الأخرىٰ في المكتبة الملكيّة. فلماذا؟ لا تُبيِّن لنا السبب الوثيقةُ التي تروي لنا هٰذه القصّة، ولٰكن ليس هناك، فيما يُعتقد، سوىٰ آحتمالين: إمّا أنّ دراسة القسم التنجيمي قابلة لتطبيقات سياسيّة، أو أنّ الكتاب كان بين يدي بارتومو دي تريسبنس، الذي كان في تلك الفترة عاكفًا علىٰ تأليف كتابه [في التنجيم] المسمّىٰ *Tracta d'astrologia*، الذي يُمكن، بالضبط، آعتباره مُلخّصًا للجزأين الرابع والخامس من *El libro conplido* (علم التنجيم الخاصّ بالطالع)، وآنتهىٰ من كتابته قبل عام ١٣٧٣م. ومع ذٰلك، فلا بدّ أنه قد تبيّن أنّ كتاب تريسبنز غير كافٍ (وهو فعلًا كذٰلك) بالنسبة إلىٰ حبّ الآطّلاع لدىٰ آبن الملك، دون خوان، "هاوي فنون الأدب جميعًا"، والذي نجح، في الحادي عشر من تشرين الأوّل/ أكتوبر ١٣٨٦م، في آستصدار الأمر بترجمة "كتاب البارع" بأكمله إلىٰ القَطَلونيّة، ومن المحتمل أن تكون هٰذه الترجمة قد ضاعت.

ومن الغريب أن نُلاحظ مدىٰ الآستخفاف الذي يوليه آبن أبي الرجال لآراء أبي معشر: رجل «*قليل الأفكار، في كلامٍ كثيرٍ وحججٍ طويلة، ولا يُصيب إلّا في أشياء قليلة، يتحدّث كثيرًا ويفقد الرشد في حججه الطويلة، مثله مثل مَن يحتطب ليلًا فيلتقط ما يصلح وما لا يصلح، هٰكذا هي أقواله*». ولٰكن كثيرًا ممّا يُقدِّم من طوالعَ فلكيّةٍ يعود إلىٰ السنوات ٨٣٦ــ٨٤٤م [٢٢١ــ٢٢٩هـ]، الأمر الذي يدلّ، فيما يبدو، علىٰ أنه آستند، توضيحًا لنظريّاته بالأمثلة، إلىٰ نصٍّ سابق يعود ــ وبالرغم من آنتقاداته ــ إمّا إلىٰ أبي معشر أو إلىٰ الكِنْدي. وهٰذا "الآنتفاع" من طوالع فلكيّةٍ سابقة لتوضيح قواعد أحكام، نجده أيضًا في شرح آبن قُنفذ لأُرجوزة آبن أبي الرجال، ولا يزال مستعملًا حتّىٰ في الوقت الراهن في مصنّفات علم

التنجيم. وقد أسهم ذيوع هٰذا الكتاب في إشاعة مجموعةٍ من الأساليب التنجيميّة، تعود غالبيّتها العظمىٰ إلىٰ منشإٍ شرقيّ. ومن ذٰلك، علىٰ سبيل المثال، أسلوب اَستخدام، وكذٰلك الإفراط في اَستخدام "الأقسام"، أي بعض النقاط الدقيقة جدًّا في السماء، والتي يُستنتج موقعها عن طريق حسابٍ بسيط[24] يَتَّخذ بصفة معطيات موقع كوكبين سيّارين معيّنين، وبوجه العموم، فإنّ الطوالع الفلكيّة اللاتينيّة في القرن الثالث عشر، وهي أضيق نطاقًا من مثيلاتها العربيّة، تأخذ بعين الاَعتبار "الأقسام" المتعلّقة بالأصدقاء، والدين، والزواج، والحظّ... إلخ. ولٰكن "القسم" الوحيد الذي اَستمرّ، في الحقيقة، قائمًا حتّىٰ الآن، هو "قسم" الحظّ.

ثمّة مصنّفٌ تنجيميّ آخر كان واسع الاَنتشار في العالم اللاتيني، هو شرح الكتاب الثلاثي المسمّىٰ *Tetrabiblos*، والذي ألّفه المنجّم والطبيب المصري علي بن رضوان، وكان رجلًا قدّرت له النجومُ أن يُزاول هاتين المهنتين. ونحتفظ، لحسن الحظّ، بسيرةٍ ذاتيّة له بالعربيّة واللاتينيّة. وبفضلها، نعلم أنه وُلِد في ١٥ كانون الثاني/ يناير عام ٩٨٨م/ [٢٢ رمضان ٣٧٨هـ]، لحظة اَقتران نجمين كبيرين لهما علاقة بالأزمنة، يُبشّران بصعود أسرة الكابيتيين إلىٰ السلطة، وقد طلب ألفونسو العاشر الحكيم، من إخيديو دي تيبالديس وبتروس دي ريخيو، ترجمة شرح اَبن رضوان. ولهٰذا المصنّف أهمّيّته، لأنّ المؤلّف، لدىٰ تناوله الجزء الثاني، ٩، يوضّح لنا أنه، لمّا كان شابًّا عام ١٠٠٦م [٣٩٦هـ]، أمكنه أن يرصد في السماء ظهور نجم جديد اَختفىٰ بعد بضعة أشهر[25]، ولٰكن تيسّر اَكتشاف بقاياه بوساطة المقراب اللاسلكي، عام ١٩٦٥، في الموقع الذي أشار إليه اَبن رضوان، وربّما يجدر ربطه مع المذنّب الذي أنبأ، بحسب شهادة اَبن حيّان في كتابه "المتين" واَبن عذاري في كتابه "البيان" [المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب]، مع أحداثٍ سماويّة أخرىٰ (مثلًا، كسوف الشمس)، بنهاية خلافة قرطبة*.

* أشرنا إلىٰ ذلك في حاشية في الفصل الأوّل.

وقد أوصىٰ ألفونسو العاشر أيضًا بترجمة "كتاب الصلبان" إلىٰ القشتاليّة. وكان سانشيز پيريث قد أشار، لدىٰ دراسته مضمون هٰذا الكتاب، إلىٰ أنّ «*مؤلّف الأصل، الذي طلب ألفونسو العاشر ترجمته، منجّمٌ عربيٌ يدعىٰ عبيد الله، ولم أتمكّن من الحصول علىٰ أيّ خبرٍ حول سيرته*». وقد وحّد ميّاس هويّته، تخمينًا، مع هويّة أبي مروان عبيد الله بن خلف الأستجّيّ، وتحوّل هٰذا الظنّ إلىٰ حقيقةٍ حين تمّ العثور، في مخطوط بمكتبة الإسكوريال، علىٰ مقاطع بالعربيّة من كتاب الصلبان، لا تسوّغ نسبة العمل إلىٰ الإستجّيّ وحسب، بل توضّح أيضًا تكوين علم تنجيم "الصلبان"، «*أسلوب أحكام مستعملٌ لدىٰ أهل المغرب في الأزمنة القديمة، أي أهل إفريقية والبربر، ومجموعة من نصارىٰ الأندلس. فلم يكونوا يستخدمون فيما بينهم العلامات التي كان يستعملها الفرس واليونانيّون*». ويقتضي هٰذا كلّه القول بأنّ كتاب "الصلبان" للإستجّيّ يتكوّن من تحريرٍ أو تنقيح لنصٍّ أصلي أكثر قدمًا. ولا بدّ، دونما شكّ، أنّ هٰذا الأنموذج الأصلي كان مكتوبًا باللاتينيّة، وأنه يرجع إلىٰ ما قبل فتح العرب لإسبانيا، وإلّا لما أمكن تعليل نسبة قصيدةٍ إلىٰ عبد الواحد بن إسحق الضّبّيّ[26]، منجّم الحكم الأوّل (١٨٠ـ٢٠٦هـ/ ٧٩٦ـ٨٢١م)، وهي قصيدة حول الظواهر الجوّيّة وتقلّب أحوال الملوك، بحسب «*نظام الأحكام القديمة المستخدم في المغرب، أي نظام الصلبان... أو أيضًا الطريقة الدارجة لدىٰ قدامىٰ النصارىٰ في الأندلس وإفريقية والمغرب*».

وبما أنّ الضّبّيّ كان يعيش في حقبةٍ كان من الصعب جدًّا أن تصل فيها إلىٰ الأندلس الترجماتُ المنجزة في الشرق لنصوصٍ يونانيّة وفارسيّة، لذٰلك ينبغي الخلوص إلىٰ القول بٱستقلاليّة علم التنجيم هٰذا وقِدَمه، علىٰ نحو ما يُقدّم لنا في "كتاب الصلبان". ولعلّ ميزته الأساسيّة تكمن في ٱستعمال الرموز والمنازل، مع الٱنصراف، في أغلب الأحيان، عن ٱستعمال معالم صحيحة، حسبما نراه يحدث في كثيرٍ من الطوالع الفلكيّة القديمة.

الفيزياء:

رأينا أنه قد تمّت، في بدايات القرن الثالث عشر، ترجمة أحد أهمّ الأعمال في تاريخ العلم، وهو "بصريّات" ٱبن الهيثم، وفي الوقت ذاته، كانت ترجمة "الآثار العُلويّة" لأرسطوطاليس قد سبقت معرفتها، شأنها شأن "الشرح" الذي ألّفه عنها ٱبن سينا. وقد ٱستخدم گروسّيتيشته هٰذه الأعمال (١١٦٨ـ١٢٥٣م) نقطة ٱنطلاق لكتابة مصنّفاتٍ عدّة حول هٰذا الموضوع، وعلىٰ سبيل المثال، كتابه المسمّىٰ *De colore* الذي أوضح فيه بالأمثلة المنهج الأرسطوطاليسي في "التحليل" و"التركيب" *resolutio y compositio* والذي كانت قد كتبت حوله أعمالٌ كثيرة في العالم العربي، قام بها، علىٰ سبيل المثال، إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرّة، وٱبن الهيثم... إلخ. وتناول في كتابه *De iride seu de iride et speculo* قوسَ قزح الذي كان إحدىٰ الظواهر التي شغلت الأذهان كثيرًا في الغرب. وسعىٰ روجيه بيكون (١٢١٤ـ١٢٩٢م) إلىٰ توسيع هٰذه المعارف، مجريًا تجاربَ عدّة بوساطة العدسات والمرايا، مدركًا قدرتها علىٰ التضخيم، ولعلّه قد نجح، في لحظةٍ ما، في تنفيذ نوع من المجهر أو المنظار المركّب. ولٰكن الحالة الأجدر بالٱهتمام طُرِحت مع ديتريش فون فرايبرگ (١٢٥٠ـ١٣١٠م)، لأنه توصّل في مصنّفه *De iride et radialibus impressionibus*، المكتوب بين عامي ١٣٠٤ـ١٣١٠م، إلىٰ النتائج ذاتها التي خلص إليها معاصره الفارسي قطب الدين الشيرازي (١٢٣٦ـ١٣١١م)، في كتابٍ أُلّف قُبيل كتاب ديتريش، لأنّ كمال الدين الفارسي[27] شرح هٰذا الكتاب بين عامي ١٣٠٢ و١٣١١م. وقد فسّر كلا الكاتبين قوس قزح، بوصفه نتيجة مرور الضوء من خلال كُرةٍ شفّافة (قطرة ماء)، ينكسر فيها شعاع الضوء مرّتين وينعكس مرّة واحدة (أو مرّتين في حال وجود قوس قزح ثانوي). وتكمن المشكلة في أن نعرف ما إذا كان للأسس، التي أخذها الغرب اللاتيني، ما يكفي من الكيان كي يتمّ التوصّل، ٱنطلاقًا منها، إلىٰ نتائج مماثلة للتي حُصل عليها في المشرق. ولا يبدو لنا،

الآن، أنّ هٰذا الأمر محتمل، لأنّ الدراسة الوافية التي كتبها آبنُ الهيثم حول الموضوع[28] ـ الذي لم يكد يومئ إليه في "البصريّات" ـ لم تُترجم إلىٰ اللاتينيّة. ومن الغريب أيضًا هٰذا الفارق الطفيف في التاريخ بين كلا الكتابين، وأن تكون التجارب التي أجراها المؤلّفون المشارقة أكثر كمالًا وإقناعًا من تجارب ديتريش، وأن تظهر بعض النماذج الفلكيّة الموجودة في "النهايات"، بعد وقت متأخرٍ جدًّا، في كتاب "حركات الأجرام السماويّة" لكوبرنيكو. ويتمّ ذٰلك كلّه في الفترة التي سمح فيها الآنفتاح السياسي لفيديريكو الثاني أوّلًا، وللإلخانيّين بعدئذ، بوصول موجةٍ جديدة من المعارف الشرقيّة إلىٰ أوروبة. فذٰلك كلّه يدعو إلىٰ آفتراض أنّ ديتريش دي فرايبرگ كان علىٰ علم بنظريّات قطب الدين الشيرازي.

ورأينا أنّ آبن الهيثم كان قد آستخدم "البيت المظلم" ("تنقيح المناظر" ١، ٣)، ومع ذٰلك، قدّم أكمل وصفٍ له في مصنّفه "في صورة الكسوف"، حيث يُبيّن كيف يترتّب آستخدامه من أجل رصد كسوفات الشمس. ويُعيد هٰذا التاريخ (١٠٨٠م)، وصف الفيزيائي الصيني شين كوا هٰذه الأداة. وتعمّق كمال الدين الفارسي في التحكّم بهٰذه الأداة، ووضع قوانين عدّة تُحدِّد تَشكُّل الصورة داخله. وفي الوقت ذاته تقريبًا، آستخدم هٰذا البيت بفرنسا، اليهودي ليڤي بن جرسون دي بانيول (١٢٨٨ـ١٣٤٤م)، من أجل رصد خسوفات القمر. هنا تبرز مجدَّدًا صعوبة إثبات وجود علاقة ـ كان من شأنها إن وجدت أن تسلك طريق شبه الجزيرة الإيبيريّة أو مباشرةً عن طريق سفارات الإلخانيّين ـ بين كلا المفكّرين. ومهما يكن من أمر، فقد كان البيت المظلم قليل الآستخدام قبل عصر النهضة، وآعتبارًا من القرن السادس عشر فقط آسترعىٰ آنتباه ليوناردو، وديلاپورتو، وپ. كيشر.

وقد قام الفلاسفة العرب بإعادة صياغة مفارقات زينون الإيلي ("الطبيعة"، ٦، ٩؛ ٨، ٨؛ "ما بعد الطبيعة"، ٢ ،٤)، التي كانت تُبيّن أنّ المكان ليس تجاوُرَ نقاطٍ، ولا الزمان مجموعَ لحظات (لا تقبل القسمة)، وتمّ ذٰلك لدرجة أنّ معالجة هٰذه المشكلات، في العالم اللاتيني في االقرن الثالث عشر، كانت علىٰ علاقةٍ بهٰؤلاء

الفلاسفة أكثر من علاقتها بترجمة گروسّيتيشته للمصنّف الأرسطوطاليسي المنتحَل المسمّىٰ *De lineis insecabilibus*، أو مع التطوّر المباشر للمفارقات حسبما نجدها في المدوّنة الأرسطوطاليسيّة[29]. كما شكّلت هٰذه المشكلات، من جهة أخرىٰ، مصدرًا لا ينضب للسفسطات التي كان يتمرّن عليها الباحثون في جامعتي باريس وأوكسفورد.

ويرجع ذٰلك إلىٰ وفرة "البراهين" العربيّة ـ وكثيرٌ منها هندسيّ ـ لمسائل مشابهةٍ كانت تنطوي علىٰ مشكلات لاهوتيّة من الدرجة الأولىٰ. ومن ثَمّ، كانت أكثريّة "المتكلّمة" (الذين اُعتبروا غالبًا، ودونما مسوّغ، الممثّلين الوحيدين للسنّة في الإسلام) من أنصار النظريّة الذرّيّة أو اللامتجزّئات، حسبما كانوا يُؤوّلونها اَنطلاقًا من نصوص ديموقريطس وأبيقور ومن المصادر الهنديّة التي كانت في متناولهم، بينما كانت غالبيّة المعتزلة، ومن باب أوْلىٰ الفلاسفة، يُفضّلون اتّباع أرسطوطاليس والتسليم بقابليّةِ المتّصل للقسمة إلىٰ ما لا نهاية له. وتناول اَبن سينا هٰذه المسائل مرارا، ولخّص الغزالي حججه في كتابه "مقاصد الفلاسفة"، وكان كلا هٰذين المؤلّفين معروفين في العالم المسيحي معرفةً تامّة طوال القرون الوسطىٰ، حسبما رأينا. لذٰلك لم يكن غريبًا أن يُومَأ إلىٰ مشكلة ما لا يتجزّأ الرياضيّة لدىٰ بار حِيّه البرشلوني، وأن تكون موضع اَهتمام دائم، اَعتبارًا من القرن الثالث عشر، فاَهتمّ بها كامپانو النوڤاري، والقدّيس توما، وبرادواردين... إلخ، إلىٰ أن بلغت أقصىٰ وأهمّ صدىٰ لها في لامتجزّئات كاڤاليري (١٥٩٨ـ١٦٤٧م). ولٰكن كثيرًا من الحجج المتذرّع بها، لها ما يُناظرها عند اَبن سينا[30]. من ذٰلك، مثلًا، الحجج التي تؤكّد:

١ـ أنّ صفّين متوازيين من الذرّات المتحرّكة في اَتّجاهين متقابلين، قد يتّخذان مواقع متوسّطة تختلط فيها ذرّتان في ذرّة واحدة، ما لم تحدث الحركة عن طريق طفرات فوريّة؛

٢ـ وأنّ المربّع المكوّن من نقاط قد يكون قُطره مساويًا لضلعه؛

٣ـ وأن سَير ظلّ المزولة يستتبع احد امرين: إمّا أن ينتقل علىٰ نحوِ متّصل من ذرّة إلىٰ أخرىٰ، فلا بدّ له، في لحظاتٍ ما، من أن

يُقسَّم، هندسيًا على الأقلّ، النرّات في منتصفها، وإمّا أن ينتقل طافرًا فورًا من ذرّة إلى أخرى، فعلى الشمس أن تنتقل بطفرات هائلة... إلخ.

وترتبط هٰذه المشكلات بمشكلة الفراغ، وقد ظهرت مع كتاب "قضايا طبيعيّة" لأديلاردو دي باث، الذي يجمع فيه أفكار العصور القديمة من خلال معلّميه العرب[31]. ولم يكن هناك إلّا قلّة من الأعداء لهٰذا الكون "الملِيء" الذي تصوّرته القرون الوسطى، والمتمثّل بالقول المأثور: إنّ الطبيعة تكره الفراغ (باللاتينيّة *Natura abhorret vacuo*).

وكان من بين الترجمات التي أنجزها جيراردو الكريموني "كتاب قراسطونيس" لثابت بن قرّة، العمل الذي دخل معه، في الواقع، علمُ السكون الكلاسيكي إلى الإسلام، وبدأت الإصلاحات الأولى لهٰذا العلم. وكان هنالك ما يُشكّل الأساس، ككتاب "الميكانيكا" لأرسطو الزائف، وأعمالٍ عدّة أصيلة أو مختلقة لأرخميدس[32] وأُقليدس[33]، وعملِ أهرون الإسكندراني (حيًّا ٦٢م)، المفقود عمليًّا باليونانيّة، ولٰكنه محفوظ بالعربيّة تحت عنوان "في رفع الأشياء الثقيلة"، وهو يتناول الميزان بالبحث. كانت هٰذه المصنّفات تُدخِل إلى الغرب أوّل تعريف (معروف) للوزن النوعيّ والنزوع إلى المعالجة الهندسيّة لهٰذه المشكلات، وقد برهن ثابت بن قرّة، كما فعل گاليليو في وقتٍ لاحق، على قانون الرافعة عن طريق العلاقة الهندسيّة القائمة بين الأقواس المرسومة [لدى الرفع] وأذرعة هٰذه الأداة، وعرف تحديد مراكز الثقل، وتناول المشكلات المرتبطة بالميزان... إلخ. وقد أخذ جورداتوس نيموراريوس هٰذه الأفكار وضمّنها في مصنّفه المسمّى *Liber de ponderibus* المشتقّ بصورةٍ غير مباشرة قطّ، عن أصلٍ عربيّ، والذي يُشكّل نقطة الانطلاق لصياغات متجدّدة ازدادت ابتعادًا شيئًا فشيئًا عن النموذج الأصلي.

حواشي المؤلّف

1. راجع كتاب "أصل المدرسة النظاميّة ببغداد"، ١ (١٩٢٨ ريبيرا)، صص ٣٦١ـ٣٨٣، و[كتاب] "التعليم بين المسلمين الإسبان [الأندلسيّين]"، ١ (١٩٢٨ ريبيرا)، صص ٢٢٩ـ٣٥٩، ولا سيّما صص ٢٤٢ـ٢٤٣.

ونستطيع أن نتبيّن الوصف الذي يُقدّمه السيوطي عن أصل هٰذه "الجامعات" المشرقيّة. وفيما يلي أُقدّم ملخّصًا لها:

كان نظام الملك (ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)، الذي اشتغل وزيرًا للسلطان ارسلان، أوّل من أنشأ المدرسة في الإسلام. لقد أسّس المدرسة النظاميّة في بغداد وبنىٰ اخرىٰ في نيسابور. وعمل الناس علىٰ تقليده فشيّدوا مؤسّساتٍ عديدة من هٰذا الصنف.

وحين أصبح صلاح الدين الأيوبي سلطانًا علىٰ مصر (٥٦٩ـ٥٨٩هـ/ ١١٧٤ـ١١٩٣م)، لم تكن في هٰذا البلد المدارس بعد [!]. وعندئذ أعطىٰ أوامره ببناء المدرسة التي تحمل اسمه، وأراد لها أن تُسمّىٰ "تاج المدارس" لأنها كانت أكبر مدرسةٍ في العالم. وقد عيّن مديرًا ومفتّشًا لها الشيخ الخبوشاني وخصّص له مرتّبًا شهريًّا من ٤٠ دينارا، مضافًا إليها ١٠ دنانير مكافأةً له علىٰ تفتيشه لممتلكات الأوقاف، وحظي كلّ يومٍ بـ ٦٠ رطلًا من الخبز و"روسين" من ماء النيل. وفي عام ٦٨٧هـ/ ١٢٧٩م، خَلفه في رئاسة المدرسة تقي الدين، الذي خُصّص له نصف هٰذه المكافآت.

يجوز لنا، إذن، أن نقول إنّ هٰذه المدارس الأوّليّة، كما في جامعاتنا، ١. كانت مؤسّسة عامّة، ٢. وأنّ الدولة كانت هي التي تسمّي الرئيس، ٣. وتخصّص [للمدرسة] أملاكًا لمتابعتها نشاطها، ٤. وتمنحها مساعداتٍ نقديّةً أو عينيّة.

2. نشر عبد الرحمٰن بدوي النصّ العربي لكتاب "مختار الحِكَم ومحاسن الكَلِم" (مدريد ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م).

3. قام بنشره پابلو لوثانو وكاسيلا (مدريد، ١٧٩٣). والأصل البعيد لهٰذا الكتاب هو

الكتاب الفارسي "جاويدان خرد" (الحكمة الخالدة *Sapientia Perennis*)، الذي يتضمّن أقوالًا مأثورة مأخوذة عن فلاسفةٍ وفقهاءِ لغةٍ هنودٍ ويونانيّين وفُرس، وبعضِ الأمثال العربيّة. وينقسم هٰذا الكتاب إلىٰ ستّة أقسام، يضمّ الخامس منها أقوالًا مأثورة منسوبةً إلىٰ سقراط، وهرمس، وديوجينوس، وهوميروس، وفيثاغوراس، وأفلاطون، وأرسطوطاليس، وشخص يُدعىٰ سيس، من أهل طيبة، ولا نعرف عنه سوىٰ أنه عاش في نهاية القرن الأوّل للميلاد.

4. راجع "كتاب الأحلام المترجم من اليونانيّة إلىٰ العربيّة"، نشره توفيق فهد في طبعة مع التحقيق النقدي (دمشق، ١٩٦٤). ولا يتضمّن سوىٰ الأجزاء الثلاثة الأولىٰ من الخمسة التي يتألّف منها الأصل اليونانيّ.

5. راجع، في شأن هٰذا المؤلّف [ابن سيرين]، ما ورد في *IHS*، ١، ص ٥٥٨، وفي *HMS*، ٢، ص ٢٩٢، وفي *EIˡ*، ٢ (١٩٠٥)، ص ٣٨. وترجع أقدم الشواهد إلىٰ ابن سعد (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م) وإلىٰ "الفهرست"، ٣١٦؛ ويقدّم القزويني سيرة حياته، ويُلاحظ فيها أثر "يوسف" التوراتي حسبما ورد في القرآن. كان [أبو بكر محمّد بن سيرين]، كما أورد القزويني، «*شابًّا حَسَنَ الوجه، بزّازًا [بائعًا للبَزّ، اي الثياب] طلبـ[ـت منه إحدىٰ] نساء الملوك ثيابًا للشر[اء]، فلمّا حصل في دارها مع ثيابه راودته عن نفسه، فقال: "امهليني حتّىٰ أقضي حاجتي فإني حاقن!"، فلمّا دخل بيت الطهارة لطّخ جميع بدنه بالنجاسة وخرج، فرأته علىٰ تلك الحالة، فنفرت منه واخرجته. وحُكي أنه رأىٰ يوسف الصدّيق عليه السلام في نومه، [فقال له: "يا نبيّ الله، حالك عجيب مع أولٰئك النسوة!"، فقال له: "وحالك أيضًا عجيب!"]. أعطاه الله علم تأويل الرؤيا*»، راجع كتاب "آثار البلاد وأخبار العباد" [القزويني، بيروت: دار صادر، طبعة مصوّرة، د. ت، ص ٣١١].

6. [من كتاب] "تعبير الرؤيا" لابن قتيبة، نقلًا عن ت. فهد "العرافة..."، ص ٣٢٣. راجع أيضًا مقال ت. فهد "الأحلام وتفسيرها"، المنشور في *Sources Orientales* ٢ (باريس، ١٩٥٩) صص ١٢٥ـ١٥٨.

7. أي الأسلوب ذاته الذي اتّبعته الاستخبارات الإنكليزيّة في الحرب العالميّة الأخيرة بتزوير مجلّة علم التنجيم الألمانيّة *Der Zenit*!

8. يُبيّن الرازي بوضوح أنه ينبغي أن تؤخذ مؤشّراتٌ مختلفة بعين الاعتبار، ولٰكنّ أهمّ المؤشرات جميعًا شكل القدمين، ولعلّ هٰذا الرأي يرجع بأصله إلىٰ أفلاطون.

9. كان العرب يشيرون إلىٰ هٰذا المصنّف، علىٰ السواء، تحت اسم "اقتصار أحوال الكواكب" و"كتاب المنشورات". ولعلّ "الفهرست" يُلمح إليه تحت اسم "كتاب سِيَر السبعة".

10. أتّبعُ هنا، علىٰ وجه التحديد، الشرح الشفويّ الذي تقدّم به الأستاذ البولوني ر. بالاسز، الذي عُرضت مساهماته حول هٰذه الموضوعة في المؤتمر الخامس لتاريخ القرون الوسطىٰ (مدريد ـ قرطبة ـ غرناطة، ١٩٧١) وفي ندوة تورون (١٩٧٣) حول كوبرنيكو.

11. يُسَلِّم الآن أو. پيدرسن، في النشرة المسمّاة *Correo de la Unesco*، بإمكان هٰذا التأثير.

12. لم يرد في كتاب "في السماء" ذكر أرستاركوس، الذي تُشكّل فقرةً قصيرة، أفردها أرخميدس له في كتابه "المرمال *Arenario*"، المصدرَ الأساس والوحيد للمعلومات حوله. وقد بقي هٰذا الكتاب مجهولًا من العرب، ولٰكنهم كانوا علىٰ علم بهٰذه الفرضيّة من خلال الإحالة إلىٰ فيلولاوس الواردة في كتاب "في السماء" عينه.

13. بالمقابل، ينبغي أن يتزامن عيد الفصح اليهودي مع ١٤ نيسان، ومع بدر التّمام، لأنّ التقويم قمري ـ شمسي.

14. أي [الكرة] اليونانيّة كما يصفها أراتوس.

15. في القرون الوسطىٰ، كان يتمّ التمييز بين ساعاتٍ متساوية ذات قيمة ثابتة علىٰ مدىٰ النهار والليل، وبين ساعاتٍ غير متساوية أو زمنيّة، وكانت تساوي ١\١٢ من القوس النهاري أو الليلي لمكان معيّن.

16. أتّبعتُ الوصف الذي قدّمه و. هارتز في EL^2، ١، ص ٧٤٩، تحت مادّة الأسطرلاب.

17. ينسب "الفهرست"، تحت مادّة بابس [الرومي]، الترجمةَ إلىٰ ثابت بن قرّة.

18. نُشرت ترجمة هرمان الدلماتي عام ١٥٣٦ في مدينة بال (بازيليا)، وبعد ذٰلك بمدّة يسيرة (١٥٥٨) في البندقيّة، مع حواشٍ كتبها ف. كومّادينوس الذي استبقىٰ حواشي مسلمة علىٰ النصّ اليوناني، بينما تمّ إغفال هٰذه الحواشي في الطبعة التي قام ج. ل. هايبرگ بتحقيقها النقدي، وعنوانها *Claudii Ptolemai opera quæ extant omnia* (١٩٠٧)، وفي الترجمة الألمانيّة التي أنجزها ج. دريكر. ويحمل النصّ العربي الذي يشتمل علىٰ الحواشي عنوان

"تعليق على كتاب بطليموس في بسط الكرة". راجع كتاب "مسلمة..." لـ خ. ڤيرنيت و أ. كاتالا.

19. تُرجِم هٰذا العمل، الذي بقيت أجزاء منه باللغة اليونانيّة، إلى العربيّة (وهٰذه الترجمة مفقودة).

20. [هٰذا الأسطرلاب] موجود في متحف الإرميتاج، ورقمه ٥١٢ VC.

21. كانت الساعات التكراريّة **anafóricos** في البداية «خرائط سماويّة دوّارة يمكن رصدها من خلال ثقوب صغيرة تسمح برؤية طلوع الشمس والنجوم وغروبها»، وقد اُكتُشفت أجزاء اُثنتين من هٰذه الآلات الرومانيّة في سالزبورگ وفي [منطقة] القوج.

22. راجع وصف اُبن حيّان [لهٰذه الآلة] في كتاب "المقتبس" (طبعة م. ع. مكّي، بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) صص ٢٨٢ـ٢٨٣، حيث يقول حرفيًّا: «وعمل عبّاس بن فرناس *الآلة المسمّاة "المنقانة لمعرفة الأوقات"، فأحكمها ورفعها إلى الأمير محمّد [ابن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام]، ونقش فيها هٰذه الأبيات:*

ألا إنني للدّين خيرُ أداةِ	إذا غاب عنكمْ وقتُ كلِّ صلاةِ
ولم تُرَ شمسٌ بالنهار، ولم تُنِر	كواكبُ ليلٍ حالكِ الظُّلماتِ
بيُمن أمير المسلمين "محمّدٍ"	تجلّت عن الأوقاتِ كلُّ صلاةِ»

وتلي تتمّة هٰذا النصّ، بضعُ سطور ـ يتخلّلها بياضٌ مع الأسف ـ فيها وصفٌ لاُختراع آخر من اُختراعات هٰذا القرطبي الشهير، ولربّما كان بمثابة سابقةٍ لأحواض الزّرقيال المشهورة.

23. [النصّ] لتريتيميوس، نقلًا عن ج. د. پرايس في كتابه "آليّات..." **Mecanismos...**، ص ٣١٥، رقم ٨. وقد كان الأسطرلاب الذي وصفه اُبن قنفذ من هٰذا الصنف ذاته... وكذٰلك أسطرلاب دمشق الذي أعجب به الرحّالة الأندلسي اُبن جُبير عام ١١٨٦م [٥٨٢هـ].

24. الرواية التي يُقدّمها البيروني في كتابه "التفهيم لأوائل صناعة التنجيم".

25. ... أمّا نجم "الجديد الأعلى" **Supernova** [الذي ظهر] عام ١٠٥٤م وعُرف من المصادر الصينيّة، فلا يبدو أنه لفت اُنتباه المؤلّفين العرب والمسيحيّين [؟].

26. راجع كتاب المقّري المنتخب *Analectes* ١ (ليدن، ١٨٦١) ص ٢١٦، حيث يُبيّن لنا

أنّ أصله من الجزيرة الخضراء، وأستُدعي إلىٰ قرطبة لأنه كان «بطليموس عصره براعةً وفطنةً».

27. راجع كتاب "تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر"، صص ٢٥٨ـ٢٥٧.

28. راجع كتاب م. نظيف بك: "الحسن بن الهيثم، بحوثه وكشوفه البصريّة"، ١، (القاهرة، ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م)، صص ٤٢٥ـ٤٢٨.

29. يبدو أنّ المؤلّف العربي الوحيد، الذي أستخدمها دون تحويرات، هو المشرقي الكوهي... وفي العالم اللاتيني، ناقشها جيل دي روما (ت ١٣١٦م) الذي حوّل، مثلًا، مفارقة آشيل (أكيلس) والسلحفاة إلىٰ مفارقة الحصان والنّملة.

30. راجع مثلًا الملخّص الذي يُقدّمه عنها أبن سينا نفسه في كتابه باللغة الفارسيّة "دانش ـ نامه" [رسالة أو كتاب العلم].

31. علىٰ سبيل المثال، تجربة الأنبوبة التي لا يتدفّق منها السائل الذي تحتويه ما دمنا نسدّ بإصبعنا فوهتها العليا.

32. راجع مقال خ. ڤيرنيت وأ. كاتالا "أرخميدس العربي"، مجلّة *AL-Andalus* ٣٣ (١٩٦٨) صص ٥٣ـ٩٣.

33. كتاب *De ponderoso et levi* ويُرجّح أنّ ثابت بن قرّة هو الذي ترجمه إلىٰ العربيّة. أمّا المُترجِم إلىٰ اللاتينيّة فمجهول.

الفصل الثامن

العلوم في القرن الثالث عشر [م] وما تلاه: السيمياء، والتقنيّة، والملاحة

- السيمياء
- التقنية
- الملاحة

الفصل الثامن

العلوم في القرن الثالث عشر [٧ هـ] وما تلاه: السيمياء، والتقنية، والملاحة

السيمياء:

في القرن الثاني عشر [٦ هـ] ـ كما رأينا فيما تقدّم ـ بدأ تسرُّب السيمياء العربيّة إلىٰ أوروبة، ولٰكنّ عدد الترجمات في هٰذا المجال كان، من ناحيتَي الكمّ والكيف، أدنىٰ بكثيرٍ من تلك المتعلّقة بالعلوم البحتة. أمّا في القرن الثالث عشر [٧ هـ]، فقد انعكست الأمور، وتسرّبت إلىٰ الغرب مجموعةٌ ضخمة من الموادّ الشرقيّة المتّصلة بهٰذا الميدان، ولٰكنها اتّخذت شكلَ أعمالٍ أُعيدت صياغتها، أكثر ممّا هي ترجماتٌ علىٰ وجه التحديد، ولا يُعرف، في أغلب الأحيان، مَن قام بها وكيف تمّ إنجازها. ولا مجال للشكّ في أنها عربيّة المصدر، كما يتبيّن من المصطلحات المستخدمة: فالسيميائيّون[1] يستعملون من الأدوات الإنبيق الماسوري *alambique*، والقربة *carboye*... إلخ. وتتمّ فيها المعالجات وتُستخرج القلويّات *alcalies* والقطران *alquitrán*، والكُحُول *alcohol*، والبَوْرق *[bórax] atincar*، والإكسير *elixires*، والنّفط *nafta*، والنّطْرون *natrón*، وعناصرُ أخرىٰ كثيرةٌ تتحدّر أسماؤها من العربيّة، أو أنها وصلت إلينا بعد تكييف صيغتها مع ما يتّفق ومبنىٰ العربيّة.

ويستحقّ عددٌ من هٰذه الكلمات شرحًا أكثر تفصيلًا بعض الشيء. لقد كان الهدف الأساسيّ للسيمياء أن تُحوِّل، إلىٰ ذهبٍ أوفضّة، معادنَ ليست كريمةً بقدْرهما، وذٰلك عن طريق اَستخدام حجر الفلاسفة أو "الإكسير". فهٰذا الأخير ـ إذا ما أخذنا بالتعليل الاَشتقاقيّ الشعبيّ الذي يجعل مصدر الكلمة "الكَسْر"ـ يفعل فعله بصفة "كاسر"، محطِّمًا الصورة الدنيا للموادّ ليُحوِّلها إلىٰ صورةٍ كاملة. فكان من شأن الإكسير الأحمر الشماح بالحصول علىٰ الذّهب، أمّا الأبيضُ فيُحصَل به علىٰ الفضّة، وكانت تُستخدم لصنع هٰذين المعدِنَين عناصرُ من عوالم الطبيعة الثلاثة، غالبًا ما تكون غريبةً جدًّا (الدم، الأفاعي، مَنِيّ الأسد... إلخ). ومع مرّ الزمن، وبالتوازي مع ما حصل في ميدان السيمياء، اَفترض الأطبّاء وجود إكسيرِ لحياةٍ مديدة وهبّوا للبحث عنه، وبذلوا، لبلوغ هٰذا الوهم، قَدْرًا عظيمًا من البراعة؛ وكثيرًا ما اَستَخدَم الأدبُ القصصيّ الشعبيّ، المسيحيُّ منه والإسلاميّ، شخصيّةَ السيميائيّ لتحقيق عددٍ من أنجح حكاياته، وعلىٰ سبيل المثال، الليالي ٧٣٨ـ٧٤٣ في "ألف ليلة وليلة". وللحصول علىٰ الإكسير، كانوا يعتمدون، بوجه العموم، علىٰ طريقة التقطير التفاضُلي، وهٰذا سبب اَستخدام أدواتٍ مثل الإنبيق، وهو جهازٌ قديم الأصل أخذ شكلَهُ النهائيّ في العالم الإسلاميّ؛ وقد وصفه الإشبيلي اَبن العوّام بالتفصيل لدىٰ تناوله موضوع تقطير ماء الورد[2]، وفي رأيه أنه يتكوّن من القَرْعة، والإنبيق أو الرأس، والقابلة، وأدّىٰ ما طرأ لاحقًا، من تطويرٍ لهٰذا الجهاز، إلىٰ إدماج قسمَيه الأوّلَين في قطعةٍ واحدة.

ظهرت السيمياء الباطنيّة ممثّلةً في الترجمة اللاتينيّة لأحد أعمال "أرتيفيوس Artefius!"، وهو مؤلِّف عربي لا نعرف عنه شيئًا، وإن سعىٰ بعضهم إلىٰ توحيد هُويّته، دونما أساس، مع الطُغْرائي أو اَبن عميل. ولا مجال للشكّ في أنّ العربيّة هي مصدر الكتاب المسمّىٰ *Clavis sapientiæ*[3]، لأنّ ليڤي ديلّا ڤيدا عثر علىٰ النصّ الأصلي، ولأنّ ألفونسو العاشر أمر بترجمته إلىٰ الإسبانيّة. ولعلّ المؤلِّف، أيًّا كانت هُويّته، قد عاش في القرن الثاني عشر، ولٰكنه يتظاهر بأنه تلميذ آپولونيوس دي تيانا [الطواني]، ويُحاول تقديم رؤية قوامها فيض العناصر عن الطبيعة، وهٰذه، بدورها، ولّدها العقل الأوّل *Logos*، وهو علّة العلل جميعا.

لٰكن، ربّما كان من أهمّ الأعمال المندرجة في هٰذا الصنف، الكتاب الذي ألّفه المجريطي أبو مَسْلَمة، حوالي عام ١٠٥٦م [٤٤٨هـ]، وعنوانه "غاية الحكيم"، الذي أمر بترجمته إلىٰ الإسبانيّة في ١٢٥٦م ألفونسو العاشر الحكيم. وقد حظي هٰذا العمل بٱنتشارٍ واسع في الغرب بفضل الترجمة اللاتينيّة المنسوبة إلىٰ شخصٍ يُدعىٰ "پيكاتريكس"، ولعلّ هٰذا الاسم تحريفٌ لأبوقراط، الذي ربّما يكون نُسب إليه في الأندلس الكتابُ الأصليّ، بغيرِ وجه حقّ، مثلما نُسبت إليه بعض المعارف الفلكيّة. ولهٰذا الكتاب دلالته، لأنه يحتفظ بصلواتٍ مرفوعة إلىٰ الكواكب، شبيهةٍ جدًّا بصلوات الصابئة في حرّان[4]، وبمجموعةٍ من الأساليب التنجيميّة السحريّة (مثلًا، القدرة الجنسيّة للعددين ٢٢٠ و٢٨٤، وكيفيّة صنع طِلَّسْم لهدم مدينة) التي تدلّ علىٰ أصلها الوثنيّ، وهي، خُلُقيًّا، تختلف ٱختلافًا كلّيًّا عن الأخلاق الإسلاميّة والمسيحيّة معًا، ولٰكنها تتّفق كثيرًا ـ مُسَوِّغةً ترجمةَ العمل ـ وعقليّةَ ذٰلك العصر، الملوّعة بالأهوال الألفيّة، والتي كانت تعتقد بنجاعة القوىٰ الخفيّة. من ذٰلك مثلًا، الطُّرفة التي تروي حكاية طفلٍ لسعته عقربٌ، فشُفي بتناوله حبّةً من "البادْزَهْر"، الذي كانت خصائصه العلاجيّة تحظىٰ بالتقدير، علىٰ نحوٍ واسع، حتّىٰ القرن الثامن عشر. وهٰذا العلاج، إذا ما أخذنا بما للكلمة من ٱشتقاق (بادْزَهْر بالفارسيّة، ضدّ السّم)، ربّما كان من ٱكتشاف الفرس*[5].

• تحدّث القدماء عن هٰذا الحجر دواءً ناجعًا ضدّ السّموم خاصّةً، وأطنبوا في ذكر منافعه. ولعلّ أقدمَ مَن نُقِل عنه في ذٰلك هو أرسطوطاليس، إذ نَسَب إليه ٱبنُ البَيْطار تصنيفًا لأنواع البادزهر بحسب الألوان، "جامع المفردات.."، ١، ٨١.

وورد عند البيروني أنّ «معدن البادزهر في أقاصي الهند وأوائل الصين... [وأنّ] مَن سُقي من حُكاكِهِ زنة ٱثنتي عشرة شعيرة نفض السُّمَّ عن بدنه بالعرق والرشح»، "الصيدنة في الطبّ"، ١، ٨٨.

ويقول الطبيب ٱبن جُمَيْع المصري: إنّ النوع «الحيواني منه ـ وهو الموجود في الأبابل ـ أفضل من جميع هٰذه الأوصاف، حتّىٰ إنه إذا حُكّ بالماء علىٰ مِسَنّ، وسُقي منه كلّ يوم وزن نصف دانق للصحيح، علىٰ سبيل الاستعداد والتقدّم بالحَوْطة، يقاوم السّموم القتّالة...»، "جامع المفردات" ١، ٨٢. ←

كما يَظهر ذكرُ شخصيّاتٍ أُسطوريّة، مثل أگاتوديمون [عاذيمون]، الإِلٰه الإغريقي ـ المصري، الذي تُقدِّمه لنا الرواية العربيّة بوصفه ٱبن هرمس الثاني ووالد توت، والذي قد تتوحّد هويّته مع حورُس، ويجعل منه بعضُهم معلّم اسكولاپيوس وهرمس الثالث. وتفيد شهادة لأبي حامد الغرناطي أنّ أگاتوديمون، وهرمس الثالث، و"صاب" ـ مَن وَهَبَ ٱسمَهُ للصابئة ـ مدفونون في الأهرام[6].

دخلت الكيمياء بحصر المعنىٰ ـ السيمياء الظاهريّة ـ مع ترجمة الكتابات المنحولة للرازي وجبر Geber [أو جابر]. فإلىٰ الأوّل، يُنسب كتاب *Arcandorum liber*، ويتضمّن وصف خمسة وعشرين جهازًا، وكتاب "حجر الشبّ والأملاح" *De aluminibus et salibus*[7]، الذي نَدين بترجمته لجيراردو الكريموني. ويُقدّم الرازي في أعماله تصنيفًا عضويًّا للموادّ الكيميائيّة مدرجةً في زُمَر الجمادات والنباتات والحيوانات. ويُثير الثاني، جبر، مشكلاتٍ كبيرةً تتعلّق بحياته ومؤلّفاته. وتُوَحَّد، تقليديًّا، هويّةُ جبر، صاحب المصنَّفات السيميائيّة اللاتينيّة، مع جابر بن حيّان، حتّىٰ مع جابر بن أفلح(!). ويبدو أنه لا مجال للشكّ في وجود ٱقترانٍ وعلاقة بين كلا الاسمين. ولٰكن يحقّ لنا ٱفتراض أنّ جابر لم يكن له وجودٌ حقيقيّ، وأنّ سيرته والأعمال التي تُنسب إليه قد ٱبتدعها، لدواعٍ سياسيّة، المبعوثون الإسماعيليّون في القرنين التاسع والعاشر [٣ و٤ هـ]، ولذٰلك جُعلَ منه تلميذًا لجعفر الصّادق (ت ٧٦٥م [١٤٨هـ])، وتنطوي أعماله علىٰ أوجه شبهٍ مع "رسائل" إخوان الصفا. ومهما يكن من أمر، فإنّ أقدم إشارةٍ إلىٰ وجوده وردت لدىٰ ٱبن عميل وٱبن وحشيّة، وإنّ مؤلّفًا ٱتّصف بكثيرٍ من الجِدّيّة والتوثيق، مثل ٱبن النديم، يُناقش

← والكلمة فارسيّة "پاد" أو "باد"، ضدّ أو مضادّ، و"زَهر"، السّمّ. ويمكن ترجمتها بلغة الطبّ المعاصرة *antidote*.

وقيل إنّ هٰذه المادّة هي تجمُّدات كرويّة أو بيضاويّة تتكوّن في مِعَد الحيوانات أو في مثاناتها! وكلّ ما ذُكر من خواصّها لا يُصدَّق منه شيء!

رأي مَن جزموا بأنه لم يكن له وجود قطّ. أمّا أبو سليمان المنطقي (ت حوالي ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م)، فيؤكّد أنه عرف شخصيًا مؤلِّف المصنّفات "الجابريّة"، وهو المدعو الحسن بن النَّكَد الموصلي.

وقد أخذت المُدَوَّنات التي صُنِّفت علىٰ هٰذا النحو، ومنها أعمالٌ تحذو حذو ما أنتهجه الرازي، بالتسرُّب إلىٰ العالم اللاتيني مع مصنَّف عنوانه "الكتب السبعون" *Liber de divinitatis de LXX* في ترجمةٍ أنجزها جيراردو الكريموني، ولٰكنّ هٰذه المجموعة من المدوّنات حقّقت أزهىٰ أيّامها عندما شرع مترجمٌ في أواسط القرن الثالث عشر [٧ هـ] ـ وهو سيميائيٌّ مجهول الأسم يُجيد العربيّة ويعمل في إسبانيا ـ في إعداد ترجماتٍ لاتينيّة معدّلة لجميع النصوص السيميائيّة العربيّة التي تقع بين يديه، واضعًا إيّاها بأسم *Geber rex Arabum*، ونجد بينها "كتاب الرحمة" *Liber misericordiæ* ، وقد وردت فيه، علىٰ سبيل المثال، مربّعات سحريّة مثل مربّع زُحَل (١٥):

٢	٩	٤
٧	٥	٣
٦	١	٨

وتتّسم هٰذه المربّعات بقيمةٍ وِقَائيّة، مثل المربّع الذي يمنع المرأة من الحَمْل، والذي يبدو أنّ دخوله إلىٰ أوروبة عن هٰذه الطريق، وأنتشاره بواسطة باراسيلسو، كانا مؤكّدين، لأنه كان يُكتب، في بداية الأمر، من اليمين إلىٰ اليسار.

ويتّسم الكتاب المسمّىٰ *Summa perfectionis magesterii* بنقاط شبه عديدة مع كتاب "عَيْن الصَّنْعة وعَوْن الصَّنَعَة" للكيميائي البغدادي الكاطي (حيًّا ١٠٣٤م [٤٢٥هـ])، ولا بدّ أنه دخل إلىٰ العالم اللاتيني في نهاية القرن الثالث عشر، لأنّ ذكره لا يرد عند القدّيس ألبيرتو الكبير ولا عند روجيه بيكون. وهو يصف مجموعةً من العمليّات تجعل مؤلِّفه رائدًا قديمًا لبلاك ولافوازييه. وتُذكِّر النظريّة، الواردة فيه حول المعادن، بتلك التي يعرضها جابر في "كتاب الإيضاح". ويُنسب

إليه، فضلًا عن ذلك، كتاب *Liber de investigatione perfectionis* وكتاب *De inventione veritatis sive perfectionis*، وكتاب *Liber fornacum*، وكتاب *Testamentum Geberis*، وكتاب *Liber claritatis totius alkimikæ artis*.

ويجدر بنا أن نُدرج، في عداد المصنَّفات العربيّة الأصيلة، التي أسهمت في تكوين السيمياء (كيمياء القرون الوسطىٰ) الأوروبيّة في القرن الثالث عشر، عملين لآبن سينا، [الأوّل] بعنوان *Epistola ad regem Hasen* و[الثاني] *De congelatione et conglutinatione, Lapidibus* ٱلتصاق الأحجار وتجمّدها [أو الصخور]؟ [وهو العمل ذاته المشار إليه في الفصل التاسع حول تشكّل الأحجار والصخور]، (وهٰذا الأخير جزءٌ من موسوعته الشهيرة "الشفاء"). وفي كلا العملين المذكورين، يتكلّم عن التحويل، ولٰكن ليؤكّد أنّ الآنتقال إلىٰ الذهب أو الفضّة أمر مستحيل، وأنه لا يُمكن سوىٰ الحصول علىٰ شَبَهٍ، علىٰ بديل (صِبغة) للمعادن الثمينة[8]. وكانت هٰذه الصِبغة ممكنةً بفضل النظريّة "الجابريّة" حول مبدأي الكبريت والزئبق، اللذين ليسا هما تمامًا العنصرين اللذين نُطلق عليهما هٰذين الآسمين، وإنما هما مادّتان ٱفتراضيّتان تُذكِّر الأولىٰ منهما بالكبريت، بسبب طبيعتها الحارّة والباردة، وتذكِّر الثانية بالزئبق، بسبب طبيعتها الباردة والرطبة. لذٰلك «ليس في وسع السيميائيّين أن يُحوّلوا، حقًّا، الأصناف. فهم يستطيعون الحصول علىٰ تغيُّراتٍ ظاهريّة مثل طلاء الأحمر بالأبيض فيبدو شبيهًا بالفضّة، ويلونٍ أصفر فيبدو شبيهًا بالذهب»، لأنّ ما يُعطي خصائص كلّ معدِنٍ ليس فقط نِسَبُ مبدأي الكبريت/ الزئبق، بل درجةُ صفاته أيضًا.

وفي تلك الآونة ذاتها، ظهر كتابان آخران، منحولان، منسوبان إلىٰ ٱبن سينا. ويتعلّق الأمر بالكتاب المسمّىٰ *Liber Aboali Albincine de Anima in arte alchimiæ*، الذي لا بدّ أنه قد أُلّف في الأندلس بعد ١١٠٠م [٤٩٣هـ]، إذ يرد فيه ذكر المرابطين؛ والكتاب المسمّىٰ *Lapidis philosophici*، الذي يستقي مادّته من العمل السابق ومن كتاب "الخليط الفلسفي [المنتخبات]" *Turba philosophorum*. وقد كانت هٰذه الأعمال الأساس الذي قامت عليه المصنَّفات السيميائيّة التي تُنسب إلىٰ

ميگيل إسكوتو وإلىٰ ڤينسنته دي بوڤيه (حيًّا ١١٩٠ـ١٢٦٤م) الذي يدلّ، في [كتابه المسمّىٰ] *Speculum maius*، علىٰ اطّلاعه ليس فقط علىٰ ابن سينا بل علىٰ الرازي أيضًا، ويُشكِّل كلاهما أهمّ مصادره.

وقد اندمجت هٰذه المعارف في الأعمال ـ الأصيلة والمنحولة ـ الموضوعة باسم رامون يول، ولا سيّما باسم آرنو دي ڤيانوڤا، الذي كان، فضلًا عن أفكاره حول العلوم الخفيّة، رجلًا عمليًّا ألمّ بإعداد بعض المشروبات، ويجوز الافتراض بأنه كان علىٰ معرفةٍ بحامض النتريك، الذي وُصِف لأوّل مرّةٍ في المصنّف المسمّىٰ *Summa perfectionis* لجبر، ثمّ ورد ذكره في أعمالٍ زائفة مختلفة ليُول، وعلىٰ معرفة أيضًا بالماء الملكي. وربّما ندين إلىٰ آرنو، فضلًا عن ذٰلك، بترجمةٍ مُنجزةٍ بتصرُّف لنصٍّ بالعربيّة يرجع بأصله إلىٰ السيميائي الإغريقي زوسيموس.

التقنية:

كان الإنسان الأوروبي في القرن الثالث عشر [٧ هـ]، وهو ما زال بعدُ عاجزًا في الواقع أمام الطبيعة، يُراوده الأمل بأنه سيسيطر عليها في نهاية المطاف. وكان هٰذا الشعور، الذي أوحت به العقيدةُ السحريّة الملازمة للسيمياء وللعلوم الخفيّة، يترسّخ فيما يبدو مع كلّ خطوةٍ من الخطوات الصغيرة التي كان أهل العلم والحِرَفيّون يُحقّقونها يومًا بعد يوم. لذٰلك لا تبدو فارغةً تكهُّناتُ روجيه بيكون **Roger Bacon** في كتابه المسمّىٰ "*Epistola de secretis operibus, 4*":

> *«لسوف يُصبح في مقدورنا بناء آليّات للإبحار دونما مجاذيف، فيتمكّن رجلٌ بمفرده من تحريك أكبر السُّفن وبسرعةٍ أعظم ممّا لو كانت عامرةً بالملّاحين. وسيصبح في مقدورنا أن نصنع مركباتٍ تسير بسرعةٍ عظيمة جدًّا، دونما خيول؛ وهٰكذا كانت ـ في رأينا ـ العربات المسلّحة بالمناجل الباترة التي كان يتقاتل بواسطتها الرجال في العصور القديمة. ولسوف يُصبح في مقدورنا صنع آلاتٍ طائرة، فيتمكّن رجلٌ جالس في الوسط من تشغيل آليّةٍ ما، فتضرب بذٰلك بعضُ الأجنحة الاصطناعيّة الهواء، كما يفعل الطائر في طيرانه.*

وستُصنع آليّاتٌ صغيرة الحجم تستطيع، في الحالات المستعجلة، أن ترفع أو تُنزل أثقالاً عظيمة، وذلك أنّ رجلًا تمكّن، بوساطة آلةٍ طولها ثلاث أصابع وعرضها ثلاث، وقد تكون أصغر حجمًا من ذلك، أن يُحرّر نفسه وكذلك أصدقاءه من كلّ أخطار السجن، وأن يصعد وينزل. وسيُصبح في مقدورنا أن نصنع آلة يُمكن للشخص بوساطتها أن يجذب إليه آلاف الأشخاص خلافًا لإرادتهم، وأشياء أخرىٰ كذلك. وسيكون في مقدورنا، أن نصنع آلاتٍ نمضي بها في البحر والأنهار، حتّىٰ الأعماق أيضًا، دونما خطر، لأنّ الإسكندر الكبير آستخدم واحدةً منها لمشاهدة سرّ الأعماق، حسبما روىٰ عالم الفلك إتيكوس. تمّ بناء هٰذه الآلات في العصور القديمة، كما صُنعت، في أيّامنا هٰذه، ربّما بآستثناء الآلة الطائرة التي لم أُشاهدها، ولا أعلم أنّ أحدًا قد شاهدها، وإن كنت أعرف خبيرًا قد تصوّر طريقة صنعها! وبالإمكان صنع أمثال هٰذه الأشياء، علىٰ نحوٍ غير محدود تقريبًا، ومنها، علىٰ سبيل المثال، تشييد جسور عبر الأنهار، دونما أعمدة أو دعامات أخرىٰ، وصنع آليّاتٍ وأجهزة لم يُسمع بها».

تتبدّىٰ، في هٰذه الفِقْرة، مجموعةُ أمورٍ حدسيّة قائمة: إمّا علىٰ روايات المسافرين الذي آطّلعوا، مثلًا، علىٰ التقدّم التقنيّ الصيني؛ وإمّا علىٰ نصوصٍ أدبيّة كانت ذائعةً إلىٰ أقصىٰ حدٍّ في تلك الأيّام، من ذلك مثلًا أسطورة الإسكندر (نواقيس الغطس)[9]، وإمّا علىٰ وقائع كان يُزعَم أنها حدثت فعلًا. وقد حدّد نيدام الزمن الذي آستدعاه آنتقال مبتكراتٍ صينيّة معيّنة إلىٰ أوروبة، وليس دومًا عن طريق الأندلس، تأخّر آنتقال منقلة البنّائين تسعة قرونٍ إلىٰ عشرة، وطقم شدّ حيوانات الجرّ ستّة قرون إلىٰ سبعة، وآلات غزل الحرير ثلاثة قرون إلىٰ ثلاثة عشر، وقوس الفولاذ بوصفه سلاحًا فرديًّا ثلاثة عشر قرنًا، والمدفعيّة والصواريخ الناريّة بوصفها أدواتٍ حربيّةً أربعة قرون إلىٰ ستّة (ومن الغريب أن نُلاحظ أنّ كلًّا من العرب والأوروبيّين، لم يكونوا في البداية يُميّزون، لغويًّا، بين النّار اليونانيّة والقنابل الجديدة)، وطيّارات الورق والألعاب الطائرة الأخرىٰ التي يستخدمها الأطفال حاليًّا.

ثلاثة عشر قرنًا إلىٰ أربعة عشر، والجسور المعلّقة عشرة قرون إلىٰ ثلاثة عشر، وسلسلة هويسات الأقنية سبعة قرون إلىٰ سبعة عشر، وقائم السفينة الخلفي أربعة قرون، والخَزَف الصيني أحد عشر قرنًا إلىٰ ثلاثة عشر!

إنّ خطوات ٱنتقال بعض هٰذه الاكتشافات نحو الغرب، من خلال الأندلس، موثّقةٌ كما ينبغي. وقد رأينا، آنفًا، كيف وصل الحرير والورق إلىٰ قرطبة في القرن التاسع [٣ هـ]. وٱعتبارًا من هٰذا التاريخ، بدأ دخولهما، بشكلٍ بطيء لٰكنْ ثابت، إلىٰ الدول المسيحيّة.

وعلاوةً علىٰ أدلّة الآثار ـ لقد وجدت، في ثنايا مخطوطات من القرنين العاشر والحادي عشر، صفحاتٌ من الورق الأندلسي ـ لدينا الشهاداتُ الأدبيّة: يذكر بيدرو المبجّل الورق المصنوع من الخرق في كتابه *contra judeos, 5*، وفي الحِقْبة ذاتها، يقول الإدريسي إنه في شاطِبَة **Jativa** يُصنع ورقٌ يُصدَّر إلىٰ الشرق والغرب (١١٤٤م [٥٣٩هـ]) *، وكتب ألفونسو العاشر رسائله علىٰ هٰذه المادّة، التي ربّما كانت تُصنع آنذاك في ورشةٍ بطليطلة. وشُرحت طريقة تحضير الورق في كتاب أمير تونس الزيريّ المعزّ بن باديس (١٠١٥ـ١٠٦١م [٤٠٦ـ٤٥٣هـ])، وهو بعنوان "عُمْدة الكُتّاب وعُدّة ذوي الألباب"، ويُفترض أنه كان يضمّ خبرات الصُّناع. وقد أُقيمت النواة الثالثة لإنتاج الورق في إيطاليا (فبريانو، أنكونا) حوالي ١٢٦٨م [٦٦٦هـ]، وٱعتبارًا من تلك الحِقْبة أخذت تظهر شيئًا فشيئًا مراكز جديدة: تروا **Troyes** (١٣٤٨م) ونورمبورگ (١٣٩٠م).

ويبدو أنّ الحرير كان ٱحتكارًا أندلسيًّا حتّىٰ عام ١١٤٦م [٥٤١هـ]، حين ٱحتلّ روجيه الثاني كورينتو، ونقل إلىٰ باليرمو جماعاتٍ من العمّال اليونانيّين، فقاموا بإدخال هٰذه الصناعة إلىٰ إيطاليا. ولٰكنها لم تدخل إلىٰ البندقيّة إلّا بعد الحملة

* يقول الإدريسي: «وشاطبة مدينة حسنة... ويُعمَل بها [من] الكاغَد [القرطاس] ما لا يوجد له نظيرٌ بمعمور الأرض، ويعمُّ المشارق والمغارب...»، "نزهة المشتاق في ٱختراق الآفاق"، ٥٥٦.

الصليبيّة الرابعة، وٱعتبارًا من ذلك التاريخ ٱنتشرت هٰذه المعرفة في أوروبة، وبلغت أوكسبورگو عام ١٣٠٠م.

ويبدو أنّ الاستفادة من طاقة الريح لتشغيل الطواحين، ٱختراعٌ ترجع أصوله إلىٰ أواسط آسيا[10]. إذ يروي المؤرّخ العربي الطبري، علىٰ لسان قاتل الخليفة عمر [بن الخطّاب] (٦٤٤م [٢٣هـ])، المسيحيّ أبي لؤلؤة، الشهادةَ التالية: «*لو أردتُ أن أعمل رَحًا تطحن بالريح فعلتُ!*»*. أمّا المسعودي فيُحدِّد موطن هٰذا النوع من الطواحين في سجستان، المنطقة التي تقع علىٰ الحدود بين فارس وأفغانستان، مومئًا إلىٰ ٱستخدامها المزدوج، بوصفها رافعةً للماء من أجل الريّ، ومطحنةً

* ورد عند الطّبَري، في "ذكر الخبر عن وفاة عمر"، أنّ الخليفة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه «خرج يومًا يطوف في السوق، فلقيه أبو لؤلؤة ـ غلامُ المُغيرة بن شعبة ـ وكان نصرانيًّا، فقال: "يا أمير المؤمنين، أَعْدِني علىٰ المغيرة بن شعبة [أي: أَعِنّي وٱنصُرني]، فإنّ عليّ خراجًا كثيرًا"،

«قال: "وكم خراجك؟"،

«قال: "درهمان كلّ يوم"،

«قال: "وأيش صناعتك؟"،

«قال: "نجّار، نقّاش، حدّاد"،

«قال: "فما أرىٰ خراجك بكثير علىٰ ما تصنع من الأعمال. قد بلغني أنك تقول: 'لو أردتُ أن أعمل رَحًا تطحن بالريح فعلتُ'!"،

«قال: "نعم"،

«قال: "فٱعملْ لي رَحًا!"،

«قال: "لئن سلمتَ لأعملنّ لك رحًا يتحدّث بها مَن بالمشرق وبالمغرب!"،

«ثمّ ٱنصرف عنه.

«فقال عمر رضي الله عنه: "لقد توعّدني العبدُ!"...».

"تاريخ الطّبري (تاريخ الأمم والملوك)"، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: دار سويدان، د. ت)، ٤: ١٩٠ و١٩١.

للحبوب. وقد عُرفت هذه الأجهزة البسيطة على السواء بـ"الرَّحا" (والرّحى [رَحَوان ورَحَيان، والجمع أَرْحاء]) وبـ"الطاحونة"، وعن هذه الكلمة الأخيرة نشأت الكلمة الإسبانيّة **tahona**.

وفي القرن العاشر [٤ هـ] يتردّد ذكر طواحين الماء، والنواعير، وآلات مائيّة أخرى، في شبه الجزيرة الإيبيريّة. وفي نهايات القرن الحادي عشر، صدر عن الشاعر ابن مَقَانا [الأُشْبُوني، نسبةً إلى أُشْبونة أو لشبونة، عاصمة البرتغال اليوم]، الذي ترك بلاطات ملوك الطوائف لينصرف إلى زراعة أراضيه في القَبْذَاق **Alcabideche** (بالقرب من شِنْتَرة **Cintra**،) والتي لا بدّ أنها لم تكن غنيّةً بالماء، صدر الاعتراف التالي:

وإنْ كنتَ ذا عزم، فلا بدّ من رحًى سحابيّةٍ لا تستمدّ من النبعِ*

وإلى الحِقبة ذاتها، يُمكن إرجاع ملاحظات ابن غالب والحِمْيَري المتعلّقة بريف طَرّكونة **tarragona**. يُشير الأوّل في كتابه "فرحة الأنفس" إلى أقنيةٍ ومجارٍ لسياقة

* يروي ابن بسّام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ)، في "الذخيرة..." ما كان حدّثه الوزيرُ الفقيه أبو عبد الله محمّد بن إبراهيم الفهري، قال:

«كان أبو زيد [عبد الرحمن] بن مَقَانا [الأُشْبُوني] قد انصرف شيخًا إلى وطنه عندنا، بعد أن جال أقطار الأندلس على رؤساء الجزيرة... فمررتُ به يومًا بقريته - التي تُدعى بـ"القَبْذَاق" - من ساحل شِنْتَرة [من مدن البرتغال اليوم]، وبيده مِزْبرة [منجل صغير، أو مقصّ شجرا]. فلمّا رأيته ملت إليه ومال إليّ، وأخذ بيدي، وجلسنا ننظر في حَرّاثٍ يحرث بين يديه، فاستنشدتُه، فأنشدني ارتجالًا لوقته:

أيا عامرَ "القَبْذَاق"، لا تَخْلُ من زرعٍ ومن بَصَلٍ نَزْرٍ وشيءٍ من القَرْعِ!
وإن كنتَ ذا عزم، فلا بدّ من رحًى سحابيّةٍ لا تستمدّ من النبعِ
فما أرضُ قَبْذَاقٍ، وإن جاد عامُها بموفيةٍ عشرين من حِزَمِ الزرعِ
بها قِلّةٌ من كلّ خيرٍ ونفعةٍ كقلّةِ ما تدري لديّ من السَّمعِ
تركتُ الملوكَ الخالعينَ بُرُودَهم عليّ، وسَيْري في المواكب والنقعِ
وأصبحتُ في قَبْذَاقَ احصدُ شوكَها بمِزْبرةٍ رَغْشاءَ نابيةِ القطعِ....»

"الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٩)، القسم الثاني: ٧٨٦ و٨٧.

ماء الطواحين، ويؤكّد الثاني، وهو مؤلّفٌ متأخّرٌ في العهد لٰكنّ معلوماته تكاد تكون دومًا جديرةً بالثقة، «ومن الغرائب بطَرّكونة أرْحاءٌ نَصَبَها الأُوَل، تطحنُ عند هبوب الريح وتَسْكُن بسكونها»*[11].

وهٰكذا يبدو لنا، دون أيّ شكٍّ، أنّ طَرّكونة كانت المدخل الذي عبرت منه هٰذه الأجهزة إلىٰ أوروبة المسيحيّة. وتُبيّن الإشارات الصريحة الأولىٰ أنها ظهرت في فرنسا عام ١١٨٠م [٥٧٦هـ]، وفي إنكلترا حوالي ١٢٧٠، وفي إيطاليا ١٢٣٧، وفي هولندة ١٢٧٤... إلخ. ولٰكنها أصبحت، حتّىٰ في تلك الآونة، موضوع إلهامٍ شعريٍّ أصيل العراقة، في قشتالة، حيث كتب رئيس كهنة [منطقة] هيتا:

لا أحدَ يأخذ حِذْرَه منها،
فهي موجودةٌ مع الناس،
ومع هُبُوب الريح،
تُحرّك الطواحين[12].

ثمّة أمرٌ آخرُ وافدٌ، أصلُه من بلاد ما بين النهرين، كان معروفًا في العالم القديم، ألا وهو استهلاك المشروبات المبرّدة، والمثلّجة، في أيّ وقتٍ من أوقات السنة، وفي أية منطقة كانت[13]. وفضلًا عن ذٰلك، ولمّا كان بعض الأطبّاء يَعْزُون إلىٰ هٰذا الصنف من المشروبات خصائصَ تَشفي بعض الحالات المرضيّة، فإننا نُدرك سبب شحذ الفكر لتوفير هٰذه المادّة الثمينة علىٰ مدار فصول السنة. وتَرجِع الروايات الأولىٰ عن هٰذا المركّب [العنصر] إلىٰ العام ١٧٠٠ قبل الميلاد، حيث كانت تُبنىٰ ـ في "[مملكة] ماري" علىٰ سبيل المثال ـ أقبيةٌ لتخزين "الشوريبو" (جليد، ثلج)، المجلوب من

* الحِمْيَري، "الروض المعطار في خبر الأقطار"، طَرّكونة، ٣٩٢، وهي مبنيّة علىٰ ساحل "البحر الشامي" (الأبيض المتوسّط)، وممّا رواه الحميري «أنها كانت، في قديم الزمان، خاليةً، لأنها كانت فيما بين حدّ المسلمين والرُّوم [الإسبان]»، وروىٰ ما ذكره له شيخٌ ثقة «يقال له "ابن زيدان"، من أنه كان يخرج في السرايا إلىٰ تلك الناحية، فنزل ـ في بعض خرجاته ـ مع جماعةٍ من أصحابه، في البنيان الذي تحت مدينة طَرّكونة، فأرادوا التحوّل منه، فضلّوا، ولم يهتدوا منه لمخرج، وتردّدوا كذٰلك ثلاثة أيّام، هُدُوا في آخر اليوم الثالث...»!

مناطق تبعد حوالي مئتي كيلو متر. وإنّا لنعرف اليوم جيّدًا، المبدأ النظريّ الذي كانت تقوم عليه هٰذه المنشآت المحفورة آنذاك بصورة تجريبيّة، لأنّ «التغيّرات في

درجة حرارة سطح الأرض، تصل إلىٰ عمقٍ معيّن، ولٰكنها تأخذ بعدئذ بالتناقص، وتتقلّص وتيرة تأثّر درجة الحرارة في العمق بتلك السائدة علىٰ السطح كلّما ٱزددنا نزولاً، وفي المناطق المعتدلة، يصل مفعول التغيير إلىٰ عمق متر. أمّا التغيّرات الأكثر بطئًا والناشئة عن تعاقب الأيّام الحارّة والباردة فهي سريعة الزوال. وينخفض التغيّر السنوي (شتاءً/ صيفًا) إلىٰ حدّ الخُمس، ويتأخّر ثلاثة أشهر علىٰ عمق خمسة أمتار. ويستمرّ في الٱنخفاض بمعدّل أربعة بالمئة، ويتأخّر مدّة ستّة أشهر علىٰ عمق حوالي عشرة أمتار. ويفقد أهمّيّته علىٰ عمق حوالي عشرين مترا. بعدئذ تبدأ درجة الحرارة ـ التي أصبحت ثابتةً تقريبًا ـ في الٱرتفاع كلّما ٱزداد العمق»[14].

وإذا تركنا جانبًا التقلُّبات التي مرّت بهٰذه التقنيّة في العالم القديم (فقد ٱنعدمت هٰذه التقنيّة خلال غزوات البرابرة)، فإنه يجدر بنا أن نُشير إلىٰ ظهورها في الغرب من خلال الأندلس. وتدلّنا الآن علىٰ هٰذا الأصل كلمة سوربيتيه *Sorbete* التي يُشار بها إلىٰ المشروبات المثلّجة والعذبة، حسبما هو واردٌ في معجم الأكاديميّة الملكيّة الإسبانيّة، والتي تنحدر من كلمة "شراب" العربيّة، ذات التواشج مع الكلمة البابليّة "شوربو"، ولا يغربنّ عن البال أنّ كلتا اللغتين ساميّتان.

وبهٰذا المعنىٰ، نجدها أيضًا في لغاتٍ أخرىٰ: *sherbet* (بالإنكليزيّة)، *sorbet* (بالألمانيّة)، *sorbet* (بالفرنسيّة)... إلخ. ولنعد القهقرىٰ إلىٰ الماضي علىٰ أجنحة الأدب، ولنلاحظ أنّ تخزين الثلج كان أمرًا مألوفًا فيما وراء جبال البيرينيه زمن ر. بوايل، وأنّ ٱستخدام هٰذا التخزين لا زال قائمًا، حتّىٰ وقتنا الرّاهن، في سويسرا وفي بلدان أخرىٰ في أوروبة الوسطىٰ، حيث تكون فصول الشتاء باردةً علىٰ نحوٍ يجعل هٰذه العمليّة مُدِرّةً للربح. ونحن، في إسبانيا، نعرف أنّ الثلج الطبيعي كان يُنافس الثلج الصناعي حتّىٰ عام ١٩٣٠، وظلّ يُنافسه بين الحين والحين، خلال

أوقات تقنين الطّاقة الكهربائيّة في الأربعينات. وإذا ما سِرْنا بالمنحىٰ المعاكس للزمن، عرفنا أنّ البرد، الذي أودىٰ بالوجيه فرانسيس بيكون (١٥٦١ـ١٦٢٩م) وحمله إلىٰ القبر، كان بسبب إسرافه في ٱستخدام الثلج للمحافظة علىٰ اللحم. وقد أشار ف. م. فيلدهاوس إلىٰ مصنَّفٍ وحيد حول هٰذا الموضوع، وهو "في ٱستخدام الثلج" *De nivis usu* (كوبنهاگن ١٦٦١م)، ولٰكنّنا نقع في إسبانيا، قبل هٰذا التاريخ، علىٰ مصنّفات كازدوسو وموناردِس. فقد توافرت في هٰذه الأعمال إشاراتٌ إلىٰ الوصفات التي كان يُقدّمها الطبيبان العربيّان الرازي[15] وٱبن سينا حول هٰذه المسألة. وقد نصح ديسقوريدس بٱستعمال الماء البارد لنزع العَلَق. وأشار الأب جيل، عام ١٦٠٠م، في كتابه "جغرافيّة قَطَلونية"، إلىٰ وجود آبار [جليد] في مونتسيني. وكان هناك تنظيمٌ تجاري حقيقي غطّىٰ شبه الجزيرة الإيبيريّة (ميورقة، لوگرونيو... إلخ)، وقفز إلىٰ العالم الجديد، ووضع في متناول سكّانه كلّ أصناف المشروبات.

وفضلًا عن إشارات الباحثين، نجد الإشارات الأدبيّة، ومنها ـ علىٰ سبيل المثال ـ تلك الصادرة عن ت. گوتييه، وواشنطن إرفنگ، وفيدل فرنانديث مارتينيث الذي يتحدّث، في معرض وصفه لسلسلة جبال "سييرا نيڤادا" [جنوبيّ غرناطة الإسلاميّة]، عن الدرب الذي كان يسلكه "الثلّاجون"، ويَنقُل الروايةَ المتوارثة القائلة بأنّ صناعة الثلج كانت قيد الاَستثمار في عهد دولة بني نصر [الغرناطيّة، ٨ و٩ هـ/ ١٤ و١٥ م].

كان العرب، في الواقع، يعرفون ذٰلك منذ القرن التاسع [٣ هـ] علىٰ الأقلّ، لأنّ الليلة العاشرة من "ألف ليلة وليلة" (حكاية الحمّال والبنات الثلاث) تحدّثنا عن المشروبات الباردة المقدّمة إلىٰ هارون الرشيد*. ويُعَيد هٰذا التاريخ، تنصح "المقامة البغداديّة" للهمذاني (ت ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م) بتناول الخمرة الممزوجة بالثلج، ويعود

* «... فقامت، وقدّمت له سُفْرةً مزركشة، ووضعت عليها "باطيةً" من الصيني، وسكبت فيها "ماء الخِلاف"، وأرخت فيه قطعةً من الثلج، ومَزَجَته بالسُّكّر». الليلة العاشرة من "ألف ليلة وليلة"، ط بولاق.

والباطية، كوب أو نحوه . ←

إلى ذكر هذا المرطّب في "المقامة الساسانيّة"*. وإلى هذه الحِقبة تعود إلماعاتُ الرازي وابن سينا التي أشرنا إليها فيما تقدّم، وكذلك الوصفة التي نصح فيها الطبيبُ إسحٰق بن عمران، الأمير الأغلبيَّ زيادةَ الله (٢٩٠ـ٢٩٦هـ/ ٩٠٢ـ٩٠٨م)، بتناول الثلج لمعالجة ربْو الحساسيّة**، وبما أنّ الثلج لا يكاد يهطل في تونس، وهي المكان الذي جرت فيه هذه الواقعة الأخيرة، لذلك لا بدّ من الافتراض بأنه كانت هناك تجارةُ ثلج

← والخِلاف، صنفٌ من شجر الصّفصاف وليس به، له ثمرٌ زكيّ الرائحة ناعم المشمّ (ابن البيْطار: "جامع المفردات..."، ٢: ٦٨)، ويبدو أنه كان يُستخرج من قُفّاحه (زهره) شرابٌ يُمزج بالسكر.

* لم تكن خمرةً، تلك التي وعد بها "عيسى بنُ هشام"، في "المقامة البغداديّة"، ضحيّتَهُ "السّواديّ"، بل كان الماء، «... "يا أبا زيدًا ما أحوجنا إلى ماء يُشَقشع بالثلج... اجلس، حتّى نأتيك بسقّاء، يأتيك بشربة ماءا"...».

وإنه لكذلك الماء، الذي وردت الإشارة إليه شعرًا، في "المقامة الساسانيّة"، على لسانِ مَن يُتبيّن، أخيرًا، أنه "أبو الفتح الإسكندري":

أريدُ ماءً بثلجٍ يَغْشىٰ إناءً طريفا

وذلك ما يؤكّد، على كلّ حال، أنّ الماء المثلّج كان مبذولًا حتّى في الأسواق الشعبيّة، في بغداد ودمشق وغيرهما....

** إسحٰق بن عمران (ت ٢٩٤هـ/ ٩٠٦م) طبيبٌ مسلم النحلة (خلافًا لما يوحي به اسمه)، بغدادي الأصل، دخل القيروان ـ وبه ظَهَرَ الطبُّ بتونس والمغرب ـ في دولة زيادة الله الأغلبي التميمي، وكانت به "علّة النّسمة" (ضِيق النَّفس)، فكان ممّا يقوم به الطبيب البغدادي أن يشهد أكل الأمير.

> فأكل يومًا "لبنًا مريّبًا" بغير موافقة طبيبه، فعرض له في الليل ضِيقُ نَفَس أشرف به على الهلاك. فعالجه إسحٰق بأن «أمر بإحضار الثلج، وأمره بالأكل منه حتّى يمتلئ، ثمّ قيّأه، فخرج جميع اللبن قد تجبّن ببرد الثلج. فقال إسحٰق: "أيها الأمير، لو وصل هذا اللبن إلى أنابيب رئتك ولحجَ فيها [تشبّث] أهلكك بتضييقه للنَّفَس، لكني جمّدته وأخرجته قبل وصوله"...».

وهذه الحادثة، التي انتهت بأن غضب زيادةُ الله على طبيبه وأمر بقتله وصلبه، لها تفصيلٌ عند ابن جلجل القرطبي في "طبقاته" (صص ٨٤ـ٨٧)، وعنه نقلها ابنُ أبي أصيبعة الدمشقي في "طبقات الأطبّاء...".

نشطةً، اَنطلاقًا من جبال الهضبة الجزائريّة العليا، على غرار تلك التجارة التي كانت آنذاك في المشرق، والتي يروي لنا القَلْقَشَنْدي تطوُّرها عبر القرون، مُشيرًا إلى أنّ الثلج كان يصل من لبنان إلى القاهرة بعد اَجتياز ستّ عشرة مرحلة، إذا ما تمّ نقله عن طريق البرّ؛ كما كانت هنالك مراكبُ معدّةٌ إعدادًا خاصًّا لهذه الغاية. شَكّلت أنموذجًا لتلك التي أصبحت، فيما بعد، تمخُر مياه غرب البحر الأبيض المتوسّط*.

ولا بدّ أنّ تقنيّة بلاد ما بين النهرين هذه، وتقنية "البرّادة" المصريّة التي نشأت عنها قُلّتنا الفَخّاريّة الإسبانيّة *botijo*، كانتا معروفتين في الأندلس في القرن العاشر [٤ هـ]، لأنّ المسافرين الذين كانوا يعودون من المشرق لا بدّ أنهم كانوا قد لاحظوا اَستعمال الثلج هناك، وقد عمد الأطبّاء الأندلسيّون إلى اَستخدامه دواء. بناءً على ذلك، وبالرغم من أنه لم يُعثر بعد على نصوص خطّيّة أندلسيّة حول هذه الصناعة، يجدر بنا الاَعتقاد بأنها كانت منتشرةً اَنتشارًا واسعًا في أوائل القرن الرابع عشر [٨ هـ]، وهي الحقبة التي يُلمح إليها ما أعرف من الشهادات المسيحيّة الأولى[16]: اَستثمار "مكامن" معيّنة، والتصدير نحو إيطاليا عن طريق مرفأ مَتَرو **Mataró**، وقيام سكّان مقاطعة ڤالد السويسريّة بتقطيع صفائح من الجليد الطبيعي... إلخ.

وثمّة تقنيّاتٌ مائيّة أخرى مشرقيّة المنشأ كانت الأندلس، فيما يبدو، نواة

* ممّا ورد عند القلقشندي أنّ الملوك في الديار المصريّة ـ والثلج مفتقدٌ بها ـ كانوا يجلبونه من الشام إلى مصر: «لتبريد الماء به في زمن الحرّ». ولاَعتنائهم بذلك «قرّروا له هُجُنًا تحمله في البرّ وسفنًا تحمله في البحر»، وأنه كانت، في أيّام الملك الظاهر بيبرس (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) سلطان مصر والشام الموحّدتين، ثلاثة مراكب في السنة، وأخذت في التزيُّد في عهد مَن خَلَفَه حتّى بلغت الأحد عشر مركبًا. «والمراكب تأتي دمياط في البحر. ثمّ يُخرَج الثلج في النيل إلى ساحل بولاق [في القاهرة]، فينتقل منه على البغال السلطانيّة، ويُحمَل إلى "الشرابخاناه" [مخزن الشراب، أو الصيدليّة الملكيّة]. وقد جرت العادة أنّ المراكب إذا سُفّرت سُفّر معها مَن يتدرّكها من ثلّاجين لمداراتها، ثمّ الواصلون بها في البحر يعودون على البريد في البرّ».

"صبح الأعشا في صناعة الإنشا"، تحقيق: محمّد حسين شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٩٨٧)، ١٤: ٤٤٠ـ٤٤٤.

اَنتشارها نحو الغرب. وقد ألمعنا إلىٰ إحداها، وهي تقنيّة أسقية الماء أو المجاري التي اَشتقّ منها اَسم مدريد. وقد أدخل هٰذه التقنية المهندس (المجريطي؟) عبد الله بن يونس، عندما عمل، بناءً علىٰ طلب يوسف بن تاشفين، علىٰ توريد الماء إلىٰ مدينة مراكش، المنشأةِ حديثًا، أي حوالي عام ١١٠٠م/ [٤٩٣هـ]، ووصلت في القرن الحادي عشر [٥ هـ] تقنيةُ القنوات *qanāt* أو ''الأنفاق'' إلىٰ بلجيكا، وبعد ذٰلك بخمسة قرون حملها الإسبان إلىٰ أميركا. واَنتقلت علىٰ نحوٍ مماثل، فيما يبدو، النواعير الضخمة من الأندلس إلىٰ المغرب، كما وصل ''الشادوف''، وهو جهازٌ مزوّدٌ برافعةٍ لاَغتراف الماء، مصريُّ الأصل، إلىٰ ألمانيا وإلىٰ إقليم الفلاندر في أواسط القرن الرابع عشر بعدما مرّ بشبه الجزيرة الإيبيريّة.

ويجدر إفراد فصل علىٰ حدة للحديث عن إدخال البارود إلىٰ الأندلس، الذي لا بدّ أنه قد تمّ في نهايات القرن الثالث عشر [٧ هـ]. فقد عُرفت، قبل ذٰلك، أخلاطُ من الأجسام قابلةٌ للاَشتعال في ظروفٍ اَستثنائيّة جدًّا. فقد أوقف الزحفَ الإسلاميّ، علىٰ القسطنطينيّة في القرن الثامن [٢ هـ]، بالنار الإغريقيّة التي يُعزىٰ اَختراعها إلىٰ كالينيكوس (حيًّا حوالي عام ٦٧٣م [الأوّل للهجرة])، وكان بالإمكان قذف العدوّ بها عن طريق أنابيب خاصّة، وهي نوعٌ من ''قاذفات اللهب''، تشتعل حتّىٰ بتماسّها مع الماء. إلّا أنه لم يكن لها ما للبارود من قوّةٍ اَنتشاريّة. وفي القرن الثالث عشر [٧ هـ]، يتحدّث روجيه بيكون (*Opus tertium*) عن بارود تزداد قوّته الاَنفجاريّة إذا ما حُبس في أداةٍ من مادّةٍ صلبة. ويبدو أنّ ألبيرتو الكبير، من جهته، في كتابه *De mirabilibus mundi* [''عجائب العالم''!] (١٢٦٥م)، كان علىٰ علم بوجود السّهام الناريّة. فمن الجائز، إذن، أن يكون كلا المؤلِّفين قد ترامىٰ إلىٰ سمعهما الحديثُ عن السلاح الجديد الذي كان قد اَستُخدم، قبل ذٰلك، في الصين ضدّ المغول (١٢٣٢م)، والذي كان يكتسب قوّته من إضافة ملح البارود (نترات البوتاسيوم) إلىٰ خليطٍ من الفحم النباتي والكبريت.

يطلق علىٰ كلمة **pólvora** في العربية، حاليًّا، اَسم ''بارود''. وكانت هذه الصيغة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر [٨ و٩ هـ] تتعايش مع كلمتي نِفْط ودواء. ولكن أوّل مرّة ظهرت فيها كلمة بارود كانت في كتاب ''جامع المفردات''

للمالَقي أَبن البَيْطار، الذي يؤكّد بأنه "زهر حجر أسّيوس"، وعن هٰذه الكلمة [أسّيوس] يقول إنها «ثلج الصين عند القدماء من أطباء مصر، ويعرفه عامّة المغرب وأطباؤها بالبارود»*. ويُعيد هٰذا التاريخ، عُني بالمسألة ماركو اليوناني في مصنّفه المسمّىٰ *Liber ignium ad comburendos hostes* (١٣٠٠م [٦٩٩هـ])، ونجد في نصّه أصطلاحاتٍ عربيّة، ويُبيّن العربي السوري الحسن الرمّاح (حيًّا ١٢٨٠م [٦٧٩هـ])[17]، بوضوح، في مصنّفه "كتاب الفروسية والمناصب الحربية"، أنّ ملح البارود عنصرٌ أساسٌ لا غنًىٰ عنه إطلاقًا لصنع البارود، ويُعطي قواعد واضحةً لتحضيره، ويصف "رَعّادة" (طوربيد) ذاتيّةَ الحركة تدفعها صواريخ يُسمّيها "سهام الصين"[18].

ونصل، بعد هٰذا البيان، إلىٰ أوّل شهادةٍ أدبيّةٍ "مغربيّة" يرد فيها حديثٌ عن أَستعمال الأختراع الجديد. يُبيّن لنا أَبنُ الخطيب [الأندلسي]، في معرِض وصفه للهجوم الذي شنّه السلطان الغرناطي إسماعيل [ابن فرج بن إسماعيل] (٢١ رجب ٧٢٤هـ / ١٤ تموز ـ يوليو ١٣٢٤م) علىٰ «*حُصْنِ إِشْكَر [Huescar]... ورمىٰ، بالآلة العظمىٰ المتّخذة بالنّفط كرةَ حديدٍ محمّاة، طاقَ البرج المنيع، من*

* أبن البيطار، "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية"، ١، ٨٣ و٣٠. وأسّيوس كلمة يونانيّة Assios، وبارود فارسيّة.

ويقدّم لنا أَبنُ البَيْطار تعريفًا بالبارود لجالينوس: «وليس هو صلبًا كالصخر، لأنه شبيهٌ في لونه وقِوامه بالحجارة المتولّدة في قدور الحمّامات، وهو رِخوٌ يتفتّت بسهولة ويتكوّن عليه شيءٌ شبيه بغبار الرّحا الذي يرتفع ويلتصق بالحيطان إذا نُخِل الدقيق. وهٰذا الدواء [كان الإغريق ينظرون إليه دواءً] يُسمّىٰ زهر الحجر المجلوب من أسّيوس»، "جامع المفردات..."، ١، ٣٠.

ويَنقل لنا عن ديسقوريدس، «قوّة هٰذا الحجر، وزهرته معفّنةٌ تعفينًا يسيرا، محلّلٌ للخُراجات، إذا خُلِط كلٌّ واحدٍ منهما بصمغ البُطْم أو الزّفت... والزهر، إذا كان يابسًا، أبرأ القروح العتيقة العسرة الأندمال، وقلع اللحم الزائد في القروح الشبيهة في شكلها بالفِطر والقروح الخبيثة، وقد يملأ القروح العتيقة العميقة لحمًا ويُنقّيها إذا خُلط بالعسل....»، ١، ٣٠.

وعلميًّا يتكوّن البارود من: نترات البوتاسيوم بنسبة ٧٥٪، وكبريت ١٠٪، وكربون ١٥٪. والزيادة في نسبة المادّة الأولىٰ تُسبّب سرعة الأشتعال.

مَعْقِله، فأندفعت [الكرة] يتطاير شررُها، وأستقرّت بين محصوريه، فعاثت عِيَاثَ الصواعق السماويّة، فألقىٰ الله الرعبَ في قلوبهم، وأتوا بأيديهم، ونزلوا قسرًا علىٰ حكمه [في الرابع والعشرين من رجب ٧٢٤، وأقام بظاهره، فصيّره دارَ جهاد، وعمل في خندقه بيده، وأنصرف]...»* .

وما كان لواقعةٍ بهذه الأهمّيّة أن تمرّ دون أن يحتفي بها الشعراء والإخباريّون في ذلك العصر، من أمثال أبي زكريا بن هُذَيل**[19] .

وتَصدُر الشهادةُ التالية عن مصادر مسيحيّة. فعندما ضرب الفونسو الحادي عشر الحصار علىٰ الجزيرة الخضراء (١٣٤٣م [٧٤٤هـ])، كان الموريسكيّون [الأندلسيّون] المحاصَرون يطلقون «وابلًا من الكتل الحديدية التي تمضي، مُصدِرةً دويًّا شديدًا، وكان ينتاب المسيحيّين ذعرٌ قويٌّ منها، فإنها إذا ما سقطت علىٰ أيّ عضوٍ من أعضاء الرجل، أجتثّته كما لو أنها بَتَرَتْه بسكّين. وأيٌّ من الرجال جُرح بسببها كان مصيره الموت، ولم يكن لتنفعه أيّة جراحة، ذلك أنها، أوّلًا، كانت تنهمر مسبّبةً حَرْقًا كالنار،

* "الإحاطة في أخبار غرناطة"، ١، ٣٩٠.

** ومن الشعراء الذين أنشدوا في هذه الوجهة، كاتبُ السلطان أبو الحسن بن الجيّاب:

أمّا مَداكَ، فغايةٌ لم تُلْحَقِ ... أعيَتْ علىٰ غُرّ الجيَاد السُّبّقِ

وقصيدة أبن هُذَيل، المذكور:

بحيث القبابُ الحُمْرُ والأُسْدُ الوُرْدُ ... كتائبُ سكّانِ السماءِ لها جُنْدُ

ومنها في وصف النفط:

وظنّوا بأنّ الصّعْق والرّعدَ في السما ... فحاقَ بهم من دونها الصّعْقُ والرّعدُ

غرائبُ أشكالٍ سما هُرْمُسٌ بها ... مهنْدسةً، تأتي الجبالَ فتنهدُّ

ألّا إنها الدنيا، تُريك عجائبًا ... وما في القوىٰ منها، فلا بدّ أن يبدو ا

"الإحاطة..."، ١، ٣٩١.

وثانيًا، لأنّ البارود، الذي به تُقذَف كان من شأنه أن يودي بحياة كلّ من تُصيبه القذيفة بجراح»[20].

وبين كلا التاريخين، ١٣٢٤ و١٣٤٣م، بدأت تظهر شهاداتٌ حول استخدام السلاح الجديد في أوروبة؛ عام ١٣٣٨م بفرنسا، ١٣٥٨ بإيطاليا... إلخ. وبعض هٰذه التواريخ ـ التي تُعطىٰ جزافًا ـ موضعُ شكّ، ونستطيع، في حالات أخرىٰ، أن نفترض أنه سلك بعض دروب الدخول؛ من ذٰلك مثلًا، أنّ الجرّاح الإنكليزي الكبير جون آردين كان في الجزيرة الخضراء ١٣٤٣م [٧٤٤هـ]، فأُتيح له أن يُعرّف بالسلاح الجديد في بلاده!

وقد بلغ الحديث في وصف السلاح الجديد من التنوُّع ما يُمكّننا من أن نعلم أنّ المدافع كانت مستعملةً في القرن الرابع عشر [٨ هـ] في أوروبة (وأقدم مدفع محفوظ يرجع بتاريخه إلىٰ ١٣٥٦م)، وكذٰلك الصواريخ، والقنابل، والطوربيدات، والرّاجمات [التي تُعرف اليوم بـ] الستالينيّة (١٣٥٨م، هولندة)، وقد أوحت بأدبٍ واسع بلغ ذروته مع كتابات بيرانگوتشيو (١٤٨٠ـ١٥٣٩م). ولٰكنّ هٰذه الأسلحة الناريّة كلّها، والمبتكرات الصينيّة، لم تدخل من خلال الأندلس. فعلىٰ سبيل المثال، يُلمع جورج ڤيگون **Vegón**، متّبعًا في ذٰلك فرضيّة آرتيگي، إلىٰ أنّ الأسلحة المحمولة، "الرغّادات اليدويّة"، وردت إلىٰ إسبانيا ممّا وراء جبال البيرينيه، لأنّ أوّل ذكرٍ لها ورد في بلدنا كان بأستعمال إحداها في معركة إيخيا (١٣٩١م [٧٩٣هـ]). إلّا أنّ القول بهٰذا الأصل المسيحي المزعوم للأسلحة المحمولة، يُنافيه القولُ بأنّ الغرناطيّين كانوا أوّل من أستخدمها! فقد أتّهم، بعد قرنين من الزمن، مؤلّفُ كتاب "رحلة إلىٰ تركيا" اليهودَ الأندلسيّين المطرودين [من إسبانيا]، بأنهم قد درّبوا الأتراك علىٰ حُسن أستخدام الأسلحة النارية وتقنيّات التحصين.

وهناك صناعةٌ أخرىٰ من الصناعات، التي عاودت الدخول إلىٰ العالم اللاتينيّ من خلال الأندلس، هي صناعة الخَزَف النفيس ذي اللّمَعان المعدِنيّ، أو [الخزف] المزجّج، الذي كان معروفًا من قبل، ومستخدَمًا في العصور القديمة وفي القرون الوسطىٰ الشرقيّة. ويتكوّن من صَوّانٍ (سيليكات) في شكل رمل المرو (الكوارتز)،

وقلويّاتٍ مصهورة (صودا، بوتاس)، وكميّاتٍ ضئيلة من بعض المعادن (رصاص، قصدير)، التي كانت تُوسّع درجات الألوان الممكنة، والتي كان الخزّافون المسلمون (في السامرّاء والفسطاط) يُحسّنونها بإضافة أكسيد النحاس، أو الفضّة... إلخ، تُطلىٰ به الآنية، التي سبقتْ زخرفتُها، ليُكسبها ألَقًا ذهبيًا، وكان قد دخل إلىٰ الأندلس ـ وعلىٰ سبيل المثال إلىٰ مالَقة ـ في القرن العاشر [٤ هـ]. وتُفيد شهادة الإدريسي أنه كان يُصنع في قلعة أيّوب Calatayud* ، عندما اَستردّ ألفونسو الأوّل ملك أراگون هٰذه المدينة (١١٢٠م [٥١٤هـ]). ومن مالقة اَنتقلت هٰذه الصناعة إلىٰ ميورقة، ومنها إلىٰ إيطاليا (فاينزة)، وقد جلبها التجّار القَطَلونيّون إليها، وعن كلمة ميورقة نشأ اَسم مايوليكا *Maiólica* الذي عُرفت به هٰذه الصناعة في هٰذه البلاد. وكانت الورشات المخصّصة لصنع الخزف والأواني المسمّاة *asulejas* (وهي مشتقّة من كلمة لازَوَرْد الفارسيّة [أي اللازورديّات]). في أيدي مسلمين مدجّنين وموريسكيّين من بلنسية (مانيسيّين)، وإشبيلية، وغرناطة، وإقليم أراگون، ولا نعلم أنهم كتبوا مصنّفاتٍ تقنيّة في هٰذا الشأن، ولٰكن فعل ذٰلك، بالمقابل، الفارسي الكاشاني (١٣٠٠م [٦٩٩هـ]) والإيطالي بيونو (١٣٣٠م). وكانت من قطعهم الأنموذجيّة الأوعية المسمّاة الألباريلوس *Albarelos* وهي عبارة عن "مرطبانات" بيضاء السطح ومقعّرة، اَستُعملت في صيدليّات عصر النهضة، ووصلت إلينا في العصر الحاضر. وقد كان اَنتشار هٰذه التقنيّة الجديدة بطيئًا جدًّا، ووصلت إلىٰ ألمانيا في أواخر القرن الخامس عشر، لدرجة أنّ جيرونيمو مونزر، لدىٰ رحلته إلىٰ إسبانيا (١٤٩٤ و٩٥م)، اَنبَهر بهٰذه السّلع، التي لا بدّ أنه لم يكن يعرفها حتّىٰ ذٰلك الحين، [كما يتبيّن] من خلال ما كتب.

* "Calatayud"! ظلّت هٰذه الكلمة مستعصيةً علينا، إلىٰ يوم اَلتقينا ـ المترجم الأستاذ نهاد رضا وأنا ـ بالدكتور محمّد عبده حتامله (أستاذ التاريخ الأندلسي بالجامعة الأردنيّة)، مساء الأربعاء ٩ ـ ٤ ـ ١٩٩٧، وقد زار دمشق محاضرًا في المركز الثقافي الإسباني في "ثقافة الموريسكيّين"، فسألناه عمّا يقابل هٰذه الكلمة من أسماء المدن الأندلسيّة، فأجاب ـ وهو الذي يُعِدّ دائرة معارف أندلسيّة ـ بأنها: "**قلعة أيوب**"!

قلت : وقلعة أيوب ـ كما ورد عند الحميري ـ «مدينة رائعة البقعة، شديدة المنعة، كثيرة الأشجار والثمار... وبها يُصنع *الغَضَار المذهّب*، ويُتَجَهَّز به إلىٰ كلّ الجهات...»، "الروض المعطار..."، ٤٦٩.

وكانت تربية الحَمَام الزاجل وآستخدامه، تقنيةً أخرىٰ من التقنيّات المعروفة في الأندلس، قبل أن يكتشفها ثانية الصليبيّون في المشرق (عام ١٠٩٨م [٤٩١هـ]). وكان هٰذا الفنّ ـ شأنه شأن وسيلة "الإبراق البصري"، الذي كان مُستخدمًا في الشرق الأدنىٰ (منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد) وفي العالم القديم ـ قد آختفىٰ تمامًا في العالم المسيحي، ولٰكنه ظلّ قائمًا في بلاد ما بين النهرين، حيث نظّم الخليفة العباسي المهدي (٧٧٥ـ٧٨٥م [١٥٨ـ١٦٩هـ]) مصلحة أبراج الحمام الزاجل لنقل الأخبار. وكانت القوافل والسُّفن[21] تصطَحِب معها حَمَامًا، وبهٰذه الوسيلة كان في وسعها أن تنقُل إلىٰ قواعدها أخبارًا حول وضعها وتقلّبات رحلتها. وفي المشرق، فيما بعد، حَدَّثَ السلطانُ نور الدين [زنكي] هٰذه المصلحةَ في سورية (١١٧٨م [٥٧٤هـ]). ولٰكنها كانت معروفةً في الأندلس قبل هٰذا التاريخ بكثير. ففي عهد ملوك الطوائف، مثلًا، لدينا معلوماتٌ حول آستخدام الحمام الزاجل لنقل الأخبار الرسميّة والخاصّة. فقد قام المعتمِد [بن عبّاد]، بعد معركة الزلّاقة، بإعلام إشبيلية [بالآنتصار] عن طريق إرسال حمامة. وكان المعتصم [بن صُمادح]، عندما يكون غائبًا عن آلمَريّة، يُراسل زوجاته بهٰذه الوسيلة عينها. كما كان الأشخاص متوسّطو الثراء يستخدمونها للتواصل. يقول آبن حزم:

تخيَّرها نوحٌ، فما خاب ظنُّه	لديها، وجاءت نحوه بالبشائرِ
سأُودعها كُتْبي إليكَ، فهاكَها	رسائلَ تُهدىٰ في قوادم طائرِ*[22]

وكان الشاعر اليهودي يهودا هاليڤي يتلقّىٰ المراسلات الأدبيّة بهٰذه الوسيلة. وهٰذا يدلّ علىٰ ما كانت عليه كُلفةُ هٰذه الخدمة من الآعتدال، وذلك قبل أن يعثر گواتاين علىٰ الوثائق التجاريّة المدفونة، وثائق جنيزة **genizá** [العبريّة] القاهرة. ونجد، من ثَمّ، تفسيرًا للأُعجوبة التي حقّقها اليهودي حميس بن ثَبْرَة الذي نجح،

• "طوق الحمامة..."، تحقيق الدكتور أحمد الطاهر مكّي، ط٤ (القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٨٥)، باب السفير: ٥٩.

عام ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م، في جمع حَمَام إسبانيا كلّه في طليطلة، أي أنه نجح في دفع أصدقائه إلىٰ إطلاق طيورهم، بهدف التأثير علىٰ ألفونسو السابع، وكان يُقدّم لديه خدماته بوصفه منجّمًا ومُلمًّا بالعلوم الخفيّة.

وقد ظهرت إحدىٰ الشهادات الأولىٰ في الغرب عام ١٥٧٢م، وفيها أنّ گيرمو الأوّل دي أورانجي ٱستخدم الحمام الزاجل خلال قيام دوق آلبا بحصار هارلم.

الملاحة:

لعلّ واحدةً من أكبر الخدمات التي أسداها العرب للثقافة، تتجلّىٰ في أنهم نقلوا إلىٰ الغرب مختلف العناصر التقنيّة في ميادين الهندسة البحريّة (الشُّراع اللاتيني ودَفّة القائم الخلفيّ في السفينة)، وعلم الفلك (تحديد الإحداثيّات)، والجغرافيا (الخرائط الملاحيّة) التي يسّرت، فيما بعد، الملاحة داخل المحيط الأطلسي. وهم، عندما فتحوا أقطار المشرق (القرن السابع [الأوّل الهجري])، كانت معارفهم ضئيلةً في هٰذه المواضيع، ولٰكنها سرعان ما تزايدت، لأنهم بٱستيلائهم علىٰ شواطئ لبنان، فينيقية القديمة، سيطروا علىٰ مهد البحريّة المتوسطيّة، الذي كان، حتّىٰ ذٰلك الحين، يُشكّل المَدَد لصفوف البحريّة البيزنطيّة، وأصبح الآن يُتيح لهم أن يُنشئوا أُسطولهم الخاصّ، الحربيّ أوّلًا وبعدئذٍ التجاري، الذي بادر إلىٰ الهيمنة في بحر روما القديم.

ولٰكنّ ما كانت له نتائجُ أكبر ـ من وجهة نظرنا ـ هو فتحهم لشواطئ الخليج الفارسي [العربي] الشرقيّة. فهناك، في سيراف، كان ينتهي الخطّ النظامي الذي كان يربط هٰذا المرفأ بمدينة كانتون، مستفيدين من الرياح الموسميّة الدوريّة **monzones** (وهٰذه من كلمة "موسم" العربيّة، أي "الوقت أو الفصل المحدّد للقيام بأمرٍ ما") التي يُعزىٰ ٱكتشافها إمّا إلىٰ هيبالو، وإمّا إلىٰ أودوكسو دي سيسيكو (القرن الأوّل قبل الميلاد). وإذا ما حلّلنا ٱشتقاقات الكلمات العربيّة المتعلّقة بالملاحة، وجدنا أنها فارسيّة: دفتر **derrotero**" = مسير، مسلك" أو كتاب التعليمات لاتّباع مختلف المسالك، رهنامج (رهمانج) أي خريطة ملاحيّة، خَنّ "ٱتّجاه"، قطب الجاه

"قطب"... إلخ. وكان مالك السفينة يجعل دائمًا إلىٰ جانبه القبطان (ربّان) الذي كان المسؤول عن كلّ ما يتعلّق بالملاحة. وأن يمتلك العرب هٰذا التنظيم كلّه ويستفيدوا منه، فهٰذا ما تُثبته لنا المصنّفات التي كتبها، قبل القرن العاشر [٤ هـ]، التجّار أو البحّارة الذين كانوا قد سافروا في طريق الشرق الأقصىٰ. وأحد هٰؤلاء أحمد بن ماجد (ت حوالي ١٥٠٠م [٩٠٦هـ])، الذي عمل مرشدًا لڤاسكو دي گاما من ملندة إلىٰ كلكوتا، وخلّده كامويِنْس في عمله المسمّىٰ *Os Lusiadas*:

للمرشد الذي يمضي بالمركب
نَفسٌ لا تعرف الخداع
وعلىٰ الطريق الأمين المناسب كان يَدُلّ
وهٰكذا كان يمخَر عُباب البحر، وهو أقلّ قلقًا ممّا في ماضي الشهور

يُقدّم لنا ابن ماجد، في توطئة أحد أعماله، قائمةً بالذين سبقوه في هٰذه الوظيفة، نجد في عدادهم مؤلّفين من القرن العاشر حتّىٰ القرن الرابع عشر [٤ـ٨ هـ]، مُضيفًا أنه كانت هنالك، في القرن الحادي عشر، خرائط بحريّة للسواحل الممتدّة من رأس كامورين حتّىٰ الصين. وهناك شهادة أخرىٰ تتكوّن من العملين التاليين: كتاب "أخبار الصين والهند" للتاجر سليمان، وقد كُتب عام ٨٥١م [٢٣٧هـ]، وكتاب "عجائب الهند" لبُزُرگ بن شهريار (حيًّا حوالي ٩٣٥م [٣٤٢هـ])، ونجد صداه في حكاية "سندباد البَحّار"، المؤلّفة في القرن الحادي عشر، من "ألف ليلة وليلة".

وكان الجغرافيّون العرب في القرن العاشر [٤ هـ] قد عرفوا تمام المعرفة أنّ تضاريس الشواطئ لا تتّصف بأيّ انتظام، وأنّ البِحَار ليس لها شكلُ طائرٍ ولا شكل طَيْلسان، وهٰذا أمر تدلّ عليه، بوضوح، الطُّرفةُ التي رواها المقدسي (ت عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٨م) في مقدّمة كتابه "الجغرافيا". فبينما كان جالسًا علىٰ شاطئ عدن، بجانب البحّار الشيخ أبي علي بن حازم ...[يقول:

كنت «أنظر في البحر، إذ قال لي: "ما لي أراك متفكّرا؟"،
قلت: "أيّد الله الشيخ! قد حار عقلي في هٰذا البحر لكثرة

الاَختلاف فيه، والشيخُ اليومَ من أعلم الناس به، لأنه إمام التُجّار، ومراكبُه أبدًا تسافر إلىٰ أقاصيه، فإنْ رأىٰ أن يصفه لي صفةً أعتمد عليها، وأرجع من الشكّ إليها، فَعَل[''،

فقال: ''علىٰ الخبير بها سقطتَ[''،]

«ثمّ مسح الرملَ بكفّه، ورسم البحر عليه، لا طيلسان ولا طير، وجعل له معارجَ متلسّنةً وشُعَبًا عدّة، ثمّ قال: ''هٰذه صفة هٰذا البحر، لا صورةَ له غيرها. وأنا أصوِّره ساذجًا وأَدَعُ الشُّعَب والخُلْجان، [إلّا شعبةَ وَيْلَة لشهرتها وشدّة الحاجة إلىٰ معرفتها وكثرة الأسفار فيها]، وأَدَعُ ما اَختلفوا فيه، وأرسم ما اَتّفقوا عليه''...»* .

والاَتّفاق هو ما تتّصف به الخرائط التي كانوا يستعينون بها في الملاحة، والتي كانت بين يدي المقدسي نفسه، حسبما يروي لنا. وكانت الخطوة الثانية رسم خريطةٍ متقنةٍ للمحيط الهندي، تضمّ ملاحظات بحّارته. وهٰذه الخريطة (رهنامج) هي التي أُتيح لاَبن ماجد رؤيتُها، وكان قد رسمها عام ١١٨٤م [٥٨٠هـ] إسماعيل بن حسن بن سهل بن أبان. ومن الصعب أن نُثبت ما إذا كانت، هٰذه الخريطة القديمة النظاميّة الأولىٰ[23]، تشتمل، آنفًا، علىٰ مربّعات متّصلة من الإحداثيّات، كالخريطة التي أظهرها أحمد بن ماجد في ملندة لڤاسكو دي گاما،

• ''أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم''، تحقيق م. ج. گويج (لَيْدن ـ هولندة: ١٩٠٩)، ١١.

وقول ڤيرنيت: «إنّ تضاريس الشواطئ لا تتّصف بأيّ اَنتظام، وأنّ البحار ليس لها شكل طائرٍ ولا شكل طَيْلَسان» (ضربٌ من الأوشحة، يُلبَس علىٰ الكتف أو يُحيط بالبدن، خالٍ من التفاصيل أو الخياطة؛ أو هو ما يُعرف اليوم بـ''الشال'')، يوضّحه ما تقدّم عند المقدسي من قوله: «اَعلمْ أنّا لم نرَ في الإسلام إلّا بحرين [و]حسب، أحدهما يخرج من نحو مشارق الشتاء بين بلد الصين وبلد السودان، فإذا بلغ مملكة الإسلام دار علىٰ جزيرة العرب، كما مثّلناه، وله خُلجانٌ كثيرة وشُعَبٌ عدّة. وقد اَختلف الناس في وصفه والمصوّرون في تمثيله، فمنهم من جعله شِبْهَ طيلسانٍ يدور ببلد الصين والحبشة وطرفٌ بالقُلْزم [البحر الأحمر] وطرف بعبّادان، وأبو زيد جعله شِبْهَ طيرٍ منقاره بالقلزم، ولم يذكر شُعبة وَيْلَه، وعنقه بالعراق، وذنبه بين [ال]حبشة والصين...»، ١٠.

حسبما وصفها خوان دي باروس (١٤٩٦ـ١٥٧٠م): «*خريطة لساحل الهند بأكمله موضوعةً على طريقة المسلمين، كانت مكوّنةً من دوائرِ خطوط الطول، وخطوط العرض، دقيقةَ الرسم جدًّا، دون بيان اتّجاهات الريح، لكن بما أنّ مربّع خطوط الطول وخطوط العرض هذه كان صغيرًا جدًّا، فإنّ الساحل يُصبح محدّدًا جدًّا بواسطة هذين الاتّجاهين: شمال ـ جنوب، وشرق ـ غرب، دونما حاجة إلى الاستعانة بهذا الإكثار من اتّجاهات البوصلة الشائع في خريطتنا، والذي يُستخدم أساسًا للاتّجاهات الأخرى*».

يقتضي هذا الاستشهادُ وجود شبكةٍ من الإحداثيّات (في القرن الرابع عشر [٨ هـ]) قد تعود بأصلها إلى الماضي. ففي مرحلة رسم خريطة عام ١١٨٤م [٥٨٠هـ] كان الغرب على اطّلاع على خريطة العالَم للإدريسي، التي كانت مقسّمةً إلى "أقاليم" في منحى خطوط العرض، وإلى "مقاطع" في منحى خطوط الطول. وكانت فكرة "الأقاليم" قد نشأت في بابل، ومع مرّ الزمن صار يتمّ تصوُّرها بوصفها عملية تقسيم للأرض إلى مناطق تُحدّدها متوازيات، بحيث إنّ أطول نهارٍ في السنة على أحد هذه المتوازيات يصبح بدوره، أيضًا، أطول بما مقداره س من الدقائق، من النهار ذاته على المتوازي الذي يُحدّد الإقليم التالي مباشرةً. ومن خلال إراتوستينس (حوالي ٢٨٤ـ١٩٢ قبل الميلاد)، انتقل هذا النّسق من المصنّف المسمّى *Anaforikas* لهيْسيكلِس وهيپاركوس إلى بطليموس، ولا يُعرف من جعل عدد الأقاليم فيه سبعة. ومع الموجز، الذي وصفه الخوارزمي في كتاب "صورة الأرض" حول "جغرافيا" بطليموس، دخل هذا النّسق إلى عالم الإسلام، فاستخدمه، على سبيل المثال، سهراب (حيًّا ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، والإدريسي المذكور آنفًا، والأندلسي ابن سعيد في كتابه "الجغرافيا". وفي إطار التطوّر الذي شهده هذا النّسق في عالم الإسلام، أدخل البيروني عليه بعض التعديلات، وأُضيف إليه شبه إقليمين آخرين، استدعتهما اكتشافاتُ أرضٍ جديدة، هي "تلك المسكونة فيما وراء خطّ الاستواء" و"فيما وراء الإقليم السابع".

كان الخطّ ـ الأصل لخطوط الطول قد تمّ تحديده، قبل ذلك في العصور

القديمة، بجُزُر الكناري. ورسم الإدريسي خطوط الطول الأحد عشر الضرورية لتحديد المقاطع العشرة التي من شأنها أن تُغطّي مساحة المعمورة. وهناك مؤلّفون آخرون، مع تسليمهم بهٰذه الشبكة الأساسيّة، حرصوا علىٰ أن يُسجّلوا إلىٰ جانب ٱسم كلّ موقع ما يُقابله من درجة طولٍ ودرجة عرض، مقتدين من ثَمّ ببطليموس والخوارزمي، ولٰكن دون أن يُقْدِموا علىٰ رسم شبكةٍ كثيفة بما فيه الكفاية، تَحلّ محلّ هٰذا التقسيم إلىٰ أقاليم ومقاطع. فإذا ما نُبْنا عنهم، كان في وُسْعنا أن نرىٰ، علىٰ الفور، أنّ تحديد المواقع الجغرافيّة عن طريق ٱختصار مقادير المسارات في أقواسٍ، لم يكن، في معظم الحالات، موفّقًا جدًّا. بينما لدينا خرائط من فارس تضمّ شبكة خطوط الطول وخطوط العرض وأسماء المواقع منقوشةً في أماكن قريبةٍ جدًّا من الأماكن المقابلة لها في الواقع. ونعني بذٰلك خرائط "حافظي أبرو" (ت ١٤٣٠م)، ومستوفي (ت ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م). وهٰذا الأخير، بوجه الخصوص، مصيبٌ إلىٰ أقصىٰ حدّ، فيما يتعلّق بدرجات العرض، ويبعدُ عن الصواب شيئًا ما فيما يخصّ درجات الطول، التي حُسبت بوجه التقريب ٱنطلاقًا من خطّ الطول ٣٤ درجة، غرب گرينتش، وهو خطّ الطول لنقطة الٱبتداء، والذي قد نجده أيضًا ٱستنادًا إلىٰ أعمال المغربيَّيْن أبي الحسن علي وٱبن البنّا، ويقتضي تحقيق التطابق نقل موقع الجزيرة السعيدة نحو الغرب. ويعني ذٰلك أنّ الشبكة الجغرافيّة ـ الفلكيّة ظهرت في بلاد فارس خلال حكم الإلخانيّين. لذٰلك هناك ما يدعو إلىٰ الظنّ بأنّ لها أصلًا صينيًّا.

والواقع أننا نقع علىٰ هٰذا الأصل. فالجغرافي شوسّو ـ پن (حيًّا ١٣١١ـ١٣٢٠م)، رغبةً منه في أن يُبادر إلىٰ تحديد المسافات التي تفصل بين نقطتين معيّنتين علىٰ الخارطة أو أن يحسب المساحات، خطر له أن يُضيف إليها رسمًا من المربّعات المتّصلة. ولم تكن هٰذه المربّعات تستدعي، في البداية، أيّة منظومةٍ إسقاطيّة. ولٰكن أمكن ٱستخدامها كما هي بلا مسوّغ، لأنّ الأخطاء المرتكبة حتّىٰ درجة العرض ٣٠ كانت طفيفةً نسبيًّا. ويقع قسمٌ لا بأس به من الصين وفارس ضمن هٰذه المنطقة. ولعلّ نقل هٰذه الخريطة الأوّليّة ذات المربّعات، إلىٰ الغرب، قد تمّ لحساب مارينو سانودو، أو روي گونزاليث دي كلاڤيخو، أو نيكولو داكونتي ـ أحد المخبرين الأساسيّين عند

ب. ب. توسكانيلي ـ أو أيّ فردٍ آخر من المسافرين والتجّار والسفراء العديدين الذين أخذوا يطوفون في آسيا اعتبارًا من العهد المغولي. ومنهم، على سبيل المثال، ماركو پولو الذي كتب، وهو مُبْحِرٌ على بُعدٍ من جزيرة سيلان (قبل عام ١٢٩٥م [٦٩٤هـ])، «أنها كبيرةٌ بقدر كاف، لأنّ محيطها يبلغ ٣٦٠٠ ميل، حسبما هو مدوّنٌ في خريطة العالم لدى ملّاحي هٰذا البحر». ولا نبالغ إذا ما افترضنا أنّ الخرائط التي كان يستخدمها آنذاك بحّارة المحيط الهندي تعود إلى خمسين عامًا مضت على الأقلّ، الأمر الذي يجعلها سابقةً لأيّة خريطةٍ أوروبيّة، بما في ذلك البيزانيّة والمغربيّة. وفي ذلك الحين، أوفد الإلخانيُّ آرگونُ الجنويَّ بوسكاريلو دي گيزولفي إلى فيليب الرابع الوسيم، ملك فرنسا. وأراد آرگون، بعد سفر هٰذا المبعوث (١٢٨٩م)، أن يعرف في أيّة نقطة كان موجودًا، وأيّ طريق كان يسلك. فأمسك قطب الدين بخريطة، ولبّى حبّ الاستطلاع لدى الإلخاني مستعينًا بها.

ومن المناسب لرسم خريطةِ حوضِ مياهٍ سطحيّة، استخدامُ البُوصلة. وأوائل الشهادات التي لدينا موجودة في نصوص صينيّة أو مسيحيّة، إذا ما تركنا جانبًا تلك المتعلّقة بالأندلس عام ٨٥٤م [٢٣٩هـ]، والتي يدُلّ عليها، فيما يبدو، البيتان التاليان:

ضرط القاسمُ يومًا ضرطةً في القَرَميطْ
مات منها كلُّ حوتٍ كان في البحر المحيطْ !*

وتعود الشهادات التالية لكلٍّ من گيو دي پروفنس (حيًّا ١٢٠٥م)، واسكندر

* ابن عِذاري، "البيان المُغرِب..."، ٢، ٩٤.

وبدا أنّ كلمة القَرَميط كانت من الدارج على ألسنة الأندلسيّين، وهي من الإسبانيّة **calamita** (أي المغنطيس)، التي هي أيضًا البوصلة **brújula** كما فسّرها قِرنت في المتن، وهو يحيل في حاشية له إلى كتاب "البيان المغرب..."، طبعة دوزي (ليدن، ١٩٥١) ص ٩٤، وما بين أيدينا طبعةٌ من تحقيق المستشرقَين الفرنسيّين كولان وبروفنسال، وقد ورد النظم فيها ص ٩٤ أيضًا، وضبطت فيها الكلمة "القرْميط" (بتسكين الراء)، فأخلّ ذلك بالوزن (مجزوء الرمل)!

نيكام (١١٩٥م)، وجاك دي فيتري (١٢١٨م)، وفيسنته دي بوفيه، وألبرتو الكبير، وألفونسو الحكيم، ورامون يول. يعزو الثالثُ من هٰؤلاء البوصلةَ إلىٰ أصلٍ هندي، ويرجِع الرابع والخامس إلىٰ جيراردو الكريموني، مترجم طليطلة الكبير، ومن ثَمَّ، علىٰ نحوٍ غيرِ مباشر، إلىٰ مصادر عربيّة. أمّا الصينيّون، الذين كانوا أوّل من عرف خصائص المغنطيس، فيعتقدون أنّ البوصلة كانت من ٱختراع الأجانب، أي أنها ٱختراعٌ هنديّ، أو فارسيّ، أو عربيّ، أو جاويّ، وهٰذا ما يتبيّن، علىٰ الأقلّ، من قول شو ـ يو (حيًّا ١١٠٠م) بأنها ٱستُعملت أوّل مرّة ببحر الصين في مركبٍ كان يتوجّه من سومطرة إلىٰ كانتون. كان العرب، حسبما يُستنتج من هٰذه المعلومة، يعرفون هٰذه الآلة ـ لعلّها البوصلة المحرّضة بالحكّ ـ في القرن الحادي عشر [٥ هـ]، ولٰكنهم ٱحتفظوا بسرّها التقني، لأنها كانت تُسهّل لهم التجارة البحريّة متفوّقين علىٰ منافسيهم. فليس غريبًا، إذن، أنّ نصوصهم لم تذكرها حتّىٰ العقد الثالث من القرن الثالث عشر [٧ هـ]. وذٰلك عندما روىٰ محمّد العوفي في كتابه "جوامع الحكايات" أنّ ربّانًا تائهًا في الخليج [العربي]، وسط عاصفةٍ هوجاء، ٱهتدىٰ إلىٰ ٱتّجاه طريقه بٱستخدامه إبرةً لها شكل سمكة، حُرّضت بالحكّ مسبقًا. أمّا بيلق القبجاقي (ت حوالي ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، فيروي، في مختصره "كنز التجّار في معرفة كريم الأحجار"، أنه تيسّر له، خلال رحلةٍ كان يقوم بها في شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط، أن يُراقب كيف يُحدّد البحّارة ٱتّجاههم بوساطة البوصلة. وكان ملّاحو البحر الأبيض المتوسّط هٰؤلاء يعتبرون مكّة الجنوبَ المغناطيسي، لذٰلك كانت الإبرة التي تُشير إلىٰ الجنوب تُسمّىٰ، عندهم، القِبلة أو الجنوب، بخلاف الملّاحين الذين كانوا يُبحرون في المحيط الهندي، فقد كانوا يُطلقون علىٰ القطب ذاته ٱسم "سهيل"، ٱسم نجم آلفا المركب البحري، وكانوا يقصدون بذٰلك الإشارة إلىٰ أنهم مبحرون نحو الجنوب، ملتمسين في هٰذا النّجم سَمْت كانوبه Canope [الجنوب]، الأسم الذي به نعرف في الوقت الراهن هٰذا النّجم [في الإسبانيّة]. ويُميّز ٱبن ماجد، في معرض تناوله هٰذه المسائل، بين دائرة الأتّجاهات الأربعة والعشرين (الخان) أو الجاويّة، ودائرة الأثنين والثلاثين

أو العربيّة. ونجد صدىٰ هٰذين النوعين لدىٰ تشوسر الذي كتب: *«هناك أربعة وعشرون سَمْتًا، ولدىٰ رجال البحر اثنان وثلاثون»*.

ليس بالغريب، إذن، أن تظهر، في أوائل القرن الثالث عشر [أوائل ٧ هـ]، أوّلُ خريطةٍ بمسالك البحر الأبيض المتوسّط، وهي إيطاليّة، نشرها موتوزو. وتضمّ مختلف أحواض مياه البحر السطحيّة في كيان واحد. وظهر عام ١٢٧٠م أوّل ذكرٍ لخارطةٍ بَحْريّةٍ في بحرنا *Mare Nostrum* [حسبما درج الإيطاليّون علىٰ تسمية البحر الأبيض المتوسّط]، عندما طلب لويس التاسع، وهو مبحرٌ نحو تونس [الحملة الصليبيّة التاسعة]، من الأميرال أن يُبيِّن له [علىٰ الخريطة] النقطة التي كان فيها تلك اللحظة. وترجع أقدمُ خريطةٍ محفوظة، الخريطةُ البيزانيّة، إلىٰ الربع الأخير من القرن الثالث عشر.

وسرعان ما تكاثر عدد الخرائط، فإلىٰ جانب الإيطاليّة منها ظهرت خرائط ميورقة، وخريطةٌ عربيّة لغرب البحر الأبيض المتوسّط، رُسمت حوالي عام ١٣٣٠م [٧٣٠هـ]، وهي المرحلة التي كانت فيها كلٌّ من البحريّة المغربيّة والغرناطيّة قد بلغتا الأوج، وكان فيها أمير البحر ابن كُماشة وابن سلفادور يثيران المتاعب للأساطيل المسيحيّة التي تعبر المضيق. لذٰلك، لا نُبالغ إذا ما افترضنا أنه يُمكننا ـ وذٰلك مثلما يمكن أن نعزو إلىٰ الباسكيّين القيامَ برسم السواحل الكَنْتَبريّة [سواحل إسبانيا الشّماليّة] ـ أن نُضيف إلىٰ رصيد عرب الغرب، مغاربة وغرناطيّين، جَمْعَ سواحل الأطلسي في خريطة واحدة، وهٰذا ما قد يُفسّر لنا التواء المقاييس بالفراسخ بين سواحل الأطلسي والبحر الأبيض المتوسّط. ومن ثَمّ، عندما انطلق الميورقيّون والجَنَوِيّون لاكتشاف جزر الكناري، كانت لديهم معلوماتٌ مسبقة قد وفّرها لهم العرب أنفسهم.

ومن جانبٍ آخر، كان العرب قد أدخلوا علىٰ المراكب الشراع اللاتيني، ومعه طريقة الملاحة في اتّجاه الريح، ويُقدّم لنا ابنُ حوقل أوّل وصفٍ مكتوب حوله، وكان قد شاهده في القرن العاشر [٤ هـ] في دلتا النيل، وكذٰلك دَفّة القائم الخلفي

للمركب، التي تمّ ٱبتكارها في الصين، وكانت قد دخلت، قبل ذلك، إلىٰ البحر الأبيض المتوسّط، حسبما يُستنتج من إيضاحات الرحّالة [الأندلسي] البلنسي ٱبن جُبير، في أوائل القرن الثاني عشر [٦ هـ]، وكانوا ـ فضلًا عن ذلك ـ يعرفون أساليب الملاحة في المحيط الهندي، التي أصبحت مُستخدمةً في الملاحة في المحيط الأطلسي في القرن الخامس عشر [٩ هـ]. ومن المحتمل أن يكون دمج هٰذه المعارف كلّها قد تمّ في ميورقة. ففي هٰذه الجزيرة، أدخل سولر إلىٰ خارطته، التي رسمها عام ١٣٨٥م، بيان سبر الأعماق الذي وصفه وصفًا دقيقًا في مصنّفه المسمّىٰ *el compasso*، ومنها أيضًا خرج خايمه ريبس، الذي كان يُدعىٰ خافوده كريسكس قبل أن يتخلّىٰ عن ديانته اليهوديّة، كي يضع نفسه في خدمة الأمير الملكي دون أنريكه البرتغالي. لذلك يجوز لنا أن نربط بين ظهور أوائل الخرائط الملاحيّة البرتغاليّة (في القرن الخامس عشر) بأستاذيّة ريبس، تمامًا مثلما أصبح الإسباني خوان فاراس، بعد ذلك بقرن (١٥٠٠م) في خدمة البرتغال، وأجرىٰ تجاربه حول الملاحة الفلكيّة.

فما هو قِوامُ هٰذه الملاحة؟

يُبيّن لاگواردا بأنّ الملاحة كانت لا تزال، في عام ١٤١٥م، تتمّ بالتقدير [البصري]. وهٰذا أسلوب «كان يقوم علىٰ *تحديد الطريق الذي يقطعه المركب خلال أربع وعشرين ساعة (سفر يوم)، بوساطة البوصلة أو إبرة الملاحة (التي كانت تجعل الاتّجاه مناسبًا)، ودرجة طول المسيرة (المسافة مقدّرة بالبصر، أو التقدير)*. وكانت هٰذه المعلومات، *إذا ما حُوّلت إلىٰ الخريطة الملاحيّة*، تسمح بتحديد نقطة وجود السفينة *(النقطة التخيّليّة)*». فعندما تُوغِل السفينة في المحيط، وتغيب اليابسةُ عن النظر عدّة أيّام، يستلزم الأمر تقليل مخاطر أسلوب التقدير البصري، وذلك عن طريق الرصد الفلكي، الذي يُبيّن لنا خوان دي باروس[24] كيف تمّ ٱدخاله:

> «ولٰكن، بما أنّ الحاجة أمّ ٱختراع الفنون بأسْرها، فقد عَهِد الملك دون خوان الثاني، إبّان عهده، بهٰذه المهمّة إلىٰ المعلّم رودريگو

وإلىٰ المعلّم خوزيه، وهو يهودي، وكلا الاثنين طبيباه الخاصّان، وإلىٰ شخصٍ يُدعىٰ مارتان دي بوهيميا، وأصله من البلاد المذكورة، وكان يتباهىٰ بكونه تلميذ خوان دي مونته ريجيو، الفلكيّ المشهور في أوساط أساتذة هٰذه العلوم. وقد ابتكر هٰؤلاء هٰذا الأسلوب في الملاحة المستنِد إلىٰ علوّ الشمس...».

ومن البدهيّ أنّ هٰذه الأرصاد، التي كان في وسعها أن تتّخذ مؤشّرًا لها الشمسَ نهارًا ونجمَ القطب ليلًا، كان من شأنها أن تُحدِّد درجة العرض تحديدًا صحيحًا علىٰ نحوٍ يفي بالغرض. وكانت الأرصاد من الصنف الأوّل تتطلّب منهم أن يستخدموا علىٰ ظهر المركب تقويماتٍ فلكيّة تُقيّد الميل الزاوي للشمس، وأدواتٍ مناسبة لتحديد علوّها ـ الأسطرلاب، المزولة الربعيّة أو آلة قياس زاوية النجوم المسمّاة *ballestilla* ـ وخرائط مقسّمة إلىٰ درجات العرض ودرجات الطول[25]، من شأنها أن تسمح بتحديد نقطة الرصد. إلّا أنّ هٰذه الخرائط الملاحيّة كانت معروفةً في المحيط الهندي، حسبما بيّنّا آنفًا، ولٰكنها لم تكن قد وصلت إلىٰ الغرب بعد، حيث كانت أوائل الخرائط المعروفة المقسّمة إلىٰ درجات العرض من عمل أناسٍ برتغاليّين أو تمّ إنجازها بناءً علىٰ تكليفٍ منهم؛ من ذٰلك، علىٰ سبيل المثال، خرائط پيدرو راينيل (حوالي ١٥٠٢م) ونيكولاس دي كافيرو (١٥٠٥م). ولٰكن، حتّىٰ مستوىٰ درجة العرض ٣٠، تختلط الخريطة المسطّحة ذات التربيعات مع خريطة ميركادور، لأنّ المسافة من خطّ العرض φ إلىٰ خطّ الاستواء، تُحسب بموجب النسبة ١\جيب تمام φ. لذٰلك كان من شأن انتظام المربّعات المتّصلة، إذا كان قائمًا بالفعل، أن يسمح في هٰذه الظروف برسم سير السفينة المنحرف، دونما عيوبٍ جسيمة. لذٰلك لم يكن بدٌّ، قبل أن يظهر أسلوب التدريج بصورة رسميّة، من أن تتمّ إضافته إلىٰ الخرائط المستخدمة، ولا سيّما إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ أولىٰ محاولات تحديد درجات العرض قبل التوصّل إلىٰ القيام بها في أثناء الملاحة في عرض البحار، كانت تتمّ عن طريق قياس علوّ الشمس علىٰ الأرض الثابتة، بالنزول من المركب علىٰ الشاطئ [كانت الملاحة شاطئيّة]. يقول أوّلُ من قام بقياسٍ محفوظ لنا (يجوز أن ينسب إلىٰ ديگو گومس (١٤٥٦ـ١٤٦٢م) أو إلىٰ مارتان بيهايم

(١٤٨٤م))، ما يلي: «عندما وصلت إلىٰ تلك الأصقاع [غينيا] كنت أحمل مزولةً ربعيّة، وقد سجّلتُ علىٰ لوحٍ [خشبة] هٰذه المزولة ٱرتفاع القطب الشّمالي، لأني وجدت أنّ المزولة الربعيّة كانت أفضل من الخريطة. ومن المؤكّد أنّ الطريق يُرىٰ علىٰ الخريطة، ولٰكن إذا كان هٰذا الطريق غير صحيح، فإننا لن نصل أبدًا إلىٰ المكان المقصود».

وكلمة لوح tabla يجوز أن تَقْبَل، حسبما لاحظ بوجوان، تفسيرًا مزدوجًا: خشبة المزولة الربعيّة ذاتها، وفي هٰذه الحالة هناك ما يدعو إلىٰ الاعتقاد بأنه أجرىٰ رصدًا للقطب بطريقة "الرقيبين" [نجمين من الدبّ الأصغر] ذات الأصل الهنديّ، أو جدول الميول الزاويّة للشمس. وقد تكاثرت اعتبارًا من ذٰلك التاريخ، عمليّاتُ رصد العلوّ، وأصبح إنجازها ممكنًا علىٰ ظهر المركب، بفضل الأسطرلابات الملاحيّة ـ وهي أشكال مبسّطة من الأسطرلابات التي تمّ وصفها فيما تقدّم ـ وبفضل الآلة القديمة لقياس زاوية النّجوم ballestilla أو عصا يعقوب. هٰذه الآلة الأخيرة ـ التي يُعزىٰ اختراعها إلىٰ ليڤي بن گرسون ـ تُشكّل، في نظر لاگواردا، الحلقة الأخيرة من تطوّر كاسر هيپاركوس أو كَمَخ Kamax پيتياس «وقد جُلبت إلىٰ آسيا وٱستمرّ وجودها في هٰذه القارّة. ولم يعمل گرسون إلّا علىٰ ٱنتشار المعلومات أو هٰذه الآلة التي جلبها الراهب جوردان دي سيڤيراك. وإنه لخروجٌ علىٰ أبسط قواعد المنطق أن يُدّعىٰ بأنّ آلةً معروفةً في آسيا قد ٱخترعت في آڤينيون أو في ضواحيها، وذٰلك بعد مدّة قصيرة من وصول الراهب جوردان إلىٰ هناك جالبًا معه معلوماتٍ حول هٰذه الآلة، أو جالبًا الآلة ذاتها».

حتّىٰ هنا، نكون قد وقعنا، مرّاتٍ عدّة، علىٰ إشاراتٍ إلىٰ تقنيّات الملاحة في المحيط الهندي، كان لها صدىٰ في الشهادات الغربيّة. بل لقد أُتيح لنا، في بعض الحالات، أن نومئ إلىٰ الآليّة المحتملة التي تمّ بموجبها ٱنتقال هٰذه المعارف، صارفين النظر، يقينًا، عن إمكان صدور مثل هٰذه المعارف مباشرةً، ومن البحّارة أنفسهم. فأحمد بن ماجد يؤكّد:

يقال إنّ المراكب المسيحيّة [الإفرنجيّة] وصلت
في الأزمان الغابرة، إلىٰ مدغشقر [جزر القمر].
وبأنها بلغت، أيضًا، بلاد الزّنج [سُفَالة، وفيها بلدة "كِلْوَة"]
والهند، علىٰ ما يرويه أصحابها...

[وقالت الإفرنج بالتحقيقِ، إنّا كشفناها علىٰ الطريقِ
وموسمُ السواحل "للقُمْرِ" وجُزْرِهِ، ثمّ "السُّفَالِ"، فَاذْرِ
مِن أوّلِ النّيروزِ للسّبعينا وأهلُ "كِلْوَة" موسمُ التّسعينا]*

ولحسن الحظّ، إنّ جميع أسماء المواقع الواردة في هٰذه الأبيات التعليميّة[26] يسهل التعرّف عليها، ولم يلتبس الأمر في شأنها كما آلتبس بالنسبة إلىٰ أسماء مواقع أخرىٰ، يُشير إليها المؤلّف ذاته:

ذٰلك ما كان يحدث مع رهمانج القدامىٰ.
لا يعرف علماء العصر الراهن أسماء هٰذه الأماكن،
لأنّ الدّهر غيّرها وحوّلها.

[فهٰكذا في الأبحُرِ المجهولَهْ مَيِّزْ بالأفكار ما أقولَهْ
كذٰاك في رَهْمانَجِ المُقْدِما ليس له، اليومَ، تُبادر العُلَما
قد حُرِّفَتْ أسماؤها، وغُيِّرَتْ وخيرُها للشخص ما قد شُهِرَتْ]**

* "أحمد بن ماجد، منظُر الملاحة الفلكيّة في المحيط الهندي..."، تأليف وتحقيق إبراهيم خوري (رأس الخيمة [الإمارات العربيّة المتّحدة]: مركز الدراسات والوثائق في الديوان الأميري، ١٩٨٩)، ٣، ٥٧ و٥٨. وقد آفتقدنا، في الأرجوزة الثانية "السُّفاليّة"، البيت الأوّل، الذي وقفنا عليه في: "ثلاث أزهار في معرفة البحار" (أحمد بن ماجد، ملّاح ڤاسكو دي جاما)، تحقيق تيودور شوموفسكي، ترجمة وتعليق الدكتور محمّد منير العروسي، (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٦٩)، ٥٠.
ويتعيّن ألّا نأبه بالفصاحة أو بالوزن الشعري المفتقدين في هٰذه الأرجوزة، التي نفض فيها آبنُ ماجد كلّ ما يملك من معلومات ملاحيّة أحبّ أن تبقىٰ للأجيال.

** "أحمد بن ماجد..."، ٣، ٦٤؛ وكذٰلك، "ثلاث أزهار.."، ٤٨.

ومن جهة أخرىٰ، يتبيّن من أسماء بعض ربابنة المحيط الهندي أنّ منشأها مغاربيّ، وكلّ شيء يدفعنا إلىٰ أن نفترض أنّ قادس لم تفقد هيمنتها في ميدان التجارة الأطلسيّة ـ حتّىٰ غينيا؟ ـ وأنّ أمراء البحر من عائلة بني ميمون في الحِقبة الإسلاميّة، ومجموعة البحّارة الباسكيّين بعد الاَسترداد [اَسترداد الأندلس]، قد واصلوا ملاحتهم علىٰ طول شواطئ إفريقية. وليس عبثًا أنّ اَبن رشد كان يعتقد أنّ العالم المسكون يواصل اَمتداده جنوب خطّ الاَستواء، ولعلّ هٰذه الأفكار قد دفعت إلىٰ الاَلتفاف في الملاحة حول إفريقية في كلا الاَتّجاهين. ويحتفظ لنا الراهب ماورو، في كتابه ''خريطة العالم'' (١٤٥٧م)، بنصٍّ حول ملاحةٍ عربيّة مشرقيّة اَمتدّت علىٰ نحوٍ كافٍ إلىٰ غربيّ رأس الرجاء الصالح (١٤٢٠م [٨٢٣هـ])، يُشكّل النظير المقابل لتأكيدات اَبن ماجد، ويُبيّن أنّ كلًّا من المسيحيّين والمسلمين كانوا يبحثون عن مسالك تجاريّةٍ جديدة، ممّا يعني أنهم كانوا يهتمّون بما يتحقّق من تقدُّمٍ بفضل زملائهم في الجانب الآخر من العالم.

وصفوة القول إنّ التأثيرات العربيّة ـ المشرقيّة منها والمغربيّة ـ التي شاعت بين بحّارة شبه الجزيرة الإيبيريّة، كانت التالية:

- *إدخال البوصلة، وخرائط المسالك البحريّة، والخريطة الملاحيّة، والآلة القديمة لقياس زاوية النّجوم، ودفّة قائم السفينة الخلفي، والشراع اللاتيني؛*
- *وفي الخرائط، تَبَنّي مقياس ٥٦,٦٦ ميلًا للدرجة، وذٰلك حوالي عام (١٣٢٧م [٧٢٧هـ])، وهي القيمة التي وضعها علماء الفلك ببلاط المأمون [بن ذي النّون في طليطلة]، ومقياس ٦٦,٦٦ الذي وضعه خايمه ريبس في أوائل القرن الخامس عشر والمشتقّ بالرجوع إلىٰ أبي الحسن علي، ومقياس ٧٥ ميلًا لاَبن خرداذبه وقد نسخه الإدريسي؛*
- *قيام كاداموستو[27] باَستخدام المزراق مقياسًا للزوايا، وكان*

يُستخدم في المحيط الهندي منذ القرن الثالث عشر على الأقلّ[28]*،*
وورد ذكره في النصوص الفلكيّة منذ القرن العاشر[29]*،*

- *تحديد درجة العرض عن طريق رصد الرقيبين (النّجمان β بيتا و γ يوتا من مجموعة الدبّ الأصغر)*[30]*، وآستخدام جداول المَيل الشمسي في المناطق القريبة من خطّ الآستواء ـ وكان بحّارة المحيط الهندي يعبرونه قبل بحّارة الأطلسي بعدّة قرون ـ التي وصل إليها البرتغاليّون عام ١٤٧١م.*

وإنّ آتّخاذ تقويم أبراهام زاكوتو، والمعروف بآسم *Almanach perpetuum*، من عام ١٤٧٣م عامَ أساسٍ، يُثبت أنّ هٰذا الفلكيّ الإسباني هو الذي كُلِّف حسابَ هٰذه الجداول. ولٰكن لم يكن للجداول المستخدمة كلّها المصدر ذاته، فالميول الزاويّة للشمس في جداول بيدرو الآحتفالي وتلك التي آستخدمها كولومبس، مشتقّةٌ من الميول الزاويّة لدىٰ آبن الكمّاد، في نسخة مختلفة عن النسخة اللاتينيّة المحفوظة في المكتبة الوطنيّة بمدريد، ولعلّها النسخة الإسبانيّة التي آكتشفها بوجوان؛ وكذٰلك لا يُمكننا أيضًا أن ننسب إلىٰ آبن الكمّاد جدول الميل الزاوي الذي أدرجه ألفونسو العاشر في "كتب المعرفة بعلم الفلك".

حواشي المؤلّف

1. إنّ اشتقاق هٰذه الكلمة غامض الأصل، وعلماء الألفاظ أبعد ما يكونون عن الاتّفاق حوله، ناسبين هٰذه الكلمة، تبعًا للمؤلّفين، إلىٰ الفارسيّة أو اليونانيّة أو العبريّة.

2. راجع "كتاب الفلاحة"، الطبعة الثانية، بانكيري (مدريد، ١٨٠٢)، ص ٣٩٧.

3. طُبع في *Theatrum Chemicum*، ٤ (ستراسبورگ، ١٦١٣) صص ١٩٨_٢١٣. راجع مقال م. إ. شفرول "دراسة نقديّة لمخطوط سيميائي عنوانه مفاتيح العلم الكبرىٰ لأرتفيوس" المنشور في *CRAS*، ٣٦ (١٨٦٧) صص ٣٣_٨٢.

4. راجع إصدار هـ. ريتر، المجريطي الزائف، "غاية الحكيم" ١، النصّ العربي (لايبزگ، ١٩٣٣)، والترجمة الألمانيّة التي ترجمها هـ. ريتر وم. پلسنر، **Picatrix** "غاية الحكيم للمجريطي الزائف" (لندن، ١٩٦٢) *Das Ziel des Weisen von Pseudo-Magriti*.

5. راجع [ما نشره] ج. روسكا وم. پلسنر في *EI*[2]، ١، ص ١١٩٠. ويبدو أنّ الأمر يتعلّق بالحصاة الصفراويّة للماعز (باللاتينيّة **Copra ægagrus Gm**).

6. راجع كتابه "تحفة الألباب ونخبة الأعجاب"، طبعة ج. فِرّان في *JA*، ١٩٢٥، ١، ١_١٤٨، ١٩٥_٣٠٣، ص٢٢٣.

7. راجع مقال ر. ستيل "الكيمياء العلميّة في القرن الثاني عشر. كتاب حجر الشبّ والأملاح للرازي، ترجمة جيراردو الكريموني" المنشور في *Isis*، ١٢ (١٩٢٩)، صص ١٠_٤٦، ومقال م. آسين "ملحوظات حول طبعة ر. ستيل لكتاب الرازي حجر الشبّ والأملاح"، *Isis*، ١٣ (١٩٣٠)، ص ٣٥٨، وكتاب ج. روسكا "كتاب حجر الشبّ والأملاح. عمل أساسي لسيمياء اللاتينيّة المتأخّرة" (برلين، ١٩٣٥).

إنّ نسبة هٰذا العمل إلىٰ الرازي غير مؤكّدة، ولعلّه من تأليف مؤلّف أندلسي، وضعه باسم الرازي، ليؤمّن له انتشارًا أوسع.

8. ... كان يُشار إلىٰ المعادن (وكذٰلك إلىٰ معظم الأجسام الأخرىٰ والعمليّات الكيميائيّة) بأصطلاحات علم التنجيم، فكانت الشمس تعني الذهب، والقمر الفضّة، والزُّهَرة النحاس، والمرّيخ الحديد، وعُطارد الزئبق، وزُحَل الرصاص، والمشتري التوتياء...

9. ظهر وصف ملابس الغطس من قبل أرسطوطاليس الزائف في كتاب *Problemata*، ٢، حيث يُقارن أنبوب التهوية بخرطوم الفيلة. وفي القرون الوسطىٰ، تُحدّثنا أغنية "سلمان ومورولف" (١١٩٠) (المقطعان ١٧٤ و٣٤٢) عن «*أنبوب كان يصل إلىٰ حطام السفينة الغارقة، وبواسطته... كان مورولف يتنفّس الهواء*».

10. يبدو أنّ الآلات الكلاسيكيّة المزعومة، القائمة علىٰ أنيموريون هيرون (*Pneumatica*، ١، ٤٣)، ليس لها علاقةٌ ما مع الآلة التي تهمّنا هنا. أنظر وصفها في مقال خ. كارلو باروخا "بحث حول طواحين الهواء"، المنشور في *RDTP*، ٨، ٢ (١٩٥٢)، صص ٢١٢ـ٣٦٦، ولا سيّما صص ٢١٥ـ٢١٩.

11. "شبه الجزيرة الإيبيريّة في القرون الوسطىٰ بحسب كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار"، أصدره وترجمه إلىٰ الفرنسيّة ليڤي پروڤنسال (ليدن، ١٩٣٨) [وبالعربيّة، "صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار"].

12. راجع كتاب خ. مارتينيث رويث "التقاليد الأندلسيّة في كتاب الحبّ الصالح" (برشلونة ١٩٧٣)، صص ١٨٧ـ٢٠١، حيث يدرس المفردات العربيّة عند رئيس كهنة هيتا.

13. علىٰ سبيل المثال، يقول أوليوخيليو في "ليالٍ آتيكيّة" [نسبة إلىٰ شبه جزيرة آتيكا، حيث تقع أثينا]، ١٩، ٥، ٥: «*تحت وطأة الحرّ الشديد في الصيف، كنت قد أويت إلىٰ منزل*

> صديقٍ ثريّ، في ريف تيڤولي. كنّا هنالك عددًا من الأصدقاء في سنٍّ واحدة، كلّنا فلاسفةٌ أو بلغاء، وكان بيننا رجلٌ ممتاز، متحمّس جدًّا لأرسطوطاليس. وكنّا نشرب ماء الثلج بكمّيّات كبيرة، وكان هو يُحاول منعنا من ذٰلك، ويشتدّ في منعنا، مستشهدًا بأقوال أطبّاء مشهورين، ولا سيّما أرسطوطاليس، الذي كان يعلم كلّ ما يسع إنسانًا أن يعلم. ففي رأي أمير العلم هٰذا، يُفيد ماء الثلج النبات، دونما شكّ، ولٰكنه مضرٌّ بالإنسان إذا ما أفرط في شربه، لأنه يُكوّن في أحشائه شيئًا فشيئًا بزرة فساد ومرض...».

ويُبيّن لامپيديو في "حياة هيليوگاباالو، ٢٣" كيف بنىٰ هٰذا الإمبراطور في قصره قبوًا لحفظ الثلج.

14. نقلًا عن كتاب ج. كولومب "التكوين الفيزيائي للأرض" (باريس، ١٩٥٤)، صص ٢٠٨ـ٢٠٩.

15. راجع "كتاب المرشد والفصول"، الذي نشره زكي أسكندر في مجلّة معهد المخطوطات العربيّة، ٧، ١، (١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م)، ص ٣١.

16. يرجع أقدمها إلىٰ ١٣ آب/ أغسطس ١٣٠٣، وأَدين بذٰلك لما تفضّل بإعلامي به صديقي الكبير السيّد مانويل ريو، أستاذ كرسي تاريخ القرون الوسطىٰ في جامعة برشلونة. ويتعلّق الأمر بترخيصٍ لاَستخراج الثلج من "بوفيا" سلسلة جبال پور ديل كومته.

17. ... راجع كتاب د. أيالون "البارود والأسلحة الناريّة [في عهد] المماليك، تحدٍّ لمجتمع القرون الوسطىٰ" (لندن، ١٩٥٦). وعرض مختار العبّادي لهٰذا العمل في مجلّة *Hesperis*، ٤٧، ٣ـ٤ (١٩٥٩)، صص ٢٦٧ـ٢٧٤. وردَّ أيالون علىٰ پارنگتون في *Arabica*، ١٠، ١، (١٩٦٣)، صص ٦٤ـ٧٣.

18. هل كان أبن الزقّاق، المتوفّىٰ عام ١١٣٨م؟ [أو ١١٣٤م/ ٥٢٨هـ]، يلْمع إليها [سهام الصين]، أم إلىٰ سهامٍ مشرَّبة بالنفط؟ تطرح هٰذه المسألةَ قصيدةٌ نشرها وترجمها گارسيا گوميث في كتابه "أبنُ الزقّاق، أشعار" (مدريد، ١٩٥٦، ص٧٩).

فلدىٰ وصف الرماة، تُقدِّمهم لنا القصيدةُ وهم يشعلون *فتائل الرماح [السهام] التي تومض في الميدان كالمشاعل.. أضواء غريبة تُخمِد الرجال بدلَ أن يُخمدها الرجال.. قل لي: إن كانت نجومًا، فَلِم لا تحتجب من السماء مع الفجر..*

شَبُّوا ذُبَالَ الزُّرق في ليل الوغىٰ	نارًا، وكلُّ مُذَرَّبٍ مصباحا
سُرُجٌ ترىٰ الأرواحَ تُطفي غيرَها	عبثًا، وهٰذي تطفئُ الأرواحا
[لا فرقَ بين النَّيِّراتِ وبينها	إلّا بتسميةِ الوشيج رماحا]
هَبْها تَبَدَّت في الظلامِ كواكبًا	لِمَ لا تغورُ مع النّجومِ صباحا؟

["ديوان أبن الزَّقّاق البَلَنْسي"، تحقيق عفيفة محمود ديراني، سلسلة المكتبة الأندلسيّة ١٣ (بيروت، دار الثقافة، [أطروحة ماجستير قُدِّمت في ١٩٦٤])، ١٢٢ و٢٣].

[شَبُّوا، أوْقَدوا، الذُّبَال (واحدتها ذُبَالَة)، الفتائل، والزُّرق من النِّصال (واحدها الأزرق)، ما أشتدَّ صفاؤه، المُذَرَّب، السيف القاطع، الأرواح الأولىٰ، الرياح، والثانية، النُّفوس].

19. يرد النصّ في كتاب "الإحاطة"، ١ (القاهرة، ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م)، ص ٢٣١، وفي "اللمحة البدريّة" (القاهرة، ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م)، ص٧٢، وترد الأبيات (في روايات مختلفة) في "نفح الطيب"، ٥ (بيروت، ١٩٦٨)، ص ٤٩٣، هٰذه الشهادة علىٰ أوّل معركة بالأسلحة الناريّة

في الغرب لا ترد، فيما أعلم في كتاب "تاريخ المدفعيّة الإسبانيّة" (مدريد، ١٩٤٧) لخورجيه ڤيگون.

20. "[كتاب] أخبار الملك دون ألفونسو الحادي عشر" (مدريد، ١٧٨٧).

21. راجع كتاب خ. ڤيرنيت "تأثيرات إسلاميّة علىٰ أصل رسم الخرائط البحريّة" (مدريد، ١٩٣٥)، ص ١١، حيث نجد أنها قد أستخدمت في سفينة كانت تُبحر في مياه الفيليبين في القرن التاسع، بحسب شهادة بُزُرگ بن شهريار في "كتاب عجائب الهند".

22. لم تكن هٰذه الطريقة في تثبيت [الرسالة] لتُعيق الطيران بحال من الأحوال. فقد كان الورق المستعمل رقيقًا جدًا، وكان المرسِل يسعىٰ إلىٰ الاَستفادة منه إلىٰ أقصىٰ حدّ، حاذفًا الصِّيَغ المكرورة في الاَستهلال والختام، غير تارك في الورقة بياضًا (هوامش).

23. ثمّة اتّجاه، بوجه العموم، إلىٰ اعتبار كلمتَي **Portulano** وخارطةٍ ملاحيّة متعادلتين، فيما يتعلّق بالقرون الوسطىٰ، بينما كان يجدر، في الواقع، استخدام الاَصطلاح الثاني حصرًا، للإشارة إلىٰ خرائط البحار. فكلمة **Portulano**، بحسب معجم كورميناس، تظهر في القشتاليّة مشتقّةً من كلمة **Portalà** القطلونيّة (القرن الرابع عشر). وأحتفظُ بعبارة **Portulano normal**، لأنها ترسّخت في المنشورات العلميّة، للدلالة علىٰ المخطّط الهيدروغرافي الأوّل لحساب بحر معيّن.

24. ... يقول خوان فاراس (راجع ر. أ. لاگواردا في *Comentarios..*، ص ١٢)، أنه حاول تحديد درجة العرض «*عن طريق علوّ الشمس، لا عن طريق أيّة نجمة، إذ يبدو لي أنه من المستحيل أن نقيس ونحن في البحر علوّ نجمة، وقد حاولت ذٰلك وبذلت جهدًا علىٰ غير طائل، ذٰلك أنّ أدنىٰ تأرجُح للسفينة يولِّد خطأً قد يبلغ أربع درجاتٍ أو خمسًا، ممّا لا يدع مجالاً لإجراء القياس إلّا علىٰ اليابسة*».

25. أستغني كليًّا عن أن أتناول هنا تطوّر مشكلة تحديد درجات الطول في البحر، فهي لم تُحلّ حلًّا صحيحًا إلّا في زمنٍ لاحق متأخر جدًّا، حين حلّ ميقّت هاريسون محلّ الساعة الرمليّة...

26. .. من الغريب أن نلاحظ أنّ الخارطة المعنيّة التي أرسلها البوريركي إلىٰ الملك دون مانويل، كانت تشتمل علىٰ رأس الرجاء الصالح، والبرتغال، والبرازيل، والبحر الأحمر، والخليج الفارسي، وجزر مالقة، والصين، والهند!

27. يروي هٰذا الملّاح، لدىٰ الوصول إلىٰ ١٣° شمالًا، أنه لم ينجح في رؤية الدائرة القطبيّة إلّا في جوٍّ صاحٍ جدًّا، و«كانت تبدو وكأنها بارتفاع رُمح» [بوصفه قياسًا زاويًّا].

28. بحسب ما يروي پيدرو دي آبانو، أمكن لماركو پولو أن يُلاحظ أنّ القطب الجنوبي مرتفع بمقدار رُمح.

29. علىٰ سبيل المثال، في وصف السماء، للصوفي...

30. وصف ذٰلك، لأوّل مرّة، في الغرب ڤالنتين فرناندس في كتاب *Repertorio dos tempos* (ميونيخ، ١٥١٨).

الفصل التاسع

العلوم في القرن الثالث عشر (م) وما تلاه:

علم الأرض، وعلم النبات، وعلم الحيوان، والطب

- علم الأرض
- علم النبات
- علم الحيوان
- الطب

الفصل التاسع

العلوم في القرن الثالث عشر [٧ هـ] وما تلاه:
علم الأرض، وعلم النبات، وعلم الحيوان، والطب

علم الأرض:

لا يسعنا أن نقول إنّ العرب ـ وكذلك العالَمَ القديم أو اللاتيني في القرون الوسطىٰ ـ قد عرفوا هٰذا العلم الذي يُطلق عليه اليوم "علم الأرض" (الجيولوجيا)، والذي كان قد أدخله هـ. ب. دي سوسور (١٧٤٠ـ١٧٩٩م)، ولٰكنهم أظهروا اَهتمامهم بجانبين من هٰذا العلم ـ علم الإحاثة وعلم المعادن ـ ممّا أفضىٰ بهم إلىٰ إجراء ملاحظاتٍ هامّة. فقد أدرك اَبن سينا، علىٰ سبيل المثال، اَحتمال وجود أصول جوفيّة ونبتونيّة، ونَجَمَ عن ذٰلك جدلٌ طويل في أواخر القرن الثامن عشر [١٢هـ] بين أنصار هوتون (١٧٢٦ـ١٧٩٧م) وڤيرنر (١٧٥٠ـ١٨١٧م)، ودلّ [اَبنُ سينا]، مثلًا، علىٰ بُعد نظر حين كتب في "كتاب الشفاء" الفقرة التالية، التي اَستخدمها في وقتٍ لاحق كلٌّ من ڤيسنته دي بوڤيه وألبرتو الكبير:

«من الممكن ان تتشكّل الجبال بطريقتين: الأولىٰ طريقة اَرتفاع التربة، وذٰلك علىٰ نحو ما تفعل الزلازل، والثانية طريقة التكوّن

نتيجةً لانجراف المياه والريح التي تفتح أوديةً في الصخور الليّنة وتترك أصلبها بلا حماية لتقلّبات الجوّ. هٰذه كانت عمليّة تكوّن تلال عديدة. ومن الممكن أن تستغرق هٰذه التغيُّرات سنوات كثيرة جدًّا. ومن المحتمل أن تكون الجبال الحاليّة آخذةً في الانخفاض. والدليل، علىٰ أنّ الماء كان العامل الأساسي في التحوّلات التي طرأت علىٰ قشرة الأرض، هو وجود صخور عديدة تحمل آثار حيوانات مائيّة. فالتربة الصفراء التي تُغطّي أديم الجبال، تختلف في الأصل عن تربة باطنها، فهي تنجم عن تحطّم بقايا عضويّةٍ مختلطة ببقايا أخرىٰ حملتها المياه. وفي البدء، كانت هٰذه الموادّ كلّها، ولا شكّ، في البحر الذي كان يُغطّي الأرض بأكملها» .

• لم أُوفّق في العثور علىٰ نصّ ابن سينا في "الشفاء". إلىٰ أن تعرّفتُ علىٰ الباحث الدكتور أنيس مطر (الأستاذ بكلية العلوم بجامعة حلب)، في الندوة العالميّة السادسة لتاريخ العلوم عند العرب (رأس الخيمة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ١٦ ـ ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٦)، وكان موضوع بحثه، "الزلازل وتفسيراتها عند ابن سينا"، فتلطّف ووافاني من جامعة حلب، مشكورًا، بالأصل العربيّ لنصّ ابن سينا، وقد تعرّف عليه بصعوبة،بعد أن «كدتُ أفقد الأمل». (كما قال في رسالته ١ ـ ٤ ـ ١٩٩٧).

وقد بدا لنا أنّ النصّ الإسباني لا يعدو أن يكون تلخيصًا للنصّ العربي وتكثيفًا لمضمونه. ونظرًا لما بين النصّين من تباينٍ في التوضيح والتعبير، فقد آثرتُ أن أُورد في المتن النصّ الإسباني منقولاً إلىٰ العربيّة، وأورد، أدناه، نصّ ابن سينا علىٰ طوله. وقد تفيد الموازنة بين النصّين في التعرّف علىٰ نمطٍ من أنماط الترجمة في القرون الوسطىٰ:

> «وأمّا تكوُّن حجرٍ كبير، فيكون إمّا دُفعةً، وذٰلك بسبب حرٍّ عظيم يُعافص طينًا كثيرًا لزجًا [يشتدّ عليه]، وإمّا أن يكون قليلاً قليلاً علىٰ تواتر الأيّام.
>
> «وأمّا الارتفاع، فقد يقع لذٰلك سببٌ بالذات، وقد يقع له سببٌ بالعَرَض.
>
> «أمّا السبب بالذات، فكما يتّفق، عند كثيرٍ من الزلازل القويّة، أن تَرفع الريحُ الفاعلة للزلزلة طائفةً من الأرض، وتُحدِث رابيةً من الروابي دُفعة، وأمّا الذي بالعَرَض، فأنْ يَعرض، لبعض الأجزاء من الأرض، انحفارٌ دون بعض، بأن تكون رياحٌ نسّافة، أو مياهٌ حفّارة، تتّفق لها حركةٌ علىٰ جزء من الأرض دون جزء، فيتحفّر ما تسيل عليه، ويبقىٰ ما لا تسيل عليه رابيا، ثم لا تزال السيول تغوص في الحفر الأوّل إلىٰ أن تغور غورًا شديدًا، ويبقىٰ ما انحرف عنه شاهقًا. وهذا كالمتحقّق من أمور الجبال وما بينها من الحُفُور والمسالك.
>
> ←

ومعنىٰ هٰذا أنّ ٱبن سينا يُشير بجلاء إلىٰ بروز الأراضي بروزًا بطيئًا، فيُوضّح، هٰكذا علىٰ نحوٍ مُرض، [السبب في] وجود مستحاثات بحريّة فيها.

ولٰكنّ ٱهتمام العرب والمسيحيّين تركّز خاصّةً علىٰ علم المعادن: فوَصْفُ الأحجار (الصخور)، كما هو وارد في المصنّفات المتخصّصة، قد تأثّر، منذ القرن الثالث عشر [٧ هـ]، بالترجمة العربيّة ـ اللاتينيّة لوجيز *Lapidario* أرسطو الزائف (وكان البيروني يعرف زيف هٰذه النسبة) وكتابِ ٱبن سينا. فقد ترجم جيراردو الكريموني الكتاب الأوّل إلىٰ اللاتينيّة، ويضمّ مجموعةً من الموادّ مستمدّةً من مصادر مختلفة، وبوجه العموم، سُريانيّة أو فارسيّة، ويُعزىٰ نشر النصّ اللاتيني إلىٰ لوكاس بن سيرابيون. وقد أثّر الثاني، ٱبنُ سينا، من خلال مصنّفه "تجمّد وٱلتصاق الحجارة" الذي ترجمه ألفريدو دي ساريشيل بعنوان: *De congelatione*

← «وربّما كان الماء، أو الريح، متّفِق الفيضان، إلاّ أنّ أجزاء الأرض تكون مختلفة، فيكون بعضها ليّنةً وبعضها حجريّة، فينحفر الترابيُّ الليّن، ويبقىٰ الحجريُّ مرتفعا. ثم لا يزال ذٰلك المسيل ينحفر وينحفر علىٰ الأيّام، ويتّسع، ويبقىٰ النُّتوء، وكلّما ٱنحفر عنه الأرض كان شُهُوقه أكثر.

«فهٰذه هي الأسباب الأكثريّة لهٰذه الأحوال الثلاثة.

«فالجبال تكوُّنها من أحد أسباب تكوُّن الحجارة، والغالب أنّ تكوُّنها من طين لَزِج جفّ علىٰ طول الزمان، تحجّر في مُدَدٍ لا تُضبط، فيُشبه أن تكون هٰذه المعمورة قد كانت في سالف الأيّام غير معمورة، بل مغمورةً في البحار، فتحجّرت، إمّا بعد الٱنكشاف قليلاً قليلاً في مُدَد لا تفي التأريخات بحفظ أطرافها، وإمّا تحت المياه لشدّة الحرارة المحتقنة تحت البحر، والأَوْلىٰ أن يكون بعد الٱنكشاف، وأن تكون طينتها تُعينها علىٰ التحجُّر، إذ تكون طينتها لَزِجة. ولهٰذا ما يوجد في كثير من الأحجار، إذا كُسرت أجزاء الحيوانات المائيّة كالأصداف وغيرها، ولا يبعد أن تكون القوّة المعدنيّة قد تولّدت هناك، فأعانت أيضًا، وأن تكون مياهٌ قد ٱستحالت أيضًا حجارةً، لٰكن الأَوْلىٰ أن يكون تكوُّن الجبال علىٰ هٰذه الجملة. وكثرة ما فيها من الحجر لكثرة ما يشتمل عليه البحر من الطين، ثمّ ينكشف عنه، وٱرتفاعها لما حفرته السيول والرياح فيما بينها».

ٱبن سينا، "الشفاء" جزء: "الطبيعيّات: ٥ـ المعادن والآثار العُلويّة"، تحقيق الدكتور عبد الحليم منتصر ومَن معه، طبعة مصوّرة بالأوفست (قُم المقدّسة [إيران]: منشورات مكتبة آية الله العظمىٰ المرعشي النجفي، ١٤٠٤هـ)، عن الطبعة المصريّة (القاهرة: الهيئة العامّة لشئون المطابع الأميريّة، ١٩٦٥): ٦ و٧.

et conglutinatione lapidum. وقد أُعتُبر هٰذا المصنَّف، أحيانًا، الجزء الرابع من كتاب "الآثار العُلْوية" لأرسطوطاليس، وحيث نجد تأثيرات لتيوفراسطوس.

وتتكوّن مختصرات القرن الثالث عشر من خليطٍ من المعطيات العلميّة، من طراز تلك التي نجدها لدىٰ ثيوفراسطوس وديسقوريدس، ومن خرافاتٍ ذات أصل إسكندراني تتّصل بعلم التنجيم، ومن رؤيةٍ مسيحيّة لهٰذا العلم أدخلها إيبيفانوس (ت ٤٠٣م)، وأنصبّت من خلال بيدا ورابانوس ماوروس في المختصر المسيحي الذي يدمج هٰذا الاتّجاه بالاتّجاهين السابقين حسبما نجدهما ممثّلين عند ماربوديو (١٠٣٥ـ١١٢٣م) أسقفّ مدينة رين. ولٰكن أكثر الأعمال تميُّزًا في هٰذا الصنف، مع ذلك، هو "مختصر" ألفونسو الحكيم، الذي ترجمه شخصٌ يُدعىٰ أبولايس [ربّما أبو لَيث؟] من الكلدانيّة إلىٰ العربيّة، حسبما ورد في توطئة الكتاب المنوّه عنه، ثمّ ترجمه من العربيّة إلىٰ القشتاليّة يهودا موسكا الصغير والقسيس گارسي پيريث، ويتضمّن وصفًا لـ ٣٣٧ حجرًا مرتّبةً بحسب درجات دائرة البروج. ولٰكنّ كثيرًا من "الأحجار" الموصوفة في هٰذا المختصر لا تُعَدّ حاليًّا من هٰذا القبيل، لأنّ هٰذه الأحجار تضمّ في جملتها فِلِزًّا ومعادنَ وصخورًا وكُتَلًا متحجّرة قد تشكّلت داخل أعضاء كائناتٍ حيّة (حصىٰ كلويّة)، والمرجان والطحالب. ولا يقتصر علىٰ بيان خصائصها بوصفها "تمائم" فحسب، بل يُعطي تفاصيل ذات أهمّيّةٍ للعلم. وذلك عندما يؤكّد، مثلًا، أنّ داخل الحرير الصخري (الأميانت) ثمّة مادّةً شبيهةً بالقطن لا تحترق بالنار، يمكن غزلها ونسجها، وعندما تتّسخ نضعها في النار فترتدّ أكثر بياضًا وجمالًا، أو عندما يتكلّم عن حجرة الأونّة التي تُستعمل لصناعة الورق الصقيل.

ولعلم الأحياء ما لعلم الأرض من طابعٍ يجري مجرىٰ النوادر. إذ يُسلِّم هٰذا العلم بوجود التولّد الذاتي، الذي يُدافع عنه أبو معشر في كتابه "المدخل" وبالتطوّر من نوع إلىٰ آخر، والذي يظهر علىٰ حدٍّ سواء في أعمال مفكّرين شرقيّين وغربيّين، مثل المسعودي في مصنّفه "كتاب التنبيه"، أو نظامي عروضي في مصنّفه "چَهَار مقالة" [المقالات الأربع]، أو إخوان الصفا، أو ابن خلدون، والذي يُشكّل في ختام المطاف صياغةً جديدة لأفكار أرسطوطاليس حول الموضوعة القائلة بالاستمراريّة

التشكّليّة والنفسانيّة عند الكائنات المخلوقة التي يختلف عنها الإنسان، لأنه يجمع في ذاته جميع الخصائص المحدّدة للكائنات الأخرىٰ.

وفي المقابل، نجد أنّ ٱبن رشد وألبيرتو الكبير الذي ٱتّبعه، قد دافعا، في علم الأجنّة، عن نظريّة سَبْق التكوُّن أو نشوء الكائن الفردي وتطوّره، أمام النظريّة الأرسطوطاليسيّة القائلة بالنشوء المتعاقب.

علم النبات:

يتجلّىٰ لنا بوضوح أكبر، التطوُّرُ في علم النبات الذي ٱبتدأ بأعمال أرسطوطاليس وثيوفراسطوس، تلك التي نقّحها نيقولا الدمشقي. وترجم عمل هٰذا الأخير إلىٰ العربيّة إسحٰق بن حنين (وراجع الترجمة ثابت بن قرّة)، ومن النصّ العربي أنجز ألفريدو دي ساريشيل الترجمة اللاتينيّة (١٢٢٧م [٦٢٤هـ]). وسرعان ما ٱنضمّ إلىٰ هٰذا التيّار، ذي الجذور الكلاسيكيّة، تيّارٌ آخر عمليّ، تمثّل بالترجمة القشتاليّة لكتاب "الفِلاحَة" الذي ألّفه الطليطلي ٱبن وافدٍ (باللاتينيّة Abencenif)، والذي ٱكتشفه أستاذُنا مِيّاس[1] وحُفظ في مخطوطة بالمكتبة الوطنيّة بمدريد. وتكثر [عند هٰذا المؤلّف] الاستشهاداتُ بمؤلّفين سابقين أمثال أناتوليو دي بيريتو [البيروتي] **Anatolio de Berito**، وديموقريطس دي منديس، وفيلمون، والكِنْدي... إلخ، ويتحاشىٰ بوجهٍ عام، التحدّث عن التطبيقات العلاجيّة للنباتات، تلك التي كان قد تناولها في "كتاب الأدوية المفردة". وقد ٱستفاد گابرييل آلونسو دي هرّيرا (حوالي ١٤٧٠ـ حوالي ١٥٣٩م) ٱستفادةً تامّة من ملاحظاته، ودافع ـ قد يكون مُقْتديًا بٱبن وافد ـ عن النظريّة القائلة بوجود طبيعة جنسيّة عند النباتات، وأدرج في كتابه ـ حسبما كانت تجري به العادة في هٰذا الصنف من المؤلّفات ـ فصولًا عدّة في تربية الحيوان[2]. ويُفسّر لنا هٰذا التأثُّر الضخم، في عمل يمتّ نموذجيًّا لعصر النهضة، السببَ في ٱشتمال كتب علم النبات في القرن السادس عشر، مثل كتب الألمانيّين بوك (١٤٩٨ـ١٥٥٣م) وبرونفلز، علىٰ مترادفاتٍ ومرجعيّات عربيّة.

علم الحيوان:

كانت نقطة البدء لعلم الحيوان العلمي في القرون الوسطىٰ، الترجماتُ العربيّة ـ اللاتينيّة لكتب العصور القديمة، ولا سيّما كتب أرسطوطاليس، المخصّصة لهٰذه الموضوعات، والتي كانت قد ٱغتنت مرارًا بحواشي الدّارسين العرب أو شروحهم. وفي أواخر القرن الثالث عشر، كان العالم الغربي على معرفةٍ بالمؤلّفات التالية:

"كتاب الحيوان"، ويقع في تسعة عشر جزءًا. وكان العرب قد أدرجوا تحت هٰذا الأسم الأعمال الثلاثة الأساسيّة التي كتبها الإصطاغيري [أرسطوطاليس] حول هٰذه المادّة، وهي *Historia animalium* (الأجزاء ١ـ١٠)، و*De partibus animalium* (الأجزاء ١١ـ١٤)، و*De generatione animalium* (الأجزاء ١٥ـ١٩)[3]، إذ لم يُحتفَظ، فيما يبدو، بترجمات باللغات الشرقيّة لا للكتاب المسمّىٰ *De motu animalium* ولا لـ *De animalium incessu*. ويُشير العرب، أحيانًا، إلىٰ المصنّفات الثلاثة الأولىٰ تحت ٱسم "طبيعة الحيوان" *De naturis animalium*، وقد ٱحتُفظ لنا بها، في ترجمةٍ ليحيىٰ بن البطريق، في عدّة مخطوطاتٍ مجزوءة، وبمخطوطةٍ كاملة واحدة فقط، هي مخطوطة طهران. وكان ميگيل إسكوتو قد ترجم هٰذا العمل إلىٰ اللاتينيّة، قبل ١٢٢٠م [٦١٧هـ]، ثمّ أكمل عمله حوالي ١٢٣٢م بترجمة ملخّص ٱبن سينا. وٱستخدم ألبرتو الكبير هٰذه الترجمة أساسًا لمصنّفه "كتاب الحيوان" *Libro de los animales*. ٱستعان في تحريره بمعجم تقنيٍّ مختصر عربي ـ لاتيني. وبعد هٰذا التاريخ بقليل، أنجز پيدرو گالّيگو (ت ١٢٧٦م [٦٧٥هـ])، أسقفّ قرطاجة، ترجمةً جديدة ملخّصة لكتاب تاريخ الحيوان معتمدًا علىٰ ترجمة ميگيل إسكوتو وعلىٰ شرح ٱبن رُشد المطوّل لكتاب *De partibus*.

ولٰكن لا بدّ أنّ العرب كان تحت تصرّفهم أكثرُ من ترجمةٍ واحدة لكتاب "تاريخ الحيوان"، ذٰلك أنّ هناك مقتطفاتٍ من هٰذا الكتاب منسوبةً إلىٰ ٱبن ميمون لا تتّفق وترجمةَ ٱبن البطريق، ونصّها أقرب إلىٰ النصّ الأصلي اليوناني من نصّ هٰذا

الأخير. ولا بدّ أنّ إحدىٰ هٰذه الترجمات هي ترجمة حنين بن إسحٰق التي تَلِفَتْ إحدىٰ نُسخها في حريق مكتبة الإسكوريال (١٦٧١م)، ولٰكنّ الدليل علىٰ وجودها ثابتٌ بفضل دليل الكتب العربيّة ـ القشتاليّة لعام ١٥٧٧م.

وعرف العرب، علىٰ نحوٍ مماثل، كتاب آليانوس (حيًّا ١٩٣ـ٢١١م) المسمّىٰ *Physiologos*، وهو عبارة عن مجموعة من الأساطير حول خصائص وميزات الحيوانات، اَستخدمه اَبنُ قُتيبة. وقد اَتّسق هٰذا التقليد الكلاسيكي، المنضمُّ إلىٰ إسهامات الجاحظ، مع فكر المؤلّفين العرب المتخصّصين، حسبما يُستدلّ من الوصف التالي للسمك الرعّاد[4] ولإصداره شحناته الكهربائيّة عن بُعد، والذي يُقدّمه لنا الغرناطي أبو حامد (١٠٨٠ـ١١٦٩م [٤٧٣ـ٥٦٥هـ]) في كتابه "تحفة الألباب [ونخبة الإعجاب]":

«وفي بحر الرُّوم [أو البحر الشامي، أو الأبيض المتوسّط] سمكٌ يُسمّىٰ "الرّعّاد"[5] ......، ومن خواصّه أن يُعمَل من جلده طاقيّةً، وتُلبس للصُّداع فيَسْكن[6] ، وإذا كان في شبكةٍ، فكلّ مَن يُحرّك تلك الشبكة، أو يضع يده عليها أو علىٰ حبلٍ من حبالها، تأخذه الرّعدة حتّىٰ لا يملك من نفسه شيئًا، كما يَرْعُد صاحبُ الحُمّىٰ إذا كان مفلوجًا، فإذا أزال يده زالت الرّعدة عنه، وإن أعاد يده إلىٰ الحبل والشبكة، أو شيء يتّصل بتلك الشبكة، عادت إليه الرّعدة...» *.

وهٰذه تفاصيل نجدها قد تمّ جمعُها في العالم اللاتيني، من قِبَل گييرمو دي أوڤرنيا (حوالي ١١٨٠ـ١٢٤٩م).

وثمّة إسهامٌ آخر من إسهامات العرب في علم الحيوان، يتمثّل في الملاحظات

* "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب"، تحقيق الدكتور إسماعيل العربي، ط ٢ (بيروت، دار الجيل، والمغرب: دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٣)، ١٢٥.

وبعد قرنٍ من الزمان، يقول اَبن البَيْطار وهو في مصر، نقلًا عن ديسقوريدس:

الرّعّاد «هو سمكة بحريّة مخدّرة. وإذا وُضع [الرّعّاد] علىٰ رأس الذي عَرَض له الصُّداع المزمن سَكّن شدّة وجعه، وإذا اَحتُمِل شَدّ المقعدة التي تبرز إلىٰ الخارج». ←

العديدة التي قدّموها حول الجوارح المستخدمة في الصيد، كالبُزاة، وكلاب الصيد. وكان لهٰذه الملاحظات تأثيرها في الغرب بطُرق مختلفة، ولا سيّما عن طريق شخصين لم تتحدّد هويّتهما جيّدًا، هما مؤمن وغطريف. ألّف مؤمن كتابين ("الصيد بالبزاة" و"كلاب الصيد")، وترجم تيودورو الأنطاكي عمله إلىٰ اللاتينيّة، وراجع هٰذه الترجمة فيديريكو الثاني (١٢٤٠م [٦٣٨هـ])، وكان علىٰ درايةٍ واسعة بهٰذا المجال، لأنه ألّف كتابًا في علم الحيوان يحمل اسم *De arte venandi cum avibus*. وفي المقابل، لا يُعرف مَن ترجم النصّ الفارسي لعمل غطريف، ولٰكنّ كلا العملين أُدرجا في الترجمة الفرنسيّة التي استَبْقَت عددًا لا بأس به من الاصطلاحات العربيّة، والتي أهداها دانييل الكريموني إلىٰ أنزو، الابن غير الشرعي لفيديريكو الثاني.

كان لهٰذا التيّار المشرقيّ تأثيرٌ خاصٌّ في الأندلس، حيث كانت وظيفة "صاحب البيازرة" تحظىٰ بأهمّيّة كبيرة في القرن العاشر، وقد ظهر من شعراء البلاط غير ما مرّةٍ، أنهم كانوا علىٰ معرفةٍ جيّدة بأساليب فنّ الصيد في ذٰلك العصر. ولٰكن بالرغم من ذٰلك، يبدو أنّ كتاب آديلاردو دي باث حول الصيد بالبُزاة، مستقلٌّ عن كلّ تأثيرٍ مشرقيّ، ولعلّه يجدر بنا أن نربط بينه وبين المصنّف الكارولنجي المسمّىٰ *De cura accipitrum*، والذي أشار إليه م. ت. دالفرني. وبُعيد هٰذا التاريخ، ظهر التأثير العربي في معجم الأعمال باللغات الرُّومنتيّة حول هٰذا الموضوع؛ من ذٰلك مثلًا، المصنّف القَطَلوني "كتاب تربية الطيور المستخدمة في الصيد والعناية بها"، والمصنّفان البرتغاليّان اللذان يحملان العنوانين: "الكتاب الذي ألّفه أنريكه إمبراطور

← وقال:

«رأيت بساحل مدينتي "مالَقَة" من بلاد الأندلس، تحرف الجراريف بها [؟] وتُجعل في البحر، فتخرج إليهم سمكةً عريضة يُسمّونها "العرونة"، وهي مفرطحة الشكل، لون ظاهرها لون "رعّاد" مصر سواء، وباطنها أبيض، وفعلها في تخدير ماسكها كفعل رعّاد مصر أو أشدّ، إلّا أنها لا تؤكل البتّة. ولقد بلغني ممّن أثق أنّ أقوامًا كان بهم جهل[ل]ٌ ولم يعلموا أمرها، فشَوَوْها وأكلوها، فماتوا كلّهم في ساعةٍ واحدة[.]».

"جامع المفردات..."، ٢، ١٤١.

ألمانيا"، و"الكتاب الذي ألّفه النبيل العظيم ملك أنكوس الذي كان أكبر صيّاد في العالم"، و[المصنّفان الإسبانيّان] "كتاب الصيد" للدون خوان مانويل (١٣٢٥م) و"كتاب صيد الطيور" لپيرو لوپيث دي أيالا. كما نحتفظ بمصنّفاتٍ عربيّة غربيّة متخصّصةٍ بفنّ الصيد، مثل "كتاب المنصوري" لٱبن الحشّاء[7] (١٢٤٧م [٦٤٥هـ]).

الطبّ:

ٱنتشرت، ٱبتداءً من القرن الثالث عشر [٧ هـ]، الترجماتُ اللاتينيّة والرُّومنثيّة في ميدان الطبّ، ٱنتشارًا عظيمًا، حتّىٰ إنّا لا نعرف، في بعض الحالات، أسماء أصحاب هٰذه الترجمات، وذٰلك ما تمّ في شأن الترجمة القشتاليّة لكِتاب إسحٰق [بن سليمان] الإسرائيلي [القيرواني][8] "رسالة في الحميات"، وكتاب أبي الحسن المختار بن بطلان (ت ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م)[9] "تقويم الصحّة"، وكتاب ٱبن وافد[10] "في الٱستحمام" *De balneis*، وهو أحد أوائل المصنّفات في علم الٱستحمام[11].

وفي حالات أخرىٰ، يكون المترجمون، أو المُعِدّون، أشخاصًا من ذوي الشهرة، كالأمر عند پيدرو دي إسبانيا (حوالي ١٢١٠ـ١٢٧٧م [٦٠٧ـ٦٧٦هـ])، الذي شرح كتاب "الفصول" لأبقراط، ومع كتاب ٱبن الجزّار *viaticum*، وكتب عديدةً أخرىٰ كلاسيكيّة أو عربيّة. وكان تأثير أفكار ٱبن سينا الأساسيّة في تعاظمٍ مستمرّ، وقد عُرفت من خلال كتابه "القانون [في الطبّ]"، الذي ترجمه جيراردو الكريموني في القرن الثاني عشر [٦ هـ]، و"الأرجوزة في الطبّ" التي ترجمها وفق شرح ٱبن رشد أرمنگاود دي بلاسي ـ طبيب كلٍّ من خايمة الثاني ملك آراگون وكليمنته الخامس ـ تحت عنوان *Avicennæ cantica* (١٢٨٠م [٦٧٩هـ]). وقد ٱمتدّ تأثير هٰذه الأعمال طَوال قرونٍ عدّة، وظهرت ٱنعكاساتها في مذاهب كثيرٍ من الأطبّاء اللاحقين، ومنهم ـ علىٰ سبيل المثال ـ الْدِروتّي (١٢٢٣ـ١٢٩٥م)، وبراندون (١٣٠٠ـ١٣٧٢م)، وبيرينگاريو داكاربي (١٤٦٠ـ١٥٣٠م) وإدواردز (١٥٠٢ـ١٥٤٢م)، وأوستاشي (١٥٠٠ـ١٥٧٤م)؛ وفي السلطنة العثمانيّة أيضًا، وذٰلك في كتاب اليهودي الغرناطي موسىٰ هامون (حوالي ١٤٩٠ـ١٥٥٤م)، طبيب السلطان سليمان العظيم

[القانوني]، والذي انخذل في المناقشات العلميّة التي خاضها في مواجهة مؤلّف كتاب "رحلة إلى تركيا".[12]

وقد تُرجم إلى اللاتينيّة، في أواسط القرن الثالث عشر [٧ هـ]، أهمّ كتابين في الأدبيّات الطبّيّة الأندلسيّة: "كتاب الكلّيّات"[13] لابن رشد، ترجمه بوناكوزا (١٢٥٥م [٦٥٣هـ])، تحت عنوان *Colliget*، وكتاب "التيسير [في المداواة والتدابير]" لابن زُهر [عبد الملك ـ الابن]، ترجمه پاراڤيثيوس **Paravicius** تحت عنوان *theicrisi dahalmodana vahaltadabir*، والذي كان قد ترجمه أيضًا خوان دي پادوا (حيًّا ١٢٦٢ـ١٢٧٨م [٦٦٠ـ٦٧٧هـ]) قبل ذلك بعدّة سنوات.

يتكوّن كتاب "الكلّيّات" من سبعة أجزاء، تتناول:

[الجزء الأوّل: تُذكَر فيه أعضاءُ الإنسان، التي شوهدت بالحسّ، البسيطةُ والمركّبة؛

والثاني: تُعرّف فيه الصحّة، وأنواعها، ولواحقها؛

والثالث: المرض، وأنواعه، وأعراضه؛

والرابع: العلامات الصحّيّة والمرضيّة؛

والخامس: الآلات، وهي الأغذية والأدوية؛

والسادس: الوجه في حفظ الصحّة؛

*والسابع: الحيلة في إزالة المرض]***

ويُختتم هذا الجزء الأخير بثناءٍ كبير على كتاب "التيسير" لابن زُهر تبرّره خاتمة العمل.

[يقول ابن رشد:

«فهذا هو القول في معالجة جميع أصناف الأمراض بأوجزِ

* أوجزها ڤيرنيت، فنقلناها كاملةً كما وردت في "الكلّيّات"، ٢٠.

وقد صدر الكتاب بتحقيق الدكتور سعيد شيبان والدكتور عمّار الطالبي (القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، بالتعاون مع الاتّحاد الدولي للأكاديميّات، ١٩٨٩).

ما أمكننا وأبيّنه. وقد بقي علينا، من هٰذا الجزء، القولُ في شفاء مرضٍ مرضٍ من الأمراض الداخلة علىٰ عضوٍ عضوٍ من الأعضاء، وهٰذا وإن لم يكن ضروريًّا، فإنه منطوٍ بالقوّة فيما سلف من الأقاويل الكلّيّة، ففيه تتميمٌ ما وارتياض، فإنّا نَنْزل فيه إلىٰ علاجات الأمراض بحسب عضوٍ عضوٍ ـ وهي الطريقة التي سلكها أصحاب "الكنانيش" ـ حتّىٰ نجمع في أقاويلنا هٰذه إلىٰ الأشياء الكلّيّة الأمورَ الجزئيّة، فإنّ هٰذه الصناعة أحقُّ صناعةٍ يُنزَل فيها إلىٰ الأمور الجزئيّة ما أمكن، إلّا أنّا نُرجئ هٰذا إلىٰ وقتٍ نكون فيه أشدّ فراغًا، لعنايتنا في هٰذا الوقت بما يهمّ من غير ذٰلك.

«فمن وقع له الكتاب دون هٰذا الجزء [الأمور الجزئيّة]، وأحبّ أن ينظر بعد ذٰلك في الكنانيش، فأوفق الكنانيش له الكتابُ الملقّب بـ"التيسير" الذي ألّفه في زماننا هٰذا "أبو مروان [عبد الملك] بن زُهر". وهٰذا الكتاب سألتُه أنا إيّاه، وانتسختُه، فكان ذٰلك سبيلًا إلىٰ خروجه، وهو ـ كما قلنا ـ كتاب الأقاويل الجزئيّة التي قيلت فيه شديدة المطابقة للأقاويل الكلّيّة. إلّا أنه شَرَح هنالك ـ مع العلاج ـ العلاماتِ، وأعطىٰ الأسباب علىٰ عادة أصحاب الكنانيش، ولا حاجة لمن يقرأ كتابنا هٰذا إلىٰ ذٰلك، بل يكفيه من ذٰلك مجرّد العلاج، وبالجملة من يحصُل له ما كتبناه من الأقاويل الكلّيّة، يمكنه أن يقف علىٰ الصواب والخطإ من مداواة أصحاب الكنانيش في نفس العلاج والتركيب»]*

ونجد في [الكتاب] إسهاماتٍ طبّيّةً ذات أهمّيّة، كالإشارة إلىٰ أنّ من أُصيبوا بالجُدَري يكتسبون مناعةً إزاء هٰذا المرض.

* "الكلّيّات"، ٤٢١ و٢٢.

والكنانيش (واحدها كُنّاش أو كُنّاشة) كلمة سُريانيّة، تعني مجموعة أشياء وخصوصًا الأشياء المكتوبة، وقد استمدّها العرب وأطلقوها قديمًا علىٰ كلّ كتاب علميّ أو طبّيّ أو لغويّ يكون البحث فيه علىٰ وجه التفصيل. ←

وقد أشار رودريگيث موليرو إلىٰ أنّ "كتاب الكلّيّات" يتّصف، منذئذ، بأنه عملٌ أنموذجيٌّ من عصر النهضة، ويُعدّ أقرب إلىٰ فكر ڤيساليو منه إلىٰ فكر جالينوس، قاطعًا الصلة، عن قصد، بينه وبين ما كان يتّبع في الماضي، فكم من مرّة ـ حسبما يقول في المقدّمة ـ *اتّبعتُ ترتيبًا يختلف عن الترتيب الذي يتّبعه مؤلّفون آخرون في كتبهم، لأنه أكثر ملاءمةً لهٰذا العلم*؛ وفي مرّاتٍ أخرىٰ، مثلما يتمّ عندما يتناول موضوع التنفّس، [يُضيف قائلًا]: لأنّ بعضهم، مثل جالينوس، ينسبونه إلىٰ الإرادة، وآخرين، وفي المقام الأوّل ضمنًا أرسطوطاليس، إلىٰ القوّة الغذائيّة، وآخرين غيرهم، في الختام، يميلون إلىٰ القول بعمليّةٍ مختلطة، ناشئة عن القوّة الإراديّة أو الحسّيّة وعن القوّة الطبيعيّة غير الإراديّة.

[يقول ٱبن رشد:

«إنه قد جرت عادة الأطبّاء، من جالينوس فمن دونه، أن يقولوا أنّ للتنفُّس منفعتين:

«إحداهما: ترويح الحرارة الغريزيّة التي في القلب، بٱستنشاق

← وممّا يجدر ذكره أنّ مؤرّخ الأطبّاء ٱبن أبي أصيبعة، تراءىٰ له أن ينقل هٰذه الفقرة، في كتابه، عند ترجمته لٱبن رشد، وقد فهِمَ منها ـ وتبعه في ذٰلك الباحثون عبر التاريخ ـ أنّ ٱبن رشد ألّف "الكلّيّات" ـ وهو في شبابه ـ وطلب من طبيب العصر عبد الملك بن زُهر، أن يؤلّف تتمّةً له، وذٰلك ما لا تُفيده عبارةُ ٱبن رشد!

وقد ٱستوقفتني هٰذه "الغلطة" التاريخيّة، الراحلة من عصر إلىٰ عصر، فقدّمت في المؤتمر السنوي الثامن لتاريخ العلوم عند العرب (جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، نيسان ١٩٨٤)، بحثًا بعنوان "مناقشة ٱبن أبي أصيبعة في مقولته عمّن دفع ٱبن زُهر لتأليفه كتاب التيسير"، كشفتُ فيه عن خطإ هٰذه المقولة، وبيّنت أنّ تأليف ٱبن زُهر "لتيسيره" كان أسبق زمنيًّا من تأليف ٱبن رشد "لكلّيّاته"، بدليل الإشارة التي وردت في آخر "الكلّيّات" (النصّ أعلاه) إلىٰ "كتاب التيسير" ووَصْف ٱبن رشد إيّاه بأنه أوفق الكنانيش لمن يجبُ أن ينظر في "الأمور الجزئيّة"، أي أن يتوسّع في تفاصيل المعالجة الطبّيّة.

ٱنظر: "مجلّة الثقافة العربيّة"، المنظمّة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم (ألِكسو)، تونس، السنة الرابعة، العدد السابع، ذو الحجّة ١٤٠٤/ سبتمبر ١٩٨٤.

الهواء البارد، ويدَفعه إذا سَخَن، مع ما يُمكن أن يتحلّل من الحارّ الغريزيّ، من جوهرٍ دخانيٍّ غيرِ ملائم...

«وأمّا المنفعة الثانية ــ زعموا ــ فليغتذي الروحُ الغريزيّ بالهواء الداخل، ويخلف منه بدل ما يتحلّل. وهٰذا قولٌ في نهاية السقوط! وذٰلك أنّ المركّب ليس يُمكن فيه أن يغتذي من البسيط...

«فلنعملْ، إذًا، علىٰ أنّ منفعة التنفُّس هي المنفعة الأولىٰ. وأمّا لأيّ قوّةٍ من قوىٰ النَّفْس هو هٰذا الفعل، فإنّ جالينوس يرىٰ أنّ ذٰلك للقوّة الإراديّة، ويحتجّ علىٰ ذٰلك بأنّ لنا أن نتنفّس وألّا نتنفّس، وأيضًا فإنه يزعم أنّ الآلة الخاصّة بهٰذه القوّة هي العصب والعضل، وزعم أنه إذا بُتِرَ العصب الذي يُحرّك الحجاب لم يعش الحيوان إلّا مقدار ما يعيش المخنوق بالوَهَق [الحَبْل ذو الأنشوطة]!

«وأمّا غيره، فرأىٰ أنه للقوّة الغاذية، كالحال في النبض. ويُمكن أن يحتجّ لهٰذا الراي بأشياء: أحدها أنّا نتنفّس في النوم، والفعل الإرادي إنما يكون مع تخيُّلٍ ونزوعٍ علىٰ ما سلف، والثاني أنّا نرىٰ التنفُّس الذي لا نتعمّده يُحاكي النبض...

«وقومٌ رأوا أنه مركّب من الفعلين جميعًا، أعني: من الإرادي والفعل الغير الإرادي، وهو الفعل المنسوب للقوّة الغاذية التي يعرفها الأطبّاء بالقوّة الطبيعيّة، وذٰلك كحركات كثيرٍ من الأعضاء، مثل "حركة الجفن"، فإنّ الأمر فيها بَيِّنٌ أنها مركّبة، وكذٰلك "حركة الازدراد"، كما نرىٰ ذٰلك يعترينا عند سقوط الشهوة.

«ويُشبه أن يكون هٰذا الراي الأخير أصوبَ الآراء، أعني: أنّ هٰذا الفعل مركّب. ولٰكن ينبغي أن يُعتقد أنّ الأملك به أنه فعلٌ طبيعيٌ، إذ كان أكثر تنفُّسًا في حال الصحّة وفي حال المرض، إنما يكون من غير أن نتعمّد... وإنما أرفدت الطبيعةُ هٰذه القوّةَ بالإرادة للحاجة إلىٰ ذٰلك في الموضع الذي لا تفي القوّة الطبيعيّة بما يحتاج القلب من ذٰلك...»]*.

* "الكلّيات"، ٨٢ و٨٣.

ويقول رودريگيث موليرو:

«يبدو أنّ ٱبن رُشد يتبنّىٰ هٰذا الرأي، ومن ثَمّ، إذا لم يكن التنفُّس عمليّةً إراديّة محضة، حسبما يقول جالينوس، بل ينطوي، علىٰ الأقلّ، علىٰ شيء ما من عنصر الإرادة، فمن المنطقيّ أن نُدرجه بعد وظائف القوّة المحرّكة الإراديّة، أو حسبما نقول في العصر الراهن: [وظائف] نظام الحياة العلاقيّة».

وأمّا في علم التشريح، وهو العلم الذي ما كان [ٱبن رشد] ليستطيع أن يُجدِّد فيه ـ فليس في نصّه ما هو أصيل، فيما يبدو، إلّا مقدار خمسة في المئة ـ[14] فقد أدخل تغييراتٍ علىٰ ترتيب العَرْض تُقَرِّبه إلىٰ حدٍّ بالغ من تغييرات ڤيساليو في الجزء الأوّل من كتابه "مصنع الجسم البشري":

«إنّ السبب الذي دفع ٱبنَ رشد إلىٰ ٱتّباع هٰذا الترتيب في الموادّ، ليس سوىٰ فكرةٍ المتّسم بالتنظيم: فقد رغب في أن يتناول، أوّلًا، الأعضاء المتشابهة كيما ينتقل، بعدئذ، إلىٰ تشريح الأعضاء غير المتشابهة. إنّ فكرة ڤيساليو الوصفيّة قِوامها جثّة الإنسان، لذٰلك بدأ بالهيكل العظمي. ولٰكنّ السبب الذي دفعه، في نهاية الأمر، إلىٰ أن يتناول، بعدَ العظام، الأوردةَ والأعصاب، ليس سوىٰ تجانس بنيانها، وٱندراجها في زمرة الأعضاء المتشابهة، شأنها شأن العظام. ويكمن الاختلاف الحقيقيّ في طريقة تصوّر الكائن موضوع الوصف. فبينما يصف جالينوس حيوانًا في كامل حركته الحيويّة، فإنّ ما يتناوله ڤيساليو هو جثّة الإنسان، يتناول مصنعًا أو هيكلًا سكونيًا مكوّنًا من منظوماتٍ تشكّليّة محدّدة تحديدًا معماريًّا، المعملَ المنتظم معماريًّا لجسم الإنسان وهو في حالة السكون. أمّا إنسان ٱبن رشد، الذي يَمُدّ، علىٰ هٰذا النحو، جسرًا بين الواقع القديم والفكرة الحديثة، فهو الحيوان القديم مُرَشَّدًا».

ومن البدهيّ أنه لم يكن لٱبن رشد ولا لأيّ طبيبٍ آخر في القرون الوسطىٰ، أن يكونوا أصيلين في وصفهم التشريحي، وهم الذين كان يمتنع عليهم، لدوافعَ دينيّةٍ

مشتركةٍ بين الديانات الثلاث السائدة، المسيحيّة والإسلام واليهوديّة[15]، تشريحُ جثثٍ بشريّة، فٱضطرّوا، بسبب عدم توافرها، إلىٰ الأنصراف إلىٰ الحيوانات التي كانت تُعتبر أشبه ما يكون بالجسم البشري؛ القرود[16] والخنازير. ومن خلال تشريح أعضاء الحيوانات، علىٰ الأرجح، تمّ ٱكتشاف آليّة الدورة الدمويّة•.

فإذا صرفنا النظر عن الدراسة العلميّة لآليّة هٰذه الدورة، وهي التي نَدين بها للإنكليزي هارفي **Harvey**، فإنه، منذ أواسط القرن السادس عشر، كانت لدىٰ الأطبّاء فكرة، أو أنهم كانوا يعلمون أنّ أفكار جالينوس حول الدورة الدمويّة كان قد

• لم يكن إحجام أطبّاء الحضارة العربيّة الإسلاميّة تامًّا عن تشريح الجثث البشريّة. فلقد عمد غيرُ قليل من أكابرهم إلىٰ التشريح، ولٰكنهم كتموا أنهم شرّحوا!

قبل سنوات ثارت، في أحد مؤتمرات تاريخ الطبّ العربيّ، مناقشةٌ بين الباحثين حول ما إذا كان الطبيب الشامي ٱبن النفيس قد قام بالتشريح أم لا، فقال فريقٌ منهم بأنه "لم يُشرِّح" ٱستجابةً لوازع الشريعة، وذٰلك ما أعلنه في مقدّمة كتابه "شرح تشريح القانون"، علىٰ حين أكّد فريقٌ آخر أنه "شرّح"، بدليل ما تضمّنه كتابه عينُه من كشوفٍ لم يُسْبَق إليها. والواقع أنّ ٱبن النفيس "شرّح"، وٱكتشف، ولٰكنْ كان عليه أن يتنصّل من التشريح خشية إغضاب الفقهاء.

وأمّا نَفْيُه التشريح، فآيته ما قدّم في كتابه الموما إليه، ولٰكن تتجلّىٰ في كلماته ذاتها أشياءُ جديرةٌ بالتأمّل... يقول في المقدّمة:

> «وقد صَدَّنا ـ عن مباشرة التشريح ـ وازعُ الشريعة، وما في أخلاقنا من الرحمة. فلذٰلك رأينا أن نعتمد، في تعرُّف صُوَر الأعضاء الباطنة، علىٰ كلام مَن تقدَّمنا من المباشرين لهٰذا الأمر، خاصّةً الفاضلِ جالينوس، إذ كانت كتبه أجود الكتب التي وصلت إلينا في هٰذا الفنّ، مع أنه ٱطّلع علىٰ كثيرٍ من العضلات التي لم يُسبَق إلىٰ مُشاهدتها. فلذٰلك جعلنا أكثر ٱعتمادنا، في تعرُّف صُوَر الأعضاء وأوضاعها ونحو ذٰلك، علىٰ قوله، *إلّا في أشياءَ يسيرةٍ ظَنَنّا أنها من أغاليط النُّسّاخ*!...».
>
> "شرح كتاب تشريح القانون"، تحقيق الدكتور سلمان قطاية ومراجعة الدكتور بول غليونجي (القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٨٨)، ١٧.

إنه يخالف جالينوس الرأي، في تلك الأشياء اليسيرة. ولأنّ هٰذا الطبيب الإغريقي كان مصدَّقًا في علمه، ويحظىٰ بتقدير الأطبّاء العرب والمسلمين كافّة، فقد ردّ ٱبن النفيس هٰذا الٱختلاف ـ أدبًا منه ـ إلىٰ "أغاليط النسّاخ". وهل يمكن لهٰذا الٱختلاف في وجهة النظر إلّا أن يكون ٱستنادًا إلىٰ حقائق قد تأدّتْ له من مباشرته... التشريح؟

تمّ تجاوزُها. ونذكر، على سبيل المثال، كلًّا من سيسالپينو، وريالدو كولومبو (١٥٥٩م [٩٦٦هـ])، وخوان دي ڤلفرديه دي هاموسكو، وميگيل سِرْڤيت (١٥٥٣م [٩٦٠هـ])، وفرنثيسكو دي لارايِنا (حوالي ١٥٤٦م [٩٥٣هـ]). وبعض المؤلِّفين المذكورين، لا يُشيرون إلى سابقيهم، وربّما كانوا، على الأرجح، على معرفةٍ بهم. ومهما يكن من أمر، فإنّ هٰذا التعداد يُختتَم بالإسبانيَّيْن رايِنا وسِرْڤيت، علمًا بأنّ نصّ أوّلهما أقلّ دلالةً من نصّ الثاني. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنّ هٰذا الأخير كان يعيش منفيًا في فرنسا، كان لنا أن نعتقد بأنه لم يكن على صلةٍ مباشرة برايِنا.

ولٰكنّ طبيبًا عربيًا دمشقيًّا، هو ابنُ النفيس (ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م)، عرض، في مصنَّفه "كتاب شرح تشريح [القانون لـ] ابن سينا"، قبل سِرْڤيت بقرنين، أفكار هٰذا الأخير ذاتها، حسبما أثبت ذٰلك، عام ١٩٢٤، الطبيبُ المصري محي الدين التّطاوي في الأُطروحة التي قدّمها إلى جامعة فرايبورگ*[17]. ويبدو أنّ اطّلاع سِرْڤيت على

* وُلد محي الدين التّطاوي في "مَنُوف" بمصر ١٨٩٦/ ١٣١٤هـ. عمل، بادئ الأمر، في حقل الهندسة، قبل أن يلتحق في ١٩٢٠ بكليّة الطبّ في برلين. وفي مطالعاته للمخطوطات العربيّة في مكتبة برلين، عثر اتّفاقًا على مخطوطة ابن النفيس "شرح تشريح القانون"، فعُني بها وأعدّ رسالةً لنيل مؤهّل الدكتوراة في الطبّ من جامعة فرايبورگ بعنوان "الدورة الرئويّة عند القَرَشي" (القَرَشيّ لقبٌ لابن النفيس، نسبةً إلى قرية "قَرَش" في منطقة دمشق).

وقد ذُهِل الأساتذة من مقولته التي تدور حولها الرسالة، أنّ طبيبًا عربيًا مجهولًا منهم، من أهل القرن الثالث عشر الميلادي [٧ هـ]، كان أوّل من اكتشف الدورة الدمويّة الصغرى! وشكّوا في دعوى الطالب العربيّ، وأرسلوا نسخةً من الرسالة إلى المستشرق الألماني الطبيب المقيم في مصر ماكس مايرهوف، يسألونه رأيه. فتحقّق المستشرق من صحّة المقولة... ثمّ أخذ يبحث عمّا لابن النفيس من المخطوطات الأخرى، ونشر بحوثًا في ذٰلك...

وأمّا الطبيب التّطاوي، الذي عمل بعد تخرّجه في وزارة الصحّة المصريّة، فقد قضى نحبه في ١٩٤٥/ ١٣٦٤هـ، وهو يكافح وباء التيفوس، فمات شهيد الواجب والإنسانيّة.

ومن المؤسف أن تخلو كتب التراجم العربيّة المعاصرة من تعريف به. وما قدّمناه، هنا، مقتبسٌ من كتاب الدكتور بول غليونجي، "ابن النفيس، طليعة العهد العلمي في الطبّ" (طبعة الكويت، د.ت)، ١١١ و١٢.

نصّ ٱبن النفيس لا يقبل الدّحض، نظرًا للتطابق بين وصف كلا المؤلّفين، ممّا يجعل الأمر أفضل تفسيرًا، بعدما عرفنا بالتفصيل سيرة حياة طبيب قنصليّة البندقيّة في دمشق، أندريا ألپاكو، الذي وقف شطرًا كبيرًا من حياته علىٰ دراسة ٱبن سينا وعلىٰ ترجمته، وٱستعمل شرح ٱبن النفيس، وترجم كتاب "الترياق" لٱبن رشد، وكتاب *De malis limoniis* للمالَقيّ ٱبن البَيْطار، وبقي دائمًا علىٰ صلةٍ وثيقةٍ بوطنه.

وفي المقابل، تبدو أقوال رايئا وكأنها تومئ إلىٰ ٱطّلاع غامض علىٰ هٰذه الأفكار، التي ربّما تناهت إليه عن طريق ما هو متداولٌ بينَ عامّة الناس، وهي الطريق ذاتها التي أرتآها دوبلر لٱنتقالها إلىٰ سِرڤيت. فيبدو، إذن، أنّ معرفة نصّ ٱبن النفيس في غرناطة في القرن الرابع عشر [٨ هـ] [من قِبَل الأطباء والمثقفين]، كانت أمرًا محتملًا إذا ما أخذنا بعين الٱعتبار ما بلغه الطِّبُّ الغرناطيّ آنذاك من مستوىٰ رفيع، وسرعة ٱنتقال الأفكار. ونذكر ـ علىٰ سبيل المثال ـ أنّ الطبيب والمؤرّخ والوزير الفارسي رشيد الدين (٦٤٤ـ٧١٨هـ/ ١٢٤٧ـ١٣١٨م) أصدر تعليماتٍ إلىٰ أحد وكلائه يُبيّن فيها ما ينبغي أن يكافأ به مراسلوه العلميّون في الغرب، ومن بين العشرة الذين أورد ذكرهم، ستّةُ مراسلين كانوا مُقيمين في الأندلس، وأربعة في طرابلس وتونس والقيروان•.

وإذ كانت ممارسة التشريح ممّا تُمليه الضرورة المُطلقة للجرّاحين، فلم يكن، بأقلّ

• بالرغم ممّا بات يعرفه مؤرّخو الطبّ الغربيّون، بشكلٍ أو آخر، من أمر ريادة الطبيب ٱبن النفيس في ٱكتشاف الدورة الدمويّة الصغرىٰ، فإنهم ما برحوا ينسبون هٰذا الٱكتشاف إلىٰ اللاهوتي الإسباني سِرڤيت Servet (سرڤيتوس، ت ١٥٥٣م/ ٩٦٠هـ) وإلىٰ الطبيب الإنكليزي وليام هارڤي Harvey (الذي وصف، في مؤلَّفٍ له سنة ١٦٢٨م/ ١٣٠٧هـ الدورة الدمويّة الكاملة)، مُغْفِلين الإشارة إلىٰ ٱبن النفيس العربيّ. بل إنّ كاتبًا إسبانيًا (ٱسمه كيريسيس ديل آغوا) ٱدّعىٰ ـ تعصُّبًا منه لأوّليّة مواطنه سِرڤيت في هٰذا الٱكتشاف ـ أنّ ٱبن النفيس لا يعدو أن يكون شخصيّةً مختلقة لم تطأ قدمُها الأرض، قد ٱخترعها نفرٌ من العرب لنزعةٍ عنصريّة، وما كتابات ٱبن النفيس إلّا محض خيال!
(Curieses del Agua, A., 1967, Gaceta medicinal Español, nos 491, P. 273; 492, P.
←   *.(311; 493, P. 365*

ضرورةً بالنسبة إليهم، الاَعتمادُ على علم العقاقير للتوصُّل إلى أعمق تخدير ممكن، ولسير مرحلة ما بعد إجراء العمليّة على نحوٍ يُجنِّب الاَختلاطات. وقد كان أفضل

← ولا نحبّ أن ندع الموضوع دون أن نُدرج، أدناه، شرحًا لنظريّة اَبن النفيس، مقتبسين "التلخيص" الدقيق لها، ممّا قدّمه الدكتور غليونجي في كتابه... يقول:

«ولننظر، الآن، إلى ما ورد من تعليقات اَبن النفيس في "شرح التشريح" على ما قاله اَبن سينا وجالينوس، دون التقيّد بمراعاة الترتيب الذي اتّبعه اَبن النفيس في بسط آرائه، إذ إنّ كتابه يزخر بالتكرار والاَستطراد، وإنّه لا يتّبع نظامًا مسلسلًا في عرض موضوعه، وهذا طبيعيٌّ لأنه اتّبع النظام نفسه الذي روعي في تأليف "القانون".

«ونحن نُلاحظ، أوّلًا، أنّ تفكيره يتّسم بالمنطق الحادّ، وأنّ نتائجه صحيحةٌ في معظم الحالات، اللّهم إلّا عندما أكّد مثلًا ـ على عكس ما قاله اَبن سينا ـ أنّ البُطَين الأيمن لا ينقبض تلقائيًا وإنما يجتذب الدم باَمتصاصٍ سلبي، أي أنّ الفترة العاملة هي فترة الاَنبساط لا الاَنقباض.

«ويُمكن حصر ما أتى به اَبن النفيس من جديدٍ، في الفقرات التالية الخاصّة بالروح، والتي يتّضح منها مبدئيًا أنّ المؤلّف قَبِل النظرة السائدة، وهي أنّ البُطين الأيسر والشرايين مليئةٌ بالروح، وأنّ الروح تتولّد في التجويف الأيسر باَختلاط الدم بالهواء.

«قال اَبن النفيس: "والذي نقوله نحن ـ والله أعلم ـ أنّ القلب لمّا كان من أفعاله توليد الروح، وهي إنما تتكوّن من دم رقيق جدًّا، شديد المخالطة لجِزم الهواء، فلا بدّ وأن يُجعل في القلب دمٌ رقيق جدًّا وهواء، ليُمكن أن يَحدُث الروحُ من الجِزم المختلط منهما حيث تولد الروح، وهو في التجويف الأيسر".

«ثمّ يُفسّر ضرورة الرقّة الشديدة في الدم الواصل إلى التجويف الأيسر وكيفيّة حدوث هذه الرقّة، فيقول: "ولا بدّ، في قلب الإنسان ونحوه ممّا له رئةٌ، من تجويفٍ آخر يتلطّف فيه الدم ليَصلح لمخالطة الهواء، فإنّ الهواء لو خلط بالدم وهو على غلظه لم يكن من جملتهما جسمٌ متشابه الأجزاء، وهذا التجويف هو التجويف الأيمن".

«نستطيع إذن أن نستخلص أنّ وجود تجويفٍ آخر محتّمٌ ـ في نظره ـ لضرورة تلطيف الدم تمهيدًا لمخالطته الهواء. وهذا اَستنتاج غائيٌّ بحت. ونعني بذلك اَستنتاجه وجود الشيء من ضرورته، وربّما قال البعض: إنه سَبَقَ في ذلك، (لمارك) وأمثاله في نظريّتهم القائلة بأنّ الوظيفة تُكيّف العضو، ولكن العلماء المتعقّلين كانوا ـ في رأينا ـ كثيرًا ما يبدأون بملاحظةٍ واقعيّة، ثمّ يشغلون أنفسهم بعد ذلك بمحاولة اَستنتاج ضرورتها. ←

مصدرٍ للمعلومات، في هٰذا الصّدد، كتاب ديسقوريدس *Materia médica* [المادّة الطبّيّة]، ولٰكنّ هٰذا الكتاب لم يكن معروفًا في العالم اللاتيني إلّا من خلال الأعمال

← «ويسترسل ابن النفيس في سرده لآرائه فيقول: "وإذا لَطُف الدم في هٰذا التجويف (أي الأيمن) فلا بدّ من نفوذه إلى التجويف الأيسر حيث مولد الروح". وهٰذا بالطبع ضروري لإتمام نظريّته في تكوين الروح... ثمّ يُضيف: "ولٰكن ليس بينهما منفذ، فإنّ جِرْم القلب هناك مُصْمَتٌ ليس فيه منفذ ظاهر كما ظنّه جماعةٌ، ولا منفذٌ غير ظاهر يصلح لنفوذ هٰذا الدم كما ظنّه جالينوس، فإنّ مسامّ القلب هناك مستحصفة وجِرْمه غليظ".

«من أين إذن يكون مرور الدم؟ ألم ينكر صراحةً وجود مسامّ في الحاجز؟

«لقد بحث ابن النفيس عن مكان هٰذا الاتّصال، فلم يزد على أن يقطع بأنّ الدم، بعد أن يلطُف في التجويف الأيمن، ينفذ إلى الرئة، وهناك ـ على حدّ قوله ـ "يُخالط الهواء، ويرشح ألطف ما فيه، وينفذ إلى الشّريان الوريدي (الوريد الرئوي)، ليوصله إلى التجويف الأيسر، وقد خالط الهواءَ، وصَلُح لأن تتولّد منه الروح". ويُضيف: "وما بقي منه أقلّ لطافةً تستعمله الرئةُ في غذائها".

«وقد أكّد هٰذا في موضع آخر بقوله: "فإنّ نفوذ الدم إلى البُطين الأيسر، إنّما هو من الرئة بعد تسخّنه وتصعُّده من البُطين الأيمن، كما قرّرناه أوّلا".

«وكأنّه لم يكتفِ بكلّ هٰذا، فأراد زيادة التأكيد بأنّ الدم إنّما يجري في اتّجاه واحد، وأنه ليس موضوع مدٍّ وجزر، فقال أيضًا: "وقوله [أي ابن سينا]: 'وإيصال الدم الذي يغذو الرئة إلى الرئة من القلب، هٰذا هو الرأي المشهور'، هو عندنا باطل، فإنّ غذاء الرئة لا يصل إليها من هٰذا الشّريان، لأنه لا يرتفع إليها من التجويف الأيسر من تجويفَي القلب، إذ الدم الذي في هٰذا التجويف، إنّما يأتي إليه من الرئة، لا أنّ الرئة تأخذه منه. وأمّا نفوذ الدم من القلب إلى الرئة، فهو في الوريد الشّرياني (الشريان الرئوي)".

«واستطرد، في معرض حديثه عن سبب نحافة جدار الوريد الرئوي، فقال: "وليكون أطوع (أي جدار الوريد) ليرشح منه، ما يرشح منه إلى الرئة، من الدم اللطيف. هٰذا أيضًا على الرأي المشهور، والحقّ أنه ليس كذٰلك، بل ليكون أطوعَ لقبول ما ينفذ فيه من الدم والهواء الذي يوصله من الرئة إلى القلب".

«يبدو بوضوح، في كلّ هٰذه الفقرات، أنّ ابن النفيس اهتدى إلى العلم بأنّ اتّجاه الدم ثابت، وأنه يمرّ من التجويف الأيمن إلى الرئة حيث يُخالط الهواء، ومن الرئة عن طريق الشّريان الوريدي (الوريد الرئوي) إلى التجويف الأيسر. ←

المقتبسة، أو المجدّدة الصياغة، أو الموسّعة ـ ممّا أدىٰ إلىٰ زيادة عدد الأدوية المفردة المعروفة إلىٰ الضعفين ـ التي أنجزها الأطبّاء العرب، ومن خلال ترجمتين جزئيّتين إلىٰ اللاتينيّة تمّ إنجازهما في طليطلة(18). وانضافت إلىٰ ذلك في القرن الثالث عشر [٧ هـ] ترجمةُ كتاب "[الاعتماد في] الأدوية المفردة" لابن الجزّار [القيرواني]، من إنجاز

← «ولننظر، الآن، إلىٰ ما قاله عن الشّريان الوريدي (الوريد الرئوي) والوريد الشّرياني (الشّريان الرئوي)، إذ إنّ أقواله في هذا الصدد ترتبط ارتباطًا وثيقًا بما سبق.

«بدأ ابن النفيس بأن تناول الشّريان الوريدي (وهو ما نسمّيه بالوريد الرئوي)، فقال: "إنّ هذا العرق شبيهٌ بالأوردة وشبيهٌ بالشّريان. أمّا شَبَهُهُ بالأوردة فلأنه من طبقة واحدة، وأنّ جِرمه سخيف [أي رقيق وضعيف]، وأنه علىٰ قِوام ينفذ فيه الدم لغذاء عضو". ويفسّر هذا في فقرة أخرىٰ بقوله: "فلا بدّ أن يكون هذا الدم إذا لطُف نفذ في الوريد الشّرياني (الشّريان الرئوي) إلىٰ الرئة، لينبثّ في جرمها ويُخالط الهواء ويُصفّي ألطف ما فيه، وينفذ إلىٰ الشّريان الوريدي ليوصله إلىٰ التجويف الأيسر"، ثمّ في مكان آخر: "ولذلك جعل الوريد الشّرياني (الشّريان الرئوي) شديد الاستحصاف ذا طبقتين، ليكون ما ينفذ من مسامّه شديدَ الرقّة. وجعل الشّريان الوريدي سخيفًا ذا طبقة واحدة، ليسهل قبوله لما يخرج من ذلك الوريد، ولذلك جعل بين هذين العرقين منافذ محسوسة".

«وفيما يتّصل بهذه المنافذ يجب أن نتذكّر أنّ العدسة المكبّرة لم تكن قد اخترعت بعد، وأنّ (مالبيجي) **Malpighi** لم يكشف عن الأوعية الشّعريّة إلّا بعده بقرون، ممّا جعل الشرايين تُعَدّ منفصلةً انفصالًا تامًّا عن الأوردة. ولذلك فإنّ ابن النفيس لم يبعد كثيرًا عن الحقيقة عندما قال إنّ الدم يمرّ من مسامّ بين العرقين أو من منافذ محسوسةٍ هي بمثابة الأوعية الشعريّة.

«وتابع وصفه للشّريان الوريدي (أي الوريد الرئوي) بأن قال: "أمّا شَبَهُهُ بالشرايين فلأنه ينبض، وينبُت ـ علىٰ قولهم ـ من القلب. ولمّا كان نبض العروق من خواصّ الشرايين لا جَرَم، كان إلحاق هذا العرق بالشرايين أولىٰ... ونقول: إنّ العروق التي تنبُت في الرئة تُخالف جميع عروق البدن، وذلك لأنّ في جميع الأعضاء يكون للعرق الضارب طبقتان ولغير الضارب طبقةٌ واحدة. والضارب مستحصفٌ وغير الضارب سخيف، وعروق الرئة بالعكس من هذا".

«وهنا يبدو جليًّا أنه يصف الشّريان الوريدي (الوريد الرئوي) بأنه ينبض، بينما لا ينسب إلىٰ الوريد الشّرياني (الشّريان الرئوي) سوىٰ حركةٍ تابعة لحركة الرئة. وفي هذا خطأ واضح. ←

إستيبان السرقسطي (١٢٣٣م [٦٣٠هـ])، تحت عنوان *Liber fiduciæ de simplicibus medicinis*، وكتاب أبي جعفر أحمد بن محمّد الغافقي[19] في تركيب وخواصّ العقاقير ـ المعروف من خلال ملخّص [منتخب] وضعه ٱبنُ العبري ـ ويُتيح لنا أن نرىٰ في مؤلّفه أعظم عالمِ أندلسيّ في ميدان العقاقير علىٰ مرّ العصور كلّها، لأنه، وبالرغم من ٱستلهامه من ديسقوريدس، عرف كيف يُضيف عددًا كبيرًا من الملاحظات الأصيلة حول المجموعة النباتيّة في شبه الجزيرة الإيبيريّة[20]، وقد تَرجَم هٰذا الكتاب مَن يُدعىٰ المعلّم خ. بن المعلّم يوهانس الليريدي (١٢٥٨م [٦٥٦هـ])؛ و"كتاب المفردات الطبيّة *Liber de simplicibus medicinis*" المنسوب إلىٰ شخص يُدعىٰ سيرابيون الصغير (حيًّا ١٠٧٠م [٤٦٢هـ])، وقد ترجمه أبراهام الطُّرطوشي عام (١٢٩٠م [٦٨٩هـ])، ولا سيّما كتاب ٱبن زُهْر "التيسير.." الذي ورد ذكره فيما تقدّم. هٰذه الأعمال جميعًا كانت مصادر معلومات أطبّاء ذٰلك العصر، مثل هنريك هاريسترانگ (ت ١٢٤٤م [٦٤٢هـ])، وقد كانت موضع ٱعتماد علىٰ نطاقٍ واسع، حتّىٰ قيام ڤاليريوس كوردوس (١٥١٥ـ١٥٤٤م)، ولاگونا... إلخ، في صميم عصر النهضة، بٱفتتاح مرحلة جديدة في تاريخ علم العقاقير، وسرعان ما رفدته الاكتشافاتُ البسيطة التي تمّت في أميركا وبلاد الهند.

← «ثمّ علّق علىٰ ٱختلاف أوعية الرئة عن الأوعية الأخرىٰ من حيث تكوين جدرانها، فقال: "وٱختلفوا في سبب ذٰلك، فقال ٱسقلبيادوس: 'إنّ ذٰلك لأنّ شرايين الرئة شديدةُ الحركة، كثيرتُها جدًّا، فتهزُل، وذٰلك لأنها تنبض بنفسها، وتنبسط وتنقبض، تبعًا لٱنبساط الرئة وٱنقباضها، والحركة المفرطة تُهزِل. وأمّا أوردتها فإنها تتحرك تبعًا لحركة الرئة فقط، والحركة المعتدلة مُسْمِنَةٌ مغلّظة للجِرم'". وهٰذا التعليل يلائم ٱهتمامه بتفسير كلّ ظاهرة تفسيرًا عقليًّا يتّفق مع النظريّات السائدة، وإن كان لم يستند في مزاعمه إلىٰ برهان».

د. بول غليونجي: ١٦٣ـ١٦٨، وقد عارضنا نصّه بنصّ ٱبن النفيس: ٢٩٢ـ٩٥، وصحّحنا ما ٱستوجب التصحيح.

قلت: وفي شرح ٱبن النفيس، المفصّلِ هٰذا والمتجاوزِ لما قبله، أبلغُ الدلالة علىٰ أنه عمل في قلب الإنسان تشريحًا، قبل أن يتوصّل إلىٰ كشفه الرّيادي.

ولٰكنّ عصر النهضة هٰذا ـ وإن بدا الأمر غريبًا ـ أفضىٰ إلىٰ نسيان الموادّ المنوّمة التي كانت معروفة، منذ العصور القديمة، ولم تكتسب كامل دلالتها إلّا في القرون الوسطىٰ وفي المشرق[21]. من ذٰلك، مثلًا، أنّ ديسقوريدس، في معرض كلامه عن اللُفّاح (تفّاح الجنّ)، أوضح بأنه يولّد، إذا اَستُعمل كما ينبغي، حالةً من النوم تستغرق ثلاث ساعات أو أربع، أمّا إيماءة اَبن بكلارش إلىٰ زجاج ساعة جالينوس، مُشبّهًا مفعوله بمفعول اللُفّاح، فلعلّه يَحْسُن بنا أن نُؤَوّلها بمعنىٰ نوم كما في حالة التنويم المغناطيسي. وإذا ما سِرْنا قُدُمًا مع التسلسُل الزمني، فإنّنا نجدُ، في ملحمة الفردوسي "الشاهنامه"، وصف عمليّة توليد بالقيصريّة تكون فيها أمّ رستم، رودابه، في حالة سُكْر، تخفيفًا لألم المداخلة الجراحيّة. وتُذكّرنا هٰذه التقنيّة بالتخدير بواسطة الكونياك التي ظلّت تُمارَس حتّىٰ زمنٍ ليس ببعيد، في حالة المولودين الجُدُد. وهناك نصٌّ متأخّر[22] في الزمن، يروي ـ مُشيرًا إلىٰ واقعةٍ قديمة ـ ما قاله الأطبّاء لمريضٍ اَضطرّوا إلىٰ بتر ساقه: «*هل ترغب في أن نُعطيك مُخدّرًا تشربه، وحينئذ لن تشعر بما نعمله لك؟*».

لقد كان التخدير، إذن، معمولًا به منذ أوائل عهود الإسلام. وفضلًا عن اللُفّاح، وبتأثيرٍ هنديّ، اَستُعمل "البَنْج"، الذي يَرِد ذكره مرارًا في "ألف ليلة وليلة"، وهو يُعادل الحشيش (**cannabis sativa**)، وإنْ زَعَم بعض المؤلّفين أنه والشَّيْكُران شيءٌ واحد، وكان يُعطىٰ في شكل منقوع، أو بواسطة إسفَنْجةٍ مبلولة توضع في فم المريض فتولّد لديه حالةً من السُّبات، ولا يُعطىٰ بالتناول، بل عن طريق تشريبٍ مباشر للأغشية المخاطيّة، التي تنتقل من خلالها القلويّات إلىٰ الدم. وكانت هٰذه التقنيّة هي التقنيّة ذات الحظوة عند تيودوريكو دي بورگونيوني (١٢٠٥ـ١٢٩٨م)، وإن كان يُفضّل الأفيون (باللاتينيّة **Papaver somniferum**، وبالعربيّة "الخشخاش")، بوصفه مادّةً فاعلة. وكان ديسقوريدس (٤، ٦) قد قدّم أيضًا وصفًا له. واَنتهىٰ أرناو دي فيلانوڤا إلىٰ وضع وصفةٍ كان من شأنها أن تكون ناجعةً إلىٰ أقصىٰ حدّ:

«*لكي تُوَلّد نومًا عند المريض، يكون من العمق حتّىٰ ليُبتَر أحد*

أعضائه فلا يُحِسّ بألم، كما لو كان مَيْتًا، خُذ مقاديرَ متساويةً من الأفيون وقشر اللُفّاح وجذور الشَيْكُران، وأهرسْها جميعًا، وأمزجها بالماء. وعندما تضطرّ إلىٰ بتر عضوٍ من أعضاء مريض أو نشره، فأغمس خرقةً في هٰذا المزيج، وضعها علىٰ جبينه وأنفه. وسرعان ما يغيب في نوم يكون عميقًا حتّىٰ ليُصبح في وُسعك أن تفعل به ما تشاء! ولكي تُصْحِيه، بَلِّل الخرقة بالخلّ تبليلًا قويًا جدًا...»[23].

وللأنتقال من هٰذه الوصفة، إلىٰ تجريب وصفاتٍ أخرىٰ تولّد أحاسيس جديدة، مثل البيش (خانق الذئب)، لم يبقَ سوىٰ خطوة. ومع أنتشارها والتحوّل إلىٰ سوء أستعمالها، تولّدت ظاهرةٌ مذهلة، ظاهرة الساحرات، مع كلّ ما يُواكبها من هلوسات.

تتّصف الشهادات ـ التي في حوزتنا حول أستعمال موادّ مضادّة للحيويّات ـ بأنها أقلّ دقّةً بكثير من الشهادات السابقة. ولٰكننا نلاحظ، علىٰ كلّ حال، في نشرات الوصفات الطبيّة، الأتّجاه نحو أستخدام أتربةٍ وطحالب مختلفة. من ذٰلك، مثلًا، نبات الغاريقون **Polyporus officinalis** أو الطُّمْي، اللذان يدخلان في تركيب معظم الوصفات ضدّ الدمامل. ومن الواضح أنّ هٰذه الموادّ لم تكن صافيةً بما فيه الكفاية، وفي حالاتٍ كثيرة، كانت الأتربة لا تُجلب من أماكن مناسبة، بل تؤخذ من أيّ موقع كان، وتُباع دون كبير وساوس، وكثيرًا ما كان ذٰلك السببَ في عدم نجاح المعالجةً، مثلما يشرح لاگونا علىٰ نحوٍ فَطِن. ومن المؤكّد، أيضًا، أنّ بعض الأطبّاء في ذٰلك العصر، ويبرز بينهم تيودوريكو دي بورگونيوني (١٢٠٥ـ١٢٩٨م)، كانوا يمتلكون فكرةً ما عن التعقيم، كما يتبيّن من أختلاف النسبة المئويّة من المضاعفات المميتة لدىٰ كلّ جرّاح. ومع ذٰلك فقد أصبح، أعتبارًا من القرن الرابع عشر، هٰذا التيّار تيّار أقلّيّة، وسادت حتّىٰ عصر النهضة نظريّة القيح المفيد.

والمثال النموذجي علىٰ ما نقول، هو ما كان يقع لأطبّاء العيون، فقد كان عليهم، في حالاتٍ ما، كما تمّ مع اليهودي گريسكس الذي أجرىٰ عمليّة لإزالة سادّ في عدسة عين خوان الثاني ملك أراگون، أن يُجروا، مسبقًا، وتحت المراقبة، عشرات

العمليّات علىٰ مرضىٰ، تُشبه عمليّاتهم تلك التي ستُجرىٰ له، قبل أن يسمح لهم بمعالجته. وكريسكس يهودي، وهٰذا يدعو إلىٰ الاعتقاد بأنه كان مدينًا في إعداده المعرفي للمصادر العربيّة التي كانت لمّا تزل، في القرن الخامس عشر، تحتفظ بقيمتها كاملة. ومن ثَمّ، يجدر بنا أن نُذكِّر بمصنّف الإشبيلي سليمان بن حارث القوطي (١١٥٩م [٥٥٤هـ]) والذي تُرجم إلىٰ اللاتينيّة وإلىٰ القَطَلونيّة.

ثمّة مؤسّستان أخذهما الغرب اللاتيني، فيما يبدو، عن الطبّ العربي: مؤسّسة البيمارستانات، ومؤسّسة امتحان [الأطبّاء] للحصول علىٰ ترخيصٍ بمزاولة مهنة الطبّ. ويبدو أنّ الأولىٰ قد نشأت نتيجةً لتخصيص قاعاتٍ معيّنةٍ في المستشفيّات لمعالجة المجانين. وكلمة بيمارستان، من الناحية الاشتقاقيّة، مصطلحٌ "إيراني" [فارسي] ("بيمار": مريض، وأضيفت إلىٰ هٰذه الكلمة اللاحقة "ستان" الدّالّة علىٰ المكان)، وهٰذا يُشير إلىٰ أصلٍ مشرقيٍّ لهٰذه المؤسّسات في عالم الإسلام، وكانت تُلحق بها مدرسةٌ وأراضٍ لزراعة النباتات الطبّيّة، بحسب المعيار الذي وضعه السّاسانيّون لدىٰ إنشاء مشفىٰ جُنْدَيْسابور. ويبدو أنّ أوّل مشفىٰ في الإسلام هو ذلك الذي أسّسه الخليفة [الأموي] الوليد الأوّل (٨٦ـ٩١هـ/ ٧٠٥ـ٧١٠م)، ما لم يكن الأمر متعلّقًا بمشفىٰ لمرضىٰ الجُذام، أو بحَرَم مخصّصٍ لهٰؤلاء المرضىٰ، شبيهٍ بالمكان الموجود في قرطبة، باسم رَبَض المرضىٰ. وسرعان ما تكاثرت هٰذه المؤسّسات، اعتبارًا من القرن التاسع [٣ هـ]. وكان تحت تصرّف المشفىٰ العَضُدي [ببغداد]، الذي دُشّن في ٣٧٢هـ/ ٩٨٢م، ثمانون طبيبًا في تخصّصاتٍ مختلفة (أطبّاء عيون، جرّاحون، متخصّصون بالجروح... إلخ)، كانوا يضطلعون أيضًا بمهامّ تعليميّة*[24]. ولكنّ الشهادات الأدبيّة في ذلك العصر، تُثبت أنه كانت هناك بيمارستاناتٌ بوصفها كياناتٍ مستقلّة، كما يتبيّن من طُرفتين وردتا علىٰ لسان المبرِّد (ت ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م): تتعلّق الأولىٰ بزيارةٍ أجراها لبيمارستان دير هِرقل، يُمكن تأويل مضمونها

* أنشأ البيمارستانَ العَضُدي "عَضُدُ الدولة بن بُوَيْه الدَّيلمي" في الجانب الغربي من بغداد في العصر العبّاسي، «وأُعدّ له من الآلات [الأدوات والأجهزة واللوازم] ما يقصر الشرح عن وصفه»، كما قال ابن خلكان. انظر "تاريخ البيمارستانات في الإسلام". د. أحمد عيسىٰ، ط ٢ (بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨١)، صص ١٨٧ـ١٩٧.

بوصفه اقتباسًا حضريًّا للموضوعة البدويّة حول "المجنون"، مجنون الحبّ*. وتدور الطّرفة الثانية حول مسألة غزليّة. وتُبيّن كلتا الطّرفتين أنّ هٰذين المجنونين، العاقلين وقت الحوار مع الراوي، كانا مقيّدَين بالسلاسل والأغلال.

وبعد ذٰلك بقرون، أفرد الكاتب الكبير الهمذاني (٣٥٨ـ٣٩٨هـ/ ٩٦٨ـ١٠٠٨م)، إحدىٰ مقاماته، لمجنونٍ بليغ في بيمارستان البصرة*[25]. وكانت المعالجة المستخدمة في البداية للسيطرة علىٰ نوبات المصابين بالفُصام العقلي، هي تلك التي استمرّ العمل بها في الغرب حتّىٰ مجيء بينيل، وكانت تقتصر علىٰ اللجوء إلىٰ القوّة

** رویٰ المسعودي أنّ محمّدًا بن يزيد المبرّد حدّث، فقال بأنه اجتاز، يومًا، بناحية النعمان (بين واسط وبغداد)... فذُكِرَ له أنّ في "دير هرقل" جماعةً من المجانين يُعالَجُون. فلمّا حاذاه دعتْه نفسه إلىٰ دخوله، فدخله ومعه شابٌّ ممّن يرجع إلىٰ دين وأدب... «فإذا بمجنون من المجانين قد دنا إليّ، فقلت: "ما يُقعِدك بينهم وأنت بائنٌ عنهم؟"، فكسر جفنه ورفع عقيرته، وأنشأ يقول:

«إنْ وصفوني، فناحلُ الجَسَدِ ... أو فتّشوني، فأبيضُ الكَبِدِ
أَضعَفَ وجدي وزاد في سقمي ... أنْ لستُ أشكو الهوىٰ إلىٰ أحدِ»

وقد ظلّ المبرّد يستنشده إلىٰ أن قال:

«ترحّلوا ثمّ نيطت دونَهم سُجُفٌ ... لو كنتُ أملكهم يومًا لما رحلوا
يا حاديَ العيسِ! مهلًا، كي نُوَدّعها ... رفقًا قليلًا، ففي توديعها الأجلُ
ما راعني، اليوم، شيءٌ غيرُ فقدِهِمُ ... لما استقلّتْ، وسارت بالدُّمىٰ الإبِلُ
إنّي علىٰ العهد، لم أنقُضْ مودّتهم ... فليت شعري ـ وطال الدهر ـ ما فعلوا؟»

«قال المبرّد: فقال الفتىٰ الذي معي: "ماتوا!"،
«فقال المجنون: "آه آه! إن ماتوا فسوف أموت!"،
«وسقط مَيتًا. فما برحتُ حتّىٰ غُسّل وكُفّن. وصلّيت عليه ودفنتُه».
"مروج الذهب" تحقيق قاسم الشماعي الرفاعي (بيروت: دار القلم، ١٩٨٩)، ٤: ٨٧ و٨٨.

ومّما يجدر ذكره أنّ هٰذه الأبيات معدّلةً، وتتمّةً لها، ما زال يصدح بها الفنّان المعاصر صباح فخري، فيأسر القلوب معنًىٰ ولحنًا ورخامةَ صوت!

* وهي حديث عيسىٰ بن هشام في دخوله ذلك البيمارستان بصحبة أبي داود المتكلّم (وهو من المعتزلة الذين يقولون بأنّ العبد خالقُ أفعال نفسه)، والمجنون يردّ عليه هٰذا القول، وقد عرف أنّ زائره هو المعتزليّ أبو داود، بأن يقول له: ←

وآستخدام السياط! وفيما بعد، أصطبغت بمسحةٍ إنسانيّة، لأنّ أستاذ آبن أبي أُصيبعة، مهذّب الدين بن الدّخوار (٥٦٤ـ٦٢٨هـ/ ١١٦٩ـ١٢٣٠م)، كان يُعالج المهووسين بإضافة مقدار مناسب من الأفيون إلىٰ شراب اللوز، فتنقطع الأزمة بهٰذا المشروب.

ولا بدّ أنّ تاريخ إدخال هٰذه المؤسّسات، في الأندلس، يعود إلىٰ ما قبل القرن الثالث عشر [٧ هـ]، لأنّ معجم رايمون مارتي يُترجِم كلمة مارستان/ مالستان بمستشفىٰ. وأوّل مستشفىٰ تتوافر عندنا معلوماتٌ مؤكّدة عنه ونعرف مخطّطاته هو المستشفىٰ الذي أسّسه محمّد الخامس الغرناطي عام (١٣٦٧م [٧٦٨هـ])، وتلاه مستشفىٰ كلٍّ من بَلَنْسِية وسَرَقُسْطة، وباقي المستشفيات في أوروبة.

وقد أُحْدِث آمتحانُ الأطبّاء، في المشرق، عام ٣١٨هـ/ ٩٣١م، بسبب «غلطٍ

> *جرىٰ علىٰ العامّة من بعض المتطبّبين، فمات الرجل، فأمر إبراهيم بن محمّد بن بطحا بمنع سائر المتطبّبين بالتصرّف إلّا مَن آمتحنه والذي "سنان بن ثابت" [المتحدّث آبنه الطبيب ثابت بن سنان بن ثابت بن قرّة] وكتب له رُقْعةً بخطّه بما يُطلق له من الصناعة [يُجيز له صناعة الطبّ]. فصاروا إلىٰ والذي، وآمتحنهم، وأطلق لكلّ واحدٍ منهم ما يَصْلح أن يتصرّف فيه. وبلغ عددهم، في جانبَي بغداد، ثمانمئة رجل ونيّفًا وستّين رجلًا، سوىٰ من آستُغني عن محنته [آمتحانه] لاشتهاره بالتقدُّم في صناعته، وسوىٰ مَن كان في خدمة السلطان»* • .

← «شاهت الوجوهُ وأهلُها! إنّ الخِيَرَة لله لا لعبده، والأمور بيد الله لا بيده. وأنتم ـ يا مجوس هٰذه الأمّة! ـ تعيشون جبرا، وتموتون صبرا، وتساقون إلىٰ المقدور قهرا! ولو كنتم في بيوتكم لبَرَز الذين كُتب عليهم القتل إلىٰ مضاجعهم، أفلا تُنْصفون، إن كانِ الأمر كما تَصِفون؟ وتقولون، خالق الظلم ظالم! أفلا تقولون: خالق الهُلْك هالك؟! أتعلمون يقينا، أنكم أخبث من إبليس دينا؟!...».

"شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني". ط ٢ (القاهرة، ١٩٦٢) ١٥٣ـ٥٥.

والمقامة موضوعة، آبتداءً، للتنديد بآراء المعتزلة!

• "طبقات الأطباء..": ٣٠٢ (ترجمة "سنان بن ثابت بن قرّة").

وبالرغم من هٰذه الاستثناءات، لم يُحكم على الممتحنين جميعًا بمقياسٍ صارمٍ واحد، إذا ما أخذنا بالنادرة الطريفة التي أوردها ابن القفطي، والتي تُذكّرنا بنكتةٍ ما برح طلبة الطبّ يتندّرون بها[26].

واتّسعت هٰذه الامتحانات لتشمَل العالم الإسلامي بأسره، وقد تناول هٰذا الموضوع صاعد بن الحسن في مؤلّفه "كتاب التشويق الطبّي"[27]. فكانت معروفة في "إسبانية المسلمة" منذ القرن الحادي عشر [٥ هـ][28]، وفي "إسبانيا المسيحيّة" منذ القرن الثالث عشر [٧ هـ] إلىٰ أقصىٰ حدّ، لأنّ حكاية الوصيفة (أو البتول) تيودورا (الليلات ٤٣٦ـ٤٦٢) من "ألف ليلة وليلة" ـ من حيث الموضوع، تقوم إحدىٰ وقائعها علىٰ وصفٍ أدبيٍّ لفحصٍ في الطبّ ـ ورد، آنفًا، إيماءً إليها في "إجابات الفيلسوف الثاني" الواردة في "الحوليّات العامّة" وفي "المنظار الطبّي التاريخي" *speculum historiale* لبوڤيه. ومن جهة أخرىٰ نصّ التشريع القشتالي علىٰ ضرورة اختبار المرشّحين لممارسة الطبّ، وقضىٰ القانون المحلّي الملكي (٤، ١، ١٦) أنْ *«ليس لأحدٍ أن يُمارس الطبّ، ما لم يمتحنه، ويُقِرّ بأنه طبيبٌ مقتدر، أطبّاءُ المدينة التي ينوي أن يمارِس عمله فيها، وبتخويلٍ من المخاتير [واحدهم: مختار، أي العُمْدة]، علاوةً علىٰ وثيقةٍ مُثْبَتة من المجلس، وتطبّق الأحكام ذاتها في شأن الخبراء في معالجة القروح، ويُمنع أيّ فردٍ منهم من الإقدام علىٰ قطع عظمٍ من العظام، أو صيانته، أو نزعه، أو الكي بأيّ وجه كان...»*. وليس من شكٍّ في أنّ أحكام هٰذا النصّ القانوني قد وضعت موضع التطبيق، وخضع لها الأطبّاء الغرباء الذين كانوا يُمارسون المهنة، مؤقتًا، في هٰذه المدينة أو تلك. وسُنّت أحكامٌ مماثلة، فرض فيديريكو الثاني بموجبها إجراء فحص مهنيٍّ نهائيّ بعد خمس سنوات دراسيّة، تليها ولا بدّ سنةٌ من التطبيق العملي. وقد اتّسع هٰذا النوع من الحماية الملكيّة لحقوق المريض ليشمَل تدريجيًّا بقيّة [أقطار] أوروبة.

حواشي المؤلّف [ف ٩]

1. راجع [مقال] خ. م. مِيّاس "مخطوطة عربيّة لعمل اْبن وافد في الفلاحة"، [المنشور] في *Tamuda*، ٢ (١٩٥٤) صص ٨٧_٩٦ و٣٣٩_٣٤٤.

2. نحن على علم بمصنّفاتٍ مستقلّة حول تربية الطيور والدواجن، كالمصنّف الذي أُهدي للخليفة المشرقي المهدي (حوالي ٦٨٥هـ [؟]). [حكم المهدي العبّاسي ١٥٨_١٦٩هـ/ ٧٧٥_٧٨٥م(]).

3. راجع طبعة التّرجمة العربيّة ليحيى بن البطريق لكتاب *De generatione* التي قام بنشرها ج. بروگمان وهـ. ج. دروسارت (ليدن، ١٩٧١).

4. اْمتنع رجلٌ من الصابئة عن أكل سمكةٍ خوفًا من أن تكون من السمك الرعّاد (البِيروني).

5. في "المنقول من القرون الوسطى وعصر النهضة، ٣" (برشلونة، ١٩٥٥)، ص ١٣٢، يوحّد مع الرعّاد المسمّى **Torpedo marmorata**. وتدفع ملحوظة لاگونا إلى اْفتراض أنه اْطّلع على النصّ الذي ترجمناه أو على نصٍّ آخر مماثل، لأنه يصف بوضوحٍ ملحوظٍ اْنتقال الشحنة الكهربائيّة عن بُعد.

6. كان الصيدلاني أسكريبونيوس لارگوس (حيًّا ٤٧م)، وديسقوريدس نفسه [القرن الأوّل م]، قد لاحظا الخصائص العلاجيّة لهٰذا السمك [الرعّاد]، الأمر الذي يُشكّل سابقةً بعيدة للمعالجة الكهربائيّة. [اْنظر ملاحظة ديسقوريدس في حاشيتنا أسفل المتن].

7. راجع الطبعة المجزوءة التي أصدرها عبد الحفيظ منصور، المشرق (١٩٦٨)، صص ١٥١_٢٢٢.

8. لم يتمّ التأكّد من تاريخ هٰذه التّرجمة وصاحبها. ويبدو أنها مستمدّةً مباشرةً من العربيّة وأنها تعود إلى القرن الخامس عشر. راجع الطبعة التي أصدرها خوسيه ياماس، .O. S. A (مدريد، ١٩٤٥).

9. [تحمل] الترجمة الألمانيّة التي أنجزها م. هيروم، عنوان: "طاولة شطرنج الصحّة" (ستراسبورگ، ١٥٣٢). ويمتاز الكتاب موضوع الكلام بأنه يعرض شروحه في شكل مربّع إجمالي منقسم إلى مربّعات رقعة الشطرنج (ومن هنا كلمة شطرنج **schach** في عنوان الترجمة الألمانيّة). ويبدو أنّ هٰذا النوع من العرض، المستلهم من ترتيب الجداول الفلكيّة، يرجع بأصله إلى ٱبن بطلان عينه، وتبعه في ذٰلك ٱبن جزلة (ت ١١٠٠م/ [٤٩٣هـ]) الذي ٱستخدمه في مصنّفه "تقويم الأبدان في تدبير الإنسان"، وقد ترجمه إلى اللاتينيّة فرج بن سالم (المعروف فيها بٱسم *Magister Farachi*) عام ١٢٨٠. ويصف في أربعة وأربعين مربّعًا ٣٥٢ مرضًا، ويُعطي ما يُقابلها من الأنظمة الغذائيّة [أنواع الحِمْية]. (راجع ما كتبه خ. ڤيرنيت في *EI²*، ٣، ص ٧٧٧). وسرعان ما أصبح هٰذا العرض معروفًا في الأندلس، لأنّ ٱبن بكلارش ٱستخدمه في مصنّفه حول علم الصيدلة "المستعيني" المهدىٰ إلىٰ ملك [صاحب] سرقسطة أحمد الثاني المستعين (٤٧٨ـ ٥٠٣هـ/ ١٠٨٥ـ١١١٠م).

10. مصنّف حول علم الحمّامات لا نحتفظ بنصّه العربي. وقد طُبع في الكتاب المسمّىٰ *De balneis quae extant apud Græcos, Latinos et Arabos* (البندقيّة، ١٥٥٣).

11. نُشير، لمجرّد حبّ الٱستطلاع، إلىٰ "مصنّف المياه الطبيّة..."، *Tratado de las aguas medicinales..* لساسيدون (مدريد، ١٧٦١) الذي يُقدِّم بوصفه ترجمةً لكتابٍ عربيّ مزعوم لشخص يُدعىٰ آكمر بن عبد الله (كذا)، من طليطلة، ألّف هٰذا العمل عام ١٠٥٤م/ [٤٤٦هـ]. ويبدو أنّ الأمر يتعلّق بتلفيقٍ يعود إلىٰ القرن الثامن عشر ويسعىٰ إلىٰ إضفاء المصداقيّة.

12. يُمكننا أن نجد سيرة حياة هامون في [مقال] هـ. أورييل "موسىٰ هامون، الطبيب اليهودي الرئيس لدىٰ سليمان القانوني"، [المنشور] في *Oriens*، ١٦ (١٩٦٣) صص: ١٥٢ـ١٧٠.

13. راجع [مقال] خ. ڤيرنيت "ٱبن رشد، طبيبًا"، المنشور في [مجلّة] العلوم *Las Ciencias*، ١٥ (١٩٥٠) صص: ١٩٣ـ١٩٩...

14. راجع [مقال] رودريگيث موليرو "أصالة ودراسة علم التشريح عند ٱبن رشد"، مجلّة الأندلس، صص ٤٨ و٤٩: ٨٠٪ يعتمد علىٰ "كتاب المنصوري" للرازي، و١٥٪ علىٰ "الكتاب الملكي" لعلي بن عبّاس.

15. نحن نعرف الصعوبات التي ٱعترضت كلوت بيك، في غمرة القرن التاسع عشر، في

دفاعه عن هٰذه الدراسات في مصر، أو في وقت أقرب إلينا بكثير، تلك التي برزت لدىٰ السعي إلىٰ إرسائها في الجامعة العبريّة بالقدس.

16. اَستقدم الخليفة المعتصم عام ٨٣٦م [٢٢١هـ] من النوبة فصيلًا من القردة شبيهًا جدًّا بالإنسان، كي يتمكّن يوحنّا بن ماسويه من ممارسة التشريح. وكانت هٰذه العمليّات تتمّ في قاعةٍ خاصّة بُنيت علىٰ ضفّة نهر دجلة. (براون في كتابه *La médécine*، ص ٤١، نقلًا عن اَبن أبي أصيبعة، و"رسالة العلماء" نامئي دانشواران).

17. راجع مقال م. مايرهوف "اَبن النفيس ونظريّته حول الدورة الدمويّة" المنشور في *QSGNM*، ٤ (١٩٣٣)، صص ٣٧ـ٨٨، وكذٰلك مقاله "اَبن النفيس ونظريّته حول الدورة الدمويّة الصغرىٰ" المنشور في *Isis*، ٢٣ (١٩٣٥)، صص ١٠٠ـ١٢٠. وينبغي قراءة كتاب الدكتور عبد الكريم شحادة "اَبن النفيس واَكتشاف الدورة الدمويّة" (دمشق، ١٩٥٥)، مع ملاحظات كلٍّ من ج. ڤيت المنشورة في *JA*، ٢٤٤ (١٩٥٤)، صص ٩٥ـ١٠٠، وخ. ڤيرنيت المنشورة في *Oriens*، ٩ (١٩٥٦)، صص ١٤٩ـ١٥٠.

18. راجع [مقال] إ. دوبلر "المادّة الطبّيّة عند مسلمي القرون الوسطىٰ" المنشور في *SA*، ٤٣، ٤ (١٩٥٩) صص ٣٢٩ـ٣٥٠، ومقال م. مايرهوف "نبذة عن تاريخ علم الصيدلة وعلم النبات عند الأندلسيّين"، المنشور في مجلّة الأندلس، ٣ (١٩٣٥)، صص ١ـ٤١.

19. لا نمتلك إلّا معلوماتٍ قليلةً حول هٰذا الصيدلاني. ويبدو أنه كان اَبن طبيب العيون محمّد بن قسّوم، الذي زاول مهنته في قرطبة في النصف الأوّل من القرن الثاني عشر، وألّف "دليل طبيب العيون" ونشر منه م. مايرهوف الفقرات المتعلّقة بعلم الصيدلة علىٰ وجه الخصوص، في ترجمة فرنسيّة (ماسنو، عام ١٩٣٣).

[قلت: نُشر كتاب محمّد بن قسّوم الغافقي بعنوان "المرشد في طبّ العين للغافقي"، بتحقيق د. حسن علي حسن (بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٧)، ويفيد نصٌّ فيه أنه كان حيًّا في ٥٩٥هـ (١١٩٩م). ولم يترجم مؤرّخ الأطبّاء الدمشقي اَبنُ أبي أُصيبعة لطبيب العيون هٰذا، وتَرجم بإيجازٍ للغافقي أبي جعفر، أحمد بن محمّد بن أحمد بن السيّد، صاحب "الأدوية المفردة"، دون أن يعيّن له عام مولد ولا عام وفاة، ولٰكن أورد الزركلي في "أعلامه" أنه كان حيًّا بعد ٥٦٠هـ (١١٦٥م)... وليس في هٰذين التاريخين، ولا في نسب الرجلين، ما يفيد أنّ الصيدلاني كان اَبنًا لطبيب العيون].

20. عُثر علىٰ المخطوط الكامل في طرابلس الغرب [ليبيا] وما زال غير منشور. وقد شرع بنشر ملخَّصِ ٱبن العبري، م. مايرهوف وج. ب. صبحي (القاهرة، ١٩٣٢ـ١٩٣٨).

21. يبدو أنّ إشارة پلينيو (HN، ٢٥ـ١١ـ١٣)، ومفادها أنّ أطبّاء العيون كانوا يقطرون في العين، قبل بدء العمليّة المتعلّقة بالساد، من عصير "أناغاليس" (راجع ديسقوردس، ٢، ١٦٩)، لم تَنَل كبير أهمّيّة، حتّىٰ عام ١٨٠٠، حيث أوحت إلىٰ هيملي بتجريب مفعول البنج ونبتة ستّ الحُسن علىٰ بؤبؤ العين.

22. "كتاب شرح الحكم العطائيّة" لٱبن عبّاد الراوندي، الجزء الأوّل، (القاهرة ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م).

23. راجع كتاب و. خ. پيشوپ "الجراحة التاريخيّة" *Cirugia histórica* (برشلونة، ١٩٦٣)، ص ٨٨. كانت شهرة أرناو خارقة، بوصفه طبيبًا، وكان إسهامه العلمي، مبدعًا ومترجمًا، بارزًا جدًّا.

24. يتضمّن "الكتاب الملكي" لعلي بن عبّاس المجوسي وصفًا مفصّلًا لنظام التعليم في ذلك العصر.

25. المقامة المارستانيّة (رقم ٢٤)، وقد ترجمها بلاشير ـ ماسنو إلىٰ الفرنسيّة (باريس، ١٩٥٨)، ص٩٩. ويمكن أن نجد روايات أخرىٰ حول الموضوع في "ألف ليلة وليلة" وفي حكايات أخرىٰ مماثلة.

26. «ومن طريف ما جرىٰ في ٱمتحان الأطبّاء، أنه أُحضِر إلىٰ سنان رجلٌ مليح البزّة *والهيئة ذو هيبة ووقار. فأكرمه سنان علىٰ موجب منظره، ورَفَعَه، وصار إذا جرىٰ أمرٌ ٱلتفت إليه.*

«ولم يزل كذلك حتّىٰ ٱنقضىٰ شغلُه في ذلك اليوم. ثمّ ٱلتفت إليه سنان، فقال: "قد ٱشتهيتُ أن أسمع من الشيخ شيئًا أحفظه عنه، وأن يذكر شيخَه في الصناعة!".

«فأخرج الشيخ من كُمّه قرطاسًا فيه دنانير صالحة، ووضعها بين يدَي سنان، وقال: "ما أُحسِن أن أكتب، ولا أقرأ، ولا قرأتُ شيئًا جملةً! ولي عيال، ومعاشي دار دائرة، وأسألك ألّا تقطعه عنّي!".

«فضحك سنان، وقال: "علىٰ شريطة ألّا تهجم علىٰ مريضٍ بما لم تعلم، وألا تُشير بفَصْدٍ ولا بدواء مُسْهِل، إلّا لما قَرُب من الأمراض".

«قال الشيخ: "هذا مذهبي مذ كنت!"».

كتاب "إخبار العلماء بأخبار الحكماء"، تحقيق أحمد ناجي الجمالي ومحمّد أمين الخانجي، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٦هـ.

[ويسترسل ابن القفطي في روايته:

«ثمّ أُحضِر إليه [إلىٰ سنان] غلامٌ شابٌّ، حسن البزّة، مليح الوجه، ذكيّ. فنظر إليه سنان، وقال: "علىٰ مَن قرأتَ؟"»

«قال: "علىٰ أبي!"»

«قال: "ومن أبوك؟"»

«قال: "الشيخ الذي كان عندك بالأمس!"»

«قال: "نِعمَ الشيخ! وأنت علىٰ مذهبه؟"»

«قال: "نَعَم"»

«قال: "لا تتجاوزه!"».

«وانصرف مصاحبًا».

"إخبار العلماء..."، طبعة مصوّرة بالأوفست (القاهرة: مكتبة المتنبي، د. ت): ١٣٠ و١٣١].

27. راجع كتاب أو. شبيس "كتاب التشويق الطبّي من الأدبيّات العربيّة حول تأديب [تعليم] الأطبّاء" (بون، ١٩٦٨)، وكتاب إ. س. طشقندي "ترجمة كتاب التشويق الطبّي" (بون، ١٩٦٩).

28. راجع مقال هـ. شيبرگز "الوضع الطبّي في القرون الوسطىٰ العربيّة واللاتينيّة" المنشور في *Materia Medica Nordmark*، ١٢ (١٩٦٠) صص ١٠٩ـ١١٨، وكتابه "تمثُّل الطبّ العربي من خلال القرون الوسطىٰ اللاتينيّة" (ڤيسبادن، ١٩٦٤).

الفصل العاشر

الأندلسيّون ... والفنّ والأدب

* الفن
* الأدب الملحمي
* الشعر الغنائي

الفصل العاشر

الأندلسيّون ... والفنّ والأدب

تتّسم العلاقات العلميّة، المتبادلة بين الشرق والغرب، في معظم الحالات، بمعالمَ متسلسلةٍ تاريخيًّا، تُمكّننا ـ إن وُجدت ـ من تحديد ترابطها بعضها ببعض، بينما لم يقع الأمر ذاته في مواضيع الأدب والفنّ. ذلك أنّ اقتباس الموضوعات والأفكار المعروفة في نواةٍ ثقافيّة مجاورة، يتحوّل إلى "إبداع جديد" يُكيّفها مع حساسيّة "المثقّفين" الجُدُد، حتّى ليصعُب التعرّف عليها، عمليًّا، من قبل مؤلّفيها الأوائل! ويُفسّر لنا هذا تعقُّدَ بعض المشكلات، كتلك التي تتعلّق بأصل ما هو ملحميٌّ وغنائيّ في عالم الغرب في القرون الوسطى، وما قد يكون نشأ من التفاعلات بين العالَم العربيّ وبين العالَم الرُّومنثيّ من خلال إسبانيا.

رأينا، فيما تقدّم [من الفصول]، كيف أدخل المستعربون إلى الغرب موجةً أولى من المعارف العلميّة في القرن العاشر [٤ هـ]. ولكن من المرجّح أنّ الفضل يرجع إليهم أيضًا في نقل أفكارٍ شرقيّة معيّنة تتعلّق بالدين والأدب، ذلك أنه لم يكن عبثًا أنّ المستعربين كانوا، منذ مطلع القرن التاسع، وبحسب شهادة ألفارو القرطبي **Alvaro de Córdoba** الجدليّة، يقرؤون العربيّة أفضل من قراءتهم

اللاتينيّة، مُشَكِّلين جسرًا فكريًّا حقيقيًّا بين العالمين اللذين كانا يتعايشان آنذاك في الأندلس! ولٰكن يجدر تجاوز ما في هٰذه الشهادة الجدليّة، إلىٰ الاَعتقاد بأنّ ألفارو القرطبي كَتَب بالعربيّة أحيانًا*، وأنّ سِفْر المزامير *Salterio* قد تُرجِم إليها، وأنه كانت تُقرأ بالعربيّة كتبٌ دينيّة مسيحيّة علىٰ وجه الخصوص، ممّا يستدعي القول بأنّ الكتب الدينيّة الإسلاميّة كانت مقروءةً أيضًا [من قبل المستعربين]، وبأنه عن هٰذه الكتب ـ وعلىٰ وجه التحديد من اَستعمال كلمة "اَتّخذ" (**adoptar**) إشارةً إلىٰ العلاقة القائمة بين الله والمسيح، في القرآن** ـ أمكن نشوء [ما سُمّي] بِدْعة "التبنّي"، التي نادىٰ بها إيليپاندو الطليطلي وفيلكس دي أُوزخِل، والتي وُلّدت

* اَمتلأت شهادة المستعرب ألفارو القرطبي (ق ٣هـ/ ٩م) بالحرارة ـ وقد تردّدت فيما بعدُ علىٰ ألسنة المؤلّفين ـ وهي تتحدّث بجلاءٍ عن ولع النصارىٰ الإسبان بالأدب العربي... يقول:

«إنّ إخواني في الدين يَجِدون لذّةً كبرىٰ في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويُقبِلون علىٰ دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردّوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوبًا عربيًّا جميلًا صحيحًا!

«وأين تجد، الآن، واحدًا ـ من غير رجال الدين ـ يقرأ الشروح اللاتينيّة التي كُتبت علىٰ الأناجيل المقدّسة؟ ومَن ـ سوىٰ رجال الدين ـ يعكف علىٰ دراسة كتابات الحواريّين وآثار الأنبياء والرُّسل؟

«يا للحسرة! إنّ الموهوبين من شبّان النصارىٰ لا يعرفون اليوم إلّا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويُقبِلون عليها في نهم. وهم يُنفقون أموالًا طائلة في جمع كتبها، ويُصرِّحون في كلّ مكانٍ بأنّ هٰذه الآداب حقيقةٌ بالإعجاب. فإذا حدّثتهم عن الكتب النصرانيّة أجابوك في اَزدراء بأنها غير جديرةٍ بأن يصرفوا إليها اَنتباههم.

«يا للألم! لقد أُنسِيَ النصارىٰ حتّىٰ لغتهم، فلا تكاد تجد، بين الألف منهم، واحدًا يستطيع أن يكتب إلىٰ صاحبٍ له كتابًا سليمًا من الخطأ. فأمّا عن الكتابة في لغة العرب، فإنك واجدٌ فيهم عددًا عظيمًا يُجيدونها في أسلوبٍ منمّق، بل هم يَنظمون من الشعر العربيّ ما يفوق شعرَ العرب أنفسهم فنًّا وجمالًا...».

بالنثيا: "تاريخ الفكر الأندلسي"، ٤٨٥ و٨٦.

** وردت، في هٰذا الشأن، لفظةُ "اَتّخذ" في القرآن الكريم ستّ مرّات: الآية ١١٦ من سورة البقرة، والآية ٦٨ من سورة يونس، والآية ٨٨ من سورة مريم، والآية ٢٦ من سورة الأنبياء، والآية ٩١ من ←

كثيرًا من القلق لدى شارلمان [اَعتمدنا بشأن اَسمه اللفظة المألوفة عند القارئ العربي]. ولا مجال للشكّ ـ على الرغم من اَضطهاد العناصر المتحمّسة الذي بدأ عام (٨٥٠م [٢٣٦هـ]) ـ في أنّ اَنتقال الأفكار المكتوبة لم يتوقّف لحظةً واحدة بين شطرَي إسبانيا المسلمِ والمسيحي، وأنّ الأمر ذاته قد وقع، فيما يبدو، في شأن اليد العاملة المتخصّصة.

الفنّ:

تُشكّل هٰذه المعطيات مؤشّراتٍ جمّةً أخرى ينبغي إضافتها إلى تلك التي عرفناها، آنفًا، حول تأثير الفنّ الأندلسي، إمّا مباشرةً، وإمّا عن طريق المستعربين. وإذا تركنا جانبًا الكنائس المشيّدة في ليون، المملكة التي كان فنّ المستعربين فيها يرجع إلى ما قبل مرحلة الفنّ المسمّى بـ"الرُّوماني **románico**" [أي قبل القرن الحادي عشر]، واَتّسم بصفاتٍ خاصّة، فإنّ كثيرًا من العناصر التي اَستعملها المعماريّون القرطبيّون ظهرت، بعدئذ، في الصروح الفرنسيّة الأوّليّة المبنيّة على طراز الرُّومان. من ذٰلك، مثلًا، الأفاريز المكوّنة من بلاطاتٍ بارزة فوق مُقَرنصاتٍ حجريّة، والمقرنصات ذات الفُصوص، والعَقْد [القوس] متعدّد الفُصوص الذي يظهر على نحوٍ متماثل في "بوّابة الصاغة" في كومبوستيلا وفي دير الرهبنة الكلونيّة في شاريتيه ـ سور ـ لوار [أي: شاريتيه الواقعة على نهر اللوار]، والزخرفة ذات التلوين المتناوب، والقِباب المحلّاة بالعروق والتقاطعات، والعقود في شكل حَدوة حصان، ذات الأصل القوطي الغربي، ولٰكنها اَنتشرت في أرجاء الغرب عن طريق فنّاني الأندلس.

← سورة المؤمنون، والآية ٣ من سورة الجنّ. وتنطوي جميعًا على نَفْي صريح وقاطع للاَتّخاذ (اَتّخاذ ولد)، نذكر منها: ﴿وقالوا اَتّخذ الله ولدًا سبحانه..﴾ البقرة، ﴿قالوا اَتّخذ الله ولدًا سبحانه هو الغنيّ..﴾ يونس، ﴿ما اَتّخذ الله من ولد وما كان معه من إلٰه..﴾ المؤمنون. ويفيد الأستاذ نهاد رضا بأنّ نشوء ما سُمّي بدعة التبنّي ـ كما ورد في النصّ أعلاه ـ ربّما يجد تبريره في اَعتماد المعنى الغالب للفعل **adoptar** وهو التبنّي. وهٰذه بدعة من المنظور الكنسي.

ويبدو أنّ هٰؤلاء كانوا ينتقلون في الدول المسيحيّة لدىٰ ممارسة صنعتهم، فقد كان هناك ورشاتٌ متجوّلة من النحّاتين، مثل ورشة "معلّم الغزالات" التي اَشتغلت في منطقة اللوار الأوسط ما بين ١٠٣٠ـ١٠٥٠م [٤٢١ـ٤٤٢هـ]. ويبدو أنّ النقوش النافرة كانت تقلّد إمّا المُنَمْنَمات، وإمّا الأشكال المرسومة علىٰ صناديق العاج القرطبيّة، وقد وصلت الموضوعاتُ، ذات الصبغة الشرقيّة المتمثّلة في هٰذه الصناديق، إلىٰ الغرب مع الزّرابي [السجّادات] الفاخرة المنسوجة في الورشات المحصورة بالدولة في مختلف الممالك الإسلاميّة، أو مع منتجاتٍ ذات صبغة فنّيّة أبسط، مثل قطع الشطرنج، والمرايا، والخَزَف... إلخ. وكان المسيحيّون ينقلون العناصر التزيينيّة المعتمِدة بطرازها علىٰ الأبجديّة العربيّة والمستخدمة من قبل المسلمين، دون أن يُدركوا طبعًا دلالاتها، وظهر، من ثَمّ، ما يُسمّىٰ بـ *ductus* المميِّز للأحرف "ل ـ ع ـ أ" (العافية) أو "ل" (الله) أو "ك ـ أ" (بَرَكة)... إلخ، والذي اَنتشر في أوروبة واَمتدّ حتّىٰ تُخوم الصين، مزيِّنًا علىٰ حدٍّ سواء أشياء دنيويّة ـ مثل الخارطة الملاحيّة بقابسيكا ـ أو مقدّسة. وأن تكون هٰذه الأحرف قد فقدت كلّ قيمةٍ متعلّقة بالخطّ بين أيدٍ مسيحيّة، فهٰذا أمرٌ مؤكّد، لأننا نجد ـ في حالةٍ واحدة علىٰ الأقلّ ـ أنّ الشهادة في العقيدة الإسلاميّة (لا إلٰه إلّا الله، محمّد رسول الله) قد جُعلت حاشية [تكلّل] رأس مريم العذراء.

وقد أظهر اَستكشافٌ حديث لكنيسة القدّيس كليمنته دي تاهول (١١٢٣م [٥١٧هـ]) أنّ المواضع التي رُسمت فيها اللوحات الجداريّة ـ المحفوظة حاليًّا في متحف الفنّ الرُّوماني ببرشلونة ـ كانت قد عُلّمت مسبقًا بأرقام عربيّة وُضعت بالتسلسل علىٰ اَمتداد جدران الكنيسة. وتمثّل إحدىٰ هٰذه اللوحات، تمثيلًا جيّدًا، الكأس "گرال graal" [المقدّسة]. وقد نقول ذٰلك عن دير سيخينا (١١٨٨م). ففي الجزء المولج من إحدىٰ العوارض تمّ اَكتشاف كتابةٍ عربيّة ربّما تحتوي علىٰ اَسم المعماري الذي شيّدها.

ولئن كان تأثير المستعربين [النصارىٰ] أمرًا ذا شأن، فالدليل عليه أنّ ديوان "الأمير محمّد" [بن عبد الرحمٰن بن الحكم... القرن الثالث الهجري]، اَضطرّ إلىٰ إعلان

يوم الأحد يوم عطلة، لأنّ أمين سرّه الشخصيّ "گوميث بن أنتونيانو" آستنكف عن العمل في هٰذا اليوم، وتأثّر خطاه بقيّة الموظفين، من مسيحيّين ومسلمين[1]. وظلّت العطلة، المُقرَّرة علىٰ هٰذا النحو، نافذةً بعد ذاك، خلال قرنين علىٰ الأقلّ.

الأدب الملحمي:

يجدر بنا، بناءً علىٰ ما تقدّم، أن نعتقد بأنّ هٰؤلاء المستعربين كانوا يعرفون، ليس فقط حكايات الفروسيّة القوطيّة التي أشار ريبيرا إلىٰ وجودها، بل يعرفون أيضًا حكايات العالم العربي، من تلك التي نجدها في "حماسة" أبي تمّام (١٨٨ـ٢٣١هـ/ ٨٠٤ـ٨٤٥م) أو البحتري (٢٠٦ـ٢٨٤هـ/ ٨٢١ـ٨٩٧م)، وفي "أيّام العرب" التي كان قد جمعها القرطبيّ آبنُ عبد ربّه في كتابه "العقد الفريد"، وفي السِيَر[2]، وفي قصص المغازي والفتوح. وأمّا أن تكون القصص، التي تضمّنتها هٰذه النصوص، ملحميّةً، فهٰذا أمر قابل للمناقشة؛ ففي نظر زكي المحاسني هي ملحميّةٌ بَدَهيًّا[3]، مثلُها مثلُ حكايات الفروسيّة الواردة في "ألف ليلة وليلة"، كقصّة الملك عمر النعمان (٤٥ـ١٤٥)، التي ربّما أثّرت في قصّة *Tirant lo Blanch* لحوانوت مارتوريل (ت ١٤٧٠م [٨٧٥هـ])، وقصّة "عجيب وغريب" (٦٢٤ـ٦٨٠)، أو حكاية زياد دي ڤينيا الموريسكيّة؛ وهي، في نظر مؤلّفين آخرين، ليست ملحميّةً. ولٰكن ليس من شكٍّ في أنّ شعرًا قصصيًّا من هٰذا النوع قد وُجد. ويشرح آبن خلدون، بوضوح، في كتابه 'المقدّمة"، السبب في آستخدام الموسيقىٰ وأهازيج الزحف في أوقات الحرب، ويُضيف ما شاهده هو شخصيًّا:

> *«ولقد رأينا، في حروب العرب، مَن يتغنّىٰ أمام الموكب بالشِّعر ويُطرِب، فتجيش هِمَمُ الأبطال بما فيها، ويُسارعون إلىٰ مجال الحرب، وينبعث كلُّ قِرْنٍ إلىٰ قرنه. وكذٰلك زناتة من أُمم المغرب: يتقدّم الشاعر عندهم أمام الصفوف ويتغنّىٰ، فيُحرّك بغنائه الجبالَ الرواسي، ويبعث علىٰ الاستماتة مَن لا يُظنّ بها، ويُسمّون ذٰلك الغناء "تاصُوكَايِتْ". وأصله كلّه فرحٌ يَحدث في النفس، فتنبعث*

عنه الشجاعة كما تنبعث عن نشوة الخمر بما يَحدث عنها من الفرح...»*.

ومعنىٰ ذٰلك أنّ العرب والبربر كانوا يتصرّفون علىٰ نحوٍ متماثل في اللحظات الأخيرة قبيل المعركة. ويبدو أنّ سوزومينو يُلمع إلىٰ هٰذه التفاصيل عند حديثه لنا عن الأناشيد التي كان جنود الأمبراطورة زنوبيا ينشدونها، قبل أن يُدوِّن ٱبن خلدون أقواله هٰذه بألف سنة.

وقد وجد[4] في الأندلس، منذ وقتٍ مبكّرٍ جدًّا، شعرٌ ونثرٌ قصصيّ تتفاوت شحنتهما الملحميّة، لذٰلك ينبغي لنا أن نفترض أنّ المستعربين كانوا علىٰ درايةٍ بها، مثلما كان البيزنطيّون والعرب والأتراك في الشرق، تطّلع كلّ أمّةٍ منهم علىٰ ما ينتجه خيال الأُمّتين الأخريَين من هٰذا الأدب. والدليل علىٰ ذٰلك، المعرفةُ بالإسلام، التي تَشِفّ عنها أغاني الفروسيّة الغربيّة، حسبما أشار إليه شارل پيللا، وتنحصر، من وجهة النظر المتعلّقة بالتسميات، في عددٍ من الأسماء، مثل أسماء الكواكب السيّارة الواردة في پارسيڤال ، لولفرام ڤون إشنباخ[5]، وأسماء أخرىٰ يمكن أن تتطابق هويّتها مع شخصيّات تاريخيّة، كما هي الحال في شخصيّة مثل "آيكين **Aiquin**" (الحكم الثاني)، و"ديرامِه **Desramé**" (عبد الرحمٰن)، و"ألتوماخور **Altumajor**" (الذي وضعه في التداول تورپين الزائف) و"ألماسور **Almacur**" (المنصور)... إلخ. وأبدًا لا يرد ٱسم "الله **Allah**" [بلفظته العربيّة]، إنما يرد، في المقابل، ٱسم **Dios** [أي بلفظته غير العربيّة]، الذي ينبغي للمسلمين أن يتعلّموه من المسيحيّين [!]، حيث إنهم كانوا يُعتَبَرون وثنيّين [!]، لأنهم "يعبدون في معابدهم محمّدًا" [!]، ومجموعةً من الآلهة يبرز من بينها "تِرْڤَگان **Tervagan**" (الرجيم **al-Rayim**) [!]، و"أپولين **Apolin**" (ٱبن < آبن اللعين **Aben al-La'īn** < **Ibn**) [!]، وبما أنّ أپولين يُذكِّر بأپولو **Apolo**، لذٰلك أدخلوا، بعدئذ، إلىٰ البانْثِيون [المعبَد] الإسلاميّ، كلّ آلهة الميثولوجيا اليونانيّة، أفواجا أفواجا [!]. ويقال عنهم في بعض الأغاني أنهم

* ٱبن خلدون، المقدّمة، تحقيق درويش الجويدي (بيروت، المكتبة العصريّة، ١٩٩٥)، ٢٣٧.

وقد أرشدني إلىٰ موضع النصّ، في مقدّمة ٱبن خلدون، القارئ المدمن للتاريخ الإسلامي في المكتبة الظاهريّة بدمشق، الأستاذ محمّد الدسوقي.

يُجِلّون "وثنًا" يُدعىٰ محمّدًا [!]. ويُشار في "أُنشودة رولان" إلىٰ كتاب يتضمّن الشرع الإسلامي (القرآن) الذي لا بدّ أنه قد عُرف، دونما شكّ، من خلال رهبان سانتياگو دي كومپوستيلا•.

• من المؤسف أنّ الغرب أصرّ علىٰ أن يبني ـ علىٰ الجهل ـ "معرفته" للإسلام، من يوم أن انتشر هٰذا الدين في مشارق الأرض ومغاربها. فلمّا اندحر الأوروبيّون في حروبهم الصليبيّة، أمام الروح الإسلاميّة التي صمدت في مواجهتهم مئتي عام، ما زادهم اندحارُهم إلّا افتئاتًا علىٰ العرب والمسلمين، فراحوا يختلقون الأباطيل والتّرّهات حول الإسلام، فيزدادون بها جهلًا، وقد ملأ ذٰلك مدوَّناتهم، ولم يستطع المفكّرون في عصر التنوير عندهم (القرن ١٨م) أن يخفّفوا من ذٰلك إلّا قليلًا.

ومن المؤسف، ثانيةً، أنّ الأجيال الجديدة في أوروبة وأمريكا، ما زالت، إلىٰ يوم الناس هٰذا، تتغذّىٰ من هٰذه الأضاليل التي يرفضها العقل، ويمجّها الذوق، ويأباها الحدّ الأدنىٰ من المعرفة، وهل أسخف من قولهم إنّ المسلمين لا يعرفون الله، وأنهم يعبدون محمّدًا وآلهةً من أسمائها "الرجيم" و"ابن اللعين"؟!! ولميست تبذُل حكوماتهم جهدًا في التصحيح، بدعوىٰ حرّيّة التعليم والتعلّم!

ونضيف أننا ـ ونحن نراجع التجارب الطباعيّة الأخيرة لهٰذا الكتاب ـ اطّلعنا علىٰ ما يُفيد بأنّ الأمير تشارلز وليّ العهد البريطاني ـ المعروفَ بثقافته العريضة المتنوّعة، وهو من الغربيّين القلائل الذين درسوا الإسلام وعرفوا جوهره ـ ألقىٰ، (في ديسمبر/ كانون الأوّل ١٩٩٦)، محاضرةً في قاعة "ويلتون بارك" في منطقة ساسكس، حضرها أكاديميّون وزعاماتٌ دينيّة بريطانيّة، تحدّث فيها عن فهمه للحضارة الإسلاميّة، التي ترفض المادّيّة الغربيّة، مبديًا تقديره لما يُكِنّه التقليدُ الإسلامي من الاحترام العميق للقوانين السرمديّة وللنظام الطبيعي، ودعا إلىٰ التقريب بين الديانتين المسيحيّة والإسلاميّة، فذٰلك يساعد الغرب في إعادة التفكير في مسألة التفاعل العملي بين الإنسان والبيئة. واستشفّ، في الحضارة الإسلاميّة، نداءً يمكن أن يُزيّن للغرب اتّباع النهج الذي سلكته في المحافظة علىٰ «رؤيةٍ متكاملة لقداسة العالم المحيط بنا»!

وكان لا بدّ من أن تُثير هٰذه المحاضرة جدلًا اتّسم بالغضب، فقد نشرت الصحافة البريطانيّة تعليقاتٍ حولها غلب عليها سوء الفهم والتحامل وانعدام النزاهة. ومن طريف ما هنالك أنّ بعض ما قيل في هٰذا الجدل، منح انطباعًا بأنّ وليّ العهد البريطاني يكاد... يصبح... مسلمًا!

انظر في ذٰلك، مجلّة "الثقافيّة" (لندن: المكتب الثقافي السعودي)، العدد المزدوج ١٧ و١٨، شوال ـ ذو القعدة ١٤١٧هـ (شباط ـ آذار ١٩٩٧)، صص: ٢٠ ـ ٢٥.

وغنيٌّ عن البيان أنّ ڤيرنيت، في شرحه أعلاه، يكشف لقارئي الإسبانيّة، عن مدىٰ الجهل والخطل والتجنّي الذي يستغرق بعضَهم في فهمهم للإسلام.

أنْ يكون المستعربون قد عرفوا القِصَص العربيّة ذات الطابع الملحميّ فلا مجال للشكّ في هٰذا الأمر، فيما يبدو، وذٰلك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار تأكيد ابن بسّام حول الأذواق الأدبيّة في أُنشودة "السِّيد" التي ألمحنا إليها فيما تقدّم. وإذا ما فكّرنا، من جهةٍ أخرىٰ، في أنّ مؤلِّف أُنشودة البطل القشتالي كان، علىٰ الأرجح، أحد المستعربين، وأنّ هٰؤلاء كانوا يتردّدون علىٰ جميع مناطق أوروبة الغربيّة ـ وهي الأرض الكبرىٰ في أُنشودة رولان ـ خلال ما يزيد علىٰ ثلاثة قرون، فلا تبقىٰ سوىٰ شكوكٍ ضئيلة جدًّا حول دراية أهل فرنسا، درايةً صحيحة تقريبًا، بما كان يجري جنوبيّ البيرينيه*.

ولٰكن، إذا ما تركنا جانبًا الشهادات القائمة علىٰ النصوص، فمن الممكن تحليل أوجه الشبه القائمة بين الملحمة العربيّة وملحمة مسيحيّي الغرب، وهي، وإن كانت غير مفرطة، تدلّ علىٰ أنه كانت هناك علاقاتٌ بين كلتيهما.

يتّسم الشكلُ العروضيُّ المستخدم بأنه متساهلٌ، علىٰ حدٍّ سواء، في كلٍّ من الملحمة العربيّة والملحمة القشتاليّة، خلافًا من ثَمّ لما هو عليه في الشعر الغنائي.

* يجدر التنويه بأنّ الحملات الصليبيّة الشمالي امتدّت من القرن الحادي عشر إلىٰ القرن الثالث عشر (م)، وبوجه التحديد من ١٠٩٦م إلىٰ ١٢٩١م. ومن المعروف أنّ "أنشودة رولان" ترجع إلىٰ نهاية القرن الثاني عشر (حوالي ١١٧٠م)، أي إلىٰ زمن يتوسّط هٰذه الحملات تقريبًا، وهي أهمّ **ملاحم الوقائع**، رغم ما تتّسم به من بدائيّة.

ومَن يدرس هٰذه الملحمة ونظيراتها يُدرِكُ تمامًا أنها تستهدف التعبئة المعنويّة للعامّة، ولاسيّما الفرسان الذين كانوا أُمّيّين، وذٰلك عن طريق المنشدين الجوّالين. فكلّ ما يرد فيها من معلومات حول الإسلام مناقضٌ تمامًا للحقيقة والواقع.

ويقينًا أنّ مثل هٰذه الدعاوىٰ المغرضة تنهار تلقائيًا في عصر انتشار المعلومات، وإن عَمِلَ بعضهم علىٰ الكيد بسبل أخرىٰ.

ونشير، أيضًا، إلىٰ أنّ الشاعر السوري نهاد رضا قد أدرج ـ في الجزء الأوّل "إشراقات درويش مولوي" *(1993) les Illuminations d'un derviche tourneur* من ملحمته الشعريّة باللغة الفرنسيّة، "ملحمة العهد المعاصر" *"L'Epopée de l'époque contemporaine"* ـ نشيدًا خاصًا بعنوان "**أناشيد الوقائع** *les chansons de geste*"، وهي التسمية ذاتها لهٰذه الملاحم، يفضح فيه هٰذه الأضاليل وتهافتها.

فالتعارض بين الرجز[6] والقصيد شبيهٌ بالتعارض القائم بين عمل راوية الشعر وعمل الإكليروس. فعلىٰ وزن الرجز، نُظمت، بالضبط، أرجوزة ابن عبد ربّه (٤٤٥ بيتًا شعريًّا)، التي روت حملة عبد الرحمٰن الثالث ضدّ المسيحيّين، بينما استخدم ابن درّاج القَسْطَلّي شكل القصيد لوصف غارات المسلمين علىٰ الممالك [المسيحيّة في] شمال إسبانيا، وليتغنّىٰ باستيلاء المنصور علىٰ سانتياگو دي كومپوستيلا، وفيما بعد صيغت نثرًا، وأُدرجت في وقائع أخبار بعض المؤرّخين مثل ابن عِذاري.

وليس يُفترض في البطل أن يكون أنموذجًا في الوسامة. فكتاب المعارك[7] يقدّم لنا عليًّا علىٰ شكل رجلٍ بَطِين، أصلع، قصير الساقين. وفي المقابل، لا بدّ أن تكون يداه جميلتين، ومن هنا كان النعتُ "ذو اليدين البيضاوين" الذي نجده في العديد من أناشيد الفروسيّة وفي أُنشودة رولان (البيتان ٢٢٤٩ و٢٢٥٠):

علىٰ صدره، ما بين التَّرقُوَتَين

شبَكَ يديه البيضاوين، يديه الجميلتين

وإنّ تدريب الفارس لَيتطلّبُ ممارسة الرياضات، ولا سيّما الصيد بالبُزاة[8]، ومزاولة تسلياتٍ ملائمة لحفظ يقظة النفس، مثل لعبة الشطرنج[9]. وقد أشرنا، من قبل، إلىٰ الأصل الشرقيّ للصيد بالبُزاة ولعبة الشطرنج، ممّا يجعلنا نكتفي بأن نُضيف أنّ ألفونسو العاشر أمر بتأليف مصنّفٍ حول لعباتٍ مختلفة في الشطرنج، وأنّ رقعة الشطرنج وقِطَعه يرد ذكرها مرارًا وتكرارًا في الملحمة، بعدما لعبت دورًا تاريخيًّا في الحياة الواقعيّة: فقد كانت مباراةٌ، خسرها ألفونسو السادس أمام الوزير الإشبيلي ابن عمّار، هي التي اضطرّته إلىٰ الجلاء عن الأراضي التي كان يحتلّها*[10].

• هٰذه الحادثة حكايةٌ جديرة بأن نُدرجها هنا لأهمّيّتها. وقد رواها عبد الواحد المراكشي (ت ٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م)... يقول:

> «ولم يزل المعتمِدُ [ابن عبّاد، ملك إشبيلية] يُعِدّ [ابنَ عمّار] لكلّ أمرٍ جليل، ويؤهّله لكلّ رتبةٍ عالية. وكان ابن عمّار ـ مع هٰذا ـ لا يُناط به أمرٌ إلّا اضطلع به وكان فيه كالسكّة المحمّاة. واشتُهر أمره ببلاد الأندلس، حتّىٰ كان ملك الرّوم الأدفنش [ألفونسو السادس] إذا ذُكِر عنده ابنُ عمّار قال: "هو رجل الجزيرة!". ←

← «وكان ابن عمّار هو الذي ردّه عن قَصْدِ إشبيلية وقرطبة وأعمالها، وذلك أنه خرج في جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعًا فيها. فخافه الناس، وامتلأت صدور أهل تلك الجهة رُعبًا منه، وتيقّنوا ضعفهم عن دفاعه. فتولّىٰ ابنُ عمّار ردّه بألطف حيلةٍ وأيسر تدبير؛

«وذلك أنه أقام "سُفْرة شطرنج" في غاية الإتقان والإبداع، لم يكن عند ملكٍ مثلُها، جعل صُوَرها من الأبنوس والعود الرطب والصندل، وحلاها بالذهب، وجعل أرضها في غاية الإتقان.

«فخرج من عند المعتمد [في إشبيلية] رسولًا إلىٰ الأدفنش، فلقيه في أوّل بلاد المسلمين، فأعظم الأدفنش قدومه، وبالغ في إكرامه، وأمر وجوه دولته بالتردُّد إلىٰ خِبائه والمسارعة في حوائجه. فأظهر ابنُ عمّار تلك السُّفرة، فرآها بعضُ خواصّ الأدفنش، فنقل خبرها إليه. وكان العِلْج ـ أعني الأدفنش ـ مولعًا بالشطرنج، فلمّا لقي ابنَ عمّار سأله: "كيف أنت في الشطرنج؟".

«وكان ابن عمّار فيه طبقةً عالية، فأخبره بمكانه منه. فقال له: "بلغني أنّ عندك سُفرةً في غاية الإتقان!".

«فقال ابن عمّار: "نعم!"؛

«فقال: "وكيف السبيل إلىٰ رؤيتها؟"؛

«فقال ابن عمّار لترجمانه: "قل له: أنا آتيك بها، علىٰ أن ألعب معك عليها، فإن غلبتَني فهي لك، وإن غلبتُك فلي حُكمي!"؛

«فقال له الأدفنش: "هَلُمّها لننظر إليها".

«فأمر ابنُ عمّار مَن جاء بها. فلمّا وُضعت بين يدي العِلْج، صلّب وقال: "ما ظننتُ أنّ إتقان الشطرنج يبلغ إلىٰ هذا الحدّ!"، ثمّ قال لابن عمّار: "كيف قلت؟"؛

«فأعاد عليه الكلام الأوّل.

«فقال له الأدفنش: "لا ألعب معك علىٰ حُكمٍ مجهول لا أدري ما هو، ولعلّه شيءٌ لا يُمكنني!"؛

«فقال ابن عمّار: "لا ألعب إلّا علىٰ هذا الوجه!"، وأمر بالسُّفرة فطُويت.

«وكشف ابن عمّار سرّ ما أراده لرجالٍ وثق بهم من وجوه دولة الأدفنش، وجعل لهم أموالًا عظيمة علىٰ أن يؤازروه علىٰ أمره، ففعلوا. فتعلّقت نفسُ العِلْج بالسُّفرة، وشاور خاصّته فيما رسمه ابن عمّار، فهوّنوا عليه، وقالوا: "إن غلبتَه كانت عندك سفرةٌ ليس عند ملكٍ مثلُها، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم؟". ←

خاصّ ويمتاز بذكاء غير عادي، ولكلا السِّمَتين مثيلُهما العربي. فمثلًا، بايار، حصان رينو دي مونتابان:

الذي لا يُهَمْلِج ولا يُحْضِر
بل يطير أسرعَ من الصقر*

← «وقبّحوا عنده إظهارَ الملك العجزَ عن شيءٍ يُطلب منه، وقالوا له: "إن طلب ٱبنُ عمّار ما لا يُمكن فنحن لك بردّه عن ذلك".

«ولم يزالوا به حتّىٰ أجاب. وأرسل إلىٰ ٱبن عمّار، فجاء ومعه السُّفرة.

«فقال له: "قد قبلتُ ما رسمتَه!"؛

«فقال ٱبن عمّار: "فٱجعل بيني وبينك شهودًا ـ أسماهم له ـ فأمر الأدفنش بهم فحضروا.

«وٱفتتحا يلعبان. وكان ٱبنُ عمّار ـ كما ذكرنا ـ طبقةً بالأندلس، لا يقوم له أحدٌ فيها. فغَلَبَ الأدفنشَ غلبةً ظاهرةً لجميع الحاضرين، ولم يكن للعِلْج فيها مطعن.

«فلمّا حقّت الغَلَبة، قال له ٱبن عمّار: "هل صحّ أنّ لي حُكمي؟"؛

«قال: "نعم! فما هو؟"؛

«قال: "أن ترجع من هٰهنا إلىٰ بلادك!".

«فٱسودّ وجه العِلْج، وقام وقعد، وقال لخواصّه: "قد كنت أخاف من هٰذا حتّىٰ هوّنتموه عليّ، في أمثال هٰذا القول!".

«وهمّ بالنكث والتمادي لوجهه، فقبّحوا ذٰلك عليه، وقالوا له: "كيف يجمُل بك الغدر وأنت ملكُ ملوكِ النصارىٰ في وقتك؟!".

«فلم يزالوا به حتّىٰ سَكَن، وقال: "لا أرجع حتّىٰ آخذ أتاوةَ عامين خلاف هٰذه السنة!"؛

«فقال ٱبنُ عمّار: "هٰذا كلّه لك!"، وجاءه بما أراد.

«فرجع، وكفّ الله بأسه، ودفعه بحوله وحُسن دفاعه عن المسلمين.

«ورجع ٱبنُ عمّار إلىٰ إشبيلية، وقد ٱمتلأت نفس المعتمد سرورًا به».

"المعجب في تلخيص أخبار المغرب"، تحقيق محمّد سعيد العريان وآخر (القاهرة: المكتبة التجاريّة الكبرىٰ، ١٩٤٩)، ١١٩ـ٢١.

وقول ڤيرنيت: إنّ ٱبن عمّار ٱستطاع، بفوزه في مباراة الشطرنج، أن يضطرّ ألفونسو السادس إلىٰ الجلاء عن الأراضي التي كان يحتلّها... لعلّ صوابه: أنه ردّه عن قصده في ٱجتياح أراضي إشبيلية وقرطبة.

* هَمْلَج البِرْذَون: مشىٰ مِشيةً سهلةً في سرعة، وأحْضَر الفَرَسُ: ٱشتدّ في عدوه.

إنّ بابار، مثل أَبْجَر (ولنلاحظ، عَرَضًا، التماثل الصوتي بين الاسمين)، حصان عنترة، يفرّ في أواسط الأرض، نحو [منطقة] الأردين، منذ مات سيّده، كي لا يقع في يد أيّ سيّدٍ آخر، ولٰكن قبل ذاك وُضع جثمان عنترة، علىٰ غرار جثمان "السّيد"، علىٰ ظهر الجواد إرهابًا للعدوّ. وكذٰلك حين يشرح جيرارد دي ڤيان لحفيده إيمري لماذا يجب عليه الامتناع عن قتلِ شارلمان، فإنه يُذكّر بنصائح عنترة لابنه غضبان الذي يرغب في قتل خسرو والاستيلاء علىٰ العرش، موضّحًا له بأنّ المَلَكِيّة من الحقّ الإلٰهي.

وللسيوف ـ التي بها تُسدَّد ضرباتٌ عظيمةٌ تشطر الخصم نصفين ـ هنا أسماؤها الخاصّة، مثلها مثل الجياد. ومن هٰذه الأسماء التي تبدأ بالمقطع اللفظي "Du" (دورندال، في أُنشودة رولان) ما قد يدفع إلىٰ الاعتقاد بوجود أصلٍ اشتقاقي عربي [ذو]. وفي ختام المطاف يفوز رولان بالسيف دورندال بعد انتصاره علىٰ يومون، وفق ما ورد في أُنشودة أسپرومون، وبما أنّ "حارث الظالم" في سيرة عنترة يعجِز عن كسر سيفه علىٰ صخرة، تفاديًا لوقوعه بين يدي العدو، فالصخرة، بالعكس، هي التي تنفلق دون أن تَثْلَم السيف. ويحصُل الشيء ذاته للسّيد [فيما يخصّ الفوز بسيف الخصم]:

أنتصَرَ في هٰذه المعركة
مَن اقترنتْ ولادتُه بحُسن الطالع
علىٰ النبيل دون ريمون
لقد اقتاده أسيرًا
وغنم كولادا
الذي يُساوي أكثر من ألف مارك
وقتلِ بوكار
مَلِكَ بلاد فيما وراء البحار
وغنم تيثون
الذي يُساوي ألف مارك ذهبي

وعلىٰ نحوٍ مشابه، حصل "محمّد" علىٰ السيف المشهور "ذي الفقار"، بمقتل

صاحبه، الوثني العاص بن مُنَبِّه، في معركة بَدْر. وفي أحيان أخرىٰ، يتلقّىٰ البطل السيف مكافأةً له علىٰ بلائه الحسن. فأيمري، مثلًا، يُعطي آبنه بوڤون سيف گريب لابِيل، ويُهدي "السّيد" سيفًا لكلّ صهرٍ من أصهاره (الأبيات ٢٠٩٠ـ٢٠٩٣)، مثلما أهدىٰ محمّد السيف ذا الفقار لصهره علي خلال معركة أُحُد. ويدلّ المشهد، الذي تقدّم فيه الهديّة، علىٰ أنّ الضربات القاصمة ليست مقتصرةً علىٰ الفروسيّة الغربيّة، بل نجدها ممثّلةً جيّدًا في الأدب الشعبيّ العربيّ.

هناك صنفٌ آخر من أوجه الشبه، يتمثّل في تلك التي تُشير إلىٰ مفهوم الحرب المقدّسة، الذي تسرّب، عن طريق التأثير الإسلامي [الجهاد]، إلىٰ العالم المسيحي، وما زال يتجلّىٰ في عبارات أوربان الثاني لدىٰ الدعوة (١٠٩٥م [٤٨٨هـ]) إلىٰ الحملة الصليبيّة الأولىٰ: «*مَن يُقتَل في هٰذه الحملة حبًا بالله وبإخوانه، فلا مجال للشكّ إطلاقًا في أنه سينال الغفران عن آثامه، وسينعم بالحياة الأبديّة، بفضل واسع رحمةِ إلٰهنا*». وهٰذه الفكرة عينها، نقع عليها، علىٰ حدٍّ سواء، في "قصيدة السّيد" وفي "أُنشودة رولان". ويمكننا قول الشيء ذاتِهِ فيما يتعلّق بموضوع الرسالة التي يُطلب فيها من المرسل إليه أن يَقتُل حاملها، ويرد في **Beuve de Hautone**، وفي **Infantes de Lara**، وفي أسطورة رودريگو، وفي الرواية العربيّة المتعلّقة بالشاعر المُتَلَمِّس الذي أوفده الملك عمرو بن هند (ت حوالي ٥٦٨م [أي قبل البعثة النبويّة]) إلىٰ حاكم البحرين، فعمد إلىٰ الفرار، آرتيابًا منه في مضمون الرسالة. أمّا آبن أخته طَرَفة، الذي كان يحمل رسالةً مماثلة، فقد أنجز مهمّته... وتمّ إعدامه[11]. وكذٰلك الصراع بين الأب والآبن ـ الذي يظهر في الرواية الفارسيّة، حيث يَقتل رستم في مبارزةٍ فرديّة آبنَهُ زُهراب دون أن يعرف ذٰلك ـ يظهر ثانيةً في أساطير هيلْدِبْراند وآليبْرانْد الجرمانيّة، وفي أسطورة كيلسامور وكارتون السلتيّة... إلخ، كما أنّ آستخدام العلوم الخفيّة وتدخُّل الملائكة بوصفه عُنصرًا أدبيًّا، يتردّدان في أساطير الفروسيّة في شمال جبال الپيرينيه كما في جنوبها.

وتستحقّ أن تُذكر، علىٰ حدة، الوقائعُ المتعلّقة بالتّنّينات الطائرة، التي كثيرًا ما تتصدّىٰ لكبار الفرسان المبارزين، والتي قد تكون لها مسوّغاتها التاريخيّة، إذا

ما فكّرنا في القوّة الرافعة التي يمتلكها الهواء الساخن، وفي أنّ الطيّارات الورقيّة كانت معروفةً إبّان القرون الوسطىٰ، فعلىٰ سبيل المثال، كانت بيارق المغول في معركة ليگنيتز ضدّ الألمان (١٢٤١م) تخفُق في الأجواء وتتحكّم بها الحبال، وحين زار كارلو الخامس ميونيخ عام ١٥٣٠م اَستُقبل بهٰذا النوع من البالونات.

وهنالك موضوعٌ ذو أهمّيّة خاصّة، وهو موضوع الكأس گرال **graal** [المقدّسة]، الذي يظهر، بحسب قول مارتان دي ريكر، ممثّلًا في اللوحات الجداريّة في الكنائس القَطَلونيّة في القرن الثاني عشر [٦ هـ]، وتبدو فيها العذراء «*حاملة الگرال المكتنفة بالأسرار، أو الكوب النوراني الذي طالما لازمها في الرسوم الحائطيّة الرُّومانيّة الطراز*»، وأقدمها جميعًا اللوحة الموجودة في كنيسة سان كليمنته دي تاهول (١١٢٣م)، حيث تُمثّل الگرال في شكل إناء أو وعاء يبثّ أشعّةً من نور، مثلما تُصدِر كأس گرال كريتيان "أَلَقًا عظيما" (البيت ٣٢٢٦ [من الملحمة]). هٰذه النظريّة، التي يجوز لنا أن نعتبرها تقليديّة، قد وُضِعت موضعَ الشكّ حديثًا من قبل پوليت دوڤال. فهي ترىٰ أنّ التأثيرات العرفانيّة والباطنيّة للمسيحيّة البدائيّة، والتي اَنضمّت إلىٰ المعتقدات الشيعيّة والتنجيميّة التي كانت قائمة في الأندلس حوالي العام ألف، قد أثّرت في المعتقد الديني للمستعربين، واَنعكست من ثَمّ في بعض منمنمات الورعين **Beatos** وفي الرسوم الرُّومانيّة الطراز في كنائس الپيرينيه، وتُعَدّ من بينها في المقام الأوّل كنيسة تاهول. وإذا أخذنا بهٰذا التعليل، فقد يكون وجه المرأة، الممثّل مع الكأس گرال، هو وجه مريم المجدليّة، لأنه لم يُعرف عن العذراء أبدًا أنها حملت القربان المقدّس للربّ، أمّا مريم تلك، فقد قدّمت للمسيح وعاءً يحتوي عطورًا (زيتًا) أو مراهم. وإذا كانت الكأس گرال في هٰذه التمثّلات البدائيّة تُصدِر أشعّةً منيرة فيمكن تفسير ذٰلك، آخذين بعين الاَعتبار السّمة العجيبة التي يتّصف بها الزيتُ والخمرة في النصوص المقدّسة، ومن ضمنها القرآن [بالنسبة إلىٰ الزيت فقط]. فالزيت ـ بوصفه رمزًا للنور ـ ورد في القرآن، ﴿الله نورُ السمٰوات والأرض، مَثَلُ نورِهِ كمشكاةٍ فيها مصباحٌ، المصباحُ في زجاجةٍ، الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دُرّيٌّ يوقَد من

شجرةٍ مباركة، زيتونةٍ لا شرقيّةٍ ولا غربيّة، يكاد زيتُها يُضيء ولو لم تَمْسَسْه نارٌ، نورٌ علىٰ نور، يَهدي الله لنوره مَن يشاء﴾ *.

أمّا في الشعر الصوفي، فإنّ الكأس التي تضمّ الخمرة تمثّل الألوهيّة. وخير مثال علىٰ ذلك ما يقوله المتصوّف المصري، ٱبنُ الفارض (٥٧٦ـ٦٣٢هـ/ ١١٨١ـ١٢٣٤م)، في قصيدته الخمريّة المشهورة:

شَرِبْنا علىٰ ذكر الحبيب مُدامةً سكرنا بها من قبلِ أن يُخلَق الكرْمُ
لها البدرُ كأسٌ، وهْي شمسٌ، يُديرها هلالٌ، وكم يبدو ـ إذا مُزجت ـ نجمُ!
ولولا شذاها ما ٱهتديتُ لِحانِها، ولولا سَناها ما تصوَّرها الوهمُ
يقولون لي: صِفْها، فأنت بوصفها خبيرٌ. أجل! عندي بأوصافها عِلْمُ
صفاءٌ، ولا ماءٌ! ولطفٌ، ولا هوا! ونورٌ، ولا نارٌ! وروحٌ ولا جسمُ! **

ولٰكننا نجد أيضًا أمثلةً أسبَقَ زمنًا، وأندلسيّة، ٱستطاعت أن تؤثّر في مفاهيم الفنّانين المستعربين؛ فمثلًا، [أبو محمّد] ٱبن السِّيد البَطَلْيَوْسي (٤٤٤ـ٥٢١هـ/ ١٠٥٢ـ١١٢٧م)، الذي أقام مدّةً طويلة في سرقسطة، يُردّد قائلًا:

يا رُبَّ ليلٍ، قد هتكتُ حجابَهُ بزجاجةٍ وقّادةٍ كالكوكبِ! ***

ويقول لنا حسام الدولة بن رَزِين إنّ الخمرة شبيهةٌ بالشمس، و:

إذا شعشعتْ في الكأس خِلتَ حَبابَها لآلئَ قد رُفِّعنَ في لَبّة الشمسِ ****

كان هٰذا الصنف من التشبيهات والصُّور معروفًا جيّدًا في [مدن] تُطيلة، وسرقسطة ولاردة وبلاخوير... إلخ، في بدايات القرن الحادي عشر [٥ هـ]، حين

* ﴿ويضربُ الله الأمثالَ للناس، والله بكلِّ شيءٍ عليم﴾؛ سورة النور: ٣٥.

** ديوان ٱبن الفارض: ١٤٠ و١٤٢.

*** ٱبن بسّام الشَّنْتَريني "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، ط ٢ (بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٩)، القسم الثالث: ٨٩٢.

**** "الذخيرة..."، القسم الثالث: ١١٤.

اَضطرّ الطبيب والأديب القرطبي اَبن الكتّاني[12] (ت ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م)، بسبب الحرب الأهليّة (الفتنة [البربريّة])، للّجوء إلىٰ سرقسطة حيث وافاه أجله، وإلىٰ التردُّد علىٰ البلاطات الملكيّة المسيحيّة في البيرينيه بهٰذه المناسبة، ونَدين له بهٰذه اللوحة التصويريّة عن الحياة في مقاطعة نافارا قبل ألف عام:

«شهدتُ، يومًا، مجلسَ العِلْجَة بنت شانْجُه ملك البَشْكَنْس [تُلفظ "الباسك" اليوم]، زوج الطاغية شانْجُه بن غرسيه بن فرذلند لبعض تردُّدنا عن ثغرنا إليه في الفتنة[13]، وفي المجلس عدّة قَيْناتٍ مسلمات من اللواتي وهبهنّ له سليمان بن الحكم أيّام إمارته بقرطبة. فأومأت العلجةُ إلىٰ جاريةٍ منهنّ، فأخذت العود وغنّت بهٰذه الأبيات:

خليليّ! ما للريح تأتي، كأنما	يُخالطها عند الهُبُوب خَلُوقُ
أم الريحُ جاءت من بلادِ أَحِبّتي	فأحسبها ريحَ الحبيب تسوقُ؟
سقىٰ الله أرضًا، حَلّها الأغيدُ الذي	لِتَذكاره بين الضُلوع حَريقُ
أصار فؤادي فرقتين: فعنده	فريقٌ، وعندي للسياق فريقُ*

«فأحسنتْ وجوّدتْ. وعلىٰ رأس العلجة جارياتٌ من القوّامات، أسيراتٌ كأنهنّ فِلْقات قمر. فما هو إلاّ أن سمعتْ إحداهنّ الشعرَ، فأرسلت عينيها كأنهما مزادتان.

«فرَقَقْتُ لها وقلت: "ما أبكاكِ؟"،

«قالت: "هٰذا الشعر لأبي، فسمعتُه فهيّج شجوي!"،

«فقلت لها: "يا أمةَ الله، ومَن أبوك؟"،

«قالت: "سليمان بن مهران السرقسطي، ولي في هٰذا الإسار مدّة، ولم اسمع لأهلي بعدُ خبرا!".

[«فما جزعتُ علىٰ شيء جزعي عليها يومئذ»]**

وذٰلك ما يحملنا علىٰ أن نفترض أنّ اَبن الكتّاني قد حمل معه كتبه إلىٰ

• ترد الأبيات ثانيةً، أدناه.

•• "الذخيرة..."، القسم الثالث: ٣١٨ و١٩.

←

سرقسطة، ومن جملتها كتاب "تشبيهات أهل الأندلس"، الذي لا بدّ أنه كان كتاب النصوص لتلميذاته، الإمَاء، وتكثر ـ في الفصل المخصّص للخمرة ـ تشبيهاتُ هٰذا الشراب بالشمس والنجوم.

فيحقّ لنا، إذن، القول إنه منذ بدايات القرن الحادي عشر [٥ هـ]، وفي الشّمال الإسباني، لا بدّ أنه جرىٰ تمثيل الكأس گرال، مملوءةً بالخمرة أو بالزيت، وهي تُصدر أشعّةً منيرة، حسبما هو مصوّرٌ في اللوحات الجداريّة الأولىٰ ذات الطراز الرّوماني في تاهول.

الشعر الغنائي:

ثمّة نقطةٌ أخرىٰ موضع كثير من النقاش، كانت أصل الشعر الغنائي الرُّومنثي. فمنذ القرن الثامن عشر، كانت قد طُرحت نظريّاتٌ متناقضة حول هٰذا الموضوع، وأحدثت انقساماتٍ في اليسوعيّين الإسبانيّين اللاجئين في إيطاليا. فبينما كان الأب خوان أندريس يدافع، في كتابه "أصل الأدب بأكمله، وخطواتُ تقدّمه، ووضعه الحالي"، عن [الرأي القائل] بالأصل العربي لقافية شعر التروبادور ووزنه، وكان يدعمه في أفكاره خُوَاكين پِلا (١٧٤٥ـ١٨١٧م) وگيرولامو تيرابوتشي، أمين مكتبة دوق مودينا، كان الأب آستبان دي أرْتِياگا يُفنّد ذٰلك بشدّة، وفعل الشيء ذاته حين نشر تيرابوتشي عمل گيانماريا باربييري (١٥١٩ـ١٥٧٤م)، وقام بالخطوة التالية هامر پورگستال في سلسلة من المقالات نُشرت في "الجريدة الأسيويّة" سعىٰ فيها إلىٰ أن يُثبت ما لم يكن من شأنه أن يكون وقتذاك ـ حتّىٰ بعد ذٰلك التاريخ بزمن ـ

← ويضيف ابن بسّام: «هٰكذا وجدتُ خبر هٰذه الأبيات بخطّ الفقيه أبي محمّد [بن حزم]، ولم يخبر [ابنُ الكتّاني] أنه امتعض لفكّ أسر تلك الجارية هنالك، ولا وفّقه الله لشيء من ذلك! وكان تركُهُ لها في الأسر، مع ما أطلعتْه عليه من الأمر، ممّا يوقد الضلوع ويسكب الدموع!»: ٣١٩.

نقلنا، في المتن، نصّ الحكاية كاملًا، وقد أورده ڤيرنيت ـ يقول ـ ملخّصًا، عن الترجمة الفرنسيّة التي أنجزها هـ. پيريس مستمدّةً من "الذخيرة..." (مخطوطة گوتا).

سوىٰ تخمينات، حسبما أشار إلىٰ ذٰلك دوزي في ١٨٨١. وشرع الوضع بالتغيُّر، حين نشر م. هارتمان عمله حول الموشّحات، وتناول خوليان ريبيرا، في خطابه بمناسبة دخوله الأكاديمية الملكيّة الإسبانيّة، ديوانَ أغاني ٱبن قزمان (١٩١٢م)، مفترضًا نظريّةً متماسكة حول هٰذه المسألة. وسرعان ما تيسّر له، لهٰذه الغاية، الٱعتماد علىٰ ٱستشهادٍ مهمّ، ألَا وهو ما يُقدّمه ٱبن بسّام في كتابه "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة". ونظرًا لعدم توافُر عناصر إضافيّة يقوم عليها الحُكم، أُورد ترجمة هٰذا الٱستشهاد: «*إنّ أوّل مَن نظم أشعارًا بحسب الأوزان، أو صنّف الموشّحة في*

> *بلدنا، وٱخترع هٰذا النوع، كان مُقدَّم بن معافىٰ القَبْري الضرير*[*] [(14)]، *الذي نظمها مستخدمًا أبياتًا قصيرة. غير أنه جعل أكثر هٰذه المنظومات في أشكالٍ وزنيّة مهملة، دونما فنٍّ دقيق، مستخدمًا أساليب كلام العامّيّ الجاهل واللغة الرُّومنثيّة [عجميّة الأندلس]. وكانت تُسمّىٰ هٰذه الجُمَل العامّيّة أو الرُّومنثيّة "مركزا". بأمثال هٰذه الأبيات القصيرة كان ينظم الموشّحة دون أن يصل إلىٰ أشكالٍ كاملة في تركيب القوافي وتلاحمها، ودون أن تُشكّل هٰذه الأبيات حقًّا عناصر عضويّةً من مجمل المقطع*»[**].

كان يُستخلص من هٰذا النصّ أنه كان هنالك شكلٌ دَوْرِيٌّ بدائيّ هو الموشّح، وكان يُطَعَّم بكلماتٍ أو أبياتٍ شعريّة باللغة الرُّومنثيّة، ولٰكن لم يتمّ التوصّل إلىٰ

* ورد بالإسبانيّة: **Mocádem Benmoafa, el de Cabra, el Ciego** (مكدّم بن مؤافى...)، وكان حقّه أن يُكتب: **Moqádam Ben Mo'afa**... فصحّحها لنا الدكتور علي دياب (أستاذ الأدب الأندلسي بجامعة دمشق).

** هٰذه هي الترجمة الدقيقة لنصّ ڤيرنيت الإسباني، وذٰلك حسب ترجمة ريبيرا عن العربيّة! وما عند ٱبن بسّام نصٌّ يختلف ٱختلافًا ما في عباراته، فضلًا عن إيجازه... وهو:

> «وأوّل من صنع أوزان هٰذه الموشّحات بأُفقنا، وٱخترع طريقتها ـ فيما بلغني ـ محمّد بن محمود القَبْري الضرير. وكان يصنعها علىٰ أشطار الأشعار، غير أنّ أكثرها علىٰ الأعاريض المهملة غير المستعملة، يأخذ اللفظ العاميّ والعجميّ [الرُّومنثي] ويُسمّيه "المركز"، ويضع عليه الموشّحة دون تضمينٍ فيها ولا أغصان...».
>
> "الذخيرة..."، القسم الأوّل، ٤٦٩. ←

تمييز بنيته بوضوح، نظرًا لعدم توافر الأمثلة[15]، وذلك بعكس ما كان يقع في الزّجل الذي ظهر بعدئذ في وقتٍ متأخّر جدًّا[16]. لذلك عمدت الأطروحة المقارنة إلى الإيغال في فحص ديوان أغاني ابن قزمان، وجرى البحث ـ طَوال عشرينات هذا القرن ـ عن منظوماتٍ ذات مقاطع (أدوار) واردة في مختلف الآداب الأوروبيّة (الإيطاليّة، الفرنسيّة... إلخ)، تكون مشابهةً في تركيباتها لتلك التي يحتويها الديوان المذكور، فوقعوا عليها لدى گيرمو التاسع الأكيتاني (ت ١١٢٧م [٥٢١هـ])، والراهب المنتودوني (ت حوالي ١٢١٣م)، وماركابرو (ت حوالي ١١٥٠م)، وجاكوبونيه التودي (ت ١٣٠٦م)، وفي منظومات شعبيّة مختلفة، كتلك الموجودة مثلًا في العملين المسمَّيَين *Malcasada* و*Reuse de Dunkerke*. وأصبح هذا البحث بسيطًا لمّا نَشَر نيكل عملَ ابن قزمان بالأحرف اللاتينيّة وترجمه جزئيًّا[17]. وبقي الزّجل معرّفًا بوصفه «*منظومةً ذات مقاطع، مكوّنةً من مَطْلع صغير، موضوعةٍ أو خرجة، ومن عددٍ متغيّرٍ من المقاطع مؤلّفةٍ من ثلاثة أبياتٍ موحَّدة القافية، يليها بيتٌ آخر ذو قافيةٍ ثابتة، مماثلةٍ لقافية الخرجة*». ومثال ذلك أبيات رئيس كهنة [منطقة] هيتا [خوان رويث **Juán Ruiz**] التالية:

Sennores, dat al escolar
Que vos vien a demandar
Dat limosna e ración"
Faré por vos oración
Que Dios vos de salvación
Quered por Dios a mi dar
El bien que por Dios Fisierdes

← وتفيد الدكتورة مهجة الباشا بأنّ «الباحثين القُدامى اختلفوا في أوّل مَن سبق إلى نظم الموشّحات، هل هو مقدّم بن مُعافى القَبْري، أخذها عنه ابن عبد ربّه، كما عند المقّري (أزهار الرياض، ٢: ٢٥٣)، وابن خلدون الذي نقل (في آخر فصول المقدّمة) عن ابن سعيد قولَه، بأنّ "المخترع لها، بجزيرة الأندلس، مقدّم بن معافى القبري..." (المقتطف من أزهار الطُّرَف، ٢٥٥)؟ أو هو محمّد بن حمّود القبري الضرير، كما عند ابن بسّام؟... [وتضيف] ويبدو أنّ ريبيرا قد وضع اسم مقدّم بن معافى في نقله عن "الذخيرة" سهوًا...».

La limosna que por El dierdes
Cuando de este mundo salierdes
Esto vos habrá de ayudar.

يا سادة، أعطوا التلميذَ الذي يقصِدكم
وبالسؤال يتوجّه إليكم
أعطوه نصيبًا وصدقةً من الصدقات
سأُقيم من اجلكم الصلاة
ليمنحكم الإلٰهُ النجاة
أعطوني، لوجه الله، من فضلكم
أَعطوني، لوجه الله، الخير الذي تفعلون
الصدقة التي، لوجه الله، تمنحون
فحين، عن هٰذه الدنيا، ترحلون
فإنّ هٰذا سيُعينكم.

هٰذا النوع من النظم، الذي يتيسّر فيه تنويع القوافي في الخَرجة، اَعتبره علماء الاَستعراب أصل الشعر الأوروبي القائم على المقاطع، بينما كان علماء اللاتينيّة والرُّومنثيّة يبحثون عن مصدره في دوائرهم الثقافيّة الخاصّة، وكانوا، طبعًا، يهملون تحليل أحد أهم ما تقول به أطروحة ريبيرا: وجود شعرٍ غنائيٍّ إسباني رومنثيّ يعود إلى ما قبل الإسلامي منه، أي إلى العهد القوطي الغربي. كما كانوا يضعون قوائم بالموضوعات التي يطرحها شعراء كلتا الديانتين، وكانت تُؤوَّل تأويلًا يختلف باَختلاف المؤلّفين.

أمّا الحجّة الأولى، القائلة بوجود أشكال ذات مقاطع، قبل العربيّة منها، في العالم الرُّوماني، أمكن أن تنحدر عنها تلك التي تشهد عليها النصوص اَعتبارًا من القرن الثاني عشر، فقد حلّلها أ. رونكاليا وخلص إلى نتائج يتّضح أنها في صالح الأطروحة العربيّة، على الرغم من الأمثلة والنظريّات التي تقدّم بها رودريگث لاپا، وسپانكيه، ولي جانتّي.

مع ذلك كان مينينديث پيدال قد سلّم، في ١٩٣٧، في محاضرة ألقاها في هاڤانا، بالأطروحة العربيّة، لأنه من ناحية الوزن الشعري:

«يتحتّم علينا أن نكرّر القول إنّ ما هو جوهريٌّ في مقطع الزَّجَل ليس الخرجة، لأنها موجودةٌ في كثير من المنظومات الأخرىٰ في آداب لغاتٍ مختلفة، إنما هو هٰذا البيت الرابع الذي يتكرّر بالقافية ذاتها خلال مقاطع الأغنية كلّها، وهو تكرار ذو طابع متميّز في أغنيات گيورمو التاسع وشعراء آخرين من تروبادور الجيل الأوّل سبق ذكرهم. بل أكثر من ذٰلك: يعترف جان روا نفسه أنّ هٰذا البيت، ذا القافية المتماثلة والمدرج في البيت الأخير من كلّ مقطع من مقاطع الأغنية، يبدو أنه، دونما شكٍّ، بقيّة من خرجة قديمة. إنه افتراضٌ حصيفٌ جدًّا. ولٰكننا في الوقت الراهن ــ نظرًا لقدم العهد الذي يتّسم به التقطيع الزَّجَلي في الأندلس، ولرسوخ أشكال مماثلة له في العالم الرُّوماني بأسره ــ لا يسعنا القول الآن بأنّ هٰذه القافية إن هي إلّا بقيّة من خرجة، وإنما الأمر يتعلّق ببيت "عودة" [دور] تنتظره "خرجة". فكيف، إذن، لا نربط هٰذا المقطع، عند شعراء التروبادور، المشتملَ علىٰ بيت "العودة" المتكرّر بإيقاع موحّد، مع المقطع المستخدم كثيرًا في الآداب الرُّومانيّة كلّها، مشتملًا علىٰ "عودة" إضافة إلىٰ "خرجة"، أي أنه مطابق لمقطع الزّجل العربي؟

«فإذا اعترفنا بأنّ التطابق بين النّسقين العربي والرُّوماني الذي يشمل الجوهريّ والخاصّ، إنما ينمّ عن القرابة بينهما، وإذا أخذنا بعين الاعتبار تفوُّق الثقافة العربيّة في الحقبة من القرن العاشر حتّىٰ القرن الثالث عشر [٤ـ٧ هـ]، وما تمتلكه الأمثلة العربيّة ـ الإسبانيّة من كبير قِدَم العهد في جميع الحالات، فالتعليل الأكثر بداهةً لعلاقة القربىٰ هٰذه هو أن نفترض أنّ الشعر الرُّوماني قد قلّد الشعر العربي، علىٰ نحو ما تؤكّده النظريّة العربيّة ـ الأندلسيّة. وصحيح أنه من الممكن أيضًا تقديم تعليل آخر [...]، هو أنّ هٰذا الصنف من الأغاني كان شائعًا ــ مثلما هو في الأندلس ــ في أقطار رومانيّة أخرىٰ، وأنه تطوّر علىٰ نحوٍ متوازٍ في العربيّة الأندلسيّة، وفي لغة المستعربين

المحليّة، والجلّيقيّة، والبروڤانسيّة... إلخ. ولٰكنّ صعوبة التسليم بذٰلك تكمن في أنه إذا كان قد وُجد مثل هٰذا التقطيع في العالم الرّوماني منذ القرن التاسع، فلا بدّ من ترقّبِ نماذجَ ما عنه ترجع إلىٰ ما قبل القرن الثاني عشر».

وأمّا الحجّة الثانية المتعلّقة بموضوعات هٰذه الأغاني فقد رُفضت، لأنّ الشواهد التي تقدّم بها علماء الأستعراب: (الرقيب **gardador**، الجاري **Bon Vesi**، الواشي **lauzengier**، الحاسد **enojos, gilos**) إنما تمثّل نماذجَ عالميّة، ومن ثَمّ يمكن القول بنشوءٍ مستقلّ لها في مختلف الآداب. ومع ذٰلك، فإنّ لنا أن نفترض، في بعض الحالات، وجود أتصالات؛ لأنّ المحبوبة، علىٰ سبيل المثال، يُشار إليها في الشعر البروڤانسي بوصفها *midons*، وهٰذه الكلمة نسخة عن العربيّة، سيدي، مولاي، اللتين يُشار بهما في الشعر العربي، منذ عهد بعيد، إلىٰ المحبوبة. ولٰكن، إذا جاز أن تكون هٰذه الشخصيّات المذكورة موضع نقاش، فمن العسير أن ننفي تلازمها مع المصادر العربيّة، عندما تظهر في هٰذا الشعر الرُّوماني تشبيهاتٌ تتميّز بها هٰذه المصادر. من ذٰلك مثلًا الموضوعة التي تتحدّث عمّن يقع في الحبّ أستنادًا إلىٰ السمع، التي ترد علىٰ حدّ سواء عند أبن حزم ("طوق الحمامة"، الفصل السادس) وفي العالم اللاتيني قبل الشاعر دانتي، أو توحيد هويّة القمر مع شخص المحبوبة، ورفيقاتها مع النّجمات؛ مثال الحالة الأولىٰ الأغنية الصغيرة التي [أوردها] داماسو آلونسو:

أيها القمر الساطع
أَنِر طَوال الليل
آه، أيها القمر الساطع
بلونك الأبيض والفضّي
أَنِر طَوال الليل
حبيبتي الجميلة

أيها المحبوب الساطع
أَنِر طوال الليل

وهناك مثال آخر، ذلك الذي يُشير إليه رونكاليا، وفيه يستمتع العاشق، بآستنشاق الأنسام العليلة الآتية من بلد المحبوب:

Oy aura dolza qui venez deves lai
on mon amic dorm e sejorn'e jai,
del dolz aleyn un beure m'aportai!
La bocha obre, per gran desir que n'ai *

ولٰكنّ الجارية [الأسيرة]، التي أثّرت في نفس آبن الكتّاني، كانت قد غنّت، قبلئذ، هٰذه الأبيات:

خليليّ! ما للريح تأتي، كأنما ... يُخالطها عند الهُبوب خَلُوقُ؟
أم الريحُ جاءت من بلادِ أحبّتي ... فأحسبها ريحَ الحبيب تسوقُ؟
سقىٰ الله أرضًا، حلّها الأغيدُ الذي ... لِتَذكاره بين الضُّلوع حريقُ
أصار فؤادي فرقتين: فعنده ... فريقٌ، وعندي للسياق فريقُ**

أو أمثال الأبيات التالية لأبي بكر الطُّرطُوشي:

أُقلِّبُ طَرْفي في السماء تردُّدًا ... لعلّي أرىٰ النَّجمَ الذي أنتَ تنظرُ
وأستعرض الركبانَ من كلّ وجهةٍ ... لعلّي، بمن قد شَمَّ عَرْفَكَ، أظفرُ
وأستقبل الأرواح عند هُبوبها ... لعلّ نسيم الريح عنك يُخَبِّرُ
وأمشي، ومالي في الطريق مآربٌ ... عسىٰ نغمةٌ بآسم الحبيب ستُذكرُ
والمحُ من ألقاه من غير حاجةٍ ... عسىٰ لمحةٌ من نور وجهك تُسْفِرُ***

ولقد ألمّ بهٰذه الأبحاث بعضُ الركود، بسبب عدم توافر نصوص جديدة تمكّن من تجاوز النتائج التي تمّ التوصّل إليها في النصف الأوّل من هٰذا القرن. وفجأةً،

• يقول الأستاذ المترجم، ورد النصّ في إحدىٰ اللهجات الرُّومنسيّة، ولم ترد ترجمته في النصّ الإسباني، وموضوع الأبيات الآستمتاع بآستنشاق الأنسام الآتية من بلد المحبوب، كما جاء في السطرين السابقين لهٰذه الأبيات.

•• "الذخيرة..."، القسم الثالث: ٣١٨. وقد وردت هٰذه الأبيات، أعلاه.

••• "نفح الطيب..."، ٢: ٨٥ و٨٦.

ما بين ١٩٤٦ و١٩٥١م، سمحت مجموعةٌ من الاكتشافات بطرحٍ جديد للمسألة برُمّتها. ففي المقام الأوّل نجد، أنّ مِيّاس، الذي كان قد تقدّم في كتابه "الشعر المقدّس العبراني ــ الإسباني"، بنظريّة توفيقيّة حول أصول الشعر الغنائي، قد أشار ــ وهٰذا ما كان قد ألمح إليه قبلذاك مينينديث وبيلايو ــ أنّ أقدم الأبيات الشعريّة الإسبانيّة نجدها مندرجةً في قصيدةٍ ليهودا هاليفي[18] بوصفها "خَرْجة" (أبيات ختام tornadas, finidas). وبعد عامين من ذٰلك التاريخ، نشر س. م. شتيرن مقالاً رائعًا عرّف فيه بعشرين منظومةً من النوع ذاته. وقد ساعد ظهور أبياتٍ من الشعر الرُّومنثي في المنظومات العبرانيّة وحدها وخلال بضع سنوات ــ وربّما قام گارسيا گوميث بالتعريف بخَرْجاتٍ رومنثيّة مدرجة في موشّحاتٍ عربيّة ــ ساعد على التقدّم بفرضيّات، سرعان ما سقطت في هوّة النسيان، حول احتمال وجود أصل عبراني لهٰذه المنظومات. وفي الوقت ذاته تقريبًا، كان بحّاثةٌ شرقي، هو جودت الركابي، قد نشر مصنّفًا عربيًّا من القرون الوسطى حول الموشّحات، "دار الطراز في عمل الموشّحات"*، توافرت بوساطته العناصر كلّها لطرحٍ جديد للمشكلة، وفق ما أدركه، في الحال، علماء الرُّومنثيّة والاستعراب.

مع هٰذه المعطيات الجديدة، ومع ظهور مجموعاتٍ منتخباتٍ عربيّة من الموشّحات، مثل "جيش التوشيح" لابن الخطيب الغرناطي (٧١٣ـ٧٧٦هـ/ ١٣١٣ـ١٣٧٤م)، أمكن الشروع بنشر نصوصها الكاملة. وبفضل هٰذه الاكتشافات، نجد أنّ الفقرة من كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" والتي استشهدنا بها وفقًا لترجمة ريبيرا، ينبغي فهمها، بحسب رأي گارسيا گوميث، على النحو التالي:
... كان ينظمها (أي الموشّحات) شطرًا شطرًا، إلّا أنّ معظمها بأوزانٍ شعريّةٍ مهملة وقليلة الاستعمال: [وطريقته في العمل أنه] كان يأخذ عبارة من اللغة العاميّة أو الرُّومنثيّة، وكان يطلق عليها اسم "مركز" [وهٰذا مُصطلح يُماثل مصطلح "خرجة"]، (يتّخذها أساسًا)، ويصوغ عليها الموشّح.

* تأليف ابن سناء الملك، وقد حقّقه الدكتور جودت الركابي (دمشق: دار الفكر، ١٩٤٩ و١٩٧٧ و١٩٨٠).

كان الموشّح يُكتب، حسبما نعرف اليوم بِنيتَهُ، بالعربيّة الفصحىٰ، ويتكوّن من عددٍ مختصر من المقاطع يتراوح بين خمسة وسبعة. وكلا السّمتَين ـ لغة الموشّح والدقّة في تحديد حجمه ـ هما، منذ البدء، وجها اَختلافه عن الزَّجَل المنظوم باللهجة المحليّة ودون التقيُّد بحدٍّ في عدد المقاطع. وتتألّف هٰذه الأخيرة، في الموشّح، من قسمين، «القسم المكوّن من الأبيات ذات القوافي المستقلّة والخاصّة في كلّ حالة،

> *ونُسمّيه "الغُصْن"، والقسم المكوّن من الأبيات ذات القوافي المشتركة في القصيدة كلّها، ونُسمّيه "القفل". وفي المقطع الأخير، وفيه فقط، سمّينا الغصن "التمهيد"، و"القفل" (المسمّىٰ أيضًا "سَمْت"، بحسب رأي شتيرن)، هو "الخرجة" (المركز عند اَبن بسّام). وإذا تصدّر المقاطعَ قفلٌ مستقلٌّ، أُطلق عليه اَسم "مطلع". وإذا خلا الموشّح من المطلع، سُمّي "أقرع"، وقد ترجمنا هٰذه الكلمة إلىٰ الإسبانيّة بـ acéfala [أي عديم الراس]».*

إنّ أصل الموشّح العربي قابل للنقاش، إذ ينبغي التمييز بين الشكل المقطعي بحصر المعنىٰ والقفل الأخير، الذي يُسمّىٰ "المركز" إذا كان بالعربيّة الفصحىٰ، أو "الخرجة" إذا كان بغير العربيّة*.

وقد يكون الشكل المقطعيّ قد ظهر في أزمنةٍ قديمة بوصفه نتيجةً لاَستخدام الشعراء للزخرفة المسمّاة "التسميط"، القائم علىٰ تضمين كلّ بيت شعريّ مجموعاتٍ من القوافي الخاصّة. ويُطلق عندئذٍ علىٰ القصيدة التقليديّة اَسم "المُسَمَّطة"، أو السمطيّة، أو السميطة، وحسبما يكون عدد أجزائها شَفْعًا أو وِتْرا، فإنّ هٰذه الأجزاء تحتفظ بقالب القصيدة الجامد، أو تحطّمه، فنحصل عندئذ علىٰ الترسيمتَين التاليتين:

* تقول الدكتورة مهجة الباشا، إنّ "الخرجة" و"المركز" تسميتان للقفل الأخير في الموشّحة، سواء أكان هٰذا القفل بالعربيّة الفصحىٰ أم بغير العربيّة، وليس هناك مثل هٰذا التخصيص في التسمية في المصادر العربيّة.

ب ب ب   أ

ج ج ج   أ

د د د   أ

أو:

ب ب   ب ب   أ

ج ج   ج ج   أ

د د   د د   أ

.   .   .

هٰذا الترتيب الأخير «*يجوز اعتباره قائمًا علىٰ مقاطع (وذلك ما لا يحصل في القصيدة العاديّة). والواقع أنّ كلّ مجموعةٍ هي مقطع، وتتلقّىٰ اسمها من عدد الأجزاء المقفّاة المكوّنة لها*». *وتشتمل الترسيمة الأخيرة علىٰ خمسة أشطر (ب ب ب أ، ج ج ج ج أ) فتسمّىٰ القصيدة مخمّسة، والطريقة تخميس، والشاعر مخمّس ..... ومن البدهي، أيضًا، أنه يمكن أن نُشبّه القافية أ، المشتركة بين المجموعات كلّها، بمركز الموشّح*».

ويرتقي هٰذا المنهج، بحسب الشهادات الأدبيّة، إلىٰ شاعرٍ [مؤلّف في النصّ الإسباني] من القرن السادس [الميلادي]، هو امرؤ القيس. وتتوافر عنه [أي المنهج] شهاداتٌ اعتبارًا من القرن الثامن، إذ يستخدمه الشاعرُ المشرقيّ أبو نواس وتُبدي إحدىٰ قصائده المسمّطة شَبَهًا كبيرًا بموشّح أقرع، وإن لم تتقيّد بكلّ القواعد التي حدّدها ابن سناء المُلك[19] لهٰذا الصنف من النظم. لذٰلك، يجوز التسليم بأنّ الشكل المقطعيّ للموشّح ربّما لا يكون ابتكارًا أندلسيًّا، وأنه مشتقٌّ من القصيدة السمطيّة. وإنه لأمرٌ له دلالته إذن، أنّ أقدم المؤلّفين الذين نحتفظ لهم بموشّحات وخرجات، قد عاشوا في الأندلس، أكانوا مسلمين أم يهودا، وأنّ هٰذا النوع إنّما تطوّر هنا أكثر بكثير من تطوّره في أيّ بلدٍ آخر. وبصرف النظر عن مقدّم القَبْري [1]، تُعزىٰ إلىٰ معاصره

ابن عبد ربّه، تعديلاتٌ على المنهج، علمًا بأنّ قائمة الشعراء، الذين مارسوا هٰذا الشكل، واسعةٌ جدًّا، وتمتدّ حتّىٰ القرن الرابع عشر [٨ هـ]*.

ومن جهة أخرىٰ يبدو أنّ الخرجات هي البقية الوحيدة من الشعر الرُّومنثي قبل [المرحلة] الإسلاميّة، ودرجت أيضًا علىٰ نحوٍ مستقلّ، دون أن تلتحم مع أيّ موشّح.

«لئن نشأ، أحيانًا، شكٌّ حول ما إذا كانت مقطوعةٌ معيّنة من الڤيانثيكو قد قام أحد كبار شعراء القرن الذهبي بتعديلها أو حتّىٰ بإبداعها، فهٰذا لا يعني أيّ شيء ضدّ وجود مقطوعاتٍ من الڤيانثيكو شعبيّةٍ علىٰ نحوٍ أصيل. وبالعكس، فإنّ المحاكاة المفترضة أو الممكنة إنما تؤكّد وجود هٰذه المقطوعات. وكذٰلك هي الحال فيما يتعلّق بالخرجات. فلكلّ واحدةٍ، من الخمسين المتبقّية منها مشكلاتُها الخاصّة، ولٰكن حتّىٰ في حال الفرضيّة غير المعقولة والقائلة بأنّ ما من واحدة منها ذات وجود مسبق، فإنّ هٰذه الخرجات قد تُمثّل، بين ما تُمثّل، تقليدًا، صدًىٰ لخرجات أخرىٰ كانت موجودة من قبل».

وتظلّ الحجّة المطروحة علىٰ هٰذا النحو صحيحةً، مع أنّ بعض التأكيدات المتعلّقة بالعفّة وبالبيئة الاجتماعيّة المختلفة ـ بالنسبة إلىٰ العربيّة ـ التي كانت

* نحبّ أن نضيف أنّ ابن بسام ذكر ـ عدا القَبْري ـ آخرين ممّن تبعوه في نظم الموشّحات:

«... وقيل إنّ ابن عبد ربّه، صاحب كتاب "العِقْد [الفريد]"، أوّلُ مَن سبق إلىٰ هٰذا النوع من الموشّحات عندنا [في الأندلس]. ثمّ نشأ يوسف بن هارون الرّمادي فكان أوّلَ مَن أكثر فيها من التضمين في المراكيز، يضمّن كلّ موقفٍ يقف عليه في المركز خاصّة. فاستمرّ علىٰ ذٰلك شعراءُ عصرنا، كمكرّم بن سعيد، وابني أبي الحسن، ثمّ نشأ عُبادةُ هٰذا فأحدث التضفير، ذٰلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمّنها، كما اعتمد الرّمادي مواضع الوقف في المركز».

"الذخيرة"، القسم الأوّل، ٤٦٩.

وعُبادة هٰذا هو "أبو بكر، عُبادة بن ماء السماء" (ت ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م، لحق في قرطبة الدولتين العامريّة والحمّوديّة).

تعكسها الخرجات، في الأصل، فيما يبدو، هي تأكيداتٌ قابلة للنقاش. وعلىٰ نحوٍ مماثل، يرىٰ بعض المؤلّفين الآخرين أنّ مزج لغتين [يعني: فصحىٰ وعامّيّة] في مقطوعةٍ شعريّة (غير الموشّح) كان موجودًا آنفًا في الشرق، حسبما حصل أحيانًا عند أبي نواس، بينما يظهر المزج اللغوي في الخرجة (ويحصُل الشيء ذاته في الزَّجَل) بطريقة أكثرَ فوضويّةً بكثير، حسبما أثبتت النتائج التي توصّل إليها رينه شبيشت[20].

وهنالك مشكلةٌ أخرىٰ تُناقش، وهي مشكلة الأوزان المستعملة في هٰذه المنظومات. فيرىٰ گارثيا گوميث أنها تتّبع قانون المسّافيّة Mussafia، وأنها قائمة علىٰ المقطع الصوتي، مَثَلُها، فضلًا عن ذٰلك، مثل الشعر العربي الشعبيّ كلّه، بما فيه الزَّجَل، حسبما تبيّن من تحليل القواعد المتّبعة في القرون الوسطىٰ، الذي أفرده صفي الدين الحلي للزَّجَل ولأنواعٍ شعريّة مختلفةٍ أخرىٰ لا تهمّنا هنا. وإنّ علم وقوفنا حتّىٰ الآن علىٰ موشّحاتٍ منظومةٍ في بحر الكامل أو الوافر تكسر التساوي المقطعي الصوتي في علم العروض التقليدي[21]، بأن يُستبدل بمقطعين صوتيّين قصيرين مقطعٌ واحد طويل، إنما يؤكّد وجهة نظر گارثيا گوميث، مثلما تؤكّد ذٰلك أيضًا، ولو علىٰ نحوٍ غير مباشر، إحدىٰ قواعد الزَّجَل التي تُجيز أن يتضمّن المقطع الزَّجَلي الواحد أوزانًا مختلفة.

فإذا ما دار النقاش حول موطن الموشّح، فلا يحصُل الشيء نفسه فيما يتعلّق بالزَّجل، لأننا نحتفظ بما يدلّ علىٰ موطن نشوئه في نصٍّ فريد اكتشفه گارثيا گوميث[22]. ورد في جُمَلِه الأساسيّة ما يلي:

> «كان فنّ الغناء عند أهل الأندلس، في العصور القديمة، إمّا من صنف غناء المسيحيّين، وإمّا من صنف حِداء الجمّالين العرب، دون أن تكون له قواعدُ يُستند إليها، حتّىٰ تَوَلّي الأُسرة الأمويّة... وفي وقتٍ لاحق، ظهر ابنُ باجّه، الإمام الأكبر، الذي توصّل، بعدما انصرف إلىٰ العمل بضع سنوات مع قَيْنات بارعات، إلىٰ تنقية الاستهلال والعمل، مازجًا غناء المسيحيّين بغناء المشرق. وقد ابتكر هو صنف

الزَّجَل في الأندلس، ومال إلىٰ هٰذا الصنف ذوق الأندلسيّين، فأنصرفوا عن الأصناف الأخرىٰ».

أي أنّ الزّجَل قد ظهر في الأندلس، وربّما في سرقسطة، وأبتكره الفيلسوف الموسيقيّ أبنُ باجّه*.

ولٰكنّ أغرب ما في "موسوعة التيفاشي"، هو الفصل الذي قدّمه بعنوان: "في تشابه قوانين الموسيقىٰ مع قوانين العروض" وأكّد فيه أنّ التراكيب الثلاثة الأساسيّة طان، وططان، وططططان، «*تُشكّل، في جميع اللغات، كلّ ما يؤلّف من ألحان وأغان*». وقد حلّلها گارثيا گوميث وطبّقها علىٰ الإسبانيّة، مبيّنًا كيف تتولّد آليًّا، من البيت الشعريّ المكوّن من أثني عشر مقطعًا صوتيًّا [البيت الأثني عشري]، بقيّةُ أبيات الشعر [أي] الأوزان].

وقد رأينا، قبل قليل، كيف أمكن لتطوّر القصيدة المسمّطة أن يولّد الموشّح، وأن يُبيِّن، من ثَمّ، أقدم العلاقات بين كلٍّ من الشعر الغنائي الرُّومنثي [الإسباني] والعربي. ولٰكن يُمكنه أيضًا أن يوضّح تفنُّناتٍ أخرىٰ من الأوزان الغربيّة. وتسمح الترسيمة، التي نحن بصددها، بأن نُدرج في قصيدةٍ عاديّة «*شطرًا، أو أشطرًا مختلفة، أو بيتًا كاملًا، من شاعرٍ سابق، موفّقين بينها وبين الوزن والقافية المستخدَمَين من هٰذا الأخير. وهٰذا هو الأسلوب المسمّىٰ التضمين*»، الذي أستخدمه في أبسط مفهومه، فيما يُقال، أمرؤ القيس وأبو نواس في المشرق، ونجد في الأندلس أمثلةً عليه في أبياتٍ لأبن الحاج في رثاء أبن صُمادِح، أو لأبن عبدون في مدح المتوكّل علىٰ حسن ضيافته، أو لأبن حزم في شكواه من كونه ضحيّة هجر محبوبته ومصالحتها له علىٰ نحوٍ متواصل. يقول أبن حزم: «ختمتُ كلّ بيتٍ منها بشطرٍ من معلّقة طَرَفة بن العبد»، وهٰذا هو نصّ القصيدة التي نظم أبن حزم الأشطر الأوائل

* لم تشر المصادر التاريخيّة ـ حسب رأي الدكتورة الباشا ـ إلىٰ أنّ أبن باجّه قد أبتكر الزجل، فهو فيلسوف وموسيقي ووشّاح، ولا نجد فيها أيّة إشارة إلىٰ زجلٍ له.

من أبياتها، وقد ضمّنها في الأشطر الثواني ما أخذ عن طَرَفة (بالحرف الأسود)،

تـذكّـرتُ وُدًّا للحـبيب، كـأنـه **لخَوْلَـةَ أطـلالٌ بـبرقـةِ ثَـهْـمَـدِ**
وعهدي بعهدٍ، كان لي منه، ثابتٍ **يلوح كباقي الوَشْم في ظاهر اليدِ**
وقفتُ به، لا مُوقنًا برجوعه **ولا آيسًا أبكي وأبكي إلىٰ الغدِ**
إلىٰ أن أطالَ الناسُ عَذْلي وأكثروا **يقولون: لا تَهْلِكْ أسًىٰ، وتجَلَّدِ**
كأنَّ فنونَ السُّخْط ممّن أُحِبُّه **خلايا سفينٍ بالنواصفِ مِن دَدِ**
كأنّ انقلاب الهجر والوصل مَرْكَبٌ **يجورُ به الملّاحُ طورًا ويهتدي**
فوَقْتُ رضًىٰ يتلوه وقتُ تَسَخُّطٍ **كما قَسَمَ التُّرْبَ المُفايلُ باليدِ**
ويبسمُ نحوي وهو غضبانُ معرضٌ **مظاهرُ سِمطَيْ لؤلؤٍ وزَبَرْجَدِ** *

وهناك صنفٌ خاصٌّ من التضمين، قد يكون ذٰلك الذي تَبيَّنَهُ أوليفر آسين في الأغاني التي تُدرج بين كلّ بيتين عاديَّين بيتًا وحيدًا، يبقىٰ هو هو، لا يبرح يتردّد طَوال المنظومة، ونجد أمثلةً عليه في الشعر الأندلسي والقشتالي (اعتبارًا من القرن الثالث عشر [٧ هـ])، وتشمل رقعةُ انتشاره المغرب، وتُطرح من ثَمّ مُشكلة منشئه، وأبيات لوبيه دي ڤيگا التالية مثالٌ حسن علىٰ هٰذا الصنف:

ـ عذراء لاكابيثا
ـ مَن مثلُها!
ـ صَنعتْ مجدَ هٰذه الأرض
ـ مَن مثلُها!
ـ لها جبهةٌ من لؤلؤ
ـ مَن مثلُها!
ـ وشعرها من ذهبٍ خالص
ـ مَن مثلُها!

* "طوق الحمامة..."، تحقيق الدكتور أحمد طاهر مكّي، ط ٤ (القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٨٥)، ١٠٠ و١٠١.

ويتّسم التسميط بأهمّيّةٍ أكبر، باعتبار أنّ القصيدة فيه قصيدةٌ مضمّنة. وقد قام الشاعر عبد الله بن جابر الغسّاني المكناسي، على هٰذا النحو، بتضمين قصيدةٍ لابن الخطيب في مديح محمّد، مستخدمًا التخميس، كما يلي:

يا سائرًا لضَريح خيرِ العالَمِ   يُنْهي إليه مَقالَ صبٍّ هائم
بالله نادِ، وقُل مقالةَ عالِمِ   **يا مصطفىٰ، من قبلِ نشأةِ آدمِ**
والكون لمْ تُفتَحْ له اغلاقُ
بِثَنَاكَ قد شَهِدَتْ ملائكةُ السّما   والله قد صلّىٰ عليك وسلّما
يا مجتبىٰ، ومعظّمًا، ومكرّما   **أيَروم مخلوقٌ ثناءَك بعدما**
أثنىٰ علىٰ اخلاقك الخلّاقُ*

ومعنىٰ ذٰلك أنّ القصيدة العربيّة المضمّنة هي، فيما يبدو، متقدّمةٌ بقرنين علىٰ نظيرتها القشتاليّة التي نجدها، لأوّل مرّة، في الأغنية المسمّاة كانثيونيرو دي ستونييگا *Cancionero de Stúñiga* (القرن الخامس عشر [٩ هـ]).

ويجوز لنا أن نعتبر المناظرة الشعريّة لونًا من هٰذا الصنف. وفيها يصطنع الشاعر نفسه مناظرةً بين أمرين مختلفين: النهار والليل، أو القلم والمقصّ.

تنطوي هٰذه الموضوعة الأخيرة علىٰ أهمّيّةٍ تتجاوز الوجه الأدبي إلىٰ الوجه الفنّي. فهي تقوم، وبهدف الكتابة، علىٰ استخدام المقصّ بدلًا من الريشة، فيُقصّ به من صفحة الورق النصّ الذي يُعتزم كتابته. وترقىٰ أقدمُ الشواهد عليها إلىٰ القرن الثاني عشر [٦ هـ]، حيث استخدمها في المشرق الأمير مسعود (ت ٥١٢هـ/ ١١١٨م)، وفي المغرب ابن غالب الرّصافي (ت ٥٧٢هـ/ ١١١٧م)، وكتّابٌ أندلسيّون آخرون، لا بدّ أنه تسنّىٰ، من خلالهم، للحاخام سيم طوب أن يعرفها، وتردّدت أصداؤها

* المقّري: "أزهار الرياض في أخبار عيّاض"، الجزء الأوّل، تحقيق مصطفىٰ السقّا ومن معه، طبعة مصوّرة (المملكة المغربيّة ودولة الإمارات العربيّة المتّحدة، ١٩٩٤) عن طبعة (القاهرة، ١٩٣٩ـ١٩٤٢)، ١، ٣١٩.

عنده في منظومةٍ عبريّة، وفي الأبيات ٩١ و٩٢ و٩٩ و١٠٠ من عمله، أمثال أخلاقيّة، وهي:

شخصًا غبيًا فيه، وجدتُ
ولكي أُثبتَ له بأني، بالحِذْق، اتّصفتُ
إليه قد أرسلتُ
مكتوبًا بالمقصّ اقتطعتُ

. . . .

أنا مِن الورق انتزعتُ
النصَّ الذي فيه وجدتُ
وبه قد احتفظتُ
ورسالةً فارغةً إليه قدّمتُ

استمرّ هٰذا التفنُّن في الكتابة قائمًا في إسبانيا، حتّىٰ بعد إجلاء العرب عنها ـ وهناك ما يُشير إلىٰ استخدامه أيضًا بتركيا، في تلك المرحلة ـ وانتقل إلىٰ باقي أوروبة في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وهو التاريخ الذي ظهر فيه إنجيل يوحنّا في "مخطوط" عنوانه "كتاب الآلام *Liber Passionis*". ومن الأمثلة الأخيرة علىٰ هٰذا الفنّ "كتاب الساعات *Libro de horas*"، المؤرّخ عام ١٧٦٥، ويُحتفظ به في مكتبة الجمعيّة الإسبانيّة.

وشبيهٌ بالمناظرة أسلوبُ النقائض، حيث يتبارىٰ شاعران ويتنافسان في نظم أبيات لها نفس البحر والقافية؛ وهٰذا النقاش، الذي غالبًا ما يكون جدليًّا (والمثال الشهير جدًّا علىٰ ذٰلك جرير والفرزدق في القرن الثامن للميلاد [الثاني للهجرة])، يفسح المجال، في حالاتٍ أخرىٰ، لممارسة ألعاب مهارةٍ يكمل فيها كلّ شاعر الشطرَ الذي نظمه الشاعر الآخر، علىٰ غرار ما جرىٰ يوم كان المعتمد الإشبيلي يتجوّل علىٰ ضفاف نهر الوادي الكبير بصحبة ابن عمّار [وزيره، وقد زَرَّدت الريحُ النهرَ]، فقد ارتجل الشطر التالي:

صَنَعَ الريحُ مِن الماء زَرَدْ

[فأطال ابن عمّار الفكرة]، فأنبرت جاريةٌ كانت تغسل الثياب، فأكملت البيت بهذا الشطر:

أيُّ دِرْعٍ لقتالٍ لو جَمَدْ!

وكانت مكافأةُ هذه البداهة في الارتجال الزواجَ من مُحاوِرِها، وأصبحت الأميرة الأثيرة*.

وفي مرّاتٍ أخرىٰ، استُخدمت هذه اللعبة لاختبار مهارة الآخرين. فعندما قام المعتمد، وهو يتأمّل عن بُعدٍ كورًا من أكوار صنع الزجاج، بصحبة الشاعر الصّقِلّي ابن حمديس، [يقول عبد الجبّار بن حمديس الصّقِلّي ... «فإذا بكُورِ زَجّاجٍ علىٰ بعد، والنارُ تلوحُ من بابَيْه، وواقدةٌ تفتحهما تارةً وتسدُّهما أخرىٰ، ثمّ دام سَدُّ أحدهما وفَتْحُ الآخر. فحين تأمّلتُهما قال لي ـ المعتمد ـ: أَجِزْ]، مرتجلًا الشطر الأوّل.

«قال:	أنظُرْهما في الظلام، قد نَجَما
فقلتُ:	كما رنا في الدُّجُنَّةِ الأَسَدُ
فقال:	يفتحُ عينيه ثمّ يُطْبِقُها
فقلت:	فِعْلَ امرئٍ في جُفونِهِ رَمَدُ
فقال:	فابتزَّهُ الدهرُ نورَ واحدةٍ
فقلت:	وهل نجا مِن صُروفه أحدُ؟[23]

[فاستحسن ذلك، وأمر لي بجائزةٍ سَنيّة، وألزمني خدمته»]**.

وقد ظهر هذا التفنّن في الشعر البروفانسي في وقتٍ لاحق، متأخّرٍ عن ظهوره

* المقّري: "نفح الطيب..."، ٤: ٢١١، الذي يقول:

«فتعجّب ابنُ عبّاد من حُسْنِ ما أتت به، مع عَجْزِ ابن عمّار! ونظر إليها، فإذا هي صورةٌ حَسَنة، فأعجبته. فسألها أذاتُ زوجٍ هي؟ فقالت: لا! فتزوّجها، وولدت له أولادَه الملوكَ النجباء».

واشتقّ المعتمد اسمًا لها من اسمه: "اعتماد". ولَقَبُها: الرُّمَيكيّة. ويروي لنا التاريخ عنها قصصًا!

** المقّري: "نفح الطيب..."، ٣: ٦١٦ و١٧.

في عالم الإسلام في الأندلس. وكان ذلك عن طريق ماركابرو ورامبو دي أورانج (حوالي ١١٤٤ــ١١٧٣م [٥٣٩ــ٥٦٨هـ]).

إنّ كثيرًا من هذه التجديدات قد ٱبتُكر بهدف تلحين القصائد التي ظهرت في القرن الثاني عشر [٦ هـ]، من ذلك مثلًا قصيدة الأدوار، التي كان نشوؤها موازيًا لمثيلاتها من الأغاني العربيّة، التقليديّة أو غير التقليديّة. ونحن لا نعرف كيف كانت تُغنّىٰ هذه الأخيرة، ولكن س. م. شتيرن تمكّن من جمع المعطيات التالية:

«نجد في المخطوطات، التي تتضمّن موشّحاتٍ عبريّةً، إشاراتٍ تدلّ علىٰ أنّ المَطْلع ينبغي أن يتكرّر كالخرجة (پيثمون بالعبريّة). ومن ضمن هٰذه المخطوطات، هناك أجزاء صادرة عن جنيزة Genizá [وثيقة بالعبريّة] القاهرة، وتعود إلىٰ القرن الثاني عشر. وفضلًا عن ذٰلك، نعرف كيف كانت تُغنّىٰ الموشّحات في مصر في النصف الأوّل من القرن الثالث عشر [٧ هـ]، بفضل ما يقوله الكاتب العبري تنهون المقدسي، في شرحه مدوّنة ٱبن ميمون، حول كلمة پيثمون pizmōn:

«"لا ترد هٰذه الكلمة، لا في مدوّنة ٱبن ميمون ولا في المِشْنا. وهي تُستخدم عند وضع علامات النصوص الموسيقيّة والموشّحات، بالطريقة التالية: تُكتب في آخر كلّ مقطع كلمة پيثمون، وعندما يُغنّىٰ الموشّح، وينتهي المغنّي من أداء مقطعٍ يُردّد الجمهور المطلعَ، وهو المقطع الأوّل من المنظومة، وتُكرّر قوافيه في نهاية كلّ مقطع ـ ومن هنا جاءت تسميته ـ لأنه ٱعتبارًا من هٰذه النقطة يُطلع إلىٰ بداية المنظومة. ولهٰذا السبب هو مطلع المنظومة. ويُسمّىٰ هٰذا المطلع پيثمون، لأنه يُنشد بوصفه خرجةً كلّما ٱنتهىٰ المنشد من أداء أحد المقاطع"...».

إنّ شتيرن يُسلّم، إذن، بأنّ هٰذا النهج، المُستخدم أيضًا في أزجال الششتري، وصل إلىٰ مصر مع الموشّحات العبريّة القادمة من الأندلس. وبما أنه كان، فضلًا عن ذلك، مُستخدمًا في قشتالة، لذا يجوز التسليم، دونما كبير صعوبة، بأنه نشأ في الأندلس.

أمّا المثال الثاني، الذي لا يدخل في تقنيّة الغناء، فيتعلّق بٱسم أغنيةٍ عربيّة لا بدّ أنها كانت دارجةً جدًّا في [الجانب المسيحي من] إسبانيا، لأنها ٱنطلقت منه لتنتشر في أوروبة. ويتعلّق الأمر بالأغنية المسمّاة: *Calvi vi calvi, calvi aravi* [قلبي بِـ قلبي، قلبي عربي][24]، التي يظهر أقدم ذكرٍ لها عند رئيس كهنة [منطقة] هيتا (المقطع ١٢٢٩) الذي يقول:

الرباب الصخّابة بنغمتها العالية
و"كابيل ال أورابين"، مُصْدِرًا صوته الكسير
ومعهما السنطير أعلىٰ من التلّة
وينضمّ الكمان الأوسط إلىٰ هٰذه الموسيقىٰ الناشزة

يثبت گارثيا گوميث، بعد دراسة التنويعات كلّها، أنّ عبارة "كابيل ال أورابين" تعني:

قلبي يحيا في قلبٍ آخر
لأنّ قلبي عربي

وتمتلك المَغلَم اللازم كي تُشكّل خرجة.

وكثيرًا ما يُدرج أحد الأمثال بدلًا من الخرجة، كما يجري، أحيانًا، في الشعر العربي التقليدي والشعبي. ويصعب التأكّد من نشوء الأمثال المتعادلة الموجودة في الأشعار الغنائيّة العربيّة والأوروبيّة عن أصل واحد. فمن المدهش، مثلًا، أن نقع في "طوق الحمامة"، وهو كتاب تقليديّ مجازيًّا، علىٰ مَثَلٍ يتعلّق بكلب البستاني، نُظِم

• "طوق الحمامة.." (مكّي، ١٩٨٥): ٨٢.

والآريُّ: محبس الدّابة من كلبٍ وغيره. وقوله كالكلب لا يعتلف ولا يُخلّي غيره يعتلف، كان ولا يزال يجري مجرىٰ الأمثال في الأقطار العربيّة بصورٍ مختلفة، وهو في المغرب: كلب الورد لا يشمّ ولا يخلّي أحد يشمّ! وفي الشّام قولُ يُماثيه: لا يستفيد ولا يخلّي غيره يستفيد! وفي الإسبانيّة اليوم: كلب الجِنان لا يأكل ولا يدع سيّده يأكل! *(Como el perro del hortelano que ni come ni dega comer a su amo!)*.

شعرًا، وٱستُشهد به في وصف شابّين مغرمين بمحبوبٍ واحد يُراقب كلٌّ منهما الآخر [المثل بالأحرف المائلة]:

صَبّان هَيمانان في واحدٍ — كلاهما عن خِدْنه مُنْحرِفْ
كالكلب، في الآريِّ، لا يعتلفْ — *ولا يُخلّي الغَيْر أن يعتلفْ*

وفي الشعر الشعبي، نجد المثل القائل:

«من شَبَهْ وِلْدُ ما ظَلَمْ
لم يَرِث خَصْل مِنْ بَعِيد»

وقد ٱستخدمه ٱبن قزمان (١٠٦، ٦) في مدح ٱبن رشد:

رفيع الهمّ هُـ نـزيـهْ
كلّ مَولا غُلام يَجِيهْ
وخصال ولْدُ خلْقَ فيهْ
مَن شَبَهْ وِلْدُ ما ظَلَمْ
لم يَرِث خَصْل مِنْ بَعِيدْ

يبدو، إذن، أنّ ما يُثبت أنّ بعض هٰذه الأمثال كان معروفًا، آنفًا، في القرن الخامس عشر [٩ هـ] في كلا الشِّعرَين الغنائيّين، هو أنّ عبد العزيز الأهواني وجد واحدًا وعشرين مثلًا مشتركًا في أعمال كلٍّ من مركيز دي سانتيانا والغرناطي ٱبن عاصم.

وهناك صنفٌ على حدة، مشتقٌّ من الزَّجَل، هو الڤيانْثيكو villancico*. وتكتسب أهمّيّةً خاصّة، ضمن هٰذا الصنف، أغاني عيد الميلاد التي ظهرت في الأدب القشتالي مع الأغنية التي ألّفها گوميث مانريكه حوالي ١٤٧٠م، وعنوانها: "أغنية لتهدئة الطفل":

* نُشير إلى أنّ حرف v يُلفظ بالإسبانيّة باءً تقريبًا.

آهدأ، يا ربّ
يا مخلّصنا
لأنّ الملك
لا يدوم إلّا قليلا.

آهدأ، يا ولدي الصغير.
يا ملائكة السماء،
تعالَيْ وقدِّمي السلوىٰ،
لهٰذا الطفل الصغير
يسوع، الجميل جدًّا.
آهدأ، يا ولدي، يا طفلي الصغير جدًّا.

ولٰكنّ هٰذا الصنف من المنظومات له ما يُوازيه في العالم العربي ـ الإسباني، علىٰ الأقلّ منذ القرن الثالث عشر. ولٰكنّ العلّة هي أنّ أغاني الڤيانْثيكو العربيّة التي نحتفظ بها منذ القرن الرابع عشر، أغاني ٱبن الخطيب مثلًا، كانت مكتوبةً بالعربيّة الفصحىٰ، وهي متصنّعةٌ إلىٰ أقصىٰ حدّ[25]، ولهٰذا السبب لا تُفيد لإجراء مقارنةٍ مع أغاني الڤيانْثيكو المسيحيّة. ولٰكنّ ملاحظاتٍ عدّة صدرت عن السّلْمي **Salmi** تسمح بأن نفترض بأنّ أغاني الڤيانْثيكو هٰذه إنما هي ٱستمرارٌ أومحاكاة (وليس العكس) لأغانٍ أخرىٰ أبسط كُتبت بالعربيّة المحلّيّة، ومن ثَمّ، بوزنٍ قائم علىٰ المقاطع الصوتيّة. وعلىٰ هٰذا النحو فقط، يُمكن تفسير ٱستخدام بحورٍ تتّسم بقلّة الفخامة، مثل الرجز، أو أن يُحذَف مقطعان صوتيّان طويلان ويستبدل بهما مقطعٌ صوتيٌّ قصير، والعكس صحيح. ويُشار، فضلًا عن ذلك، إلىٰ أنّ أغانيَ عدّةً تتّخذ شكل موشّح. ويبدو أنّ أقدم المخطوطات [ممّا كُتب] باللهجة المحلّيّة يرقىٰ إلىٰ القرن السادس عشر [١٠ هـ]، الأمر الذي لا يعني أيَّ شيء يخالف ما أشرنا إليه، لأنه من المعلوم أنّ العرب كانوا، في جميع العصور، لا يميلون إلّا قليلًا إلىٰ تدوين لهجاتهم، وكانت أغاني الڤيانْثيكو هٰذه تُغنّىٰ في المغرب، أثناء القرن السادس عشر، مصحوبةً بموسيقىٰ أندلسيّة.

ومقابل التيّار الشعبي، الذي يُمثّله ظهور أغاني الڤيانْثيكو في القرنين

الثالث عشر والرابع عشر، نجد التيار المتحذلق، المترع بالقواعد والمزوّد بتراثٍ غنيٍّ متصنّع الكلام، يعمل على رواج تفنُّناتٍ أدبيّة مختلفة ظهرت فيما بعد في الآداب الغربيّة، اعتبارًا من عصر النهضة، وقد يكون ذلك، نتيجةً لتطوّر النزعة الإنسانيّة وإعادة اكتشاف كلٍّ من الآداب اللاتينيّة واليونانيّة. ولكن، بالرغم من كلّ شيء، قد تكون هناك، في بعض الحالات الخاصّة، صلةٌ لبلاغة عصر النهضة بالبلاغة العربيّة في عهد دولة بني نصر الغرناطيّة. ولهذا السبب، فليس من فائض القول أن نُلقي نظرةً سريعة على التجديدات الأدبيّة التي حصلت في غرناطة المسلمة، والتي قام صوليداد جيبر بجرد قسم كبير منها، استنادًا إلى ديوان ابن خاتمة المَرِيّ [نسبةً إلى مدينة المَرِيّة]. من ذلك مثلًا، الأبيات المتسلسلة، التي ربّما يعود إلى الأدب الأندلسي الفضلُ في إدخالها إلى العالم اللاتيني في القرون الوسطى، انطلاقًا من النّواة السّنسكريتيّة، وقد بيّن ابن حزم التقدير الذي شهده هذا التفنُّن، في كتابه "طوق الحمامة" (الفصل الثاني)، إذ قال:

كأنّي وَهِيْ والكأسَ والخمرَ والدُّجى ثَرىً، وحَيَا، والدُّرُّ، والتِّبْرُ، والسَّبَجُ*

ويُعلّق ابن حزم على هذا التشبيه الخماسيّ في بيت واحد، قائلًا: «فهذا أمرٌ

* "طوق الحمامة.." (مكّي)، ٣١.

والبيت من البحر الطويل. وضرورة الشعر ألزمت تسكين الياء في "هي" (التي كانت قد ألزمت الضرورةُ، أيضًا، استبدالَها بـ"إيّاها") وتخفيف الهمزة في "حياء". والسّبَج هو الخَرَز الأسود. والبيت هو الثالث لبيتين تقدّماه:

خلَوْتُ بها، والراحُ ثالثةٌ لنا وجُنحُ ظلام الليل قد مدَّ وابلجْ
فتاةٌ، عَلِمْتُ العيشَ إلّا بقربها فهل في ابتغاء العيش ـ ويحكَ! ـ من حَرَجْ؟

ويقول الصديق الدكتور محمّد علي دقّة (أستاذ الأدب العربي في جامعة الفاتح ـ طرابلس، ليبيا): إنّ الشاعر استخدم ضمير الرفع المنفصل (هي) بدل ضمير النصب (إيّاها)، ولم أقف ـ يقول ـ على جواز ذلك في "ما يجوز للشاعر من الضرورة" للقزّاز القيرواني (تحقيق رمضان عبد التوّاب ومَن معه، الكويت: مكتبة دار العروبة، ١٩٨١) ولا في "ضرائر الشعر" لابن عصفور (تح. السيّد إبراهيم محمّد، بيروت: دار الأندلس، ١٩٨٠).

لا مزيد فيه، ولا يقدر أحدٌ علىٰ أكثر منه، إذ لا يَحتمل العروضُ ولا بنية الأسماء أكثرَ من ذٰلك!».

ويبدو وكأنّ ٱبن خاتمة يُناقض ٱبن حزم، وذٰلك بتوصّله إلىٰ تشبيهٍ "ستّ عَشَريّ"، إنما ٱحتاج، لهٰذه الغاية، إلىٰ ٱستخدام ثمانية أشطر:

فصدّتْ، وقالت: ما لِطَبْعكَ قد جفا؟ وأيّ رياضٍ تبتغي بعدما أبدو؟
وفِردَوسُها والقُضب والعَرف والنّدىٰ وأوراقُها والوُرق والكُتْب والرّندُ
وخَضرتُها والراح والنُّقْل والغِنا ونرجسُها والزّهر والآس والوردُ
ثيابي وأعطافي ونَشْري ونِغمتي وقُرْطي وحَلْيي والرّوادفُ والقَدُّ
ووجهي وريقي والنُّهود ومَنطِقي ولَحظي وثَغْري والغرائر والخدُّ*

فهو، كما نرىٰ، لم يتوصّل إلىٰ إدراج تشبيه خماسي في بيتٍ واحد، العدد الذي ٱعتبره ٱبن حزم حدًّا أقصىٰ.

وظهرت، نتيجةً للجناس، القافيةُ المقرونة بصدًىٰ، وفي هٰذه الحالة من النظم تكون القافية إمّا مماثلةً أو مشابهة للقافية الواردة قبلها مباشرة، أو تكون محاكيةً لرجع صدًىٰ حقيقيٍّ يُردِّد فقط الجزء الأخير من القافية السابقة، كما في أبيات بالتازار دي الكاثار:

العاشق: وجدتُ نفسي في هٰذا المكان
حين ٱنفصلتُ عن حبيبة قلبي
أودّ أن اعرف ما يَحُلّ بي
إذا لم يَحُلِ القدر دون ما أسأل
الصدىٰ: ٱسأل!

• "ديوان ٱبن خاتمة الأنصاري الأندلسي"، تحقيق الدكتور محمّد رضوان الداية (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٧٣)، ١٠٥.

العاشق: أخشىٰ التجدُّد أو التغيُّر
وهو ثمرة الرحيل
لٰكن مَن قال لي أن أسأل، مَن ردّدَ
وبعباراتٍ جافّة إلىٰ هٰذا المدىٰ؟

الصدىٰ: صدىٰ...

Galán: ***En este lugar me vide***
cuando de mi amor partí;
quisiera saber de mí
si la suerte no lo *impide.*

Eco: *Pide.*

Galán: ***Temo novedad o trueco***
que es fruto de una partida;
mas¿ quién me dijo que pida
con un término tan *seco?*

Eco: *Eco.*

وقد سبق لهٰذا التفنُّن أن ظهر في موشّح لأبي الحسن بن نزار القادسي (القرن الثاني عشر [٦هـ]) وعند ابن خاتمة، ولٰكن أصوله ترقىٰ إلىٰ القرن التاسع [٣ هـ] علىٰ الأقلّ، لأنّ الشاعر المشرقيّ البحتري قد استخدمه،

وكم سبقتْ منها إليّ عوارفٌ ثَنائيَ من تلك **العوارف** وارفُ
وكم غُرَرٍ مِن بِرِّه ولطائفٌ لِشَكوىٰ [!] علىٰ تلك **اللطائف طائفُ** *

* هٰكذا وردت عند ڤيرنيت، في نصّها العربي المكتوب بالحرف اللاتيني: لشكوىٰ **li-šakwā**، وقد قرأها الدكتور مختار هاشم، بحقّ: لَشُكْري!

ولم نقف علىٰ هٰذين البيتين في "ديوان البحتري" (خمسة أجزاء)، الذي حقّقه حسن كامل الصيرفي، ط٣ (القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٧٨).

ويستبعد الدكتور أحمد عبد القادر صلاحيّة (أستاذ الأدب الأندلسي بجامعة البعث، بحمص) أن يكون هٰذان البيتان للبحتري!

وهناك نوعٌ من فنّ الصدىٰ يتمثّل في الشعر القائم علىٰ الترابط المتسلسل، الذي يُقدّمه رئيس كهنة [منطقة] هيتا في أناشيد مديح العذراء مريم (كتاب الحبّ الصالح، ١٦٧٣، وما يلي):

أيّتها القدّيسةُ العذراء
المصطفاةُ من الله أمًّا محبوبةً بسخاء
الممجّدةُ في السماء
في عالم السّلْم والحياة

في عالم السّلْم والحياة
من الموت والفناء
المحبوّة بالنعمة بأجزل عطاء
للمعذّبين الخلاص والهناء

من هٰذا الألم الذي يُضنيني
دونما استحقاقٍ، في السجنِ
تكرّمي عليّ بحمايتك
بفضل وساطتك

بفضل وساطتك
غاضّةً الطّرف عن آثامي

ونجد النوع نفسه من الربط المتسلسل في موشّح لابن خاتمة:

يا نسيمًا قد هبّ من نَجْدِ   وسرىٰ بالخِيامْ
بحياةِ الهوىٰ علىٰ العَتْبِ   **كيف بدرُ التّمامْ؟**

كيف بدرُ التّمامْ؟ حدِّثْني   بالرّضىٰ، يا نسيمْ
هل تسلّىٰ بِنَأْيِهِ عنّي؟   أم هواه مُقيمْ؟
وعَلِيمِ الغُيوبِ، لا أَثْني   عنه وُدّي الكريمْ!

ما جَرَتْ فوق وجنة الوردِ   عَبَراتُ الغَمامْ
وتثنّت معاطفُ القُضْبِ   لِغناء الحَمامْ

لِغناء الحَمام في قلبي رِقَّةٌ ونُحُولْ
[ذكَّرتْني معاهدَ القُرْبِ والزَّمانَ الوَصُولْ
إنْ تَحُلْ، يا مُنايَ، عن حبّي إنني لا أَحُولْ]*

من البدهيّ أنه يصعُب جدًّا تحديد آليّات انتقال هذه التفنُّنات الأدبيّة، ومعرفة ما إذا كان الأمر يتعلّق بظاهرةٍ قائمة على "وجود صلة" وليس على "نشوءٍ مستقلّ". ويزداد الأمر صعوبةً كلّما ارتقينا نحو الماضي. لذلك لا يمكن العمل إلّا بالقياس ـ مع كلّ ما تنطوي عليه هذه الطريقة من أخطار ـ وملاحظة ما يحدث حاليًّا مع الألحان الرائجة التي تُغَنّىٰ في أرجاء العالم، مع أنه لا تُفهم في كثيرٍ من الأحيان معاني الكلمات المردَّدة، لأنها من لغاتٍ مجهولة ممّن يترنّم بها، وذلك مثلًا، على غرار ما رأيناه في أغنية *Calvi vi calvi*. ويُبيِّن ذلك أنّ الإيقاع والموسيقى، إضافةً إلى القافية والمقطع اللذين يشتملان عليهما، تنتقل كلّها انتقالًا لاواعيًا. وهذه المنظومات، لمجرّد كونها "شعبيّة"، لا تدخل في كتب أغاني الناس "الجِدّيّين" وكراريس ألحانهم.

ولا بدّ أنّ الأمر قد جرى على نحوٍ مماثل في القرنين التاسع والعاشر [٣ و٤ هـ]، وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر [٨ و٩ هـ]. ففي الحالة الأولى ـ ولا نمتلك عنها إلّا شهاداتٍ قليلةً جدًّا، شأنها في ذلك شأن تلك التي تمدُّنا بالمعلومات حول ترجمة الأعمال العلميّة ـ شكّل المستعربون عامل النقل. وفي الحالة الثانية ـ وهذه نعرفها على نحوٍ أفضل، لأنها أقرب إلينا في الزمن ـ قام بهذا الدور المدجَّنون والمرتدّون أمثال الراوية فرنانديث دي خيرينا (حيًّا ١٣٤٥م [٧٤٦هـ]) أو الفرنسيسكانيّون أمثال الأخ الراهب آلونسو دي ميّا، اللاجئ في غرناطة، أو آنسِلْم تورميدا، اللاجئ في تونس. هكذا نجد تفسيرًا لاشتمال الرومانثيرو القشتالي على قطع غنائيّة ندين بها، في آنٍ واحد، لمسلمين ومسيحيّين.

ولهؤلاء الأخيرين، ندين، على سبيل المثال، بقصيدةٍ رومنثيّة مطلعها:

* "ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي"، ١٥٦.

أيها النهر الأخضر، أيها النهر الأخضر، إنك لتجري أشدّ سوادًا من المداد...

وذلك استنادًا إلىٰ معركةٍ (١٤٤٨م [٨٥٢هـ]) وقع فيها النبيل سافيدرا أسيرًا في أيدي الغرناطيّين، وقضىٰ عدّة سنوات في الأسر.

أو القصيدة الشعبيّة التي تبدأ كما يلي:

هناك في غرناطة الغنيّة، سمعتُ عزفَ آلاتٍ موسيقيّة...

وربّما تكون قد نُظمت بعد انقضاء عدّة سنوات علىٰ معركة ألبورشونس Alporchones (١٤٥٢م [٨٥٦هـ]) التي ألهمت "بيريث دي هيتا" [رئيس الأساقفة]، ولٰكن لم يتمّ الشيء ذاته في القصيدة الشهيرة جدًّا:

ابن عمّار، يا ابن عمّار، أيها المسلم الأندلسيّ، من الأندلس المسلمة...

وهي من نظم مسلم غرناطيّ كان علىٰ اطّلاع جيّد علىٰ الشعر العربي ـ وسنرىٰ ذلك توًّا ـ ويُتقنُ القشتاليّة، وقد استلهم من واقعةٍ حصلت عام ١٤٣١م [٨٣٤هـ]: انتقال الأمير الملكي النَصْري، ابن الأحمر، إلىٰ صفوف خوان الثاني، قبل معركة هيگويرويلا بأربعة أيّام.

وقد أعاد سيكو دي لوثينا تركيب النواة الأوّليّة لهٰذه القصيدة الشعبيّة التقليديّة كما يلي:

ـ *"ابن عمّار، يا ابن عمّار! أيها المسلم الأندلسي، من الأندلس المسلمة* ٥

ما هٰذه القصور؟ ما أعلاها! ما أشدّ تألُّقها!"

ـ *"كان قصرَ الحمراء، أيها السيّد، والآخرُ المسجدَ*

والمعالمُ الأخرىٰ الأرباضَ المحروثة علىٰ أفضل وجه

المسلمُ الأندلسي الذي حرثها، كان يكسب مئة مسكوكة في اليوم ١٠

والمَعْلَمُ ذاك كان غرناطة، غرناطة المكرّمة بالنُّبل،
بفرسانها الكُثْر، وجموع رُمَاتها"

عندئذ تكلّم الملك خوان، فلْتُنصِتوا جيّدًا لما قال:

- "غرناطة! لو شئتِ، لكنتِ أنتِ مَن تزوّجتُ
ولأعطيتُكِ، مهرًا وصَداقًا، قرطبة وإشبيلية"

- "متزوّجةٌ أنا، أيها الملك خوان، متزوّجةٌ أنا، ولست أرملة.
المسلم الأندلسي، الذي يمتلكني، كان يبتغي لي أعظم الخير".

تتّصف الأبيات ٩ـ١٢ بأنها شرقيّةٌ على نحوٍ نموذجيّ، لأنها تُقدِّم المدينة بوصفها عروسًا، على غرار ما في البيتين التاليين لشاعر غرناطي:

غـرنـاطـةٌ، مـا لها نـظـيرٌ ما مصرُ! ما الشامُ! ما العراقْ!
ما هِيَ إلّا العروسُ تُجْلىٰ وتلك من جُملة الصَّداقْ*

ويتمّ الشيء ذاته فيما يتعلّق بنعت غرناطة بالنُّبل [ذات المنزلة الرفيعة].

لئن توافرت لدينا، في هذه الحالة (القرن الخامس عشر [٩ هـ])، شهادةٌ عن وجود شاعرٍ واحد على الأقلّ، مزدوِج اللغة، فليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بعدم وجود أمثاله في القرن العاشر أيضًا.

* "نفح الطيب..."، ١، ١٤٨.

وتشبيه المدينة بالعروس نجده، قبل ذلك، عند المعتمد بن عبّاد في قوله، بعد أن ضمّ قرطبة إلى ملكه (٤٦٢ هـ):

خَطَبْتُ قرطبةَ الحسناءَ، إذ مَنَعَتْ مَن جاء يخطُبها، بالبِيض والأَسَلِ

ديوان "المعتمد بن عبّاد"، جمع وتحقيق الدكتور رضا الحبيب السويسي (تونس: الدار التونسيّة للنشر، ١٩٧٥)، ١٠٥.

حواشي المؤلّف

1. راجع كتاب "المقتبس من أنباء أهل الأندلس" لآبن حيّان، حقّقه الدكتور محمود علي مكّي، بيروت [دار الكتاب العربي]، ١٩٧٣م/ ١٣٩٣هـ، ص ١٣٨.

[يقول آبن حيّان:

«وكان أوّلَ من سَنَّ، لكُتّاب السلطان وأهل الخدمة، تعطيلَ الخدمة في يوم الأحد من الأسبوع والتخلّف عن حضور قصره [قصر الأمير]، "قومس بن أنتُنيان" كاتبَ الرسائل للأمير محمّد، وكان نصرانيًا، دعا إلى ذلك لنُسكه فيه، فتبعه جميعُ الكتّاب طلبَ الآستراحة من تعبهم والنظر في امورهم، فآنتحوا ذلك، ومضىٰ إلى اليوم عليه [القرن الخامس هـ]...].

2. تجدر الإشارة، بهذا الخصوص، إلىٰ الفقرة الواردة في "الذخيرة" والتي يقول لنا فيها [آبنُ بسّام]، في معرض الحديث عن "السّيد"، صاحب بلنسية [هو الفارس القشتالي **Rodrigo Diaz de Vivar** وقد آشتهر بآسم **El Cid campeador**، عرفه الأندلسيّون بآسم "رذريق" و"السّيد" و"الكنبيطور"، عاش مع الأندلسيّين وأقام بينهم زمنًا، قبل أن يُتاح له الغدر بهم!]، ما يلي:

«وكان ــ زعموا ــ تُدرَس بين يديه الكُتُبُ، وتُقرأ عليه سِيَر العرب، فإذا آنتهىٰ إلىٰ اخبار المهلّب [ابن أبي صُفرة، من شجعان العرب، ت ٨٣هـ/ ٧٠٢م] آستخفّه الطرب، وطفق يُعجَبُ منها ويتعجّب» ["الذخيرة.."، تح: د. إ. عبّاس، القسم الثالث: ١٠٠].

ولقد كانت هناك قواعد مشترَكة بين الشرق والغرب ذات طابع أخلاقي. فالتفسير الذي يُقدّمه جيرار دي ڤيان لآبنه أيمري الذي يريد قتل شارلمان، شبيهٌ بالذي يُعطيه عنترة لآبنه غضبان الذي حاول قتل خسرو كي يستولي علىٰ العرش. فكلا التفسيرين يقومان علىٰ آعتبار المَلَكيّة، تقريبًا، حقًّا إلهيًا.

3. يقول المحاسني «وعندي أنّ كلّ شعرٍ، طال أو قَصُر، وقد وُصِفَت فيه المعارك، وسُرِدَت فيه أخبار البطولة، ورُوِيَتْ فيه ملاحم الجِلَاد، هو شعر الملاحم»، نقلًا عن كتاب سامي الكيّالي "الأدب المعاصر في سورية" (القاهرة، ١٩٧٢) صص ٣٨٤ـ٣٨٥ [وقد نقلناه عن المصدر: زكي المحاسني، "شعر الحرب في أدب العرب، في العصرين الأمويّ والعبّاسيّ إلىٰ عهد سيف الدولة" (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٧)، ١٦].

4. من وجهة النظر العربيّة، قارَنَ محمّد رجب البيومي أرجوزة ٱبن عبد ربّه بأرجوزة ٱبن المعتزّ (ت ٢٩٥هـ/ ٩٠٨م)، في مقاله "بذرة الملاحم العربيّة في الأندلس"، [المنشور في مجلّة] الأديب، ٢٤، ٣ (١٩٦٥)، صص ٢٢ـ٢٧. ويرىٰ بعضُ النقّاد نظمَ أبي طالب عبد الجبّار، وهو شاعر من عصر ملوك الطوائف، نشيدًا ملحميًّا.

5. راجع مقالة ب. كونيتش "أسماء الكواكب السيّارة في [ملحمة] پارزيڤال" المنشورة في *ZDS*، ٢٥، ٣ (١٩٦٩) صص ١٦٩ـ١٧٤. فقد أعطت كلمة "القمر" العربيّة كلمة *Alkamer* وكلمة الكاتب "عطارد" كلمة *Alkiter* وكلمة "شمس" كلمة *Samsi* وكلمة "المرّيخ" كلمة *Almaret* وكلمة "المشتري" كلمة *Almustri* وكلمة "زُحَل" كلمة *Zvāl*.

6. طريقة في نظم الشعر تقوم علىٰ توحيد القافية في شطري البيت، مُشكِّلَةً سلسلةً زوجيّة القوافي، تطول بقدر ما يقتضي الحال. وهي تعادل طريقة "المثنوي" الفارسيّة، وقوافي القصيدة اللاتينيّة مقفّاة الأشطار في القرون الوسطىٰ.

7. نشر أ. گالمس القصّة الموريسكيّة (رومنثيّة اللغة، عربيّة الخطّ)، (أوڤيدو، ١٩٦٧). وهي تُبيّن بوضوح التأثير الشيعيّ علىٰ أصل الرواية البدائيّة في الفروسيّة العربيّة، وفق ما أشار إليه ر. باريه.

وقد ٱستطاع أ. سيروللي، من جهته، (Meriggi ١٩٦٩)، أن يلاحظ أنّ أحد هٰذه الأحداث كان معروفًا في ألمانيا في أواسط القرن الرابع عشر.

8. كانت تُمارس، فضلًا عن ذٰلك، لدىٰ العرب ـ ومن ثَمّ في الأندلس ـ لعبة الصولجان، وهي من منشإٍ فارسيّ، ولم تنتقل إلىٰ سائر أوروبة.

9. في العهد المملوكي (مصر، ٱبتداءً من ١٢٦٠م [٦٥٨هـ])، كانت لعبة الورق معروفة، فقد تمّ العثور علىٰ "شَدّة ورق"، تعود إلىٰ ذٰلك العهد. راجع عمل ل. أ. ماير "المملوك ممارسًا لعبة الورق" [ليدن، ١٩٧١...]. وبه يثبت ٱشتقاق الكلمة القشتاليّة *naipe* (من العربيّة:

نائب ملك السيوف... إلخ) والأصل المشرقيّ للّعبة. وتشتمل الشدّة على الكُبا، والديناري، والبَستوني، والسّباتي، وعلى الملك والوزير.

ويؤكّد هٰذا قولَ جيوڤاني دي لوزو، ومفاده أنه «في عام ١٣٧٩ وصلت إلى ڤيتيربو لعبة الورق، وكان مصدرها بلاد المسلمين، ويسمّونها نائب». وكانت معروفة، قبل ذٰلك، في إسبانيا، تدلّ على ذٰلك إجراءاتُ الحَظْر التي اتُّخذت بشأنها في نهايات القرن الرابع عشر...

10. راجع مصنّف عبد الواحد المراكشي "كتاب المعجِب" (وقد ترجمه إلى القشتاليّة أ. هويسي، تطوان، ١٩٥٥)، صص ٩٢ـ٩٤.

11. نجد هٰذه الموضوعة مفصّلةً في العصور القديمة في قصّة أوريا [الحِثّي] (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الحادي عشر) وفي أسطورة بيليروفون الكورنثيّة.

12. يُسمّى أحيانًا ٱبن الكناني [بالنون]. وقد ٱكتُشفتْ حديثًا مختاراته حول الأدباء الأندلسيّين.

13. إلى جانب ممارسة الطبّ، ٱنصرف إلى ٱقتناء الجواري، فكان يعمل على تربيتهنّ، ثمّ يبيعهنّ بأثمانٍ باهظة.

14. كان مبتكر الموشّح مُبصِرًا، خلافًا لما كان يُعتقد في البداية. وفي شأن هٰذا الخلط، راجع مقال إ. گارسيا گوميث "حول ٱسم وموطن مؤلّف الموشّحة"، مجلّة الأندلس، ٢ (١٩٣٤)، صص ٢١٥ـ٢٢٢، ومقال عبد العزيز الأهواني "حول ٱبتكار الموشّح"، مجلّة الأندلس، ١٣ (١٩٤٨)، صص ٢٨ـ٣١، ومقال إ. تيريس "ٱبن فرج الجيّاني"، مجلّة الأندلس، ١١ (١٩٤٦) ص ١٥٢، رقم ٢.

15. وهٰكذا يقول لنا أ. گونزاليث پالنثيا في كتابه "تاريخ الأدب الإسباني" (برشلونة، ١٩٢٨) ص ١٠٤: إنّ «الموشّح منظومة تتناوب فيها القوافي على نسق **güexah**، أي على نسق طوقٍ مكوّن من صفّين من الدرّ من ألوان مختلفة، يُلمحان إلى تركيب القوافي. ويتعلّق الأمر، في الواقع، بالصنف الفنّي ذاته. ولٰكن "الزَّجَل" يُطلق على المنظومات الأكثرِ شعبيّةً، التي تُستخدم فيها اللهجة الأكثرُ عاميّةً، وتُغنّى في الطُّرقات. أمّا كلمة "موشّح" فهي رفيعة، وتُطلق على المنظومات من صنف الزَّجل، وتستخدم فيها اللغة الفصحى».

16. راجع، في شأن التسلسل الزمني لهٰذين النوعين، الآراء الحصيفة لـ ج. هيلتي [في كتابه] "شعر المستعربين" (*Henry*، ١٩٧٠)، صص ٨٥ـ١٠٠، ورأيه (ص٩٩) القائل بأنّ التطوّر «يعمل على تلاشي الموشّح والإفضاء إلى الزَّجل».

17. "ديوان *El cancionero* ٱبن قزمان" (مدريد، ١٩٣٣). ويتعيّن ٱتّخاذ الحذر الشديد في ٱعتماد هٰذا الإصدار، لأنّ الناشر سعىٰ إلىٰ ضبط النصوص المدوّنة بالعربيّة الأندلسيّة الدارجة دون أن يستخدم معيارًا ثابتًا ودقيقًا.

18. راجع مقال خ. م. مِيّاس "حول أقدم الأشعار في اللغة القشتاليّة" في [مجلّة] *Sefarad* ٦ (١٩٦٤)، صص ٣٦٢-٣٧١. وتكمن الصعوبة الأساسيّة في فَهْم "الخَرْجة"، في أنّ هٰذه تُكتب بأبجديّة ساميّة (عربيّة، عبريّة) لا تشتمل علىٰ الحروف الصوتيّة التي هي ضروريّة جدًّا للتعبير بأيٍّ من اللغات الرُّومنثيّة. لذٰلك، ترد بوصفها مجرّد سلسلةٍ من الحروف غير الصوتيّة، ويتحتّم علىٰ القارئ أن يسدّ النقص، مستعينًا بمعارفه في فقه اللغة، وبمدىٰ مهارته في حلّ الألغاز، وصولًا إلىٰ الحروف [الصوتيّة] الناقصة. وعلىٰ سبيل المثال (وهٰذا لا علاقة له إطلاقًا بالخَرجات)، إذا ما حاولنا أن نقرأ الزمرة **ms** [حرفان غير صوتيّين] رأينا عددًا كبيرًا من التركيبات الممكنة [بإضافة أحرف صوتيّة]: **masa**، **mesa**، **misa**، **mosa**، **musa**، **mes**، **mas**... إلخ.

19. يلخّصها إ. گارثيا گوميث في مجلّة الأندلس، ٢١، ١٩٥٦، ص ٣١٣، علىٰ النحو التالي:

١. أن يتركّز الموشّح كلّه حول الخرجة التي تقوم مقام الٱستهلال أو الإعداد له؛

٢. أن تكون الخرجة بلغةٍ مباشرة وموضوعة علىٰ لسان كائنٍ ما، سواءٌ أكان شخصًا، أم حيوانًا، أم موضوعًا مشخّصًا؛

٣. أن تكون الخرجة باللغة العربيّة العاميّة، أو باللغة الرُّومنثيّة [عجميّة الأندلس]، وذٰلك وفق قول ٱبن بسّام؛

٤. أن توضع الخرجة قبل نظم بقيّة الموشّح الذي ينبغي له، بعدئذ، أن يتوافق مع إيقاعها الملزِم، وذٰلك وفق قول ٱبن بسّام، ومفاده أنّ الموشّح يُبنىٰ علىٰ المركز (أي الخرجة)؛

٥. إنّ بعض الشعراء في الزمن الأخير (كتب المؤلّف ذٰلك في النصف الثاني من القرن الثاني عشر [٦ هـ])، نظرًا لعجزهم عن وضع خرجة جيّدة، فإنهم يقتبسون خرجة من غيرهم، وهٰذا أفضل ممّا لو وضعوا هم خرجة أخرىٰ أضعف.

20. راجع كتاب ج. هيلتي "شعر المستعربين..." ص٨٧، ن، حيث يخلص إلىٰ ما يلي:

١. تبلغ النسبة المئويّة للألفاظ العربيّة ٢٧ بالمئة فقط، وذٰلك إذا ما أخذنا بعين الٱعتبار كلمات الخرجات جميعا (٧٧١، منها ٢١٥ عربيّة). ولٰكن النسبة

المئوية تُصبح أكبر، إذا ما أعتبرنا قائمة الخرجات مجموعةً وحيدة، ولم نحسب إلّا مرّةً واحدة كلّ عنصر من عناصرها (نحصل علىٰ ٢٨٥ كلمة، منها ١٢٩ كلمة عربيّة، أي أنّ النسبة تبلغ ٤٥ ٪)؛

٢ـ لا يتمّ، بوجه العموم، ظهور العناصر العائدة لكلٍّ من اللغتين علىٰ نحوٍ منعزل، وإنما في زُمَر. فمن بين ٢١٥ كلمة عربيّة، ثمّة ٨٥ في زمر من ٤ كلمات أو أكثر، و٣٠ في زمر من ٣، و٥٠ في زمر من كلمتين، ولا توجد سوىٰ ٥٠ كلمة منفردة، أي محاطة بكلمات رومنثيّة.

21 تكون الخرجات، في حدّ ذاتها، متساوية المقاطع اللفظيّة، وترد، مثلًا، في أبيات مكوّنة من ٧، ٨ و١٢ مقطعًا. ومن ثَمّ، قد يكون الشعر الشعبي الإسباني ذا أصل غنائي، لا ملحمي، حسبما أفترض سيخادور. راجع كتاب ر. بايير "الوجيز في علم العروض الإسباني" (مدريد ١٩٧٣)، صص ٢٠٩ـ٢١٢.

22 راجع "صفحة رائعة للتيفاشي، وفرضيّة حول أبتكار الزّجل"، ٢ (١٩٦٢، ليفي بروفنسال) صص ٥١٧ـ٥٢٣، وقد أعاد نشر ذلك في "أبن قزمان، كاملًا" ٣ (مدريد ١٩٧٢)، ص ٣٥.

23 نقلًا عن المقّري في "نفح الطيب"، ٣ (بيروت ١٣٣٨هـ/ ١٩٦٨م) صص ٦١٦ و٦١٧. يُشير النصّ إلىٰ بابَيْ كُورٍ ينفتحان وينغلقان علىٰ نحوٍ متّسق، ويسمحان بمشاهدة وميض النار، تبعًا لأنفتاح أحدهما أو الآخر، إلىٰ أن لا يبقىٰ، في لحظة معيّنة، سوىٰ باب واحد مفتوح.

24 راجع مقالة گارسيا گوميث "الأغنية المشهورة *calvi vi calvi, calvi aravi*"، مجلّة الأندلس، ٢١ (١٩٥٦، صص ١ـ٨).

25 أنظر أحمد سلمىٰ في مقاله "المولوديّات في مملكة غرناطة والمغرب من القرن الثالث عشر إلىٰ القرن الحادي عشر"، المنشور في مجلّة *Hesperis*، ٤٣، ١٩٥٦، صص ٣٣٥ـ٤٣٥، وأنظر أيضًا محسن جمال الدين، في كتابه "أحتفالات الموالد النبويّة في الأشعار الأندلسيّة والمغربيّة والمهجريّة"، بغداد، ١٩٦٧، وأنظر أيضًا م. المنوني، في مقاله "المولد النبوي المريني"، المنشور في مجلّة "دعوة الحقّ" ١٢، ١، "الشريف في المغرب"، ١٣٣٨هـ/ ١٩٦٨م، صص ١١٧ـ١٣١، و"حول المولوديّات في الأدب المغربي"، المنشور في مجلّة "دعوة الحق"، ١٢، ٧، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، صص ٦٢ـ٦٥.

الفصل الحادي عشر

الأدب القصصي

الفصل الحادي عشر

الأدب القصصي

من السهل علينا أن نكشف عن علاقة الأدب القصصيّ العربي بنظيره الغربي، فيما يخصّ الموضوعات، ولٰكنه يُصبح أكثر تعقيدًا عندما يتعلّق الأمر ببِنية القصّة أو أُطُرها. فالأولىٰ ـ أي الموضوعات ـ مارست تأثيرها علىٰ نحوٍ متّصل منذ بدايات القرن الثاني عشر [٦ هـ]، إذ كتب ٱبنُ بلدة هويسكا، اليهودي موسىٰ سِفَرْدي ـ الذي تحوّل إلىٰ المسيحيّة تحت ٱسم پيدرو ألفونسو ـ مصنَّفَه باللاتينيّة المسمّىٰ "الأدب الكهنوتي" *Disciplina clericalis*، وضمّنه مجموعةً من قصص العِبَر الشرقيّة، ظهر بعضها ثانيةً، في وقتٍ لاحق، لدىٰ فيسَنْته دي بوڤيه، وخوان مانويل، وبوكاتشيو، ورئيس الكهنة في [منطقة] هيتا، وكليمنته سانشيث دي ڤيرثيال (ت ١٤٢٦م [٨٢٩هـ]) وخوان دي تيمونيدا. وقد ظهرت، فيما بعد، ترجمات:

١ـ كليلة ودمنة؛

٢ـ والسندبار، أو كتاب خُدَع النساء وحنكتهنّ؛

٣ـ وبَرْلام وخوسافات؛

٤ـ وقسمٌ علىٰ الأقل من ألف ليلة وليلة؛

ونصوص أخرىٰ عربيّة أو شرقيّة وصلت إلىٰ الغرب في القرون الوسطىٰ عن طريق الأندلس.

وهٰكذا دخلت إلىٰ الآداب الرُّومانيّة أوّلًا، وإلىٰ الجرمانيّة بعدئذٍ، نواةٌ من الموضوعات الدخيلة التي وصلت في معظمها إلينا بعدما تمّت إعادة صياغتها علىٰ مدىٰ القرون.

إنّ بعض هٰذه الأعمال تتراكب مع أعمال أخرىٰ. من ذٰلك، علىٰ سبيل المثال، السندباد *Sendebar* أو السينتيباس *Syntipas* الذي يتكوّن من مجموعةٍ من قصص "ألف ليلة وليلة" (الليالي ٥٧٨ـ٦٠٦)، وهو، من جهةٍ أخرىٰ، كتابٌ ذو كيانٍ ذاتيّ. وفي كثيرٍ من الحالات، نجد رواياتٍ مختلفةً لقصصِ عملٍ ما بعينه، أو أنّ هٰذه الأخيرة تختفي في بعض الإصدارات، ويبدو كما لو أنّ للمجموع كلّه حياته الخاصّة التي تعمل علىٰ تغييره مع توالي القرون. فإذا لم يتعلّق الأمر بنصوصٍ علميّة أو تعليميّة، فكلّ ناسخ، وكلّ مترجم، يشعر بأنه يمتلك قدرًا من الحقّ في أن يُعدِّل تفاصيل النصّ الذي بين يديه!

ويتّسم عددٌ من هٰذه المجموعات ـ من ذٰلك، علىٰ سبيل المثال، "ألف ليلة وليلة" و"كليلة ودمنة" ـ بجِدةٍ، قِوامُها الاندراج تحت إطارٍ شبيه بإطار رواياتنا المسلسلة. فالراوي يقطع سياق القصّة في نقطةٍ ما، لا تتوقّف علىٰ هٰذه القصّة، وإنما علىٰ وحدةٍ زمنيّة ما، كالليلة، أو اليوم، أو السهرة... إلخ، تترك سَيْرَ الأحداث معلّقًا، وتُبقي في الوقت ذاته اهتمام السامعين حيًّا. وعلىٰ نحوٍ مماثل، تبدو القصّة "ذات الأدراج"، أي إدخال قصّةٍ أو عدّة قصصٍ فرعيّة في ثنايا القصّة الأساسيّة التي قد ينسىٰ المرء حَبْكتها. ولا يتعلّق الأمر بقصصٍ فرعيّة وحسب، بل قد تخضع هٰذه الأخيرة أيضًا، بدورها، لتقسيماتٍ فرعيّةٍ جديدة.

وقد أصبحت هٰذه الطريقة في الأسلوب، التي لم يستخدمها في العصور القديمة سوىٰ أوفيديو في كتاب "التحوّلات"، مطروقةً في أدب القرون الوسطىٰ،

وٱستخدمها سرڤانتس [ثرڤانتس] ذاته في "دون كيخوته" (ومثال ذلك: الفضوليّ السفيه، وقصّة الأسير.. إلخ).

فلنَرَ، بإيجازٍ، بنية المجموعات القصصيّة الأربع التي ألمعنا إليها فيما تقدّم:

١ـ تضمّ "كَلِيلة ودِمْنة"[1] مجموعةً من قصص العِبَر، مأخوذة عن "پنجا تَنْترا" (أسفار [الحكمة] الخمسة)، التي ألّفها حوالي القرن الرابع أحد البراهمة ويُدعىٰ بَيْدَبا أو بِلْپاي. أمّا القصص التي تتكوّن منها "كَلِيلة" فقد جمعها في الهند بَرْزُوَيْه (بُزُرْجَمِهْر)، طبيب كسرىٰ الأوّل أنوشروان، ثمّ ترجمها إلىٰ الفهلويّة، مضيفًا إليها بعض الحكايات هنا وهناك، وٱستُمِدّ ٱسم الكتاب من الحكاية الأولىٰ، أطول الحكايات، وتروي أفاعيل أخوين من بنات آوىٰ، في بلاط الأسد، يدعىٰ أحدهما كَلِيلَة والآخر دِمْنَة، ولهٰذا الأسد ثورٌ يتمتّع بالحظوة يُسمّىٰ شَنْزَبَة. فعمد دِمنة إلىٰ الدسيسة كي يقتل الأسدُ الثور، لٰكن لم تكن النتيجة سوىٰ ٱفتضاح أمره والحكم عليه بالموت جوعًا وعطشًا في السجن.

تَرجَم ٱبن المقفّع النصّ الأصلي الفهلوي إلىٰ العربيّة بتصرّف*، وعن هٰذه الترجمة (وقد تكون هنالك ترجماتٌ عدّة أخرىٰ، ولٰكنها فُقِدت) ٱنحدرت أغلبيّة

* الواقع أنّ النصّ الذي "ترجمه" ٱبن المقفع، وبالأحرى "أبدعه"، يزيد كثيرًا عمّا في الأصل أو الأصول القديمة، فالنصّ الهندي، "أسفار الحكمة الخمسة"، يضمّ خمسة أبواب، ويضمّ النصّ الفهلوي، وكذلك السّرياني، عشرة أبواب، أمّا نصّ ٱبن المقفّع فمؤلّفٌ من ثمانية عشر بابا، أو من واحد وعشرين، حسب النصوص العربيّة المختلفة.

ولعلّ أهمّ إضافةٍ من كاتبنا ٱبن المقفّع تتجلّىٰ في الأبواب الأربعة الأولىٰ التي قدّم بها نصّه ـ وهي برُمّتها من ٱختراعه ـ مؤكّدًا أنّ الكتاب، ولنُعبّر عن مراده بمفردات عصرنا: ذو غاياتٍ سياسيّة، بل غايات تحريضيّة، وأنه دعوةٌ صريحة للمثقّفين (من فلاسفة وحكماء وعلماء وفقهاء) لأن يلتزموا بواجبهم الأدبي ويقوموا بدورهم في مواجهة السلطة المستبدّة، ولمّا كان الصراع بين السلطة والثقافة، بين السيف واللسان، غيرَ متكافئ بالضرورة، فإنّ علىٰ المثقّفين، إذن، أن يتّخذوا صنوفًا من الحِيَل لبلوغ غاياتهم، منها ـ يقول ـ «وضع الكتب علىٰ أفواه البهائم والطير»! ←

النصوص المعروفة في الوقت الحاضر، حسبما نستطيع تبيُّنَهُ في المخطط التالي، وهو ليس، بحالٍ من الأحوال، الجدول الشامل.

وقد أثّر هٰذا العمل ـ بترجماته المختلفة ـ في "كتاب العجائب" ليُول (الفصل السابع)، وفي "رواية الثعلب"، وفي "كتاب القطط"، وفي مواضع مختلفة من "كونده لوكانور"، أمثال قصص "السيّدة تروهانيا" (الورع الذي أراق العسل والسمن علىٰ رأسه، من كليلة)، وهي صياغةٌ قديمة لحكاية بائعة الحليب، و"الغربان والبوم"؛ أو في "حكاية الصقر والديك"، التي رواها الجاحظ قبلئذ وٱستخدمها تورميدا في كتابه "أغاني ٱنفصال مملكة الميورقيّين".

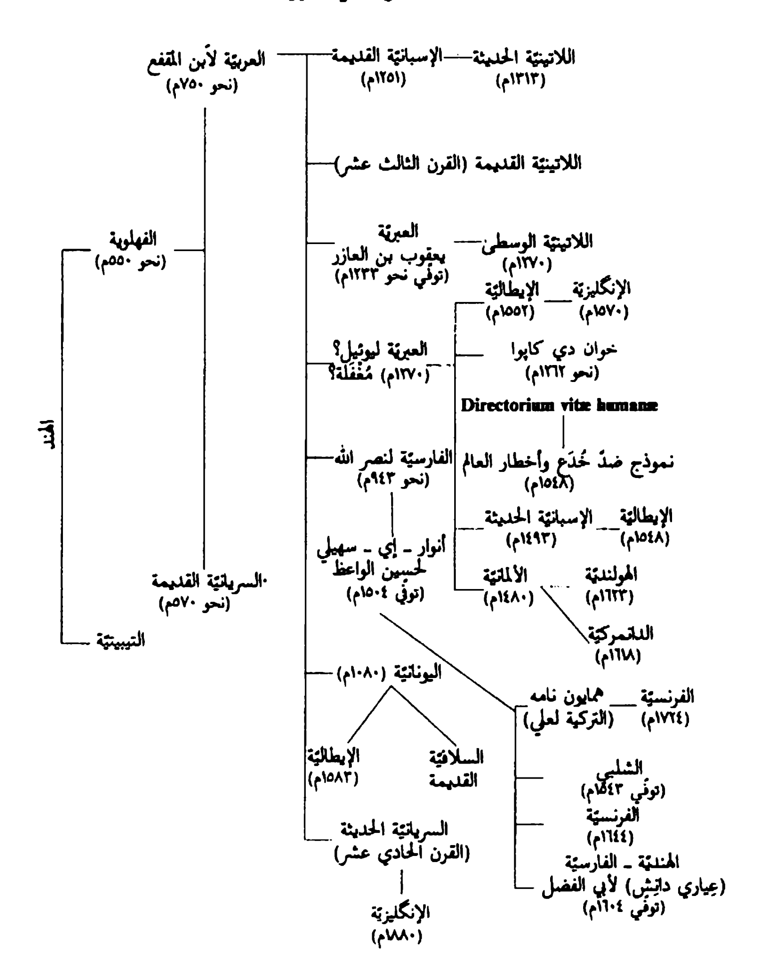
← وما كان لهٰذه المرامي أن تخفىٰ علىٰ الخليفة العبّاسي أبي جعفر المنصور، الذي أدرك أنها دعوةٌ سافرة لمعارضة حكمه، فأطلق عليه واليَهُ في البصرة ـ حيث يُقيم ٱبن المقفّع ـ الذي ٱستقدمه لمحاكمته بحجّة "الزندقة"، ثمّ بادر فقتله تلك القتلة الشنيعة (١٤٢هـ/ ٧٥٩م)... فكان ٱبن المقفّع من أوائل مثقّفي الحضارة العربيّة الإسلاميّة الذين دفعوا دمهم ثمنًا لأفكارهم الجريئة. وقد قضىٰ وهو دون الأربعين.

ذٰلك كلّه يجعل "كليلة ودمنة" كتابًا عربيًّا؛ تأليفًا وإبداعًا، شكلًا ومضمونًا، هدفًا وغاية، حسبما ذهب إليه، في السنوات القليلة الماضية، نفرٌ من الباحثين العرب، في ضوء الدراسات المقارنة، خاصّةً بعد أن تمّ العثور علىٰ الأصول الأولىٰ للكتاب التي كان قد أفاد منها ٱبنُ المقفّع، وقد نُقلت حديثًا إلىٰ العربيّة.

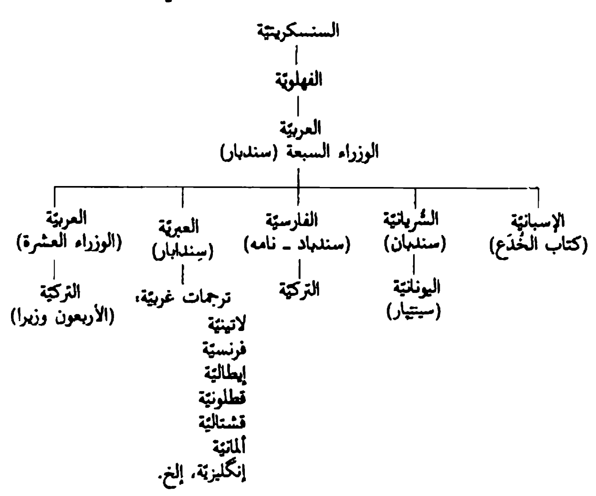
ٱنظر في ذٰلك، الدكتور محمّد رجب النجّار، "حكايات الحيوان في التراث العربي، آفاق جديدة"، مجلّة "عالم الفكر" (الكويت: وزارة الإعلام) المجلّد الرابع والعشرون، العدد المزدوج الأوّل والثاني (يوليو ـ ديسمبر ١٩٩٥)، صص ١٨٧_٢١٢.

طُبع النصّ العربيّ لكتاب "كليلة ودمنة" مرارًا وتكرارًا. وكان قد ظهر كاملًا في كتاب، أوّل مرّة، في باريس ١٨١٦، بعناية المستشرق الفرنسي سلفستر دي ساسي. وأوّل طبعاته في العالم العربي ١٢٤٩هـ [١٨٣٣م] بولاق. ولعلّ آخرها، وأحدثها، التي ظهرت في ١٩٩٤ (بيروت: مكتبة لبنان ـ ناشرون)، مؤطّرةَ الصفحات ومزيَّنةً بلوحاتٍ ملوّنة تراثيّة، ومجلّدةً تجليدًا فنّيًّا (٤٤٨ صفحة، ٢٠ × ٢٨ سم)؛ وهي الطبعة الأفخر إخراجًا وشكلًا، لولا ما شابها من أخطاء طباعيّة! وكانت قد صدرت قبل ذٰلك (القاهرة: ١٩٤١) طبعةٌ دقيقة حقّقها عبد الوهاب عزام وقدّم لها طه حسين.

انتقال «كليلة ودمنة»



٢. "السندبار"، وقد تُرجم بناءً على طلب الأمير دون فادريكه، شقيق ألفونسو العاشر الحكيم، عام ١٢٥٣م [٦٥١هـ]؛ ويُمكن إيجاز اَنتشار هٰذا الكتاب، والذي كان أقلَّ تعقيدًا من اَنتشار "كليلة ودمنة"، كما يلي:



تروي لنا الحكاية - التي تُشكِّل الإطار - وقوع محظيّة السلطان في حبّ اَبنه، وحين أخفقت في سعيها لإغوائه، اَتّهمته عند أبيه السلطان بأنه حاول اَغتصابها، فيحكم عليه الملك بالموت. ولٰكنّ وزراءه أو حكماءه (سبعة، عشرة، أربعون، حسب الروايات المختلفة)، ينجحون في تأخير تنفيذ هٰذا الحكم، حيث يقصّ كلُّ واحدٍ منهم على الملك حكايةً، نهارًا، تُبيِّن مكر النساء وخداعهنّ. وكانت المحظيّة تُدافع عن نفسها، ليلًا، فتروي له، بدورها، حكاياتٍ تدحض تباعًا حكايات وزرائه، مهدِّدةً، أحيانًا، بالاَنتحار إن هو لم يُصغِ إليها. وفي نهاية الأمر، يُكتشف كيدها وتُعاقب بالنّفي.

نجد ضمن هٰذه الحكايات حكاية "أثر الأسد" التي تعود بأصلها البعيد، فيما يبدو، إلى حادثة داود مع بَتْشَبَعَ، اَمرأة أوريا (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح

الحادي عشر) والتي أعاد الجاحظ صياغتها كالتالي: رأىٰ ملكٌ زوجة الوزير، فأغرم بها، فأوفد الوزيرَ في مَهَمّة. وفي أثناء غياب هٰذا الأخير يزور الملك زوجة الوزير، فتستقبله بٱحترام، وتُعطيه كتابًا في الأخلاق ليقرأه، ثمّ تُقدِّم له طعامَ عشاء، تسعين طبقًا، كلُّها ذاتُ طعمٍ واحد، وتُشبِّهها بقُبُلاتِ خليلات الملك التسعين. ففهم الملك الرمز وٱنسحب، لٰكنه نسي خاتمه! ولمّا عاد الوزير وجد الخاتم، فٱنفصل عن زوجته. وبعد ٱنقضاء عام، أحاطه الملك علمًا، وقال له إنّ أثر الأسد ـ الذي رأىٰ ـ لم يطأ حديقته، وأنه لن يرجع أبدا.

ٱنتقلت عناصر عدّة من هٰذه الحكاية إلىٰ الأقصوصات الغربيّة، وٱستخدمها دون خوان مانويل في "الكونديه لوكانور" (المثال الخمسون)، وفي حكايات لافونتين... إلخ.

وحصل الشيء ذاته في القصّة ٨١، المسمّاة "الأخ المرح" *Bruder lustig* للأخوين گريم، ونجد أقدم صيغةٍ عربيّة معروفة عنها في تفسير الطبري (ت ٩٢٣م [٣١١هـ]) للقرآن، وقد دخلت إلىٰ الغرب مع السندباد، وعرفها أبو بكر الطُّرطوشي (ت ٥٢٦هـ/ ١١٣١م)، وكذٰلك في شأن واقعة ليوديًا في قصّة "أورلاندو العاشق" لبوياردو (ت ١٤٩٤م [٨٩٩هـ]) التي قد تكون مستوحاةً من "شاه بخت" بقدر ما تكون مستمدّةً من حكاية "قمر الزمان وزوجة الصائغ" (الليالي ٩٦٣ـ٩٧٨ من "ألف ليلة وليلة")، ومع الأساطير الواردة في "مرض الغشّ لدىٰ فارس البجعة"، والذي ٱنتقل إلىٰ "الغزو الأكبر لما وراء البحار"، حيث يُستخدم لشرح نَسَب گودوفريدو دي بويون، وإلىٰ حكاية "البجعات الستّ" للأخوين گريم؛ وأيضًا في واقعة رطل اللحم التي خلّدها شكسبير في "تاجر البندقيّة": ينجح البطل في التخلّص من التهديد المُحدِق به، نظرًا لعجز الدائن عن ٱقتطاع رطل ـ لا يزيد ولا ينقص ـ من لحمه! وظلّت هٰذه الموضوعة حيّةً في أسطورة "أنريكه الفقير" في القرون الوسطىٰ، والتي طبعها الأخوان گريم، وٱستمدّ بوكاتشيو من إحدىٰ وقائع "كتاب الخُدَع" حِبكة "رجال إيزابيلّا الثلاثة" (الأيّام العشرة ٦، ٧).

ومع اَقتباس قصّة ''الأربعين وزيرًا''، وتوسُّعًا فيما اَستُقِيَ ممّا ورد في القرآن (سورة ٢: ٩٦ و٩٧؛ وسورة ٥٩: ١٦)، دخلت أسطورة الراهب أمبروزيو، المسمّىٰ بَرصيصة في المصادر الشرقيّة. ويتعلّق الأمر بقدّيسٍ زاهد، عَهِد إليه ثلاثةُ إخوة، كانوا يعتزمون السفر، برعاية أُختهم المريضة في أثناء غيابهم. فغرّر بها برصيصة، وقد أغواه الشيطان، فحملت منه، وكي يمحو كلّ دليل علىٰ سقطته، قتلها ودفنها. ولدىٰ عودة الإخوة، أفادهم بأنها ماتت ميتةً طبيعيّة. لٰكنّ الشيطان ظهر لهم في الحُلم وشرح لهم ما جرىٰ. فذعر الناسك، وكي يُفْلت من العقاب، قَبِلَ بعرض الشيطان، الذي طلب منه، ثمنًا لإنقاذه، أن يعبده ويكفر بالله. وما إن سقط الناسك في هٰذه الخطيئة الأخيرة، حتّىٰ سخر الشيطان منه، وتلا الآية ١٦ السورة ٥٩ من القرآن•؛ ومات الآثم كافرا. هٰذه الموضوعة ـ التي شهدت اَنتشارًا واسعًا في الغرب ـ نظمها شعرًا كريستوبال دي ڤيرويس (١٥٥٠ـ١٦٠٩م) في *El Monserrate*، وأطلق علىٰ البطل اَسم گارين[2]، وبلغ قمّة الذيوع في المرحلة الرُّومانسيّة، بفضل عمل م. ج. گريگوري (١٧٩٥م) المسمّىٰ ''أمبروزيو، أو الراهب''.

ومن المصدر ذاته اَستُلهمت أسطورة ''الكونده لوكانور'' (المثال ١١)، للدون إيّان: يرفض أحد سلاطين مصر الاَعتقاد بأن يكون صعود محمّد إلىٰ السماء قد تمّ في ليلةٍ واحدة؛ ولٰكن أقنعه، بأنّ الأمر قد تمّ علىٰ هٰذا النحو، الحكيمُ شهاب الدين، الذي فتح تباعًا أربع نوافذ، وأطلعه علىٰ جيشٍ معادٍ، وحريق القاهرة، وفيضان النيل، وعلىٰ صحراء تحوّلت إلىٰ بستان فاكهة. بعدئذ، طلب إليه أن يخلع ثيابه، وأن يُغَطِّس رأسه في وعاء ماء. ولمّا أخرج السلطان رأسه، ألفىٰ نفسه علىٰ قِمّة جبل، علىٰ شاطئ البحر، وفقيرًا لدرجةٍ اَضطرّ معها إلىٰ قبول الثياب التي تُقدَّم له. وبهٰذه الثياب، دخل المدينة ووقف عند باب حمّام، وأخذ يسأل كلّ

• ﴿كَمَثَلِ الشيطان، إذ قال للإنسان اَكفُرْ. فلمّا كَفَرَ قال: إني بريءٌ منك، إني أخاف الله ربَّ العالمين﴾، الحشر: ١٦.

اَمرأة تخرج منه عمّا إذا كانت متزوّجة أم لا؟ وذٰلك كي يطلب، بحسب العُرف السائد في البلد، يد أوّل اَمرأةٍ تُجيب بالنّفي. وهٰكذا تزوّج فتاةً جميلة أنجبت له أربعة عشر ولدًا، ولٰكنه فقد ثروته كلّها، فاَضطرّ إلىٰ أن يعمل حمّالًا، ليؤمّن حاجات أسرته. ولمّا أعياه هٰذا الكدح اَنتشل رأسه من وعاء الماء، فألفىٰ نفسه ثانيةً وسط جلسائه، الذين أكّدوا له أنّ "مغامرته" كلّها لم تستغرق سوىٰ لحظة واحدة.

وإلىٰ قصّة "السيتيباس" ذاتها، ينبغي لنا أن ننسب المثالين ٢٩ و٤٨ من الكونده لوكانور. وهٰذا المثال الأخير ـ وهو حول ما حصل لمن كان يمتحن أصدقاءه ـ موجود أيضًا في القصّة المسمّاة "المنظار الشعبي" *Speculum laicorum* لـ خ. دي هوفْدن، وفي "الأدب الكهنوتي" *Disciplina clericalis*، وفي "الفارس زفار" (١: ٥) وفي أعمالٍ مختلفة أخرىٰ من الأدب الغربي.

٣. نَقَلَ كتاب "برلام وخوسافات" **Barlaam y Josafat** (بالعربيّة: بَلَوْهَر ويوداسف) إلىٰ الغرب خليطًا من الأساطير حول حياة بوذا الباطنيّة. ونجد مصادرها في بوذا ـ كاريتا ولاليتا ـ فيستارا... إلخ. وأعاد كتابتها اَبنُ بابُويه القُمّي (ت ٣٨١هـ/ ٩٩١م) في كتاب "إكمال الدين". ويُبيّن فيه كيف رغب ملكٌ وثنيٌ، خنيصر، في حماية اَبنه الوحيد، يوداسف (أو بوضاسف ـ بوديساتّفا)، من الأخطار التي كانت تترصّده، لأنّ منجّمًا كان قد تنبّأ بأنّ مجد الأمير لن يكون في هٰذا العالم. وتفاديًا لكلّ مكيدة، اَحتجزه الملك في أحد الحصون. ولمّا بلغ الأمير سنّ المراهقة، اَلتقىٰ خلال أوّل خروج له بمريضين وعجوز. وبينما كان يتأمّل ما كان قد رأىٰ، صادف الورعَ بِلَوْهَر، وتمكّن هٰذا، ببضع عظاتٍ منه، من أن يجعل الأمير يزهد في الدنيا، ويتفرّغ للنُسك، ويُبشّر بديانةٍ جديدة. ولمّا وصل في مسار رحلاته إلىٰ كشمير، وأدرك أنه علىٰ وشك الموت، عهد إلىٰ تلميذه أبابيد (آنندة) بالتبشير بأفكاره.

إنّ اَنتشار هٰذه الأساطير ـ كتلك الموجودة في هٰذا النوع كلّه من الأدب ـ

معقّدٌ إلىٰ أقصىٰ حدّ، وقد بلغ أرجاءَ القارّة القديمة، من أثيوبيا[3] حتّىٰ الغرب، من خلال الترجمات المعروفة جيّدًا في الأندلس، حسبما يدلّ عليه التأليف المنقّح العبري الذي أنجزه البرشلوني أبراهام بن حَسْداي، تحت عنوان "اَبن الملك والناسك"، وما قام به دون خوان مانويل من اَستخدام لـ"برلام" في "الكونده لوكانور" (المثال ١، ما جرىٰ للملك مع محسوبه، والمثال ٤٩، ما جرىٰ لمن طُرد من الجزيرة عاريًا...)، وفي "كتاب الحالات"، حكاية الأمير الذي لم يكن أبوه يرغب في أن يعرف الموت. وفي القرن الثالث عشر [٧ هـ]، كانت قد دخلت بعضُ الحكايات، مثل حكاية نصائح العصفور الدوريّ في الأدب الفرنسي، وفيما بعد اَستخدمها لوبه دي ڤيغا في مسرحيّاته الهزليّة "برلام وخوسافا" ـ وقد أثّرت في "الحياة حُلم" لكالديرون ـ و"الخدمة مع سوء الطالع"، كما أنّ بعض موضوعاتها قام بإعادة صياغتها لافونتين والأخوان گريم.

٤. أثّرت "ألف ليلة وليلة" تأثيرًا مباشرًا جدًّا في تطوّر الأقصوصة في القرون الوسطىٰ، ومن ثَمّ في الأقصوصة في عصرنا. وهٰذا ما حصل مع المثال ٢٤ ـ "الملك الذي كان يرغب في اَختبار أبنائه الثلاثة" ـ من "الكونده لوكانور"، ومع قصص مختلفة من الأيّام العشرة لبوكاتشيو. وتُعَدّ قصّة فيديريكو والصقر (٥، ٩) صياغة جديدة لموضوعةٍ قديمة، هي كرم حاتم الطائي (الليلة ٢٧٠)، الذي ضحّىٰ بناقته الوحيدة (أو فرسه) كي يتمكّن من تقديم الطعام لضيفه. وقد كانت هٰذه الطرفة دارجةً في إسبانيا في القرن العاشر. وتنطوي قصّة "قصّ إكليل رأس السائس" (٢، ٣) علىٰ مَغْلَمَين شَرقيّين، الأوّل، ويُعزىٰ إلىٰ الخليفة المعتضد، هو تحديد هويّة مشبوهٍ عن طريق النبض، أمّا المَغْلَم الثاني، وهو يُضاهي العلامات التي وضعتها مرجانة، بطلة حكاية علي بابا، علىٰ كلّ دُور الحيّ، فيتمثّل في أنّ الخادم الذي أمر الملك بأن يُقَصّ شعره، قام بدوره بقصّ شعر كلّ النائمين في جناحه ذاته، تفاديًا لتعرّف الملك عليه. وتنحدر قصّة "مخاض كالاندرينو"، هي الأخرىٰ، من "قصّة القاضي الذي أنجب ولدا".

بيد أنّ تأثير "ألف ليلة وليلة" يمتدّ إلىٰ ما هو أبعدُ بكثيرٍ من أعمال دون خوان مانويل وبوكاتشيو. فقصّة "الحصان الأبنوسي" (الليالي ٣٥٧ـ٣٧١)، ذات أصلٍ هنديّ، وترقىٰ جذورها إلىٰ "ڤاسوديڤاهندي" لساندداگارا، وانتقلت، من خلال النصّ العربي المقتبس، إلىٰ "كليومادس" لأدينيت لي روا، ولا بدّ أنّ ثرڤانتس قد أخذها عن هٰذا الأخير لعمله المسمّىٰ "كلاڤيلينيو"، وعادت إلىٰ الظهور في "حكايات [قصر] الحمراء" لواشنطن إيرڤينغ•؛ وقصّة "مائدة سليمان" (٢٧٢) التي ترامت أصداؤها حتّىٰ تمثيليّة "بامبا" الهزليّة للوبه دي ڤيگا، وقصّة "أبو الحسن" أو "النائم اليقظان" (١٥٢ أ ـ ١٧١ أ)، التي ألهمت كالديرون بشكلٍ مباشر أو غير مباشر في عمله "الحياة حُلم"، وحكاية "أُنْس الوجود" العاطفيّة أثّرت، علىٰ سبيل المثال، في الفقرة ١٠٩ من كتاب "آميك وآمات" ليول، وهو موجزٌ متقن للقاء البطل مع أسد صحراء (الليلتان ٣٧٣ـ٣٧٤).

وبالرغم من الحذلقة، التي تتّسم بها "حكاية الوصيفة تيودور" (٤٣٦ـ٤٦٢) ـ وقد سبق أن ترجمها پدرو ألفونسو إلىٰ اللاتينيّة ـ فإنّ لهٰذه الحكاية أهمّيّةً كبيرة، ليس فقط بسبب المعطيات ذات الطابع العلمي التي تنقلها إلينا، بل أيضًا لدفاعها (وتسويغها) لصنفٍ معيّن من الجَمال الأنثوي لا يتّفق وأذواقَ الناس في عصر الخلافة وعصر النهضة [الأوروبيّة]، وهما مرحلتان كانت تُفضَّل خلالهما النساء الشقراوات ذوات العيون الزُّرْق علىٰ السمراوات ذوات العيون السُّود. وتُبيِّن هٰذه الحكاية، في ترجمتها القشتاليّة في القرن الثالث عشر [٧ هـ]، أنّ المرأة الجميلة يجب أن تتوافر فيها ثماني عشرة خَصلةً تُجْمَع في ستّ ثُلاثيات، وقد جمعها لوبيه دي ڤيگا في تمثيليّته الهزليّة "الوصيفة تيودور"؛

• نُشر هٰذا الكتاب بالعربيّة بعنوان "قصر الحمراء في الأدب والتاريخ"، ترجمة إسماعيل العربي (بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨٤)، ونشر في إصدار آخر بعنوان "الحمراء"، ترجمة عبد الكريم ناصيف والدكتور هاني يحيىٰ نصري (حلب، مركز الإنماء الحضاري، ١٩٩٥). وأفاد الأديب الباحث لؤي خليل بأنّ هٰذا الكتاب نشر قبل ذلك بعنوان "قصص الحمراء"، ترجمة إبراهيم الأبياري (القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٥٤).

فينيسيا: أَسمعْ، وإنْ كانت فطنتُكَ النادرة
تبثّ الرعب في لساني:
ما هي الخِصَال التي ينبغي توافرها
في اَمرأةٍ كاملة الأوصاف؟

تيودور: إذا كان المقصود الخصالَ الظاهرة
موزّعةً على ثماني عشرة خَصلة
فعلى ذلك ينبغي أن تكون هذه المرأة:
صغيرةً في ثلاث، وطويلةً في ثلاث
وفي ثلاث بيضاء، وفي ثلاث حمراء
في ثلاث ممتلئة، ونحيلة في ثلاث

فينيسيا: إذا كان الإفصاح عنها لا يُزعجكَ
فبيِّنْها لي

تيودور: اَسمعي إذن:
في فمها وقدمَيها وأنفها
ينبغي أن تتّصف بالصِّغَر
في جسمها وعنقها وأناملها
ينبغي أن تتّصف بالطول

فينيسيا: وفي أي شيء
ينبغي أن تكون حمراء؟

تيودور: في اللون البهيّ
المُشْرَبِ بصِبغتَين،
يتجلّى في وجنتَيها الجميلتَين
ثلجًا وورداً متمازجَين
وفي شفتَيها واللِثَتين

فينيسيا: وفي أيّ شيء

يُستحَبّ أن تكون بيضاء؟

تيودور: في ثلاث، لا محالة

فينيسيا: ما هي؟

تيودور: أسنانها، ووجهها، ويداها

فينيسيا: وفي أي شيء يُستحبّ أن تكون
عريضة وممتلئة؟

تيودور: في الكتفَين العاليَين
وفي المِعْصَمَين والوَرِكَين.
ولأنهما أشدُّ نضارةً،
أكثرُ حيويّةً، أكثرُ جاذبيّة،
ينبغي لها أن تكون سوداء العينَين..
وسوداء الهُدْبَين والحاجبَين

فينيسيا: وإن كانتا أكثرَ حيويّةً
فأنتَ على خطإ كبير في العينين السوداوين
فالعينان الخضراوان نبيلتان ومترفّعتان
والزرقاوان بلون السماء
جميلتان في خِمارٍ أبيض..

هٰذا التنظيم في ثلاثيّات، ذو الأصل المشرقيّ، يظهر أيضًا في "كتاب الثلاثة"، الذي يُمكن نسبته إلى الراهب الفرنسيسكاني أنسيلْم تورميدا (ت حوالي ١٤٢٠م [٨٢٣هـ]) ـ الذي دخل في الإسلام واتّخذ اسم عبد الله ـ[4]، وفيه نجد المثل القطلوني: «هناك ثلاث لذّات: أكل اللحم، والتمتّع باللحم، وركوب اللحم»، وهو يُعادل المثل العربي الوارد في "ألف ليلة وليلة" (الليلة ٣٣٦): «[قالت الحكماء:] اللذّة في ثلاثة أشياء: أكل اللحم، وركوب اللحم، ودخول اللحم في اللحم».

ومن البدهي أنّ هٰذه لم تكن النصوص العربيّة الوحيدة التي أمدّت الرواة في القرون الوسطى بالأفكار. فقد كانت هناك نصوصٌ أخرى، مثل "ألف يوم ويوم"،

و"المئة ليلة"، أو "حكايات جحا"، التي ربّما لم تكن تُشكّل آنذاك مدوّنةً جامعة كالحاليّة، أو لم تكن حتّىٰ مجموعة في مخطوطةٍ واحدة، وإنما كان يجري تداولها كلًّا منها علىٰ حدة. وينطوي إطار "ألف يوم ويوم" ـ حسبما نعرف حاليًا ـ علىٰ أوجه شبه مع "حكاية قمر الزمان والأميرة الصينيّة بُدُور" من "ألف ليلة وليلة" (الليلات ١٧٠ـ٢٩٩)، ومع حكايةٍ للشاعر الفارسي الكبير نظامي (١١٤١ـ١٢٠٩م [٥٣٥ـ٦٠٦هـ])، واتّخذ منها كارلو گوزي (١٧٢٠ـ١٨٦٠م) أساسًا لعمله "الملك توراندوته" الذي ترجمه شيللر، [واَقتُبس منه] موضوع أوپرا كلٌّ من ڤيبير، وبوزوني (١٩١٧)، وپوتشيني (١٩٢٦).

في "ألف ليلة وليلة" يصل أميرٌ قد آلَ إلىٰ الفقر، اَسمه "كَلَف" [خَلَف]، إلىٰ بكين، فتحميه فيها عجوزٌ لها اَبنةٌ جارية لدىٰ بنت الملك، توراندوت. وكانت هٰذه الأميرة قد سقطت مريضة لمّا عرفت بأنها ستُزفّ إلىٰ زوج، وحصلت علىٰ وعد من أبيها بألّا يزوّجها إلّا بمن يقدر علىٰ الإجابة عن أسئلتها، وكلّ من يحاول ذٰلك ويخفق، يُحكم عليه بالموت. واَنتهت هٰذه التفاصيل إلىٰ علم كلف لدىٰ حضوره إعدام أمير سمرقند، الذي كان قد حاول أن يخوض التجربة بعدما رأىٰ صورةً للأميرة، وقد رمىٰ هٰذه الصورة قبل أن يموت، واَلتقطها كلف، ووقع في الحبّ هو أيضًا، علىٰ غرار ما يحصل لأبطال "البرتغالي الغَزِل الأوّل" و"السجن بلا ذنب" للوپيه دي ڤيگا. وسعىٰ بدوره لخوض التجربة، بالرغم من تحذيرات أشخاصٍ عدّة له، ومنهم راعيته العجوز. وكانت الأسئلة التي أجاب عنها: ما المخلوقة الموجودة في كلّ البلدان، وصديقةٌ للجميع، وليس لها مثيل؟ (الشمس). أيُّ أمٍّ تلك التي تلتهم أطفالها حين يكبرون؟ (البحر). إذ ذاك، ترفع الأميرة النقاب عن وجهها، فيتملّك كلف الاَضطراب أمام هٰذا القدر من الجمال، بحيث لم يتمكّن من الإجابة إلّا بصعوبة عن السؤال الأخير: ما الشجرة التي لها أوراقٌ بيضٌ من جانب، وسُودٌ من جانب آخر؟ (السنة، فهي تتكوّن من نهارات وليال).

وتنتاب الأميرةَ، وقد اَنهزمت، نوبةٌ عصبيّة، فيَعِدُها خلف بالتخلّي عن الزواج

منها إن هي أجابت عن سؤالٍ واحد فقط، هو: معرفةُ مَن هو؟ ومنحها مهلة يوم للتفكير. ولمّا حلّ الليل، عملت إحدىٰ جواري الأميرة، وكانت مغرمةً بكلف، علىٰ حَمْل هٰذا الأخير علىٰ الاَعتقاد بأنّ توراندوت ستأمر بقتله. ولٰكن الأمير يؤثر الموت علىٰ الهروب مع الجارية، ولدىٰ ندبه سوءَ حظّه، تفوّه بٱسمه وٱسم أبيه. وتعود الجارية إلىٰ جانب توراندوت، وتسعىٰ إلىٰ أن تُدخل في روعها بأنها تصرّفت علىٰ هٰذا النحو رغبةً في مساعدتها. وفي اليوم التالي، تحزر الأميرة ٱسم كلف، ولٰكنها، مع ذلك، تقبل بالزواج منه*.

ونجد تنويعًا لهٰذه القصّة من "ألف ليلة وليلة"، في "حكاية الأمير قمر الزمان وأميرة الصين بُدُور" (الليلات ١٧٠ـ٢٤٩) فكلاهما يمتنعان ـ دونما معرفةٍ بينهما وهما يعيشان في بلدَين نائيَين جدًّا ـ عن الاَرتباط بالزواج، وذٰلك إلىٰ أن جَمَعَ بينهما، ذات ليلة زوجان من الجنّ، في فراشٍ واحد، ولمّا حلّ الفجر، أعادهما كلًّا منهما إلىٰ موطنه الخاصّ. فأصبحت مُنْيَتُهما الوحيدة، ٱبتداءً من هٰذه اللحظة، التلاقي من جديد. وأخفق الأطبّاء الذين حاولوا شفاء الأميرة، التي عُدَّت مجنونةً، فتمّ إعدامهم، إلىٰ أن جاء قمر الزمان، بعد أن ٱستطاع أن يتعرّف علىٰ موطن الأميرة، فشفاها وتزوّجها.

وكان لهٰذه الموضوعة أثرُها في القرون الوسطىٰ: فقد عادت إلىٰ الظهور، في صيغ متنوّعة، في "حكاية جاكوب كسالابين" (حوالي ١٣٩١م)، وفي قصيدة "أوتّينيّو وخيوليا"، وفي "ماگالونا الجميلة"، وفي "الأكذوبة التاسعة" لتيمونيدا، وبشكلٍ أبعد في ملهاة "الماسات الثلاث" للوپيه دي ڤيگا. وقد أثبت سيروللي، الذي درس ٱنتقال هٰذه الموضوعة إلىٰ أوروبة، أنّ هٰذه الحكاية ٱنتقلت إلىٰ الأدب

* تخلو طبعة بولاق وسواها من هٰذه الحكاية. والواقع أنّ حكاية الأمير خلف وأميرة الصين هي قصّة شرقيّة، وقد نشرها پ. دولاكروا P. delacroix بعنوان *Mille et Un Jours* (ألف يوم ويوم).

البيزنطي عن طريق اللغة الإيطاليّة أو الفرنسيّة، أي عن طريق معاكس لما هو مُسلَّمٌ به تقليديًّا.

كما ٱنتقلت إلىٰ الغرب بعض وقائع "كتاب الأغاني"، مثل الواقعة المتعلّقة بزحف غابة برنام في مسرحيّة "مكبث"، والتي تُذكّرنا بزرقاء اليمامة، الفتاة العربيّة التي أُوتيت حِدّةً في البصر قويّةً جدًّا، تمكّنها من رؤية جيش عن بعد ثلاثين ميلًا، وكانت تُنقذ أفراد قبيلتها دائمًا من كلّ مباغتة. فتداول بعض الأعداء في أمر مفاجأتهم، وقرّروا التموُّه بأغصان الشجر. فحذّرت زرقاءُ قومها بأنها ترىٰ الغابة تمشي، لٰكن أهلها ظنّوا أنّ بصرها يخدعها، فأُخِذوا علىٰ غِرّةٍ وتعرّضوا للإبادة. كما تسرّبت وقائعُ من رسائل إخوان الصفا، وذٰلك علىٰ غرار ما نجد في "نزاع الحمار ضدّ الراهب أنسيلْمو تورميدا".

وهناك موضوعاتٌ أخرىٰ، تنتظم في أدب القرون الوسطىٰ، ترجع بأصلها إلىٰ حكايات جحا. ويبدو أنّ الشخصيّة، التي أُطلق عليها هٰذا الاسم، قد وُجدت فعلًا، وقد تكون وُلِدت في الكوفة، وكان صاحب هٰذه الشخصيّة يُكْنىٰ "بأبي غصن"، ويعيش في عهد الخليفة المنصور (٧٥٤ـ٧٧٥م [١٣٦ـ١٥٨هـ])، وسرعان ما ٱنتشرت الحكاية الموضوعة بٱسمه، لأنّ صداها تردّد عند الجاحظ وفي "الفهرست"، ووُلِد المثل القائل: أحمق من جحا! وكانت هٰذه الحكايات قد جُمعت في القرن الثالث عشر [٧ هـ]، في كتاب أصبح قيد التداول في بلاد فارس، وربّما تمّت ترجمته إلىٰ التركيّة في القرن الخامس عشر. وأصبح البطل في هٰذه الترجمة يُدعىٰ نصر الدين خوجه، وسرعان ما ٱزداد حجمها، وتُرجمت هٰذه، بدورها، إلىٰ العربيّة في القرن السابع عشر. وتجعَل هٰذه التقلّبات من العسير إلىٰ أقصىٰ حدٍّ إجراء تحليلٍ تراصُفيّ للنصّ الموجود حاليًّا في حوزتنا، "كتاب نوادر جحا" والذي لم يبقَ فيه، فيما يبدو، سوىٰ أربعين بالمئة من النصّ الأوّليّ.

وقد ٱنتشرت هٰذه النوادر في جميع أرجاء العالم الإسلامي، أو الذي سبق له أن كان من العالم الإسلامي، وطرأ تحويرٌ علىٰ ٱسم البطل لدىٰ ٱنتقال هٰذا الاسم من

منطقة إلىٰ أخرىٰ؛ فأصبح "جحا" في بلاد فارس، و"جَوْها" في بلاد النوبة، و"جَهان" في مالطة، و"جيوفا" أو "جيوكا" في جنوب إيطاليا، و"جْحا" في المغرب؛ وقد بلغ، في هٰذا البلد الأخير، من الشعبيّة ما جعل أهل المغرب يعتقدون بأنه ولد في مدينة فاس! ويظهر جحا في النوادر المرتبطة بآسمه وكأنه أبله أو مغفّل، [لٰكنه] يُثبت، في حالاتٍ كثيرة، أنه يمتلك من الموهبة الطبيعيّة أكثر ممّا عند محاوِرُه.

وتبرز، من بين هٰذه النوادر، تلك المسمّاة "الواعظ القليل الفصاحة" التي كانت معروفةً في الأندلس في عهد الخلافة [الأمويّة]، لأنّ "العقد الفريد" يورد ذكرها، وبقي ذكرها حيًّا في عصر النهضة [الأوروبيّة]؛ حيث ضمّها لويس پينيدو إلىٰ "كتاب النوادر" *Libro de chistes*، ويروي فيه «حكاية طالب ألفىٰ نفسه

مجبرًا علىٰ الوعظ، فلمّا اعتلىٰ المنبر، قال بعد أن ظلّ صامتًا برهة:
أنتم، يا معشر الناس، هل تعلمون ما أودّ قوله؟،

«فقال أحد الحاضرين: "بعضُنا يعلم، وبعضنا لا يعلم"،
«فقال الطالب: "فليُعْلِم الذين يَعْلمون الذين لا يَعْلمون، وعندئذ تعلمون جميعًا!".
«ثمّ نزل عن المنبر».

ويُثبت آنتشار هٰذه النادرة، علىٰ صعيد حوض البحر الأبيض المتوسّط ـ في إيطاليا، تُعزىٰ إلىٰ پيوڤانو أرلوتّو ـ بأنّ أصلها شرقيّ.

وتنحدر، من مصادرَ عربيّةٍ مختلفة، الأمثلةُ التالية من الكونده لوكانور: فالمثال التاسع، "الحصانان والأسد"، منحدرٌ من "سراج الملوك" لأبي بكر الطُرطوشي؛ والمثال العاشر نشأت عنه "العَشَرِيّة" المشهورة، "الحياة حُلم":

يُروىٰ عن حكيم أنه، ذات يوم.....

ولٰكنّ هٰذا المثال ينحدر من واقعةٍ حقيقيّة جرت للأندلسي القنازعي (٣٤١ـ٤١٣هـ/ ٩٥٢ـ١٠٢٢م) في أثناء إقامته بمصر. فهو نفسه يروي أنه، ذات يوم: لم يكن لديّ من شيء أُفطِر به في صيامي سوىٰ قليلٍ من التُّرْمُس كنت قد لفَفْتُه

بمنديل. فنزلت إلىٰ ضفّة النيل. وشرعت آكل منه، وأرمي قشوره عند قدمي، مردِّدًا في سرّي: هل في مصر اليوم، في هٰذا العيد، من هو أفقرُ حالًا منّي؟ ولٰكن ما كدت ارفع راسي حتّىٰ ابصرت امامي رجلًا يلتقط ما كنت ارمي من قشور وياكلها[5].

كما يرجع إلىٰ أصلٍ مشرقيّ، المثال رقم ٣٢، وهو: "ما جرىٰ لأحد الملوك مع المزّاحين النسّاجين"، وقد جدّده أندرسون في حكاية "ثياب الأمبراطور الجديدة"؛ ولعلّ هٰذا المثال أوحىٰ أيضًا لثرفانتس بفكرة "مجموعة العجائب"، وكذٰلك المثال ٣٥، وهو "ما جرىٰ لفتىً تزوّج امرأةً حازمة جدًّا وشجاعة جدًّا"، وتَمُتُّ إليها بصلةٍ ما: "الشرسة المروَّضة" لشكسبير.

وفي "الأيّام العشرة" *Decamerón*، تنحدر الحكاية ٨، ١، "النقود المقرضة" من قصّةٍ تُنسب إلىٰ الشاعر العربيّ الفرزدق (ت ١١٠هـ/ ٧٢٨م) في "كتاب الأذكياء" لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م). ويذكّرنا المثال (١، ٣) "الحلقات الثلاث" بحدثٍ من أحداث "تاريخ فارس" للثعلبي، وربّما تكون لقصّة "الظالم الذي يتحوّل إلىٰ قدّيس مع مرّ الزمن" (١، ١) صلةٌ بحكاياتٍ تركيّةٍ مماثلة.

ولٰكنّ ما هو أصعبُ، أن نُفسّر أوجُهَ التوافق القائم بين أسطورة "تريستان وإيزو" السلتيّة وبين موضوعاتٍ مشرقيّة علىٰ نحوٍ واضح. فمثلًا، زواج تريستيان بإيزو الأخرىٰ، "ذات اليدين البيضاوين"، له ما يُماثله في قيس ولبنىٰ، العاشقَين البدويّين اللذين عاشا، فيما يُقال، في القرن الثامن [٢ هـ]، ويُمكن توحيد هويّة الشخصيّة المسمّاة "كيرادين" بخير الدين، وتتّسم مشاهدُ كثيرة من السّرد الأساسي بأوجهِ شَبَهٍ بارزة مع العمل المسمّىٰ "ويس وريم" لفخر الدين أسعد الجرجاني (ت حوالي ١٠٧٤م [٤٦٦هـ]) الذي ينبغي البحث عن سابقاته البعيدة المماثلة في الأدب البارثي ـ الفهلوي.

إلىٰ جانب هٰذه التأثيرات من ناحية الموضوعات، والتي لا يصعب، بوجهٍ عامّ، اكتشافها، حسبما قلنا آنفًا، هناك تأثيراتٌ أخرىٰ من ناحية البِنية، بعضها أكثر قابليّة للنقاش، ممّا يجعلها أكثرَ أهمّيّة. فلا تظهر، مثلًا، في أسطورة الإسكندر التي تستند

إلىٰ مكوّناتٍ غربيّة منحدرة عن كالّيشتينِس الزائف، سوىٰ بعض التسرُّبات الشرقيّة ـ رحلات في الجوّ وتحت الماء ـ التي تختلط بواقعةٍ مستقاة من التأويل القرآني (القرآن، السورة ١٨، الآيتان ٦١ و٨٢)، وتضمّ، في النهاية، أساطير جلجامش السومريّة القديمة[6] التي اَندرجت في النصّ الموريسكي المكتوب بالحرف العربي للعمل المسمّىٰ "حكاية الملك اليشاندريه"، ويحصل الشيء ذاته في الحكاية العربيّة المسمّاة "المعشوق والملك واَبنته" التي شكّلت مصدرًا لكلٍّ من قصّة "حي بن يقظان" لاَبن طُفَيْل وقصّة "اللوّام" لگراثيان. أمّا في حالات أخرىٰ، فالتأثير مباشرٌ إلىٰ حدٍّ كبير، ومهمٌّ جدًّا، إلىٰ درجة أنه اَنتقل إلىٰ الآداب الغربيّة بأسرها، عبر شخصٍ وسيط. وأبرز حالة وأوضحها بهٰذا الشأن هي "الكوميديا الإلٰهيّة"، وهي أيضًا أهمّ حالة، نظرًا لتأثير هٰذا العمل علىٰ الأدب العالمي.

فمنذ نهايات القرن التاسع عشر، كان المستشرقون قد شرعوا يُشيرون إلىٰ وجود أوجه شبهٍ، بعيدةٍ تقريبًا، بين عمل الشاعر دانتي ونصوصٍ مختلفة هنديّة أو فارسيّة، مثل أرتاك ڤيراث. ولٰكنّ أوّل من تناول المشكلة كلّها جملةً كان ميگيل أسين پَلاثيوس، وذٰلك بكتابٍ خلّف أثرًا كبيرًا في عصره، وما زال حتّىٰ اليوم، نظرًا لإثبات أطروحاته كلّها تقريبًا بالوثائق، أنموذجًا للطريقة التي ينبغي أن تتمّ بموجبها دراسات الأدب المقارن: "علم المَعاد الإسلامي في 'الكوميديا الإلٰهيّة' ". ونظرًا لعدم توافر نصوصٍ من شأنها أن تُثبت وجود علاقةٍ مباشرة لدانتي بالعالم العربي، اَضطرّ أسين إلىٰ الاَقتصار علىٰ الدراسة المنهجيّة لأوجه الشبه القائمة بين عمل دانتي ومجموعةٍ ضخمة من النصوص العربيّة لمؤلّفين عدّة، تروي، بشتّىٰ التفاصيل، عروج محمّد إلىٰ السماء، مُسْهِبةً في عرض ما ورد في القرآن (سورة الإسراء: ١): ﴿سبحانَ الذي أسْرىٰ بعَبده ليلًا من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ الذي باركْنا حولَه لِنُريَهُ من آياتنا﴾. وتندرج كلُّ هٰذه الروايات تحت عنوانٍ مشترك هو "كتاب المعراج". وكانت ردود الفعل الصادرة عن المختصّين الإيطاليّين بدراسة دانتي، وبالاَستعراب ـ وكان ذٰلك عشيّة الاَحتفال بالذكرىٰ المئويّة لوفاة دانتي، عام

١٩٢١ـ سلبيّةً إزاء هٰذا العمل، لأنّ «دانتي ـ هو بالنسبة إلينا ـ رمزٌ، ودرسٌ سامٍ، لا في الشعر والفلسفة والنصرانيّة وحسب، بل أيضًا في الروح الإيطاليّة».

ولقي الكتاب ٱستقبالًا حسنًا في جميع البلدان تقريبًا، ولاسيّما في إنكلترا، حيث سرعان ما رأت النور، بفضل رعاية دوق ألبا، ترجمةٌ مختصرة له أنجزها سانزلاند*. ونظرًا لعدم توافر وثائق جديدة، فقد ٱستمرّت الطبعة الثانية (مدريد ١٩٤٣) في ٱعتبار المعطيات، التي يجوز أن يكون برونيتو لاتيني قد وفّرها للدانتي، مصدرَ معلومات هٰذا الأخير. وكان لاتيني قد زار بلاط ألفونسو العاشر الحكيم عام ١٢٦٠م.

ومن البدهي أنّ أسين قد علم بالشهادة التي أوردها شتاينْشنايدِر، ومفادها أنّ الحكيم دون أبراهام كان قد أنجز عام ١٢٧٧م [٦٧٦هـ] ترجمةً قشتاليّة لـ "كتاب المعراج"، يُحتفظ بها في أكسفورد في ترجمة فرنسيّة، وأنّ شتاينشنايدر، عن خطإٍ وبسبب التماثل في العنوان، وَحّد هويّتها مع السورة ٧٠ (المعارج) من القرآن. وفي عام ١٩٤٤ فقط، عام وفاة أسين، لَفَتَ مونريه دي ڤيار الٱنتباه إلىٰ هٰذه المخطوطة، وفي الأعوام التالية، عكف إ. سيرولّي وخ. مونيوث سنديِنو، علىٰ دراسة هٰذه المخطوطة ومخطوطات أخرىٰ لها علاقة بالموضوعة. وقد تضمّنت أعمالُ هٰذين المؤلّفين[7]، النصّين اللاتيني والفرنسي المنبثقين عن النصّ القشتالي للدون ألفونسو، واللذين كان قد أنجزهما بونافنتورا دي سيينا، كاتب العقود والموثّق عند ألفونسو العاشر. وإذن، لا مجال للشكّ، حاليًا، في أنّ دانتي قد ٱطّلع مباشرةً علىٰ الأساطير [القصص] الإسلاميّة حول الحياة الأُخرويّة.

أمّا ما لم تتحدّد هويّته، فهو الأصل الذي ٱنبثقت عنه الترجمة القشتاليّة التي

* نَقَلَ هٰذه الترجمة الإنكليزيّة المختصرة، إلىٰ العربيّة، جلال مظهر، وصدرت في كتاب بعنوان "أثر الإسلام في الكوميديا الإلهيّة" (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٠).

وتُعِدّ دار المنهل لإصدار كتاب بَلاثيوس كاملًا، في طبعةٍ عربيّة منقولة عن الإسبانيّة مباشرةً، مع التعليقات المناسبة، في سلسلة "الكتاب الأندلسي".

أنجزها دون أبراهام. ويفترض ليفي ديللافيدا أنّ هٰذا الأصل، ربّما كان ضمن مخطوطةٍ عربيّة غربيّة محفوظة في لابوذليانا، ولٰكنّ هٰذه النقطة الأخيرة ليست ذات أهمّيّة، لأنّ هناك مصنّفاتٍ عربيّةً عديدة أفردها الأدب الورع لعرض تفاصيل هٰذه الرحلة الخارقة، وتستند هي أيضًا إلىٰ تدوين وشرح أحاديث قديمة ذات أصل مشرقيّ [إسلاميّ] انتقلت شفهيًّا من جيلٍ إلىٰ جيل، إلىٰ أن تمّ جمعها في معظمها وصُنّفت بحسب الموضوع، أو التسلسل المعجمي، أو التسلسل الزمني، في أعمالٍ خاصّة. واستنادًا إلىٰ النواة المكوّنة من هٰذه الأحاديث المتشابكة بعضها ببعض، والموسّعة بحسب خيال مختلف المؤلّفين، تمّ تدوين الأعمال التي تضمّ [سيرة حياة] محمّد*. وتلك هي التقنيّة ذاتها، إن جاز القول، مع تنويعاتٍ طفيفة، هي التي استخدمها ابن رشد في بعض شروحاته لأرسطوطاليس التي تظهر فيها، حرفيًّا، نصوصُ هٰذا الأخير الأساسيّة، معروضةً بترتيبٍ مغاير، كان يبدو أقرب إلىٰ المنطق بنظر البحّاثين المسلمين في القرن الثاني عشر [٦ هـ]. ونجد هٰذه النصوص متشابكةً ومفسّرة، مع نصوص أخرىٰ لابن رشد نفسه، الذي عمل بوصفه شارحًا أكثر منه مبدعا. والحقيقة أنّ هٰذا كلّه يقوم علىٰ تضافر الطاقة التذكُريّة الكبيرة ـ القادرة علىٰ أن تنقل النصّ ذاته، دونما تغيُّرات، علىٰ مدىٰ قرونٍ عدّة ـ مع خيال أسلافنا. وسنرىٰ، في الحال، أنّ النصوص المحفوظة في كتاب المعراج [أي الترجمة]، تضمّ استشهاداتٍ حرفيّةً مقتضبة من "كتاب المعراج" للمؤلّف المشرقي أبي القاسم عبد الكريم بن هُوازِن القُشَيري (٣٧٦ـ٤٦٥هـ/ ٩٨٦ـ١٠٧٢م)**.

وأشار كتّابٌ آخرون إلىٰ احتمال أن يكون دانتي قد اطّلع مباشرةً علىٰ النصوص العربيّة، أي أنه، شخصيًّا، كان يعرف هٰذه اللغة، وحتّىٰ اللغة العبريّة.

* وردت: أسطورة محمّد.

** هٰذا الكتاب، الذي لم يكن بلاثيوس مطّلعًا علىٰ نصّه المترجم إلىٰ القشتاليّة (ق ٧هـ/ ١٣م). انظر أصله العربي، تحقيق: الدكتور علي حسن عبد القادر (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٤).

ويستندون، لهذه الغاية، إلىٰ فقرات من "الجحيم"، ٧، ١ و٣١، ٦٧، ومن "الفردوس"، ٧، ١ و٣. فتنصّ الأُوليان:

1) Pape Satan, papc Satan aleppe

2) Rafel mai amech izabi almi* *

وقد تمّ تأويلهما بصُوَرٍ مختلفة.

أمّا الفقرات الواردة في "الفردوس" فتضمّ ثلاث كلماتٍ عبريّة معروفة إلىٰ أقصىٰ حدّ، ولم يكن آستخدامها يستدعي معرفة [هٰذه اللغة]**. مهما يكن من أمر، فقد أسهمت هٰذه الترصيعات في إضفاء طابعٍ ساميٍّ علىٰ الأناشيد التي تتضمّنها.

لقد تأكّدت إذن، مع مرّ الزمن، أوجهُ الشّبه القائم بين القصص الإسلاميّة حول الحياة الأُخرويّة والكوميديا الإلٰهيّة، والتي كان أسين قد قدّم كشفًا عنها منذ خمسين عامًا خلت. أمّا الحالات التي لم تكن فيها الأمور علىٰ هٰذا النحو فهي من القلّة، لدرجةٍ أنّ أفضل منهجٍ لعرض أوجه الشّبه هٰذه هو اتّباع ملخّص أسين عينِه.

من الواضح، أوّلًا، أنّ بطل كلٍّ من كتاب المعراج والكوميديا الإلٰهيّة ـ محمّد ودانتي ـ يُرافقه مرشدٌ في رحلته ـ المَلَكُ جبريل، وفرخيليو وفي وقت لاحق بياتريث ـ يشرح له كلّ ما آستعصىٰ عليه فهمُه. يبدأ دانتي (الجحيم، ١: ١) رحلته "في منتصف درب الحياة"، أي بين الثانية والثلاثين والخامسة والثلاثين من سِنِي عمره. ويدخل الأبرارُ الجنّة، بحسب حديث يُروىٰ عن أَنَس بن مالك، وهم في هٰذه السنّ عينها، لأنّ هٰذه هي مدّة حياة المسيح. ويدخل دانتي اليَمْبوس، فيصفه تبعًا لتصوُّرٍ إسلاميٍّ قائم علىٰ التوسّع في عرض بعض الآيات القرآنيّة (٧: ٤٤ و٤٦). روضة ذات ثمر ستكون مأوىٰ النفوس التي تموت دون أن تكسب فضيلة

* ترد عادةً كما هي، في الترجمات إلىٰ اللغات الأخرىٰ، لأنّ معناها مجهول.

** آستعمل ڤيرنيت عبارة "اللغة المقدّسة": "*La lengua santa*".

أو ترتكب رذيلة، ويقتصر عذابها على التشوّق إلى دخول النعيم. ويتّسم جِوارُ الجحيم بجَلَبةِ الهَلْكى، ولفحات النار. وتتماثل معالم الموقع لدى كلا المؤلِّفَين: «قِمْعٌ ضخم، أو جِذْعُ مخروطٍ مقلوب، مكوّنٌ من سلسلة من الطوابق، أو الدّرجات، أو الطبقات الدائريّة، تنحدر تدريجيًا حتّى قاع الأرض، وكلُّ واحدةٍ منها مقرٌّ لفئة من الخُطاة. وكلّما تزايد العمق، ازداد ما يُقابله من إثم، ومن ألمٍ في العقوبة». وكلا الجحيمين يتعيّن موقعهما تحت مدينة القدس.

وتتّسم أنواع التعذيب بأوجه شبهٍ كبير. فتعذيب اللوطيّين والمتملّقين والعرّافين (الجحيم، ٢٠: ١٠ـ١٥) له ما يُماثله في الجحيم الإسلامي. فعذاب العرّافين مثلًا:

عندما ابصرتُهم، امَلْتُ وجهي
فرأيتهم مقلوبين راسًا على عقب بصورةٍ عجيبة
من أوّل الجذع حتّى الذقن
وكان الوجه مَلْويًا نحو ظهرهم
وكانوا مضطرّين إلى المشي في اتّجاه الخلف
لأنهم كانوا غير قادرين على النظر إلى أمام

له سابقةٌ في القرآن نفسه (٤، ٥٠)، عندما يتوعّد اليهودَ بهذا العقاب إذا لم يُسلِموا برسالة محمّد*.

ويلقى المتملّقون (الجحيم: ١٨، ١١٣) العقاب ذاته الذي يحلّ بالسكرى المسلمين، الذين يُسقَوْن من شرابٍ نَتِنٍ من حمأة جهنم، المكوّنة من الدم والعرق والصديد والعفن الراشح من قروح الهالكين الآخرين، شرابٍ يتخثّر كبُرازٍ كريهٍ لزج.

وفي الفصل الثامن والعشرين من الجحيم، يتناول الكلام من كانوا (٣٥ـ٣٩):

* ﴿انظرْ كيف يَفتَرون على الله الكَذِبَ، وكفى به إثمًا مبينًا﴾، النساء، ٥٠.

زُرّاعَ شَغَب وشقاق
هٰكذا كانوا في حياتهم، وهٰكذا يُفلقون
يأتيهم عفريتٌ مُغافِلٌ من الخلف
فينقضّ عليهم بضرباتٍ بالغة الشدّة من سيفه
تجعلهم مشطورين علىٰ هٰذه الصورة.

إنه العذابُ ذاتُه، وللإثم ذاتِه، ما يلاقيه، حسب شرح جبريل لمحمّد: «*أولٰئك الذين كانوا يمشون بين المؤمنين بالنميمة ليُفرّقوا بينهم*»[8]. ولهٰؤلاء ينبري مَلَكٌ «*بيلَين كمخلبٍ من حديد، فيمزّق أوّلًا خاصرتهم اليسرىٰ حتّىٰ الأذن، ثمّ اليمنىٰ*».

وأمّا الحلقة الأخيرة من جحيم دانتي، وهي عذاب الزمهرير، وترجع بقيمتها المَعاديَة إلىٰ المجوسيّة ـ بحسب شهادة الجاحظ في "كتاب الحيوان"* ـ فهي الحلقة التي نجد فيها الشيطان مغمورًا بالثلج حتّىٰ منتصف صدره. وقد تبنّىٰ الفقهاء المسلمون هٰذا العذاب بالزمهرير في القرن التاسع [٣ هـ]، لأنه كان من شأنه أن يُفسّر علىٰ نحوِ مرضِ الصورة التي يُعذّب بها، في الجحيم، الملائكةُ الساقطون [إبليس ورهطه]** ، المُحَصَّنون من النار، لأنهم هم أنفسهم خُلِقوا من هٰذا العنصر.

* يقول الجاحظ:

«وقد عارضني بعضُ المجوس، وقال: "فلعلّ، أيضًا، صاحبَكم إنما توعّد أصحابَه بالنار، لأنّ بلادهم ليست ببلاد ثلج ولا دَمَق [الدَمَق: الثلج مع الريح، يغشىٰ الإنسان من كلّ جانب]، وإنّما هي ناحيَة الحَرُور والوهَج والسَّمُوم، لأنّ ذلك المكروه أزجرُ لهم".

«فرأىٰ هٰذا المجوسيُّ أنه قد عارضني!

«فقلت له: "إنّ أكثر بلاد العرب موصوفةٌ بشدّة الحرّ في الصيف وشدّة البرد في الشتاء، لأنها بلاد صخورٍ وجبال، والصخر يقبل الحرّ والبرد... فمتىٰ أحببتَ أن تعرف مقدار برد بلادهم في الشتاء وحرّها في الصيف، فانظر في أشعارهم، وكيف قسّموا ذلك، وكيف [وصفوه]، لتعرف أنّ الحالين سواءٌ عندهم في الشدّة"...».

"الحيوان"، ٥: ٦٩.

** إنّ إبليس، بحسب النصّ القرآني، ليس مَلَكًا في الأصل، بل هو من الجنّ: ﴿وإذ قُلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلّا إبليسَ كان من الجِنّ، فَفَسَقَ عن أمر ربّه﴾، الكهف: ٥٠.

وفي المقابل، يرجع التفسير الكوني الذي يقدّمه فرخيليو (٣٤، ١٢٠ـ١٢٦) حول سقطة لوسيفِر [إبليس] من السموات إلىٰ الأرض، إلىٰ أصلٍ عربيٍّ، لأنّ القرآن يُلمح إليها مرّاتٍ عدّة .

ويُعادل الانتقالُ من "الجحيم" إلىٰ "المَطْهر"، العبورَ من نصف الكرة الشمالي، أرض الحياة الإنسانيّة، إلىٰ الجنوب، نصف كرة المياه ـ ما عدا جبل المَطْهر، المجاور للسماء ـ المتجمّعة هنا نتيجةً للفراغ الذي أحدثته سقطةُ لوسيفِر. ويتمّ الخروج، ماديًّا، بسلوك الوادي الضيّق لجَدْوَل. إلّا أنّا نجد ، في بعض الروايات الإسلاميّة، أنّ بئرًا هو الذي يُفضي إلىٰ عالم الأبرار.

إنّ أوجُهَ الشّبه، إذن، بين المَطْهر الإسلامي والمَطْهر المسيحي (وهٰذا الأخير لم يُعتبر من المعتقد الديني إلّا بدءًا من القرن الخامس عشر)، بالرغم من كونها وثيقة القرب، أقلُّ أهمّيّةً من تلك القائمة علىٰ صعيد كلٍّ من الجحيمين والفردوسين. وذلك،

أوّلًا، لأنّ الخيال الشعبي كان اهتمامه بالمعالم التي تتّسم بها الحياة الدنيويّة، مثلما هي في نهاية المطاف حياة المَطْهر، أقلَّ من اهتمامه بمعالم الحياة الخالدة في الفردوس أو في الجحيم،

وثانيًا، لأنّ نصوصًا [متعلّقة] بكلتا الديانتين هي أكثر غموضًا في استشهاداتها. فالمَطْهر الإسلامي، علىٰ سبيل المثال، يُفسَّر، في بعض الحالات، علىٰ أنه مجرّد تنويع في اليَمْبوس يولَج إليه عبر جسرٍ يمرّ فوق الجحيم، يرتكز أحد طرفيه علىٰ حافّة السماء وطرفه الآخر علىٰ جبلٍ يحتلّ مركز الأرض. وتجتاز النفوس هٰذا الجسر بسرعة تتناسب وتبرّتها وما قدّمتْ من أعمالٍ صالحة. وهناك نفوسٌ أخرىٰ، رجحت كفّة سيّئاتها، تهوي، في إحدىٰ لحظات الاختبار، إلىٰ الجحيم. ومع مرّ الزمن، حوّل بعض الشرّاح المسلمين الجسر إلىٰ درب، سراط، سبيل أو ممرّ زلق، وعادت هٰذه الفكرة الأخيرة إلىٰ الظهور في مَطْهر دانتي، وبقيت، في قائمة أسماء

المواقع الإسبانيّة، بصيغة "جسر محمّد"، التي يومًا بها إلىٰ المعبر الخطر الذي يُفضي إلىٰ "قمّة انيتو".

وتخضع ألوان العذاب المؤقّت في المَطْهر، مثلُها مثلُ ألوان العذاب الأبديّ في الجحيم، لقانون "العينيّة **contrapasso**" [العين بالعين...]. ففي الجحيم، يُعاني السارق من قطع يديه كلتيهما، ويُعذَّب الزناةُ في أعضائهم التناسليّة؛ واللوطيّون تُنفخ النار في شروجهم، وتخرج ألسنة اللهب من فتحاتهم الأخرىٰ كلِّها، أي من أنوفهم، وعيونهم، وأفواههم... إلخ. وأمّا في المَطْهر فتبدو العقوبات ملطَّفة، ولٰكنها تحتفظ بشيء من التماثل مع عقوبات الجحيم. وكلّما صَعِدت النفوس في اتّجاه جنّة عَدْن، ازدادت الطريق سهولةً، مُفضيةً في نهاية المطاف إلىٰ روضةٍ رائعة، تقع علىٰ قمّة المَطْهر، لا يُمكن القول فيها أنها روضةٌ أرضيّة أو غير أرضيّة، ينساب فيها نهران تستحمّ فيهما النفوس، وتتطهّر، كي تدخل عالم السماء.

إلىٰ هٰذا الحدّ يتماثل وصف المواقع وتسلسُل المشاهد، في كلٍّ من عالم المَعاد الإسلامي وعالم المعاد عند دانتي (المَطْهر: ٢٨):

> «*تُصوّر الروضة بالوسائل البلاغيّة ذاتها، من الوَرْد، والجوّ العبق، وأنغام الطيور الصدّاحة، والمناخ اللطيف، والنسيم العليل... إلخ. ولتطهير النفوس نهران، لا أكثر ولا أقلّ، بينما يبلغ عددها أربعةً في الجنّة التوراتيّة [...] وتستحمّ النفس أيضًا في النهرين اللذين، فضلًا عن ذٰلك، تُشرَب مياههما. كما أنّ تأثيرات التطهّر المزدوج بالاستحمام متماثلة: محو كلّ أثرٍ بدنيٍّ ومعنويٍّ للخطيئة، وإنعاش الروح...*».

ويطرح مشهد اللقاء ببياتريث مشكلاتٍ كبرىٰ، إذ نجد ملامحه في القَصص الإسلامي الذي يؤكّد أنّ للأبرار في حياتهم، عروسًا سماويّةً تنتظرهم، وعند الاقتضاء تُعاتبهم علىٰ أفعالهم وغراميّاتهم الأرضيّة، مثلما فعلت بياتريث مع دانتي (المَطْهر، ٣٠ و٣١). ويُعتبر ظهورها، وسط موكبٍ من الملذّات الحسّيّة، المفرطة في حسّيّتها بالنسبة إلىٰ أعراف القرون الوسطىٰ المسيحيّة الغربيّة، دليلًا علىٰ وجود

أصلٍ إسلامي أيضا. فالقول، إذن، بأنّ علينا أن نُسلِّم بهذا الصنف من الرُّؤى في حقيقته الفجّة، حسبما يؤكّد تقليديًّا، وذلك بهدف إبراز الاختلافات القائمة بين المكافآت المادّيّة الخاصّة بالفردوس الإسلامي والمكافآت الأخرى الروحيّة التي تُميِّز الفردوس المسيحيّ، إنما هو قولٌ قابل لكثيرٍ من النقاش، لأنّ التأويلات، في كلٍّ من الديانتين، على حدّ سواء، متوافرةٌ في كلا المنحيَيْن. فلئن كانت هناك في الإسلام أحاديثُ تُؤوِّل علاقة الأبرار بحوريّاتهم تأويلًا مجازيًّا، فليس بأقلّ يقينًا أنّ القدّيس إفرين، في العالم المسيحي، قد أيّد الرأي النقيض.

وفي المقابل، نجد أنّ تحديد بنية الفردوس السماويّ، وفقًا للسماوات البطليموسيّة التسع، ذو أصلٍ إسلامي، وأنّ السابقات القديمة نادرةٌ جدًّا (أوريجينس، القدّيس إفرين)، حتّى لا نقول إنها معدومة. ولدواعٍ تتعلّق بالتناظر، تجعل الرواياتُ الإسلاميّة موقعَ هذا الفردوس قبالة القدس: «*لو سقط حجر من الجنّة ـ فيما تقول رواية تُعزى إلى كعب الأحبار ـ لوقع يقينًا على صخرة الهيكل بالقدس*». ويرى دانتي أنّ الدوائر وحيدةَ المركز، التي تنتظم بموجبها المجالسُ المتراتبة التي يقيم فيها الأبرار، تُشبه أوراق وردة. ويذهب ابن العربي إلى أنّ ما يُحدِّد مختلف مقامات النعيم هو أغصانُ شجرةٍ ـ شجرة النعمة ـ مقلوبةٍ، بعكس أشجار هذا العالم، جذورُها في السماء الأخيرة، وأغصانها نحو الأسفل. فالوردة، والشجرة، بحكم وضع هذه الأخيرة الخاصّ وهي مقلوبة، تتّسمان، إذا ما نُظِر إليهما شاقوليًّا، بالنّسق ذاته في تتابع التيجان الدائريّة، تُشكّلان من ثَمّ عناصرَ وصفيّةً متماثلة. وكان من شأن الأمور أن تكون على هذا النحو، ما دام دانتي كان على علمٍ بالقصص المتعلّقة بشجرة السعادة (الفردوس، ١٨: ٢٨ـ٣٣):

في هذا الظلّ الخماسيّ للشجرة
التي تستمدّ الحياة من الكأس.
إنها مثمرةٌ على الدوام، ولا تفقد أوراقها أبدا.

وجزاء الأبرار أن ينعموا بتجلّي الذات الإلهيّة لبصرهم، بوصفها نورًا، النورَ

السرمديّ في ترنيماتنا الدينيّة. وهٰذا النور ـ بالرغم من إيماءةٍ مقتضبة ملتبسة التأويل ـ ما كان من شأنه أن يُسلِّمَ به بوصفه تعبيرًا عن السعادة الأبديّة، ما دامت الظواهر البصريّة كانت تُعتبر خادعة. ومن ثَمَّ، يرجع الفضل ـ في دخول هٰذه الفكرة إلىٰ العالم المسيحي ـ للتأثير الإسلامي، حسبما يعترف بذٰلك القدّيس توما نفسه، مستشهدًا في هٰذا الصدد بالفارابي وٱبن سينا وٱبن باجه وٱبن رُشد.

ويُبيِّن تتبُّع هٰذه الفكرة في الغرب أنّ الطليطلي ٱبن عيشون (ت ٣٤١هـ/ ٩٥٢م) كان قد شبّه رؤية وجه الله، كما لو أنّ الأمر يتعلّق برؤية الشمس والقمر عندما يتراءىٰ هٰذان الكوكبان في سماءٍ صافية. وبعد ذٰلك التاريخ بثلاثة قرون، أكّد [الإمام] القرطبيّ أنّ النور السرمديّ، حتّىٰ بعد كلّ رؤيةٍ حقيقيّةٍ للذات الإلٰهيّة، يستمرّ مسيطرًا في نفس الأبرار الذين يتلقّونه، بشدّةٍ تتناسب وحسناتِ أعمالهم. وهناك أحاديث تَنسِب إلىٰ بعض الأجسام ـ وخاصّةً أجسام النساء ـ هبة الشفافيّة، كما لو كان الأمر يتعلّق بالبَلُّور، أو الأحجار الكريمة، حسبما يؤكّد في المَطْهر: (٢٩، ١٢٤ـ١٢٦):

وأمّا الثانية، فلكأنّ لحمها وعظمها
قد قُدَّا من زُمُرُّد
وأمّا الثالثة، فبدت كالثلج الغضّ

وفي الفردوس (٣١: ١٩ـ٢٤):

في المجال الأعلىٰ، فيما فوق الوردة،
لم تكن جحافل الغمام المجنّح
لتحول بيني وبين رؤية البهاء في السمٰوات
لأنّ النور الإلٰهي يسري في الكون،
لكلّ ما هو أهلٌ له،
فلا يحول دونه حائل

من هنا الاعتقاد بوجود أجسامٍ لا ظلّ لها، كجسم محمّد، قبلًا، في هٰذه الحياة، أو كجسم فرخيليو (المَطْهر، ٣: ١٦ـ٣٠).

ويصف دانتي، لدىٰ وصوله إلىٰ السماء السادسة، سماء جوبيتر (الفردوس، ١٨ــ١٩)، النسر المكوّن من نور النفوس المصطفاة:

كانت تتراءىٰ أمامي، مبسوطةَ الجناحين،
الصورة الجميلة المتمتّعة بالعذوبة
صورة النفوس التي ٱلتأم شملُها
كلّ واحدةٍ كانت تبدو كياقوتةٍ صافية
وكانت أشعّة الشمس تتوهّج فيها أيّما توهّج
فكانت تعكس ألَقَها في حدقتيّ

ولهٰذا النسر نظيرٌ يتمثّل في الديك العملاق الذي نجده في [أدبيّات] علم المَعَاد الإسلاميّ، والذي يخفُق بجناحيه عندما يترنّم بأناشيده الدينيّة تسبيحًا بحمد الله. ويُعتبر هٰذا الديك وكأنه مَلَك، وكما يُقال لنا في الأساطير الورعة أنّ كثيرًا من هٰذه الكائنات مكوّنةٌ من «*مزيجٍ هائل من المناقير اللامتناهية والأجنحة اللامتناهية، بهيّةَ النور، صادحةً معًا بنغمٍ متوافق، بكلّ لسانٍ من ٱلسنتها التي لا تُعَدّ، بأناشيد دينيّة*»، وهناك ما يدعو إلىٰ الأفتراض بأنّ دانتي قد تبنّىٰ الفكرة المعروضة في هٰذه الروايات[9].

ولنا أن نقول الشيء ذاته بصدد المقطع التالي (الفردوس، ٣١: ١٣ــ١٥):

كلّ الوجوه كانت شعلاتِ لهبٍ متوقّد
الأجنحة من ذهب، والباقي ناصع البياض للغاية
فليس من ثلجٍ يبلغ بياضُه هٰذا الحدّ

وهو مشتقٌّ من الوصف الذي ورد ذكره في كتاب المعراج [المترجَم] حول مَلَك النار والثلج، وهٰذا، بدوره، في قسمٍ لا بأس به، ترجمةٌ أو نظيرٌ حرفيّ لنصّ القشيري.

ومن البدهيّ أنّ أوجه الشّبه القائمة بين علم المَعَاد الإسلاميّ و"الكوميديا الإلٰهيّة" هي أكثر بكثير، لكننا نعتقد أنّ ما عرضناه يكفي لإثبات تبعيّة هٰذه الأخيرة فكريًّا إلىٰ علم المَعَاد المذكور، وهي التبعيّة التي طرحها أسين بوصفها فرضيّة، وعزّزها

الاكتشافُ الحديث للنصوص التي ورد ذكرها قبل قليل. ومن ثَمّ، فإنّ تسرُّب هٰذه المعتقدات [الأدبيّات] الإسلاميّة إلىٰ العالم المسيحي، من خلال العمل الأدبي لدانتي، والعمل اللاهوتي للقدّيس توما، قد اكتسب بطاقةَ الجنسيّة، وذٰلك دون أن نُدخِل في الحساب، طبعًا، التأثيرَ الذي ولّده بصورةٍ مباشرة كتاب المعراج (الترجمة) بالذّات عند كثيرٍ من المفكّرين الغربيّين في القرن الثالث عشر والرابع عشر [٧ و٨ هـ]، والذي تتبّعه سيروللي ببراعةٍ في كتابه "بحوث جديدة..".

وليس يسري ذٰلك علىٰ المفكّرين جميعًا، وإن صحّ القول أنّ غالبيتهم العظمىٰ قد عوّلوا علىٰ الترجمة الألفونسيّة لـ"كتاب المعراج". وبوجه الدقّة، كانت قد تسرّبت، قبل هٰذه الترجمة، بعض تفاصيل إسراء محمّد ليلًا، وذٰلك من خلال كتاب "التاريخ العربي" لرودريگو اكسيمينث دي رادا، وفي وقت لاحق، في قلب عصر النهضة، ظهرت ترجمةٌ جديدة وموسّعة لكتاب المعراج، أنجزها الموريسكي، الكاهن القانوني لكاتدرائيّة برشلونة، خوان أندريس، وأصله من شاطِبة. وقد تُرجم كتابه "لُبس الفرقة المحمّديّة" *Confusión de la secta Mahomética* إلىٰ الإيطاليّة (١٥٧٣م [٩٨١هـ])، والألمانيّة (١٥٦٨ [٩٧٦هـ])، والفرنسيّة (١٥٧٤ [٩٨٢هـ])، والإنگليزيّة (١٦٥٢ [١٠٦٢هـ])، واللاتينيّة (١٦٠٠ [١٠٠٨هـ])، ومن ثَمّ، اعتَمَد عمليًّا جميعُ الكتّاب والمجادلين الأوروبيّين، الذين تناولوا موضوعة الحياة الأخرىٰ الإسلاميّة، حتّىٰ نشوء علم الاستشراق الحديث، علىٰ مصدرَين إسبانيّين، وأرسَوا عليهما ما قاموا به من دراسات.

ولم تقم طرق تسرُّب العقائديّات العربيّة إلىٰ الغرب، علىٰ النصوص المكتوبة وحسب، بل أيضًا علىٰ الانتقال الشفهي، ما دام من شأن كبار الكتّاب الإسبان ـ في القرنين الثالث عشر والرابع عشر [٧ و٨ هـ] ـ أن يُجيدوا اللغة العربيّة بلهجتها الأندلسيّة. وقد رأينا كيف أدخل خوان مانويل العديد من الحكايات وقصص العِبَر الإسلاميّة إلىٰ الأدب القشتالي. ولٰكن يبقىٰ علينا أن نُضيف أنّ هٰذا الأخير كان، علىٰ الأرجح، يتحدّث بهٰذه اللهجة، ولولا ذٰلك، لما كان أدرج في كتابه "الكونده لوكانور" جملًا مختلفة باللهجة العربيّة الأندلسيّة[15].

وتتّسم حالة رئيس كهنة [منطقة] هيتا ـ إن صحّ التعبير ـ بأهمّيّةٍ أكبر، بعدما حدّد إ. سايبث هويّته، ونجح، من ثَمّ، في وضع سيرة حياته؛ كان رئيس الكهنة هٰذا أبنًا غير شرعيٍ للنبيل البَلَنسي، آرياس گونثالث، سيّد آل ثيسنيروس. وقد لقيَ عدّة أفراد من أسرته، أمثال الجدّ رودريگو گونثالث، وعمّه خوان رويث، حتفهم في صراعهم ضدّ العرب، ووقع والده، العازب، في الأَسْر، وقضىٰ خمسًا وعشرين سنة في غرناطة. وقد أنعم عليه السلطان بمسيحيّةٍ أسيرة، علىٰ أن يحتضن الزوجان الأبناء الذكور، بينما تخضع البنات لوضع الجواري. ولأنه أتّفق أن أنجبا ستّة من البنين (الذكور) ـ كان ثانيهم خوان رويث، أو رودريگيث، هو رئيس الكهنة ـ لذٰلك أطلق السلطان سراحهم حوالي ١٣٠٥م [٧٠٥هـ]. وُلد مؤلّف كتاب "الحبّ الصالح" *Liber del Buen Amor* في قلعة لا ريئال **Alcalá la Real** ـ المدينة التي عرفها العرب بأسم "قلعة بني سعيد" ـ وكانت موطن شخصيّاتٍ كبيرةٍ في الأدب العربي، أمثال أفرادٍ عدّة من أسرة الشعراء المشهورة التي أعطتها هٰذا الأسم[11]. وقد تزوّج الأب، الذي أُطلق سراحه، بالسيّدة مينثيا دي مانثانيدو، ونذرت ذريّته السالفة، غيرُ الشرعيّة بحكم الظروف الخاصّة المشار إليها، نفسها للدين•.

فلا بدّ، إذن، أنّ رئيس كهنة [منطقة] هيتا مستقبلًا، كان يُجيد العربيّة بلهجة عصره، وليس بالمستغرب أبدًا أن يكون قد جمع إلىٰ هٰذه المعرفة معرفة اللغة العربيّة الفصحىٰ. ولئن كانت حكاية الثعلب، الذي يلتهم دجاجات الضيعة (١٤١٢ـ١٤٢٥)، ترجع بأصلها إلىٰ "السنتيپاس" الذي تُرجم من قبل، وكان مصدر إلهام في عصره، فإنّ مقاطع أخرىٰ من كتابه تَشِفّ عن معرفةٍ ملحوظة بالحضارة الإسلاميّة[12] وباللغة العربيّة. ولولا ذٰلك لما أمكننا أن نفسّر أطّلاعه علىٰ كتابٍ تصعب قراءته،

• يُلاحَظ أنّ الأسر الأندلسيّ، بقدر ما يَسَّر للمسوره الإسبانيّ في أمر الزواج والإنجاب، وزاد بأن أطلق سراح المنجِبين والمنجَبين، فإنه كان للكهنوت المسيحي وجهةُ نظره الخاصّة، تلك التي عَدّت المنجَبين أبناء غير شرعيّين!

مثل "طوق الحمامة في الألفة والألّاف"، الذي أستعان بالفصل الثاني منه ـ ومدارُه علامات الحبّ ـ الأطبّاءُ المسيحيّون، على الأقلّ حتّى القرن الثامن عشر، حيث يتبيّن أنّ الراهب جوزيف دي خيسوس ماريّا كان، في كتابه "مزايا فضيلة العفّة"، مطّلعًا أطّلاعًا غير مباشر على الكتاب المذكور. أمّا رئيس كهنة [منطقة] هيتا فقد نظم إحدى فقرات عمله نظمًا شبه حرفيّ:

يجعل الحبّ من الرجل الفظّ شخصًا مرهفًا
ومن الأخرس إنسانًا عذبَ اللسان وطليقَه
ومن الجبان شجاعًا من الشجعان
ويُحيل الخامل إلى نَشِطٍ نبيه
. . . .
*ويُضائل عند الشيخ العجوز كثيرًا من شيخوخته**

وربّما تكون قد تسرّبت إلى أدبنا [الإسباني]، عن هٰذا الطريق، الصيغة القائلة بنوعٍ من الحبّ** يولد بالوصف، وذٰلك كما وقع ـ فيما يبدو ـ للدون كيخوته عندما وقع في حبّ دولثينا ديل توبوسو.

وتجد الوسيطة تروتاكونثتوس، القوّادة (alcahueta، وهي كلمةٌ إسبانيّة مشتقّة من العربيّة)، أنّ ذنوبها قد غُفرت لحظة موتها، إذا سلّمنا بقول رئيس كهنة [منطقة] هيتا (١٥٧٠م):

* وهٰذه المعاني، وغيرها، عند أبن حزم هي:
من علامات الحبّ «أن يجود المرء ببذل كلّ ما يقدر عليه ممّا كان ممتنعًا به قبل ذٰلك... كلّ ذٰلك ليُبدي محاسنه ويُرَغّب في نفسه، فكم بخيلٍ جادَ، وقَطُوبٍ تطلّق، وجبانٍ تشجّع، وغليظِ الطبع تطرّب، وجاهلٍ تأدّب، وتَفِلٍ [الذي ترك أستعمال الطيب] تزيّن، وفقيرٍ تجمّل، وذي سنٍّ تفتّى، وناسكٍ تفتّك، ومَصُونٍ تبذّل».
"طوق الحمامة.." (الرسائل، إ. عبّاس)، ١، ١٠٥.

** أي: بالسماع: ... والأُذن تعشق قبل العين أحيانًا

يقينًا أنك تسكنين الفردوس
والشهداء في صحبتك
لقد كنتِ، في الدنيا، علىٰ الدوام،
مُضَحّيةً بنفسك في سبيل الله

وتصوّر هٰذه الأبيات الأعتقاد الواسع الأنتشار لدىٰ المسلمين الذين وصلوا إلىٰ حدّ التأكيد أنّ الأمر يتعلّق بحديثٍ مُفاده: «من احبَّ وعفَّ ومات، مات شهيدًا».

وثمّة موضوعةٌ أخرىٰ يبدو أنها أنتقلت إلىٰ رئيس كهنة [منطقة] هيتا بطريقةٍ غير مباشرة ـ كما يرىٰ ماشادو ـ وهي موضوعة مدح المال وذمّه، المتمثّلةُ في "المقامة الدينارية" للحريري*، وقد أدرجها في المقاطع ٤٩٠ـ٥١٣. ويصعب علينا أن نُسلِّم ـ نظرًا لما تتّسم به اللغة العربيّة التي كُتبت بها من صعوبة ـ أنه قرأ هٰذه المقامة علىٰ نحوٍ مباشر، ولٰكن هناك ما يحمل علىٰ الظنّ بأنه قد أُتيح له شخصيًّا، أو لأحد أصدقائه، الأطّلاعُ عليها من خلال أحد الشروح الجيّدة، مثل شرح الشريشي أحمد بن عبد المؤمن القيسي، لأنّ أجزاء من هٰذا الشرح قد أنتقلت، بكلّ تأكيد، إلىٰ الأدب القشتالي، ومنه إلىٰ آدابٍ غربيّة أخرىٰ. وإذا ما بدا لنا أنه عسيرٌ

* في هٰذه المقامة يُبْرِز "الحارث بن همّام" دينارًا لرجلٍ وقف به، «عليه سَمَلٌ وفي مِشيته قَزَل»، وقال له: «إن مدحتَهُ نَظْمًا، فهو لك حَتْما....» ثم... «جرّدتُ دينارًا آخر، وقلت له: "هل لك في أن تذمّه، ثمّ تضمّه؟"...».

فقال الرجل في المرّة الأولىٰ نظمًا أوّله [الرجز]:

أَكرِمْ به أصفرَ راقت صُفرتُهْ   جوّابَ آفاقٍ ترامت سَفْرتُهْ

وقال في الثانية ما مطلعه [الرجز]:

تبًّا له من خادعٍ مماذقِ   أصفرَ ذي وجهين، كالمنافقِ

الشريشي (أبو العبّاس، أحمد بن عبد المؤمن القيسي): "شرح مقامات الحريري"، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: المؤسّسة العربيّة الحديثة [١٩٦٩])، ١: ١٣١ـ١٥٧.

جدًّا، إن لم نقل من المستحيل، أن نجد في "كتاب الحبّ الصالح" بديلًا عن "المقامات"، ففي المقابل، يبدو أنه من الجليّ أنّ رئيس كهنة [منطقة] هيتا قد كتبه ـ كما فعل مؤلّفو المقامات ـ للمستمعين إليه أكثر ممّا هو للقرّاء. والعبارات، التي ترد بهٰذا الشأن متناثرةً في كتابه ولا سيّما في مستهلّه، واضحةٌ: «*فَلْيَنسَ أولٰئك الذين يستمعون إليه، إلىٰ أن يستمدّوا منه المتعة*»؛ «*إذا أردتم، أيها السّادة، أن تستمتعوا حقًّا في الاَستماع فأَصغوا للقصّة، مُخْلِدين إلىٰ الراحة*». (المقطعان ١٢، ١٤ وما يليهما). وقد برّر ما يُوفّر من متعة، مشيرًا في المقدّمة ـ مثلما يفعل اَبن حزم في الفصل الحادي عشر الذي أفرده للوسيطات ـ إلىٰ الطابع الأخلاقي الذي أضفاه علىٰ كتابه (سواء أكان ذٰلك عن رياء أو صدق، فليس يهمّنا هنا أن نعرف ما دار في فكره حقًّا، وإنما ما ترك من مادّة مكتوبة)، وذٰلك كما يلي: «*والله يعلم أنّ مقصدي لم يكن أن أؤلّفه لإعطاء طريقة في الإثم، ولا لقول السوء، وإنما بالأحرىٰ لدفع كلّ شخصٍ حسن الذكر إلىٰ أن يعمل صالحًا، وأن يكون قدوةً في العادات الحسنة*».

وقد دخلت حكاياتٌ شعبيّة عربيّة إلىٰ الأدب الإسبانيّ، ومن خلاله إلىٰ الآداب الأوروبيّة الأخرىٰ، مثل حكاية "الدار التي لا يؤكل ولا يُشرب فيها أبدا" للازاريّو. ونذكر بهٰذا الصدد "المقامة البغداديّة"، وهي المقامة الثانية عشرة للهمذاني، التي ثبت اَنتقالها باَتّجاه الغرب، لأنّ [الشاعر] اليهودي [يوراي] الحريزي قلّدها مستنسِخًا إيّاها، ثمّ ظهرت ثانيةً في العمل المسمّىٰ "حياة ماركوس دي أوبريگون" (١: ٩) ـ ويجدر بنا أن ننوّه، وإن كان ذٰلك عرضًا، بأنّ كلمة descanso (راحة، قرار) في هٰذا العمل، التي يُشار بها إلىٰ الفصول المختلفة فيه، لها المدلول ذاته الذي لكلمة "مقامة" في العربيّة ـ وفي "مغامرات جيل بلاس دي سانتيّانا" (١، ٢)... إلخ. ولٰكن أكثر الأعمال مدعاةً للاَهتمام، هو نصٌّ للشريشي يتعلّق بتنظيم الصعاليك في رابطات. ولا سبيل أمامنا سوىٰ أن نربط بينه وبين

"بوسكون" (أي طالب معيشة بالحرام) (٣: ١ـ٣) لِگَڤيدو. وهو يستحقّ أن نورده هنا:

«فمن ذٰلك ما يُحكىٰ عن بشّار الطُّفَيْليّ، أنه قال:

«رحلتُ، يومًا، إلىٰ البصرة. فلمّا دخلتُها قيل لي إنّ هنا عريفًا للطفيليّين، يَبَرّهم ويكسوهم ويُرشدهم إلىٰ الأعمال ويُقاسمهم. فسرتُ إليه، فبَرّني وكساني، وأقمتُ عنده ثلاثة أيّام، وله جماعةٌ يَصيرون إليه "بالزلّات"، فيأخذ النصف ويُعطيهم النصف. فوجّهني معهم في اليوم الرابع. فحصلتُ في وليمة، فأكلتُ، وأزللتُ معي شيئًا كثيرًا وجئتُه به. فأخذ النصف وأعطاني النصف، فبعت ما وقع لي بدراهم.

«فلم أزل علىٰ هٰذه الحالة أيّامًا.

«ثمّ دخلتُ، يومًا، علىٰ عرسٍ جليل، فأكلتُ، وخرجت بزلّةٍ حسنة. فلقيني إنسانٌ، فاشتراها بدينار، فأخذتُه وكتمتُه وكتمت أمرها.

«فدعا جماعةً من الطفيليّين، فقال: "إنّ هٰذا البغدادي قد خان، فظنّ أني لا أعلم ما فعل، فاصفعوه وعرّفوه ما كَتَم!".

«فأجلسوني، شئتُ أم أبَيْت. وما زالوا يصفعونني واحدًا بعد واحد.

«فيصفعني الأوّل منهم، ويشمّ يدي، ويقول: "أكل مَضِيرة!"؛

«ويصفعني الآخر ويشمّ يدي، ويقول: "أكل كذا"؛

«ويصفعني الآخر... حتّىٰ ذكروا كلّ شيء أكلتُه، ما غلطوا بشيءٍ منه!

«ثمّ صفعني شيخٌ منهم صفعةً عظيمة، وقال: "باع الزلّة بدينار!"؛

«وصفعني آخر، وقال: "هاتِ الدينار!"؛

«فدفعتُه إليه. وجرّدني الثيابَ التي أعطانيها، وقال: "اُخرجْ، يا خائن، في غير حفظ الله!".

«فخرجتُ إلىٰ بغداد، وحلفتُ أن لا أُقيم ببلدٍ فيه طُفَيْليّةٌ يعلمون الغيب!»*.

لا مجال للشكّ في أنّ "كتاب الحبّ الصالح" ـ الذي كان تشوسر** علىٰ علم به بوجه التأكيد ـ كتابُ سيرةٍ ذاتيّة جرىٰ البحث عن أصوله علىٰ حدّ سواء في كلّ من العالم المسيحيّ والإسلامي. ومن هٰذه الناحية كان لا بدّ أن يُعوّل البحّاثون علىٰ النصوص التي كانت في متناولهم، وبوجه التحديد أعمال ابن حزم، دون أن يتمكّنوا من الوصول إلىٰ أيّة نتيجةٍ بهٰذا الصدد. ولٰكن ليس من نافلة القول أن نُشير إلىٰ أنّ السيرة الذاتيّة ـ أو علىٰ الأقلّ: مزجَ العرض الموضوعي بلمساتٍ شخصيّة وذاتيّة ـ موضوعٌ مطروق مشترك ليس في النصوص الأدبيّة العربيّة وحسب، بل في النصوص العلميّة أيضًا، حيث لا يتردّد مؤلّفوها، مثلًا، بأن يَصِفوا فيها بالتفصيل البواعث النفسيّة التي دفعتهم إلىٰ الاهتمام بموضوعةٍ معيّنة. وتصِحّ هٰذه الملاحظة بالنسبة إلىٰ الشرق والغرب جميعا. وقد شكّل التقاء التيّار المسيحي بالتيّار الإسلامي، في إسبانيا، حائلًا منع من أن نُميّز، بوضوح، تغلُّبَ أحدهما علىٰ الآخر، فنُحدّد، مثلًا، ما إذا كانت الملاحظات المتعلّقة بالسيرة الذاتيّة للدون سيم توب دي كاريّون، أو

* الشريشي، "شرح مقامات الحريري البصري"، تحقيق محمّد عبد المنعم خفاجي، (بيروت: المكتبة الثقافيّة [١٩٥٢])، ٢، ٧٥ و٧٦.

والزَّلّة، السقطة والخطيئة، ولٰكنها أيضًا، عند الفيروز أبادي، اسم لما تَحْمِل من مائدة صديقك أو قريبك، عراقيّة أو عاميّة.

وخَصَل الشيء، قطعه.

والمَضِيرة، ما يُطبخ باللبن المَضِير، أي الذي حَمُض وابيضّ.

** الشاعر الإنكليزي جيوفري تشوسر (١٣٤٠ـ١٤٠٠م)، مؤلّف حكايات كانتربري، ذات الأثر البارز في الأدب الإنكليزي في العصور الوسطىٰ، وفيها يظهر تأثّره بألف ليلة وليلة. وقد نَقَل بعض حكاياتها.

تلك المتعلّقة بكتاب "الأخبار" لخايمه الأوّل، خاصّةً بمؤلّفين مُتَأَسْلِمين، أو، بالأحرىٰ، خاصّةً بمؤلّفين تأثّروا، تقريبًا، بالتيّارين الثقافيّين اللذين كانا يتعايشان في شبه الجزيرة الإيبيريّة.

ولا بدّ أنّ الأدب الغربي يَدين، علىٰ الأرجح، للأندلسيّين بالأنماط الحديثة المتمثّلة في شخصيّة "الوسيطة"، وشخصيّة "دون خوان". فالأولىٰ لها ما يُماثلها من سماتٍ في "طوق الحمامة" وعند رئيس كهنة [منطقة] هيتا. وقد أعدّ گارثيا گوميث كشفًا بها. فهٰذا الأخير يصف الوسيطة كما يلي:

فلتكن المرأة، التي تُرسلها، إحدىٰ قريباتك

فإنْ لم تكن عندك قريبة، فعليك بإحدىٰ هٰؤلاء العجائز
اللواتي يتردّدن علىٰ الكنائس، ويعرفن الأزقّة،
وتُطَوِّقُ السُّبَحُ رقابَهنّ، ويعرفن كثيرًا من الحكايات الخرافيّة

آه! كم هنّ خبيراتٌ بالشرّ... أولٰئك العجائز الخبيثات!

عليك بإحدىٰ هٰؤلاء العجائز اللواتي يَبِعْنَ الأعشاب
بمساحيقهنّ، وحُمْرتهنّ، وكُحْلِهنّ

كانت بائعةً متجوّلةً عجوزًا، من اللواتي يَبِعْنَ الحُليّ

تتّسم هٰذه الشخصيّة الوسيطة، علىٰ مستوىٰ علاقة الحبّ، بمعالمَ واضحةٍ محدّدة في الأدب العربي، حسبما يتبيّن لمن يقرأ "ألف ليلة وليلة" أو الحكايات العربيّة في القرون الوسطىٰ ممّا قبل القرن الثالث عشر [٧ هـ]، حيث يرد ذكر هٰذه الشخصيّة. ونقع علىٰ هٰذه أيضًا في الأدب العربي الحديث.

ويقوم أصل الأنموذج الثاني، أي دون خوان، علىٰ تصوُّرٍ تأويليٍّ لفقرةٍ معيّنة من الفصل الحادي والعشرين في "طوق الحمامة"، فبعدما يعرض ابن حزم، في هٰذه الفقرة، آراءه حول القطيعة الناشئة عن السأم، يستشهد بأنموذج يُمثّلها، وهو نبيلٌ

قرطبيٌ من أهل عصره، اسمه "أبو عامر محمّد بن عامر"[13]. يقول ابن حزم: «ولقد

كان أبو عامر يرىٰ الجاريةَ فلا يصبر عنها، ويَحيق به من الاغتمام والهمّ ما يكاد أن يأتي عليه حتّىٰ يملكها، ولو حال دون ذٰلك شوك القتاد، فإذا أيقن بتصيُّرها إليه عادت المحبّةُ نِفارًا، وذٰلك الأنسُ شُرودًا، والقلقُ إليها قلقًا منها، ونزاعُه نحوها نزاعا عنها، فيبيعها بأوكس الأثمان»*.

ومن البدهي أنّ "غزوات" دون خوان القرطبي لم تكن علىٰ هٰذا النحو، ما دامت الغزوات تحكمها عمليّاتُ شراءٍ بسيطة أو صفقةٌ تجاريّة، والفتاة المقتناة بهٰذه الصورة مجبرةٌ، بحكم الأعراف التي كانت سائدةً آنذاك، علىٰ أن تُصبح خليلة السيّد، إذا أراد هو ذٰلك. ولٰكن في شخصيّةٍ من نمط "أبي عامر محمّد" لا بدّ لنا من أن نفترض أنها كانت تُطارِد، أيضًا، النساء الحرائر، وأنّ هٰؤلاء كُنّ يُلاحِقْنَهُ، لأنّ ابن حزم يقول في وصف تقلُّب طبعه: «وأمّا إخوانه، فإنه تبدّل بهم في عمره ـ علىٰ

قِصَره ـ مرارًا، وكان لا يثبت علىٰ زِيٍّ واحدٍ كأبي بَراقِش، حينًا يكون في ملابس الملوك، وحينًا في ملابس الفُتّاك»**. ويقول، من جهة أخرىٰ، في وصف وسامته: «وأمّا حُسْنُ وجهه، وكمال صورته، فشيء تقف الحدود عنه، وتكِلُّ الأوهامُ عن وصف أقلّه، ولا يتعاطىٰ

* "طوق الحمامة.." (مكّي)، ١٠٤.

ويُضيف ابن حزم: «... وكان ـ رحمه الله ـ مع هٰذا، من أهل الأدب والحذق والذكاء والنبل والحلاوة والتوقّد، مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض»، ١٠٥.

وفي التعريف بهٰذا الشخص يقول المحقق الدكتور الطاهر أحمد مكّي: «يرد علىٰ الخاطر، للوهلة الأولىٰ، أنه المنصور بن أبي عامر! ولٰكن ذٰلك مستحيل، لأنّ المنصور توفّي [٣٩٢هـ] وعمر ابن حزم ثماني سنوات، وفي سنّ كهٰذه يستحيل أن يقصّ عليه الحكايات التي يوردها ابن حزم نقلًا عنه، وأرجح ـ علىٰ سبيل اليقين ـ أنه ابنٌ لعبد الملك المظفّر، أي أنه حفيد المنصور بن أبي عامر، وكان يحمل اسم جدّه»، ١٠٤ (الحاشية).

** "طوق الحمامة.." (مكّي)، ١٠٥.

أحدٌ وصفه. ولقد كانت الشوارع تخلو من السيّارة، ويتعمّدون الخُطُور علىٰ باب داره، [في الشارع الآخذ من النهر الصغير، علىٰ باب دارنا في الجانب الشرقيّ بقرطبة، إلىٰ الدرب المتّصل بقصر الزاهرة، وفي هٰذا الدرب كانت داره ـ رحمه الله ـ ملاصقةً لنا]، لا لشيء إلّا للنظر منه، [ولقد مات من محبّته جَوَارٍ كُنّ علّقن اوهامَهنّ به]...» .

تظهر هٰذه الشخصيّة مرّاتٍ عدّة في "طوق الحمامة". ويتبيّن ممّا يقوله لنا ٱبن حزم، أنها لم تكن شخصيّةَ مخنّثٍ، وإن كانت كذٰلك فبالمعنىٰ الذي وصفه مَرانْيون. وفضلًا عن ذٰلك، إن صحّت الهويّة التي ٱقترحها بشأنه ليفي بروفنسال، فلا بدّ لنا من أن نفترض أنها كانت أيضًا شخصيّةً مقدامة، لأنها شاركت مشاركةً تامّة في الحرب الأهليّة [الفتنة] التي أدّت إلىٰ إنهاء الخلافة [الأمويّة في الأندلس].

ولٰكنّ "طوق الحمامة" لا يتناول الحبّ الدنيوي إلّا بقصد معارضته مع الحبّ الإلٰهي، فالأوّل، الذي يتمّ تناوله علىٰ نحوٍ جدٌّ ممتع في القسم الأوّل من الكتاب، يرد ما يُعارضه في مديح الثاني، الذي يضع أمامنا أمثلةً عن النُّسّاك والناسكات في الإسلام، الذين كانوا قد تكاثروا في الأندلس خلال القرن الحادي عشر [٥ هـ]، وٱكتسبوا أهمّيّة كبرىٰ في القرنين الثاني عشر والثالث عشر [٦ و٧ هـ]. فليس بغريب، إذن، أن تظهر بعض عبارات الورع الدارجة الٱستعمال في اللغة العربيّة ـ مثل: *Dios solo me basta* [حَسْبي الله وحده] ـ منعكسةً في هٰذا النصّ، وأنّ خطوتها التالية نحو زُهّادنا ـ مثل القدّيسة تيريزا ـ لا تنطوي علىٰ قيمةٍ دلاليّة أكثر ممّا في عبارة **ojalá** [إن شاء الله]، أو **si Dios quiere** [إن شاء الله]، وفي جمل عاطفية عديدة أخرىٰ ٱكتسبت بطاقة الجنسيّة في لغات شبه الجزيرة الإيبيريّة .

أمّا التسرُّبات من الصنف الزُّهديّ ـ التصوُّفيّ، التي تمّت في القرن الثالث

• "طوق الحمامة.." (مكّي)، ١٠٥.

عشر [٧ هـ]، وكان لرامون يول فيها دورٌ بالغ الأهمّيّة، فتشكّل حالةً مختلفةً جدًّا. فلم يعد الأمر يتعلّق، هنا، بتسرُّبٍ متقطّع، بل كثيف، ولا أيضًا بتسرّب على مستوى المثقّفين، بل على المستوى الشعبي. ذٰلك أنّ يول كان على اتّصال بمتصوّفٍ له ما له من الأهمّيّة والشعبيّة مثل الشُشْتَري القادشي (٦١٠ـ٦٦٨هـ/ ١٢١٢ـ١٢٦٩م) أو أنه تأثّر تأثُّرًا مباشرًا به، والذي كان مثله، ومثل القدّيس فرانسيسكو، وابن العربي... إلخ، سليل أسرةٍ مرموقة، قد هجر الدنيا ليقف نفسه لله. وقد استمع يول إلى القصائد التي كان الصوفيّون، تلامذةُ ابن سبعين والششتري، يُنشدونها للدخول في غيبوبة، وحاول تقليدها في "كتاب الصديق والمحبوب"، مقتبسًا منها لازمة الخَرجة التي تتّخذ شكل تحاور: «ما علاقتي أنا بالناس؟ والناس... ما علاقتهم بي أنا؟». وقد حوّلها حسبما يلي:

ما أقلّ ما يهمّني هٰذا الأمر

والناس، ما عساهم أن يَغنُوا لي..

ولا بدّ أنه قد وصلت إلى أوروبة، في الحِقبة التاريخيّة ذاتها، التأثيراتُ الأولى للزُّهد الهنديّ في صيغته الجاينيّة، لأنها كانت معروفةً، من قبل، في سورية، في القرن الحادي عشر [٥ هـ]. فقد ورد عن مراسل لأبي العلاء المعرّي (٣٦٣ـ٤٤٩هـ/ ٩٧٣ـ١٠٥٨م) قوله له: «*الدليلُ، على أنك تأمّلتَ في الحياة الآتية، ماثلٌ في تقشُّفك: فأنت تمتنع عن تناول اللحوم والمشروبات والحليب، وعن اتّخاذ الملابس الفاخرة، حتّى لا تجعل من جسدك مقبرةً للحيوانات...*». ويفترض هٰذا التصرّف مسبقًا الاعتقادَ بأنّ ما نُلحِق بالحيوانات من تعذيب سيكون موضع عقاب، ممّا يستدعي منتهى التقشّف. وبُعيد ذٰلك التاريخ، ترجم الآمدي (ت ٦١٥هـ/ ١٢١٨م) إلى الفارسيّة أوّلًا ثمّ إلى العربيّة، كتاب "حوض الحياة"، بمساعدة يوگيٍّ دخل في الإسلام، باهوتشارا أو بهوجار. وقد عادت هٰذه المعتقدات إلى الظهور في وقتٍ لاحق متأخّر جدًّا عند المتصوّف الإسباني ديگو دي إستيّا (١٥٢٤ـ١٥٧٨م [٩٣٠ـ٩٨٦هـ]).

وثمّة انتقالٌ آخر من الصنف ذاته، وهٰذا أمرٌ مؤكّد، ولٰكنّ حلقات سلسلته غير معروفة بشكلٍ كامل، هو انتقال "رهان" پاسكال[14]، والذي يرد في كتابه "تأمّلات". والغاية منه إقناع غير المؤمنين بضرورة اتّباع الفضيلة، حتّىٰ لو افترضنا أنّ الحياة الأخرىٰ لا وجود لها، لأنّ المرء «*إن ربح، ربح كلّ شيء، وإن خسر، لم يخسر شيئًا*». وقد وردت هٰذه المحاكمة، من قبل، عند المعرّي نفسه، في بيتين من الشعر في "لزوم ما لا يلزم":

زعم المنجّمُ والطبيبُ كلاهما:	لا بعثَ للأجساد! قلتُ إليكما،
إن صحّ قولُكما فلستُ بخاسرٍ	أو صحّ قولي فالخسارُ عليكما!

وقد تناول الغزالي هٰذه الفكرة في "إحياء علوم الدين"، العملِ الذي سرق منه كلٌّ من يول ومارتي، ولٰكنّها لا تظهر في مؤلّفاتهما. ولا يجوز الظنّ بأنّ پاسكال قد توصّل إلىٰ فكرة الرهان من ذاته هو، لأنه يؤكّد: «*لا يقولنّ أحدٌ أني لم آتِ بجديد، فترتيب المواد جديد*»، وهو تأكيد ربّما انطوىٰ علىٰ مبالغة، ولٰكننا نجده أيضًا لدىٰ المؤلّفين الأندلسيّين، مثل يوسف بن الشيخ.

وتتّسم المعتقدات التي تبنّاها المتصوّفة الكرمليّون بأنها أكثر تماسكًا، ولٰكن سلسلة انتقالها غير مؤكّدة أيضًا، ونجدها، آنفًا، في مجموعة أفكار جماعة الطريقة الشاذليّة، والتي أثّرت أيضًا، ولنقل ذٰلك عرضًا، علىٰ رامون يول. وقد أشار أسين إلىٰ أوجه الشبه، ذات الدلالة، القائمة بين القدّيس خوان دي لاكروث [يوحنّا الصليبي] وابن عبّاد الرُّندي (٧٣٣-٧٩٢هـ/ ١٣٣٢-١٣٩٤م)، الذي قضىٰ القسط الأكبر من حياته بالمغرب، حين قُيِّض له أن يُصبح واعظًا في الجامع الكبير بفاس. وقد بلغت نقاط التوافق بين كليهما حدًّا فائقًا، حتّىٰ لينتفي الاعتقاد بأنها ناشئةٌ من لقاء [توارد] الخواطر. فابن عبّاد، حسب قول أحد شرّاحه، لدىٰ التأمّل في الجلالة الإلٰهيّة «*كان يعتبر نفسه أصغر من أصغر دويبة*». ونجد القول نفسه لدىٰ القدّيس خوان. وزهد كلاهما في الكرامات، وسكتا عمّا نالاه منها، لدرجة أنه عُرفت عن ابن عبّاد وحده، حالةٌ منفردة من حالات أهل الخطوة. فذات ليلة، انطلق إلىٰ الصلاة،

طائرًا من منزله إلىٰ المسجد. ويؤكّد مَن رآه في هٰذه الحال أنه كان يعبُر الفضاء، جالسًا في الفراغ، وساقاه معقودتان، وهو في حالٍ من الآنجذاب التامّ.

وقد عقد آبن عبّاد ـ مثله مثل خوان دي آڤيلا في العالم المسيحي بعد قرن من الزمان ـ مراسلاتٍ روحيّة واسعة مع مريديه، مقدِّمًا لهم إرشاداته حول ما كان ينبثق عندهم من أحوال روحيّة، وهم سالكون طريق الكمال. ومن هٰذه المراسلات، رسالةٌ موجّهةٌ إلىٰ شخصٍ مقيم في شاطِبة، المدينة التي كان قد آنقضىٰ عليها أكثر من مئة عام وهي في أيدٍ مسيحيّة.

ولا تشمل أوجهُ التشابه بين كلا المؤلِّفَين، المسلم والمسيحي، صعيدَ الأفكار وحسب، بل أيضًا صعيدَ المفردات بالذات، فعلىٰ النفس أن تتفرّغ، وتتعرّىٰ، وتتحرّر من كلّ شهوةٍ حسّيّة، وأن تقتل كلّ مبادرة لحرّيّة الآختيار، خاضعةً لله، مُفنِيةً ذاتها. وهٰذا ما يجعل المريد، المبتدئ، يسلك طريقًا متعرّجة ترقىٰ به من الأمل (السعة) إلىٰ الخوف وإلىٰ القلق (الضيق). ونَدين لأبي الحسن الشاذلي بالتمثيل علىٰ كلا الحالين بالليل والنهار، موليًا التفضيل لأوّلهما، مثله مثل القدّيس خوان دي لاكروث، بالرغم من أنّ ليل النفس يقتضي الحرمان من كلّ رفاهية محسوسة، من هنا نشأت قواعدُ مختلفةٌ صاغها كلاهما علىٰ نحوٍ موازٍ، علمًا بأنّ الغريب في الأمر أنّ أحد أمثلة التشبيه لدىٰ آبن عبّاد ـ أغنيةٌ لمتصوّفٍ مشرقيّ ـ لها ما يُماثلها إلىٰ حدٍّ كبيرٍ في المقطع الشعريّ التالي لأنّا دي خيسوس، تلميذة القدّيس خوان دي لاكروث:

> *مَن لا يعرف شيئًا عن العذابات*
> *في هٰذا الوادي الكئيب من الآلام*
> *لا يعرف شيئًا عن السعادة*
> *ولم يذق طعمًا للحبّ*
> *لأنّ العذاب، وشاحُ المحبّين*

ولهٰذه الأفكار نتيجةٌ، ألا وهي الزهد في طلب أيّ صنفٍ من الكرامات من

الله، وإذا ما مَنّ الله بها على المرء، فعليه أن يلتزم بالصمت، وأن يستبقيها مكتومةً في السرّ، على سبيل التواضع. ولكن، إذا ما زهد المرء في إنعام الله، فأحرى به أن يَستغني إلى أقصى حدّ عن كلّ ما هو مخلوق. ويعتبر هذا لدى القدّيس خوان دي لاكروث "تجرُّدًا"، "حرّيّةً"، "فراغًا"، "خروجًا من الأشياء"، وتتمثّل هذه في شروح ٱبن عبّاد لأقوال ٱبن عطا الله، بما يُعادلها في اللغة العربيّة من العبارات ذاتها (تجريد، حرّيّة، تفريق، خروج من الأسباب). ومن البدهيّ أنّ هذا "التخلّي" بين يدي الله ينطوي على خطر توليد التجرُّد والإشراقيّة، ولم تغب ملاحظة ذلك عن كلّ من هذين المتصوّفَين، اللذين بذلا كلّ ما في وسعهما لتفاديه.

إنّ أوجه التلازم مُفرطة، حتّى لا يُمكن ٱعتبارها وليدة المصادفة. وقد أشار أسين، بما له من حَدْسٍ معهود، إلى أنه لا بدّ لنا، نظرًا لعدم توافر أدلّةٍ قائمة على النصوص، من أن نفترض حدوث ٱنتقالٍ شفهيّ تمّ عن طريق الموريسكيّين الذين سِيم بعضهم - وكانوا متثقّفين بوجه العموم - في سلك الكهنوت، أو دخلوا في الدين [المسيحي]. ولم يُجلَوا قطّ عن إسبانيا، لأنّ وضعهم كان يُكسبهم حصانةً لم تتوافر لأخوانهم. وبعد ٱنقضاء أربعين عامًا على قيام أسين بطرح أفكاره، أصبح في وُسعنا أن نحكم عليها في قيمتها الحقّة، لأنّ مجموعةً حديثة من أطروحات الدكتوراه قد أثبتت وجود أدبٍ دينيّ موريسكي غزير، كُتب باللغة الرُّومنثيّة لكن بالحرف العربيّ، ظلّ مجهولًا عمليًّا حتّى الآن، وهناك ما يدعو إلى الأمل بأن نجد في ثناياه الحلقة التي تفسّر ٱستمرار بقاء الأفكار الشاذليّة في التصوّف الكرملي.

حواشي المؤلّف

1. "فهرسة الكتب العربيّة أو المتعلّقة بالعرب، الصادرة في أوروبة المسيحيّة من ١٨١٠ إلى ١٨٨٥"، تأليف ف. شوفان، (لييج ١٨٩٢ـ١٩٢٢).

2. راجع مقال أ. گنثالث بالنثيا "السوابق الإسلاميّة لأسطورة گارين"، مجلّة الأندلس، ١ (١٩٣٣)، صص ٣٥ـ٥٥.

3. راجع مقال إ. سيروللي "كليلة ودمنة وكتاب برلام ويوسافات الأثيوبي..."، المنشور في *JSS*، ٩، ١ (١٩٦٤)، صص ٧٥ـ١٠٠.

4. راجع دراسات م. إيبالثا الممتازة: "التحفة، سيرة ذاتية ومجادلة إسلاميّة ضدّ نصرانيّة عبد الله الترجمان (الراهب أنسيلم تورميدا)"، *AANL* (روما، ١٩٧١).

5. ترجمة ف. دي لاگرانخا "أصل عربي لحكاية إسبانيّة مشهورة"، مجلّة الأندلس، ٢٤، ٢ (١٩٥٩)، صص ٣١٩ـ٣٣٢.

6. راجع كتاب إ. گارسيا گوميث "نصّ عربي غربي [أندلسي] لأسطورة الإسكندر" (مدريد، ١٩٢٩).

7. مقال لـ إ. سيرولّلي "كتاب المعراج [الترجمة] *Libro della scala* ومسألة الأسس الأندلسيّة للكوميديا الإلهيّة" (ST ١٥٠، الفاتيكان، ١٩٤٩).

8. راجع كتاب المعراج للقشيري، ص ٤١.

9. راجع "علم المعاد..." لـ م. أسين، ص ٥٠ـ٥٣، وكتاب "المعراج" للقشيري، ص ٥٧.

10. راجع مقال أ. ر. نيكل "جُمَل عربيّة في الكونده لوكانور" المنشور في *HR*، ١٠ (١٩٤٢)، صص ١٢ـ١٧.

11. راجع كتاب گارثيا گوميث كتاب "رايات المُبَرِّزين" لأبن سعيد المغربي (مدريد، ١٩٤٢).

12. راجع مقالات خ. مارتينيث رويث "التقليد الأندلسي في كتاب الحبّ الصالح"، وخ .ألبارّاثين نافارو "الملابس والحلي الأندلسيّة في كتاب الحبّ الصالح"، وماركيث ڤيانوبغا "أصطلاحات عربيّة جديدة في فقرة من كتاب الحبّ الصالح (ab ٩٤١)"، المنشورة في وقائع المؤتمر الدولي الأوّل حول رئيس كهنة [منطقة] هيتا (برشلونة، ١٩٧٣).

13. لا يتعلّق الأمر بالمنصور المشهور، بل بواحد من أفراد أسرته تخضع هويّته للمناقشة، وذلك بحسب رأي سانتشيث ألبُرنوث، "أمام ترجمة لكتاب طوق الحمامة"، *CHE*، ١٨ (١٩٥٢)، صص ١٣٠ـ ١٥١.

14. راجع مقال م. أسين "السوابق الإسلاميّة لـ (رهان) پاسكال"، المنشور في *BBMP*، ٢ (١٩٢٠)، صص ١٧١ـ٢٣٢.

فهارس كتاب

فضل الأندلس على ثقافة الغرب

إعداد
سماء المحاسني

- فهرس الأعلام ،
- فهرس الكتب والبحوث ،
  باللغة العربية
  باللغات اللاتينية والإسبانية والفرنسية والإنكليزية ،
- فهرس الآيات القرآنية ،
- فهرس المُدُن والأماكن الجغرافية ،
- فهرس الأقوام والدُّوَل ،
- فهرس العلوم ،
- فهرس اللغات ،
- فهرس المجلّات ،
- فهرس المؤسسات الثقافية والعلمية .

تهدف هٰذه الفهارس إلىٰ مساعدة القارئ في الوصول إلىٰ معلومةٍ ما، سواء أكانت اَسمًا لعَلَم، أم عنوانًا لكتاب، أم اَسمًا لمدينة، أو ما شابه ذٰلك من المعلومات الواردة في متن الكتاب وفي الحواشي المضافة إليه.

ولهٰذه الغاية وضعتُ الفهارس التالية:

فهرس الأعلام؛

فهرس الكتب والبحوث (وتشمل، أيضًا، المقالات والخرائط والفهارس...) باللغة العربيّة، وآخر ببعض اللغات الأجنبيّة (اللاتينيّة، والإسبانيّة، والفرنسيّة، والإنكليزيّة)؛

فهرس الآيات القرآنيّة؛

فهرس المُدُن والأماكن الجغرافيّة؛

فهرس الأقوام والدُّوَل؛

فهرس العلوم؛

فهرس اللغات؛

فهرس المجلّات؛

فهرس المؤسّسات الثقافيّة والعلميّة.

ودَوَّنتُ، إلىٰ جانب كلّ مدخلٍ في هٰذه الفهارس، رقم الصفحة أو الصفحات التي يرد فيها ذكرُ هذا المدخل.

واتّبعتُ، في شأن أسماء الأعلام، قواعد الفهرسة المعمول بها:

يأتي الاَسم حسب الشهرة في الأسماء العربيّة القديمة (الرازي، البِيروني...)؛

وأمّا الأسماء العربيّة الحديثة، فيأتي فيها اسمُ الأسرة متبوعًا بالاسم الأوّل (الباشا، مهجة... عنان، محمّد عبد الله...)، فإن لم يكن ثمّة اسم شهرة أو اسم أسرة اعتمدتُ الاسم الأوّل (أحمد عيسىٰ... طٰه حسين...)

وأما الأسماء الإسبانيّة ــ وهي كثيرةٌ جدًّا ــ وسواها من الأسماء الأجنبيّة، فتأتي كما وردت في النصّ، إلاّ إذا اشتُهر المؤلّف بأحد الأسماء (ڤيرنيت، خوان... بَلاثيوس، ميكيل اسين/ او، اسين بَلاثيوس، ميكيل...).

وقد رتّبتُ المداخل في الفهارس ترتيبًا هجائيًّا حسب القواعد المتّبعة.

وتجدر الإشارة إلىٰ أننا عمدنا، في هٰذا الكتاب، إلىٰ استعمال حرف گ، علىٰ سبيل التجريب وقد أسعفتنا به الطابعة الحديثة، بديلًا عن حرف ج (كما ينطق في القاهرة وبعض مدن اليمن)، فكتبنا القدّيس أوگسطين، وأگادير، وإنگلترا... إلّا ما رأينا شيوع رسمه بحرف "الغَيْن" في القراءات العربيّة (أرسطوطاليس الإسطاغيري)، ولم يكن اتّباعنا لذٰلك مطّردا، وقد ساوينا بين هٰذا الحرف گ وبين الحرف ك، في الترتيب الهجائي، وكذٰلك بين الحرف پ P والباء العربيّة، وڤ V والفاء العربيّة.

س. م.

فهرس الأعلام

ابن

أبو

أ

ب

ت

ح

خ

ز

س

غ

ف

ق

ك

• كنّا صحّحنا، في الفصل الأوّل (ص ٤٥)، الاسم من "الكَرَجي Karaŷi" إلى "الكَرْخي"، أستنادًا إلى "أعلام" الزركلي (ط ١٩٨٠، ٦، ٨٣). ثمّ علمنا، ونحن في مرحلة إعداد الفهارس، أنّ المهندسة "بغداد عبد المنعم"، خرّيجة معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، نالت "جائزة تحقيق التراث"، من المنظّمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم ـ أليكسو (جامعة الدول العربيّة) للعام ١٩٩٧، عن تحقيقها كتاب "إنباط المياه الخفيّة"، وأكّدت أنّ أسم المؤلّف هو "الكَرَجي" (بالجيم).

ل

ن

فهرس الكتب والبحوث

ا. باللغة العربية

ب

ت

ث

ج

ز

س

ش

ص

ض

ط

ق

ك

ل

م

٢. باللغات الأجنبية

A

B

C

D

I

J

K

L

E

F

G

H

N

O

P

M

U

V

Y

Z

Q

R

S

T

فهرس الآيات القرآنيّة

فهرس المدن والأماكن الجغرافية

ت

ج

ح

ك

ل

م

ن

هـ

و

فهرس الأقوام والدول

فهرس العلوم

فهرس اللغات

فهرس المجلّات

١. المجلّات العربيّة

٢. المجلّات الأجنبيّة

فهرس المؤسسات الثقافية والعلمية

س ـ ك

م

المحتوى

كتاب
فضل الأندلس على ثقافة الغرب

الفصل الأول
مقدمة تاريخية

الفصل الثاني

معالم تراث العصور القديمة في العالم العربي

الفصل الثالث

تقنية الترجمة

الفصل الرابع

العلوم في القرنين العاشر والحادي عشر م [٤ و٥ هـ]

الفصل الخامس

العلوم في القرن الثاني عشر م [٦ هـ]

الفصل السادس

العلوم في القرن الثاني عشر م [٦ هـ]

الفصل السابع

العلوم في القرن الثالث عشر م [٧ هـ] وما تلاه

الفصل الثامن

العلوم في القرن الثالث عشر م [٧ هـ] وما تلاه

الفصل التاسع

العلوم في القرن الثالث عشر م [٧ هـ] وما تلاه

الفصل العاشر

الأندلسيون ... والفن والأدب

الفصل الحادي عشر

الأدب القصصي

فهارس كتاب
فضل الأندلس على ثقافة الغرب

نهـاد رضـا

أعماله الأدبية والفكرية

* دواوينه الشعريّة (دمشق، ١٩٧٢ـ١٩٧٦)،
- ميلاد شاعر • شِعر في لوحات • هكذا حدّثني القلب • الرّعشة الأولى
- موعدنا في القمر • ذابح المُلهِمات • هل يُحِبّني أنا؟ • احتجاب الفارس الأخضر
- أنا.. وأنتِ.. وقَوس قُزَح • البعد اللامنظور.

* روايته، منافسة في باريس (حلب ١٩٥٦، دمشق ١٩٧٨).

* من الأعمال التي نقلها عن الفرنسيّة إلى العربيّة (بيروت، ١٩٦١ـ١٩٦٦)،
- المواطن والدولة، روبير بيلّو • تيّارات الفكر الفلسفي، أندريه كريسّون
- النظريّة العامّة في الاقتصاد، جون م. كينز • الإنسان المتمرّد، ألبير كامو
- المشكلات الميتافيزيقيّة الكبرى، فرانسوا غريغوار • هيغل والهيغليّة، رينيه سيرّو
- الادّخار والاستثمار، بيار ـ ماري پراديل.

* ملحمته التي وضعها بالفرنسيّة (دمشق، ١٩٩٢ـ١٩٩٦، سبعة أجزاء)،

• *L'Épopée de l'Époque contemporaine*

(ملحمة العهد المعاصر)

Les Illuminations d'un derviche tourneur (إشراقات درويش مولوي)

Le Manifeste des temps humains (بيان الأزمنة الإنسانية)

L'ascension des néo-chevaliers (صُعُود الفرسان الجُدُد)

L'Appel de la Ville ouverte (نداء المدينة المفتوحة)

A l'ombre de la Sagesse (في ظلال الحكمة)

Le Jardin des Lumières (حديقة الأنوار)

Les Périples de l'esprit (رحلات الفِكر)

فاضل السباعي

أعماله القصصية والروائية

- الشوق واللقاء: قصص، حلب ١٩٥٨، دمشق ١٩٩٢
- حياة جديدة: قصص، بيروت، ١٩٥٩، ٦٤، دمشق ١٩٩٢
- مواطن أمام القضاء: قصص، القاهرة (سلسلة اقرأ) ١٩٥٩
- الليلة الأخيرة: قصص، القاهرة ١٩٦١
- نجوم لا تحصى: قصص، بيروت ١٩٦٢
- الظمأ والينبوع: قصة، بيروت، ١٩٥٩، ٦٤
- ثم أزهر الحزن: رواية، بيروت ١٩٦٣، دمشق، ١٩٩٠، ٩١
- ثريا: رواية، بيروت ١٩٦٣
- رياح كانون: رواية، بيروت ١٩٦٨
- حزن حتى الموت: قصص، بيروت، ١٩٧٥، ٨٠، ٨٣
- رحلة حنان: قصص، القاهرة (سلسلة اقرأ) ١٩٧٥
- الابتسام في الأيام الصعبة: قصص، تونس ١٩٨٣
- الألم على نار هادئة: قصص، دمشق، ١٩٨٥، ٩٠
- اعترافات ناس طيبين: قصص، دمشق ١٩٩٠
- الطبل: رواية، دمشق ١٩٩٢
- بصر الزمان: حكاية أسطورية، دمشق ١٩٩٢
- آه يا وطني: قصص، دمشق ١٩٩٦

صناعة الكتاب

بدمشق

التحضير الطباعي : مركز الفوال

☎ ٢٢٣ ٢ ٦١١

الطباعة : مطبعة دار الجمهورية

☎ ٢٢٢ ٣ ٥٥٦

التجليد : دار الشرق ، عبيدي

☎ ٢٢٣ ١ ٣٥٤

تمّ تنضيد وإخراج الكتاب في دار إشبيلية بدمشق على برنامج العربي للنشر